مختصر الميزان

في تفسير القرآن

[illegible]

الجزء الرابع

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

المجلد الرابع

الياس كلانتري

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

طباطبایی، محمد حسین، ۱۲۴۱-۱۳۶۰.
[المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده]
مختصر المیزان فی تفسیر القرآن / [محمدحسین الطباطبایی]؛ تألیف الیاس کلانتری. ـ تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات أسوه، ۱۳۷۹.
۶ ج.
ISBN 964-6066-02-x (دوره)
(ج. ۱) 964-6066-03-8 ISBN
(ج. ۲) 964-6066-04-6 ISBN
(ج. ۳) 964-6066-05-4 ISBN
(ج. ۴) 964-6066-06-2 ISBN
(ج. ۵) 964-6066-07-0 ISBN
(ج. ۶) 964-6066-08-9 ISBN
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی.
تفاسیر شیعه ـ قرن ۱۴. الف. کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ ـ، خلاصه کننده. ب. سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات أسوه. ج. عنوان. د. عنوان: المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده.
BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۲۹۷/۱۷۲۶
کتابخانه ملی ایران م۷۹-۵۸۷۹

۰۱۶۵۰

دار الأسوة للطباعة والنشر
ایران

مختصر الميزان في تفسير القرآن

إعداد: الياس كلانتري

الناشر: دار الأسوة للطباعة والنشر (التابعة لمنظّمة الأوقاف والشؤون الخيرية)
الطبعة: الأولى
سنة النشر: ۱۴۲۱ هـ.ق.
عدد المطبوع: ۵۰۰۰ دورة
ثمن الدورة: ۱۵۰،۰۰۰ ريال

شابک ج۴: ISBN 964-6066-06-2 | شابک دوره: ISBN 964-6066-02-x

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طهران: ص.ب. ۶۸۴/ ۱۳۱۴۵، هاتف ۶۴۱۸۲۹۹ و۶۴۱۸۰۹۹، تكس ۶۴۱۸۰۲۲
قم: ص.ب. ۳۷۱۸۵/۳۹۹۹، هاتف ۵۵۰۸۰ و۵۲۲۱۲، تكس ۶۱۷۷۵۷

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكهف مكية وهي مائة وعشر آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ۞ أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلىٰ عَبْدِهِ ٱلكِتابَ وَلَمْ يَجعلْ لَهُ عِوَجاً.

٢ ۞ قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً.

٣ ۞ مٰاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً.

٤ ۞ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللّٰهُ وَلَداً.

٥ ۞ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً.

٦ ۞ فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا ٱلحَدِيثِ أَسَفاً.

٧ ۞ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ

عَمَلاً .

٨ ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً .

بيان:

السورة تتضمن الدعوة الى الاعتقاد الحق والعمل الصالح بالإنذار والتبشير كما يلوح اليه ما افتتحت به من الآيتين وما اختتمت به من قوله تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾.

وفيها مع ذلك عناية بالغة بنفي الولد كما يدل على ذلك تخصيص إنذار القائلين بالولد بالذكر ثانياً بعد ذكر مطلق الإنذار أولاً أعني وقوع قوله: « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً » بعد قوله: « لينذر باساً شديداً من لدنه ».

فوجه الكلام فيها الى الوثنيين القائلين ببنوة الملائكة والجن والمصلحين من البشر والنصارى القائلين ببنوة المسيح ﷺ ولعل اليهود يشار كونهم فيه حيث يذكر القرآن عنهم أنهم قالوا: عزير ابن الله.

وغير بعيد أن يقال إن الغرض من نزول السورة ذكر القصص الثلاث العجيبة التي لم تذكر في القرآن الكريم إلا في هذه السورة وهي قصة أصحاب الكهف وقصة موسى وفتاه في مسيرهما الى مجمع البحرين وقصة ذي القرنين ثم استفيد منها ما استفرغ في السورة من الكلام في نفي الشريك والحث على تقوى الله سبحانه.

والسورة مكية على ما يستفاد من سياق آياتها وقد استثنى منها قوله: « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم » الآية ؛ وسيجيء ما فيه من الكلام.

قوله تعالى: ﴿ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجعلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً ﴾ العوج بفتح العين وكسرها الانحراف، قال في المجمع: العوج بالفتح فيما يرى

كالقناة والخشبة وبالكسر فيما لا يرى شخصا قائما كالدين والكلام. انتهى.

ولعل المراد بما يرى وما لا يرى ما يسهل رؤيته وما يشكل كما ذكره الراغب في المفردات بقوله: العوج ـ بالفتح ـ يقال فيما يدرك بالبصر سهلا كـالخشب المـنتصب ونحـوه والعـوج ـ بالكسر ـ يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة كما يكون في أرض بسيط يعرف تفاوته بالبصيرة وكالدين والمعاش انتهى. فلا يرد عليه ما في قوله تعالى: ﴿لا ترى فيها عوجا ـ بكسر العين ـ ولا أمتا﴾ (طه / ١٠٧) فافهم.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجعلْ لَهُ عِوَجاً﴾ الضمير للكتاب والجملة حال عن الكتاب وقوله: «قيماً» حال بعد حال على ما يفيده السياق فإنه تعالى في مقام حمد نفسه من جهة تنزيله كتابا موصوفا بأنه لا عوج له وأنه قيم على مصالح المجتمع البشري فـالعناية مـتعلقة بـالوصفين موزعة بينهما على السواء وهو مفاد كوّنهما حالين من الكتاب.

ووقوع «عوجا» وهو نكرة في سياق النفي يفيد العموم فالقرآن مستقيم في جميع جـهاته فصيح في لفظه، بليغ في معناه، مصيب في هدايته، حي في حججه وبراهينه، ناصح في أمره ونهيه، صادق فيما يقصه من قصصه وأخباره، اصـل فـيما يـقضي بـه، محـفوظ مـن مخـالطة الشياطين، لا اختلاف فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والقيم هو الذي يقوم بمصلحة الشيء وتدبير أمره كقيم الدار وهو القائم بمصالحها ويرجع اليه في امورها. والكتاب إنما يكون قيما بما يشتمل عليه من المعاني، والذي يتضمنه القرآن هو الاعتقاد الحق والعمل الصالح كما قـال تـعالى: ﴿يهـدي إلى الحـق وإلى طـريق مسـتقيم﴾ (الأحقاف / ٣٠). وهذا هو الدين وقد وصف تعالى دينه في مواضع من كتابه بأنه قيم قال: ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ (الروم / ٤٣) وعلى هذا فتوصيف الكتاب بالقيم لما يتضمنه من الدين القيم على مصالح العالم الإنساني في دنياهم واخراهم.

قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الصَّالِحاتِ ﴾ الآية ؛ أي لينذر الكافرين عذابا شديدا صادرا من عند الله كذا قيل والظاهر بقرينة تقييد المؤمنين المبشرين بقوله : « الذين يعملون الصالحات » أن التقدير لينذر الذين لا يعملون الصالحات أعم ممن لا يؤمن أصلا أو يؤمن ويفسق في عمله .

والجملة على أي حال بيان لتنزيله الكتاب على عبده مستقيما قيما إذ لولا استقامته في نفسه وقيمومته على غيره لم يستقيم إنذار ولا تبشير وهو ظاهر .

والمراد بالأجر الحسن الجنة بقرينة قوله في الآية التالية: « ماكثين فيه ابدا » والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ وهم عامة الوثنيين القائلين بأن الملائكة أبناء أو بنات له وربما قالوا بذلك في الجن والمصلحين من البشر والنصارى القائلين بأن المسيح ابن الله وقد نسب القرآن إلى اليهود أنهم قالوا : عزير ابن الله .

وذكر إنذارهم خاصة ثانيا بعد ذكره على وجه العموم أولاً بقوله : « لينذر بأساً شديدا من لدنه » لمزيد الاهتمام بشأنهم .

قوله تعالى: ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ كانت عامتهم يريدون بقولهم: اتخذ الله ولداً حقيقة التوليد كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ﴾ (الأنعام / ١٠١).

وقد رد سبحانه قولهم عليهم أولاً بأنه قول منهم جهلا بغير علم وثانياً بقوله في آخر الآية : « إن يقولون إلا كذباً ».

وكان قوله : « ما لهم به من علم » شاملا لهم جميعاً من آباء وأبناء لكنهم لما كانوا يحيلون العلم به الى آبائهم قائلين إن هذه ملة آبائنا وهم أعلم منا وليس لنا إلا أن نتبعهم ونقتدي بهم فرق تعالى بينهم وبين آبائهم فنفى العلم عنهم أولاً وعن آبائهم الذين كانوا يركنون اليهم ثانياً ليكون إبطالاً لقولهم ولحجتهم جميعاً .

وقوله : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » ذم لهم وإعظام لقولهم : اتخذ الله ولداً لما فيه من

عظيم الاجتراء على الله سبحانه بنسبة الشريك والتجسم والتركب والحاجة الى المعين والخليفة اليه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ البخوع والبخع القتل والإهلاك والآثار علائم أقدام المارة على الأرض. والأسف شدة الحزن والمراد بهذا الحديث القرآن.

والآية واللتان بعدها في مقام تعزية النبي ﷺ وتسليته وتطييب نفسه والفاء لتفريع الكلام على كفرهم وجحدهم بآيات الله المفهوم من الآيات السابقة والمعنى يرجى منك أن تهلك نفسك بعد إعراضهم عن القرآن وانصرافهم عنك من شدة الحزن، وقد دل على إعراضهم وتوليهم بقوله: على آثارهم وهو من الإستعارة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ الى آخر الآيتين. الزينة الأمر الجميل الذي ينضم الى الشيء فيفيده جمالاً يرغب اليه لأجله والصعيد ظهر الأرض والجرز على ما في المجمع - الأرض التي لا تنبت كأنها تأكل النبت أكلا.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر وكان من طبع الكلام أن يقال: «وإنا لجاعلوه، ولعل النكتة مزيد العناية بوصف كونه على الأرض.

٩ ● أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً.

١٠ ● إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً.

١١ ❁ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً.

١٢ ❁ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَداً.

١٣ ❁ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِـالحَقِّ إِنَّـهُمْ فِـتْيَةٌ آمَـنُوا بِـرَبِّهِمْ
وَزِدْنَاهُمْ هُدىً.

١٤ ❁ وَرَبَطْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ إِذ قَامُوا فَـقَالُوا رَبُّـنا رَبُّ السَّـمٰواتِ
وَٱلْأَرضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً.

١٥ ❁ هٰؤُلاءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَـوْلَا يَـأْتُـونَ عَـلَيْهِمْ
بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً.

١٦ ❁ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللّٰهَ فَـأْوُوا إِلَـى ٱلْكَـهْفِ
يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً.

١٧ ❁ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱليَمِينِ وإِذَا
غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذٰلِكَ مِـنْ
آيَاتِ ٱللّٰهِ مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ
وَلِيّاً مُرْشِداً.

١٨ ❁ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُـودٌ وَنُـقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْـيَمِينِ وَذَاتَ
ٱلشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَـلَيْهِمْ
لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً.

١٩ ❁ وَكَذٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَـمْ لَـبِثْتُمْ
قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْـلَمُ بِـمَا لَـبِثْتُمْ

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إِلَى ٱلمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكىٰ
طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاٰ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً.
٢٠ ● إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ
تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً.
٢١ ● وَكَذٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ
لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ
بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ
عَلَيْهِمْ مَسْجِداً.
٢٢ ● سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي
أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً
ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً.
٢٣ ● وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً.
٢٤ ● إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللّٰهُ وَٱذكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ
رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذَا رَشَداً.
٢٥ ● وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مَائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعاً.
٢٦ ● قُلِ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ
وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاٰ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ
أَحَداً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ الحسبان هو الظن، والكهف هو المغارة في الجبل إلا أنه أوسع منها فإذا صغر سمي غاراً، والرقيم من الرقم وهو الكتابة والخط فهو في الأصل فعيل بمعنى المفعول كالجريح والقتيل بمعنى المجروح والمقتول، والعجب مصدر بمعنى التعجب أريد به معنى الوصف مبالغة.

وظاهر سياق القصة أن أصحاب الكهف والرقيم جماعة بأعينهم والقصة قصتهم جميعاً فهم المسمون أصحاب الكهف وأصحاب الرقيم أما تسميتهم أصحاب الكهف فلدخولهم الكهف ووقوع ما جرى عليهم فيه.

وأما تسميتهم أصحاب الرقيم فقد قيل: إن قصتهم كانت منقوشة في لوح منصوب هناك أو محفوظ في خزانة الملوك فبذلك سموا أصحاب الرقيم، وقيل: إن الرقيم اسم الجبل الذي فيه الكهف، او الوادي الذي فيه الجبل او البلد الذي خرجوا منه الى الكهف او الكلب الذي كان معهم أقوال خمسة، وسيأتي في الكلام على قصتهم ما يؤيد القول الأول.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ الى آخر الآية؛ الاوي الرجوع ولا كل رجوع بل رجوع الإنسان أو الحيوان الى محل يستقر فيه أو ليستقر فيه والفتية جمع سماعي لفتى والفتى الشاب ولا تخلو الكلمة من شائبة مدح.

والتهيئة الإعداد قال البيضاوي: وأصل التهيئة إحداث هيأة الشيء. انتهى والرشد بفتحتين أو الضم فالسكون الاهتداء الى المطلوب. قال الراغب: الرشد والرشد خلاف الغي يستعمل استعمال الهداية. انتهى.

وقوله: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تفريع لدعائهم على أويهم كأنهم

اضطروا لفقد القوة وانقطاع الحيلة الى المبادرة الى المسألة. ويؤيده قولهم: «من لدنك» فلولا أن المذاهب أعيتهم والاسباب تقطعت بهم واليأس أحاط بهم ما قيدوا الرحمة المسؤلة أن تكون من لدنه تعالى بل قالوا: آتنا رحمة كقول غيرهم ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة﴾ (البقرة ٢٠١) ﴿ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ (آل عمران / ١٩٤) فالمراد بالرحمة المسؤلة التأييد اللإلهي إذ لا مؤيد غيره.

ويمكن أن يكون المراد بالرحمة المسؤلة من لدنه بعض المواهب والنعم المختصة به تعالى كالهداية التي يصرح في مواضع من كلامه بأنها منه خاصة. ويشعر به التقييد بقوله: «من لدنك». ويؤيده ورود نظيره في دعاء الراسخين في العلم المنقول في قوله: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة﴾ (آل عمران / ٨) فما سألوا إلا الهداية.

وقوله: ﴿وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ المراد من أمرهم الشأن الذي يخصهم وهم عليه وقد هربوا من قوم يتتبعون المؤمنين ويسفكون دماءهم ويكرهونهم على عبادة غير الله، والتجأوا الى كهف وهم لا يدرون ماذا سيجري عليهم؟ ولا يهتدون أي سبيل للنجاة يسلكون؟ ومن هنا يظهر أن المراد بالرشد الاهتداء الى ما فيه نجاتهم.

فالجملة أعني قوله: «وهيىء لنا من أمرنا رشداً» على أول الاحتمالين السابقين في معنى الرحمة عطف تفسير على قوله: «آتنا من لدنك رحمة» وعلى ثانيهما مسألة بعد مسألة.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ قال في الكشاف: أي ضربنا عليها حجاباً من أن تسمع يعني أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الاصوات كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال: بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبة. انتهى.

وقال في المجمع: ومعنى ضربنا على آذانهم سلطنا عليهم النوم، وهو من الكلام البالغ في

الفصاحة يقال: ضربه الله بالفالج ابذا ابتلاه الله به. قال قطرب: هو كقول العرب: ضرب الأمير على يد فلان إذا منعه من التصرف. قال الأسود بن يعفر وقد كان ضريراً:

ومن الحوادث لا أبالك أنني ضربت علي الارض بالأسداد

وقال: هذامن فصيح لغات القرآن التي لا يمكن أن يترجم بمعنى يوافق اللفظ انتهى. وما ذكره من المعنى أبلغ مما ذكره الزمخشري.

وهنا معنى ثالث وإن لم يذكروه: وهو أن يكون إشارة الى ما تصنعه النساء عند إنامة الصبي غالباً من الضرب على اذنه بدق الاكف او الانامل عليها دقاً نعياً لتتجمع حاسته عليه فيأخذه النوم بذلك فالجملة كناية عن إنامتهم سنين معدودة بشفقة وحنان كما تفعل الام المرضع بطفلها الرضيع.

وقوله: «سنين عدداً» ظرف للضرب. والعدد مصدر كالعد بمعنى المعدود فالمعنى سنين معدودة. وقيل بحذف المضاف والتقدير ذوات عدد.

وقد قال في الكشاف: إن توصيف السنين بالعدد يحتمل أن يراد به التكثير أو التقليل لأن الكثير قليل عنده كقوله: لم يلبثوا إلا ساعة من نهار. وقال الزجاج: ان الشيء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعد وإذا كثر احتاج الى أن يعد. انتهى ملخصاً.

وربما كانت العناية في التوصيف بالعدد هي أن الشيء إذا بلغ في الكثرة عسر عده فلم يعد عادة وكان التوصيف بالعدد أمارة كونه قليلاً يقبل العد بسهولة. قال تعالى: ﴿**وشروه بثمن بخس دراهم معدودة**﴾ (يوسف / ٢٠) اي قليلة.

وكون الغرض من التوصيف بالعدد هو التقليل هو الملائم للسياق على ما مر فإن الكلام مسرود لنفي كون قصتهم عجباً وإنما يناسبه تقليل سني لبثهم لا تكثيرها ومعنى الآية ظاهر وقد دل فيها على كونهم نائمين في الكهف طول المدة لا ميتين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ المراد

بالبعث هو الايقاظ دون الاحياء بقرينة الآية السابقة. قال الراغب: الحزب جماعة فيها غلظ. انتهى.

وقال: الأمد والأبد يتقاربان لكن الأبد عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حد محدود ولا يتقيد لا يقال: أبد كذا، والأمد مدة لها حد مجهول إذا أُطلق، وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا كما يقال: زمان كذا. والفرق بين الأمد والزمان أن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدء والغاية، ولذلك قال بعضهم: المدى والأمد يتقاربان. انتهى.

والمراد بالعلم، العلم الفعلي وهو ظهور الشيء وحضوره بوجوده الخاص عند الله، وقد كثر ورود العلم بهذا المعنى في القرآن كقوله: ﴿ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ (الحديد / ٢٥)، وقوله: ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ (الجن / ٢٨) واليه يرجع قول بعضهم في تفسيره: أن المعنى ليظهر معلومنا على ما علمناه.

وقوله: «لنعلم أي الحزبين أحصى» الخ؛ تعليل للبعث واللام للغاية والمراد بالحزبين الطائفتان من أصحاب الكهف حين سأل بعضهم بعضاً بعد البعث: قائلا كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم على ما يفيده قوله تعالى في الآيات التالية: «وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم» الخ.

وقوله: ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ فعل ماض من الاحصاء، و«أمداً» مفعوله والظاهر أن «لما لبثوا» قيد لقوله: «أمداً» وما مصدرية أي أيّ الحزبين عد أمد لبثهم وقيل: أحصى اسم تفضيل من الاحصاء بحذف الزوائد كقولهم: هو أحصى للمال وأفلس من ابن المذلق[1] وأمدا منصوب بفعل يدل عليه «أحصى» ولا يخلو من تكلف، وقيل غير ذلك.

ومعنى الآيات الثلاث أعني قوله: «إذ أوى الفتية» الى قوله: «أمدا» إذ رجع الشبان الى

---

١. مثل.

الكهف فسألوا عند ذلك ربهم قائلين: ربنا هب لنا من لدنك ما ننجو به مما يهددنا بالتخيير بين عبادة غيرك وبين القتل وأعد لنا من أمرنا هدى نهتدي به الى النجاة فأنمناهم في الكهف سنين معدودة ثم أيقظناهم ليتبين أي الحزبين عد أمداً للبثهم.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ﴾ الى آخر الآية؛ شروع في ذكر ما يهم من خصوصيات قصتهم تفصيلا. وقوله: «إنهم فتية آمنوا بربهم» أي آمنوا إيماناً مرضياً لربهم ولولا ذلك لم ينسبه اليهم قطعاً.

وقوله: «وزدناهم هدى» الهدى بعد أصل الإيمان ملازم لارتقاء درجة الإيمان الذي فيه اهتداء الإنسان الى كل ما ينتهي الى رضوان الله قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ (الحديد / ٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ إِذ قَامُوا فَقَالُوا﴾ الى آخر الآيات الثلاث؛ الربط هو الشد. والربط على القلوب كناية عن سلب القلق والاضطراب عنها. والشطط الخروج عن الحد والتجاوز عن الحق. والسلطان الحجة والبرهان.

وقوله: ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهاً﴾ بعد قوله: «ربنا رب السماوات والأرض» ـ وهو جحد وإنكار ـ فيه إشعار وتلويح الى أنه كان هناك تكليف إجباري بعبادة الأوثان ودعاء غير الله.

وقوله: ﴿إِذ قَامُوا فَقَالُوا﴾ الخ؛ يشير الى أنهم في بادىء قولهم كانوا في مجلس يصدر عنه الأمر بعبادة الأوثان والإجبار عليها والنهي عن عبادة الله والسياسة المنتحلية بالقتل والعذاب كمجلس الملك أو ملأه أو ملأ عام كذلك فقاموا وأعلنوا مخالفتهم وخرجوا واعتزلوا القوم وهم في خطر عظيم يهددهم ويهجم عليهم من كل جانب كما يدل عليه قولهم: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله فأووا إلى الكهف﴾.

وهذا يؤيد ما وردت به الرواية ـ وسيجيء الخبر ـ أن ستة منهم كانوا من خواص الملك

يستشيرهم في أموره فقاموا من مجلسه وأعلنوا التوحيد ونفي الشريك عنه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ الى آخر الآية: الاعتزال والتعزل التنحي عن أمر، والنشر البسط، والمرفق بكسر الميم وفتح الفاء وبالعكس وبفتحهما المعاملة بلطف.

هذا هو الشطر الثاني من محاورتهم جرت بينهم بعد خروجهم من بين الناس واعتزالهم إياهم وما يعبدون من دون الله وتنحيهم عن الجميع يشير به بعضهم عليهم أن يدخلوا الكهف ويتستروا فيه من أعداء الدين.

وقد تفرسوا بهدي الهي أنهم لو فعلوا ذلك عاملهم الله من لطفه ورحمته بما فيه جاتهم من تحكم القوم وظلمهم والدليل على ذلك قولهم بالجزم: ﴿فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته﴾ الخ؛ ولم يقولوا: عسى أن ينشر أو لعل.

ووهذا اللذان تفرسوا بهما من نشر الرحمة وتهيئة المرفق هما اللذان سألوهما بعد دخول لكهف إذ قالوا ـ كما حكى الله ـ ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً﴾.

والاستثناء في قوله: «وما يعبدون إلا الله» استثناء منقطع فإن الوثنيين لم يكونوا يعبدون الله مع سائر آلهتهم حتى يفيد الاستثناء إخراج بعض ما دخل أولا في المستثنى منه فيكون متصلا فقول بعضهم: إنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام كسائر المشركين. وكذا قول بعض آخر: يجوز إنه كان فيهم من يعبد الله مع عبادة الأصنام فيكون الاستثناء متصلا في غير محله، اذ لم يعهد من الوثنيين عبادة الله سبحانه مع عبادة الأصنام، وفلسفتهم لا تجيز ذلك، وقد أشرنا الى حجتهم في ذلك آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ الى آخر الآيتين: التزاور هو التمايل مأخوذ من الزور بمعنى الميل والقرض القطع، والفجوة المتسع من الأرض وساحة الدار والمراد بذات اليمين

وذات الشمال الجهة التي تلي اليمين أو الشمال أو الجهة ذات اسم اليمين أو الشمال وهما جهتا اليمين والشمال.

وهاتان الآيتان تمثلان الكهف ومستقرهم منه ومنظرهم وما يتقلب عليهم من الحال أيام لبثهم فيه وهم رقود والخطاب للنبي ﷺ بما أنه سامع لا بما أنه هو، وهذا شائع في الكلام، والخطاب على هذا النمط يعم كل سامع من غير أن يختص بمخاطب خاص.

فقوله: «وترى الشمس إذا طلعت تزوار عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه» يصف موقع الكهف وموقعهم فيه وهم نائمون وأما إنامتهم فيه بعد الاويّ اليه ومدة لبثهم فيه فقد اكتفى في ذلك بما أُشير اليه في الآيات السابقة ن إنامتهم ولبثهم وما سيأتي من قوله: «ولبثوا في كهفهم» الخ؛ إثاراً للإيجاز.

والمعنى: وترى أنت وكل راء يفرض اطلاعه عليهم وهم في الكهف يرى الشمس إذا طلعت تتزاور وتتمايل عن كهفهم جانب اليمين فيقع نورها عليه، وإذا غربت تقطع جانب الشمال فيقع شعاعها عليه وهم في متسع من الكهف لا تناله الشمس.

وقوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ الأيقاظ جمع يقظ ويقظان والرقود جمع راقد وهو النائم، وفي الكلام تلويح الى أنهم كانوا مفتوحي الأعين حال نومهم كالأيقاظ.

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي ونقلبهم جهة اليمين وجهة الشمال، والمراد نقلبهم تارة من اليمين الى الشمال وتارة من الشمال الى اليمين لئلا تأكلهم الأرض، ولا تبلى ثيابهم، ولا تبطل قواهم البدنية بالركود والخمود طول المكث.

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الوصيد فناء البيت وقيل: عتبة الدار والمعنى كانوا على ما وصف من الحال والحال أن كلبهم مفترش بذراعيه باسط لهما بفناء الكهف وفيه إخبار بأنهم كان لهم كلب يلازمهم وكان ماكثاً معهم طول مكثهم في الكهف.

وقوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ بيان

أنهم وحالهم هذا الحال كان لهم منظر موحش هائل لو أشرف عليهم الإنسان فر منهم خوفاً من خطرهم تبعداً من المكروه المتوقع من ناحيتم وملأ قلبه الروع والفزع رعباً وسرى الى جميع الجوارح فملأ الجميع رعباً. والكلام في الخطاب الذي في قوله: «لوليت» وقوله: «ولملئت» كالكلام في الخطاب الذي في قوله: «وترى الشمس».

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ الى آخر الآيتين التساؤل سؤال بعض القوم بعضاً. والورق بالفتح فالكسر: الدراهم، وقيل هو الفضة مضروبة كانت أو غيرها. وقوله: إن يظهروا عليكم أي إن يطلعوا عليكم أو إن يظفروا بكم.

والإشارة بقوله: «وكذلك بعثناهم» الى إنامتهم بالصورة التي مثلتها الآيات السابقة أي كما أنمناهم في الكهف دهراً طويلا على هذا الوضع العجيب المدهش الذي كان آية من آياتنا كذلك بعثناهم وأيقظناهم ليتساءلوا بينهم.

وقوله: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ دليل على أن السائل عن لبثهم كان واحدا منهم خاطب الباقين وسألهم عن مدة لبثهم في الكهف نائمين وكأن السائل استشعر طولا في لبثهم مما وجده من لوثة النوم الثقيل بعد التيقظ فقال: كم لبثتم؟

وقوله: «قالوا لبثنا يوماً او بعض يوم» ترددوا في جوابهم بين اليوم وبعض اليوم وكأنهم بنوا الجواب على ما شاهدوا من تغير محل وقوع الشمس كأن أخذوا في النوم أوائل النهار وانتبهوا في أواسطه أو أواخره ثم شكوا في مرور الليل عليهم فيكون مكثهم يوما وعدم مروره فيكون بعض يوم فأجابوا بالترديد بين يوم وبعض يوم وهو على أي حال جواب واحد.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي قال بعض آخر منهم رداً على القائلين: «لبثنا يوما أو بعض يوم»: «ربكم أعلم بما لبثتم» ولو لم يكن رداً لقالوا ربنا أعلم بما لبثنا.

وبذلك يظهر أن إحالة العلم الى الله تعالى في قولهم: «ربكم أعلم» ليس لمجرد مراعاة

حسن الأدب كما قيل بل لبيان حقيقة من حقائق معارف التوحيد وهي أن العلم بحقيقة معنى الكلمة ليس إلا لله سبحانه فإن الإنسان محجوب عما وراء نفسه لا يملك بإذن الله إلا نفسه ولا يحيط إلا بها وإنما يحصل له من العلم بما هو خارج عن نفسه ما دلت عليه الأمارات الخارجية وبمقدار ما ينكشف بها وأما الإحاطة بعين الأشياء ونفس الحوادث وهو العلم حقيقة فإنما هو لله سبحانه المحيط بكل شيء الشهيد على كل شيء والآيات الدالة على هذه الحقيقة لا تحصى.

والظاهر أن القائلين منهم: «ربكم أعلم بما لبثتم» غير القائلين: «لبثنا يوما أو بعض يوم» فإن السياق سياق المحاورة والمجاوبة كما قيل ولازمه كون المتكلمين ثانياً غير المتكلمين أولا ولو كانوا هم الأولين بأعيانهم لكان من حق الكلام أن يقال: ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا بدل قوله: «ربكم أعلم» الخ.

ومن هنا يستفاد أن القوم كانوا سبعة أو أزيد إذ قد وقع في حكاية محاورتهم «قال» مرة و «قالوا» مرتين وأقل الجمع ثلاثة فقد كانوا لا يقل عددهم من سبعة.

وقوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ من تتمة المحاورة وفيه أمر أو عرض لهم أن يرسلوا رسولا منهم الى المدينة ليشتري لهم طعاما يتغذون به والضمير في «أيها» راجع الى المدينة والمراد بها أهلها من الكسبة استخداماً.

وزكاء الطعام كونه طيباً وقيل: كونه حلالا وقيل: كونه طاهراً وروده بصيغة أفعل التفضيل «أزكى طعاما» لا يخلو من إشعار بالمعنى الأول.

والضمير في «منه» للطعام المفهوم من الكلام وقيل: للأزكى طعاماً و «من» للابتداء أو التبعيض أي ليأتكم من ذلك الطعام الأزكى برزق ترتزقون به، وقيل: الضمير للورق و «من» للبداية وهو بعيد لا حواجه الى تقدير ضمير آخر يرجع الى الجملة السابقه وكونه

ضمير التذكير وقد اشير الى الورق بلفظ التأنيث من قبل.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ التلطف إعمال اللطف والرفق وإظهاره فقوله: «ولا يشعرن بكم أحداً» عطف تفسيري له والمراد على ما يعطيه السياق: ليتكلف اللطف مع أهل المدينة في ذهابه ومجيئه ومعاملته لهم كي لا يقع خصومة أو منازعة لتؤدي الى معرفتهم بحالكم وإشعارهم بكم، وقيل المعنى ليتكلف اللطف في المعاملة وإطلاق الكلام يدفعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ تعليل للأمر بالتلطف وبيان لمصلحته.

ظهر على الشيء بمعنى اطلع عليه وعلم به وبمعنى ظفر به وقد فسرت الآية بكل من المعنيين والكلمة على ما ذكره الرغب مأخوذة من الظهر بمعنى الجارحة مقابل البطن فكان هو الأصل ثم استعير للأرض فقيل: ظهر الأرض مقابل بطنها ثم اخذ منه الظهور بمعنى الانكشاف مقابل البطون للملازمة بين الكون على وجه الأرض وبين الرؤية والاطلاع وكذا بينه وبين الظفر وكذا بينه وبين الغلبة عادة فقيل: ظهر عليه أي اطلع عليه وعلم بمكانه أو ظفر به أو غلبه ثم اتسعوا في الاشتقاق فقالوا: أظهر وظاهر وتظاهر واستظهر الى غير ذلك.

وظاهر السياق أن يكون «يظهروا عليكم» بمعنى يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم فانه أجمع المعاني لأن القوم كانوا ذوي أيد وقوة وقد هربوا واستخفوا منهم فلو اطلعوا عليهم ظفروا بهم وغلبوهم على ما أرادوا.

وقوله: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي يقتلوكم بالحجارة وهو شر القتل ويتضمن معنى النفرة والطرد، وفي اختيار الرجم على غيره من أصناف القتل إشعار بأن أهل المدينة عامة كانوا يعادونهم لدينهم فلو ظهروا عليهم بادروا اليهم وتشاركوا في قتلهم والقتل الذي هذا شأنه يكون بالرجم عادة.

وقوله: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ الظاهر أن الإعادة مضمن معنى الإدخال ولذا عدي بفي دون الى.

وكان لازم دخولهم في ملتهم عادة وقد تجاهروا برفضها وسموها شططاً من القول وافتراء على الله بالكذب ـ أن لا يقتع القوم بمجرد اعترافهم بحقية الملة صورة دون أن يثقوا بصدقهم في الاعتراف ويراقبوهم في أعمالهم فيشاركوا الناس في عبادة الأوثان والإتيان بجميع الوظائف الدينية التي لهم والحرمان عن العمل بشيء من شرائع الدين الإلهي والتفوه بكلمة الحق.

وهذا كله لا بأس به على من اضطر على الاقامة في بلاد الكفر والانحصار بين أهله كالأسير المستضعف بحكم العقل والنقل وقد قال تعالى: **﴿إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾** (النحل / ١٠٦) وقال تعالى: **﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾** (آل عمران / ٢٨) فله أن يؤمن بقلبه وينكره بلسانه وأما من كان بنجوة منهم وهو حر في اعتقاده وعمله ثم ألقى بنفسه في مهلكة الضلال وتسبّب الى الانحصار في مجتمع الكفر فلم يستطع التفوه بكلمة الحق وحرم التلبس بالوظائف الدينية الإنسانية فقد حرم على نفسه السعادة ولن يفلح أبداً قال تعالى: **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾** (النساء / ٩٧).

وبهذا يظهر وجه ترتب قول: «ولن تفلحوا إذا أبداً» على قوله: «أو يعيدوكم في ملتهم» ويندفع ما قيل: إن إظهار الكفر بالاكراه مع إبطان الإيمان معفو عنه في جميع الأزمان فكيف رتب على العود في ملتهم عدم الفلاح أبداً مع أن الظاهر من حالهم الكره هذا فانهم لو عرضوا بأنفسهم عليهم أو دلوهم بوجه على مكانهم فأعادوهم في ملتهم ولو على كره كان ذلك منهم تسبباً اختيارياً الى ذلك ولم يعذروا البتة.

وقوله تعالى: «بورقكم هذه» على ما فيه من الإضافة والإشارة المعنية لشخص الورق مشعر بعناية خاصة بذكرها فإن سياق استدعاء أن يبعثوا أحداً لاشتراء طعام لهم لا يستوجب بالطبع ذكر الورق التي يشترى بها الطعام والإشارة اليها بشخصها ولعلها إنما ذكرت في الآية مع خصوصية الاشارة لأنها كانت هي السبب لظهور أمرهم وانكشاف حالهم لأنها حين أخرجها رسومها ليدفعها ثمنا للطعام كانت من مسكوكات عهد مرت عليها ثلاثة قرون وليس في آيات القصة ما يشعر بسبب ظهور أمرهم وانكشاف حالهم إلا هذه اللفظة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ قال في المفردات: عثر الرجل يعثر عثرا وعثورا إذا سقط ويتجوز به فيمن يطلع على أمر من غير طلبه قال تعالى: فإن عثر على أنهما استحقا إثما. يقال: عثرت على كذا قال: «وكذلك أعثرنا عليهم» أي وقفناهم عليهم من غير أن طلبوا. انتهى.

وقوله: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ظرف لقوله: «أعثرنا» أو لقوله: «ليعلموا» والتنازع التخاصم قبل: أصل التنازع التجاذب ويعبر به عن التخاصم وهو باعتبار اصل معناه يتعدى بنفسه، وباعتبار التخاصم بيتعدى بفي كقوله تعالى: ﴿فان تنازعتم في شيء﴾ انتهى.

والمراد بتنازع الناس بينهم أمرهم تنازعهم في أمر البعث وإنما اضيف اليهم إشعاراً باهتمامهم واعتنائهم بشأنه فهذه حال الآية من جهة مفرداتها بشهادة بعضها على بعض.

والمعنى على ما مر: وكما أنمناهم ثم بعثناهم لكذا وكذا أطلعنا الناس عليهم في زمان يتنازعون أي الناس بينهم في أمر البعث ليعلموا أن وعد الله بالبعث حق أن الساعة لا ريب فيها.

أو المعنى أعثرنا عليهم ليعلم الناس مقارنا لزمان يتنازعون فيه بينهم في أمر البعث أن

وعد الله بالبعث حق.

وأما دلالة بعثهم عن النوم على أن البعث يوم القيامة حق فانما هو من جهة أن انتزاع أرواحهم عن أجسادهم ذاك الدهر الطويل وتعطيل شعورهم وركود حواسهم عن أعمالها وسقوط آثار القوى البدنية كالنشو والنماء ونبات الشعر والظفر وتغير الشكل وظهور الشيب وغير ذلك وسلامة ظاهر أبدانهم وثيابهم عن الدثور والبلى ثم رجوعهم الى حالهم يوم دخلوا الكهف بعينها يماثل انتزاع الارواح عن الاجساد بالموت ثم رجوعها الى ما كانت عليها. وهما معا من خوارق العادة لا يدفعهما إلا الاستبعاد من غير دليل.

وقد حدث هذا الأمر في زمان ظهر التنازع بين طائفتين من الناس موحد يرى مفارقة الارواح الاجساد عند الموت ثم رجوعها اليها في البعث ومشرك[١] يرى مغايرة الروح البدن ومفارقتها له عند الموت لكنه لا يرى البعث وربما رأى التناسخ.

فحدوث مثل هذه الحادثة في مثل تلك الحال لا يدع ريبا لأولئك الناس أنها آية إلهية قصد بها إزالة الشك عن قلوبهم في أمر البعث بالدلالة بالمماثل على المماثل ورفع الاستبعاد بالوقوع.

ويقوى هذا الحدس منهم ويشتد بموتهم بعيد الانبعاث فلم يعيشوا بعده إلا سويعات لم تسع أزيد من اطلاع الناس على حالهم واجتماعهم عليهم واستخبارهم عن قصتهم وإخبارهم بها.

ومن هنا يظهر وجه آخر لقوله تعالى: «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» وهو رجوع الضميرين الأولين الى الناس والثالث الى أصحاب الكهف وكون «إذ» ظرفا لقوله: «ليعلموا» ويؤيده قوله بعده: «ربهم أعلم بهم» على ما سيجيء.

---

١. وهذا مذهب عامة الوثنيين فهم لا يرون بطلان الإنسان بالموت وانما يرون نفي البعث واثبات التناسخ.

والاعتراض على هذا الوجه أولاً: بأنه يستدعي كون التنازع بعد الإعثار وليس كذلك، وثانياً: بأن التنازع كان قبل العلم وارتفع به فكيف يكون وقته وقته، مدفوع بأن التنازع على هذا الوجه في الآيه هو تنازع الناس في أمر أصحاب الكهف وقد كان بعد الإعثار ومقارنا للعلم زمانا، والذي كان قبل الاعثار وقبل العلم هو تنازعهم في أمر البعث وليس بمراد على هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ القائلون هم المشركون من القوم بدليل قوله بعده: «قال الذين غلبوا على أمرهم» والمراد ببناء البنيان عليهم على ما قيل أن يضرب عليهم ما يجعلون به وراءه ويستترون عن الناس فلا يطلع عليهم مطلع منهم كما يقال: بنى عليه جدارا إذا حوطه وجعله وراءه.

وفي قوله: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ إشارة الى وقوع خلاف بين الناس المجتمعين عليهم أمرهم، فإنه كلام آيس من العلم بهم واستكشاف حقيقة أمرهم يلوح منه أن القولم تنازعوا في شيء مما يرجع اليهم فتبصر فيه بعضهم ولم يسكن الآخرون الى شيء ولم يرتضوا رأي مخالفيهم فقالوا: ابنوا لهم بنياناً ربهم أعلم بهم.

فمعنى الجملة أعني قوله: «ربهم أعلم بهم» يتفاوت بالنظر الى الوجهين المتقدمين في قوله: «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» إذ للجملة على أي حال نوع تفرع على تنازع بينهم كما عرفت آنفاً فإن كان التنازع المدلول عليه بقوله: «اذ يتنازعون بينهم امرهم» هو التنازع في أمر البعث بالإقرار والإنكار لكون ضمير «أمرهم» للناس كان المعنى انهم تنازعوا في أمر البعث فأعثرناهم عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها لكن المشركين لم ينتهوا بما ظهرت لهم من الآية فقالوا: أبنوا على أصحاب الكهف بنياناً واتركوهم على حالهم ينقطع عنهم الناس فلم يظهر لنا من أمرهم شيء ولم نظفر فيهم على يقين ربهم أعلم بهم، وقال الموحدون: أمرهم ظاهر وآيتهم بينة ولنتخذن عليهم مسجداً يعبد فيه الله ويبقى ببقائه

ذكرهم .

وان كان التنازع هو التنازع في أصحاب الكهف وضمير «أمرهم» راجعاً اليهم كان المعنى أنا أعثرنا الناس عليهم بعد بعثهم عن نومتهم ليعلم الناس أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها عندما توفاهم الله بعد اعثار الناس عليهم وحصول الغرض وهم أي الناس يتنازعون بينهم في أمرهم أي أمر أصحاب الكهف كأنهم اختلفوا : أنيام القوم أم أموات ؟ وهل من الواجب أن يدفنوا ويقبروا أو يتركوا على هيئتهم في فجوة الكهف فقال المشركون : ابنوا عليهم بنياناً واتركوهم على حالهم ربهم أعلم بهم أنيام أم أموات ؟ قال الموحدون : «لنتخذن عليهم مسجداً» .

لكن السياق يؤيد المعنى الاول لأن ظاهره كون قول الموحدين : «لنتخذن عليهم مسجداً» رداً منهم لقول المشركين : «ابنوا لهم بنياناً» الخ ؛ والقولان من الطائفتين انما يتنافيان على المعنى الاول . وكذا قولهم : «ربهم أعلم بهم» وخاصة حيث قالوا : «ربهم» ولم يقولوا : ربنا أنسب بالمعنى الاول .

وقوله : ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ هؤلاء القائلون هم الموحدون ومن الشاهد عليه التعبير عما اتخذوه بالمسجد دون المعبد فإن المسجد في عرف القرآن هو المحل المتخذ لذكر الله والسجود له قال تعالى : ﴿ومساجد يذكر فيها اسم الله﴾ (الحج / ٤٠) .

وقد جاء الكلام بالفصل من غير عطف لكونه بمنزلة جواب عن سؤال مقدر كأن قائلاً يقول فماذا قال غير المشركين ؟ فقيل : قال الذين غلبوا . الخ ؛ وأما المراد بغلبتهم على أمرهم فإن كان المراد بأمرهم هو الامر المذكور في قوله : «اذ يتنازعون بينهم أمرهم» والضمير للناس فالمراد بالغلبة غلبة الموحدين بنجاحهم بالآية التي قامت على حقية البعث . وان كان الضمير للفتية فالغلبة من حيث التصدي لامرهم والغالبون هم الموحدون وقيل : الملك

وأعوانه. وقيل: أولياؤهم من أقاربهم وهو أسخف الاقوال.

وان كان المراد بأمرهم غير الأمر السابق والضمير للناس فالغلبة أخذ زمام امور المجتمع بالملك وولاية الامور. والغالبون هم الموحدون أو الملك وأعوانه وان كان الضمير عائداً الى الموصول فالغالبون هم الولاة والمراد بغلبتهم على امورهم أنهم غالبون على ماأرادوه من الامور قادرون هذا. وأحسن الوجوه أولها.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ - الى قوله - وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ يذكر تعالى اختلاف الناس في عدد اصحاب الكهف واقوالهم فيه. وهي على ما ذكره تعالى - وقوله الحق - ثلاثة مترتبة متصاعدة احدها انهم ثلاثة رابعهم كلبهم والثاني انهم خمسة وسادسهم كلبهم وقد عقبه بقوله: «رجماً بالغيب» اي قولاً بغير علم.

وهذا التوصيف راجع الى القولين جميعاً: ولو اختص بالثاني فقط كان من حق الكلام أن يقدم القول الثاني ويؤخر الأول ويذكر مع الثالث الذي لم يذكر معه ما يدل على عدم ارتضائه.

والقول الثالث أنهم سبعة وثامنهم كلبهم. وقد ذكره الله سبحانه ولم يعقبه بشيء يدل على تزييفه. ولا يخلو ذلك من اشعار بأن القول الحق. وقد تقدم في الكلام على محاورتهم المحكية بقوله تعالى: «قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم» أنه مشعر بل دال على أن عددهم لم يكن بأقل من سبعة.

ومن لطيف صنع الآية في عد الأقوال نظمها العدد من ثلاثة الى ثمانية نظماً متوالياً ففيها ثلاثة رابعها خمسة سادسها سبعة وثامنها.

وأما قوله: «رجماً بالغيب» تميز يصف القولين بأنهما من القول بغير علم والرجم هو الرمي بالحجارة وكأن المراد بالغيب الغائب وهو القول الذي معناه غائب عن العلم لا يدري قائله أهو صدق أم كذب؟ فشبه الذي يلقي كلاماً ما هذا شأنه بمن يريد الرجم بالحجارة فيرمي ما

لا يدري أحجر هو يصيب غرضه أم لا؟ ولعله المراد بقول بعضهم: رجماً بالغيب أي قذفاً بالظن لأن المظنون غائب عن الظان لا علم له به.

وقد قال تعالى: «ثلاثة رابعهم كلبهم» وقال: «خمسة سادسهم كلبهم» فلم يأت بواو ثم قال: «سبعة وثامنهم كلبهم» فأتى بواو قال في الكشاف: وثلاثة خبر مبتدء محذوف أي هم ثلاثة. وكذلك خمسة وسبعة، رابعهم كلبهم جملة من مبتدء وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ الى آخر الآية؛ أمر للنبي ﷺ أن يقضي في عدتهم حق القضاء وهو أن الله أعلم بها وقد لوح في كلامه السابق الى القول وهذا نظير ما حكى عن الفتية في محاورتهم وارتضاء اذ قال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم.

ومع ذلك ففي الكلام دلالة على أن بعض المخاطبين بخطاب النبي ﷺ «ربي أعلم بعدتهم» الخ؛ كان على علم من ذلك فإن قوله: «ما يعلمهم» ولم يقل: لا يعلمهم يفيد نفي الحال فالاستثناء منه بقوله: «الا قليل» يفيد الاثبات في الحال واللائح منه على الذهن أنهم من أهل الكتاب.

وبالجملة مفاد الكلام أن الاقوال الثلاثة كانت محققة في عهد النبي ﷺ وعلى هذا فقوله: «سيقولون ثلاثة» الخ؛ المفيد للاستقبال، وكذا قوله: «ويقولون خمسة» الخ؛ وقوله: «ويقولون سبعة» الخ؛ ان كانا معطوفين على مدخول السين في «سيقولون» تفيد الاستقبال القريب بالنسبة الى زمن نزول الآيات أو زمن وقوع الحادثة فافهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ قال الراغب: المرية التردد في الامر وهو أخص من الشك، قال: والامتراء والمماراة المحاجة فيما فيه مرية قال: وأصله من مريت الناقة اذا مسحت ضرعها للحلب. انتهى. فتسمية الجدال مماراة لما فيه من اصرار

المباري بالبحث ليفرغ خصمه كل ما عنده من الكلام فينتهي عنه.

والمراد بكون المراء ظاهراً أن لا يتعمق فيه بالاقتصار على ما قصه القرآن من غير تجهيل لهم ولا رد كما قيل، وقيل: المراء الظاهر ما يذهب بحجة الخصم يقال: ظهر اذا ذهب، قال الشاعر:

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

والمعنى: واذا كان ربك أعلم وقد أنبأك نبأهم فلا تحاجهم في الفتية الا محاجة ظاهرة غير متعمق فيها - أو محاجة ذاهبة لحجتهم - ولا تطلب الفتيا في الفتية من أحد منهم فربك حسبك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الآية الكريمة سواء كان الخطاب فيها للنبي ﷺ خاصة أو له ولغيره متعرضة للأمر الذي يراه الانسان فعلا لنفسه ويخبر بوقوعه منه في مستقبل الزمان.

والذي يراه القرآن في تعليمه الإلهي ان ما في الوجود من شيء ذاتاً كان او فعلاً واثراً فإنما هو مملوك لله وحده له ان يفعل فيه ما يشاء ويحكم فيه ما يريده لا معقب لحكمه، وليس لغيره ان يملك شيئاً الا ما ملكه الله تعالى منه واقدره عليه وهو المالك لما ملكه والقدر على ما عليه اقدره والآيات القرآنية الدالة على هذه الحقيقة كثيرة جداً لا حاجة الى ايرادها.

فما في الكون من شيء له فعل أو اثر - وهذه هي التي نسميها فواعل واسبابا وعللا فعالة - غير مستقل في سببيته ولا مستغن عنه تعالى في فعله وتأثيره لا يفعل ولا يؤثر الا ما شاء الله ان يفعله ويؤثره اي اقدره عليه ولم يسلب عنه القدرة عليه بارادة خلافه.

وبتعبير آخر كل سبب من الأسباب الكونية ليس سبباً من تلقاء نفسه وباقتضاء من ذاته بل باقداره تعالى على الفعل والتأثير وعدم ارادته خلافه، وإن شئت فقل: بتسهيله تعالى له سبيل الوصول اليه، وان شئت فقل باذنه تعالى فالاذن هو الاقدار ورفع المانع وقد تكاثرت

الآيات الدالة على ان كل عمل من كل عامل موقوف على اذنه تعالى قال تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله﴾ (الحشر / ٥) وقال: ﴿ما اصاب من مصيبة الا باذن الله﴾ (التغابن / ١١) وقال: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه﴾ (الأعراف / ٥٨) وقال: ﴿وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله﴾ (آل عمران / ١٤٥) وقال: ﴿وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله﴾ (يونس / ١٠٠) وقال: ﴿وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله﴾ (النساء / ٦٤) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

فعلى الانسان العارف بمقام ربه المسلم له ان لا يرى نفسه سبباً مستقلا لفعله مستغنياً فيه عن غيره بل مالكا له بتمليك الله قادراً عليه باقداره وأن القوة لله جميعاً واذا عزم على فعل ان يعزم متوكلاً على الله قال تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ وإذا وعد بشيء و أخبر عما سيفعله أن يقيده باذن الله أو بعدم مشيته خلافه.

وهذا المعنى هو الذي يسبق الى الذهن المسبوق بهذا الحقيقة القرآنية اذا قرع بابه قوله تعالى: ﴿ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله﴾ وخاصة بعدما تقدم في آيات القصة من بيان توحده تعالى في الوهيته وربوبيته وما تقدم قبل آيات القصة من كون ما على الأرض زينة لها سيجعله الله صعيداً جرزاً. ومن جملة ما على الأرض افعال الانسان التي هي زينة جالبة للانسان يمتحن بها وهو يراها مملوكة لنفسه.

وذلك ان قوله: «ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً» نهي عن نسبته فعله الى نفسه. ولا بأس بهذه النسبة قطعاً فانه سبحانه كثيراً ما ينسب في كلامه الافعال الى نبيه والى غيره من الناس وربما يأمره ان ينسب افعالا الى نفسه قال تعالى: ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم﴾ (يونس / ٤١)، وقال: ﴿لنا اعمالنا ولكم اعمالكم﴾ (الشورى / ١٥).

فأصل نسبة الفعل الى فاعله مما لا ينكره القرآن الكريم وإنما ينكر دعوى الاستقلال في الفعل والاستغناء عن مشيته واذنه تعالى فهو الذي يصلحه الاستثناء أعني قوله: «الا ان

يشاء الله».

ومن هنا يظهر أن الكلام على تقدير باء الملابسة وهو استثناء مفرغ عن جميع الأحوال أو جميع الأزمان، وتقديره: ولا تقولن لشيء - اي لأجل شيء تعزم عليه - اني فاعل ذلك غداً في حال من الأحوال أو زمان من الأزمنة الا في حال او في زمان يلابس قولك المشية بأن تقول: اني فاعل ذلك غداً ان شاء الله أن أفعله أو الا ان يشاء الله ان لا افعله، والمعنى على أي حال: ان أذن الله في فعله.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ اتصال الآية واشتراكها مع ما قبلها في سياق التكليف يقضي أن يكون المراد من النسيان نسيان الاستثناء، وعليه يكون المراد من ذكر ربه ذكره بمقامه الذي كان الالتفات اليه هو الموجب للاستثناء وهو أنه القائم على كل نفس بما كسبت الذي ملكه الفعل وأقدره عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره.

والمعنى: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت أنك نسيته فاذكر ربك متى كان ذلك بما لو كنت ذاكراً لذكرته به وهو تسليم الملك والقدرة اليه وتقيدد الأفعال بإذنه ومشيته.

وإذ كان الأمر بالذكر مطلقاً لم يتعين في لفظ خاص فالمندوب اليه هو ذكره تعالى بشأنه الخاص سواء كان بلفظ الاستثناء بأن يلحقه بالكلام، إن ذكره ولما يتم الكلام أو يعيد الكلام ويستثني أو يضمر الكلام ثم يستثني إن كان فصل قصير أو طويل كما ورد في بعض[١] الروايات أنه لما نزلت الآيات قال النبي ﷺ: ان شاء الله أو كان الذكر باستغفار ونحوه.

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ حديث الاتصال والاشتراك في سياق التكليف بين جمل الآية يقضي هنا أيضاً أن تكون الإشارة بقوله: «هذا»

---

١. رواه السيوطي في الدر المنثور عن ابن المنذر عن مجاهد.

الى الذكر بعد النسيان، والمعنى وارج أن يهديك ربك الى أمر هو أقرب رشداً من النسيان ثم الذكر وهو الذكر الدائم من غير نسيان فيكون من قبيل الآيات الداعية له ﷺ الى دوام الذكر كقوله تعالى: ﴿**واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين**﴾ (الأعراف / ٢٠٥) وذكر الشيء كما نسي ثم ذكر والتحفظ عليه كرة بعد كرة من أسباب دوام ذكره.

قوله تعالى: ﴿**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مَائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً**﴾ بيان لمدة لبثهم في الكهف على حال النوم فإن هذا اللبث هو متعلق العناية في آيات القصة وقد اشير الى إجمال مدة اللبث بقوله في أول الآيات: «فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً».

وقوله: «سنين» ليس بمميز للعد وإلا لقيل: ثلاثمائة سنة بل هو بدل من ثلاثمائة كما قالوا، وفي الكلام مضاهاة لقوله فيما أجمل في صدر الآيات: «سنين عدداً».

ولعل النكتة في تبديل «سنة» من «سنين» استكثار مدة اللبث، وعلى هذا فقوله: «وازدادوا تسعاً» لا يخلو من معنى الاضراب كأنه قيل: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة هذه السنين المتمادية والدهر الطويل بل ازدادوا تسعاً، ولا ينافي هذا ما تقدم في قوله: «سنين عدداً» أن هذا الاستقلال عدد السنين واستحقاره لأن المقامين مختلفان بحسب الغرض فإن الغرض هناك كان متعلقاً بنفي العجب من آية الكهف بقياسها الى آية جعل ما على الأرض زينة لها بالأنسب به استحقار المدة، والغرض ههنا بيان كون اللبث آية من آياته وحجة على منكري البعث والأنسب به استكثار المدة، والمدة بالنسبتين تحتمل الوصفين فهي بالنسبة اليه تعالى شيء هين وبالنسبة الينا دهر طويل.

وإضافة تسع سنين الى ثلاثمائة سنة مدة اللبث تعطي أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية فإن التفاوت في ثلاثمائة سنه إذا أخذت تارة شمسية واخرى قمرية بالغ هذا المقدار تقريباً ولا ينبغي الارتياب في أن المراد بالسنين في الآية السنون القمرية لأن السنة في عرف

القرآن هي القمرية المؤلفة من الشهور الهلالية وهي المعبرة في الشريعة الإسلامية.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية؛ مضى في حديث أصحاب الكهف بالإشارة الى خلاف الناس في ذلك وأن ما قصه الله تعالى من قصتهم هو الحق الذي لا ريب فيه.

فقوله: «قل الله أعلم بما لبثوا» مشعر بأن مدة لبثهم المذكورة في الآية السابقة لم تكن مسلمة عند الناس فأمر النبي ﷺ أن يحتج في ذلك بعلم الله وأنه أعلم بهم من غيره.

وقوله: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعليل لكونه تعالى أعلم بما لبثوا، واللام للاختصاص الملكي والمراد أنه تعالى وحده يملك ما في السماوات والارض من غيب غير مشهو فلا يفوته شيء وان فات السماوات والأرض، وإذ كان مالكاً للغيب بحقيقة معنى الملك وله كمال البصر والسمع فهو أعلم بلبثهم الذي هو من الغيب.

وعلى هذا فقوله: «أبصر به واسمع» ـ وهما من صيغ التعجب معناهما كمال بصره وسمعه ـ لتتميم التعليل كأنه قيل: وكيف لا يكون أعلم بلبثهم وهو يملكهم على كونهم من الغيب وقد رأى حالهم وسمع مقالهم.

وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ الخ؛ المراد بالجملة الاولى منه نفي ولاية غير الله لهم مستقلاً بالولاية دون الله، وبالثانية نفي ولاية غيره بمشاركته إياه فيها أي ليس لهم ولي غير الله لا مستقلاً بالولاية ولا غير مستقل.

والضمير في قوله: «لهم» لاصحاب الكهف أو لجميع ما في السماوات والأرض المفهوم من الجملة السابقة بتغليب جانب اولي العقل أو لمن في السماوات والأرض والوجوه الثلاثة مترتبة جودة وأجودها أولها.

٢٧ ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ

تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً.

٢٨ ❁ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوٰيهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

٢٩ ❁ وَقُلِ ٱلحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً.

٣٠ ❁ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً.

٣١ ❁ أُولٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ الى آخر الآية؛ في المجمع: لحد اليه والتحد أي مال انتهى فالملتحد اسم مكان من الالتحاد بمعنى الميل والمراد بكتاب ربك القرآن أو اللوح

المحفوظ، وكأن الثاني أنسب بقوله: «لا مبدل لكلماته».

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب: الصبر الإمساك في ضيق يقال: صبرت الدابة حبستها بلا علف، وصبرت فلاناً خلفته خلفة لا خروج له منها، والصبر حبس النفس على ما يتقضيه العقل والشرف أو عما يقتضيان حبسها عنه. انتهى مورد الحاجة.

ووجه الشيء ما يواجهك ويستقبلك به، والأصل في معناه الوجه بمعنى الجارحة، ووجهه تعالى أسماؤه الحسنى وصفاته العليا التي بها يتوجه اليه المتوجهون ويدعوه الداعون ويعبده العابدون قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ (الأعراف / ١٨٠)، وامـا الذات المتعالية فلا سبيل اليها، وإنما يقصده القاصدون ويريده المريدون لأنه إله رب علي عظيم ذو رحمة ورضوان الى غير ذلك من اسمائه وصفاته.

والمراد بدعائهم ربهم بالغداة والعشي الاستمرار على الدعاء والجري عليه دائماً لأن الدوام يتحقق بتكرر غداة بعد عشي وعشي بعد غداة على الحس فالكلام جار على الكناية. وقيل: المراد بدعاء الغداة والعشي صلاة طرفي النهار وقيل: الفرائض اليومية وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اصل معنى العدو كما صرح به الراغب التجاوز وهو المعنى الساري في جميع مشتقاته وموارد استعمالاته قال في القاموس: يقال: عدا الأمر وعنه جاوزه وتركه انتهى فمعنى «لا تعد عيناك عنهم» لا تجاوزهم ولا تتركهم عيناك والحال انك تريد زينة الحياة الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ المراد باغفال قلبه تسليط الغفلة عليه وإنسائه ذكر الله سبحانه على سبيل المجازاة حيث انهم عاندوا الحق فأضلهم الله باغفالهم عن ذكره فإن كلامـه تعالى في قوم هذه حالهم نظير ما سيأتي في ذيل الآيات مـن قوله: «إنا جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا

إذاً أبداً».

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ قال في المجمع: الفرط التجاوز للحق والخروج عنه من قولهم: افرط إفراطاً إذا اسرف انتهى. واتباع الهوى والإفراط من آثار غفلة القلب، ولذلك كان عطف الجملتين على قوله: «اغفلنا» بمنزلة عطف التفسير.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ عطف على ما عطف عليه قوله: «واتل ما اوحي اليك» وقوله: «واصبر نفسك» فالسياق سياق تعداد وظائف النبي ﷺ قبال كفرهم بما انزل اليه وإصرارهم عليه والمعنى لا تأسف عليهم واتل ما اوحي اليك واصبر نفسك مع هؤلاء المؤمنين من الفقراء، وقل للكفار: الحق من ربكم ولا تزد على ذلك فمن شاء منهم أن يؤمن فليؤمن ومن شاء منهم ان يكفر فليكفر فليس ينفعنا إيمانهم ولا يضرنا كفرهم بل ما في ذلك من نفع او ضرر وثواب او تبعة عذاب عائد اليهم انفسهم فليختاروا ما شاؤا فقد اعتدنا للظالمين كذا وكذا وللصالحين من المؤمنين كذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً﴾ الى آخر الآية؛ قال في المجمع: السرادق الفسطاط المحيط بما فيه. ويقال: السرادق ثوب يدار حول الفسطاط. وقال: المهل خثارة الزيت. وقيل: هو النحاس الذائب. وقال: المرتفق المتكأ من المرفق يقال: ارتفق إذا اتكأ على مرفقه انتهى والشيء النضج يقال: شوى يشوي شياً إذا نضج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ بيان لجزاء المؤمنين على إيمانهم وعملهم الصالح وإنما قال: «إنا لا نضيع» الخ؛ ولم يقل: واعتدنا لهؤلاء كذا وكذا ليكون دالاً على العناية بهم والشكر لهم.

وقوله: «إنا لا نضيع» الخ؛ في موضع خبر إن، وهو في الحقيقة من وضع السبب موضع المسبب والتقدير إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سنوفيهم أجرهم فإنهم محسنون إنا لا

نضيع أجر من أحسن عملا.

وإذ عد في الآية العقاب أثراً للظلم ثم عد الثواب في مقابله أجراً للايمان والعمل الصالح استفدنا منه أن لا ثواب للايمان المجرد من صالح العمل بل ربما أشعرت الآية بأنه من الظلم.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الى آخر الآية: العدن هو الإقامة وجنات عدن جنات إقامة، والأساور قيل: جمع أسورة وهي جمع سوار بكسر السين وهي حلية المعصم، وذكر الراغب أنه فارسي معرب وأصله دستواره، والسندس ما رق من الديباج، والاستبرق ما غلظ منه، والارائك جمع أريكة وهي السرير، ومعني الآية ظاهر.

٣٢ ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً.

٣٣ ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً.

٣٤ ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً.

٣٥ ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً.

٣٦ ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً.

٣٧ ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً.

٣٨ ● لٰكِنَّاْ هُوَ اللّٰهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً.

٣٩ ● وَلَوْلَا إِذ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللّٰهُ لاٰ قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً.

٤٠ ● فَعَسىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ ٱلْسَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً.

٤١ ● أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً.

٤٢ ● وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً.

٤٣ ● وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً.

٤٤ ● هُنَالِكَ ٱلْوَلايَةُ لِلّٰهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً.

٤٥ ● وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمٰاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً.

٤٦ ● ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ الحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَٱلبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوْاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ الخ: أي واضرب لهؤلاء المتولهين بزينة الحياة الدنيا المعرضين عن ذكر الله مثلا

ليتبين لهم أنهم لم يتعلقوا في ذلك إلا بسراب وهمي لا واقع له.

وقوله: ﴿ جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي من كروم فالثمرة كثيراً ما يطلق على شجرتها وقوله: «وحففناهما بنخل» أي جعلنا النخل محيطة بهما حافة من حولهما وقوله: «وجعلنا بينهما زرعا» أي بين الجنبين ووسطهما، وبذلك تواصلت العمارة وتمت واجتمعت له الأقوات والفواكه.

قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ الآية: الاكل بضمتين المأكول، والمراد بإيتائهما الأكل إثمار أشجارهما من الأعناب والنخيل.

وقوله: ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ الظلم النقص، والضمير للاكل أي ولم تنقص من أكله شيئاً بل أثمرت ما في وسعها من ذلك، وقوله: «وفجرنا خلالهما نهراً» أي شققنا وسطهما نهراً من الماء يسقيهما ويرفع حاجتهما الى الشرب بأقرب وسيلة من غير كلفة.

قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ الضمير للرجل والثمر أنواع المال كما في الصحاح وعن القاموس. وقيل: الضمير للنخل والثمر ثمره، وقيل: المراد كان للرجل ثمر ملكه من غير جنته. وأول الوجوه اوجهها ثم الثاني ويمكن ان يكون المراد من إيتاء الجنتين اكلها من غير ظلم بلوغ أشجارهما في الرشد مبلغ الإثمار وأوانه، ومن قوله: «وكان له ثمر» وجود الثمر على اشجارهما بالفعل كما في الصيف وهو وجه خال عن التكلف.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ المحاورة المخاطبة والمراجعة في الكلام، والنفر الأشخاص يلازمون الانسان نوع ملازمة سموا نفراً لأنهم ينفرون معه ولذلك فسره بعضهم بالخدم والولد، وآخرون بالرهط والعشيرة، والأول اوفق بما سيحكيه الله من قول صاحبه له: «إن ترن انا اقل منك مالاً وولداً» حيث بدل النفر من الولد، والمعنى فقال الذي جعلنا له الجنتين لصاحبه والحال انه يحاوره: انا اكثر منك مالاً واعز نفراً أي ولداً وخدماً.

وهذا الذي قاله لصاحبه يحكي عن مزعمة خاصة عنده منحرفة عن الحق فإنه نظر الى نفسه وهو مطلق التصرف فيما خوله الله من مال وولد لا يزاحم فيما يريده في ذلك فاعتقد انه مالكه وهذا حق لكنه نسي ان الله سبحانه هو الذي ملكه وهو المالك لما ملكه والذي سخره الله له وسلطه عليه من زينة الحياة الدينا التي هي فتنة وبلاء يمتحن بها الإنسان ليميز الله الخبيث من الطيب بل اجتذبت الزينة نفسه اليها فحسب انه منقطع عن ربه مستقل بنفسه فيما يملكه، وان التأثير كله عند الأسباب الظاهرية التي سخرت له.

فنسي الله سبحانه وركن الى الأسباب وهذا هو الشرك ثم التفت الى نفسه فرآى أنه يتصرف في الأسباب مهيمناً عليها فظن ذلك كرامة لنفسه وأخذه الكبر فاستكبر على صاحبه.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ﴾ الى آخر الآيتين: الضمائر الأربع راجعة الى الرجل، والراد بالجنة جنسها ولذا لم تثن. وقيل: لأن الدخول لا يتحقق في الجنتين معاً في وقت واحد، وإنما يكون في والواحدة بعد الواحدة.

وقال في الكشاف: فإن قلت: فلم أفرد الجنة بعد التثنية ؟ قلت: معناه ودخل ما هو جنته ماله جنة غيرها يعني أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما. انتهى وهو وجه لطيف.

وقوله: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وإنما كان ظالماً لأنه تكبر على صاحبه إذ قال: «أنا أكثر منك مالاً» الخ؛ وهو يكشف عن إعجابه بنفسه وشركه بالله بنسيانه والركون الى الأسباب الظاهرية، وكل ذلك من الرذائل المهلكة.

وقوله: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً﴾ البيد والبيدودة الهلاك والفناء والإشارة بهذه الى الجنة، وفصل الجملة لكونها في معنى جواب سؤال مقدر كأنه لما قيل: ودخل جنته قيل: فما فعل ؟ فقيل: قال: ما أظن أن تبيد. الخ.

وقد عبر عن بقاء جنته بقوله: «ما أظن أن تبيد» الخ: ونفي الظن بأمر كناية عن كونه فرضاً وتقديراً لا يلتفت اليه حتى يظن به ويمال اليه فمعنى ما أظن أن تبيد هذه أن بقاءه ودوامه مما تطمئن اليه النفس ولا تتردد فيه حتى تتفكر في بيده وتظن أنه سيفنى.

وقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ هو مبني على ما مر من التأييد في قوله: «ما اظن ان تبيد هذه ابداً» فإنه يورث استبعاد تغير الوضع الحاضر بقيام الساعة. وكل ما حكاه الله سبحانه من حجج المشركين على نفي المعاد مبني على الاستبعاد كقولهم: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ (يس / ٧٨)، وقولهم: ﴿ءإذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق جديد﴾ (الم السجدة / ١٠).

وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ مبني على ما تقدم من دعوى كرامة النفس واستحقاق الخير، ويورث ذلك في الإنسان رجاء كاذباً بكل خير وسعادة من غير عمل يستدعيه يقول: من المستبعد أن تقوم الساعة ولئن قامت ورددت الى ربي لأجدن بكرامة نفسي ـ ولا يقول: يؤتيني ربي ـ خيراً من هذه الجنة منقلباً أنقلب اليه.

وقد خدعت هذا القائل نفسه فيما ادعت من الكرامة حتى أقسم على ما قال كما يدل عليه لام القسم في قوله: «ولئن رددت» ولام التأكيد ونونها في قوله: «لأجدن» وقال: «رددت» ولم يقل: ردني ربي اليه، وقال: «لأجدن» ولم يقل: آتاني الله.

والآيتان كقوله تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي ان لي عنده للحسنى﴾ (حم السجدة / ٥٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ الآية وما بعدها الى تمام أربع آيات رد من صاحب الرجل يرد به قوله: «أنا اكثر منك مالاً واعز نفراً» ثم قوله إذ دخل جنته: «ما اظن ان تبيد هذه أبداً» وقد حلل الكلام من حيث غرض المتكلم الى جهتين: إحداهما استعلاؤه على الله

سبحانه بدعوى استقلاله في نفسه وفيما يملكه من مال ونفر واستتناؤه بما عنده من القدرة والقوة. والثانية استعلاؤه على صاحبه واستهانته به بالقلة والذلة ثم رد كلاً من الدعويين بما يحسم مادتهما ويقطعها من اصلها فقوله: «أكفرت بالذي خلقك ـ الى قوله ـ الا بالله» ورد لاولى الدعويين، وقوله: «إن ترن انا اقل ـ الى قوله ـ طلباً» رد للثانية.

فقوله: «قال له صاحبه وهو يحاوره» في إعادة جملة «وهو يحاوره» إشارة الى أنه لم ينقلب عما كان عليه من سكينة الايمان ووقاره باستماع ما استمعه من الرجل بل جرى على محاورته حافظاً آدابه ومن أبده إرفاقه به في الكلام وعدم خشونته بذكر ما يعد دعاء عليه يسوؤه عادة فلم يذكر ولده بسوء كما ذكر جنته بل اكتفى فيه بما يرمز اليه ما ذكره في جنته من إمكان صيرورتها صعيداً زلقاً وغور مائها.

وقوله: «أكفرت بالذي خلقك» الخ: الاستفهام للانكار ينكر عليه ما اشتمل عليه كلامه من الشرك بالله سبحانه بدعوى الاستقلال لنفسه وللأسباب والمسببات كما تقدمت الإشارة اليه ومن فروع شركه استبعاده قيام الساعة وتردده فيه.

وأما ما ذكره في الكشاف أنه جعله كافراً بالله جاحدا لأنعمه لشكه في البعث كما يكون المكذب بالرسول كافرا فغير سديد كيف؟ وهو يذكر في استدراكه نفي الشرك عن نفسه، ولو كان كما قال لذكر فيه الايمان بالمعاد.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنَّاْ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ القراءة المشهورة «لكن» بفتح النون المشددة من غير الف في الوصل واثباتها وقفاً. واصله على ما ذكروه «لكن أنا» حذفت الهمزة بعد نقل فتحتها الى النون وأُدغمت النون في النون فالوصل بنون مشددة مفتوحة من غير الف والوقف بالألف كما في «أنا» ضمير التكلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ من تتمة قول المؤمن لصاحبه الكافر، وهو تحضيض وتوبيخ لصاحبه إذ قال لما دخل جنته:

«ما أظن أن تبيد هذه أبداً» وكان عليه أن يبدله من قوله: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» فينسب الأمر كله الى مشية الله ويقصر القوة فيه تعالى مبنياً على ما بينه له أن كل نعمة بمشية الله ولا قوة إلا به.

وقوله: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إما على تقدير: الأمر ما شاءه الله، أو على تقدير: ما شاءه الله كائن. وما على التقديرين موصولة ويمكن أن تكون شرطية والتقدير ما شاءه الله كان، والأوفق بسياق الكلام هو أول التقادير لأن الغرض بيان رجوع الامور الى مشية الله تعالى قبال من يدعي الاستقلال والاستغناء.

وقوله: ﴿لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ يفيد قيام القوة بالله وحصر كل قوة فيه بمعنى أن ما ظهر في مخلوقاته تعالى من القوة القائمة بها فهو بعينه قائم به من غير أن ينقطع ما أعطاه منه فيستقل به الخلق قال تعالى: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ (البقرة / ١٦٥).

وقد تم بذلك الجواب عما قاله الكافر لصاحبه وما قاله عندما دخل جنته.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً﴾ الى آخر الآيتين: قال في المجمع: أصل الحسبان السهام التي ترمي لتجري في طلق واحد وكان ذلك من رمي الأساورة، وأصل الباب الحساب، وإنما يقال لما يرمي به: حسبان لأنه يكثر كثرة الحساب. قال: والزلق الأرض الملساء المستوية لا نبات فيها ولا شيء وأصل الزلق ما تزلق عنه الأقدام فلا تثبت عليه. انتهى.

وقد تقدم أن الصعيد هو سطح الأرض مستوياً لا نبات عليه، والمراد بصيرورة الماء غوراً صيرورته غائراً ذاهباً في باطن الارض.

ومعنى الآية ان ترني أنا أقل منك مالاً وولدا فلا بأس والأمر في ذلك الى ربي فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل أي على جنتك مرامي من عذابه السماوي كبرد أو ريح سموم أو صاعقة أو نحو ذلك فتصبح أرضاً خالية ملساء لا شجر عليها ولا زرع، أو يصبح ماؤها غائرا

فلن تستطيع أن تطلبه لإمعانه في الغور.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ الى آخر الآية: الإحاطة بالشيء كناية عن هلاكه، وهي مأخوذه من احاطة العدو واستدارته به من جميع جوانبه بحيث ينقطع عن كل معين وناصر وهو الهلاك، قال تعالى: ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ (يونس / ٢٢).

وقوله: «فأصبح يقلب كفيه» كناية عن الندامة فإن النادم كثيرا ما يقلب كفيه ظهرا البطن.

وقوله: «وهي خاوية على عروشها» كناية عن كمال الخراب كما قيل فإن البيوت الخربة المنهدمة تسقط أولاً عروشها وهي سقوفها على الأرض ثم تسقط جدرانها على عروشها الساقطة والخوي السقوط وقيل: الأصل في معناه الخلو.

وقوله: «ويقول ياليتني لم اشرك بربي أحداً» أي ياليتني لم أتعلق بما تعلقت به ولم أركن ولم أطمئن الى هذه الأسباب التي كنت أحسب أن لها استقلالا في التأثير وكنت أرجع الأمر كله الى ربي فقد ضل سعيي وهلكت نفسي.

والمعنى: وأهلكت أنواع ماله أو فسد ثمر جنته فأصبح نادماً على المال الذي أنفق والجنة خربة ويقول ياليتني لم اشرك بربي أحدا ولم أسكن الى ما سكنت اليه واغتررت به من نفسي وسائر الأسباب التي لم تنفعني شيأ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ الفئة الجماعة، والمنتصر المتنع.

وكما كانت الآيات الخمس الاولى أعني قوله: «قال له صاحبه ـ الى قوله ـ طلباً» بياناً قولياً لخطأ الرجل في كفره وشركه كذلك هاتان الآيتان أعني قوله: «واحيط بثمره ـ الى قوله ـ وما كان منتصراً» بيان فعلي له أما تعلقه بدوام الدنيا واستمرار زينتها في قوله: «ما أظن أن تبيد هذه أبداً» فقد جلى له الخطأ فيه حين احيط بثمره فأصبحت جنته خاوية على

عروشها، وأما سكونه الى الأسباب وركونه اليها وقد قال لصاحبه: «أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً» فبين خطاؤه فيه بقوله تعالى: «ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله» وأما دعوى استقلاله بنفسه وتبجحه بها فقد أُشير الى جهة بطلانها بقوله تعالى: «وما كان منتصراً».

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَايَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ القراءة المشهورة «الولاية» بفتح الواو وقرىء بكسرها والمعنى واحد، وذكر بعضهم أنها بفتح الواو بمعنى البصرة وبكسرها بمعنى السلطان، ولم يثبت وكذا «الحق» بالجر، والثواب مطلق التبعة والأجر وغلب في الأجر الحسن الجميل، والعقب بالضم فالسكون وبضمتين: العاقبة.

ذكر المفسرون أن الإشارة بقوله: «هنالك» الى معنى قوله: «أُحيط بثمره» أي في ذلك الموضع أو في ذلك الوقت وهو موضع الإهلاك ووقته الولاية لله، وأن الولاية بمعنى النصرة أي إن الله سبحانه هو الناصر للانسان حين يحيط به البلاء وينقطع عن كافة الأسباب لا ناصر غيره.

وهذا معنى حق في نفسه لكنه لا يناسب الغرض المسوق له الآيات وهو بيان أن الأمر كله لله سبحانه وهو الخالق لكل شيء المدبر لكل أمر، وليس لغيره إلا سراب الوهم وتزيين الحياة لغرض الابتلاء والامتحان، ولو كان كما ذكروه لكان الأنسب توصيفه تعالى في قوله: «لله الحق» بالقوة والعزة والقدرة والغلبة ونحوها لا بمثل الحق الذي يقابل الباطل، وأيضا لم يكن لقوله: «هو خير ثواباً وخير عقباً» وجه ظاهر وموقع جميل.

والحق والله أعلم أن الولايه بمعنى مالكية التدبير وهو المعنى الساري في جميع اشتقاقاتها كما مر في الكلام على قوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾ (المائدة / ٥٥) أي عند إحاطة الهلاك وسقوط الأسباب عن التأثير وتبين عجز الإنسان الذي كان يرى لنفسه الاستقلال والاستغناء ولاية أمر الانسان وكل شيء وملك تدبيره لله لأنه إله حق له التدبير والتأثير بحسب واقع الأمر وغيره من الأسباب الظاهرية المدعوة شركاء له في التدبير والتأثير باطل

في نفسه لا يملك شيئاً من الأثر إلا ما أذن الله له وملكه إياه، وليس له من الاستقلال إلا اسمه بحسب ما توهمه الإنسان فهو باطل في نفسه حق بالله سبحانه والله هو الحق بذاته المستقل الغني في نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الخ: هذا هو المثل الثاني ضرب لتمثيل الحياة الدنيا بما يقارنها من الزينة السريعة الزوال.

والهشيم فعيل بمعنى مفعول من الهشم، وهو على ما قال الراغب كسر الشيء الرخو كالنبات، وذرا يذروا ذرواً أي فرق، وقيل: أي جاء به وذهب، وقوله: «فاختلط به نبات الأرض» ولم يقل: اختلط بنبات الأرض إشارة الى غلبته في تكوين النبات على سائر أجزائه، ولم يذكر مع ماء السماء غيره من مياه العيون والأنهار لأن مبدء الجميع ماء المطر، وقوله: «فأصبح هشيماً» أصبح فيه ـ كما قيل ـ بمعنى صار فلا يفيد تقييد الخبر بالصباح.

والمعنى: واضرب لهؤلاء المتوهلين بزينة الدنيا المعرضين عن ذكر ربهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء وهو المطر فاختلط به نبات الأرض فرف نضارة وبهجة وظهر بأجمل حلية فصار بعد ذلك هشيماً مكسراً متقطعاً تعبث به الرياح تفرقه وتجيء به وتذهب وكان الله على كل شيء مقتدراً.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الى آخر الآية؛ الآية بمنزلة النتيجة للمثل السابق وهي أن المال والبنين وإن تعلقت بها القلوب وتاقت اليها النفوس تتوقع منها الانتفاع وتحف بها الآمال لكنها زينة سريعة الزوال غارة لا يسعها أن تثيبه وتنفعه في كل ما أراده منها ولا أن تصدقه في جميع ما يأمله ويتمناه بل ولا في أكثره ففي الآية ـ كما ترى ـ انعطاف الى بدء الكلام أعني قوله: «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها» الآيتين.

وقوله ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ المراد بالباقيات الصالحات الأعمال الصالحة فإن أعمال الانسان محفوظة له عند الله بنص القرآن

فهي باقية وإذا كانت صالحة فهي باقيات صالحات، وهي عند الله خير ثواباً لأن الله يجازي الانسان الجاني بها خير الجزاء، وخير أملا لأن ما يؤمل بها من رحمة الله وكرامته ميسور للانسان فهي أصدق أملا من زينات الدنيا وزخارفها التي لا تفي للانسان في أكثر ما تعد، والآمال المتعلقة بها كاذبة على الأغلب وما صدق منها غار خدوع.

وقد ورد من طرق الشيعة وأهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام عدة من الروايات: أن الباقيات الصالحات التسبيحات الأربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وفي أُخرى انها الصلاة وفي اخرى مودة اهل البيت وهي جميعاً من قبل الجري والانطباق على المصداق.

٤٧ ❁ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً.

٤٨ ❁ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً.

٤٩ ❁ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هٰذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً.

٥٠ ❁ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً.

٥١ ❁ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا

كُنْتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُداً.

٥٢ ❁ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً.

٥٣ ❁ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً.

٥٤ ❁ وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هٰذَا ٱلْقُرآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً.

٥٥ ❁ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلعَذَابُ قُبُلاً.

٥٦ ❁ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً.

٥٧ ❁ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً.

٥٨ ❁ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً.

٥٩ ❁ وَتِلْكَ ٱلْقُرىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ الظرف متعلق بمقدر والتقدير «واذكر يوم نسير» وتسيير الجبال بزوالها عن مستقرها وقد عبر سبحانه عنه بتعبيرات مختلفة كقوله: ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلا﴾ (المزمل / ١٤)، وقوله: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ (القارعة / ٥)، وقوله: ﴿فكانت هباء منبثاً﴾ (الواقعة / ٦)، وقوله: ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ (النبأ / ٢٠).

والمستفاد من السياق أن بروز الأرض مترتب على تسيير الجبال فإذا زالت الجبال والتلال ترى الارض بارزة لا تغيب ناحية منها عن اخرى بحائل حاجز ولا يستتر صقع منها عن صقع بساتر، وربما احتمل أن تشير الى ما في قوله: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ (الزمر / ٦٩).

وقوله: «وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً» أي لم نترك منهم أحداً فالحشر عام للجميع.

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الخ: السياق يشهد على أن ضمير الجمع في قوله: «عرضوا» وكذا ضمير الجمع في الآية السابقة للمشركين وهم الذين اطمأنوا الى أنفسهم والأسباب الظاهرية التي ترتبط بها حياتهم، وتعلقوا بزينة الحياة كالمتعلق بأمر دائم باق فكان ذلك انقطاعاً منهم عن ربهم، وإنكاراً للرجوع اليه، وعدم مبالاة بما يأتون به من الأعمال أرضى الله أم أسخطه.

فقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً﴾ اشارة أولا الى أنهم ملجؤون الى الرجوع الى ربهم ولقائه فيعرضون عليه عرضاً من غير أن يختاروه لأنفسهم، وثانياً أن لا كرامة لهم في هذا اللقاء، ويشعر به قوله: «على ربك» ولو أكرموا لقيل: ربهم كما قال: ﴿جزاؤهم عند

ربهم جنات عدن﴾ (البينة / ٨) وقال: ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ (هود / ٢٩)، أو قيل: عرضوا علينا جرياً على سياق التكلم السابق. وثالثاً أن أنواع التفاضل والكرامات الدنيوية التي اختلقتها لهم الأوهام الدنيوية من نسب ومال وجاه قد طاحت عنهم فصفوا صفاً واحداً لا تميز فيه لعال من دان ولا لغني من فقير ولا لمولى من عبد، وإنما الميز اليوم بالعمل وعند ذلك يتبين لهم أنهم أخطأوا الصواب في حياتهم الدنيا وضلوا السبيل فيخاطبون بمثل قوله: «لقد جئتمونا» الخ.

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مقول القول والتقدير وقال لهم أو قلنا لهم: لقد جئتمونا، الخ؛ وفي هذا بيان خطإهم وضلالهم في الدنيا إذ تعلقوا بزينتها وزخرفها فشغلهم ذلك عن سلوك سبيل الله والأخذ بدينه.

وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾ في معنى قوله: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون﴾ (المؤمنون / ١١٥)، والجملة إن كانت إضراباً عن الجملة السابقة على ظاهر السياق فالتقدير ما في معنى قولنا: شغلتكم زينة الدنيا وتعلقكم بأنفسكم وبظاهر الأسباب عن عبادتنا وسلوك سبيلنا بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعداً تلقوننا فيه فتحاسبوا وبتعبير آخر: إن اشتغالكم بالدنيا وتعلقكم بزينتها وإن كان سبباً في الاعراض عن ذكرنا واقتراف الخطيئات لكن كان هناك سبب هو أقدم منه وهو الأصل وهو أنكم ظننتم أن لن نجعل لكم موعداً فنسيان المعاد هو الأصل في ترك الطريق وفساد العمل قال تعالى: ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص / ٢٦).

ومن الجائز ان يكون قوله: «بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعداً» اضراباً عن اعتذار لهم مقدر بالجهل ونحوه والله اعلم.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ

﴿ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ الى آخر الآية؛ وضع الكتاب نصبه ليحكم عليه، ومشفقين من الشفقة واصلها الرقة، قال الراغب في المفردات: الاشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه قال تعالى: ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ فإذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، واذا عدي بفي فمعنى العناية فيه اظهر، قال تعالى: ﴿ انا كنا قبل في اهلنا مشفقين ﴾ ﴿ مشفقون منها ﴾ انتهى.

والويل الهلاك، ونداؤه عند المصيبة - كما قيل - كناية عن كون المصيبة أشد من الهلاك فيستغاث بالهلاك لينجي من المصيبة كما ربما يتمنى الموت عند المصيبة قال تعالى: ﴿ ياليتني مت قبل هذا ﴾ (مريم / ٢٣).

وقوله: ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ ﴾ ظاهر السياق أنه كتاب واحد يوضع لحساب أعمال الجميع ولا ينافي ذلك وضع كتاب خاص بكل انسان والآيات القرآنية دالة عليه أن لكل انسان كتاباً ولكل امة كتاباً وللكل كتاباً قال تعالى: ﴿ وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً ﴾ الآية؛ (الإسراء / ١٣) وقد تقدم الكلام فيها، وقال: ﴿ كل امة تدعى الى كتابها ﴾ (الجاثية / ٢٨) وقال: ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ (الجاثية / ٢٩)، وسيجيء الكلام في الآيتين ان شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ تفريع الجملة على وضع الكتاب وذكر إشفاقهم مما فيه دليل على كونه كتاب الأعمال أو كتاباً فيه الأعمال، وذكرهم بوصف الاجرام للاشارة الى علة الحكم وأن إشفاقهم مما فيه لكونهم مجرمين فالحكم يعم كل مجرم وإن لم يكن مشركاً.

وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هٰذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيٰهَا ﴾ الصغيرة والكبيرة وصفان قامتا مقام موصوفهما وهو الخطيئة أو المعصية أو الهنة ونحوها.

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ ظاهر السياق كون الجملة تأسيساً لا عطف تفسير لقوله: «لا يغادر صغيرة ولا كبيرة» الخ؛ وعليه فالحاضر عندهم نفس الأعمال بصورها المناسبة لها لا كتابتها كما هو ظاهر أمثال قوله: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ (التحريم / ٧)، ويؤيده قوله بعده: «وما يظلم ربك أحداً» فإن انتفاء الظلم بناء على تجسم الأعمال أوضح لأن ما يجزون به إنما هو عملهم يرد اليهم ويلحق بهم لا صنع في ذلك لأحد فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ تذكير ثان لهم بما جرى بينه تعالى وبين ابليس حين أمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن فتمرد عن أمر ربه.

أي واذكر هذه الواقعة حتى يظهر لهم أن ابليس - وهو من الجن - وذريته عدو لهم لا يريدون لهم الخير فلا ينبغي لهم أن يفتتنوا بما يزينه لهم هو وذريته من ملاذ الدنيا وشهواتها والاعراض عن ذكر الله ولا أن يطيعوهم فيما يدعونهم اليه من الباطل.

وقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ تفريع على محصل الواقعة والاستفهام للانكار أي ويتفرع على الواقعة أن لا تتخذوه وذريته أولياء والحال انهم اعداء لكم معشر البشر، وعلى هذا فالمراد بالولاية ولاية الطاعة حيث يطيعونه وذريته فيما يدعونهم فقد اتخذوهم مطاعين من دون الله، وهكذا فسرها المفسرون.

وليس من البعيد أن يكون المراد بالولاية ولاية الملك والتدبير وهو الربوبية.

قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ ظاهر السياق كون ضميري الجمع لابليس وذريته والمراد بالإشهاد الإحضار والإعلام عياناً كما أن الشهود هو المعاينة حضوراً، والعضد ما بين المرفق والكتف من الانسان ويستعار للمعين كاليد وهو المراد ههنا.

وقد اشتملت الآية في نفي ولاية التدبير عن إبليس وذريته على حجتين إحداهما: أن ولاية تدبير امور شيء من الأشياء تتوقف على الإحاطة العلمية ـ بتمام معنى الكلمة ـ بتلك الامور من الجهة التي تدبر فيها وبما لذلك الشيء وتلك الامور من الروابط الداخلية والخارجية بما يبتدىء منه وما يقارنه وما ينتهي اليه والارتباط الوجودي سار بين أجزاء الكون؛ وهؤلاء وهم إبليس وذريته لم يشهدهم الله سبحانه خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فلا كانوا شاهدين إذ قال للسماوات والأرض: كن فكانت ولا إذ قال لهم: كونوا فكانوا فهم جاهلون بحقيقة السماوات والأرض وما في أوعية وجوداتها من اسرار الخلقة حتى بحقيقة صنع أنفسهم فكيف يسعهم أن يلوا تدبير أمرها أو تدبير امر شطر منها فيكونوا آلهة وأرباباً من دون الله وهم جاهلون بحقيقة خلقتها وخلقة أنفسهم.

وأما أنهم لم يشهدوا خلقها فلأن كلاً منهم شيء محدود لا سبيل له الى ما وراء نفسه فغيره في غيب منه مضروب عليه الحجاب، وهذا بين وقد أنبأ الله سبحانه عنه في مواضع من كلامه؛ وكذا كل منهم مستور عنه شأن الاسباب التي تسبق وجوده واللواحق التي ستلحق وجوده.

وهذه حجة برهانية غير جدلية عند من أجاد النظر وأمعن في التدبر حتى لا يختلط عنده هذه الالعوبة الكاذبة التي نسميها تدبيراً بالتدبير الكوني الذي لا يلحقه خطأ ولا ضلال، وكذا الظنون والمزاعم الواهية التي نتداولها ونركن اليها بالعلم العياني الذي هو حقيقة العلم وكذا العلم بالامور الغائبة عنا بالظفر على أماراتها الأغلبية بالعلم بالغيب الذي يتبدل به الغيب شهادة.

والثانية أن كل نوع من أنواع المخلوقات متوجه بفطرته نحو كماله المختص بنوعه وهذا ضروري عند من تتبعها وأمعن النظر في حالها فالهداية الالهية عامة للجميع كما قال: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ (طه / ٥٠) والشياطين أشرار مفسدون مضلون فتصديهم تدبير شيء من السماوات والأرض أو الإنسان ـ ولن يكون إلا باذن من الله سبحانه ـ مؤد الى

نقضه السنة الالهية من الهداية العامة أي توسله تعالى الى الاصلاح بما ليس شأنه إلا الافساد والى الهداية بما خاصته الاضلال وهو محال.

وهذا معنى قوله سبحانه: «وما كنت متخذ المضلين عضداً» الظاهر في أن سنته تعالى أن لا يتخذ المضلين عضداً فافهم.

وفي قوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ ولم يقل: وما شهدوا وما كانوا دلالة على أنه سبحانه هو القاهر المهيمن عليهم على كل حال، والقائلون بإشراك الشياطين أو الملائكة أو غيرهم بالله في أمر التدبير لم يقولوا باستقلالهم في ذلك بل بأن أمر التدبير مملوك لهم بتمليك من الله تعالى مفوض اليهم بتفويض منه وأنهم أرباب وآلهة والله رب الأرباب وإله الآلهة.

وما تقدم من معنى الآية مبنى على حمل الاشهاد على معناه الحقيقي وإرجاع الضميرين في «ما أشهدتهم» و«أنفسهم» الى إبليس وذريته كما هو الظاهر المتبادر من السياق.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الى آخر الآية: هذا تذكير ثالث يذكر فيه ظهور بطلان الرابطة بين المشركين وبين شركائهم يوم القيامة ويتأكد بذلك أنهم ليسوا على شيء مما يدعيه لهم المشركون.

فقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الخ: الضمير له تعالى بشهادة السياق، والمعنى واذكر لهم يوم يقول الله لهم نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم لي شركاء فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وبان أنهم ليسوا لي شركاء ولو كانوا لاستجابوا.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾ الموبق بكسر الباء إسم مكان من وبق وبوقاً بمعنى هلك، والمعنى جعلنا بين المشركين وشركائهم محل هلاك وقد فسر القوم هذا الموبق والمهلك بالنار أو بمحل من النار يهلك فيه الفريقان المشركون وشركاءهم لكن التدبر في كلامه تعالى لا يساعد عليه فإن الآية قد اطلقت الشركاء وفيهم ـ ولعلهم الأكثر ـ الملائكة

وبعض الأنبياء والأولياء، وأرجع اليهم ضمير أولي العقل مرة بعد مرة، ولا دليل على اختصاصهم بمردة الجن والإنس، وكون جعل الموبق بينهم دليلا على الاختصاص أول الكلام.

فلعل المراد من جعل موبق بينهم إبطال الرابطة ورفعها من بينهم وقد كانوا يرون في الدنيا أن بينهم وبين شركائهم رابطة الربوبية والمربوبية أو السببية والمسببية فكني عن ذلك بجعل موبق بينهم يهلك فيه الرابطة والعلقة من غير أن يهلك الطرفان. ويومي الى ذلك بلطيف الإشارة تعبيره عن دعوتهم أولا بالنداء حيث قال: «نادوا شركائي» والنداء إنما يكون في البعيد فهو دليل على بعد ما بينهما.

والى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ (الأنعام / ٩٤)، وقوله تعالى: ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ (يونس / ٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ في أخذ المجرمين مكان المشركين دلالة على أن الحكم عام لجميع أهل الإجرام، والمراد بالظن هو العلم ـ على ما قيل ـ ويشهد به قوله: «ولم يجدوا عنها مصرفاً».

والمراد بمواقعة النار الوقوع فيها ـ على ما قيل ولا يبعد أن يكون المراد حصول الوقوع من الجانبين فهم واقعون في النار بدخولهم فيها والنار واقعة فيهم باشتعالهم بها. وقوله: ولم يجدوا عنها مصرفاً» المصرف بكسر الراء اسم مكان من الصرف أي لم يجدوا محلا ينصرفون اليه ويعدلون عن النار ولا مناص.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هٰذَا ٱلْقُرآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ قد مر الكلام في نظير صدر الآية في سورة أسرى آية ٨٩

والجدل الكلام على سبيل المنازعة والمشاجرة والآية الى تمام ست آيات مسوقة للتهديد بالعذاب بعد التذكيرات السابقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ و« يستغفروا » عطف على قوله: « يؤمنوا » أي وما منعهم من الإيمان والاستغفار حين مجيء الهدى.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا طلب أن تأتيهم السنة الجارية في الامم الأولين وهي عذاب الاستئصال. وقوله: « أو يأتيهم العذاب قبلا » عطف على سابقه أي أو طلب أن يأتيهم العذاب مقابلة وعياناً ولا ينفعهم الايمان حينئذ لأنه ايمان بعد مشاهدة البأس الالهي قال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ (المؤمن / ٨٥).

فحصل المعنى أن الناس لا يطلبون إيماناً ينفعهم والذي يريدونه أن يأخذهم عذاب الاستئصال على سنة الأولين فيهلكوا ولا يؤمنوا أو يقابلهم العذاب عيانا فيؤمنوا اضطراراً فلا ينفعهم الايمان.

وهذا المنع والاقتضاء في الآية أمر ادعائي يراد به أنهم معرضون عن الحق لسوء سريرتهم فلا جدوى للإطناب الذي وقع في التفاسير في صحة ما مر من التوجيه والتقدير إشكالا ودفعاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ الخ: تعزية للنبي ﷺ أن لا يضيق صدره من إنكار المنكرين وإعراضهم عن ذكر الله فما كانت وظيفة المرسلين إلا التبشير والانذار وليس عليهم وراء ذلك من بأس ففيه انعطاف الى مثل ما مر في قوله في أول السورة: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ وفي الآية أيضاً نوع تهديد للكفار المستهزئين.

والدحض الهلاك والإدحاض الإهلاك والإبطال، والهزوء: الاستهزاء والمصدر بمعنى اسم المفعول ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ إعظام وتكبير لظلم والظلم يعظم ويكبر بحسب متعلقه، وإذا كان هو الله سبحانه بآياته فهو أكبر من كل ظلم.

والمراد بنسيان ما قدمت يداه عدم مبالاته بما يأتيه من الاعراض عن الحق والاستهزاء به وهو يعلم أنه حق، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ كأنه تعليل لاعراضهم عن آيات الله أوله ولنسيانهم ما قدمت أيديهم، وقد تقدم الكلام في معنى جعل الأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم في الكتاب مراراً.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ إيآس من إيمانهم بعدما ضرب الله الحجاب على قلوبهم وآذانهم فلا يسعهم بعد ذلك أن يهتدوا بأنفسهم بتعقل الحق ولا أن يسترشدوا بهداية غيرهم بالسمع والاتباع، والدليل على هذا المعنى قوله: «وإن تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً» حيث دل على تأبيد النفي وقيده بقوله: «إذا» وهو جزاء وجواب.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الى آخر الآية؛ الآيات ـ كما سمعت ـ مسرودة لتهديدهم بالعذاب وهم فاسدون في أعمالهم فساداً لا يرجى منهم صلاح وهذا مقتض لنزول العذاب وأن يكون معجلاً لا يمهلهم إذ لا أثر لبقائهم إلا الفساد لكن الله سبحانه لم يجعل لهم العذاب وإن قضى به قضاء حتم بل أخره الى أجل مسمى عينه بعلمه.

فقوله: «وربك الغفور ذو الرحمة» صدرت به الآية المتضمنة لصريح القضاء في تهديدهم ليعدل به بواسطة اشتماله على الوصفين: الغفور ذي الرحمة ما يقتضي العذاب المعجل فيقضي ويمضي أصل العذاب أداء لحق مقتضيه وهو عملهم، ويؤخر وقوعه لأن الله

غفور ذو رحمة.

فالجملة أعني قوله: «الغفور ذو الرحمة» مع قوله: «لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب» بمنزلة متخاصمين متنازعين يحضران عند القاضي. وقوله: «بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا» أي ملجأ ليجؤون منه اليه بمنزلة الحكم الصادر عنه بما فيه إرضاء الجانبين ومراعاة الحقين فاعطي وصف الانتقام الإلهي باستدعاء مما كسبوا أصل العذاب. واعطيت صفة المغفرة والرحمة أن يؤجل العذاب ولا يعجل؛ وعند ذلك أخذت المغفره الالهية تمحو أثر العمل الذي هو استعجال العذاب. والرحمة تفيض عليهم حياة معجلة.

ومحصل المعنى: لو يؤاخذهم ربك لعجل لهم العذاب لكن لم يعجل لأنه الغفور ذو الرحمة بل حتم عليهم العذاب بجعله لهم موعداً لا ملجأ لهم ليجؤون منه اليه. فقوله: «بل لهم موعد» الخ: كلمة قضاء وليس بحكاية محضة وإلا قيل: بل جعل لهم موعداً، الخ؛ فافهم ذلك.

والغفور صيغة مبالغة تدل على كثرة المغفرة، وذو الرحمة ـ ولامه للجنس ـ صفة تدل على شمول الرحمة لكل شيء فهي أشمل معنى من الرحمان والرحيم الدالين على الكثرة أو الثبوت والاستمرار فالغفور بمنزلة الخادم لذي الرحمة فإنه يصلح المورد لذي الرحمة بإمحاء ما عليه من وصمة الموانع فإذا صلح شمله ذو الرحمة. فللغفور السعي وكثرة العمل ولذي الرحمة الانبساط والشمول على ما لا مانع عنده. ولهذه النكتة جيء في المغفرة بالغفور وهو صيغة مبالغة وفي الرحمة بذي الرحمة الحاوي لجنس الرحمة فأفهم ذلك ودع عنك ما أطنبوا فيه من الكلام في الاسمين.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾ المراد بالقرى أهلها مجازاً بدليل الضمائر الراجعة اليها. والمهلك بكسر اللام اسم زمان.

ومعنى الآية ظاهر وهي مسوقة لبيان أن تأخير مهلكهم وتأجيله ليس ببدع منا بل السنة

الالهية في الامم الماضين الذين أهلكهم الله لما ظلموا كانت جارية على ذلك فكان الله يهلكهم ويجعل لمهلكهم موعدا.

٦٠ • وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَيٰهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً.

٦١ • فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَباً.

٦٢ • فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَيٰهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هٰذَا نَصَباً.

٦٣ • قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلبَحْرِ عَجَباً.

٦٤ • قَالَ ذٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِما قَصَصاً.

٦٥ • فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً.

٦٦ • قَالَ لَهُ مُوسىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً.

٦٧ • قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

٦٨ • وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً.

٦٩ • قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً.

٧٠ ❁ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً.

٧١ ❁ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً.

٧٢ ❁ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

٧٣ ❁ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً.

٧٤ ❁ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً.

٧٥ ❁ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

٧٦ ❁ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذراً.

٧٧ ❁ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذتَ عَلَيْهِ أَجْراً.

٧٨ ❁ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً.

٧٩ ❁ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ

أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً.

٨٠ ● وَأَمَّا ٱلغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً.

٨١ ● فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكْوةً وَأَقْرَبَ رُحْماً.

٨٢ ● وَأَمَّا ٱلجِدارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَيٰهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ الظرف متعلق بقدر، والجملة معطوفة على ما عطف عليه التذكيرات الثلاثة المذكورة سابقاً، وقوله: «لا أبرح» بمعنى لا أزال وهو من الأفعال الناقصة حذف خبره إيجازاً لدلالة قوله: «حتى أبلغ» عليه والتقدير لا أبرح أمشي أو أسير، ومجمع البحرين قيل: هو الذي ينتهي اليه بحر الروم من الجانب الشرقي وبحر الفرس من الجانب[1] الغربي، والحقب الدهر والزمان وتنكيره يدل على وصف محذوف والتقدير حقباً طويلا.

والمعنى ـ والله أعلم ـ واذكر إذ قال موسى لفتاه: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي دهراً طويلاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ

---

١. فمجمع البحرين على هذا ما بينهما سمى مجمعا بنوع من التوسع.

سَرَباً ﴾ الظاهر أن قوله: «مجمع بينهما» من إضافة الصفة الى الموصوف وأصله بين البحرين الوصف بأنه مجمعهما.

وقوله: «نسيا حوتهما» الآيتان التاليتان تدلان على أنه كان حوتا مملوحا أو مشوياً حملاه ليرتزقا به في المسير ولم يكن حياً وإنما حي هناك واتخذ سبيله في البحر ورآه الفتى وهو حي يغوص في البحر ونسي أن يذكر ذلك لموسى ونسي موسى أنه يسأله عنه أين هو؟ وعلى هذا فمعنى «نسيا حوتهما» بنسبة النسيان اليهما معاً: نسيا حال حوتهما فموسى نسي كونه في المكتل فلم يتفقده والفتى نسيه إذ بلم يخبر موسى بعجيب ما رأى من أمره. هذا ما ذكروه.

وقوله: «فاتخذ سبيله في البحر سربا» السرب المسلك والمذهب والسرب والنفق الطريق المحفور في الأرض لا نفاذ فيه كأنه شبه السبيل الذي اتخذه الحوت داخل الماء بالسرب الذي يسلكه السالك فيغيب فيه.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَيٰهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَباً ﴾ قال في المجمع: النصب والوصب والتعب نظائر، وهو الوهن الذي يكون عن كد انتهى، والمراد بالغداء ما يتغدى به وفيه دلالة على أن ذلك كان في النهار.

والمعنى: ولما جاوزا مجمع البحرين أمر موسى فتاه أن يأتي البغداء وهو الحوت الذي حملاه ليتغديا به ولقد لقيا من سفرهما تعبا.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ الى آخر الآية: يريد حال بلوغهم مجمع البحرين ومكثهم هناك فقد كانت الصخرة هناك والدليل عليه قوله: «واتخذ سبيله» الخ: وقد ذكر في ما مر أنه كان بمجمع البحرين، يقول لموسى: لا غداء عندنا نتغدى به فإن غداءنا وهو الحوت حي ودخل البحر وذهب حينما بلغنا مجمع البحرين وأينا الى الصخرة التي كانت هناك وإني نسيت أن اخبرك بذلك.

فقوله: «أرأيت إذ أوينا الى الصخرة» يذكره حال اويهما الى الصخرة ونزولهما عندها

ليستريحا قليلاً، وقوله: «فإني نسيت الحوت» أي نسيت حال الحوت التي شاهدتها منه فلم أذكرها لك، والدليل على هذا ـ كما قيل ـ قوله: «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره» فان «أن أذكره» بدل من ضمير «أنسانيه» والتقدير «وما أنساني ذكر الحوت لك إلا الشيطان» فهو لم ينس نفس الحوت وإنما نسي أن يذكر حاله التي شاهد منه لموسى.

ولا ضير في نسبة الفتى نسيانه الى تصرف من الشيطان بناء على أنه كان يوشع بن نون النبي والأنبياء في عصمة إلهية من الشيطان لأنهم معصومون مما يرجع الى المعصية وأما مطلق إيذاء الشيطان فيما لا يرجع الى معصية فلا دليل يمنعه قال تعالى: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ (ص / ٤١).

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَباً﴾ أي اتخاذاً عجباً، فعجبا وصف قام مقام موصوفه على المفعولية المطلقة، وقيل: إن قوله: «واتخذ سبيله في البحر» قول الفتى وقوله: «عجباً» من قول موسى، والسياق يدفعه.

واعلم أن ما تقدم من الاحتمال في قوله: «ونسيا حوتهما» الخ: جار ههنا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ البغي الطلب، والارتداد العود على بدء، والمراد بالآثار آثار أقدامهما، والقصص اتباع الأثر والمعنى قال موسى: ذلك الذي وقع من أمر الحوت هو الذي كنا نطلبه فرجعا على آثارهما يقصانها قصصاً ويتبعانها اتباعاً.

وقوله: «ذلك ما كنا نبغ فارتدا» يكشف عن أن موسى كان مأموراً من طريق الوحي ان يلقى العالم في مجمع البحرين وكان علامة المحل الذي يجده ويلقاه فيه ما وقع من أمر الحوت إما خصوص قضية حياته وذهابه في البحر أو بنحو الابهام والعموم كفقد الحوت أو حياته أو عود الميت حياً ونحو ذلك، ولذلك لما سمع موسى من فتاه ما سمع من أمر الحوت قال ما قال، ورجعا الى المكان الذي فارقاه فوجدا عبداً، الخ.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾الخ. كل نعمة فإنها رحمة منه تعالى لخلقه لكن منها ما تتوسط فيه الأسباب الكونية وتعمل فيه كالنعم الظاهرية بأنواعها، ومنها ما لا يتوسط فيه شيء منها كالنعم الباطنية من النبوة والولاية بشعبها ومقاماتها، وتقييد الرحمة بقوله: «من عندنا» الظاهر في أنها من موهبته لا صنع لغيره فيها يعطي أنها من القسم الثاني أعني النعم الباطنية ثم اختصاص الولاية بحقيقتها به تعالى كما قال: ﴿فالله هو الولي﴾ (الشورى / ٩). وكون النبوة مما للملائكة الكرام فيه عمل كالوحي ونحوه يؤيد أن يكون المراد بقوله: «رحمة من عندنا» حيث جيء بنون العظمة ولم يقل: من عندي هو النبوة دون الولاية، وبهذا يتأيد تفسير من فسر الكلمة بالنبوة والله أعلم.

وأما قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾فهو أيضا كالرحمة التي من عنده علم لا صنع فيه للأسباب العادية كالحس والفكر حتى يحصل من طريق الاكتساب والدليل على ذلك قوله: «من لدنا» فهو علم وهبي غير اكتسابي يختص به أولياءه وآخر الآيات يدل على أنه كان علما بتأويل الحوادث.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ الرشد خلاف الغي وهو إصابة الصواب، وهو في الآية مفعول له أو مفعول به، والمعنى قال له موسى: هل اتبعك اتباعاً مبنيا على هذا الأساس وهو أن تعلمني مما علمت لأرشد به أو تعلمني مما علمت أمرا ذا رشد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾نفي مؤكد لصبره ﷺ على شيء مما يشاهده منه في طريق التعليم والدليل عليه تأكيد الكلام بإن، وإيراد الصبر نكرة في سياق النفي الدال على إرادة العموم، ونفي الصبر بنفي الاستطاعة التي هي القدرة فهو آكد من أن يقال: لن تصبر، وإيراد النفي بلن ولم يقل: لا تصبر وللفعل توقف على القدرة فهو نفي الفعل بنفي أحد أسبابه ثم نفي الصبر بنفي سبب القدرة عليه وهو إحاطة الخبر والعلم بحقيقة الواقعة

وتأويلها حتى يعلم أنها يجب أن تجري على ما جرت عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ الخبر العلم وهو تمييز والمعنى لا يحيط به خبرك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ وعده الصبر لكن قيده بالمشية فلم يكذب إذ لم يصبر، وقوله: «ولا أعصي» الخ؛ عطف على «صابرا» لما فيه من معنى الفعل فعدم المعصية الذي وعده أيضاً مقيد بالمشية ولم يخلف الوعد إذ لم ينتهي بنهيه عن السؤال.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ الظاهر أن «منه» متعلق بقوله: «ذكرا» وإحداث الذكر من الشيء الابتداء به من غير سابقة والمعنى فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء تشاهده من أمري تشق عليك مشاهدته حتى أبتدء أنا بذكر منه، وفيه إشارة الى أنه سيشاهد منه اموراً تشق عليه مشاهدتها وهو سيبينها له لكن لا ينبغي لموسى أن يبتدئه بالسؤال والاستخبار بل ينبغي أن يصبر حتى يبتدئه هو بالإخبار.

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ الإمر بكسر الهمزة الداهية العظيمة، وقوله: «فانطلقا» تفريع على ما تقدمه، والمنطلقان هما موسى والخضر وهو ظاهر في أن موسى لم يصحب فتاه في سيره مع الخضر، واللام في قوله: «لتغرق أهلها» للغاية فإن الغرق وإن كان عاقبة للخرق ولم يقصده الخضر البتة لكن العاقبة الضرورية ربما تؤخذ غاية مقصودة ادعاء لوضوحها كما يقال: أتفعل كذا لتهلك نفسك؟ والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ إنكار لسؤال موسى وتذكير لما قاله من قبل: «إنك لن تستطيع» الخ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ الرهق الغشيان بالقهر والارهاق التكليف. والمعنى لا تؤاخذني بنسياني الوعد وغفلتي عنه ولا تكلفني عسراً من أمري. وربما يفسر النسيان بمعنى الترك. والأول أظهر. والكلام اعتذار على أي حال.

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ في الكلام بعض الحذف للايجاز والتقدير: فخرجا من السفينة وانطلقا.

وفي قوله: «حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال» الخ؛ «فقتله» معطوف على الشرط بفاء التفريع و«قال» جزاء «إذا» على ما هو ظاهر الكلام: وبذلك يظهر أن العمدة في الكلام ذكر اعتراض موسى لا ذكر القتل. ونظيرته الآية اللاحقة «فانطلقا حتى إذا أتى أهل قرية ـ لى قوله ـ قال لو شئت» الخ؛ بخلاف الآية السابقة: «فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال» فإن جزاء «إذا» فيها «خرقها» وقوله: «قال» كلام مفصول مستأنف.

وقوله: «أقتلت نفسا زكية» الزكيه الطاهرة. والمراد طهارتها من الذنوب لعدم البلوغ كما يشعر به قوله: «غلاما» والاستفهام للانكار، والقائل موسى.

وقوله: «بغير نفس» أي بغير قتل منها لنفس قتلا مجوزاً لقتلها قصاصا وقودا فإن غير البالغ لا يتحقق منه القتل الموجب للقصاص، وربما استفيد من قوله: «بغير نفس» أنه كان شاباً بالغا. ولا دلالة في إطلاق الغلام عليه على عدم بلوغه لأن الغلام يطلق على البالغ وغيره فالمعنى أقتلت بغير قصاص نفس بريئة من الذنوب المستوجبة للقتل؟ إذ لم يظهر لهما من الغلام شيء يستوجبه.

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ أي منكرا يستنكره الطبع ولا يعرفه المجتمع وقد عد خرق السفينة إمرا أي داهية يستعقب مصائب لم يقع شيء منها بعد وقتل النفس نكرا أو منكرا

وهو أفظع وأفجع عند الناس من الخرق الذي يستوجب عادة هلاك النفوس لكن لا بالمباشرة فعلاً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ معناه ظاهر وزيادة «لك» نوع تقريع له أنه لم يصغ الى وصيته وإيماء الى كونه كأنه لم يسمع قوله له أول مرة: «إنك لن تستطيع معي صبرا» أو سمعه وحسب أنه لا يعنيه بل يقصد به غيره كأنه يقول: إنما عنيت بقوله: إنك لن تستطيع.. الخ؛ إياك دون غيرك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ الضمير في «بعدها» راجع الى هذه المرة أو المسألة اي ان سألتك بعد هذه المرة او هذه المسألة فلا تصاحبني اي يجوز لك ان لا تصاحبني.

وقوله: «قد بلغت من لدني عذرا» اي بلغت عدرا ووجدته كائناً ذلك من لدني اذ بلغ عذرك النهاية من عندي.

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ الى آخر الآية؛ الكلام في قوله: «فانطلقا» «فأبوا» «فوجدا» «فأقامه» كالكلام في قوله في الآية السابقة: «فانطلقا» «فقتله».

وقوله: «استطعما أهلها» صفة لقرية ولم يقل «استطعماهم» لرداءة قولنا: قرية استطعماهم بخلاف مثل قولنا: أتى قرية على إرادة أتى أهل قرية لأن للقرية نصيباً من الاتيان فيجوز وضعها موضع أهلها مجازاً بخلاف الاستطعام لأنه لأهلها خاصة، وعلى هذا فليس قوله: «أهلها» من وضع الظاهر موضع المضمر.

ولم يقل: حتى إذ أتيا قرية استطعما أهلها لأن القرية كانت تتمحض حينئذ في معناها الحقيقي والغرض العمدة ـ كما عرفت ـ متعلق بالجزاء أعني قوله: «قال لو شئت لتخذت عليه أجراً» وفيه ذكر أخذ الأجر وهو إنما يكون من أهلها لا منها فقوله: «أتيا أهل قرية» دليل

على أن إقامة الجدار كانت بحضور من أهل القرية وهو الذي أغنى أن يقال: لو شئت لتخذت عليه منهم أو من أهلها أجراً، فافهم ذلك.

والمراد بالاستطعام طلب الطعام بالإضافة ولذا قال: «فأبوا أن يضيفوهما» وقوله: «فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض» الانقضاض السقوط. وإرادة الانقضاض مجاز عن الاشراف على السوق والانهدام. وقوله: «فأقامه» أي أثبته الخضر باصلاح شأنه ولم يذكر سبحانه كيف أقامه؟ بنحو خرق العادة أم ببناء أو ضرب دعامة؟ غير أن قول موسى «لو شئت لتخذت عليه أجراً» مشعر بأن كان بعمل غير خارق فإن المعهود من أخذ الأجر، ما كان على العاديات.

وقوله: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ[1] عَلَيْهِ أَجْراً﴾ تخذ وأخذ بمعنى واحد، وضمير «عليه» للاقامة المفهومة من «فأقامه» وهو مصدر جائز الوجهين، والسياق يشهد أنهما كانا جائعين فذكره موسى أخذ الاجرة على عمله إذ لو كان أخذ أجراً أمكنهما أن يتشريا به شيئاً من الطعام يسدان به جوعهما.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ الإشارة بهذا الى قول موسى أي هذا القول سبب فراق بيني وبينك أو الى الوقت أي هذا الوقت وقت فراق بيني وبينك كما قيل، ويمكن أن تكون الاشارة الى نفس الفراق. والمعنى هذا الفراق قد حضر كأنه كان أمراً غائباً فحضر عند قول موسى «لو شئت لتخذت» الخ؛ وقوله: «بيني وبينك» ولم يقل بيننا للتأكيد، وإنما قال الخضر هذا القول بعد الاعتراض الثالث لأن موسى كان قبل ذلك يعتذر اليه كما في الأول أو يستمهله كما في الثاني، وأما الفراق بعد الاعتراض الثالث فقد أعذره موسى فيه إذ قال بعد الاعتراض الثاني: «إن

---

١. قرىء بالتشديد من «اتخذ» وبالتخفيف من «تخذ».

سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني» الخ؛ والباقي ظاهر.

قول تعالى ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾الخ؛ شروع في تفصيل ما وعد إجمالاً بقوله: «سانبئك» الخ؛ وقوله: «أن أعيبها» أي أجعلها معيبة وهذه قرينه على أن المراد بلك سفينة كل سفينة غير معيبة.

وقوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ وراء بمعنى الخلف وهو الظرف المقابل للظرف الآخر الذي يواجهه الانسان ويسمى قدام وأمام لكن ربما يطلق على الظرف الذي يغفل عنه الانسان وفيه من يريده بسوء أو مكروه وإن كان قدامه أو فيه ما يعرض عنه الانسان أو فيه ما يشغل الانسان بنفسه عن غيره كأن الانسان ولى وجهه الى جهة تخالف جهته قال تعالى: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك اولئك هم العادون﴾ (المؤمنون / ٧)، وقال: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ (الشورى / ٥١)، وقال: ﴿والله من ورائهم﴾ (البروج / ٢٠).

ومحصل المعنى: أن السفينة كانت لعدة من المساكين يعملون بها في البحر ويتعيشون به وكان هناك ملك جبار أمر بغصب السفن فأردت بخرقها أن أحدث فيها عيباً فلا يطمع فيها الجبار ويدعها لهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ الأظهر من سياق الآية وما سيأتي من قوله: «وما فعلته عن أمري» أن يكون المراد بالخشية التحذر عن رأفة ورحمة مجازاً لا معناه الحقيقي الذي هو التأثر القلبي الخاص المنفي عنه تعالى وعن أنبيائه كما قال: ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ (الأحزاب / ٣٩)، وأن يكون المراد بقوله: «أن يرهقهما طغياناً وكفرا» أن يغشيهما ذلك أي يحمل والديه على الطغيان والكفر بالاغواء والتأثير الروحي لمكان حبهما الشديد .. لكن قوله في الآية التالية: «وأقرب رحما» لا تخلو من تأييد لكون «طغياناً وكفرا» تميزين عن الارهاق أي وصفين

للغلام دون أبويه .

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكٰوةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ المراد بكونه خيرا منه زكاة كونه خيرا منه صلاحاً وايماناً بقرينة مقابلته الطغيان والكفر في الآية السابقة . وأصل الزكاة فيما قيل الطهارة . والمراد بكونه أقرب منه رحما كونه أوصل للرحم والقرابة فلا يرهقهما . وأما تفسيره بكونه أكثر رحمة بهما فلا يناسبه قوله : «أقرب منه» تلك المناسبة . وهذا ـ كما عرفت ـ يؤيد كون المراد من قوله : «يرهقهما طغياناً وكفرا» في الآية السابقة إرهاقه اياهما بطغيانه وكفره لا تكليفه إياهما الطغيان والكفر وإغشاؤهما ذلك .

والآية ـ على أي حال ـ تلوح الى أن إيمان أبويه كان ذا قدر عند الله ويستدعي ولداً مؤمناً صالحاً يصل رحمهما وقد كان المقضي في الغلام خلاف ذلك فأمر الله الخضر بقتله ليبدلهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما .

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلجِدارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُما صَالِحاً﴾ لا يبعد أن يستظهر من السياق أن المدينة المذكورة في هذه الآية غير القرية التي وجدا فيها الجدار فأقامه ، اذ لو كانت هي هي لم يكن كثير حاجة الى ذكر كون الغلاميين اليتيمين فيها فكأن العاية متعلقة بالاشارة الى أنهما ومن يتولى أمرهما غير حاضرين في القرية .

وذكر يتم الغلامين ووجود كنز لهما تحت الجدار ولو انقض لظهر وضاع وكون أبيهما صالحاً كل ذلك توطئة وتمهيد لقوله : «فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما» وقوله : «رحمة من ربك» تعليل للارادة .

وفي الاية دلالة على أن صلاح الإنسان ربما ورث أولاده أثرا جميلا وأعقب فيهم السعادة والخير فهذه الآية في جانب الخير نظيرة قوله تعالى: ﴿وليخش الذين لو تركوا من بعدهم ذرية ضعافا خافوا عليهم﴾ (النساء / ٩).

وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ كناية عن أنه إنما فعل ما فعل عن أمر غيره وهو الله سبحانه لا عن أمر أمرته به نفسه.

وقوله: ﴿ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي ما لم تستطع عليه صبرا من اسطاع يسطيع بمعنى استطاع يستطيع وقد تقدم في أول تفسير سورة آل عمران أن التأويل في عرف القرآن هي الحقيقة التي يتضمنها الشيء ويؤول اليها ويبتني عليها كتأويل الرؤيا وهو تعبيرها، وتأويل الحكم وهو ملاكه وتأويل الفعل وهو مصلحته وغايته الحقيقية، وتأويل الواقعة وهو علتها الواقعية وهكذا.

فقوله: «ذلك تأويل ما لم تسطع» الخ: إشارة منه الى أن الذي ذكره للوقائع الثلاث وأعماله فيها هو السبب الحقيقي لها لا ما حسبه موسى من العناوين المترائية من أعماله كالتسبب الى هلاك الناس في خرق السفينة والقتل من غير سبب موجب في قتل الغلام وسوء تدبير المعاش في إقامة الجدار[1][2].

٨٣ ۞ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً.

٨٤ ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً.

٨٥ ۞ فَأَتْبَعَ سَبَباً.

٨٦ ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً.

---

١. الكهف ٦٠ ـ ٨٢: بحث تاريخي في فصلين (قصة موسى والخضر في القرآن، قصة الخضر).

٢. الكهف ٦٠ ـ ٨٢: بحث روائي حول قصة موسى والخضر.

٨٧ ❁ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً
نُكْراً.

٨٨ ❁ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ
مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً.

٨٩ ❁ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً.

٩٠ ❁ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ
لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً.

٩١ ❁ كَذٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِما لَدَيْهِ خُبْراً.

٩٢ ❁ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً.

٩٣ ❁ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لاٰ يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلاً.

٩٤ ❁ قَالُوا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَـأْجوجَ وَمَـأْجوجَ مُـفْسِدُونَ فِـي
ٱلْأَرضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدّاً.

٩٥ ❁ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْـعَلْ بَـيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْماً.

٩٦ ❁ آتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا
حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً.

٩٧ ❁ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً.

٩٨ ● قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً.

٩٩ ● وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً.

١٠٠ ● وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً.

١٠١ ● ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً.

١٠٢ ● أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي يسألونك عن شأن ذي القرنين. والدليل على ذلك جوابه عن السؤال بذكر شأنه لا تعريف شخصه حتى اكتفى بلقبه فلم يتعد منه الى ذكر اسمه.

والذكر إما مصدر بمعنى المفعول والمعنى قل سأتلو عليكم منه أي من ذي القرنين شيئاً مذكوراً، وإما المراد بالذكر القرآن ـ وقد سماه الله في مواضع من كلامه بالذكر والمعنى قل سأتلو عليكم منه أي من ذي القرنين أو من الله قرآنا وهو ما يتلو هذه الآية من قوله: «إنا مكنا له» الى آخر القصة؛ والمعنى الثاني أظهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ التمكين الإقدار يقال: مكنته ومكنت له أي أقدرته فالتمكن في الأرض القدرة على التصرف فيه

بالملك كيفما شاء وأراد. وربما يقال: إنه مصدر مصوغ من المكان بتوهم أصالة الميم فالتمكين إعطاء الاستقرار والثبات بحيث لا يزيله عن مكانه أي مانع مزاحم.

والسبب الوصلة والوسيلة فمعنى إيتائه سبباً من كل شيء أن يؤتى من كل شيء يتوصل به الى المقاصد الهامة الحيوية ما يستعمله ويستفيد منه كالعقل والعلم والدين وقوة الجسم وكثرة المال والجند وسعة الملك وحسن التدبير وغير ذلك وهذا امتنان منه تعالى على ذي القرنين وإعظام لأمر بأبلغ بيان. وما حكاه تعالى من سيرته وفعله وقوله المملوءة حكمة وقدرة يشهد بذلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ الإتباع اللحوق أي لحق سبباً واتخذ وصلة وسيلة يسير بها نحو مغرب الشمس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ تدل «حتى» على فعل مقدر وتقديره «فسار حتى إذا بلغ» والمراد بمغرب الشمس آخر المعمورة يومئذ من جانب الغرب بدليل قوله: «ووجد عندها قوماً».

وذكروا أن المراد بالعين الحمئة العين ذات الحمأة وهي الطين الأسود. وأن المراد بالعين البحر فربما تطلق عليه، وأن المراد بوجدان الشمس تغرب في عين حمئة أنه وقف على ساحل بحر لا مطمع في وجود بر وراءه فرأى الشمس كأنها تغرب في البحر لمكان انطباق الافق عليه قيل: وينطبق هذه العين الحمئة على المحيط الغربي وفيه الجزائر الخالدات التي كانت مبدء سابقاً ثم غرقت.

وقرىء «في عين حامية» أي حارة. وينطبق على النقاط القريبة من خط الاستواء من المحيط الغربي المجاورة لافريقية ولعل ذا القرنين في رحلته الغربية بلغ سواحل إفريقية.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾

القول المنسوب اليه تعالى في القرآن يستعمل في الوحي النبوي وفي الابلاغ بواسطة الوحي كقوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن﴾ (البقرة / ٣٥) وقوله: ﴿وإذ قلنا ادخلو هذه القرية﴾ (البقرة / ٥٨). ويستعمل في الالهام الذي ليس من النبوة كقوله: ﴿وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه﴾ (القصص / ٧).

وبه يظهر أن قوله: «وقلنا يا ذا القرنين» الخ؛ لا يدل على كونه نبياً يوحى اليه لكون قوله تعالى أعم من الوحي المختص بالنبوة ولا يخلو قوله: «ثم يرد الى ربه فيعذبه» الخ؛ حيث أورد في سياق الغيبة بالنسبة اليه تعالى من إشعار بأن مكالمته كانت بتوسط نبي كان معه فملكه نظير ملك طالوت في بني إسرائيل بإشارة من نبيهم وهدايته.

وقوله: «إما أن تعذب وإما أن نتخذ فيهم حسناً» أي إما أن تعذب هؤلاء القوم وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حسن، فحسنا مصدر بمعنى الفاعل قائم مقام موصوفه أو هو وصف للمبالغة، وقد قيل: إن في مقابلة العذاب باتخاذ الحسن إيماء الى ترجيحه والكلام ترديد خبري بداعي الاباحة فهو إنشاء في صورة الإخبار، والمعنى لك أن تعذبهم ولك أن تعفو عنهم كما قيل، لكن الظاهر أنه استخبار عما سيفعله بهم من سياسة أو عفو، وهو الأوفق بسياق الجواب المشتمل على التفصيل بالتعذيب والاحسان «أما من ظلم فسوف نعذبه» الخ؛ إذ لو كان قوله: «إما أن تعذب» الخ؛ حكما تخييريا لكان قوله: «أما من ظلم» الخ؛ تقريراً له وإيذانا بالقبول ولا كثير فائدة فيه.

ومحصل المعنى: استخبرناه ماذا تريد أن تفعل بهم من العذاب والإحسان وقد غلبتهم واستوليت عليهم؟ فقال: نعذب الظالم منهم ثم يرد الى ربه فيعذبه العذاب النكر، ونحسن الى المؤمن الصالح ونكلفه بما فيه يسر.

ولم يذكر المفعول في قوله: «إما أن تعذب» بخلاف قوله: «إما أن تتخذ فيهم حسناً» لأن جميعهم لم يكونوا ظالمين، وليس من الجائز تعميم العذاب لقوم هذا شأنهم بخلاف تعميم

الإحسان لقوم فيهم الصالح والطالح.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً﴾ النكر والمنكر غير المعهود أي يعذبه عذاباً لا عهد له به. ولا يحتسبه ويترقبه.

وقد فسر الظلم بالإشراك. والتعذيب بالقتل فمعنى «أما من ظلم فسوف نعذبه» أما من أشرك ولم يرجع عن شركه فسوف نقتله. وكأنه مأخوذ من مقابلة «من ظلم» بقوله: «من آمن وعمل صالحا» لكن الظاهر من المقابلة أن يكون المراد بالظالم أعم ممن أشرك ولم يؤمن بالله أو آمن ولم يشرك لكنه لم يعمل صالحا بل أفسد في الأرض. ولولا تقييد مقابله بالإيمان لكان ظاهر الظلم هو الافساد من غير نظر الى الشرك لأن المعهود من سيرة الملوك إذا عدلوا أن يطهروا أرضهم من فساد المفسدين. وكذا لا دليل على تخصيص التعذيب بالقتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ الخ: «صالحاً» وصف اقيم مقام موصوفه وكذا الحسنى. و«جزاء» حال أو تمييز أو مفعول مطلق والتقدير: وأما من آمن وعمل عملا صالحا فله المثوبة الحسنى حال لكونه مجزياً أو من حيث الجزاء أو نجزيه جزاء.

وقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ اليسر بمعنى الميسور وصف اقيم مقام موصوفه والظاهر أن المراد بالأمر الأمر التكليفي وتقدير الكلام: وسنقول له قولا ميسوراً من أمرنا أي نكلفه بما يتيسر له ولا يشق عليه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ الخ: أي ثم هيأ سببا للسير فسار نحو المشرق حتى إذا بلغ الصحراء من الجانب الشرقي فوجد الشمس تطلع على قوم بدويين لم نجعل لهم من دونها ستراً.

والمراد بالستر ما يستتر به من الشمس، وهو البناء واللباس أو خصوص البناء أي كانوا يعيشون على الصعيد من غير أن يكون لهم بيوت يأوون اليها ويستترون بها من الشمس

وعراة لا لباس عليهم، وإسناد ذلك الى الله سبحانه في قوله: «لم نجعل لهم» الخ؛ إشارة الى أنهم لم يتنبهوا بعد لذلك ولم يتعلموا بناء البيوت واتخاذ الخيام ونسج الأثواب وخياطتها.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾ الظاهر أن قوله: «كذلك» إشارة الى وصفهم المذكور في الكلام، وتشبيه الشيء بنفسه مبنياً على دعوى المغايرة يفيد نوعاً من التأكيد، وقد قيل في المشار اليه بذلك وجوه اخر بعيدة عن الفهم.

وقوله: «وقد أحطنا بما لديه خبرا» الضمير لذي القرنين، والجملة حالية والمعنى أنه اتخذ وسيلة السير وبلغ مطلع الشمس ووجد قوماً كذا وكذا في حال أحاط فيها علمنا وخبرنا بما عنده من عدة وعدة وما يجريه أو يجري عليه، والظاهر أن إحاطة علمه تعالى بما عنده كناية عن كون ما اختاره وأتى به بهداية من الله وأمر، فما كان يرد ولا يصدر إلا عن هداية يهتدي بها وأمر يأتمره كما أشار الى مثل هذا المعنى عند ذكر مسيره الى المغرب بقوله: «قلنا يا ذا القرنين» الخ.

فالآية أعني قوله: «وقد أحطنا» الخ؛ في معناها الكنائي نظيرة قوله: ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ (هود / ٣٧)، وقوله: ﴿أنزله بعلمه﴾ (النساء / ١٦٦)، وقوله: ﴿وأحاط بما لديهم﴾ (الجن / ٢٨).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ الى آخر الآية؛ السد الجبل وكل حاجز يسد طريق العبور وكأن المراد بهما الجبلان، وقوله: «وجد من دونهما قوماً» أي قريباً منهما، وقوله: «لا يكادون يفقهون قولا» كناية عن بساطتهم وسذاجة فهمهم، وربما قيل: كناية عن غرابة لغتهم وبعدها عن اللغات المعروفة عندهم، ولا يخلو عن بعد.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ﴾ الخ؛ الظاهر أن القائلين هم القوم الذين وجدهم من دون الجبلين، ويأجوج ومأجوج جيلان من الناس

كانوا يأتونهم من وراء الجبلين فيغيرون عليهم ويعمونهم قتلاً وسبياً ونهباً والدليل عليه السياق بما فيه من ضمائر اولي العقل وعمل السد بين الجبلين وغير ذلك.

وقوله: «فهي نجعل لك خرجا» الخرج ما يخرج من المال ليصرف في شيء من الحوائج عرضوا عليه أن يعطوه مالاً على أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً يمنع من تجاوزهم وتعديهم عليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ أصل «مكني» مكنني ثم ادغمت إحدى النونين في الاخرى، والردم السد وقيل السد القوي، وعلى هذا فالتعبير بالردم في الجواب وقد سألوه سداً إجابة ووعد بما هو فوق ما استدعوه وأملوه.

وقوله: «قال ما مكني فيه ربي خير» استغناء من ذي القرنين عن خرجهم الذي عرضوه عليه على أن يجعل لهم سداً يقول: ما مكنني فيه وأقرني عليه ربي من السعة والقدرة خير من المال الذي تعدونني به فلا حاجة لي اليه.

وقوله: «فأعيوني بقوة» الخ؛ القوة ما يتقوى به على الشيء والجملة تفريع على ما يتحصل من عرضهم وهو طلبهم منه أن يجعل لهم سداً. ومحصل المعنى أما الخرج فلا حاجة لي اليه، وأما السد فإن أردتموه فأعينوني بما أتقوى به على بنائه كالرجال وما يستعمل في بنائه ـ وقد ذكر منها زبر الحديد والقطر والنفخ بالمنافخ ـ أجعل لكم سداً قوياً.

قوله تعالى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ الى آخر الآية؛ الزبر بالضم فالفتح جمع زبرة كغرف وغرفة وهي القطعة، وساوى بمعنى سوى على ما قيل وقرىء «سوى» والصدفين تثنية الصدف وهو أحد جانبي الجبل ذكر بعضهم أنه لا يقال إلا إذا كان هناك جبل آخر يوازيه بجانبه فهو من الأسماء المتضائفة كالزوج والضعف وغيرهما والقطر النحاس أو الصفر المذاب وإفراغه صبه على الثقب والخلل والفرج.

وقوله: «آتوني زبر الحديد» أي أعطوني إياها لأستعملها في السد وهي من القوة التي استعانهم فيها. ولعله خصها بالذكر ولم يذكر الحجارة وغيرها من لوازم البناء لأنها الركن في استحكام بناء السد فجملة «آتوني زبر الحديد» بدل البعض من الكل من جملة «فاعينوني بقوة» او الكلام بتقدير قال، وهو كثير في القرآن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا﴾ في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فاعانوه بقوة وآتوه ما طلبه منهم فبنى لهم السد ورفعه حتى إذا سوى بين الصدفين قال: انفخوا.

وقوله: «قال انفخوا» الظاهر أنه من الإعراض عن متعلق الفعل للدلالة على نفس الفعل والمراد نصب المنافخ على السد لإحماء ما وضع فيه من الحديد وإفراغ القطر على خلله وفرجه.

وقوله: «حتى إذا جعل ناراً قال» الخ: في الكلام حذف وإيجاز. والتقدير فنفخ حتى إذا جعله أي المنفوخ فيه أو الحديد ناراً أي كالنار في هيئته وحرارته فهو من الاستعارة.

وقوله: ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ أي آتوني قطراً افرغه واصبه عليه ليسد بذلك خلله ويصير السد به مصمتاً لا ينفذ فيه نافذ.

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ اسطاع واستطاع واحد. والظهور العلو والاستعلاء، والنقب الثقب. قال الراغب في المفردات: النقب في الحائط والجلد كالثقب في الخشب انتهى وضمائر الجمع ليأجوج ومأجوج. وفي الكلام حذف وايجاز. والتقدير فبنى السد فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه لارتفاعه وما استطاعوا ان ينقبوه لاستحكامه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ الدكاء الدك وهو أشد الدق مصدر بمعنى اسم المفعول، وقيل:

المراد الناقة الدكاء، وهي التي لا سنام لها وهو على هذا من الإستعارة والمراد به خراب السد كما قالوا.

وقوله: «قال هذا رحمة من ربي» أي قال ذو القرنين ـ بعدما بنى السد ـ: هذا أي السد رحمة من ربي أي نعمة ووقاية يدفع به شر يأجوج ومأجوج عن امم من الناس.

وقوله: «فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء» في الكلام حذف وإيجاز والتقدير وتبق هذه الرحمة الى مجيء وعد ربي فإذا جاء وعد ربي جعله مدكوكاً وسوى به الأرض.

والمراد بالوعد إما وعد منه تعالى خاص بالسد أنه سيندك عند اقتراب الساعة فيكون هذا ملحمة أخبر بها ذو القرنين، وإما وعده تعالى العام بقيام الساعة الذي يدك الجبال ويخرب الدنيا، وقد أكد القول بجملة «وكان وعد ربي حقاً».

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ الخ؛ ظاهر السياق أن ضمير الجمع للناس ويؤيده رجوع ضمير «فجمعناهم» الى الناس قطعا لأن حكم الجمع عام.

وفي قوله: «بعضهم يومئذ يموج في بعض» استعارة، والمراد أنهم يضطربون يومئذ من شدة الهول اضطراب البحر باندفاع بعضه الى بعض فيرتفع من بينهم النظم ويحكم فيهم الهرج والمرج ويعرض عنهم ربهم فلا يشملهم برحمته، ولا يصلح شأنهم بعنايته.

والآية من كلام الله سبحانه وليست من تمام كلام ذي القرنين والدليل عليه تغيير السياق من الغيبة الى التكلم مع الغير الذي هو سياق كلامه «انا مكنا له» «قلنا يا ذا القرنين»، ولو كان من تمام كلام ذي القرنين لقيل: وترك بعضهم على حذاء قوله: «جعله دكاء».

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الخ؛ هي النفخة الثانية التي فيها الإحياء بدليل قوله: «وجمعناهم جمعا وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً».

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ تفسير للكافرين وهؤلاء هم الذين ضرب الله بينهم وبين ذكره سداً حاجزاً - وبهذه المناسبة تعرض لحالهم بعد ذكر سد يأجوج ومأجوج - فجعل اعينهم في غطاء عن ذكره وأخذ استطاعة السمع عن آذانهم فانقطع الطريق بينهم وبين الحق وهو ذكر الله.

فإن الحق إنما ينال إما من طريق البصر بالنظر الى آيات الله سبحانه والاهتداء الى ما تدل عليه وتهدي اليه، وإما من طريق السمع باستماع الحكمة والموعظة والقصص والعبر، ولا بصر لهؤلاء ولا سمع.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ الخ: الاستفهام للانكار قال في المجمع: معناه أفحسب الذين جحدوا توحيد الله أن يتخذوا من دوني أرباباً ينصرونهم ويدفعون عقابي عنهم قال: ويدل على هذا المحذوف قوله: «إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا» انتهى.

وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند أول نزولهم الدار الآخرة شبه الدار الآخرة بالدار ينزلها الضيف وجهنم بالنزل الذي يكرم بـه الضيف النزيل لدى أول وروده، ويزيد هذا التشبيه لطفاً وجمالاً ما سيأتي بعد آيتين أنهم لا يقام لهم وزن يوم القيامة فكأنهم لا يلبثون دون ان يدخلوا النار، وفي الآية من التهكم ما لا يخفى، وكأنما قوبل به ما سيحكى من تهكمهم في الدنيا بقوله: «واتخذوا آياتي ورسلي هزوا»[١][٢].

---

١. الكهف ٨٣-١٠٢: بحث روائي حول ذي القرنين.

٢. الكهف ٨٣-١٠٢: كلام حول قصة ذي القرنين وهو بحث قرآني وتاريخي في فصول (قصة ذي القرنين في القرآن؛ ذكرى ذي القرنين والسد ويأجوج ومأجوج: من هو ذو القرنين واين سدّه؛ بناء السد؛ ياجوج ومأجوج).

١٠٣ ● قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً.

١٠٤ ● ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيوٰةِ ٱلدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.

١٠٥ ● أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَزْناً.

١٠٦ ● ذٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً.

١٠٧ ● إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً.

١٠٨ ● خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين وهو مسوق سوق الكناية وهم المعنيون بالتوصيف وسيقترب من التصريح في قوله: «اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه» فالمنكرون للنبوة والمعاد هم المشركون.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيوٰةِ ٱلدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ إنباء بالأخسرين أعمالاً وهم الذين عرض في الآية السابقة على المشركين أن ينبئهم بهم ويعرفهم إياهم فعرفهم بأنهم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وضلال السعي خسران ثم عقبه بقوله: «وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» وبذلك تم كونهم

أخسرين.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ تعريف ثان وتفسير بعد تفسير للأخسرين أعمالا، والمراد بالآيات ـ على ما يقتضيه إطلاق الكلمة ـ آياته تعالى في الآفاق والأنفس وما يأتي به الأنبياء والرسل من المعجزات لتأييد رسالتهم فالكفر بالآيات كفر بالنبوة، على أن النبي نفسه من الآيات، والمرا بلقاء الله الرجوع اليه وهو المعاد.

فآل تعريف الأخسرين أعمالاً الى أنهم المنكرون للنبوة والمعاد وهذا من خواص الوثنيين.

قوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْناً﴾ وجه حبط أعمالهم أنهم لا يعملون عملا لوجه الله ولا يريدون ثواب الدار الآخرة وسعادة حياتهم ولا أن الباعث لهم على العمل ذكر يوم الحساب وقد مر كلام في الحبط في مباحث الأعمال في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وقوله: «فلا نقم لهم يوم القيامة وزنا» تفريع على حبط أعمالهم الوزن يوم القيامة بثقل الحسنات على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأُولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأُولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ (الأعراف / ٩)، وإذ لا حسنة للحبط فلا ثقل فلا وزن.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾ الإشارة الى ما أورده من وصفهم، واسم الإشارة خبر لمبتدء محذوف والتقدير: الأمر ذلك أي حالهم ما وصفناه وهو تأكيد وقوله: «جزاؤهم جهنم» كلام مستأنف ينبىء عن عاقبة أمرهم. وقوله: «بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا» في معنى بما كفروا وازدادوا كفراً استهزاء آياتي وسلي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ

ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ الفردوس يذكر ويؤنث قيل: هي البستان بالرومية، وقيل: الكرم بالنبطية وأصله فرداسا، وقيل: جنة الأعناب بالسريانية، وقيل الجنة بالحبشية، وقيل: عربية وهي الجنة الملتفة بالأشجار والغالب عليه الكرم.

وقد استفاد بعضهم من عده جنات الفردوس نزلا وقد عد سابقا جهنم للكافرين نزلا أن وراء الجنة والنار من الثواب والعقاب ما لم يوصف بوصف وربما أيده أمثال قوله تعالى: ﴿ لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد ﴾ (ق / ٣٥) وقوله: ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين ﴾ (الم السجدة / ١٧)، وقوله: ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ البغي الطلب، والحول التحول، والباقي ظاهر.

١٠٩ ● قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ الى آخر الآية، الكلمة تطلق على الجملة كما تطلق على المفرد ومنه قوله تعالى: ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ﴾ الآية (آل عمران / ٦٤)، وقد استعملت كثيراً في القرآن الكريم فيما قاله الله وحكم به كقوله: ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ (الأعراف / ١٣٧)، وقوله: ﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ (يونس / ٣٣)، وقوله: ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ (يونس / ١٩) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً.

ومن المعلوم انه تعالى لا يتكلم بشق الفم وإنما قوله فعله وما يفيضه من وجود كما قال: ﴿إنما قولنا لشيء إذا اردناه أن نقول له كن فيكون﴾ (النحل / ٤٠) وإنما تسمى كلمة لكونها آية دالة عليه تعالى ومن هنا سمى المسيح كلمة في قوله: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته﴾ (النساء / ١٧١).

ومن هنا يظهر أنه ما من عين يوجد أو واقعة تقع إلا وهي من حيث كونها آية دالة عليه كلمة منه إلا أنها خصت في عرف القرآن بما دلالته ظاهرة لا خفاء فيها ولا بطلان ولا تغيير كما قال: ﴿والحق أقول﴾ (ص / ٨٤)، وقال: ﴿ما يبدل القول لدي﴾ (ق / ٢٩)، وذلك كالمسيح عليه السلام وموارد القضاء المحتوم.

وقوله: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ أي ولو أمددنا ببحر آخر لنفد أيضا قبل أن تنفد كلمات ربي.

١١٠ • قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾ القصر الأول قصره صلى الله عليه وآله وسلم في البشرية المماثلة لبشرية الناس لا يزيد عليهم بشيء ولا يدعيه لنفسه قبال ما كانوا يزعمون أنه إذا ادعى النبوة فقد ادعى كينونة إلهية وقدرة غيبية ولذا كانوا يقترحون عليه بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه إلا الله لكنه صلى الله عليه وآله وسلم نفى ذلك كله بأمر الله عن

نفسه ولم يثبت لنفسه إلا أنه يوحى اليه.

والقصر الثاني قصر الاله الذي هو إلههم في إله واحد وهو التوحيد الناطق بأن إله الكل إله واحد.

وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ﴾ الخ: مشتمل على إجمال الدعوة الدينية وهو العمل الصالح لوجه الله وحده لا شريك له وقد فرعه على رجاء لقاء الرب تعالى وهو الرجوع اليه إذ لولا الحساب والجزاء لم يكن للأخذ بالدين والتلبس بالاعتقاد والعمل موجب يدعو اليه كما قال تعالى: ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص / ٢٦).

وقد رتب على الاعتقاد بالمعاد العمل الصالح وعدم الإشراك بعبادة الرب لأن الاعتقاد بالوحدانية مع الاشراك في العمل متناقضان لا يجتمعان فالاله تعالى لو كان واحدا فهو واحد في جميع صفاته ومنها المعبودية لا شريك له فيها.

وقد رتب الأخذ بالدين على رجاء المعاد دون القطع به لأن احتماله كاف في وجوب التحذر منه لوجوب دفع الضرر المحتمل، وربما قيل: إن المراد باللقاء لقاء الكرامة وهو مرجو لا مقطوع به.

وقد فرع رجاء لقاء الله على قوله: «أنما إلهكم إله واحد» لأن رجوع العباد الى الله سبحانه من تمام معنى الالوهية فله تعالى كل كمال مطلوب وكل وصف جميل ومنها فعل الحق والحكم بالعدل وهما يقتضيان رجوع عباده اليه والقضاء بينهم قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ (ص / ٢٨).

سورة مريم مكية وهي ثمان وتسعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ كٓهيٰعٓصٓ.

٢ ❁ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا.

٣ ❁ إِذ نَادىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً.

٤ ❁ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ
بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً.

٥ ❁ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ
لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً.

٦ ❁ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً.

٧ ❁ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ
سَمِيّاً.

٨ ❁ قَالَ رَبِّ أَنّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ

بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً.

٩ ❁ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً.

١٠ ❁ قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَ لَيَالٍ سَوِيّاً.

١١ ❁ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً.

١٢ ❁ يَا يَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً.

١٣ ❁ وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكٰوةً وَكَانَ تَقِيّاً.

١٤ ❁ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً.

١٥ ❁ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً.

بيان:

غرض السورة على ما ينبىء عنه قوله تعالى في آخرها: «فإنما يسّرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً» الخ؛ هو التبشير والانذار غير أنه ساق الكلام في ذلك سوقاً بديعاً فأشار أولاً الى قصة زكريا ويحيى وقصة مريم وعيسى وقصة إبراهيم وإسحاق ويعقوب وقصة موسى وهارون وقصة إسماعيل وقصة إدريس وما خصّهم به من نعمة الولاية كالنبوة والصدق والاخلاص ثم ذكر أن هؤلاء الذين أنعم عليهم كان المعروف من حالهم الخضوع والخشوع لربهم لكن أخلافهم أعرضوا عن ذلك وأهملوا أمر التوجه الى ربهم واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ويضل عنهم الرشد إلا أن يتوب منهم تائب ويرجع الى ربه فإنه

يلحق بأهل النعمة.

ثم ذكر نبذة من هفوات أهل الغي وتحكماتهم كنفي المعاد، وقولهم: اتخذ الله ولداً، وعبادتهم الأصنام، وما يلحقهم بذلك من النكال والعذاب.

فالبيان في السورة أشبه شيء ببيان المدعى بإيراد أمثلته كأنه قيل: إن فلاناً وفلاناً وفلاناً الذين كانوا أهل الرشد والموهبة كانت طريقتهم الانقلاع عن شهوات النفس والتوجه الى ربهم وسبيلهم الخضوع والخشوع إذا ذكّروا بآيات ربهم فهذا طريق الإنسان الى الرشد والنعمة لكن أخلافهم تركوا هذا الطريق بالإعراض عن صالح العمل، والإقبال على مذموم الشهوة ولا يؤديهم ذلك إلا الى الغي خلاف الرشد، ولا يقرّهم إلا على باطل القول كنفي الرجوع الى الله وإثبات الشركاء لله وسدّ طريق الدعوة ولا يهديهم إلا الى النكال والعذاب.

فالسورة كما ترى تفتح بذكر أمثلة ثم تعقبّها باستخراج المعنى الكلي المطلوب بيانه وذلك قوله: «أُولئك الذين أنعم الله عليهم» الآيات، فالسورة تقسّم الناس الى ثلاث طوائف: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأهل الإجتباء والهدى. وأهل الغي. والذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحاً وهم ملحقون بأهل النعمة والرشد ثم تذكر ثواب التائبين المسترشدين وعذاب الغاوين وهم قرناء الشياطين وأولياؤهم.

والسورة مكية بلا ريب تدل على ذلك مضامين آياتها وقد نقل على ذلك اتفاق المفسرين.

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قد تقدم في تفسير أول سورة الأعراف أن السور القرآنية المصدّرة بالحروف المقطعة لا تخلو من ارتباط بين مضامينها وبين تلك الحروف الحروف المشتركة تكشف عن مضامين مشتركة.

ويؤيد ذلك ما نجده من المناسبة والمجانسة بين هذه السورة وسورة ص في سرد قصص الأنبياء، وسيوافيك بحث جامع إن شاء الله في روابط مقطّعات الحروف ومضامين السور التي

صدرت بها، وكذا ما بين السور المشتركة في بعض هذه الحروف كهذه السورة وسورة يس وقد اشتركتا في الياء، وهذه السورة وسورة الشورى وقد اشتركتا في العين.

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ ظاهر لسياق أن الذكر خبر لمبتدأ محذوف والمصدر بمعنى المفعول. والمآل بحسب التقدير: هذا خبر رحمة ربك المذكور، والمراد بالرحمة استجابته سبحانه دعاء زكريا على التفصيل الذي قصّه بدليل قوله تلواً: «إذ نادى ربه».

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ الظرف متعلق بقوله: «رحمة ربك» والنداء والمناداة الجهر بالدعوة خلاف المناجاة، ولا ينافيه توصيفه بالخفاء لإمكان الجهر بالدعوة في خلاء من الناس لا يسمعون معه الدعوة، ويشعر بذلك قوله الآتي: «فخرج على قومه من المحراب».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ الى آخر الآية؛ تمهيد لما سيسأله وهو قوله: «فهب لي من لدنك ولياً».

وقد قدم قوله: «رب» للاسترحام في مفتتح الدعاء، والتأكيد بأن للدلالة على تحققه بالحاجة، والوهن هو الضعف ونقصان القوة وقد نسبه الى العظم لأنه الدعامة التي يعتمد عليها البدن في حركته وسكونه، ولم يقل: العظام مني ولا عظمي للدلالة على الجنس وليأتي بالتفصيل بعد الإجمال.

وقوله: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ الاشتعال انتشار شواظ النار ولهيبها في الشيء المحترق قال في المجمع: وقوله: «واشتعل الرأس شيبا» من أحسن الاستعارات والمعنى اشتعل الشيب في الرأس وانتشر، كما ينتشر شعار النار، وكأن المراد بالشعار الشواظ واللهيب.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ الشقاوة خلاف السعادة، وكأن المراد بها

الحرمان من الخير وهو لازم الشقاوة أو هو هي، وقوله: «بدعائك» متعلق بالشقي والباء فيه للسببية أو بمعنى في والمعنى وكنت سعيداً بسبب دعائي إياك كلما دعوتك استجبت لي من غير أن تشقيني وتحرمني، أو لم أكن محروماً خائباً في دعائي إياك عودتني الإجابة إذا دعوتك والتقبّل إذا سألتك. والدعاء على أي حال مصدر مضاف الى المفعول.

وفي تكرار قوله: «ربّ» ووضعه متخللاً بين اسم كان وخبره في قوله: «ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً» من البلاغة ما لا يقدّر بقدر. ونظيره قوله: «واجعله ربّ رضياً».

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً﴾ تتمة التمهيد الذي قدمه لدعائه. والمراد بالموالي العمومة وبنو العم، وقيل: الكلالة وقيل: العصبة، وقيل: بنو العم فحسب، وقيل: الورثة. وكيف كان فهم غير الأولاد من صلب والمراد خفت فعل الموالي من ورائي أي بعد موتي وكان ﷺ يخاف أن يموت بلا عقب من نسله فيرثوه، وهو كناية عن خوفه أن يموت بلا عقب.

وقوله: «وكانت امرأتي عاقراً» العاقر المرأة التي لا تلد يقال: امرأة عاقر لا تلد ورجل عاقر لا يولد له ولد. وفي التعبير بقوله: «وكانت امرأتي» دلالة على أن امرأته على كونها عاقراً جازت حين الدعاء سن الولادة.

وظاهر عدم تكرار إن في قوله: «وكانت امرأتي» الخ؛ أن الجملة حالية ومجموع الكلام أعني قوله: «وإني خفت ـ الى قوله ـ عاقرا» فصل واحد أُريد به أن كون امرأتي عاقراً اقتضى أن أخاف الموالي من ورائي وبعد وفاتي، فمجموع ما مهّده للدعاء يؤل الى فصلين أحدهما أن الله سبحانه عوّده الاستجابة مدى عمره حتى شاخ وهرم والآخر أنه خاف الموالي بعد موته من جهة عقر امرأته، ويمكن تصوير الكلام فصولاً ثلاثة بأخذ كل من شيخوخته وعقر امرأته فصلاً مستقلاً.

قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ

رَبِّ رَضِيّاً ﴾ هذا هو الدعاء، وقد قيّد الموهبة الإلهية التي سألها بقوله: «من لدنك» لكونه آيسا من الأسباب العادية التي كانت عنده وهي نفسه وقد صار شيخاً هرماً ساقط القوى. وامرأته وقد شاخت وكانت قبل ذلك عاقراً.

وولي الإنسان من يلي أمره، وولي الميت هو الذي يقوم بأمره ويخلفه فيما ترك، وآل الرجل خاصته الذين يؤل اليه أمرهم كولده وأقاربه وأصحابه وقيل: أصله أهل، والمراد بـيعقوب على ما قيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وقيل هو يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبي مريم وكانت امرأة زكريا أُخت مريم وعلى هذا يكون معنى قوله: «يرثني ويرث من آل يعقوب» يرثني ويرث امرأته وهي بعض آل يعقوب، والأشبه حينئذ أن تكون «من» في قوله: «من آل يعقوب» للتبعيض وإن صح كونها ابتدائية أيضاً.

وقوله: «واجعله رب رضيا» الرضي بمعنى المرضي، وإطلاق الرضا يقتضي شموله للعلم والعمل جميعاً فالمراد به المرضي في اعتقاده وعمله أي اجعله رب محلى بالعلم النافع والعمل الصالح[1].

قوله تعالى: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ في الكلام حذف إيجازاً، والتقدير «فاستجبنا له وناديناه يا زكريا إنا نبشرك» الخ؛ وقد ورد في سورة الأنبياء في القصة ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى ﴾ (الأنبياء / ٩٠)، وفي سورة آل عمران ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى ﴾ (آل عمران / ٣٩).

وتشهد آية آل عمران على أن قوله: «يا زكريا إنا نبشرك» الخ؛ كان وحياً بتوسّط الملائكة فهو قوله تعالى أدّته الملائكة الى زكريا، وذلك في قوله ثانياً: «قال كذلك قال ربك هو

---

١. مريم ١ ـ ١٥: بحث حول دعا وزكريا من الله في طلب الذرية.

عليّ هيّن» الخ: أظهر.

وفي الآية دلالة على أن الله سبحانه هو الذي سماه يحيى، وهو قوله: «اسمه يحيى» وأنه لم يسمّ بهذا الاسم قبله أحد، وهو قوله: «لم نجعل له من قبل سميّاً» أي شريكاً في الاسم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً﴾ قال الراغب: الغلام الطارّ الشارب[1] يقال: غلام بيّن الغلومة والغلومية، قال تعالى: «أنّى يكون لي غلام». قال: واغتلم الغلام: إذا بلغ حدّ الغلمة. انتهى.

وقال في المجمع: العتيّ والعسيّ بمعنى يقال: عتا يعتو عتوّاً وعتيّاً وعسا يعسو عسوّاً وعسيّاً فهو عات وعاس إذا غيّره طول الزمان الى حال اليبس والجفاف. انتهى. وبلوغ العتيّ كناية عن بطلان شهوة النكاح وانقطاع سبيل الايلاد.

واستفهامه ﷺ عن كون الغلام مع عقر امرأته وبلوغه العتيّ مع كره الأمرين في ضمن دعائه إذ قال: «رب إني وهن العظم مني» الخ: مبني على استعجاب البشرى واستفسار خصوصياتها دون الإستبعاد والإنكار فإن من بشّر بما لا يتوقعه لتوفر الموانع وفقدان الأسباب تضطرب نفسه بادىء ما يسمعها فيأخذ في السؤال عن خصوصيات ما بشّر به ليطمئن قلبه ويسكن اضطراب نفسه وهو مع ذلك على يقين من صوق ما بشّر به فإن الخطورات النفسانية ربما لا تنقطع مع وجود العلم والايمان وقد تقدم نظيره في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ (البقرة / ٢٦٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ جواب عما استفهمه واستفسره لتطيب به نفسه، ويسكن جأشه، وضمير قال

---

١. غلام طر شاربه من باب نصر وضرب: أي طلع.

راجع اليه تعالى. وقوله: «كذلك» مقول القول وهو خبر مبتدء محذوف والتقدير «هو كذلك» أي الأمر واقع على ما أخبرناك به في البشرى لا ريب فيه.

وقوله: «قال ربك هو عليّ هيّن» مقول ثان لقال الأول، وهو بمنزلة التعليل لقوله: «كذلك» يرتفع به أي استعجاب فلا يتخلف عن إرادته مراد وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن، فخلق غلام من رجل بالغ في الكبر وامرأة عاقر هيّن سهل عليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾ قد تقدم في القصة من سورة آل عمران أن إلقاء البشرى الى زكريا كان بتوسط الملائكة «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى»، وهو ﷺ إنما سأل الآية ليتميز به الحق من الباطل فتدله على أن ما سمعه من النداء وحي ملكي لا إلقاء شيطاني ولذلك أُجيب بآية إلهية لا سبيل للشيطان اليها وهو أن لا ينطلق لسانه ثلاثة أيام إلا بذكر الله سبحانه فإن الأنبياء معصومون بعصمة إلهية ليس للشيطان أن يتصرف في نفوسهم.

فقوله: «قال رب اجعل لي آية» سؤال لآية مميزة، وقوله: «قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليال سوياً» إجابة ما سأل. وهو أن يعتقل لسانه ثلاثة أيام من غير ذكر الله وهو سويّ أي صحيح سليم من غير مرض وآفة.

فالمراد بعدم تكليم الناس عدم القدرة على تكليمهم، من قبيل إطلام اللازم وإرادة الملزوم كناية، والمراد بثلاث ليال ثلاث ليال بأيامها وهو شائع في الاستعمال فكان ﷺ يذكر الله فنون الذكر ولا يقدر على تكليم الناس إلا رمزاً وإشارة، والدليل على ذلك كله قوله تعالى في القصة من سورة آل عمران: ﴿قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار﴾ (آل عمران / ٤١).

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ قال في المجمع: وسمي المحراب محراباً لأن المتوجه اليه في صلاته كالمحارب

الشيطان على صلاته، والأصل فيه مجلس الأشراف الذي يحارب دونه ذباً عن أهله. وقال: الايحاء إلقاء المعنى الى النفس في خفية بسرعة، وأصله من قولهم: الوحى الوحى أي الإسراع الإسراع. انتهى ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيىٰ خُذِ ٱلْكِتابَ بِقُوَّةٍ﴾ قد تكرر في كلامه تعالى ذكر أخذ الكتاب بقوة والأمر به كقوله: ﴿فخذها بقوة وامر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ (الأعراف / ١٤٥)، وقوله: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه﴾ (البقرة / ٦٣)، وقوله: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ (البقرة / ٩٣) الى غير ذلك من الآيات، والسابق الى الذهن من سياقها أن المراد من أخذ الكتاب بقوة التحقق بما فيه من المعارف والعمل بما فيه من الأحكام بالعناية والاهتمام.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْناهُ ٱلحُكْمَ صَبِيّاً وَحناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكٰوةً﴾ فسّر الحكم بالفهم وبالعقل وبالحكمة وبمعرفة آداب الخدمة وبالفراسة الصادقة وبالنبوة. لكن المستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة﴾ (الجاثية / ١٦)، وقوله: ﴿اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾ (الأنعام / ٨٩)، وغيرهما من الآيات أن الحكم غير النبوة. فتفسير الحكم بالنبوة ليس على ما ينبغي، وكذا تفسيره بمعرفة آداب الخدمة أو بالفراسة الصادقة أو بالعقل إذ لا دليل من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى على شيء من ذلك.

نعم ربما يستأنس من مثل قوله: ﴿يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم﴾ (البقرة / ١٢٩)، وقوله: ﴿يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (الجمعة / ٢)، ـ والحكمة بناء نوع من الحكم ـ أن المراد بالحكم العلم بالمعارف الحقة الإلهية وانكشاف ما هو تحت أستار الغيب بالنسبة الى الأنظار العادية ولعله اليه مرجع تفسير الحكم بالفهم. وعلى هذا يكون المعنى إنا أعطيناك العلم بالمعارف الحقيقية وهو صبي لم يبلغ

الحلم بعد.

وقوله: «وحناناً من لدنّا» معطوف على الحكم أي وأعطيناه حناناً من لدنّا والحنان: العطف والإشفاق، قال الراغب: ولكون الإشفاق لا ينفكّ من الرحمة عبّر عن الرحمة بالحنان في قوله تعالى: «وحناناً من لدنّا» ومنه قيل: الحنّان المنّان وحنانيك إشفاقاً بعد إشفاق.

وفسّر الحنان في الآية بالرحمة ولعل المراد بها النبوة أو الولاية كقول نوح عليه السلام ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ (هود / ٢٨)، وقول صالح: ﴿وآتاني منه رحمة﴾ (هود / ٦٣).

وفسّر بالمحبة ولعل المراد بها محبة الناس له على حد قوله: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ (طه / ٣٩)، أي كان لا يراه أحد إلا أحبّه.

وفسّر بتعطّفه على الناس ورحمته ورقّته عليهم فكان رؤفاً بهم ناصحاً لهم يهديهم الى الله ويأمرهم بالتوبة ولذا سمّي في العهد الجديد بيوحنّا المعمّد.

وفسّر بحنان الله عليه كان إذا نادى ربه لبّاه الله سبحانه على ما في الخبر فيدلّ على أنه كان لله سبحانه حنان خاص به على ما يفيده تنكير الكلمة.

والذي يعطيه السياق وخاصة بالنظر الى تقييد الحنان بقوله: «من لدنّا» ـ والكلمة إنما تستعمل فيما لا مجرى فيه للأسباب الطبيعية العادية أو لا نظر فيه اليها ـ أن المراد به نوع عطف وانجذاب خاص إلهي بينه وبين ربه غير مألوف وبذلك يسقط التفسير الثاني والثالث ثم تعقبه بقوله: «زكاة» والأصل في معناه النمو الصالح، وهو لا يلائم المعنى الأول كثير ملاءمة فالمراد به إما حنان من الله سبحانه اليه بتولي أمره والعناية بشأنه وهو ينمو عليه، وإما حنان وانجذاب منه الى ربه فكان ينمو عليه، والنموّ نمو الروح.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَقِيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ التقي صفة مشبّهة من التقوى مثال واوي وهو الورع عن محارم الله والتجنب عن اقتراف المناهي المؤدّي الى عذاب الله، والبر بفتح الباء صفة مشبهة من البر بكسر الباء وهو الإحسان، والجبار قال

في المجمع: الذي لا يرى لأحد عليه حقاً وفيه جبرية وجبروت، والجبار من النخل ما فات اليد. انتهى. فيؤل معناه الى أنه المستكبر المستعلي الذي يحمّل الناس ما أراد ولا يتحمل عنهم، ويؤيده تعقيبه بالعصيّ فإنه صفة مشبهة من العصيان والأصل في معناه الامتناع.

قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾ السلام قريب المعنى من الأمن، والذي يظهر من موارد استعمالها في الفرق بينهما أن الأمن خلوّ المحل مما يكرهه الانسان ويخاف منه والسلام كون المحل بحيث كل ما يلقاه الانسان فيه فهو يلائمه من غير أن يكرهه ويخاف منه.

وتنكير السلام لإفادة التفخيم أي سلام فخيم عليه مما يكرهه في هذه الأيام الثلاثة التي كل واحد منها مفتتح عالم من العوالم التي يدخلها الانسان ويعيش فيها فسلام عليه يوم ولد فلا يمسه مكروه في الدنيا يزاحم سعادته، وسلام عليه يوم يموت، فسيعيش في البرزخ عيشة نعيمة، وسلام عليه يوم يبعث حيّاً فيحيى فيها بحقيقة الحياة ولا نصب ولا تعب.

واختلاف التعبير في قوله: «ولد» «يموت» «يبعث» لتمثيل أن التسليم في حال حياته عليه السلام[1][2][3].

١٦ ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً.

١٧ ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً.

---

١. مريم ١ ـ ١٥: بحث روائي حول الحروف المقطعة (كهيعص)، دعاء زكريا عليه السلام، قصة يحيى عليه السلام.

٢. مريم ١ ـ ١٥: قصة زكريا في القرآن (وصفه، تاريخ حياته).

٣. مريم ١ ـ ١٥: قصة يحيى عليه السلام في القرآن (الثناء عليه، تاريخ حياته، قصة زكريا ويحيى في الانجيل).

١٨ ❁ قٰالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً.

١٩ ❁ قٰالَ إِنَّمٰا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاٰماً زَكِيّاً.

٢٠ ❁ قٰالَتْ أَنّٰى يَكُونُ لِي غُلاٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً.

٢١ ❁ قٰالَ كَذٰلِكِ قٰالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنّٰاسِ وَرَحْمَةً مِنّٰا وَكٰانَ أَمْراً مَقْضِيّاً.

٢٢ ❁ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكٰاناً قَصِيّاً.

٢٣ ❁ فَأَجٰاءَهَا الْمَخٰاضُ إِلىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قٰالَتْ يٰا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذٰا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً.

٢٤ ❁ فَنٰادٰيهٰا مِنْ تَحْتِهٰا أَلاّٰ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً.

٢٥ ❁ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسٰاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً.

٢٦ ❁ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمّٰا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنْسِيّاً.

٢٧ ❁ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهٰا تَحْمِلُهُ قٰالُوا يٰا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً.

٢٨ ❁ يٰا أُخْتَ هٰرُونَ مٰا كٰانَ أَبُوكِ ٱمْرَءَ سَوْءٍ وَمٰا كٰانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً.

٢٩ ❁ فَأَشٰارَتْ إِلَيْهِ قٰالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كٰانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً.

٣٠ ❁ قٰالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللّٰهِ آتٰانِيَ ٱلْكِتٰابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً.

٣١ ❁ وَجَعَلَنِي مُبٰارَكاً أَيْنَ مٰا كُنْتُ وَأَوْصٰانِي بِالصَّلٰوةِ وَالزَّكٰوةِ مٰا دُمْتُ حَيّاً.

٣٢ ❁ وَبَرّاً بِوٰالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبّٰاراً شَقِيّاً.

٣٣ ۞ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً.

٣٤ ۞ ذٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ.

٣٥ ۞ مٰا كٰانَ لِلّٰهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰانَهُ إِذٰا قَضىٰ أَمْـراً فَـإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

٣٦ ۞ وَإِنَّ اللّٰهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ.

٣٧ ۞ فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

٣٨ ۞ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنٰا لٰكِـنِ ٱلظّٰـالِمُونَ ٱلْـيَوْمَ فِـي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ.

٣٩ ۞ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ.

٤٠ ۞ إِنّٰا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهٰا وَإِلَيْنٰا يُرْجَعُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتٰابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهٰا مَكٰاناً شَرْقِيّاً﴾ المراد بالكتاب القرآن أو السورة فهي جزء من الكتاب وجزء الكتاب كتاب والاحتمالان من حيث المآل واحد فلا كثير جدوى في اصرار بعضهم على تقديم الاحتمال الثاني وتعيينه.

والنبذ ـ على ما ذكره الراغب ـ طرح الشيء الحقير لا يعبأ بـه يـقال نـبذه إذا طـرحـه مستحقراً له غير معتن به، والانتباذ الاعتزال من الناس والانفراد.

ومريم هي ابنة عمران أُمّ المسيح عليه السلام، والمراد بمريم نـبأ مـريم وقـوله: «إذا» ظـرف له،

وقوله: «انتبذت» الى آخر القصة تفضيل المظروف الذي هو نبأ مريم، والمعنى واذكر يا محمد في هذا الكتاب نبأ مريم حين اعتزلت من أهلها في مكان شرقي، وكأنه شرقي المسجد.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ الحجاب ما يحجب الشيء ويستره عن غيره. وكأنها اتخذت الحجاب من دون أهلها لتنقطع عنهم وتعتكف للعبادة كما يشير اليه قوله: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ (آل عمران / ٣٧) وقد مر الكلام في تفسير الآية.

وأما قوله: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ـ الى أن قال ـ قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يفعل ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ (آل عمران / ٤٧).

وإضافة الروح اليه تعالى للتشريف مع إشعار بالتعظيم. وقد تقدم كلام في معنى الروح في تفسير قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الروح﴾ الآية (الإسراء / ٨٥)[١].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ ابتدرت الى تكليمه لما أدهشها حضوره عندها وهي تحسب أنه بشر هجم عليها لأمر يسوؤها واستعاذت بالرحمن استدراراً للرحمة العامة الإلهية التي هي غاية آمال المنقطعين اليه من أهل القنوت.

واشتراطها بقولها: «إن كنت تقياً» من قبيل الاشتراط بوصف يدّعيه المخاطب لنفسه أو هو محقق فيه ليفيد إطلاق الحكم المشروط وعليّة الوصف للحكم، والتقوى وصف جميع يشق على الإنسان أن ينفيه عن نفسه ويعترف بفقده فيؤل المعنى الى مثل قولنا: إني أعوذ وأعتصم بالرحمان منك إن كنت تقياً ومن الواجب أن تكون تقياً فليردعك تقواك عن أن تتعرض بي وتقصدني بسوء.

---

١. مريم ١٦ ـ ٤٠: كلام في معنى التمثل.

فالآية من قبيل خطاب المؤمنين بمثل قوله تعالى: ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ (المائدة / ٥٧)، وقوله: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ (المائدة / ٢٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾ جواب الروح لمريم وقد صدَّر الكلام بالقصر ليفيد أنه ليس ببشر كما حسبته فيزول بذلك روعها ثم يطيّب نفسها بالبشرى، والزكي هو النامي نمواً صالحاً والنابت نباتاً حسناً.

ومن لطيف التوافق في هذه القصص الموردة في السورة أنه تعالى ذكّر زكريا وأنه وهب له يحيى، وذكر مريم وأنه وهب لها عيسى، وذكر إبراهيم وأنه وهب له إسحاق ويعقوب، وذكر موسى وأنه وهب له هارون عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ مسّ البشر بقرينة مقابلته للبغي وهو الزنا كناية عن النكاح وهو في نفسه أعم ولذا اكتفى في القصة من سورة آل عمران بقوله: «ولم يمسسني بشر» والاستفهام للتعجب أي كيف يكون لي ولد ولم يخالطني قبل هذا الحين رجل لا من طريق الحلال بالنكاح ولا من طريق الحرام بالزنا.

والسياق يشهد أنها فهمت من قوله: «لأهب لك غلاماً» الخ؛ أنه سيهبه حالاً ولذا قالت: «ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً» فنفت النكاح والزنا في الماضي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ الخ؛ أي قال الروح: الأمر كذلك أي كما وصفته لك ثم قال: «قال ربك هو علي هين»، وقد تقدم في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام توضيح ما للجملتين.

وقوله: «وليكون آية للناس ورحمة منا» ذكر بعض ما هو الغرض من خلق المسيح على هذا النهج الخارق، وهو معطوف على مقدّر أي خلقناه بنفخ الروح من غير أب لكذا وكذا ولنجعله آية للناس بخلقته ورحمة منا برسالته والآيات الجارية على يده وحذف بعض

الغرض وعطف بعضه المذكور عليه كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وليكون من الموقنين﴾ (الأنعام / ٧٥)، وفي هذه الصنعة إيهام أن الأغراض الإلهية أعظم من أن يحيط بها فهم أو يفي بتمامها لفظ.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ إشارة الى تحتم القضاء في أمر هذا الغلام الزكي فلا يُردّ بإباء أو دعاء.

قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾ القصي البعيد أي حملت بالولد فانفردت واعتزلت به مكاناً بعيداً من أهله.

قول تعالى ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ الى آخر الآية: الإجاءة إفعال من جاء يقال: أجاءه وجاء به بمعنى وهو في الآية كناية عن الدفع والإلجاء، والمخاض والطلق وجع الولادة، وجذع النخلة ساقها، والنسي بفتح النون وكسرها كالوتر والوتر هو الشيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى، والمعنى ـ أنها لما اعتزلت من قومها في مكان بعيد منهم ـ دفعها وألجأها الطلق الى جذع نخلة كان هناك لوضع حملها ـ والتعبير بجذع النخلة دون النخلة مشعر بكونها يابسة غي مخضرّة ـ وقالت استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً وشيئاً لا يعبأ به منسياً لا يذكر فلم يقع فيه الناس كما سيقع الناس فيَّ.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَيهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ الى آخر الآيتين: ظاهر السياق أن ضمير الفاعل في «ناداها» لعيسى عليه السلام لا لروح السابق الذكر، ويؤيده تقييده بقوله: «من تحتها» فإن هذا القيد أنسب لحال المولود مع والدته حين الوضع منه لحال الملك المنادى مع من يناديه، ويؤيده أيضاً احتفافه بالضمائر الراجعة الى عيسى عليه السلام.

وقوله: «ألّا تحزني» تسلية لها لما أصابها من الحزن والغمّ الشديد فإنه لا مصيبة هي أمرّ وأشقّ على المرأة الزاهدة المتنسّكة وخاصة إذا كانت عذراء بتولاً من أن تتهم في عرضها وخاصة إذا كانت من بيت معروف بالعفّة والنزاهة في حاضر حاله وسابق عهده وخاصة إذا

كانت تهمة لا سبيل لها الى الدفاع عن نفسها وكانت الحجّة للخصم عليها. ولذا أشار أن لا تتكلم مع أحد وتكفّل هو الدفاع عنها وتلك حجة لا يدفعها دافع.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ السريّ جدول الماء، والسريّ هو الشريف الرفيع، والمعنى الأول هو الأنسب للسياق، وهو القرينة عليه قوله بعد: «فكلي واشربي» كما لا يخفى.

وقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ الهز هو التحريك الشديد، ونقل عن الفرّاء أن العرب تقول: هزّه وهزّ به، والمساقطة هي الإسقاط، وضمير «تساقط» للنخلة، ونسبة الهز الى الجذع والمساقطة الى النخلة لا تخلو من إشعار بأن النخلة كانت يابسة وإنما اخضرَّت وأورقت وأثمرت رطباً جنيّاً لساعتها، والرطب هو نضيج البسر، والجنيّ هو المجني وذكر في القاموس ـ على ما نقل ـ أن الجني إنما يقال لما جني من ساعته.

قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾ قرار العين كناية عن المسرَّة يقال: أقرَّ الله عليك أي سرَّك، والمعنى: فكلي من الرطب الجني الذي تسقط واشربي من السريّ الذي تحتك وكوني على مسرَّة من غير أن تحزني، والتمتع بالأكل والشرب من أمارات السرور والابتهاج فإن المصاب في شغل من التمتع بلذيذ الطعام ومريء الشراب ومصيبته شاغلة، والمعنى: فكلي من الرطب الجنيّ وأشربي من السريّ وكوني على مسرَّة ـ مما حباك الله به ـ من غير أن تحزني، وأما ما تخافين من تهمة الناس ومساءلتهم فالزمي السكوت ولا تكلمي أحداً فأنا أكفيكهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾ المراد بالصوم صوم الصمت كما يدلُّ عليه التفريع الذي في قوله: «فلن أكلم اليوم إنسياً» وكذا يستفاد من السياق أنه كان أمراً مسنوناً في ذلك الوقت ولذلك

أُرسل عذراً إرسال المسلم، والإنسي منسوب الى الإنس مقابل الجن والمراد بـه الفـرد مـن الإنسان.

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ ما زائدة والأصل إن تري بشراً فقولي، الخ؛ والمعنى: إن تـري بشراً وكلّمك أو سألك عن شأن الولد فقولي، الخ؛ والمراد بالقول التفهيم بالإشارة فربما يسمى التفهيم بالإشارة قولاً، وعن الفرّاء أن العرب تسمّي كل ما وصـل الى الإنسـان كـلاماً بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أُكّد لم يكن إلا حقيقة الكلام.

وليس ببعيد أن يستفاد من قوله: «فقولي إني نذرت للرحمن صوماً» بمعونة السياق أنـه أمرها أن تنوي الصوم لوقتها وتنذره لله على نفسها فلا يكون إخباراً بما لا حقيقة له.

وقوله: «فإما ترين» الخ، علي أي حال متفرع على قوله: «وقرّي عيناً» والمراد لا تكلمي بشراً ولا تجيبي أحداً سألك عن شأني بل ردي الأمر الي فأنا أكفيك جواب سؤالهـم وأُدافع خصامهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ الضميران في «به» و«تحمله» لعيسى، والاستفهام إنكاري حملهم عـليه مـا شـاهدوه مـن عجيب أمرها مع ما لها من سابقة الزهد والاحتجاب وكانت ابنة عـمران ومـن آل هـارون القديس. والفري هو العظيم البديع وقيل: هو من الافتراء بمعنى الكذب كـناية عـن القـبيح المنكر والآية التالية تؤيّد المعنى الأول، ومعنى الآية واضح.

قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ ذكر في المجمع أن في المراد من هارون أربعة أقوال: أحدها: أنه كان رجلاً صـالحاً مـن بـني إسرائيل ينسب اليه كل صالح، وعلى هذا فالمراد بالاخوة الشباهة ومعنى «يا اخت هارون» يا شبيهة هارون، والثاني: أنه كان أخاها لأبيها لا من امها، والثالث: أن المراد به هارون أخو موسى الكليم وعلى هذا فالمراد بالاخوة الانتساب كما يقال: أخو تميم، والرابع: أنه كان رجلاً

معروفاً بالعهر والفساد انتهى ملخّصاً والبغي الزانية، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ إشارتها اليها إرجاع لهم اليه حتى يجيبهم ويكشف لهم عن حقيقة الأمر، وهو جرى منها على ما أمرها به حينما ولد بقوله: «فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمان صوما فلن اكلم اليوم إنسيا» على ما تقدم البحث عنه.

والمهد السرير الذي يهيؤ للصبي فيوضع فيه وينوّم عليه، وقيل: المراد بالمهد في الآية حجر أُمه، وقيل المرباة أي المرجحة، وقيل المكان الذي استقر عليه كل ذلك لأنها لم تكن هيأت له مهداً، والحق أن الآية ظاهرة في ذلك ولا دليل على أنها لم تكن هيأت وقتئذ له مهداً فلعل الناس هجموا عليها وكلموها بعدما رجعت الى بيتها واستقرت فيه وهيأت له مهداً أو مرجحةً وتسمى أيضاً مهداً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ شروع منه عليه السلام في الجواب ولم يتعرض لمشكلة الولادة التي كانوا يكرّون بها على مريم عليها السلام لأن نطقه على صباه وهو آية معجزة وما أخبر به من الحقيقة لا يدع ريباً لمرتاب في أمره على أنه سلّم في آخر كلامه على نفسه فشهد بذلك على نزاهته وأمته من كل قذارة وخباثة ومن نزاهته طهارة مولده.

وقد بدأ بقوله: «إني عبدالله» اعترافاً بالعبودية لله ليبطل به غلوّ الغالين وتتمّ الحجة عليهم، كما ختمه بمثل ذلك إذ يقول «وإن الله ربي وربكم فاعبدوه».

وفي قوله: «آتاني الكتاب» إخبار بإعطاء الكتاب والظاهر أنه الانجيل وفي قوله: «وجعلني نبياً» إعلام بنبوّته، وقد تقدم في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب الفرق بين النبوة والرسالة، فقد كان يومئذ نبياً فحسب ثم اختاره الله للرسالة، وظاهر الكلام أنه كان أُوتي الكتاب والنبوة لا أن ذلك إخبار بما سيقع.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ كونه عليه السلام مباركاً أينما كان هو كونه محلاً لكل بركة والبركة نماء الخير كان نفّاعاً للناس يعلمهم العلم النافع ويدعوهم الى العمل الصالح ويربّيهم تربية زاكية ويبرىء الأكمه والأبرص ويصلح القوي ويعين الضعيف.

وقوله: «وأوصاني بالصلاة والزكاة» الخ؛ إشارة الى تشريع الصلاة والزكاة في شريعته، والصلاة هي التوجُّه العبادي الخاص الى الله سبحانه والزكاة الإنفاق المالي وهذا هو الذي استقرَّ عليه عرف القرآن كلما ذكر الصلاة والزكاة وقارن بينهما وذلك في نيّف وعشرين موضعاً فلا يعتدّ بقول من قال: إن المراد بالزكاة تزكية النفس وتطهيرها دون الإنفاق المالي.

قوله تعالى: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ أي جعلني حنيناً رؤفاً بالناس ومن ذلك أني برٌّ بوالدتي ولست جباراً شقياً بالنسبة الى سائر الناس، والجبار هو الذي يحمّل الناس ولا يتحمّل منهم، ونقل عن ابن عطاء أن الجبار الذي لا ينصح والشقي الذي لا ينتصح.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ تسليم منه على نفسه في المواطن الثلاثة الكليّة التي تستقبله في كونه ووجوده، وقد تقدم توضيحه في آخر قصة يحيى المتقدمة.

نعم بين التسليمتين فرق، فالسلام في قصة يحيى نكرة يدلُّ على النوع، وفي هذه القصة محلّى بلام الجنس يفيد بإطلاقه الاستغراق، وفرق آخر وهو أن المسلّم على يحيى هو الله سبحانه وعلى عيسى هو نفسه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ الظاهر أن هذه الآية والتي تليها معترضتان، والآية الثالثة «وإن الله ربي وربكم» من تمام قول عيسى عليه السلام.

وقوله: «ذلك عيسى بن مريم» الإشارة فيه الى مجموع ما قصَّ من أمره وشرح من وصفه أي ذلك الذي ذكرنا كيفية ولادته وما وصفه هو للناس من عبوديته وإيتائه الكتاب وجعله نبياً هو عيسى بن مريم.

وقوله: «قول الحق» منصوب بمقدّر أي أقول قول الحق، وقوله: «الذي فيه يمترون» أي يشكُّون أو يتنازعون، وصف لعيسى. والمعنى: ذلك عيسى بن مريم الذي يشكون أو يتنازعون فيه.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ نفي وإبطال لما قالت به النصارى من بنوّة المسيح، وقوله: «إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن» حجة اقيمت على ذلك، وقد عبر بلفظ القضاء للدلالة على ملاك الاستحالة.

وذلك أن الولد إنما يراد للاستعانة به في الحوائج، والله سبحانه غني عن ذلك لا تتخلف مراد عن إرادته إذ قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

وأيضاً الولد هو أجزاء من وجود الوالد يعزلها ثم يربيها بالتدريج حتى يصير فرداً مثله، والله سبحانه غني عن التوسل في فعله الى التدريج ولا مثل له بل ما أراده كان كما أراده من غير مهلة وتدريج من غير أن يماثله، وقد تقدم نظير هذا المعنى في تفسير قوله: ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه﴾ الآية (البقرة / ١١٦) في الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ معطوف على قوله: «إني عبدالله» وهو من قول عيسى ﷺ، ومن الدليل عليه وقوع الآية بعينها في المحكيّ من دعوته قومه في قصته من سورة آل عمران، ونظيره في سورة الزخرف حيث قال: ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ (الزخرف / ٦٥).

قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأحزاب جمع حزب وهو الجمع المنقطع في رأيه عن غيره فاختلاف الأحزاب هو قول كل منهم فيه ﷺ خلاف ما يقوله الآخرون، وإنما قال: «من بينهم» لأن فيهم من ثبت على الحق، وربما قيل «من» زائدة والأصل اختلف الأحزاب بينهم، وهو كما ترى.

قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّالِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم بالحق يوم يأتوننا ويرجعون الينا وهو يوم القيامة فيتبين لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه كما حكى اعترافهم به في قوله: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنّا موقنون﴾ (الم السجدة / ١٢).

وأما الاستدراك الذي في قوله: «لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين» فهو لدفع توهم أنهم إذا سمعوا وأبصروا يوم القيامة وانكشف لهم الحق سيهتدون فيسعدون بحصول المعرفة واليقين فاستدرك أنهم لا ينتفعون بذلك ولا يهتدون بل الظالمون اليوم في ضلال مبين لظلمهم.

وذلك أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فلا يواجهون اليوم إلا ما قدموه من العمل وأثره وما اكتسبوه في أمسهم ليومهم وأما أن يستأنفوا يوم القيامة عملاً يتوقعون جزاءه غداً فليس لليوم غد، وبعبارة أُخرى هؤلاء رسخت فيهم ملكة الضلال في الدينا وانقطعوا عن موطن الاختيار بحلول الموت فليس لهم إلا أن يعيشوا مضطرين على ما هيأوا لأنفسهم من الضلال لا معدل عنه فلا ينفعهم انكشاف الحق وظهور الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ظاهر السياق أن قوله: «إذ قضي الأمر» بيان لقوله: «يوم الحسرة» ففيه إشارة الى أن الحسرة إنما تأتيهم من ناحية قضاء الأمر والقضاء إنما يوجب الحسرة إذا كان بحيث

يفوت به عن المقضي عليه ما فيه قرة عينه وأُمنية نفسه وعمّ سعادته الذي كان يقدّر حصوله لنفسه ولا يرى طيباً للعيش دونه لتعلق قلبه به وتولهه فيه، ومعلوم أن الانسان لا يرضى لفوت ما هذا شأنه وإن احتمل في سبيل حفظه أي مكروه إلا أن يصرفه عنه الغفلة فيفرّط في جنبه ولذلك عقّب الكلام بقوله: «وهم في غفلة وهم لا يؤمنون».

فالمعنى ـ والله أعلم ـ وخوّفهم يوماً يقضي فيه الأمر فيتحتم عليهم الهلاك الدائم فينقطعون عن سعادتهم الخالدة التي فيها قرّة أعينهم فيتحسرون عليها حسرة لا تقدّر بقدر إذ غفلوا في الدنيا فلم يسلكوا الصراط الذي يهديهم ويوصلهم اليها بالاستقامة وهو الايمان بالله وحده وتنزيهه عن الولد والشريك.

وفيما قدّمناه كفاية عن تفاريق الوجوه التي أوردوها في تفسير الآية والله الهادي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ قال الراغب في المفردات: الوراثة والإرث انتقال قنية اليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري العقد وسمّي بذلك لمنتقل عن الميت ـ الى أن قال ـ ويقال: ورثت مالاً عن زيد وورثت زيداً. انتهى.

والآية ـ كأنها ـ تثبيت ونوع تقريب لقوله في الآية السابقة: «قضي الأمر» فالمعنى وهذا القضاء سهل يسير علينا فإنا نرث الأرض وإياهم والينا يرجعون ووراثة الأرض أنهم يتركونها بالموت فيبقى لله تعالى ووراثة من عليها أنهم يموتون فيبقى ما بأيديهم لله سبحانه، وعلى هذا فالجملتان «نرث الأرض ومن عليها» في معنى جملة واحدة «نرث عنهم الأرض».

ويمكن أن نحمل الآية على معنى أدق من ذلك وهو أن يراد أن الله سبحانه هو الباقي بعد فناء كل شيء فهو الباقي بعد فناء الأرض يملك عنها ما كانت تملكه من الوجود وآثار الوجود وهو الباقي بعد فناء الانسان يملك ما كان يملكه كما قصر الملك لنفسه في قوله: ﴿لمن الملك اليوم

لله الواحد القهّار﴾ (المؤمن / ١٦)، وقوله: ﴿ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً﴾ (مريم / ٨٤).

ويرجع معنى هذه الوراثة الى رجوع الكل وحشرهم اليه تعالى فيكون قوله: «والينا يرجعون» عطف تفسير وبمنزلة التعليل للجملة الثانية أو لمجموع الجملتين بتغليب أُولي العقل على غيرهم او لبروز كل شيء يومئذ أحياء عقلاء.

وهذا الوجه أسلم ن شبهة التكرار اللازم للوجه الأول فإن الكلام عليه نظير أن يقال: ورثت مال زيد وزيداً.

واختتام الكلام على قصة عيسى عليه السلام بهذه الآية لا يخلو عن مناسبة فإن وراثته تعالى من الحجج على نفي الولد فإن الولد إنما يراد ليكون وارثاً لوالده فالذي يرث كل شيء في غنى عن الولد[1].

٤١ ❁ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً.

٤٢ ❁ إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً.

٤٣ ❁ يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً.

٤٤ ❁ يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطانَ إِنَّ ٱلشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً.

٤٥ ❁ يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيّاً.

---

١. مريم ١٦ ـ ٤٠: بحث روائي حول قصة مريم وولادة عيسى عليه السلام: الجنة والنار.

٤٦ ● قالَ أَراغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً.

٤٧ ● قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيّاً.

٤٨ ● وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسىٰ أَلّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيّاً.

٤٩ ● فَلَمّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنا نَبِيّاً.

٥٠ ● وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيّاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ الظاهر أن الصدّيق اسم مبالغة من الصدق فهو الذي يبالغ في الصدق فيقول ما يفعل ويفعل ما يقول لا مناقضة بين قوله وفعله، وكذلك كان إبراهيم عليه السلام قال بالتوحيد في عالم وثني وهو وحده فحاجَّ أباه وقومه وقاوم ملك بابل وكسر الآلهة وثبت على ما قال حتى أُلقي في النار ثم اعتزلهم وما يعبدون كما وعد أباه أول يوم فوهب الله له إسحاق ويعقوب الى آخر ما عدَّه تعالى من مواهبه.

والنبي على وزن فعيل مأخوذ من النبأ سُمّي به النبي لأنه عنده نبأ الغيب بوحي من الله، وقيل: هو مأخوذ من النبوة بمعنى الرفعة سُمّي به لرفعة قدره.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ ظرف لابراهيم حيث إن المراد بذكره وذكر نبائه وقصته كما تقدم نظيره في

قوله: «واذكر في الكتاب مريم» وأما قول من قال بكونه ظرفاً لقوله: «صدّيقاً» أو قوله: «نبياً» فهو تكلف يستبشعه الطبع السليم.

وقد نبّه إبراهيم أباه فيما ألقى اليه من الخطاب أولاً ان طريقه الذي يسلكه بعبادة الأصنام لغو باطل، وثانياً أن له من العلم ما ليس عنده فليتبعه ليهديه الى طريق الحق لأنه على خطر من ولاية الشيطان.

فقوله: «يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر» الخ؛ إنكار توبيخي لعبادته الأصنام وقد عدل من ذكر الأصنام الى ذكر أوصافها «ما لا يسمع» الخ؛ ليشير الى الدليل في ضمن إلقاء المدلول ويعطي الحجة في طيّ المدعي وهو أن عبادة الأصنام لغو باطل من وجهين: أحدهما أن العبادة إظهار الخضوع وتمثيل التذلّل من العابد للمعبود فلا يستقيم إلا مع علم المعبود بذلك، والأصنام جمادات مصوّره فاقدة للشعور لا تسمع ولا تبصر فعبادتها لغو لا أثر لها، وهذا هو الذي أشار اليه بقوله: «لا يسمع ولا يبصر».

وثانيهما: أن العبادة والدعاء ورفع الحاجة الى شيء إنما ذلك ليجلب للعابد نفعاً أو يدفع عنه ضرراً فيتوقف ولا محالة على قدرة في المعبود على ذلك، والأصنام لا قدرة لها على شيء فلا تغني عن عابدها شيئاً بجلب نفع او دفع ضرر فعبادتها لغو لا أثر لها، وهذا هو الذي أشار اليه بقوله: «ولا يغني عنك شيئاً».

وقد تقدم في تفسير سورة الأنعام أن هذا الذي كان يخاطبه إبراهيم عليه السلام بقوله: «يا أبت» لم يكن والده وإنما كان عمه أو جده لامه أو زوج أُمه بعد وفاة والده فراجع.

والمعروف من مذهب النحاة في لفظ «يا أبت» أن التاء عوض من ياء المتكلم ومثله «يا أُمّت» ويختص التعويض بالنداء فلا يقال مثلاً قال أبت وقالت أُمت.

قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ لما بيّن له بطلان عبادته للأصنام ولغويتها وكان لازم معناه أنه سالك طريق

غير سوي عن جهل نبّهه أن له علماً بهذا الشأن ليس عنده وعليه أن يتّبعه حتى يهديه الى صراط ـ وهو الطريق الذي لا يضل سالكه لوضوحه ـ سوي هو في غفلة من أمره، ولذا نكّره إذ قال: «أهدك صراطاً سوياً» ولم يقل: أهدك الصراط السوي كأنه يقول: إذ كنت تسلك صراطاً ولا محالة من سلوكه فلا تسلك هذا الصراط غير السوي بجهالة بل اتبعني أهدك صراطاً سوياً فإني لذو علم بهذا الشأن.

وفي قوله: «قد جاءني من العلم» دليل على أنه أُوتي بالحق قبل دعوته ومحاجته هذه وفيه تصديق ما قدمناه في قصته عليه السلام من سورة الأنعام أنه أُوتي العلم بالله ومشاهدة ملكوت السماوات والارض قبل أن يلقى أباه وقومه ويحاجهم.

والمراد بالهداية في قوله: «أهدك صراطاً سوياً» الهداية بمعنى إراءة الطريق دون الإيصال الى المطلوب فإنه شأن الإمام ولم يجعل إماماً بعد، وقد فصلنا القول في هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ (البقرة / ١٢٤).

قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً﴾ الى آخر الآيتين؛ الوثنيون يرون وجود الجن ـ وإبليس من الجن ـ ويعبدون أصنامهم كما يعبدون أصنام الملائكة والقديسين من البشر، غير أنه ليس المراد بالنهي النهي عن العبادة بهذا المعنى إذ لا موجب لتخصيص الجن من بين معبوديهم بالنهي عن عبادتهم بل المراد بالعبادة الطاعة كما في قوله تعالى: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾ الآية (يس / ٦٠)، فالنهي عن عبادة الشيطان نهي عن طاعته فيما يأمر به ومما يأمر به عبادة غير الله.

لما دعاه الى اتباعه ليهديه الى صراط سوي أراد أن يحرضه على الاتباع بقلعه عما هو عليه فنبهه على أن عبادة الاصنام ليست مجرد لغو لا يضر ولا ينفع بل هي في معرض أن تورد صاحبها مورد الهلاك وتدخله تحت ولاية الشيطان التي لا مطمع بعدها في صلاح وفلاح ولا

رجاء لسلامة وسعادة.

وذلك أن عبادتها ـ والمستحق للعبادة هو الله سبحانه لكونه رحماناً تنتهي اليه كل رحمة ـ والتقرب اليها إنما هي من الشيطان وتسويله، والشيطان عصي للرحمان لا يأمر بشيء فيه رضاه وإنما يوسوس بما فيه معصيته المؤدية الى عذابه وسخطه والعكوف على معصيته وخاصة في أخص حقوقه وهي عبادته وحده. فيه مخافة أن ينقطع عن العاصي رحمته وهي الهداية الى السعادة وينزل عليه عذاب الخذلان فلا يتولى الله أمره فيكون الشيطان هو مولاه وهو ولي الشيطان وهو الهلاك.

فمعنى الآيتين ـ والله أعلم ـ يا أبت لا تطع الشيطان فيما يأمرك به من عبادة الأصنام لأن الشيطان عصي مقيم على معصية الله الذي هو مصدر كل رحمة ونعمة فهو لا يأمر إلا بما فيه معصيته والحرمان عن رحمته، وإنما أنهاك عن معصيته في طاعة الشيطان لأني أخاف يا أبت أن يأخذك شيء من عذاب خذلانه وينقطع عنك رحمته فلا يبقى لتولّي أمرك إلا الشيطان فتكون ولياً للشيطان والشيطان مولاك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ الرغبة عن الشيء نقيض الرغبة فيه كما في المجمع، والانتهاء: الكفّ عن الفعل بعد النهي، والرجم: الرمي بالحجارة، والمعروف من معناه القتل برمي الحجارة، والهجر هو الترك والمفارقة، والمليّ: الدهر الطويل.

وفي الآية تهديد لإبراهيم بأخزى القتل وأذلّه وهو الرجم الذي يقتل به المطرودون، وفيها طرد آزر لإبراهيم عن نفسه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ الحفيّ على ما ذكره الراغب: البرّ اللطيف وهو الذي يتتبّع دقائق الحوائج فيحسن ويرفعها واحداً بعد واحد، يقال: حفا يحفو حفي وحفوة، وإحفاء السؤال والإحفاء فيه: الإلحاح

والإمعان فيه .

قابل إبراهيم عليه السلام أباه فيما أساء اليه وهدّده وفيه سلب الأمن عنه من قبله بالسلام الذي فيه إحسان وإعطاء أمن ، ووعده أن يستغفر له ربه وأن يعتزلهم وما يدعون من دون الله كما أمره أن يهجره مليّاً .

أما السلام فهو من دأب الكرام قابل به جهالة أبيه إذ هدّده بالرجم وطرده لكلمة حق قالها ، قال تعالى : ﴿ وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً ﴾ (الفرقان / ٧٢) ، وقال : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (الفرقان / ٦٣) ، وأما ما قيل : إنه كان سلام توديع وتحية مفارقة وهجرة امتثالاً لقوله : « اهجرني مليّاً » ففيه أنه اعتزله وقومه بعد مدة غير قصيرة .

وأما استغفاره لأبيه وهو مشرك فظاهر قوله : « يا أبت إني أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان ولياً » أنه عليه السلام لم يكن وقتئذ قاطعاً بكونه من أولياء الشيطان أي مطبوعاً على قلبه بالشرك جاحداً معانداً للحق عدواً لله سبحانه ولو كان قاطعاً لم يعبّر بمثل قوله : « إني أخاف » بل كان يحتمل أن يكون جاهلاً مستضعفاً لو ظهر له الحق اتَّبعه ، ومن الممكن أن تشمل الرحمة الإلهية لأمثال هؤلاء قال تعالى : ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً ﴾ (النساء / ٩٩) ، فاستعطفه عليه السلام بوعد الاستغفار ولم يحتم له المغفرة بل أظهر الرجاء بدليل قوله : « إنه كان بي حفيّاً » وقوله تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾ (الممتحنة / ٤) .

ويؤيد ما ذكر قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولي قربى من بعد ما تبيَّن لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبيَّن له أنه عدوّ لله تبرَّأ منه إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم ﴾ (التوبة /) ، فتبرّيه بعد تبيّن عداوته دليل على أنه كان قبل ذلك عند الموعدة يرجو أن يكون غير

عدوّ لله مع كونه مشركاً، وليس ذلك إلا الجاهل غير المعاند.

ويؤيد هذا النظر قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون اليهم بالمودّة ـ الى أن قال ـ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ الخ (الممتحنة / ٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وعد باعتزالهم والإبتعاد منهم ومن أصنامهم ليخلو بربه ويخلص الدعاء له رجاء أن لا يكون بسبب دعائه شقياً وإنما أخذ بالرجاء لأن هذه الأسباب من الدعاء والتوجه الى الله ونحوه ليست بأسباب موجبة عليه تعالى شيئاً بل الإثابة والإسعاد ونحوه بمجرد التفضل منه تعالى. على أن الامور بخواتها لا يعلم الغيب إلا الله فعلى المؤمن أن يسير بين الخوف والرجاء.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ الى آخر الآيتين. لعل الاقتصار على ذكر إسحاق لتعلّق الغرض بذكر توالي النبوة في الشجرة الإسرائيلية ولذلك عقّب إسحاق بذكر يعقوب فإن في نسله جماً غفيراً من الأنبياء، ويؤيد ذلك أيضاً قوله: «وكلاً جعلنا نبياً».

وقوله: «ووهبنا لهم من رحمتنا» من الممكن أن يكون المراد به الإمامة كما وقع في قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ (الأنبياء / ٧٣)، أو التأييد بروح القدس كما يشير اليه قوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ الآية (الأنبياء / ٧٣) على ما سيجيء من معناه أو مطلق الولاية الإلهية.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ اللسان ـ على ما ذكروا ـ هو الذكر بين الناس بالمدح أو الذم وإذا أُضيف الى الصدق فهو الثناء الجميل الذي لا كذب فيه، والعلي هو الرفيع والمعنى وجعلنا لهم ثناء جميلاً صادقاً رفيع القدر.

٥١ ۞ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً.

٥٢ ۞ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً.

٥٣ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّاً.

٥٤ ۞ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً.

٥٥ ۞ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً.

٥٦ ۞ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً.

٥٧ ۞ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ قد تقدم معنى المخلص بفتح اللام وأنه الذي أخلصه الله لنفسه فلا نصيب لغيره تعالى فيه لا في نفسه ولا في عمله، وهو أعلى مقامات العبودية. وتقدم أيضاً الفرق بين الرسول والنبي.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ الأيمن: صفة لجانب أي الجانب الأيمن من الطور، وفي المجمع: النجيّ بمعنى المناجي الكجليس والضجيع.

وظاهر أن تقريبه ﷺ كان تقريباً معنوياً وإن كانت هذه الموهبة الإلهية في مكان وهو الطور ففيه كان التكليم، ومثاله من الحس أن ينادي السيد العزيز عبده الذليل فيقرّبه من

مجلسه حتى يجعله نجياً يناجيه ففيه نيل ما لا سبيل لغيره اليه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّاً﴾ إشارة الى إجابة ما دعا به موسى عندما أُوحي اليه لأول مرة في الطور إذ قال: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري﴾ (طه / ٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ الى آخر الآيتين: اختلفوا في «إسماعيل» هذا فقال الجمهور هو إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمان، وإنما ذكر وحده ولم يذكر مع إسحاق ويعقوب اعتناء بشأنه، وقيل: هو غيره، وهو إسماعيل بن حزقيل من أنبياء بني إسرائيل، ولو كان هو ابن إبراهيم لذكر مع إسحاق ويعقوب.

ويضعّف ما وجه به قول الجمهور: إنه استقلّ بالذكر اعتناء بشأنه، أنه لو كان كذلك لكان الأنسب ذكره بعد إبراهيم وقبل موسى عليه السلام لا بعد موسى.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ المراد بأهله خاصته من عترته وعشيرته وقومه كما هو ظاهر اللفظ، وقيل: المراد بأهله أمته وهو قول بلا دليل.

والمراد بكونه عند ربه مرضيّاً كون نفسه مرضيّة دون عمله كما ربما فسّره به بعضهم فإن إطلاق اللفظ لا يلائم تقييد الرضا بالعمل.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ الى آخر الآيتين؛ قالوا: إن إدريس النبي كان اسمه أُخنوخ وهو من أجداد نوح عليه السلام على ما ذكر في سفر التكوين من التوراة، وإنما اشتهر بإدريس لكثرة اشتغاله بالدرس.

وقوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ من الممكن أن يستفاد من سياق القصص المسرودة في السورة وهي تعدّ مواهب النبوّة والولاية وهي مقامات إلهية معنوية أن المراد بالمكان العليّ الذي رفع اليه درجة من درجات القرب إذ لا مزيّة في الارتفاع المادي والصعود الى أقاصي

الجو البعيدة أينما كان[١][٢].

٥٨ ❁ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّـبِيِّينَ مِـنْ ذُرِّيَّـةِ آدَمَ
وَمِمَّنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرٰاهِيمَ وَإِسْرٰائِيلَ وَمِـمَّنْ
هَدَيْنٰا وَٱجْتَبَيْنٰا إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُ ٱلرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً
وَبُكِيّاً.

٥٩ ❁ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضٰاعُوا الصَّلوٰةَ وَٱتَّبَعُوا الشَّهَوٰاتِ
فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً.

٦٠ ❁ إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صٰالِحاً فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلجَـنَّةَ
وَلاٰ يُظْلَمُونَ شَيْئاً.

٦١ ❁ جَنّٰاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ عِبٰادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كٰانَ وَعْدُهُ
مَأْتِيّاً.

٦٢ ❁ لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهٰا لَغْواً إِلاّٰ سَلاٰماً وَلَـهُمْ رِزْقُـهُمْ فِـيهٰا بُكْـرَةً
وَعَشِيّاً.

٦٣ ❁ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبٰادِنٰا مَنْ كٰانَ تَقِيّاً.

---

١. مريم ٥١-٥٧: قصة اسماعيل صادق الوعد.

٢. مريم ٥١-٥٧: قصة ادريس النبي ﷺ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾ الخ: الإشارة بقوله: «أُولئك» الى المذكورين قبل الآية في السورة وهم زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

وقوله: «من النبيين» من فيه للتبعيض وعديله قوله الآتي: «وممن هدينا واجتبينا» على ما سيأتي توضيحه. وقد جوّز المفسرون كون «من» بيانية وأنت خبير بأن ذلك لا يلائم كون «أُولئك» مشير الى المذكورين من قبل، لأن النبيّين أعم، اللهم إلا أن يكون إشارة اليهم بما هم أمثلة لأهل السعادة ويكون المعنى أُولئك المذكورون وأمثالهم الذين أنعم الله عليهم هم النبيون ومن هدينا واجتبينا.

وقوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ في معنى الصفة للنبيين ومن فيه للتبعيض أي من النبيين الذين هم بعض ذرية آدم، وليس بياناً للنبيين لاختلال المعنى بذلك.

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ معطوف على قوله: «من ذرية آدم» والمراد بهم المحمولون في سفينة نوح عليه السلام وذريتهم وقد بارك الله عليهم، وهم من ذرية نوح لقوله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ (الصافات / ٧٧).

وقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ معطوف كسابقه على قوله: «من النبيين».

وقد قسم الله تعالى الذين أنعم عليهم من النبيين على هذه الطوائف الأربع أعني ذرية آدم ومن حمله مع نوح وذرية إبراهيم وذرية إسرائيل وقد كان ذكر كل سابق يغني عن ذكر لاحقه لكون ذريّة إسرائيل من ذرية إبراهيم والجميع ممن حمل مع نوح والجميع من ذرية آدم عليهم السلام.

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا﴾ معطوف على قوله: «من النبيين» وهؤلاء غير

النبيين من الذين أنعم الله عليهم فإن هذه النعمة غير خاصة بالنبيين ولا منحصرة فيهم بدليل قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً﴾ (النساء / ٦٩) وقد ذكر الله سبحانه بين من قص قصته مريم ﷺ معتنياً بها إذ قال: «واذكر في الكتاب مريم» وليست من النبيين فالمراد بقوله: «وممن هدينا واجتبينا» غير النبيين من الصدّيقين والشهداء والصالحين لا محالة، وكانت مريم من الصدّيقين لقوله تعالى: ﴿ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأُمه صديقة﴾ (المائدة / ٧٥).

وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ السجد جمع ساجد والبكي على فعول جمع باكي والجملة خبر للذين في صدر الآية ويحتمل أن يكون الخرور سجداً وبكيا كناية عن كمال الخضوع والخشوع فإن السجدة تمثل لكمال الخضوع والبكاء لكمال الخشوع والأنسب على هذا أن يكون المراد بالآيات وتلاوتها ذكر مطلق ما يحكي شأناً من شؤنه تعالى.

وأما قول القائل إن المراد بتلاوة الآيات قراءة الكتب السماوية مطلقاً أو خصوص ما يشتمل على عذاب الكفار والمجرمين، أو أن المراد بالسجود الصلاة أو سجدة التلاوة أو أن المراد بالبكاء البكاء عند استماع الآيات أو تلاوتها فكما ترى.

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ أُولئك المنعم عليهم الذين بعضهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وبعضهم من أهل الهداية والاجتباء خاضعون للرحمان خاشعون إذا ذكر عندهم وتليت آياته عليهم.

ولم يقل: كانوا إذا تتلى عليهم. الخ؛ لأن العناية في المقام متعلقة ببيان حال النوع من غير نظر الى ماضي الزمان ومستقبله بل بتقسيمه الى سلف صالح وخلف طالح وثالث تاب وآمن وعمل صالحاً وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ قالوا: الخلف بسكون اللام البدل السيّيء ويفتح اللام ضده وربما يعكس على ندرة، وضياع الشيء فساده أو افتقاده بسبب ما كان ينبغي أن يتسلط عليه يقال: أضاع المال اذا أفسده بسوء تدبيره أو أخرجه من يده بصرفه فيما لا ينبغي صرفه فيه، والغي خلاف الرشد وهو إصابة الواقع وهو قريب المعنى من الضلال خلاف الهدى وهو ركوب الطريق الموصل الى الغاية المقصودة.

فقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الخ؛ أي قام مقام اولئك الذين أنعم الله عليهم وكانت طريقتهم الخضوع والخشوع لله تعالى بالتوجه اليه بالعبادة قوم سوء أضاعوا ما أخذوا منهم من الصلاة والتوجه العبادي الى الله سبحانه بالتهاون فيه والإعراض عنه، واتبعوا الشهوات الصارفة لهم عن المجاهدة في الله والتوجه اليه.

وقوله: «فسوف يلقون غياً» أي جزاء غيهم على ما قيل فهو كقوله: «ومن يفعل ذلك يلق أثاما».

ومن الممكن أن يكون المراد به نفس الغي بفرض الغي غاية للطريق التي يسلكونها وهي طريق إضاعة الصلاة واتباع الشهوات فإذ كانوا يسلكون طريقاً غايتها الغي فسيلقونه إذا قطعوها إما بانكشاف غيهم لهم يوم القيامة حيث ينكشف لهم الحقائق أو برسوخ الغي في قلوبهم وصيرورتهم من أولياء الشيطان كما قال: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ (الحجر / ٤٢)، وكيف كان فهو استعارة بالكناية لطيفة.

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ استثناء من الآية السابقة فهؤلاء الراجعون الى الله سبحانه ملحقون باولئك الذين أنعم الله عليهم وهم معهم لا منهم كما قال تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك

رفيقاً﴾ (النساء / ٦٩).

وقوله: «فاولئك يدخلون الجنة» من وضع المسبب موضع السبب والأصل فاولئك يوفّون أجرهم، والدليل على ذلك قوله بعده: «ولا يظلمون شيئاً» فإنه من لوازم توفية الأجر لا من لوازم دخول الجنة.

قوله تعالى: ﴿جَنّٰاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ عِبٰادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كٰانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾ العدن الإقامة ففي تسميتها به إشارة الى خلودها لداخليها، والوعد بالغيب هو الوعد بما ليس تحت إدراك الموعود له، وكون الوعد مأتياً عدم تخلّفه. قال في المجمع: والمفعول هنا بمعنى الفاعل لأن ما أتيته فقد أتاك وما أتاك فقد أتيته يقال: أتيت خمسين سنة وأتت عليَّ خمسون سنة، وقيل: إن الموعود الجنة والجنة يأتيها المؤمنون انتهى.

قوله تعالى: ﴿لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهٰا لَغْواً إِلاّٰ سَلاٰماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهٰا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ عدم سمع اللغو من أخص صفات الجنة وقد ذكره الله سبحانه وامتنّ به في مواضع من كلامه وسنفصل القول فيه إن شاء الله في موضع يناسبه، واستثناء السلام منه استثناء منفصل، والسلام قريب المعنى من الأمن ـ وقد تقدم الفرق بينهما ـ فقولك: أنت مني في أمن معناه لا تلق مني ما يسوءك، وقولك: سلام مني عليك معناه كل ما تلقاه مني لا يسوءك. وإنما يسمعون السلام من الملائكة ومن رفقائهم في الجنة، قال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿سلام عليكم طبتم﴾ (الزمر / ٧٣)، وقال: ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ (الواقعة / ٩١).

وقوله: «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً» الظاهر أن إتيان الرزق بكرة وعشياً كناية عن تواليه من غير انقطاع.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبٰادِنٰا مَنْ كٰانَ تَقِيّاً﴾ الإرث والوراثة هو أن ينتقل مال أو ما يشبهه من شخص الى آخر بعد ترك الأول له بموت أو جلاء أو

نحوهما، وإذ كانت الجنة في معرض العطاء لكل إنسان بحسب الوعد الإلهي المشروط بالإيمان والعمل الصالح فاختصاص المتقين بها بعد حرمان غيرهم عنها بإضاعة الصلاة واتباع الشهوات وراثة المتقين، ونظير هذه العناية ما في قوله تعالى: ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (الأنبياء / ١٠٥)، وقوله: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾ (الزمر / ٧٤)، والآية ـ كما ترى ـ جمعت بين الإيراث والأجر.

٦٤ ● وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً.

٦٥ ● رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الى آخر الآية؛ التنزل هو النزول على مهل وتؤدة فإن تنزل مطاوع نزّل يقال: نزله فتنزل والنفي والاستثناء يفيدان الحصر فلا يتنزل الملائكة إلا بأمر من الله كما قال: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (التحريم / ٦٠).

وقوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ يقال: كذا قدّامه وأمامه وبين يديه والمعنى واحد غير أن قولنا: بين يديه إنما يطلق فيما كان بقرب منه وهو مشرف عليه له فيه نوع من التصرف والتسلط فظاهر قوله: «ما بين أيدينا» أن المراد به ما نشرف عليه مما

هو مكشوف علينا مشهود لنا: وظاهر قوله: «وما خلفنا» بالمقابلة ما هو غائب عنا مستور علينا.

وعلى هذا فلو أُريد بقوله: «ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك» المكان شمل بعض المكان الذي أمامهم والمكان الذي هم فيه وجميع المكان الذي خلفهم ولم يشمل كل مكان. وكذا لو أُريد به الزمان شمل الماضي كله والحال والمستقبل القريب فقط وسياق قوله: «له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك»، ينادي بالإحاطة ولا يلائم التبعيض.

فالوجه حمل «ما بين أيدينا» على الأعمال والآثار المتفرعة على وجودهم التي هم قائمون بها متسلطون عليها، وحمل «ما خلفنا» على ما هو من أسباب وجودهم مما تقدّمهم وتحقق قبلهم، وحمل «ما بين ذلك» على وجودهم أنفسهم وهو من أبدع التعبير وألطفه وبذلك تتم الإحاطة الإلهية بهم من كل جهة لرجوع المعنى الى أن الله تعالى هو المالك لوجودنا وما يتعلق به وجودنا من قبل ومن بعد.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ صدر الآية أعني قوله: «رب السماوات والأرض وما بينهما» تعليل لقوله في الآية السابقة: «له ما بين أيدينا وما خلفنا» الى آخر الآية؛ أي كيف لا يملك ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وكيف يكون نسياً وهو تعالى ربّ السماوات والأرض وما بينهما؟ ورب الشيء هو مالكه، المدبر لأمره، فلكه وعدم نسيانه مقتضى ربوبيّته.

وقوله: «فاعبده واصطبر لعبادته» تفريع على صدر الآية والمعنى إذا كنا لا نتنزل إلا بأمر ربك وقد نزلنا عليك هذا الكلام المتضمن للدعوة الى عبادته فالكلام كلامه والدعوة دعوته فاعبده وحده واصطبر لعبادته فليس هناك من يسمّى رباً غير ربك حتى لا تصطبر على عبادة ربك وتنتقل الى عبادة ذلك الغير الذي يسمّى رباً فتكتفي بعبادته عن عبادة ربك أو تشرك به وربما قيل: إن الجملة تفريع على قوله: «رب السماوات والأرض» أو على قوله:

«وما كان ربك نسياً» أي لم ينسك ربك فاعبده ، الخ ؛ والوجهان كما ترى .

٦٦ ❁ وَيَقُولُ ٱلْإِنْسَانُ ءَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً .

٦٧ ❁ أَوَلاَ يَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً .

٦٨ ❁ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً .

٦٩ ❁ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيّاً .

٧٠ ❁ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلىٰ بِهَا صِلِيّاً .

٧١ ❁ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً .

٧٢ ❁ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً .

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنْسَانُ ءَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً﴾ إنكار للبعث في صورة الاستبعاد ، وهو قول الكفار من الوثنيين ومن يلحق بهم من منكري الصانع بل مما يميل اليه طبع الانسان قبل الرجوع الى الدليل ، قيل : ولذلك نسب القول الى الانسان حينما كان مقتضى طبع الكلام أن يقال : ويقول الكافر ، أو : ويقول الذين كفروا ، الخ ؛ وفيه أنه لا يلائم قوله الآتي : «فوربك لنحشرنهم والشياطين ـ الى قوله ـ صلياً» .

وليس ببعيد أن يكون المراد بالانسان القائل ذلك هو الكافر المنكر للبعث وإنما عبّر بالانسان لكونه لا يترقب منه ذلك وقد جهّزه الله تعالى بالإدراك العقلي وهو يذكر أن الله خلقه من قبل ولم يكُ شيئاً ، فليس من البعيد أن يعيده ثانياً فاستبعاده مستبعد منه ، ولذا كرّر

لفظ الانسان حيث أخذ في الجواب قائلا «أولا يذكر الانسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً» أي إنه إنسان لا ينبغي له أن يستبعد وقوع ما شاهد وقوع مثله وهو غير ناسيه.

ولعل التعبير بالمضارع في قوله: «ويقول الإنسان» للإشارة الى استمرار هذا الاستبعاد بين المنكرين للمعاد والمرتابين فيه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ الاستفهام للتعجيب والاستبعاد ومعنى الآية ظاهر وقد أخذ فيها برفع الاستبعاد بذكر وقوع المثل ليثبت به الإمكان، فالآية نظيرة قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ـ الى أن قال ـ أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ (يس / ٨١).

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً﴾ الجثيّ في أصله على فعول جمع جاثٍ وهو البارك على ركبتيه. ونسب الى ابن عباس أنه جمع جثوة وهو المجتمع من التراب والحجارة. والمراد أنهم يحضرون زمراً وجماعات متراكماً بعضهم على بعض، وهذا المعنى أنسب للسياق.

وضمير الجمع في «لنحشرنهم» و«لنحضرنهم» للكفار، والآية الى تمام ثلاث آيات متعرضة لحالهم يوم القيامة وهو ظاهر وربما قيل: إن الضميرين للناس أعمّ من المؤمن والكافر كما أن ضمير الخطاب في قوله الآتي: «وإن منكم إلا واردها» كذلك وفيه أن لحن الآيات الثلاث وهو لحن السخط والعذاب يأبى ذلك.

والمراد بقوله: «لنحشرنهم والشياطين» جمعهم خارج القبور مع أوليائهم من الشياطين لأنهم لعدم إيمانهم غاوون كما قال: «فسوف يلقون غيّاً» والشياطين أولياؤهم قال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتّبعك من الغاوين﴾ (الحجر / ٤٢)، وقال: ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ (الأعراف / ٢٧)، أو المراد حشرهم مع قرنائهم

من الشياطين كما قال: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ (الزخرف / ٣٩).

والمعنى: فاقسم بربك لنجمعنهم ـ يوم القيامة ـ وأولياءهم أو قرنائهم من الشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم لإذاقة العذاب وهم باركون على ركبهم من الذلة أو وهم جماعات وزمرة زمره.

وفي قوله: «فوربك» التفات من التكلم مع الغير الى لغيبة ولعل النكتة فيه ما تقدم في قوله: «بأمر ربك» ونظيره قوله الآتي: «كان على ربك حتماً».

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيّاً ﴾ النزع هو الاستخراج. والشيعة الجماعة المتعاونون على أمر أو التابعون لعقيدة والعتي على فعول مصدر بمعنى التمرّد في العصيان والظاهر أن قوله: «أيهم أشد على الرحمن عتياً» جملة استفهامية وضع موضع مفعول لنزعن للدلالة على العناية بالتعيين والتميز فهو نظير قوله: ﴿ أُولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ (الإسراء / ٥٧).

والمعنى: ثم لنستخرجن من كل جماعة متشكلة أشدهم تمرداً على الرحمان وهم الرؤساء وأئمة الضلال، وقيل المعنى لنستخرجن الأشد ثم الأشد حتى يحاط بهم.

وفي قوله: «على الرحمان» التفات والنكتة تلويح أن تمردهم عظيم كونه تمرداً على من شملت رحمته كل شيء وهم لم يلقوا منه إلا الرحمة والتمرد على من هذا شأنه عظيم.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيّاً ﴾ الصلي في الأصل على فعول مصدر يقال: صلي النار يصلاها صلياً وصليّاً إذا قاسى حرّها فالمعنى ثم أُقسم لنحن أعلم بمن أولى بالنار مقاساة لحرها أي إن الأمر في دركات عذابهم ومراتب استحقاقهم لا يشتبه علينا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ الخطاب للناس عامة مؤمنيهم وكافريهم بدليل قوله في الآية التالية: «ثم ننجي الذين اتقوا» والضمير في «واردها» للنار. وربما قيل: إن الخطاب للكفار المذكورين في الآيات الثلاث الماضيه وفي الكلام التفات من الغيبة الى الحضور وفيه أن سياق الآية التالية يأبى ذلك.

والورود خلاف الصدوروهو قصد الماء على ما يظهر من كتب اللغة قال الراغب في المفردات: الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره يقال: وردت الماء أرده، وروداً فأنا وارد والماء مورود، وقد أوردت الإبل الماء قال تعالى: «ولما ورد ماء مدين» والورد الماء المرشح للورود، والورد خلاف الصدر، والورد يوم الحمّى إذا وردت، واستعمل في النار على سبيل الفظاعة قال تعالى: «فأوردهم النار» «وبئس الورد المورود» «الى جهنم ورداً» «أنتم لها واردون» «ما وردوها» والوارد الذي يتقدم القوم فيسقي لهم قال تعالى: «فأرسلوا واردهم» أي ساقيهم من الماء المورود انتهى موضع الحاجة.

والى ذلك استند من قال من المفسرين أن الناس إنما يحضرون النار ويشرفون عليها من غير أن يدخلوها واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أُمة من الناس يسقون﴾ (القصص / ٢٣)، وقوله: ﴿فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه﴾ (يوسف / ١٩)، وقوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أُولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها﴾ (الأنبياء / ١٠٢).

وفيه أن استعماله في مثل قوله: «فلما ورد ماء مدين» وقوله: «فأرسلوا واردهم» في الحضور بعلاقة الإشراف لا ينافي استعماله في الدخول على نحو الحقيقة كما ادّعي في آيات أُخرى، وأما قوله: «أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها» فمن الجائز أن يكون الإبعاد بعد الدخول كما سيظهر من قوله: «ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها»، وأن يحجب الله بينهم وبين أن يسمعوا حسيسها إكراماً لهم كما حجب بين إبراهيم وبين حرارة النار، إذ قال

للنار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.

وقال آخرون ولعلهم أكثر المفسرين بدلالة الآية على دخولهم النار استناداً الى مثل قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾ (الأنبياء / ٩٩)، وقوله في فرعون: ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ (هود / ٩٨)، ويدل عليه قوله في الآية التالية: «ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً» أي نتركهم باركين على ركبهم وإنما يقال: نذر ونترك فيما إذا كان داخلاً مستقراً في المحل قبل الترك ثم أُبقي على ما هو عليه ولعدة من الروايات الواردة في تفسير الآية.

وهؤلاء بين من يقول بدخول عامة الناس فيها ومن يقول بدخول غير المتقين مدَّعياً أن قوله: «منكم» بمعنى منهم على حد قوله: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً، إن هذا كان لكم جزاء﴾ (الدهر / ٢٢)، هذا ولكن لا يلائمه سياق قوله: «ثم ننجّي الذين اتقوا» الآية.

وفيه أن كون الورود في مثل قوله: «لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها» بمعنى الدخول ممنوع بل الأنسب كونه بمعنى الحضور والإشراف فإنه أبلغ كما هو ظاهر وكذا في قوله: «فأوردهم النار» فإن شأن فرعون وهو من أئمة الضلال هو أن يهدي قومه الى النار وأما إدخالهم فيها فليس اليه.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّٰلِمِينَ فِيهَا﴾ فالآية دالّة على كونهم داخلين فيها بدليل قوله: «نذر» لكن دلالتها على كونهم دخلين غير كون قوله: «واردها» مستعملاً في معنى الدخول، وكذا تنجية المتقين لا تستلزم كونهم داخلين فيها فإن النتيجة كما تصدق مع إنقاذ من دخل المهلكة تصدق مع إبعاد من أشرف على الهلاك وحضر المهلكة من ذلك.

وأما الروايات فإنما وردت في شرح الواقعة لا في تشخيص ما استعمل فيه لفظ «وارِدها» في الآية فالاستدلال بها على كون الورود بمعنى الدخول ساقط.

فإن قلت: لم لا يجوز أن يكون المراد شأنية الدخول والمعنى: ما من أحد منكم إلا من شأنه أن يدخل النار وإنما ينجو من ينجو بإنجاء الله على حد قوله: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ (النور / ٢١).

قلت: معناه كون الورود مقتضى طبع الانسان من جهة أن ما يناله من خير وسعادة فمن الله ولا يبقى له من نفسه إلا الشر والشقاء لكن ينافيه ما في ذيل الآية من قوله: «كان على ربك حتماً مقضياً» فإنه صريح في أن هذا الورود بإيراد من الله وبقضائه المحتوم لا باقتضاء من طبع الأشياء.

والحق أن الورود لا يدل على أزيد من الحضور والإشراف عن قصد ـ على ما يستفاد من كتب اللغة ـ فقوله: «وإن منكم إلا واردها» إنما يدل على القصد والحضور والإشراف، ولا ينافي دلالة قوله في الآية التالية: «ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً» على دخولهم جميعاً أو دخول الظالمين خاصة فيها بعدما وردوها.

وقوله: «كان على ربك حتماً مقضياً» ضمير كان للورود او للجملة السابقة باعتبار أنه حكم، والحتم والجزم والقطع بمعنى واحد أي هذا الورود او الحكم كان واجباً عليه تعالى مقضياً في حقه وإنما قضى ذلك نفسه على نفسه إذ لا حاكم يحكم عليه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَنَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ قد تقدم الإشارة الى أن قوله: «ونذر الظالمين فيها» يدل على كون الظالمين داخلين فيها ثم يتركون على ما كانوا عليه، وأما تنجية الذين اتقوا فلا تدل بلفظها على كونهم داخلين إذ التنجيه ربما تحققت بدونه اللهم إلا أن يستظهر ذلك من ورود اللفظين مقترنين في سياق واحد.

وفي التعبير بلفظ الظالمين إشارة الى علية الوصف للحكم.

ومعنى الآيتين: ما من أحد منكم ـ متّق او ظالم ـ إلا وهو سيرد النار كان هذا الإيراد واجباً مقضياً على ربك ثم ننجي الذين اتقوا منها ونترك الظالمين فيها لظلمهم باركين على

ركبهم[١][٢].

٧٣ ● وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً.

٧٤ ● وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً.

٧٥ ● قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ مَدّاً حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً.

٧٦ ● وَيَزِيدُ اللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًىً وَٱلْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً.

٧٧ ● أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً.

٧٨ ● أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً.

٧٩ ● كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدّاً.

٨٠ ● وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الى آخر الآية؛ المقام اسم مكان من القيام

١. مريم ٦٦ ـ ٧٢: بحث روائي حول معنى ورود الناس في جهنم.

٢. مريم ٦٦ ـ ٧٢: كلام في معنى وجوب الفعل وجوازه وعدم جوازه على الله سبحانه.

فهو المسكن، والنديّ هو المجلس وقيل خصوص مجلس المشاورة، ومعنى «قال الذين كفروا للذين آمنوا» أنهم خاطبوهم فاللام للتبليغ كما قيل، وقيل: تفيد معنى التعليل أي قالوا لأجل الذين آمنوا أي لأجل إغوائهم وصرفهم عن الايمان، والأول أنسب للسياق كما أن الأنسب للسياق أن يكون ضمير عليهم راجعاً الى الناس أعمّ من الكفار والمؤمنين دون الكفار فقط حتى يكون قوله: «قال الذين كفروا» من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر.

وقوله: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ أي للاستفهام والفريقان هما الكفار والمؤمنون، وكان مرادهم أن الكفار هم خير مقاماً وأحسن ندياً من المؤمنين الذين كان الغالب عليهم العبيد والفقراء لكنهم أوردوه في صورة السؤال وكنّوا عن الفريقين لدعوى أن المؤمنين عالمون بذلك يجيبون بذلك لو سئلوا من غير تردد وارتياب.

والمعنى: وإذا تتلى على الناس ـ وهم الفريقان الكفار والمؤمنون ـ آياتنا وهي ظاهرات في حجتها واضحات في دلالتها لا تدع ريباً لمرتاب، قال فريق منهم وهم الذين كفروا للفريق الآخر وهم الذين آمنوا: أيّ هذين الفريقين خير من جهة المسكن وأحسن من حيث المجلس ـ ولا محالة هم الكفار ـ يريدون أن لازم ذلك أن يكونوا هم سعداء في طريقتهم وملّتهم إذ لا سعادة وراء التمتع بأمتعة الحياة الدنيا فالحق ما هم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً﴾ القرن: الناس المقترنون في زمن واحد، والأثاث: متاع البيت، قيل: لا يطلق إلا على الكثير ولا واحد له من لفظه، والرءي بالكسر فالسكون: ما رئي من المناظر، نقل في مجمع البيان عن بعضهم: أنه اسم لما ظهر وليس بالمصدر وإنما المصدر الرأي والرؤية يدلُّ على ذلك قوله: «يرونهم مثليهم رأي العين» فالرأي: الفعل، والرءي: المرئي كالطحن والطِّحن والسَّقي والسِّقي والرَّمي والرِّمي. انتهى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدّاً﴾ الى آخر

الآية: لفظة كان في قوله: «من كان في الضلالة» تدلُّ على استمرارهم في الضلالة لا مجرد تحقق ضلالة ما. وبذلك يتمُّ التهديد بمجازاتهم بالإمداد والاستدراج الذي هو إضلال بعد الضلال.

وقوله: «فليمدد» صيغة أمر غائب ويؤل معناه الى أن من الواجب على الرحمن أن يمدَّه مدّاً، فإن أمر المتكلم مخاطبه أن يأمره بشيء معناه إيجاب المتكلم ذلك على نفسه.

والمد والإمداد واحد لكن ذكر الراغب في المفردات أن أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمدّ في المكروه والمراد أن من استقرت عليه الضلالة واستمر هو عليها ـ والمراد به الكفار كناية ـ فقد أوجب الله على نفسه أن يمده بما منه ضلالته كالزخارف الدنيويّة في مورد الكلام فينصرف بذلك عن الحق حتى يأتيه أمر الله من عذاب أو ساعة بالمفاجأة والمباهتة فيظهر له الحق عند ذلك ولن ينتفع به.

فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ﴾ الخ: دليل على أن هذا المد خذلان في صورة إكرام والمراد به أن ينصرف عن الحق واتباعه بالاشتغال بزهرة الحياة الدنيا الغارّة فلا يظهر له الحق إلا في وقت لا ينتفع به وهو وقت نزول البأس أو قيام الساعة.

كما قال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ (المؤمن / ٨٥)، وقال: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ (الأنعام / ١٥٨).

وفي إرجاع ضمير الجمع في قوله: «رأوا ما يوعدون» الى «من» رعاية جانب معناه كما أن في إرجاع ضمير الافراد في قوله: «فليمدد له» اليه رعاية جانب لفظه.

وقوله: «فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً» قوبل به قولهم السابق: «أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً» أما مكانهم حين يرون العذاب ـ والظاهر أن المراد به

عذاب الدنيا ـ فحيث يحل بهم عذاب الله وقد كان مكان صناديد قريش المتلو عليهم الآيات حين نزول العذاب، قليب بدر التي أُلقيت فيها أجسادهم وأما مكانهم يوم يرون الساعة فالنار الخالدة التي هي دار البوار. وأما ضعف جندهم فلأنه لا عاصم لهم اليوم من الله ويعود كل ما هيأوه لأنفسهم من عدة وعدة سدى لا أثر له.

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ الى آخر الآية، الباقيات الصالحات الأعمال الصالحة التي تبقى محفوظة عند الله وتستعقب جميل الشكر وعظيم الأجر وقد وعد الله بذلك في مواضع من كلامه.

والثواب جزاء العمل قال في المفردات: أصل الثوب رجوع الشيء الى حالته الاولى التي كان عليها أو الى الحالة المقدرة المقصودة بالفكرة ـ الى أن قال ـ والثواب ما يرجع الى الانسان من جزاء أعماله فيسمّى الجزاء ثواباً تصوراً أنه هو ـ الى أن قال ـ والثواب يقال في الخير والشرّ لكن الأكثر المتعارف في الخير. انتهى والمردّ اسم مكان من الردّ والمراد به الجنة.

وفي قوله: «عند ربك» إشارة الى أن الحكم بخيريّة ما للمؤمنين من ثواب ومرد حكم إلهي لا يخطىء ولا يغلط البتة.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ كما أنّ سياق الآيات الاتربع السابقة يعطي أن الحجة الفاسدة المذكورة قول بعض المشركين ممن تلي عليه القرآن فقال ما قال دحضاً لكلمة الحق واستغواء واستخفافاً للمؤمنين كذلك سياق هذه الآيات الأربع وقد افتتحت بكلمة التعجيب واشتملت بقول يشبه القول السابق واختتمت بما يناسبه من الجواب يعطي أن بعض الناس ممن آمن بالنبي ﷺ أو كان في معرض ذلك بعدما سمع قول الكفار مال اليهم ولحق بهم قائلاً لاوتينّ مالاً وولداً يعني في الدنيا باتباع ملّة الشرك كأن في الإيمان بالله شؤماً وفي اتخاذ الآلهة ميمنة. فردَّه الله سبحانه بقوله:

«أطّلع الغيب» الخ.

قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمنِ عَهْداً﴾ ردّ سبحانه عليه قوله: «لاوتين مالاً وولداً بكفري» بأنه رجم بالغيب لا طريق له الى العلم فليس بمطّلع على الغيب حتى يعلم بأنه سيؤتى بكفره ما يأمله ولا بمتخذ عهداً عند الله حتى يطمئن اليه في ذلك، وقد جيء بالنفي في صورة الاستفهام الإنكاري.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذابِ مَدّاً﴾ كلا كلمة ردع وزجر وذيل الآية على أنه سبحانه يردُّ بها ما يتضمنه قول هذا القائل من ترتب إيتاء المال والولد على الكفر بآيات الله ومحصّله أن الذي يترتب على قوله هذا ليس هو إيتاء المال والولد فإن لذلك أسباباً أُخر بل هو مدُّ العذاب على كفره ورجمه فهو يطلب بما يقول في الحقيقة عذابا ممدوداً يتلو بعضه بعضاً لأنه هو تبعه قوله لا إيتاء المال والولد وسنكتب قوله ونرتب عليه أثره الذي هو مدُّ العذاب فالآية نظيرة قوله: ﴿فليدع ناديه سندع الزبانية﴾ (العلق / ١٨).

قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ المراد بوراثة ما يقول أنه سيموت ويفنى ويترك قوله: لاوتين بكفري مالاً وولداً، وقد كان خطيئة لازمة له لزوم المال للانسان محفوظة عند الله كأنه مال ورثه بعده ففي الكلام استعارة لطيفة.

وقوله: «ويأتينا فردا» أي وحده وليس معه شيء مما كان ينتصر به ويركن اليه بحسب وهمه فمحصّل الآية أنه سيأتينا وحده وليس معه إلا قوله الذي حفظناه عليه فنحاسبه على ما قال ونمدُّ له من العذاب مدا.

٨١ • وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً.

٨٢ • كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً.

٨٢ ❁ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً.

٨٤ ❁ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً.

٨٥ ❁ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْداً.

٨٦ ❁ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً.

٨٧ ❁ لاٰ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً.

٨٨ ❁ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً.

٨٩ ❁ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً.

٩٠ ❁ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً.

٩١ ❁ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً.

٩٢ ❁ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً.

٩٣ ❁ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً.

٩٤ ❁ لَقَدْ أَحْصَيٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً.

٩٥ ❁ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَرْداً.

٩٦ ❁ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدّاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾ هؤلاء الآلهة هم

الملائكة والجنّ والقدّيسون من الإنس وجبابرة الملوك فإن أكثرهم كانوا يرون الملك قداسة سماوية.

ومعنى كونهم لهم عزاً كونهم شفعاء لهم يقرّبونهم الى الله بالشفاعة فينالون بذلك العزة في الدنيا ينجرُّ اليهم الخير ولا يمسُّهم الشر. ومن فسّر كونهم لهم عزاً بشفاعتهم لهم في الآخرة خفي عليه أن المشركين لا يقولون بالبعث.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ الضد بحسب اللغة المنافي الذي لا يجتمع مع الشيء، وعن الأخفش أن الضد يطلق على الواحد والجمع كالرسول والعدو وأنكر ذلك بعضهم ووجّه إطلاق الضد في الآية وهو مفرد على الآلهة وهي جمع بأنها لما كانت متفقة في عداوة هؤلاء والكفر بعبادتهم كانت في حكم الواحد وصحَّ بذلك إطلاق المفرد عليها.

وظاهر السياق أن ضميري «سيكفرون» و«يكونون» للآلهة وضميري «بعبادتهم» و«عليهم» للمشركين التخذين للآلهة والمعنى: سيكفر الآلهة بعبادة هؤلاء المشركين ويكون الآلهة حال كونهم على المشركين لا لهم، ضداً لهم يعادونهم ولو كانوا لهم عزاً لثبتوا على ذلك دائماً وقد وقع ذلك في قوله تعالى: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركائهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا اليهم القول إنكم لكاذبون﴾ (النحل / ٨٦). وأوضح منه قوله: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ (فاطر / ١٤).

والمراد بكفر الآلهة يوم القيامة بعادتهم وكونهم عليهم ضداً هو ظهور حقيقة الأمر يومئذ فإن شأن يوم القيامة ظهور الحقائق فيه لأهل الجمع لا حدوثها ولو لم تكن الآلهة كافرين بعبادتهم في الدنيا ولا عليهم ضداً بل بدا لهم ذلك يوم القيامة لم تتم حجة الآية فافهم ذلك.

وعلى هذا المعنى يترتب قوله: «ألم ترَ» على قوله: «كلا سيكفرون بعبادتهم» الخ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ الأز والهز بمعنى واحد وهو التحريك بشدة وإزعاج والمراد تهييج الشياطين إياهم الى الشر والفساد وتحريضهم على اتباع الباطل وإضلالهم بالتزلزل عن الثبات والاستقامة على الحق.

ولا ضير في نسبة إرسال الشياطين اليه تعالى بعدما كان على طريق المجازاة فإنهم كفروا بالحق فجازاهم الله بزيادة الكفر والضلال ويشهد بذلك قوله: «على الكافرين» ولو كان إضلالا ابتدائياً لقيل «عليهم» من غير أن يوضع الظاهر موضع المضمر.

والآية وهي مصدرة بقوله: «ألم تر» المفيدمعنى الاستشهاد مسوقة لتأييد ما ذكر في الآية السابقة من كون آلهتهم عليهم ضداً. فإن تهييج الشياطين إياهم للشر والفساد واتباع الباطل معاداة وضدية والشياطين وهم من الجنّ من جملة آلهتهم ولو لم يكن هؤلاء الآلهة عليهم ضداً ما دعوهم الى ما فيه هلاكهم وشقاؤهم.

فالآية بمنزلة أن يقال: هؤلاء الآلهة الذين يحسبونهم لأنفسهم عزاً هم عليهم ضد وتصديق ذلك أن الشياطين وهم من آلهتهم يحركونهم بإزعاج نحو ما فيه شقاؤهم وليسوا مع ذلك مطلقي العنان بل إنما هو بإذن من الله يسمى إرسالا وعلى هذا فالآية متصلة بسابقتها وهو ظاهر.

وجعل صاحب روح المعاني هذه الآية مترتبة على مجموع الآيات من قوله: «ويقول الانسان ءإذا متُّ لسوف أُخرج حياً» الى قوله: «ويكونون عليهم ضداً» ومتصلة به وأطنب في بيان كيفية الاتصال بما لا يجدي نفعاً وأفسد بذلك سياق الآيات واتصال ما بعد هذه الآية بما قبلها.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ العد هو الاحصاء والعد يفني المعدود وينفده وبهذه العناية قصد به إنفاد أعمارهم والانتهاء الى آخر أنفاسهم كأن أنفاسهم المعدة لأعمارهم مذخورة بعددها عند الله فينفدها بإرسالها واحداً بعد آخر حتى تنتهي وهو

اليوم الموعود عليهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَىٰ ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْداً﴾ الوفد هم القوم الواردون لزيارة أو استنجاز حاجة أو نحو ذلك ولا يسمّون وفداً إلا إذا كانوا ركباناً وهو جمع واحده وافد.

وربما استفيد من مقابلة قوله في هذه الآية: «الى الرحمن» قوله في الآية التالية: «الى جهنم» أن المراد بحشرهم الى الرحمن حشرهم الى الجنة وإنما سمّي حشراً الى الرحمن لأن الجنة مقام قربه تعالى فالحشر اليها حشر اليه. ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ فسّر الورد بالعطاش وكأنه مأخوذ من ورود الماء أي قصده ليشرب ولا يكون ذلك إلا عن عطش فجعل بذلك الورد كناية عن العطاش. وفي تعليق السوق الى جهنم بوصف الإجرام إشعار بالعلية ونظيره تعليق الحشر الى الرحمان في الآية السابقة بوصف التقوى. ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾ وهذا جواب ثان عن اتخاذهم الآلهة للشفاعة وهو أن ليس كل من يهوى الانسان شفاعته فاتخذه إلهاً ليشفع له يكون شفيعاً بل إنما يملك الشفاعة بعهده من الله ولا عهد إلا لآحاد من مقرّبي حضرته، قال تعالى: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ (الزخرف / ٨٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَداً﴾ من قول الوثنيين وبعض خاصتهم، وإن قال ببنوّة الآلهة أو بعضهم لله سبحانه تشريفاً أو تجليلاً لكن عامتهم وبعض خاصتهم ـ في مقام التعليم ـ قال بذلك تحقيقاً بمعنى الاشتقاق من حقيقة اللاهوت واشتمال الولد على جوهرة والده، وهذا هو المراد بالآية والدليل عليه التعبير بالولد دون الابن، وكذا ما في قوله: «إن كل من في السماوات والأرض» الى تمام ثلاث آيات من الاحتجاج على نفيه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ الى تمام ثلاث آيات، الإد بكسر الهمزة: الشيء المنكر الفظيع، والتفطُّر الانشقاق، والخرور السقوط، والهدّ الهدم.

والآيات في مقام إعظام الذنب وإكبار تبعته بتمثيله بالمحسوس يقول: لقد أتيتم بقولكم هذا أمراً منكراً فظيعاً تكاد السماوات يتفطرن وينشققن منه وتنشقُّ الأرض وتسقط الجبال على السهل سقوط انهدام أن دعو للرحمان ولدا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾ الى تمام أربع آيات. المراد بإتيان كل منهم عبداً له توجّه الكل اليه ومثوله بين يديه في صفة المملوكية المحضة فكل منهم مملوك له لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً وذلك أمر بالفعل ملازم له مادام موجوداً، ولذا لم يقيّد الإتيان في الآية بالقيامة بخلاف ما في الآية الرابعة.

والمراد بإحصائهم وعدِّهم تثبيت العبودية لهم فإن العبيد إنما لهم أرزاقهم وتتبين وظائفهم والامور التي يستعملون فيها بعد الإحصاء وعدّهم وثبتهم في ديوان العبيد وبه تسجل عليهم العبودية.

والمراد بإتيانه له يوم القيامة فرداً إتيانه يومئذ صفر الكف لا يملك شيئاً مما كان يملكه بحسب ظاهر النظر في الدنيا وكان يقال: إن له حولاً وقوة ومالاً وولداً وأنصاراً ووسائل وأسباباً الى غير ذلك فيظهر يومئذ إذ تقطع بهم الأسباب أنه فرد ليس معه شيء يملكه وأنه كان عبداً بحقيقة معنى العبودية لم يملك قط ولن يملك أبداً فشأن يوم القيامة ظهور الحقائق فيه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدّاً﴾ الود والمودة المحبة وفي الآية وعد جميل منه تعالى أنه سيجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات مودة في القلوب ولم يقيده بما بينهم أنفسهم ولا بغيرهم ولا بدنيا ولا بآخرة أو جنة

فلا موجب لتقييد بعضهم ذلك بالجنة وآخرين بقلوب الناس في الدنيا الى غير ذلك.

وقد ورد في أسباب النزول من طرق الشيعة وأهل السنة أن الآية نزلت في علي ﷺ، وفي بعضها ما ورد من طرق أهل السنة أنها نزلت في مهاجري الحبشة وفي بعضها غير ذلك وسيجيء في البحث الروائي الآتي.

وعلى أي حال فعموم لفظ الآية في محله. والظاهر أن الآيه متصلة بقوله السابق: «سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً»[١].

٩٧ ۞ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً.

٩٨ ۞ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ التيسير وهو التسهيل ينبيء عن حال سابقة ما كان يسهل معها تلاوته ولا فهمه وقد أنبأ سبحانه عن مثل هذه الحالة لكتابه في قوله: ﴿والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ (الزخرف / ٤). فأخبر أنه لو أبقاه على ما كان عليه عنده ـ وهو الآن كذلك ـ من غير أن يجعله عربياً مقروّاً لم يرج أن يعقله الناس وكان كما كان علياً حكيماً أي آبياً متعصياً أن يرقى اليه أفهامهم وينفذ فيه عقولهم.

---

١. مريم ٨١ ـ ٩٦: بحث روائي في المشركين وآلهتهم: حشر المتقين الى الرحمن وفداً، معنى الود الذي جعل الله للمؤمنين.

ومن هنا يتأيد أن معنى تيسيره بلسانه تنزيله على اللسان العربي الذي كان هو لسانه ﷺ فتنبي، الآية أنه تعالى يسّره بلسانه ليتيسر له التبشير والإنذار.

وقوله: «وتنذر به قوماً لداً» المراد قومه ﷺ، واللُّدُّ جمع ألدّ من اللدد وهو الخصومة.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ الإحساس هو الإدراك بالحس، والركز هو الصوت، قيل: والأصل في معناه الحس. وحصّل المعنى أنهم وإن كانوا خصماء مجادلين لكنهم غير معجزي الله بخصامهم فكم أهلكنا قبلهم من قرن فبادوا فلا يحس منهم أحد ولا يسمع لهم صوت.

سورة طه مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ● طٰهٰ.

٢ ● مٰا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ ٱلْقُرآنَ لِتَشْقىٰ.

٣ ● إِلّاٰ تَذكِرَةً لِمَنْ يَخْشىٰ.

٤ ● تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ ٱلأَرضَ وَالسَّمٰوٰاتِ ٱلْعُلىٰ.

٥ ● الرَّحْمنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوىٰ.

٦ ● لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي ٱلأَرضِ وَمٰا بَيْنَهُمٰا وَمٰا تَحْتَ
الثَّرىٰ.

٧ ● وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفىٰ.

٨ ● أَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ ٱلأَسْمٰاءُ ٱلْحُسْنىٰ.

بيان:

غرض السورة التذكرة من طريق الإنذار تغلب فيها آيات الإنذار والتخويف على آيات التبشير غلبة واضحة. فقد اشتملت على قصص تختتم بهلاك الطاغين والمكذبين لآيات الله وتضمنت حججاً بيّنة تلزم العقول على توحيده تعالى والاجابة لدعوة الحق وتنتهي الى بيان ما سيستقبل الانسان من أهوال الساعة ومواقف القيامة وسوء حال المجرمين وخسران الظالمين.

وقد افتتحت الآيات ـ على ما يلوح من السياق ـ بما فيه نوع تسلية للنبي ﷺ أن لا يتعب نفسه الشريفة في حمل الناس على دعوته التي يتضمنها القرآن فلم ينزل ليتكلف به بل هو تنزيل إلهي يذكّر الناس بالله وآياته رجاء أن تستيقظ غريزة خشيتهم فيتذكروا فيؤمنوا به ويتّقوا فليس عليه إلا التبليغ فحسب فإن خشوا وتذكّروا وإلا غشيتهم غاشيه عذاب الاستئصال أو ردّوا الى ربهم فأدركهم وبال ظلمهم وفسقهم ووفيت لهم أعمالهم من غير أن يكونوا معجزين لله سبحانه بطغيانهم وتكذيبهم.

وسياق آيات السورة تعطي أن تكون مكية وفي بعض الآثار أن قوله: ﴿واصبر على ما يقولون﴾ (الآية ١٣٠ مدنية) وفي بعضها الآخر أن قوله: ﴿لا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ (الآية ١٣١ مدنية). ولا دليل على شيء من ذلك من ناحية اللفظ.

ومن غرر الآيات في السورة قوله تعالى: «الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى».

قوله تعالى: ﴿طهٰ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرآنَ لِتَشْقىٰ﴾ طه حرفان من الحروف المقطعة افتتحت بها السورة كسائر الحروف المقطعة التي افتتحت بها سورها نحو الٓمٓ الٓرٓ ونظائرهما وقد نقل عن جماعة من المفسرين في معنى الحرفين أُمور ينبغي أن يجلّ البحث التفسيري عن إيرادها والغور في أمثالها. وسنلوّح اليها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

والشقاوة خلاف السعادة قال الراغب: والشقاوة كالسعادة من حيث الاضافة فكما أن السعادة في الأصل ضربان: سعادة أخروية وسعادة دنيوية ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب: سعادة نفسية وبدنية وخارجية كذلك الشقاوة على هذه الأضرب ـ الى أن قال ـ قال بعضهم: قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت في كذا. وكل شقاوة تعب، وليس كل تعب شقاوة. فالتعب أعم من الشقاوة. انتهى. فالمعنى ما أنزلنا القرآن لتتعب نفسك في سبيل تبليغه بالتكلف في حمل الناس عليه.

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ ٱلأَرْضَ وَالسَّمٰوٰاتِ ٱلْعُلَىٰ﴾ التذكرة هي إيجاد الذكر فيمن نسي الشيء وإذ كان الإنسان ينال حقائق الدين الكلية بفطرته كوجوده تعالى وتوحّده في وجوب وجوده وأُلوهيته وربوبيته والنبوة والمعاد وغير ذلك كانت أُموراً مودعة في الفطرة غير أن إخلاد الإنسان الى الأرض وإقباله الى الدنيا واشتغاله بما يهواه من زخارفها اشتغالاً لا يدع في قلبه فراغاً أنساه ما أُودع في فطرته وكان إلقاء هذه الحقائق إلفاتاً لنفسه اليها وتذكرة له بها بعد نسيانها.

والاستثناء في قوله: «إلا تذكرة» استثناء منقطع ـ على ما قالوا ـ والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب به نفسك ولكن ليكون مذكراً يتذكر به مَن من شأنه أن يخشى فيخشى فيؤمن بالله ويتّقي.

فالسياق على رسله يستدعي كون «تذكرة» مصدراً بمعنى الفاعل ومفعولاً له لقوله: «ما أنزلنا» كما يستدعي كون قوله: «تنزيلاً» بمعنى اسم المفعول حالاً من ضمير «تذكرة» الراجع الى القرآن. والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب به نفسك ولكن لتذكّر الخاشعين بكلام إلهي منزّل من عنده.

وقوله: ﴿تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ ٱلأَرْضَ وَالسَّمٰوٰاتِ ٱلْعُلَىٰ﴾ العلى جمع عليا مؤنث أعلى كفضلى وفضل. واختيار خلق الأرض والسماوات صلة للموصول وبياناً لإبهام المنزّل

لمناسبته معنى التنزيل الذي لا يتم إلا بعلو وسفل يكونان مبدأ ومنتهى لهذا التسـيير. وقـد خصصا بالذكر دون ما بينهما إذ لا غرض يتعلق بما بينهما وإنما الغرض بـيان مـبدأ التـنزيل ومنتهاه بخلاف قوله: «له ما في السماوات والأرض وما بينهما» إذ الغرض بيان شمول المـلك للجميع.

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ﴾ استئناف يذكر فيه مسألة توحيد الربوبية التي هي ج الغرض من الدعوة والتذكرة وذلك في أربع آيات «الرحمن ـ الى قوله ـ له الأسماء الحسنى».

وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار﴾ (الأعراف / ٥٤). أن الاستواء على العرش كناية عن الاحتواء على الملك والأخذ بزمام تدبير الامور وهـو فـيه تعالى ـ على ما يناسب ساحة كبريائه وقدسه ـ ظهور سلطنته على الكون واستقرار مـلكه على الأشياء بتدبير امورها وإصلاح شؤنها.

فاستواؤه على العرش يستلزم إحاطة ملكه بكل شيء وانبساط تـدبيره عـلى الأشـياء سماويّها وأرضيّها جليلها ودقيقها خطيرها ويسـيرها. فـهو تـعالى رب كـل شيء المـتوحد بالربوبية إذ لا نعني بالرب إلا المالك للشيء المدبر لأمره. ولذلك عقّب حديث الاستواء على العرش بحديث ملكه لكل شيء وعلمه بكل شيء وذلك في معنى التعليل والاحتجاج عـلى الاستواء المذكور.

ومعلوم أن «الرحمن» وهو مبالغة من الرحمة التي هي الإفاضة بالإيجاد والتدبير وهو يفيد الكثرة أنسب بالنسبة الى الاستواء من سائر الأسماء والصـفات ولذلك اخـتص مـن بـينها بالذكر.

وقد أشبعنا الكلام في معنى العرش في ذيل الآية ٥٤ من سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب. وسيأتي بعض ما يختص بالمقام في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ الثرى على ما قيل: هو التراب الرطب أو مطلق التراب. فالمراد بما تحت الثرى ما في جوف الأرض دون التراب ويبقى حينئذ لما في الأرض ما على بسيطها من أجزائها وما يعيش فيها مما نعلمه ونحسُّ به كالانسان وأصناف الحيوان والنبات وما لا نعلمه ولا نحسُّ به.

وإذا عمَّ الملك ما في السماوات والأرض ومن ذلك أجزاؤهما عمَّ نفس السماوات والأرض فليس الشيء إلا نفس أجزائه.

وقد بيّن في هذه الآية أحد ركني الربوبية وهو الملك، فإن معنى الربوبية كما تقدم آنفاً هو الملك والتدبير.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ الجهر بالقول: رفع الصوت به، والإسرار خلافه. قال تعالى: ﴿وأسرُّوا قولكم أو اجهروا به﴾ (الملك / ١٣)، والسرّ هو الحديث المكتوم في النفس، وقوله: «وأخفى» أفعل التفضيل من الخفاء على ما يعطيه سياق الترقّي في الآية ولا يصغى الى قول من قال: إن «أخفى» فعل ماض فاعله ضمير راجع اليه تعالى، والمعنى: إنه يعلم السر وأخفى علمه. هذا. وفي تنكير «أخفى» تأكيد للخفاء.

وذكر الجهر بالقول في الآية أولاً ثم إثبات العلم بما هو أدق منه وهو السر والترقي الى أخفى يدلُّ على أن المراد إثبات العلم بالجميع، والمعنى: وإن تجهر بقولك وأعلنت ما تريده ـ وكأن المراد بالقول ما في الضمير من حيث إن ظهوره إنما هو بالقول غالباً ـ أو أسررته في نفسك وكتمته أو كان أخفى من ذلك بأن كان خفياً حتى عليك نفسك فإن الله يعلمه.

فالأصل ترديد القول بين المجهور به والسر وأخفى وإثبات العلم بالجميع ثم وضع إثبات العلم بالسر وأخفى موضع الترديد الثاني والجواب إيجازاً. فدلّ على الجواب في شقّي الترديد معاً وعلى معنى الأولوية بأوجز بيان كأنه قيل: وإن تسأل عن علمه بما تجهر به من قولك فهو

يعلمه وكيف لا يعلمه ؟ وهو يعلم السر وأخفى منه فهو في الكلام من لطيف الصنعة .

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بمنزلة النتيجة لما تقدم من الآيات ولذلك كان الأنسب أن يكون اسم الجلالة خبراً لمبتدء محذوف والتقدير هذا المذكور في الآيات السابقة هو الله لا إله إلا هو... الخ؛ وإن كان الأقرب بالنظر الى استقلال الآيه وجامعيتها في مضمونها أن يكون اسم الجلالة مبتدء وقوله: «لا إله إلا هو» خبره، وقوله: «له الأسماء الحسنى» خبراً بعد خبر.

وكيف كان فقوله: «الله لا إله إلا هو» يمكن أن يعلل بما ثبت في الآيات السابقة من توحده تعالى بالربوبية المطلقة ويمكن أن يعلل بقوله بعده: «له الأسماء الحسنى».

أما الأول فلأن معنى الإله في كلمة التهليل إما المعبود وإما المعبود بالحق فمعنى الكلام الله لا معبود حق غيره أو لا معبود بالحق موجود غيره والمعبودية من شؤن الربوبية ولواحقها فإن العبادة نوع تمثيل وترسيم للعبودية والمملوكية وإظهار للحاجة اليه فمن الواجب أن يكون المعبود مالكاً لعابده مدبراً أمره أي رباً له وإذ كان تعالى رب كل شيء لا رب سواه فهو المعبود لا معبود سواه.

وأما الثاني فلأن العبادة لأحد ثلاث خصال إما رجاء لما عند المعبود من الخير فيعبد طمعاً في الخير الذي عنده لينال بذلك، وإما خوفاً مما في الإعراض عنه وعدم الإعتناء بأمره من الشر وإما لأنه أهل للعبادة والخضوع.

والله سبحانه هو المالك لكل خير لا يملك شيءٌ شيئاً من الخير إلا ما ملّكه هو إياه وهو المالك مع ذلك لما ملّكه والقادر على أقدره وهو المنعم المفضل المحيي الشافي الرازق الغفور الرحيم الغني العزيز وله كل اسم فيه معنى الخير فهو سبحانه المستحق للعبادة رجاء لما عنده من الخير دون غيره.

والله سبحانه هو العزيز القاهر الذي لا يقوم لقهره شيء وهو المنتقم ذو البطش شديد

العقاب لا شرّ لأحد عند أحد إلا بإذنه فهو المستحق لأن يعبد خوفاً من غضبه لو لم يخضع لعظمته وكبريائه.

والله سبحانه هو الأهل للعبادة وحده لأن أهلية الشيء لأن يخضع له لنفسه ليس إلا لكمال فالكمال وحده هو الذي يخضع عنده النقص الملازم للخضوع وهو إما جمال تنجذب اليه النفس انجذاباً أو جلال يخرّ عنده اللبّ ويذهب دونه القلب وله سبحانه كل الجمال وما من جمال إلا وهو آية لجماله، وله سبحانه كل الجلال وكل ما دونه آيته. فالله سبحانه لا إله إلا هو ولا معبود سواه لأنه له الأسماء الحسنى.

ومعنى ذلك أن كل اسم هو أحسن الأسماء التي هي نظائره له تعالى. توضيح ذلك أن توصيف الإسم بالحسن يدل على أن المراد به ما يسمى في اصطلاح الصرف صفة كاسم الفاعل والصفة المشبهة دون الاسم بمعنى علم الذات لأن الاعلام إنما شأنها الإشارة الى الذوات والاتصاف بالحسن أو القبح من شأن الصفات باشتمالها على المعاني كالعادل والظالم والعالم والجاهل، فالمراد بالأسماء الحسنى الألفاظ الدالّة على المعاني الوصفية الجميلة البالغة في الجمال كالحي والعليم والقدير، وكثيراً ما يطلق التسمية على التوصيف. قال تعالى: «قل سمّوهن» أي صفوهن.

ويدلُّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ (الأعراف / ١٨٠). أي يميلون من الحق الى الباطل فيطلقون عليه من الأسماء ما لا يليق بساحة قدسه.

فالمراد بالأسماء الحسنى ما دلَّ على معان وصفية كالإله والحيّ والعليم والقدير دون اسم الجلالة الذي هو علم الذات، ثم الأسماء تنقسم الى قبيحة كالظالم والجائر والجاهل، والى حسنة كالعادل والعالم، والأسماء الحسنة تنقسم الى ما فيه كمال ما وإن كان غير خال عن شوب النقص والإمكان نحو صبيح المنظر ومعتدل القامة وجعد الشعر وما فيه الكمال من غير

شوب كالحيّ والعليم والقدير بتجريد معانيها عن شوب المادة والتركيب وهي أحسن الأسماء لبراءتها عن النقص والعيب وهي التي تليق أن تجري عليه تعالى ويتصف بها.

ولا يختص ذلك منها باسم دون اسم بل كل اسم أحسن فله تعالى لمكان الجمع المحلى باللام المفيد للاستغراق في قوله تعالى: «له الأسماء الحسنى» وتقديم الخبر يفيد الحصر فجميعها له وحده.

ومعنى كونها له تعالى أنه تعالى يملكها لذاته والذي يوجد منها في غيره فهو بتمليك منه تعالى على حسب ما يريد كما يدلُّ عليه سوق الآيات الآتية سوق الحصر كقوله: ﴿هو الحيُّ لا إله إلا هو﴾ (المؤمن / ٦٥)، وقوله: ﴿وهو العليم القدير﴾ (الروم / ٥٤)، وقوله: ﴿هو السميع البصير﴾ (المؤمن / ٥٦)، وقوله: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ (البقرة / ١٦٥)، وقوله: ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ (النساء / ١٣٩)، وقوله: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ (البقرة / ٢٥٥)، الى غير ذلك.

ولا محذور في تعميم ملكه بالنسبة الى جميع أسمائه وصفاته حتى ما كان منها عين ذاته كالحيّ والعليم والقدير وكالحياة والعلم والقدرة فإن الشيء ربما ينسب الى نفسه بالملك كما في قوله تعالى: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي﴾ (المائدة / ٢٥)[1].

٩ ❁ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ.

١٠ ❁ إِذْ رَءَا نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدىً.

---

١. طه ١ ـ ٨: بحث روائي حول: حروف المقطعة (طه)؛ معنى الآية «الرحمن على العرش استوى»: العرش والكرسي: تفسير القرآن.

١١ ❁ فَلَمَّا أَتيٰهٰا نُودِيَ يٰا مُوسىٰ.

١٢ ❁ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوٰادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوىً.

١٣ ❁ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمٰا يُوحىٰ.

١٤ ❁ إِنَّنِي أَنَا ٱللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلوٰةَ لِذِكْرِي.

١٥ ❁ إِنَّ السّٰاعَةَ آتِيَةٌ أَكٰادُ أُخْفِيهٰا لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا تَسْعىٰ.

١٦ ❁ فَلاٰ يَصُدَّنَّكَ عَنْهٰا مَنْ لاٰ يُؤْمِنُ بِهٰا وَٱتَّبَعَ هَوٰيهُ فَتَرْدىٰ.

١٧ ❁ وَمٰا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يٰا مُوسىٰ.

١٨ ❁ قٰالَ هِيَ عَصٰايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهٰا وَأَهُشُّ بِهٰا عَلىٰ غَنَمِي وَلِـيَ
فِيهٰا مَآرِبُ أُخْرىٰ.

١٩ ❁ قٰالَ أَلْقِهٰا يٰا مُوسىٰ.

٢٠ ❁ فَأَلْقيٰها فَإِذٰا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعىٰ.

٢١ ❁ قٰالَ خُذْهٰا وَلاٰ تَخَفْ سَنُعِيدُهٰا سِيرَتَهَا ٱلْأُولىٰ.

٢٢ ❁ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلىٰ جَنٰاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضٰاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً
أُخْرىٰ.

٢٣ ❁ لِنُرِيَكَ مِنْ آيٰاتِنَا ٱلْكُبْرىٰ.

٢٤ ❁ إِذهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ.

٢٥ ❁ قٰالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي.

٢٦ ❁ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي.

٢٧ ❁ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسٰانِي.

٢٨ ● يَفْقَهُوا قَوْلِي.

٢٩ ● وَٱجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي.

٣٠ ● هٰرُونَ أَخِي.

٣١ ● أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي.

٣٢ ● وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي.

٣٣ ● كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً.

٣٤ ● وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً.

٣٥ ● إِنَّكَ كُنتَ بِنٰا بَصِيراً.

٣٦ ● قٰالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰا مُوسىٰ.

٣٧ ● وَلَقَدْ مَنَنّٰا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرىٰ.

٣٨ ● إِذ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ أُمِّكَ مٰا يُوحىٰ.

٣٩ ● أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي التّٰابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ
بِالسّٰاحِلِ يَأْخُذهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي
وَلِتُصْنَعَ عَلىٰ عَيْنِي.

٤٠ ● إِذ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنٰاكَ
إِلىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا وَلاٰ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنٰاكَ مِنَ
ٱلْغَمِّ وَفَتَنّٰاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ
عَلىٰ قَدَرٍ يٰا مُوسىٰ.

٤١ ● وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي.

٤٢ ● إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي.

٤٣ ● إِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ.

٤٤ ● فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ.

٤٥ ● قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ.

٤٦ ● قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ.

٤٧ ● فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ.

٤٨ ● إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَيٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ الإستفهام للتقرير والحديث. القصة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ الى آخر الآية: المكث اللبث. والإيناس إبصار الشيء أو وجدانه وهو من الانس خلاف النفور ولذا قيل: إنه إبصار شيء يونس به فيكون أبصاراً قوياً. والقبس بفتحتين هوالشعلة المقتبسة على رأس عود ونحوه والهدى مصدر بمعنى اسم الفاعل أو مضاف اليه لمضاف مقدر أي ذا هداية. والمراد ـ على أي حال ـ من قام به الهداية.

وسياق الآية وما يتلوها يشهد أن كان في منصرفه من مدين الى مصر ومعه أهله وهم بالقرب من وادي طوى في طور سيناء في ليلة شاتية مظلمة وقد ضلوا الطريق إذ رأى ناراً فرأى أن يذهب اليها فإن وجد عندها أحداً سأله الطريق وإلا أخذ قبساً من النار ليضرموا به

ناراً فيصطلوا بها.

وفي قوله: «قال لأهله امكثوا» إشعار بل دلالة على أنه كان مع أهله غيره كما أن في قوله: «إني آنست ناراً» مع ما يشتمل عليه من التأكيد والتعبير بالايناس دلالة على أنه إنما رآها هو وحده وما كان يراها غيره من أهله ويؤيد ذلك قوله أيضاً أولاً: «إذ رأى ناراً». وكذا قوله: «لعلي آتيكم» الخ؛ يدل على أن في الكلام حذفاً والتقدير امكثوا لأذهب اليها لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هادياً تهتدي بهداه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَىٰهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ـ الى قوله ـ طُوىً﴾ طوى اسم لواد بطور وهو الذي سمّاه الله سبحانه بالوادي المقدس، وهذه التسمية والتوصيف هي الدليل على أن أمره بخلع النعلين إنما هو لاحترام الوادي أن لا يُداس بالنعل ثم تفريع خلع النعلين مع ذلك على قوله: «إني أنا ربك» يدلُّ على أن تقديس الوادي إنما هو لكونه حظيرة لقرب وموطن الحضور والمناجاة فيؤول معنى الآية الى مثل قولنا نودي يا موسى ها أنا ذا ربك وأنت بمحضر مني وقد تقدّس الوادي بذلك فالتزم شرط الأدب واخلع نعليك.

وعلى هذا النحو يتقدّس ما يتقدّس من الأمكنة والأزمنة كالكعبة المشرّفة والمسجد الحرام وسائر المساجد والمشاهد المحترمة في الإسلام والأعياد والأيام المتبركة فإنما ذلك قدس وشرف اكتسبته بالانتساب الى واقعة شريفة وقعت فيها أو نسك وعبادة مقدّسة شرّعت فيها وإلا فلا تفاضل بين أجزاء المكان ولا بين أجزاء الزمان.

ولما سمع موسى عليه السلام قوله تعالى: «يا موسى إني أنا ربك» فهم من ذلك فهم يقين أن الذي يكلمه هو ربه والكلام كلامه وذلك أنه كان وحياً منه تعالى وقد صرّح تعالى بقوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ (الشورى / ٥١). أن لا واسطة بينه تعالى وبين من يكلمه من حجاب أو رسول إذا كان تكليم وحي وإذ لم يكن هناك أي واسطه مفروضة لم يجد الموحى اليه مكلماً لنفسه ولا

توهّمه إلا الله ولم يجد الكلام إلا كلامه ولو حتمل أن يكون المتكلم غيره أو الكلام كلام غيره لم يكن تكليماً ليس بين الإنسان وبين ربه غيره.

وهذا حال النبي والرسول في أول ما يوحى اليه بالنبوة والرسالة لم يختلجه شك ولا اعترضه ريب في أن الذي يوحى اليه هو الله سبحانه من غير أن يحتاج الى إعمال نظر أو التماس دليل أو إقامة حجة ولو افتقر الى شيء من ذلك كان اكتساباً بواسطة القوة النظرية لا تلقّياً من الغيب من غير توسّط واسطة.

فإن قلت: قوله تعالى في القصة في موضع آخر من كلامه: «وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجيّاً».

وقوله في موضع آخر: «من جانب الطور الأيمن من الشجرة» يثبت الحجاب في تكليمه عليه السلام.

قلت: نعم لكن ثبوت الحجاب أو الرسول في مقام التكليم لا ينافي تحقق التكليم بالوحي فإن الوحي كسائر أفعاله تعالى لا يخلو من واسطة وإنما يدور الأمر مدار التفات المخاطب الذي يتلقى الكلام فإن التفت الى الواسطة التي تحمل الكلام واحتجب بها عنه تعالى كان الكلام رسالة أُرسل اليه بملك مثلاً ووحياً من الملك، وإن التفت اليه تعالى كان وحياً منه وإن كان هناك واسطة لا يلتفت اليها، ومن الشاهد على ما ذكرنا قوله في الآية التالية خطاباً لموسى: «فاستمع لما يوحى» فسمّاه وحياً، وقد أثبت في سائر كلامه فيه الحجاب.

وبالجملة قوله: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ الخ؛ تنبيه لموسى على أن الموقف موقف الحضور ومقام المشافهة وقد خلى به وخصّه من نفسه بمزيد العناية، ولذا قيل: إني أنا ربك، ولم يقل: أنا الله أو أنا رب العالمين، ولذا أيضاً لم يلزم من قوله ثانياً: «إني أنا الله» تكرار، لأن الأول تخلية للمقام من الأغيار لإلقاء الوحي، والثاني من الوحي.

وفي قوله: ﴿نُودِيَ﴾ حيث طوي ذكر الفاعل ولم يقل: ناديناه أو ناداه الله من اللطف ما

لا يقدَّر بقدر. وفيه تلويح أن ظهور هذه الآية لموسى كان على سبيل المفاجأة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ الاختيار مأخوذ من الخير، وحقيقته أن يتردد أمر الفعل مثلاً بين أفعال يجب أن يرجّح واحداً منها ليفعله فيميز ما هو خيرها ثم يبني على كونه خيراً من غيره فيفعله، فبناؤه على كونه خيراً من غيره هو اختيار فالاختيار دائماً لغاية هو غرض الفاعل من فعله.

فاختياره تعالى لموسى إنما هو لغاية إلهية وهي إعطاء النبوّة والرسالة ويشهد بذلك قوله على سبيل التفريع على الإختيار: «فاستمع لما يوحى» فقد تعلقت المشية الإلهية ببعث إنسان يتحمل النبوّة والرسالة وكان موسى في علمه تعالى خيراً من غيره وأصلح لهذا الغرض فاختاره عليه السلام.

وقوله: «وأنا اخترتك» على ما يعطيه السياق من قبيل إصدار الأمر بنبوّته ورسالته فهو إنشاء لا إخبار، ولو كان إخباراً لقيل: وقد أخترتك لكنه إنشاء الإختيار للنبوة والرسالة بنفس هذه الكلمة ثم لما تحقق الإختيار بإنشائه فرع عليه الأمر بالإستماع للوحي المتضمن لنبوته ورسالته فقال: «فاستمع لما يوحى» والإستماع لما يوحى الإصغاء اليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ هذا هو الوحي الذي أمر عليه السلام بالإستماع له في إحدى عشرة آية تشتمل على النبوّة والرسالة معاً أما النبوة ففي هذه الآية والآيتين بعده، وأما الرسالة فتأخذ من قوله: «وما تلك بيمينك يا موسى» وتنتهي في قوله: «إذهب الى فرعون إنه طغى» وقد نصَّ تعالى أنه كان رسولاً نبيّاً معاً في قوله: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيّاً﴾ (مريم / ٥١).

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ كلمة التوحيد مرتبة على قوله: «إنني أنا الله» لفظاً لترتبها عليه حقيقة فإنه إذا كان هو الذي منه يبدأ كل شيء وبه يقوم واليه يرجع فلا ينبغي أن يخضع خضوع العبادة إلا له فهو الاله المعبود بالحق لا إله غيره ولذا فرّع على ذلك الأمر

بعبادته حيث قال: «فاعبدني».

وقوله: «وأقم الصلاة لذكري» خص الصلاة بالذكر ـ وهو من باب ذكر الخاص بعد العام اعتناء بشأنه ـ لأن الصلاة أفضل عمل يمثل به الخضوع العبودي ويتحقق بها ذكر الله سبحانه تحقق الروح بقالبه.

وعلى هذا المعنى فقوله: «لذكري» من إضافة المصدر الى مفعوله واللام للتعليل وهو متعلق بأقم محصلة أنه: حقق ذكرك لي بالصلاة، كما يقال: كل لتشبع واشرب لتروى وهذا هو المعنى السابق الى الذهن من مثل هذا السياق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ تعليل لقوله في الآية السابقة: «فاعبدني» ولا يناقض ذلك كون «فاعبدني» متفرّعاً على كلمة التوحيد المذكورة قبله لأن وجوب عبادته تعالى وإن كان بحسب نفسه متفرّعاً على توحّده لكنه لا يؤثر أثراً لولا ثبوت يوم يجزى فيه الإنسان بما عمله ويتميز فيه المحسن من المسيء والمطيع من العاصي فيكون التشريع لغواً والأمر والنهي سدىً لا أثر لهما. ولذلك كانت متضية قضاء حتماً وتكرّر في كلامه تعالى نفي الريب عنها.

وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ظاهر إطلاق الإخفاء أن المراد يقرب أن أُخفيها وأكتمها فلا أُخبر عنها أصلاً حتى يكون وقوعها أبلغ في المباغتة وأشد في المفاجأة ولا تأتي إلا فجأة كما قال تعالى: ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ (الأعراف / ١٨٧)، أو يقرب أن لا أُخبر بها حتى يتميز المخلصون من غيرهم فإن أكثر الناس إنما يعبدونه تعالى رجاء في ثوابه أو خوفاً من عقابه جزاء للطاعة والمعصية، وأصدق العمل ما كان لوجه الله لا طمعاً في جنة أو خوفاً من نار ولو أُخفي وكتم يوم الجزاء تميّز عند ذلك من يأتي بحقيقة العبادة من غيره.

وقوله: «لتجزى كل نفس بما تسعى» متعلق بقوله: «آتية» والمعنى واضح.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ الصد

الصرف. والردى الهلاك. والضميران في «عنها» و«بها» للساعة. ومعنى الصدّ عن الساعة الصرف عن ذكرها بما لها من الشأن وهو أنها يوم تجزى فيه كل نفس بما تسعى. وكذا معنى عدم الايمان بها هو الكفر بها بما لها من الشأن.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ كعطف التفسير بالنسبة الى قوله: «من لا يؤمن بها» أي إن عدم الايمان بها مصداق اتباع الهوى وإذ كان مع ذلك صالحاً للتعليل أفاد الكلام عليّة الهوى لعدم الايمان بها. واستفيد من ذلك بالالتزام أن الايمان بالساعة هو الحق المخالف للهوى والمنجي من الردى.

فحصّل معنى الآية أنه إذا كانت الساعة آتية والجزاء واقعاً فلا يصرفنّك عن الايمان بها وذكرها بما لها من الشأن الذين اتبعوا أهواءهم فصاروا يكفرون بها ويعرضون عن عبادة ربهم فلا يصرفنّك عنها حتى تنصرف فتهلك.

ولعل الاتيان في قوله: «واتبع هواه» بصيغة الماضي مع كون المعطوف عليه بصيغة المضارع للتلويح الى عليّة اتباع الهوى لعدم الايمان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ شروع في وحي الرسالة وقد تمّ وحي النبوة في الآيات الثلاث الماضية والاستفهام للتقرير. سُئل ﷺ عما في يده اليمنى وكانت عصاه، ليسمّيها ويذكر أوصافها فيتبين أنها جماد لا حياة له حتى يأخذ تبديلها حيّة تسعى مكانه في نفسه ﷺ.

والظاهر أن المشار اليه بقوله: «تلك» العودة أو الخشبة. ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: وما ذلك بجعل المشار اليه هو الشيء لمكان التجاهل بكونها عصا وإلا لم يستقم الاستفهام كما في قوله: ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾ (الأنعام / ٧٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ العصا معروفة وهي من المؤنثات السماعية. والتوكي والاتكاء على

العصا الاعتماد عليها. والهش هو خبط ورق الشجرة وضربه بالعصا لتساقط على الغنم فيأكله. والمآرب جمع مأربة مثلثة الراء وهي الحاجة. والمراد بكون مآربه فيها تعلق حوائجه بها من حيث إنها وسيلة رفعها. ومعنى الآية ظاهر.

وإطنابه ﷺ بالاطالة في ذكر أوصاف العصا وخواصها قبل: لأن المقام وهو مقام المناجاة والمسارّة مع المحبوب يقتضي ذلك لأن مكالمة المحبوب لذيذة ولذا ذكر أولاً أنه عصاه ليرتب عليه منافعها العامة وهذه هي النكتة في ذكر أنها عصاه.

وقد قدمنا في ذيل الآية السابقة وجهاً آخر لهذا الاستفهام وجوابه وليس الكلام عليه من باب الاطناب وخاصة بالنظر الى جمعه سائر منافعها في قوله: «ولي فيها مآرب أُخرى».

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ـ الى قوله ـ سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ السيرة الحالة والطريقة وهي في الأصل بناء نوع من السير كجلسة لنوع من الجلوس.

أمر سبحانه موسى أن يلقي عصاه عن يمينه وهو قوله: «قال ألقها يا موسى» فلما ألقى العصا صارت حية تتحرك بجد وجلادة وذلك أمر غير مترقب من جماد لا حياة له وهو قوله: «فألقاها فإذا هي حية تسعى» وقد عبر تعالى عن سعيها في موضع آخر من كلامه بقوله: ﴿رآها تهتز كأنها جان﴾ (القصص / ٣١). وعبر عن الحية أيضاً في موضع آخر بقوله: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ (الأعراف / ١٠٧)، (الشعراء / ٣٢) والثعبان: الحية العظيمة.

وقوله: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ أي حالتها «الاولى» وهي أنها عصا فيه دلالة على خوفه ﷺ مما شاهده من حية ساعية وقد قصه تعالى في موضع آخر إذ قال: ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف﴾ (القصص / ٣١). والخوف وهو الأخذ بمقدمات التحرز عن الشر غير الخشية التي هي تأثر القلب واضطرابه فإن الخشية رذيلة تنافي فضيلة الشجاعة بخلاف الخوف الأنبياء ﷺ

يجوز عليهم الخوف دون الخشية كما قال الله تعالى: ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ (الأحزاب / ٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ الضم الجمع. والجناح جناح الطائر واليد والعضد والابط ولعل المراد به المعنى الأخير ليؤول الى قوله في موضع آخر: «ادخل يدك في جيبك» والسوء كل رداءة وقبح قيل: كني به في الآية عن البرص والمعنى أجمع يدك تحت ابطك أي أدخلها في جيبك تخرج بيضاء من غير برص أو حالة سيئة أُخرى.

وقوله: ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾ حال من ضمير تخرج وفيه اشارة الى أن صيرورة العصا حية آية أُولى واليد البيضاء آية أُخرى وقال تعالى في ذلك: ﴿فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه﴾ (القصص / ٣٢).

قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ﴾ اللام للتعليل والجملة متعلقة بمقدر كأنه قيل: أجرينا ما أجرينا على يدك لنريك بعض آياتنا الكبرى.

قوله تعالى: ﴿إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ هذا هو أمر الرسالة وكانت الآيات السابقة «وما تلك بيمينك» الخ؛ مقدمة له.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي - الى قوله - إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ الآيات - وهي إحدى عشرة آية - متن ما سأله موسى عليه السلام ربه حين سجل عليه حكم الرسالة وهي بظاهرها مربوطة بأمر رسالته لأنه أحوج ما يكون اليها في تبليغ الرسالة الى فرعون وملائه وإنجاء بني إسرائيل وإدارة أُمورهم لا في أمر النبوة.

وقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ سؤال له آخر يرجع الى عقدة في لسانه والتنكير في «عقدة» للدلالة على النوعية فله وصف مقدّر وهو الذي يلوح من قوله: «يفقهوا قولي» أي عقدة تمنع من فقه قولي.

وقوله: ﴿ وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي ﴾ سؤال له آخر وهو رابع الأسئلة وآخرها. والوزير فعيل من الوزر بالكسر فالسكون بمعنى الحمل الثقيل سمي الوزير وزيراً لأنه يحمل ثقل حمل الملك، وقيل: من الوزر بفتحتين بمعنى الجبل الذي يلتجأ اليه سمّي به لأن الملك يلتجيء اليه في آرائه وأحكامه.

وبالجملة هو يسأل ربه أن يجعل له وزيراً من أهله ويتبيّنه أنه هارون أخي وإنما يسأل ذلك لأن الأمر كثير الجوانب متباعدة الأطراف لا يسع موسى أن يقوم به وحده بل يحتاج الى وزير يشاركه في ذلك فيقوم ببعض الأمر فيخفف عنه فيما يقوم به هذا الوزير ويكون مؤيداً لموسى فيما يقوم به موسى وهذا معنى قوله ـ وهو بمنزلة التفسير لجعله وزيراً ـ: «أُشدد به أزري وأشركه في أمري».

فمعنى قوله: «وأشركه في أمري» سؤال الإشراك في أمر كان يخصه وهو تبليغ ما بلغه من ربه بادي مرة فهو الذي يخصه ولا يشاركه فيه أحد سواه ولا له أن يستنيب فيه غيره وأما تبليغ الدين أو شيء من أجزائه بعد بلوغ بتوسط النبي فليس مما يختص بالنبي بل هو وظيفة كل من آمن به ممن يعلم شيئاً من الدين وعلى العالِم أن يبلغ الجاهل وعلى الشاهد أن يبلغ الغائب ولا معنى لسؤال إشراك أخيه معه في أمر لا يخصه بل يعمّه وأخاه وكل من آمن به من الإرشاد والتعليم والبيان والتبليغ فتبين أن معنى إشراكه في أمره أن يقوم بتبليغ بعض ما يوحى اليه من ربه عنه وسائر ما يختص به من عند الله كافتراض الطاعة وحجية الكلمة.

وأما الإشراك في النبوة خاصة بمعنى تلقّي الوحي من الله سبحانه فلم يكن موسى يخاف على نفسه التفرُّد في ذلك حتى يسأل الشريك وإنما كان يخاف التفرُّد في التبليغ وإدارة الامور في إنجاء بني إسرائيل وما يلحق بذلك. وقد نقل ذلك عن موسى نفسه في قوله: ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني ﴾ (القصص / ٣٤).

على أنه صحَّ من طرق الفريقين أن النبي ﷺ دعا بهذا الدعاء بألفاظه في حق علي عليه السلام

ولم يكن نبياً.

وقوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾ ظاهر السياق وقد ذكر في الغاية تسبيحهما معاً وذكرهما معاً أن الجملة غاية لجعل هارون وزيراً له إذ لا تعلّق لتسبيحهما معاً وذكرهما معاً بمضامين الأدعية السابقة وهي شرح صدره وتيسير أمره وحلّ عقدة من لسانه ويترتب على ذلك أن المراد بالتسبيح والذكر تنزيههما معاً لله سبحانه وذكرهما له بين الناس علناً لا في حال خلوتهما أو في قلبيهما سراً إذ لا تعلّق لذلك أيضاً بجعله وزيراً بل المراد أن يسبّحاه ويذكراه معاً بين الناس في مجامعهم ونواديهم وأي مجلس منهم حلاً فيه وحضرا فتكثر الدعوة الى الايمان بالله ورفض الشركاء.

وبذلك يرجع ذيل السياق الى صدره كأنه يقول: إن الأمر خطير وقد غرّ هذا الطاغية وملأه وأمته عزهم وسلطانهم ونشب الشرك والوثنية بأعراقه في قلوبهم وأنساهم ذكر الله من أصله وقد امتلئت أعين بني إسرائيل بما يشاهدونه من عزّة فرعون وشوكة ملإه واندهشت قلوبهم من سطوة آل فرعون وارتاعت نفوسهم من سلطتهم فنسوه الله ولا يذكرون إلا الطاغية. فهذا الأمر أمر الرسالة والدعوة في نجاحه ومضيّه في حاجة شديدة الى تنزيهك بنفي الشريك كثيراً والى ذكرك بالربوبية والالوهية بينهم كثيراً ليتبصّروا فيؤمنوا وهذا أمر لا أقوى عليه وحدي فاجعل هارون وزيراً لي وأيّدني به وأشركه في أمري كي نسبّحك كثيراً ونذكرك كثيراً لعل السعي ينجع والدعوة تنفع.

وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ هو بظاهره تعليل كالحجة على قوله: «كي نسبحك كثيراً» الخ؛ أي إنك كنت بصيراً بي وبأخي منذ خلقتنا وعرّفتنا نفك وتعلم أنّا لم نزل نعبدك بالتسبيح والذكر ساعيين مجدّين في ذلك فإن جعلته وزيراً لي وأيّدتني به وأشركته في أمري تمّ أمر الدعوة وسبّحناك كثيراً وذكرناك كثيراً، والمراد بقوله: «بنا» على هذا هو وأخوه. ويمكن أن يكون المراد بالضمير في «بنا» أهله، والمعنى: إنك كنت بصيراً بنا أهل البيت أنّا أهل

تسبيح وذكر فإن جعلت هارون أخي، وهو من أهلي، وزيراً لي سبّحناك كثيراً وذكرناك كثيراً. وهذا الوجه أحسن من سابقه لأنه يفي ببيان النكتة في ذكر الأهل في قوله السابق: «واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي» أيضاً فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ إجابة لأدعيته جميعاً وهو إنشاء نظير ما مرّ من قوله: «وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ ـ الى قوله ـ ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ يذكّره تعالى بمنّ آخر له عليه قبل أن يختاره للنبوة والرسالة ويؤتي سؤله وهو منه عليه حينما تولد فقد كان بعض الكهنة أخبر فرعون أن سيولد في بني إسرائيل مولود يكون بيده زوال ملكه فأمر فرعون بقتل كل مولود يولد فيهم فكانوا يقتلون المواليد الذكور حتى إذا ولد موسى أوحى الله الى أمه أن لا تخاف وترضعه فإذا خافت عليه من عمال فرعون وجلاوزته تقذفه في تابوت فتقذفه في النيل فيلقيه اليم الى الساحل حيال قصر فرعون فيأخذه فيتخذه ابناً له وكان لا عقب له ولا يقتله ثم إن الله سيرده اليها.

ففعلت كما أُوحي اليها فلما جرى التابوت بجريان النيل أرسل بنتاً لها وهي أُخت موسى أن تجس أخباره فكانت تطوف حول قصر فرعون حتى وجدت نفراً يطلبون بأمر فرعون مرضعاً ترضع موسى فدلتهم أُخت موسى على أُمها فاسترضعوها له فأخذت ولدها وقرّت به عينها وصدق الله وعده وقد عظم منّه على موسى.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ امتنان بما صنعه به أول عمره وقد تغير السياق من التكلم وحده الى التكلم بالغير لأن المقام مقام إظهار العظمة وهو ينبيء عن ظهور قدرته التامة بتخييب سعي فرعون الطاغية وإبطال كيده لإخماد نور الله وردّ مكره اليه وتربية عدوه في حجره. أما موقف نداء موسى وتكليمه إذ قال: «يا موسى إني أنا ربك» الخ؛ فسياق التكلم وحده أنسب له.

وقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ المراد به الالهام وهو نوع من القذف في القلب في يقظة أو نوم، والوحي في كلامه تعالى لا ينحصر في وحي النبوّة كما قال تعالى: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ (النحل / ٦٨). وأما وحي النبوة فالنساء لا يتنبأن ولا يوحى اليهن بذلك قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى﴾ (يوسف / ١٠٩) وقوله: «أن اقذفيه في التابوت» الى آخر الآية: هو مضمون ما أُوحي الى ام موسى و«أن» للتفسير. وقيل: مصدرية متعلق باوحي والتقدير أُوحي بأن اقذفيه. وقيل: مصدرية والجملة بدل من «ما يوحى».

والتابوت الصندوق وما يشبهه والقذف الوضع والالقاء وكأن القذف الأول في الآية بالمعني الأول والقذف الثاني بالمعنى الثاني ويمكن أن يكونا معاً بامعنى الثاني بعناية أن وضع الطفل في التابوت وإلقاءه في اليم إلقاء وطرح له من غير أن يعبأ بحاله. واليم البحر: وقيل: البحر العذب. والساحل شاطىء البحر وجانبه من البر. والصنع والصنيعة الإحسان.

وقوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾ أمر عبّر به إشارة الى تحقق وقوعه ومفاده أنَّا أمرنا اليم بذلك أمراً تكوينياً فهو وقع حتماً مقضياً. وكذا قوله: «يأخذه عدو لي» الخ: وهو جزاء مترتب على هذا الأمر.

ومعنى الآيتين إذ أوحينا وألهمنا امك بما يوحى ويلهم وهو أن ضعيه ـ أو ألقيه ـ في التابوت وهو الصندوق فألقيه في اليم والبحر وهو النيل فمن المقضي من عندنا أن يلقيه البحر بالساحل والشاطىء يأخذه عدو لي وعدو له وهو فرعون لأنه كان يعادي الله بدعوى الالوهية ويعادي موسى بقتله الأطفال وكان طفلاً هذا ما أوحيناه الى امك.

وقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ ظاهر السياق أن هذا الفصل الى قوله: «ولا تحزن» فصل ثان تال للفصل السابق متمم له والمجموع بيان للمن المشار اليه بقوله: «ولقد مننا عليك مرة اخرى».

فالفصل الأول يقص الوحي الى امه بقذفه في التابوت ثم في البحر لينتهي الى فرعون فيأخذه عدو الله وعدوه والفصل الثاني يقص إلقاء المحبة عليه لينصرف فرعون عن قتله ويحسن اليه حتى ينتهي الأمر الى رجوعه الى امه واستقراره في حجرها لتقرّ عينها ولا تحزن وقد وعدها الله ذلك كما قال في سورة القصص: ﴿فرددناه إلى أُمه كي تقرَّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق﴾ (القصص / ١٣). ولازم هذا المعنى كون الجملة أعني «وألقيت عليك» الخ: معطوفاً على قوله: «أوحينا الى أُمك».

ومعنى إلقاء محبة منه عليه كونه بحيث يحبه كل من يراه كأن المحبة الالهية استقرت عليه فلا يقع عليه نظر ناظر إلا تعلقت المحبة بقلبه وجذبته الى موسى. ففي الكلام استعارة تخييلية وفي تكير المحبة إشارة الى فخامتها وغرابة أمرها.

واللام في قوله: «ولتصنع على عيني» للغرض، والجملة معطوفة على مقدرٍ والتقدير ألقيت عليك محبة مني لامور كذا وكذا وليحسن اليك على عيني أي بمرأى مني فإني معك أُراقب حالك ولا أغفل عنك لمزيد عنايتي بك وشفقتي عليك. وربما قيل: إن المراد بقوله: «ولتصنع على عيني» الاحسان اليه بارجاعه الى أُمه وجعل تربيته في حجرها.

وكيف كان فهذا اللسان وهو لسان كمال العناية والشفقة يناسب سياق التكلم وحده ولذا عدل اليه من لسان التكلم بالغير.

وقوله: ﴿إِذ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ﴾ الظرف ـ على ما يعطيه السياق ـ متعلق بقوله: «لتصنع» والمعنى: وألقيت عليك محبة مني يحبك كل من يراك لكذا وكذا وليحسن اليك بمرأى مني وتحت مراقبتي في وقت تمشي اختك لتجوس خبرك وترى ما يصنع بك فتجد عمال فرعون يطلبون مرضعاً ترضعك فتقول لهم ـ والاستقبال في الفعل لحكاية الحال الماضية ـ عارضة عليهم: هل أدلُّكم على من يكفله بالحضانة والارضاع فرددناك الى امك كي تسرّ ولا

تحزن.

وقوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ بصيغة المتكلم مع الغير رجوع الى السياق السابق وهو التكلم بالغير وليس بالتفات.

قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ الى آخر الآية، إشارة الى منّ أو منن اخرى ملحقة بالمنّين السابقين وهو قصة قتله عليه السلام القبطي وائتمار الملأ أن يقتلوه وفراره من مصر وتزوّجه هناك ببنت شعيب النبي وبقائه عنده بين أهل مدين عشر سنين أجيراً يرعى غنم شعيب، والقصة مفصّلة مذكورة في سورة القصص.

فقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً﴾ هو قتله القبطي بمصر، وقوله: «فنجّيناك من الغم» وهو ما كان يخافه أن يقتله الملأ من آل فرعون فأخرجه الله الى أرض مدين فلما أحضره شعيب وورد عليه وقصّ عليه القصص قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

وقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ أي ابتليناك واختبرناك ابتلاء واختباراً، قال الراغب في المفردات: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته. واستعمل في إدخال الإنسان النار، قال: «يوم هم على النار يفتنون» «ذوقوا فتنتكم» أي عذابكم، قال: وتارة يسمّون ما يحصل عنه العذاب فتنة فيستعمل فيه نحو قوله: «ألا في الفتنة سقطوا» وتارة في الاختبار. نحو «وفتنّاك فتوناً» وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما تستعملان فيما يدفع اليه الإنسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً وقد قال فيهما: «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وقوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ متفرّع على الفتنة. وقوله: «ثم جئت على قدر يا موسى» لا يبعد أن يستفاد من السياق أن المراد بالقدر هو المقدر وهو ما حصّله من العلم والعمل عن الابتلاءات الواردة عليه في نجاته من الغمّ بالخروج من مصر ولبثه في أهل مدين.

وعلى هذا فمجموع قوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ ـ الى قوله ـ يَا مُوسَىٰ﴾ من واحد وهو أنه ابتلي ابتلاء بعد ابتلاء حتى جاء على قدر وهو ما اكتسبه من فعلية الكمال.

قوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ الاصطناع افتعال من الصنع بمعنى الإحسان ـ على ما ذكروا ـ يقال: صنعه أي أحسن اليه واصطنعه أي حقق إحسانه اليه وثبته فيه. ونقل عن القفال أن معنى الاصطناع أنه يقال: اصطنع فلان فلاناً إذا أحسن اليه حتى يضاف اليه فيقال: هذا صنيع فلان وخريجه. انتهى.

وعلى هذا يؤول معنى اصطناعه إياه الى اخلاصه تعالى إياه لنفسه ويظهر موقع قوله: «لنفسي» أتم ظهور وأما على المعنى الأول فالأنسب بالنظر الى السياق أن يكون الاصطناع مضمناً معنى الاخلاص. والمعنى على أي حال وجعلتك خالصاً لنفسي فيما عندك من النعم فالجميع مني وإحساني ولا يشاركني فيك غيري فأنت لي مخلصاً وينطبق ذلك على قوله: ﴿واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً﴾ (مريم / ٥١).

قوله تعالى: ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ تجديد للأمر السابق خطاباً لموسى وحده في قوله: «إذهب الى فرعون إنه طغى» بتغيير ما فيه بإلحاق أخي موسى به لتغيّر ما في المقام بإيتاء سؤال موسى أن يشرك هارون في أمره فوجّه الخطاب ثانياً اليهما معاً.

وأمرهما أن يذهبا بآياته ولم يؤت وقتئذ إلا آيتين وعد جميل بأنه مؤيد بغيرهما وسيؤتاه حين لزومه. وأما القول بأن المراد هما الآيتان والجمع ربما يطلق على الاثنين، أو أن كلاً من الآيتين ينحل الى آيات كثيرة مما لا ينبغي الركون اليه.

وقوله: ﴿وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ نهي عن الوني وهو الفتور. والأنسب للسياق السابق أن يكون المراد بالذكر الدعوة الى الايمان به تعالى وحده لا ذكره بمعنى التوجه اليه قلباً أو لساناً كما قيل.

قوله تعالى: ﴿إذهَبَا إلىٰ فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغىٰ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشىٰ﴾ جمعهما في الامر ثانياً فخاطب موسى وهارون معاً وكذلك في النهي الذي قبله في قوله: «ولا تنيا» وقد مهّد لذلك بإلحاق هارون بموسى في قوله: «إذهب أنت وأخوك» وليس ببعيد أن يكون نقلاً لمشافهة اخرى وتخاطب وقع بينه تعالى وبين رسوليه مجتمعين أو متفرّقين بعد ذاك الوقف ويؤيده سياق قوله بعد: «قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا» الخ.

والمراد بقوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾ المنع من أن يكلماه بخشونة وعنف وهو من أوجب آداب الدعوة.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشىٰ﴾ رجاء لتذكره أو خشيته وهو قائم بمقام المحاورة لا به تعالى العالم بما سيكون. والتذكر مطاوعة التذكير فيكون قبولا والتزاماً لما تقتضيه حجة المذكّر وإيمانه به والخشية من مقدمات القبول والايمان فمآل المعنى لعله يؤمن أو يقرب من ذلك فيجيبكم الى بعض ما تسألانه.

قوله تعالى: ﴿قالا رَبَّنا إنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغىٰ﴾ الفرط التقدم والمراد به بقرينة مقابلته الطغيان أن يعجّل بالعقوبة ولا يصبر الى إتمام الدعوة وإظهار الآية المعجزة، والمراد بأن يطغى أن يتجاوز حدّه في ظلمه فيقابل الدعوة بتشديد عذاب بني إسرائيل والاجتراء على ساحة القدس بما كان لا يجترىء عليه قبل الدعوة ونسبة الخوف اليهما لا بأس بها كما تقدم الكلام فيها في تفسير قوله تعالى: «قال خذها ولا تخف».

قوله تعالى: ﴿قالَ لا تَخافا إنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرىٰ﴾ أي لا تخافا من فرطه وطغيانه إنني حاضر معكما أسمع ما يقال وأرى ما يفعل فأنصركما ولا أخذلكما فهو تأمين بوعد النصرة، فقوله: «لا تخافا» تأمين، وقوله: «إنني معكما أسمع وأرى» تعليل للتأمين بالحضور والسمع والرؤية، وهو الدليل على أن الجملة كناية عن المراقبة والنصرة وإلا فنفس الحضور والعلم يعمّ جميع الأشياء والأحوال.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ الى آخر الآية: جدّد أمرهما بالذهاب الى فرعون بعد تأمينهما ووعدهما بالحفظ والنصر وبيّن تمام ما يكلفان به من الرسالة وهو أن يدعوا فرعون الى الايمان والى رفع اليد عن تعذيب بني إسرائيل وإرسالها معهما فكلما تحوّل حال في المحاورة جدّد الأمر حسب ما يناسبه وهو قوله أولا لموسى: «إذهب الى فرعون إنه طغى»، ثم قوله ثانياً لما ذكر أسئلته وأُجيب اليها: «إذهب أنت وأخوك» «إذهبا الى فرعون إنه طغى»، ثم قوله لما ذكرا خوفهما وأُجيبا بالأمن: «فأتياه فقولا» الخ؛ وفيه تفصيل ما عليهما أن يقولا له.

فقوله: «فأتياه فقولا إنا رسولا ربك» تبليغ أنهما رسولا الله، وفي قوله بعد: «والسلام على من اتبع الهدى» الخ؛ دعوته الى بقية أجزاء الايمان.

وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾ تكليف فرعي متوجه الى فرعون.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ استناد الى حجة تثبت رسالتهما وفي تنكير الآيه سكوت عن العدد وإشارة الى فخامة أمرها وكبر شأنها ووضوح دلالتها.

وقوله: ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ﴾ كالتحية للوداع يشار به الى تمام الرسالة ويبين به خلاصة ما تتمضنه الدعوة الدينية وهو أن السلامة منبسط على من اتبع الهدى والسعادة لمن اهتدى فلا يصادف في مسير حياته مكروهاً يكرهه لا في دنيا ولا في عقبى.

وقوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ في مقام التعليل لسابقه أي إنما نسلّم على المهتدين فحسب لأن الله سبحانه أوحى الينا أن العذاب وهو خلاف السلام على من كذّب بآيات الله ـ أو بالدعوة الحقة التي هي الهدى ـ وتولى

وأعرض عنها[١].

٤٩ ❁ قٰالَ فَمَنْ رَبُّكُمٰا يٰا مُوسىٰ.
٥٠ ❁ قٰالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ.
٥١ ❁ قٰالَ فَمٰا بٰالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولىٰ.
٥٢ ❁ قٰالَ عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتٰابٍ لاٰ يَضِلُّ رَبِّي وَلاٰ يَنْسىٰ.
٥٣ ❁ أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهٰا سُبُلاً وَأَنْزَلَ
مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْ نَبٰاتٍ شَتّىٰ.
٥٤ ❁ كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعٰامَكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِأُولِي ٱلنُّهىٰ.
٥٥ ❁ مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَفِيهٰا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ.
٥٦ ❁ وَلَقَدْ أَرَيْنٰاهُ آيٰاتِنٰا كُلَّهٰا فَكَذَّبَ وَأَبىٰ.
٥٧ ❁ قٰالَ أَجِئْتَنٰا لِتُخْرِجَنٰا مِنْ أَرْضِنٰا بِسِحْرِكَ يٰا مُوسىٰ.
٥٨ ❁ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنٰا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاٰ نُخْلِفُهُ
نَحْنُ وَلاٰ أَنْتَ مَكٰاناً سُوىً.
٥٩ ❁ قٰالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنّٰاسُ ضُحىً.
٦٠ ❁ فَتَوَلّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتىٰ.
٦١ ❁ قٰالَ لَهُمْ مُوسىٰ وَيْلَكُمْ لاٰ تَفْتَرُوا عَلَى ٱللّٰهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ
بِعَذٰابٍ وَقَدْ خٰابَ مَنِ ٱفْتَرىٰ.

---

١. طه ٩ ـ ٤٨: بحث روائي حول قصة موسى وبعثته: منزلة علي عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله.

٦٢ ❁ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوىٰ.

٦٣ ❁ قَالُوا إِنْ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلىٰ.

٦٤ ❁ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلىٰ.

٦٥ ❁ قَالُوا يَا مُوسىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقىٰ.

٦٦ ❁ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعىٰ.

٦٧ ❁ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسىٰ.

٦٨ ❁ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلىٰ.

٦٩ ❁ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتىٰ.

٧٠ ❁ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هٰرُونَ وَمُوسىٰ.

٧١ ❁ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقىٰ.

٧٢ ❁ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هٰذِهِ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا.

٧٣ ❁ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللّٰهُ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ.

٧٤ ❁ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاٰ يَمُوتُ فِيهَا وَلاٰ يَحْيىٰ.

٧٥ ❁ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلىٰ.

٧٦ ❁ جَنّٰاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكّىٰ.

٧٧ ❁ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي ٱلْبَحْرِ يَبَساً لاٰ تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشىٰ.

٧٨ ❁ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ.

٧٩ ❁ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدىٰ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسىٰ﴾ حكاية لمحاورة موسى وفرعون وقد علم مما نقله تعالى من أمره تعالى لهما أن يذهبا الى فرعون ويدعواه الى التوحيد ويكلماه في إرسال بني إسرائيل معهما، ما قالا له فهو محذوف وما نقل من كلام فرعون جواباً دالّ عليه.

فقول فرعون «فمن ربكما» ليس إنكاراً لوجود خالق الكل ولا إنكار أن يكون له إله كما يظهر من قوله: ﴿ويذرك وآلهتك﴾ (الأعراف / ١٢٧)، وإنما هو طلب منه للمعرفة بحال من اتخذاه إلهاً ورباً من هو غيره؟ وهذا معنى ما تقدم أن فرعون يتغافل في قوله هذا عن دعوتهما الى الله سبحانه وهما في أول الدعوة فهو يقدر ولو كتقدير المتجاهل أن موسى وأخاه يدعوانه الى بعض الآلهة التي يتخذ فيها بينهم رباً من دون الله فيسأل عنه، وقد كان من دأب الوثنيين

التفنن في اتخاذ الآلهة يتخذ كل منهم من يهواه إلهاً وربما بدل إلهاً من إله فتلك طريقتهم وسيأتي قول الملاء « ويذهبا بطريقتكم المثلى » نعم، ربما تفوه عامتهم ببعض ما لا يوافق اصولهم كنسبة الخلق والتدبير الى نفس الأصنام دون أربابها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ سياق الآية - وهي واقعة في جواب سؤال فرعون « فمن ربكما يا موسى » - يعطي أن « خلقه » بمعنى اسم المصدر والضمير للشيء فالمراد الوجود الخاص بالشيء.

والهداية إراءة الشيء الطريق الموصل الى مطلوبه أو إيصاله الى مطلوبه ويعود المعنيان في الحقيقة الى معنى واحد وهو نوع من إيصال الشيء الى مطلوبه إما بإيصاله اليه نفسه أو الى طريقه الموصل اليه. وقد اطلق الهداية من حيث المهدي والمهدي اليه. ولم يسبق في الكلام إلا الشيء الذي اعطي خلقه فالظاهر أن المراد هداية كل شيء - المذكور قبلاً - الى مطلوبه ومطلوبه هو الغاية التي يرتبط بها وجوده وينتهي اليها والمطلوب هو مطلوبه من جهة خلقه الذي اعطيه ومعنى هدايته له اليها تسييره نحوها كل ذلك بمناسبة البعض للبعض.

فيؤول المعنى الى إلقائه الرابطة بين كل شيء بما جهز به في وجوده من القوى والآلات وبين آثره التي تنتهي به الى غاية وجوده فالجنين من الإنسان مثلاً وهو نطفة مصورة بصورة مجهز في نفسه بقوى وأعضاء تناسب من الأفعال والآثار ما ينتهي به الى الإنسان الكامل في نفسه وبدنه فقد اعطيت النطفة الإنسانية بما لها من الإستعداد خلقها الذي يخصها وهو الوجود الخاص بالإنسان ثم هديت وسيّرت بما جهزت به من القوى والأعضاء نحو مطلوبها وهو غاية الوجود الإنساني والكمال الأخير الذي يختص به هذا النوع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قيل: البال في الأصل بمعنى الفكر ومنه قولهم: خطر ببالي كذا، ثم استعمل بمعنى الحال، ولا يثنّى ولا يجمع، وقولهم: بالات، شاذ.

فقوله : ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي ما حال الامم والأجيال الإنسانية الماضية التي ماتوا وفنوا لاخبر عنهم ولا أثر كيف يجزون بأعمالهم ولا عامل في الوجود ولا عمل وليسوا اليوم إلا أحاديث وأساطير ؟ فالآية نظيرة ما نقل عن المشركين في قوله : ﴿وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق جديد﴾ (الم السجدة / ١٠)، وظاهر الكلام أنه مبني على الاستبعاد من جهة انتفاء العلم بهم بأعمالهم للموت والفوت كما يشهد به جواب موسى عليه‌السلام .

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أجاب عليه‌السلام عن سؤاله بإثبات علمه تعالى المطلق بتفاصيل تلك القرون الخالية فقال : « علمها عند ربي » فأطلق العلم بها فلا يفوته شيء من أشخاصهم وأعمالهم وجعلها عند الله فلا تغيب عنه ولا تفوته . وقد قال تعالى : « وما عند الله باق » ثم قيَّد ذلك بقوله : « في كتاب » ـ وكأنه حال من العلم ـ ليؤكد به أنه مثبت محفوظ من غير أن يتغير عن حاله وقد نكّر الكتاب ليدلَّ به على فخامة أمره من جهة سعة إحاطته ودقَّتها فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

فيؤول معنى الكلام الى أن جزاء القرون الاولى إنما يشكل لو جهل ولم يعلم بها لكنها معلومة لربي محفوظة عنده في كتاب لا يتطرق اليه خطأ ولا تغير ولا غيبة وزوال .

وقوله : « لا يضل ربي ولا ينسى » نفي للجهل الإبتدائي والجهل بعد العلم على ما نقل عن بعضهم ولكن الظاهر أن الجملة مسوقة لنفي الجهل بعد العلم بقسميه فإن الضلال هو قصد الغاية بسلوك سبيل لا يؤدي اليها بل الى غيرها فيكون الضلال في العلم هو أخذ الشيء مكان غيره وإنما يتحقق ذلك بتغير المعلوم من حيث هو معلوم عما كان عليه في العلم أولاً ، والنسيان خروج الشيء من العلم بعد دخوله فيه فهما معاً من الجهل بعد العلم . ونفيه هو المناسب لإثبات العلم أولاً فيفيد مجموع الآية أنه عالم بالقرون الاولى ولا سبيل اليه للجهل بعد العلم فيجازيهم على ما علم .

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً ـ الى قوله ـ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهىٰ﴾ قد عرفت أن لسؤاله «فما بال القرون الاولى؟» ارتباطاً بما وصف الله به من الهدية العامة التي منها هداية الانسان الى سعادته في الحياة وهو الحياة الخالدة الاخروية وكذا الجواب عنه بقوله: «علمها عند ربي» الخ: مرتبط فقوله: «الذي جعل لكم الأرض مهداً» مضي في الحديث عن الهداية العامة وذكر شواهد بارزة في ذلك.

والباء في «به» للسببية وفيه تصديق السببيه والمسببية بين الامور الكونية. والمراد بكونه النبات أزواجاً كونها أنواعاً وأصنافاً متقاربة كما فسّره القوم أو حقيقة الازدواج بين الذكور والإناث من النبات وهي من الحقائق التي نبّه عليها الكتاب العزيز.

وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ فيه التفات من الغيبة الى التكلم بالغير. قيل: والوجه فيه ما في هذا الصنع العجيب وإبداع الصور المتشتتة والأزواج المختلفة على ما فيها من تنوّع الحياة من ماء واحد، من العظمة والصنع العظيم لا يصدر إلا من العظيم والعظماء يتكلمون عنهم وعن غيرهم من أعوانهم وقد ورد الالتفات في معنى إخراج النبات بالماء في مواضع من كلامه تعالى كقوله: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾ (فاطر / ٢٧)، وقوله: ﴿وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾ (النمل / ٦٠)، وقوله: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ (الأنعام / ٩٩).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهىٰ﴾ النهى جمع نهية بالضم فالسكون: وهو العقل سمّي به لنهيه عن اتباع الهوى.

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرىٰ﴾ الضمير للأرض والآية تصف ابتداء خلق الانسان من الأرض ثم إعادته فيها وصيرورته جزء منها ثم إخراجه منها للرجوع الى الله ففيها الدورة الكاملة من هداية الانسان.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ الظاهر أن المراد بالآيات العصا واليد وسائر الآيات التي أراها موسى فرعون أيام دعوته قبل الغرق كما مرَّ في قوله: «إذهب أنت وأخوك بآياتي» فالمراد جميع الآياتي التي أُريها وإن لم يؤت بها جميعاً في أول الدعوة كما أن المراد بقوله: «فكذّب وأبى» مطلق تكذيبه وإبائه لا ما أتى به منها في أول الدعوة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ الضمير لفرعون وقد اتهم موسى أولاً بالسحر لئلا يلزمه الاعتراف بصدق ما جاء به من الآيات المعجزة وحقيّة دعوته، وثانياً بأنه يريد إخراج القبط من أرضهم وهي أرض مصر. وهي تهمة سياسية يريد بها صرف الناس عنه وإثارة أفكارهم عليه بأنه عدو يريد أن يطردهم من بيئتهم ووطنهم بمكيدته ولا حياة لمن لا بيئة له.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوىً﴾ الظاهر كما يشهد به الآية التالية أن الموعد اسم زمان وإخلاف الوعد عدم العمل بمقتضاه، ومكان سُوىً بضم السين أي واقع في المنتصف من المسافة أو مستوى الأطراف من غير ارتفاع وانخفاض، قال في المفردات: ومكان سوى وسواء وسط. ويقال: سواء وسوى وسوى ـ بضم السين وكسرها ـ أي يستوي طرفاه، ويستعمل ذلك وصفاً وظرفاً، وأصل ذلك مصدر. انتهى.

والمعنى: فاقسم لنأتينك بسحر يماثل سحرك لقطع حجّتك وإبطال إرادتك فاجعل بيننا وبينك زمان وعد لا نخلفه في مكان بيننا أو في مكان مستوي الأطراف أو اجعل بيننا وبينك مكاناً كذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحىً﴾ الضمير لموسى وقد جعل الموعد يوم الزينة. ويظهر من السياق أنه كان يوماً لهم يجري بينهم مجرى

العيد. ويظهر من لفظه أنهم كانوا يتزيّنون فيه ويزيّنون الأسواق. وحشر الناس ـ على ما ذكره الراغب ـ إخراجهم عن مقرهم وإزعاجهم عنه الى الحرب ونحوها. والضحى وقت انبساط الشمس من النهار.

وقوله: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحىً﴾ معطوف على الزينة أو على يوم بتقدير اليوم أو الوقت ونحوه والمعنى قال موسى موعدكم يوم الزينة ويوم حشر الناس في الضحى. وليس من لبعيد أن يكون مفعولاً معه والمعنى موعدكم يوم الزينة مع حشر الناس في الضحى ويرجع لى الإشتراط. وإنما اشترط ذلك ليكون ما يأتي به ويأتون به على أعين الناس في ساعة بصرة.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتىٰ﴾ ظاهر السياق أن المراد بتولي فرعون انصرافه عن مجلس المواعدة للتهيؤ لما واعد، والمراد بجمع كيده جمع ما يكاد به من السحرة وسائر ما يتوسل به الى تعمية الناس والتلبيس عليهم ويمكن أن يكون المراد بجمع كيده جمع ذوى كيده بحذف المضاف والمراد بهم السحرة وسائر عماله وأعوانه وقوله: «ثم أتى» أي ثم أتى الوعد وحضره.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسىٰ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرىٰ﴾ الويل كلمة عذاب وتهديد، والأصل فيه معنى العذاب ومعنى ويلكم عذّبكم الله عذاباً. والسحت بفتح السين استيصال الشعر بالحلق والإسحات الإستئصال والإهلاك.

وقوله: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسىٰ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلىٰ ٱللَّهِ كَذِباً﴾ ضمائر الجمع غيبة وخطاباً لفرعون وكيده وهم السحرة وسائر أعوانه على موسى عليه السلام وقد مرّ ذكرهم في الآية السابقة. وأما رجوعها الى السحرة فقط فلم يسبق لهم ذكر ولا دل عليهم دليل من جهة اللفظ.

وقوله: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ تفريع على النهي أي لا تشركوا بالله حتى يستأصلكم ويهلككم بعذاب بسبب شرككم، وتنكير العذاب للدلالة على شدته وعظمته.

قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ الخيبة اليأس من بلوغ النتيجة المأمولة وقد وضعت الجملة في الكلام وضع الأصل الكلي الذي يتمسك به وهو كذلك فإن الإفتراء من الكذب وسببيته سببية كاذبة والأسباب الكاذبة لا تهتدي الى مسببات حقة وآثار صادقة فنتائجها غير صالحة للبقاء ولا هي تسوق الى سعادة فليس في عاقبتها إلا الشؤم والخسران فالآية أشمل معنى من قوله تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ (يونس/ ٦٩). لاثباتها الخيبة في مطلق الافتراء بخلاف الآية الثانية وقد تقدم كلام في أن الكذب لا يفلح في ذيل قوله: ﴿وجاؤا على قميصه بدم كذب﴾ (يوسف/ ١٨) في الجزء الحادي عشر من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ - الى قوله - مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ التنازع قريب المعنى من الاختلاف، من النزع بمعنى جذب الشيء من مقرّه لينقلع نه والتنازع يتعدى بنفسه كما في الآية وبفي كقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ (النساء/ ٥).

والنجوى الكلام الذي يسار به، وأصله مصدر بمعنى المناجاة وهي المسارَّة في الكلام، والمثلى مؤنث أمثل كفضلى وأفضل وهو الأقرب الأشبه والطريقة المثلى السنة التي هي أقرب من الحق أو من امنيتهم وهي سنة الوثنية التي كانت مصر اليوم تدار بها وهي عبادة الآلهة وفي مقدمتها فرعون إله القبط، والإجماع - على ما ذكره الراغب - جمع الشيء عن فكر وتروّ، والصف جعل الأشياء على خط مستو كالإنسان والاشجار ونحو ذلك ويستعمل مصدراً واسم مصدر وقوله: «ثم ائتوا صفاً» يحتمل أن يكون مصدراً، وأن يكون بمعنى صافين أي ائتوه فاتحاد واتفاق من دون أن تختلفوا وتتفرقوا فتضعفوا وكونوا كيد واحدة عليه.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوىٰ﴾ إشارة الى مسارّتهم في أمر موسى واجتهادهم في رفع الاختلاف الناشىء من استماعهم وعظ موسى عليه السلام. وقوله: «قالوا إن هذان لساحران يريدان» الخ؛ بيان النجوى الذي أسرُّوه فيما بينهم وقد مرَّ توضيح معناه.

وقوله: ﴿إِنْ هٰذانِ لَساحِرانِ﴾ القراءة المعروفة «إن» بكسر الهمزة وسكون النون وهي «إن» المشبهة بالفعل خففت فالغيت عن العمل بنصب الاسم ورفع الخبر.

قوله تعالى: ﴿قالُوا يا مُوسىٰ إِمّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقىٰ﴾ الى آخر الآية التالية. الحبال جمع حبل والعصيّ جمع عصا. وقد كان السحرة استعملوها ليصوّروا بها في أعين الناس حيّات وثعابين أمثال ما كان يظهر من عصا موسى عليه السلام.

وقوله: ﴿فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعىٰ﴾ فيه حذف، والتقدير: فألقوا وإذا حبالهم وعصيّهم، الخ؛ وإنما حذف لتأكيد المفاجأة كأنه عليه السلام لما قال لهم: بل ألقوا، لم يلبث دون أن شاهد ما شاهد من غير أن يتوسط هناك إلقاؤهم الحبال والعصيّ.

والذي خيّل الى موسى خيّل الى غيره من الناظرين من الناس كما ذكره في موضع آخر ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ (الأعراف / ١١٦). غير أنه ذكر ههنا موسى من بينهم وكأن ذلك ليكون تمهيداً لما في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسىٰ﴾ قال الراغب في المفردات: الوجس الصوت الخفي. والتوجُّس التسمُّع. والإيجاس وجود ذلك في النفس. قال: «فأوجس منهم خيفة» فالوجس هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر. انتهى.

فإيجاس الخيفة في النفس إحساسها فيها ولا يكون إلا خفيفاً خفيّاً لا يظهر أثره في ظاهر البشرة ويتبع وجوده في النفس ظهور خاطر سوء فيها من غير إذعان بما يوجبه من تحذّر

وتحرّز وإلا لظهر أثره في ظاهر البشرة وعمل الإنسان قطعاً . والى ذلك يوميء تنكير الخيفة كأنه قيل : أحسّ في نفسه نوعاً من الخوف لا يعبؤ به . ومن العجيب قول بعضهم : إن التنكير للتفخيم وكان الخوف عظيماً وهو خطأ ولو كان كذلك لظهر أثره في ظاهر بشرته ولم يكن لتقييد الخيفة بكونها في نفسه وجه .

فظهر أن الخيفة التي أوجسها في نفسه كانت إحساساً آنياً لها نظيرة الخاطر الذي عقبها فقد خطرت بقلبه عظمة سحرهم وأنه بحسب التخيّل مماثل أو قريب من آيته فأوجس الخيفة من هذا الخطور وهو كنفس الخطور لا أثر له .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ - الى قوله - حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ نهي بداعي التقوية والتأييد وقد علله بقوله : « إنك أنت الأعلى » فالمعنى : إنك فوقهم من كل جهة وإذا كان كذلك لم يضرك شيء من كيدهم وسحرهم فلا موجب لأن تخاف .

وقوله : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا ﴾ الخ : أمر بالقاء العصا لتكون حية وتلقف ما صنعوا بالسحر والتعبير عن العصا بما في يمينك من ألطف التعبير وأعمقه فإن فيه إشارة الى أن ليس للشيء من الحقيقة إلا ما أراد الله فإن أراد لما في اليمين أن يكون عصا كان عصاً وإن أراد أن يكون حية كان حية فما له من نفسه شيء ثم التعبير عن حياتهم وتعابينهم بقوله : « ما صنعوا » يشير الى أن المغالبة واقعة بين تلك القدرة المطلقة التي تتبعها الأشياء في أساميها وحقائقها وبين هذا الصنع البشري الذي لا يعدو أن يكون كيداً باطلاً وكلمة الله هي العليا والله غالب على أمره فلا ينبغي له أن يخاف .

وفي هذه الجملة أعني قوله : « وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا » بيان لكونه ﷺ أعلى بحسب ظاهر الحسّ كما أن في ذيله بياناً لكونه أعلى بحسب الحقيقة إذ لا حقيقة للباطل فمن كان على الحق فلا ينبغي له أن يخاف الباطل على حقه .

وقوله : « إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » تعليل بحسب اللفظ لقوله :

« تلقف ما صنعوا » و« ما » مصدرية أو موصولة وبيان بحسب الحقيقة لكونه ﷺ أعلى لأن ما معهم كيد ساحر لا حقيقة له وما معه آية معجزة ذات حقيقة والحق يعلو ولا يعلى عليه.

وقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ بمنزلة الكبرى لقوله: « ما صنعوا كيد ساحر » فإن الذي يناله الساحر بسحره خيال من الناظرين باطل لا حقيقة له ولا فلاح ولا سعادة حقيقية يظفر بها في أمر موهوم لا واقع له.

فقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ نظير قوله: ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (الأنعام / ١٤٤)، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (المائدة / ١٠٨)، وغيرهما والجميع من فروع ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ (الإسراء / ٨١)، ﴿ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾ (الشورى / ٢٤)، فلا يزال الباطل يزيد أُموراً ويشبّهها بالحق ولا يزال الحق يمحوه ويلقف ما أظهره لوهم الناظرين سريعاً أو بطيئاً فمثل عصا موسى وسحر السحرة يجري في كل باطل يبدو وحق يلقفه ويزهقه، وقد تقدَّم في تفسير قوله: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ (الرعد / ١٧)، كلام نافع في المقام.

قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ في الكلام حذف وإيجاز والتقدير فألقى ما في يمينه فتلقف ما صنعوا فالقي السحرة وفي التعبير بقوله: « فالقي السحرة » بالبناء للمفعول دون أن يقال: فسجد السحرة إشارة الى إذلال القدرة الإلهية لهم وغشيان الحق بظهوره إياهم بحيث لم يجدوا بدّاً دون أن يخروا على الأرض سجّداً كأنهم لا إرادة لهم في ذلك وإنما ألقاهم ملق غيرهم دون أن يعرفوه من هو ؟.

وقولهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ شهادة منهم بالايمان وإنما أضافوه تعالى الى موسى وهارن ليكون فيه الشهادة على ربوبيته تعالى ورسالة موسى وهارون معاً وفصل قوله: « قالوا » الخ؛ من غير عطف لكونه كالجواب لسؤال مقدّر كأنه قيل: فما قالوا فقيل: قالوا، الخ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ الكبير الرئيس وقطع الأيدي والأرجل من خلاف أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والتصليب تكثير الصلب وتشديده كالتقطيع الذي هو تكثير القطع وتشديده والجذوع جمع جذع وهو ساقة النخل.

وقوله: «آمنتم له قبل آذن لكم» تهديد من فرعون للسحرة حيث آمنوا والجملة استفهامية محذوفة الأداة والاستفهام للإنكار أو خبرية مسوقة لتقرير الجرم، وقوله: «إنه لكبيركم الذي علمكم السحر» رمي لهم بتوطئة سياسية على المجتمع القبطي في أرض مصر كأنهم تواطؤوا مع رئيسهم أن يتنبأ موسى فيدعو أهل مصر الى الله ويأتي في ذلك بسحر فيستنصروا بالسحرة حتى إذا حضروه واجتمعوا على مغالبته تخاذلوا وانهزموا عنه وآمنوا واتبعتهم العامة فذهبت طريقتهم المثلى من بينهم وأُخرج من لم يؤمن منهم قال تعالى في موضع آخر: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ (الأعراف / ١٢٣)، وإنما رماهم بهذا القول تهييجاً للعامة عليهم كما رمى موسى عليه السلام بمثله في أول يوم.

وقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ الى آخر الآية. إيعاد لهم وتهديد بالعذاب الشديد ولم يذكر تعالى في كلامه أنجز فيهم ذلك أم لا؟

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ كلام بليغ في منطوقه بالغ في مفهومه بعيد في معناه رفيع في منزلته يغلي ويفور علماً وحكمة، فهؤلاء قوم كانوا قبل ساعة وقد ملأت هيبة فرعون وأُبهته قلوبهم وأذلّت زينات الدنيا وزخارفها التي عنده ـ وليست إلا أكاذيب خيال وأباطيل وهم ـ نفوسهم يسمّونه رباً أعلى ويقولون حينما ألقوا حبالهم وعصيهم «بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون» فما لبثوا دون أن ظهرت لهم آيات الحق فبهرت أبصارهم فطاحت عند ذلك ما كانوا يرون لفرعون من عزة وسلطان ولما عنده من زينة الدنيا

وزخرفها من قدر ومنزلة وغشيت قلوبهم فأزالت منها رذيلة الجبن والملق واتّباع الهوى والتولّه الى سراب زينة الحياة الدنيا ومكّنت فيها التعلق بالحق والدخول تحت ولاية الله والاعتزاز بعزته فلا يريدون إلا ما أراده الله ولا يرجون إلا الله ولا يخافون إلا الله عزَّ اسمه.

وفي قولهم: «ما جاءنا من البينات» تلويح الى أنهم عدُّوا ما شاهدوه من أمر العصا آيات عديدة كصيرورتها ثعباناً وتلقّفها الحبال والعصي ورجوعها ثانياً الى حالتها الاولى، ويمكن أن يكون «من» للتبعيض فيفيد أنهم شاهدوا آية واحدة وآمنوا بأن لله آيات اخرى كثيرة ولا يخلو من بعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ الخطايا جمع خطيئة وهي قريبة معنى من السيئة، وقوله: «وما أكرهتنا عليه» معطوف على «خطايانا» و«من السحر» بيان له والمعنى وليغفر لنا السحر الذي أكرهتنا عليه وفيه دلالة على أنهم أُكرهوا عليه إما حين حشروا الى فرعون من خلال ديارهم وإما حين تنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى فحملوا على المقابلة والمغالبة.

وأول الآية تعليل لقولهم: «لن نؤثرك» الخ؛ أي إنما اخترنا الله الذي فطرنا عليك وآمنا به ليغفر لنا خطايانا والسحر الذي أكرهتنا عليه، وذيل الآية «والله خير وأبقى» من تمام البيان وبمنزلة التعليل لصدرها كأنه قيل: وإنما آثرنا غفرانه على إحسانك لأنه خير وأبقى، أي خير من كل خير وأبقى من كل باق ـ لمكان الإطلاق ـ فلا يؤثر عليه شيء وفي هذا الذليل نوع مقابلة لما في ذيل كلام فرعون «ولتعلمن أيّنا أشد عذاباً وأبقى».

وقد عبروا عنه تعالى أولاً بالذي فطرنا، وثانياً بربنا، وثالثاً بالله، أما الأول فلأن كونه تعالى فاطراً لنا اي مخرجاً لنا عن كتم العدم الى الوجود ويتبعه انتهاء كل خير حقيقي اليه وان ليس عند غيره إذا قوبل به إلا سراب البطلان، منشأ كل ترجيح والمقام مقام الترجيح بينه تعالى وبين فرعون.

واما الثاني فلأن فيه إخباراً عن الايمان به وأمسّ صفاته تعالى بالايمان والعبودية صفة ربوبيته المتضمنة لمعنى الملك والتدبير.

وأما الثالث فلأن ملاك خيرية الشيء لكمال وعنده تعالى جميع صفات الكمال القاضية بخيريته المطلقة فناسب التعبير بالعلم الدال على الذات المستجمعة لجميع صفات الكمال، وعلى هذا فالكلام في المقامات الثلاثة على بساطته ظاهراً مشتمل على الحجة على المدعى والمعنى بالحقيقة: لن نؤثرك على الذي فطرنا لأنه فطرنا، وإنا آمنا بربنا لأنه ربنا، والله خير لأنه الله عز اسمه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاْ يَمُوتُ فِيهَا وَلاْ يَحْيىٰ﴾ تعليل لجعل غفران الخطايا غاية للايمان بالله اي لأن من لم يغفر خطاياه كان مجرماً ومن يأت ربه مجرماً، الخ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلىٰ﴾ الى آخر الآية التالية؛ الدرجة ـ على ما ذكره الراغب ـ هي المنزلة لكن يعتبر فيها الصعود كدرجات السلم وتقابلها الدركة فهي المنزلة حدوراً ولذا يقال: درجات الجنة ودركات النار، والتزكي هو التنمي بالماء الصالح والمراد به أن يعيش الإنسان باعتقاد حق وعمل صالح.

والآيتان تصفان ما يستتبعه الايمان والعمل الصالح كما كانت الآية السابقة تصف ما يستتبعه الاجرام الحاصل بكفر أو معصية والآيات الثلاث الواصفة لتبعة الإجرام والايمان ناظرة الى وعيد فرعون ووعده لهم فقد أوعدهم فرعون على إيمانهم لموسى بالقطع والصلب وادعى أنه أشد العذاب وأبقاه فقابلوه بأن للمجرم عند ربه جهنم لا يموت فيها ولا يحيى لا يموت فيها حتى ينجو من مقاساة ألم عذابها لكن منتهى عذاب الدنيا الموت وفيه نجاة المجرم المعذب، ولا يحيى فيها إذ ليس فيها شيء مما تطيب به الحياة ولا خير مرجوّاً فيها حتى يقاسي

العذاب في انتظاره.

ووعدهم قبل ذلك المنزلة بجعلهم من مقرَّبيه والأجر كما حكى الله تعالى ﴿قالوا ءإنا لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾ (الأعراف / ١١٤)، فقابلوا ذلك بأن من يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فاولئك ـ وفي الإشارة البعيدة تفخيم شأنهم ـ لهم الدرجات العلى ـ وهذا يقابل وعد فرعون لهم بالتقريب ـ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك جزاء من تزكى ـ بالايمان والعمل الصالح وهذا يقابل وعده لهم بالأجر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي ٱلْبَحْرِ يَبَساً ـ الى قوله ـ وَمَا هَدىٰ﴾. الإسراء السير بالليل والمراد بعبادي بنو إسرائيل وقوله: «فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً» قيل المراد الضرب بالعصا كما يدل عليه كلامه تعالى في غير هذا الموضع وإن «طريقاً» مفعول به لاضرب على الاتساع وهو مجاز عقلي والأصل اضرب البحر ليكون لهم طريقاً. انتهى. ويمكن أن يكون المراد بالضرب البناء والإقامة من باب ضربت الخيمة وضربت القاعدة.

واليبس ـ على ما ذكره الراغب ـ المكان الذي كان فيه ماء ثم ذهب، والدرك بفتحتين تبعة الشيء، وفي نسبة الغشيان الى ما الموصولة المبهمة وجعله صلة لها أيضاً من تمثيل هول الموقف ما لا يخفى، قيل: وفي قوله: «وأضلّ فرعون قومه وما هدى» تكذيب لقول فرعون لقومه فيما خاطبهم ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ (المؤمن / ٢٩)، وعلى هذا فقوله: «وما هدى» ليس تأكيداً وتكراراً لمعنى قوله: «وأضلّ فرعون قومه».

٨٠ ● يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنٰاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوٰاعَدْنٰاكُمْ جٰانِبَ الطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنٰا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ.

٨١ ● كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ
غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوىٰ.

٨٢ ● وَإِنِّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدىٰ.

٨٣ ● وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسىٰ.

٨٤ ● قالَ هُمْ أُولاءِ عَلىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضىٰ.

٨٥ ● قالَ فَإِنّا قَدْ فَتَنّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السّامِرِيُّ.

٨٦ ● فَرَجَعَ مُوسىٰ إِلىٰ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ
رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ
عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي.

٨٧ ● قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلٰكِنّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ
الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذٰلِكَ أَلْقَى السّامِرِيُّ.

٨٨ ● فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هٰذا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ
مُوسىٰ فَنَسِيَ.

٨٩ ● أَفَلا يَرَوْنَ أَلاّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً.

٩٠ ● وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي.

٩١ ● قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسىٰ.

٩٢ ● قالَ يا هٰرُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا.

٩٣ ● أَلاّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي.

٩٤ ﴿ قَالَ يَابْنَ أُمَّ لاٰ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاٰ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ
تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي.
٩٥ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ.
٩٦ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي.
٩٧ ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيٰوةِ أَنْ تَقُولَ لاٰ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَٱنْظُرْ إِلىٰ إِلٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً
لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفاً.
٩٨ ﴿ إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي لاٰ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ الى آخر الآية: كأن الكلام بتقدير القول أي قلنا يا بني إسرائيل وقوله: «قد أنجيناكم من عدوكم» المراد به فرعون أغرقه الله وأنجى بني إسرائيل منه بعد طول المحنة.

وقوله: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ بنصب أيمن على أنه صفة جانب ولعل المراد بهذه المواعدة مواعدة موسى أربعين ليلة لانزال التوراة وقد مرت القصة في سورة البقرة وغيرها وكذا قصة إنزال المنّ والسلوى.

وقوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إباحة في صورة الأمر وإضافة الطيبات الى «ما رزقناكم» من إضافة الصفة الى الموصوف إذ لا معنى لأن ينسب الرزق الى نفسه ثم يقسّمه الى طيّب وغيره كما يؤيده قوله في آخر: ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ (الجاثية / ١٦).

قوله: ﴿وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ ضمير فيه راجع الى الأكل المتعلق بالطيبات وذلك بكفران النعمة وعدم أداء شكره كما قالوا: ﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادعُ لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ (البقرة / ٦١).

وقوله: «فيحلّ عليكم غضبي» أي يجب غضبي ويلزم من حلّ الدين يحلّ من باب ضرب إذا وجب أداؤه، والغضب من صفاته تعالى الفعلية مصداقه إرادته تعالى إصابة المكروه للعبد بتهيئة الأسباب لذلك عن معصية عصاها.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي سقط من الهويّ بمعنى السقوط وفسّر بالهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ وعد بالرحمة المؤكدة عقيب الوعيد الشديد ولذا وصف نفسه بكثرة المغفرة فقال: «وإني لغفار» ولم يقل: وأنا غافر أو سأغفر.

والتوبة وهي الرجوع كما تكون عن المعصية الى الطاعة تكون من الشرك الى التوحيد، والإيمان أيضاً كما يكون بالله كذلك يكون بآيات الله من أنبيائه ورسله وكل حكم جاؤا به من عند الله تعالى، وقد كثر استعمال الايمان في القرآن في كل من المعنيين كما كثر استعمال التوبة في كل من المعنيين المذكورين وبنو إسرائيل كما تلبّسوا بمعاصي فسقوا بها كذلك تلبّسوا بالشرك كعبادة العجل وعلى هذا فلا موجب لصرب الكلام عن ظاهر إطلاقه في التوبة عن الشرك والمعصية جميعاً والايمان بالله وآياته كذلك إطلاقه بالنسبة الى التائبين والمؤمنين من بني إسرائيل وغيرهم وإن كان بنو إسرائيل مورد الخطاب فإ الصفات الإلهية كالمغفرة لا تختص بقوم دون قوم.

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ وإني لكثير المغفرة لكل انسان تاب وآمن سواء تاب عن شرك أو

عن معصية وسواء آمن بي أو بآياتي من رسلي، أو ما جاؤا به من أحكامي بأن يندم على ما فعل ويعمل عملاً صالحاً بتبديل المخالفة والتمرد فيما عصى فيه بالطاعة فيه وهو المحقق لأصل معنى الرجوع من شيء وقد مرّ تفصيل القول فيه في تفسير قوله: ﴿إنما التوبة على الله﴾ (النساء / ١٧)، في الجزء الرابع من الكتاب.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ فالاهتداء يقابل الضلال كما يشهد به قوله تعالى: ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها﴾ (الإسراء / ١٥)، وقوله: ﴿لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم﴾ (المائدة / ١٠٥)، فهل المراد أن لا يضلَّ في نفس ما تاب فيه بأن يعود الى المعصية ثانياً فيفيد أن التوبة عن ذنب إنما تنفع بالنسبة الى ما اقترفه قبل التوبة ولا تكفي عنه لو عاد اليه ثانياً أو المراد أن لا يضلَّ في غيره فيفيد أن المغفرة إنما تنفعه بالنسبة الى المعصية التي تاب عنها وبعبارة أُخرى إنما تنفعه نفعاً تاماً إذا لم يضل في غيره من الأعمال، أو المراد ما يعمّ المعنيين؟.

فقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ ينطبق على آية النساء ويبقى فيه شرط زائد يقيد حكم المغفرة وهو مدلول قوله: «ثم اهتدى» وهو الإهتداء الى الطريق ويظهر أن المغفرة إنما يسمح بها للمؤمن العامل بالصالحات إذا قصد ذلك من طريقه ودخل عليه من بابه.

ولا نجد في كلامه تعالى ما يقيد الإيمان بالله والعمل الصالح في تأثيره وقبوله عند الله إلا الإيمان بالرسول بمعنى التسليم له وطاعته في خطير الامور ويسيرها وأخذ الدين عنه وسلوك الطريق التي يخطها واتباعه من غير استبداد وابتداع يؤول الى اتباع خطوات الشيطان وبالجملة ولايته على المؤمنين في دينهم ودنياهم فقد شرع الله تعالى ولايته وفرض طاعته وأوجب الأخذ عنه والتأسّي به في آيات كثيرة جداً لا حاجة الى إيرادها ولا مجال لاستقصائها فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وكان جل بني إسرائيل على إيمانهم بالله سبحانه وتصديقهم رسالة موسى وهارون متوقفين في ولايتهما أو كالمتوقف كما هو صريح عامة قصصهم في كتاب الله ولعل هذا هو الوجه في وقوع الآية ـ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى بعد نهيهم عن الطغيان وتخويفهم من غضب الله.

فقد تبيّن أن المراد بالاهتداء في الآية على ما يهدي اليه سائر الآيات هو الإيمان بالرسول باتباع في أمر الدين والدنيا وبعبارة اخرى هو الاهتداء الى ولايته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ـ الى قوله ـ لِتَرْضَىٰ﴾ حكاية مكالمة وقعت بينه تعالى وبين موسى عليه السلام في ميعاد الطور الذي نزلت عليه فيه التوراة كما قصّ في سورة الاعراف تفصيلاً.

وظاهر السياق أنه سؤال عن السبب الذي أوجب لموسى أن يستعجل عن قومه فيحضر ميعاد الطور قبلهم كأنه كان المترقب أن يحضروا الطور جميعاً فتقدّم عليهم موسى في الحضور وخلّفهم فقيل له «وما أعجلك عن قومك يا موسى» فقال: «هم أُولاء على أثري» أي إنهم لسائرون على أثري وسيلحقون بي عن قريب «وعجلت اليك رب لترضى» أي والسبب في عجلي هو أن احصّل رضاك يارب.

والظاهر أن المراد بالقوم وقد ذكر أنهم على أثره هم السبعون رجلاً الذين اختارهم لميقات ربه، فإن ظاهر تخليفه هارون على قومه بعده وسائر جهات القصة وقوله: «أفطال عليكم العهد» أنه لم يكن من القصد أن يحضر بنو إسرائيل كلهم الطور.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ الفتنة الامتحان والاختبار ونسبة الإضلال الى السامري ـ وهو الذي سبك العجل وأخرجه لهم فعبدوه وضلّوا ـ لأنه أحد أسبابه العاملة فيه.

والفاء في قوله: «فإنا قد فتنّا قومك» للتعليل يعلل به ما يفهم من سابق الكلام فإن المفهوم

من قول موسى «هم أُولاء على أثري» أن قومه على حسن حال لم يحدث فيهم ما يوجب قلقاً فكأنه قيل: لا تكن واثقاً على ما خلَّفتهم فيه فإنا قد فتنَّاهم فضلُّوا.

وقوله: «قومك» من وضع الظاهر موضع المضمر ولعل المراد غير المراد به في الآية السابقة أن يكون ما ههنا عامة القوم وما هناك السبعون رجلاً الذين اختارهم موسى للميقات.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسىٰ إِلىٰ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً ـ الى قوله ـ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ الغضبان صفة مشبهة من الغضب، وكذا الاسف من الاسف بفتحتين وهو الحزن وشدة الغضب، والموعد الوعد، وإلافهم موعده هو تركهم ما وعدوه من حسن الخلافة بعده حتى يرجع اليهم، ويؤيده قوله في موضع آخر: «بئسما خلفتموني من بعدي».

والمعنى: فرجع موسى الى قومه والحال أنه غضبان شديد الغضب ـ أو حزين ـ وأخذ يلومهم على ما فعلوا، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ـ وهو أن ينزل عليهم التوراة فيها حكم الله وفي الأخذ بها سعادة دنياهم وأُخراهم ـ أو وعده تعالى أن ينجيهم من عدوّهم ويمكّنهم في الأرض ويخصّهم بنعمه العظام «أفطال عليكم العهد» وهو مدة مفارقة موسى إياهم حتى يكونوا آيسين من رجوعه فيختل النظم بينهم «أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم» فطغوتم بالكفر به بعد الايمان وعبدتم العجل «فأخلفتم موعدي» وتركتم ما وعدتموني من حسن الخلافه بعدي.

قوله تعالى: ﴿قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا﴾ الى آخر الآية الملك بالفتح فالسكون مصدر ملك يملك وكأن المراد بقولهم: «ما أخلفنا موعدك بملكنا» ما خالفناك ونحن نملك من أمرنا شيئاً ـ كما قيل ـ ومن الممكن أن يكون المراد أنّا لم نصرف في صوغ العجل شيئاً من أموالنا حتى نكون قاصدين لهذا الأمر متعمدين فيه ولكن كنا حاملين لأثقال من حليّ القوم فطرحناها فأخذها السامري وألقاها في النار فأخرج العجل.

والأوزار جمع وزر وهو الثقل، والزينة الحلي كالعقد والقرط والسوار والقذف والإلقاء والنبذ متقاربة معناها الطرح والرمي.

ومعنى قوله: «ولكنا حملنا أوزاراً» الخ؛ لكن كانت معنا أثقال من زينة القوم ولعل المراد به قوم فرعون ـ فطرحناها فكذلك ألقى السامري ـ ألقى ما طرحناها في النار أو ألقى ما عنده كما القينا ما عندنا مما حملنا ـ فأخرج العجل.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هٰذَا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسىٰ فَنَسِيَ﴾ في لفظ الإخراج دلالة على أن كيفية صنع العجل كانت خفية على الناس في غير مرأى منهم حتى فاجأهم بإظهاره وإراءته. والجسد هو الجثة التي لا روح فيه فلا يطلق الجسد على ذي الروح البتة. وفيه دليل على أن العجل لم يكن له روح ولا فيه شيء من الحياة، والخوار بضمّ الخاء صوت العجل.

وربما أُخذ قوله: «فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم» الخ؛ كلاماً مستقلاً إما من كلام الله سبحانه باختتام كلام القوم في قولهم: «فقذفناها» وإما من كلام القوم وعلى هذا فضمير «قالوا» لبعض القوم وضمير «فأخرج لهم» لبعض آخر كما هو ظاهر.

وضمير «نسي» قيل: لموسى والمعنى قالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى إلهه هذا وهو هنا وذهب يطلبه في الطور وقيل: الضمير للسامري والمراد به نسيانه تعالى بعد ذكره والإيمان به أي نسي السامري ربه فأتى بما أتى وأضلّ القوم.

وظاهر قوله: «فقالوا هذا إلهكم وإله موسى» حيث نسب القول الى الجمع أنه كان مع السامري في هذا الأمر من يساعده.

قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ توبيخ لهم حيث عبدوه وهم يرون أنه لا يرجع قولاً بأن يستجيب لمن يدعوه، ولا يملك لهم ضراً فيدفعه عنهم ولا نفعاً بأن يجلبه ويوصله اليهم. ومن ضروريات عقولهم أن الرب يجب

أن يستجيب لمن دعاه لدفع ضرّ أو لجلب نفع وأن يملك الضر والنفع لمربوبه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ تأكيد لتوبيخهم وزيادة تقرير لجرمهم، والمعنى: أنهم مضافاً الى عدم تذكّرهم به ضرورة عقولهم وعدم انتهائهم عن عبادة العجل الى البصر والعقل لم يعتنوا بما قرعهم من طريق السمع أيضاً، فلقد قال لهم نبيُّهم هارون إنه فتنة فتنوا به وإن ربهم الرحمان عزَّ اسمه وإن من الواجب عليهم أن يتبعوه ويطيعوا أمره.

فردُّوه على هارون قائلين: لن نبرح ولن نزال عليه عاكفين أي ملازمين لعبادته حتى يرجع الينا موسى فنرى ماذا يقول فيه وماذا يأمرنا به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا هٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ رجع عليه السلام بعد تكليم القوم في أمر العجل الى تكليم أخيه هارون إذ هو أحد المسؤلين الثلاثة في هذه المحنة استخلفه وأوصاه حين كان يوادعه قائلا «اخلفني في قومي وأصلح ولا تتَّبع سبيل المفسدين».

وكأن قوله: «منعك» مضمّن معنى دعاك، أي ما دعاك الى أن لا تتبعن مانعاً لك عن الاتباع أو ما منعك داعياً لك الى عدم اتباعي فهو نظير قوله: ﴿قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك﴾ (الأعراف / ١٢).

والمعنى: قال موسى معاتباً لهارون: ما منعك عن اتباع طريقتي وهو منعهم عن الضلال والشدة في جنب الله أفعصيت أمري أن تتبعني ولا تتبع سبيل المفسدين؟

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي﴾الخ؛ «يابن أمّ» أصله يابن أُمي وهي كلمة استرحام واسترآف قالها لإسكات غضب موسى، ويظهر من قوله: «ولا تأخذ بلحيتي ولا برأسي» أنه أخذ بلحيته ورأسه غضباً ليضربه كما أخبر به في موضع آخر ﴿وأخذ برأس أخيه يجرُّه اليه﴾ (الأعراف / ١٥٠).

وقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ تعليل لمحذوف يدلُّ عليه اللفظ ومحصّله لو كنت مانعتهم عن عبادة العجل وقاومتهم بالغة ما بلغت لم يطعني إلا بعض القوم وأدّى ذلك الى تفرّقهم فرقتين: مؤمن مطيع، ومشرك عاص، وكان في ذلك إفساد حال القوم بتبديل اتحادهم واتفاقهم الظاهر تفرُّقاً واختلافاً وربما انجرَّ الى قتال وقد كنت أمرتني بالإصلاح إذ قلت لي «أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين» فخشيت أن تقول حين رجعت وشاهدت ما فيه القوم من التفرق والتحزب: فرَّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي. هذا ما اعتذر به هارون وقد عذره موسى ودعا له ولنفسه كما في سورة الأعراف بقوله: ﴿رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ (الأعراف / ١٥١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ رجوع منه ﷺ بعد الفراغ من تكليم أخيه الى تكليم السامري وهو أحد المسؤلين الثلاثة وهو الذي أضلَّ القوم.

والخطب: الأمر الخطير الذي يهمّك. يقول: ما هذا الأمر العظيم الذي جئت به؟

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ قال الراغب في المفردات: البصر يقال للجارحة الناظرة نحو قوله: «كلمح البصر» «وإذ زاغت الأبصار» وللقوة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر نحو قوله: «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» وقال: «ما زاغ البصر وما طغى» وجمع البصر أبصارهم وجمع البصيرة بصائر، قال تعالى: «فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم» ولا يكاد يقال للجارحة: بصيرة. ويقال من الأول: أبصرت، ومن الثاني: أبصرته وبصرت به، وقلما يقال في الحاسة بصرت إذا لم تضامّه رؤية القلب. انتهى.

وقوله: «فقبضت قبضة» قيل: إن القبضة مصدر بمعنى اسم المفعول وأُورد عليه أن المصدر إذا استعمل كذلك لم تلحق به التاء، يقال: هذه حلة نسج اليمن، ولا يقال: نسجة

اليمن، فالمتعين حمله في الآية على أنه مفعول مطلق. وردّ بأن الممنوع لحوق التاء الدالة على التحديد والمرة لا على مجرد التأنيث كما هنا، وفيه أن كون التاء هنا للتأنيث لا دليل عليه فهو مصادرة.

وقوله: «من أثر الرسول» الاثر شكل قدم المارّة على الطريق بعد المرور، والأصل في معناه ما بقي من الشيء بعده بوجه بحيث يدلُّ عليه كالبناء أثر الباني والمصنوع أثر الصانع والعلم أثر العالم وهكذا، ومن هذا القبيل أثر الأقدام على الأرض من المارَّة.

والرسول هو الذي يحمل رسالة وقد أُطلق في القرآن على الرسول البشري الذي يحمل رسالة الله تعالى الى الناس وأُطلق بهذه اللفظة على جبريل ملك الوحي، قال تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ (التكوير / ١٩)، وكذا أُطلق لجمع من الملائكة الرسول كقوله: ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ (الزخرف / ٨٠)، وقال أيضاً في الملائكة: ﴿جاعل الملائكة رسلاً أُولي أجنحة﴾ (فاطر / ١).

والآية تتضمن جواب السامري عما سأله موسى عليه السلام بقوله: «فما خطبك يا سامريّ» وهو سؤال عن حقيقة ذاك الأمر العظيم الذي أتى به وما حمله على ذلك، والسياق يشهد على أن قوله: «وكذلك سوّلت لي نفسي» جوابه عن السبب الذي دعاه اليه وحمله عليه وأن تسويل نفسه هو الباعث له الى فعل ما فعل وأما بيان حقيقة ما صنع فهو الذي يشير اليه بقوله: «بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول» ولا نجد في كلامه في هذه القصة ولا فيما يرتبط بها في الجملة ما يوضح المراد منه ولذا اختلفوا في تفسيره.

ففسره الجمهور وفاقاً لبعض الروايات الواردة في القصة أن السامري رأى جبريل وقد نزل على موسى للوحي أو رآه وقد نزل راكباً على فرس من الجنة قدام فرعون وجنوده حين دخلوا البحر فاغرقوا فأخذ قبضة من تراب أثر قدمه أو أثر حافر فرسه ومن خاصة هذا التراب أنه لا يلقى على شيء إلا حلت فيه الحياة ودخلت فيه الروح فحفظ التراب حتى إذا

صنع العجل ألتي فيه من التراب فحيّ وتحرك وخار.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَنْ تَقُولَ لاٰ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ هذه مجازاة له من موسى عليه السلام بعد ثبوت الجرم.

فقوله: «قال فاذهب» قضاء بطرده عن المجتمع بحيث لا يخالط القوم ولا يمسّ أحداً ولا يمسّه أحد بأخذ او عطاء او إيواء او صحبة او تكليم وغير ذلك من مظاهر الاجتماع الانساني وهو من أشق أنواع العذاب، وقوله: «فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس» ـ محصله أنه تقرَّر وحقَّ عليك أن تعيش فرداً مادمت حياً ـ كناية عن تحسّره المداوم من الوحدة والوحشة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ ظاهره أنه إخبار عن هلاكه في وقت عيّنه الله وقضاه قضاء محتوماً ويحتمل الدعاء عليه، وقيل: المراد به عذاب الآخرة.

قوله تعالى: «وانظر الى إلهك الذي ظلتَ عليه عاكفاً لنحرقنّه ثم لننسفنّه في اليمّ نسفاً» قال في المجمع: يقال: نسف فلان الطعام إذا ذراه بالمنسف ليطير عنه قشوره. انتهى.

وقوله: ﴿وَٱنْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ أي ظللت ودمت عليه عاكفاً لازماً، وفيه دلالة على أنه كان اتخذه إلهاً له يعبده.

وقوله: «لنحرقنّه ثم لننسفنّه في اليمّ نسفاً» أي أُقسم لنحرقنّه بالنار ثم لنذرينّه في البحر ذرواً، وقد استدلَّ بحديث إحراقه على أنه كان حيواناً ذا لحم ودم ولو كان ذهباً لم يكن لإحراقه معنى، وهذا يؤيد تفسير الجمهور السابق أنه صار حيواناً ذا روح بإلقاء التراب المأخوذ من أثر جبريل عليه. لكن الحق أنه إما يدلُّ عليه أنه لم يكن ذهباً خالصاً لا غير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لاٰ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ الظاهر أنه من تمام كلام موسى عليه السلام يخاطب به السامري وبني إسرائيل وقد قرّر بكلامه هذا توحّده تعالى في أُلوهيته فلا يشاركه فيها غيره من عجل او أي شريك مفروض، وهو بسياقه من لطيف الاستدلال فقد استدلَّ فيه بأنه تعالى هو الله على أنه لا إله إلا هو وبذلك على أنه لا

غيره إلههم[١].

٩٩ ● كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنّا ذِكْراً.

١٠٠ ● مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وِزْراً.

١٠١ ● خٰالِدِينَ فِيهِ وَسٰاءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ حِمْلاً.

١٠٢ ● يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً.

١٠٣ ● يَتَخٰافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ عَشْراً.

١٠٤ ● نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَقُولُونَ إِذ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَـبِثْتُمْ إِلاّٰ يَوْماً.

١٠٥ ● وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبٰالِ فَقُلْ يَنْسِفُهٰا رَبِّي نَسْفاً.

١٠٦ ● فَيَذَرُهٰا قٰاعاً صَفْصَفاً.

١٠٧ ● لاٰ تَرىٰ فِيهٰا عِوَجاً وَلاٰ أَمْتاً.

١٠٨ ● يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدّٰاعِيَ لاٰ عِـوَجَ لَـهُ وَخَشَـعَتِ ٱلْأَصْـوٰاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلاٰ تَسْمَعُ إِلاّٰ هَمْساً.

١٠٩ ● يَوْمَئِذٍ لاٰ تَنْفَعُ الشَّفٰاعَةُ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَـهُ قَوْلاً.

١١٠ ● يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمٰا خَلْفَهُمْ وَلاٰ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً.

---

١. طه ٩ ـ ٤٨: بحث روائي في: معنى غضب الله: الاهتداء. قصة موسى والسامري وبني اسرائيل.

١١١ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً.

١١٢ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاٰ يَخافُ ظُلْماً وَلاٰ هَضْماً.

١١٣ ۞ وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً.

١١٤ ۞ فَتَعالَى ٱللّٰهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلاٰ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنّا ذِكْراً﴾ الظاهر أن الإشارة الى خصوصية قصة موسى والمراد بما قد سبق الامور والحوادث الماضية والامم الخالية أي على هذا النحو قصصنا قصة موسى وعلى شاكلته نقصُّ عليك من أخبار ما قد مضى من الحوادث والامم.

وقوله: ﴿وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنّا ذِكْراً﴾ المراد به القرآن الكريم أو ما يشتمل عليه من المعارف المتنوعة التي يذكّر بها الله سبحانه من حقائق وقصص وعبر وأخلاق وشرائع وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وِزْراً﴾ ضمير «عنه» للذكر والوزر الثقل والإثم والظاهر بقرينة الحمل إرادة المعنى الأول وتنكيره للدلالة على عظم خطره. والمعنى: من أعرض عن الذكر فإنه يحمل يوم القيامة ثقلاً عظيم الخطر ومرّ الأثر. شبّه الإثم من حيث قيامه بالإنسان بالثقل الذي يحمله الإنسان وهو شاق عليه

فاستعير له اسمه.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ المراد من خلودهم في الوزر خلودهم في جزائه وهو العذاب بنحو الكناية والتعبير في «خالدين» بالجمع باعتبار معنى قوله: «من أعرض عنه» كما أن التعبير في «أعرض» و«فإنه يحمل» فاعتبار لفظه، فالآية كقوله: ﴿ومن يعصِ الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ (الجن / ٢٣).

ومع الغضّ عن الجهات اللفظية فقوله: «من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيها» من أوضح الآيات دلالة على أن الانسان إنما يعذب بعمله ويخلد فيه وهو تجسّم الأعمال.

وقوله: «وساء لهم يوم القيامة حملاً» ساء من أفعال الذمّ كبئس، والمعنى: وبئس الحمل حملهم يوم القيامة، والحمل بكسر الحاء وفتحها واحد، غير أن ما بالكسر هو المحمول في الظاهر كالمحمول على الظهر وما بالفتح هو المحمول في الباطن كالولد في البطن.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ «يوم ينفخ» الخ: بدل من يوم القيامة في الآية السابقة، ونفخ في الصور كناية عن الإحضار والدعوة ولذا أتبعه فيما سيأتي بقوله: ﴿يومئذ يتّبعون الداعي لا عوج له﴾ (الآية / ١٠٨) من السورة.

والزرق جمع أزرق من الزرقة وهي اللون الخاص، وعن الفرّاء أن المراد بكونهم زرقاً كونهم عمياً لأن العين إذا ذهب نورها أزرق ناظرها وهو معنى حسن ويؤيده قوله تعالى: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً﴾ (الإسراء / ٩٧).

قوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً - الى قوله - إِلاَّ يَوْماً﴾ التخافت تكليم القوم بعضهم بعضاً بخفض الصوت وذلك من أهل المحشر لهول المطّلع، وقوله: «إن لبثتم إلا عشراً» بيان لكلامهم الذي تخافتون فيه، ومعنى الجملة على ما يعطيه السياق: يقولون ما لبثتم في الدنيا قبل الحشر إلا عشرة أيام، يستقلون لبثهم فيها بقياسه الى ما يلوح

لهم من حكم الخلود والأبدية.

وقوله: «نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً» أي لنا إحاطة علمية بجميع ما يقولون في تقرير لبثهم إذ يقول أمثلهم طريقة أي الأقرب منهم الى الصدق إن لبثتم في الأرض إلا يوماً وإنما كان قائل هذا القول أمثل القوم طريقة وأقربها الى الصدق لأن اللبث المحدود الأرضي لا مقدار له إذا قيس من اللبث الأبدي الخالد، وعدّه يوماً وهو أقل من العشرة أقرب الى الواقع من عدة عشرة، والقول مع ذلك نسبي غير حقيقي وحقيقة القول فيه ما حكاه سبحانه في قوله: ﴿وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ (الروم / ٥٦)، وسيجيء استيفاء البحث في معنى هذا اللبث في تفسير الآية إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ـ الى قوله ـ وَلاَ أَمْتاً﴾ تدل الآية على أنهم سألوه ﷺ عن حال الجبال يوم القيامة فاجيب عنه بالآيات.

وقوله: ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ أي يذروها ويثيرها فلا يبقى منها في مستقرها شيء، وقوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً﴾ القاع الأرض المستوية والصفصف الارض المستوية الملساء، والمعنى فيتركها أرضاً مستوية ملساء لا شيء عليها، وكأن الضمير للأرض باعتبار أنها كانت جبالاً، وقوله: «لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا» قيل: العوج ما انخفض من الأرض والأمت ما ارتفع منها، والخطاب للنبي ﷺ والمراد كل من له أن يرى، والمعنى لا يرى راء فيها منخفضاً كالأودية ولا مرتفعاً كالروابي والتلال.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ نفي العوج إن كان متعلقاً بالاتباع ـ بأن يكون «لا عوج له» حالاً عن ضمير الجمع وعامله يتبعون ـ فمعناه أن ليس لهم إذا دعوا إلا الاتباع محضاً من غير أي توقف أو استنكاف أو تثبط أو مساهلة فيه لأن ذلك كله فرع القدرة والاستطاعة أو

توهم الانسان ذلك لنفسه وهم يعاينون اليوم أن الملك والقدرة لله سبحانه لا شريك له قال تعالى: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (المؤمن / ١٦)، وقال: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً﴾ (البقرة / ١٦٥).

وإن كان متعلقاً بالداعي كان معناه أن الداعي لا يدَع أحداً إلا دعاه من غير أن يهمل أحداً بسهو أو نسيان أو مساهلة في الدعوة.

لكن تعقيب الجملة بقوله: «وخشعت الأصوات للرحمن» الخ؛ يناسب المعنى الأول فإن ارتفاع الأصوات عند الدعوة والاحضار إنما يكون للتمرد والاستكبار عن الطاعة والاتباع.

وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ قال الراغب: الهمس الصوت الخفي وهمس الاقدام أخفى ما يكون من صوتها قال تعالى: «فلا تسمع إلا همساً». انتهى. والخطاب في قوله: «لا تسمع» للنبي ﷺ والمراد كل سامع يسمع والمعنى وانخفضت الأصوات لاستغراقهم في المذلة والمسكنة لله فلا يسمع السامع إلا صوتاً خفياً.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ نفي نفع الشفاعة كناية عن أن القضاء بالعدل والحكم الفصل على حسب الوعد والوعيد الإلهيين جار نافذ يومئذ من غير أن يسقط جرم مجرم أو يغمض عن معصية عاص لمانع يمنع منه فمعنى نفع الشفاعة تأثيرها.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ الاستثناء يدل على أن العناية في الكلام متعلقه بنفي الشفعاء لا بتأثير الشفاعة في المشفوع لهم، والمراد الإذن في الكلام للشفاعة كما يبيّنه قوله بعده: «ورضي له قولاً» فإن التكلم يومئذ منوط بإذنه تعالى، قال: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ (هود / ١٠٥)، وقال: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ (النبأ / ٣٨). وقد مر القول في معنى الإذن في التكلم في تفسير سورة هود في الجزء العاشر من الكتاب.

وأما كون القول مرضياً فمعناه أن لا يخالطه ما يسخط الله من خطأ أو خطيئة قضاء لحق الإطلاق ولا يكون ذلك إلا ممن أخلص الله سريرته من الخطأ في الإعتقاد والخطيئة في العمل وطهَّر نفسه من رجس الشرك والجهل في الدنيا أو من الحقه بهم فإن البلاء والابتلاء اليوم مع السرائر قال تعالى: «يوم تبلى السرائر» وللبحث ذيل طويل سيمرّ بك بعضه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ إن كان ضمائر الجمع في الآيه راجعة الى «من أذن له» باعتبار معناه كان المراد أن مرضي قولهم لا يخفى على الله فإن علمه محيط بهم وهم لا يحيطون به علماً فليس في وسعهم أن يغرّوه بقول مزوّق غير مرضي.

وإن كانت راجعة الى المجرمين فالآية تصف علمه تعالى بهم في موقف الجزاء وهو ما بين أيديهم وقبل أن يحضروا الموقف في الدنيا حياً أو ميتاً وهو ما خلفهم فهم محاطون لعلمه ولا يحيطون به علماً فيجزيهم بما فعلوا وقد عنت وجوههم للحي القيّوم فلا يستطيعون رداً لحكمه وعند ذلك خيبتهم. وهذاالإحتمال أنس لسياق الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ العنوة هي الذله قبال قهر القاهر وهي شأن كل شيء دون الله سبحانه يوم القيامة بظهور السلطنة الإلهية كما قال: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار ﴾ (المؤمن / ١٦). فلا يملك شيء شيئاً بحقيقة معنى الكلمة وهو الذلة والمسكنة على الإطلاق وإنما نسبت العنوة الى الوجوه لأنها أول ما تبدوا تظهر في الوجوه، ولازم هذه العنوة أن لا يمنع حكمه ولا نفوذه فيهم مانع ولا يحول بينه وبين ما أراد بهم حائل.

واختير من أسمائه الحي القيوم لأن مورد الكلام الأموات أُحيوا ثانياً وقد تقطعت عنهم الأسباب اليوم والمناسب لهذا الظرف من صفاته حياته المطلقه وقيامه بكل أمر.

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ بيان لجزائهم أما قوله: «وقد خاب من حمل ظلماً» فالمراد بهم المجرمون غير المؤمنين فلهم الخيبة بسوء الجزاء لا كل من حمل ظلماً ما أي ظلم كان من مؤمن أو كافر فإن المؤمن لا يخيب يومئذ بالشفاعة.

ولو كان المراد العموم وأن كل من حمل ظلماً ما فهو خائب فالمراد بالخيبة الخيبة من السعادة التي يضادها ذلك دون الخيبة من السعادة مطلقاً.

وأما قوله: «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن» الخ: فهو بيان استطرادي لحال المؤمنين الصلحاء جيىء به لاستيفاء الأقسام وتتميم القول في الفريقين الصلحاء والمجرمين. وقد قيد العمل الصالح بالايمان لأن الكفر يحبط العمل الصالح بمقتضى آيات الحبط. والهضم هو النقص. ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ ظاهر سياقها أن الاشارة بكذلك الى خصوصيات بيان الآيات. و«قرآناً عربياً» حال من الضمير في «أنزلناه». والتصريف هو التحويل من حال الى حال. والمعنى وعلى ذلك النحو من البيان المعجز أنزلنا الكتاب والحال أنه قرآن مقرو عربي وأتينا فيه ببعض ما أوعدناهم في صورة بعد صورة.

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ قد أورد فيما تقدم من قوله: «لعله يذّكر أو يخشى» الذكر مقابلاً للخشية ويستأنس منه أن المراد بالاتقاء ههنا هو التحرُّز من المعاداة واللجاج الذي هو لازم الخشيه باحتمال الضرر دون الاتقاء المترتب على الايمان بإتيان الطاعات واجتناب المعاصي. ويكون المراد بإحداث الذكر لهم حصول التذكر فيهم وتتم المقابلة بين الذكر والتقوى من غير تكلف.

والمعنى ـ والله أعلم ـ لعلهم يتحرزون المعاداة مع الحق لحصول الخشية في قلوبهم باحتمال الخطر لاحتمال كونه حقاً أو يحدث لهم ذكراً للحق فيعتقدوا به.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ تسبيح وتنزيه له عن كل ما لا يليق بساحة قدسه، وهو يقبل التفرّع على إنزال القرآن وتصريف الوعيد فيه لهداية الناس والتفرع عليه وعلى ما ذكر قبله من حديث الحشر والجزاء وهذا هو الأنسب نظراً الى انسلاك الجميع في سلك واحد وهو أنه تعالى ملك يتصرف في ملكه بهداية الناس الى ما فيه صلاح أمرهم ثم إحضارهم وجزائهم على ما عملوا من خير أو شر.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ السياق يشهد بأن في الكلام تعرُّضاً لتلقِّي النبي ﷺ وحي القرآن، فضمير «وحيه» للقرآن، وقوله: «ولا تعجل بالقرآن» نهي عن العجل بقراءته، ومعنى قوله: «من قبل أن يقضى اليك وحيه» من قبل أن يتمّ وحيه من ملك الوحي.

فيفيد أن النبي ﷺ كان إذا جاءه الوحي بالقرآن يعجّل بقراءة ما يوحى اليه قبل أن يتمّ الوحي فنهي عن أن يعجل في قراءته قبل انقضاء الوحي وتمامه فيكون الآية في معنى قوله تعالى في موضع آخر: ﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه﴾ (القيامة / ١٨).

ويؤيد هذا المعنى قوله بعد: «وقل رب زدني علماً» فإن سياق قوله: لا تعجل به وقل رب زدني، يفيد أن المراد هو الاستبدال أي بدّل الاستعجال في قراءة ما لم ينزل بعد، طلبك زيادة العلم ويؤول المعنى الى أنك تعجل بقراءة ما لم ينزل بعد لأن عندك علماً به في الجملة لكن لا تكتف به واطلب من الله علماً جديداً بالصبر واستماع بقية الوحي.

وهذه الآية مما يؤيد ما ورد من الروايات أن للقرآن نزولاً دفعة واحدة غير نزوله نجوماً على النبي ﷺ فلولا علم ما منه بالقرآن قبل ذلك لم يكن لعجله بقراءة ما لم ينزل منه بعد معنى.

١١٥ ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً.

١١٦ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ.

١١٧ ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ
ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ.

١١٨ ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ.

١١٩ ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ.

١٢٠ ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ
ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ.

١٢١ ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ.

١٢٢ ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ.

١٢٣ ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ
مِنِّي هُدىً فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ.

١٢٤ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ.

١٢٥ ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً.

١٢٦ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنْسَىٰ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ المراد بالعهد الوصية وبهذا المعنى يطلق على الفرامين والدساتير العهود، والنسيان معروف وربما يكنى به عن الترك لأنه لازمه إذ الشيء إذا نسي ترك. والعزم القصد الجازم الى الشيء قال تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ (آل عمران / ١٥٩)، وربما أُطلق على الصبر ولعله لكون الصبر أمراً شاقاً على النفوس فيحتاج الى قصد أرسخ وأثبت فسمي الصبر باسم لازمه قال تعالى: «إن ذلك من عزم الامور».

فالمعنى وأُقسم لقد وصينا آدم من قبل فترك الوصية ولم نجد له قصداً جازماً الى حفظها أو صبراً عليها والعهد المذكور ـ على ما يظهر من قصته عليه السلام في موضع من كلامه تعالى ـ هو النهي عن أكل الشجرة، بمثل قوله: ﴿لا تقربا هذه الشجرة﴾ (الأعراف / ١٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ معطوف على مقدر والتقدير اذكر عهدنا اليه واذكر وقتاً أمرنا الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس حتى يظهر أنه نسي ولم يعزم على حفظ الوصية. وقوله: «أبى» جواب سؤال مقدر تقديره ماذا فعل إبليس؟ فقيل: أبى.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ تفريع على إباء إبليس عن السجدة أي فلما أبى قلنا إرشاد لآدم الى ما فيه صلاح أمره ونصحاً: إن هذا الآبي عن السجدة ـ إبليس ـ عدو لك ولزوجك الخ.

وقوله: «فلا يخرجنكما من الجنة» توجيه نهي إبليس عن إخراجهما من الجنة الى آدم كناية عن نهيه عن طاعته أو عن الغفلة عن كيده والاستهانة بمكره أي لا تطعه أو لا تغفل عن وتسويله حتى يتسلط عليكما ويقوى على إخراجكما من الجنة وإشقائكما.

وقوله: ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾ تفريع على خروجهما من الجنة والمراد بالشقاء التعب أي فتتعب إن خرجتما من الجنة وعشتما في غيرها وهو الارض عيشة أرضية لتهاجم الحوائج وسيعك في رفعها كالحاجة الى الطعام والشراب واللباس والمسكن وغيرها.

والدليل على أن المراد بالشقاء التعب الآيتان التاليتان المشيرتان الى تفسيره «إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى».

وهو أيضاً دليل على أن النهي إرشادي ليس في مخالفته إلا الوقوع في المفسدة المترتبة على نفس الفعل وهو تعب السعي في رفع حوائج الحياة واكتساب ما يعاش به وليس بمولوي تكون نفس مخالفته مفسدة يقع فيها العبد وتستتبع مؤاخذة أُخروية. على أنك عرفت أنه عهد قبل تشريع أصل الدين الواقع عند الأمر بالخروج من الجنة والهبوط الى الأرض.

وأما إفراد قوله: «فتشقى» ولم يقل فتشقيا بصيغة التثنية فلأن العهد إنما نزل على آدم عليه السلام وكان التكليم متوجهاً اليه. ولذلك جيىء بصيغة الإفراد في جميع ما يرجع اليه كقوله: «فنسي ولم نجد له عزماً» «فتشقى» «أن لا تجوع فيها ولا تعرى» «لا تظمؤ فيها ولا تضحى» «فوسوس اليه» الخ: «فعصى» الخ: «ثم اجتباه ربه فتاب عليه» نعم جيىء بلفظ التثنية فيما لا غنى عنه كقوله: «عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما» «فأكلا منها فبدت لهما» «وطفقا يخصفان عليهما» «قال اهبطا منها بعضكم لبعض عدوّ» فتدبر فيه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ يقال: ضحي يضحى كسعي يسعى ضحواً وضحياً إذا أصابته الشمس أو برز لها وكأن المراد بعدم الضحو أن ليس هناك أثر من حرارة الشمس حتى تمس الحاجة الى الاكتنان في مسكن يقي من الحرّ والبرد.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴾ الشيطان هو الشرير لقّب به إبليس لشرارته. والمراد بشجرة

الخلد الشجرة المنهية والبلى صيرورة الشيء خلقا خلاف الجديد .

والمراد بشجرة الخلد شجرة يعطي أكلها خلود الحياة ، والمراد بملك لا يبقى سلطنة لا تتأثر عن مرور الدهور واصطكاك المزاحمات والموانع فيؤول المعنى الى نحو قولنا هل أدلك على شجرة ترزق بأكل ثمرتها حياة خالدة وملكاً دائماً فليس قوله : « لا يبلى » تكراراً لإفادة التأكيد كما قيل .

والدليل على ما ذكره ما في سورة الأعراف في هذا المعنى من قوله : ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ (الأعراف / ٢٠) ولا منافاة بين جمع خلود الحياة ودوام الملك ههنا بواو الجمع وبين الترديد بينهما في سورة الأعراف لإمكان أن يكون الترديد هناك لمنع الخلو لا لمنع الجمع ، أو يكون الجمع ههنا باعتبار الاتصاف بهما جميعاً والترديد هناك باعتبار تعلق النهي كأنه يقيل : إن في هذه الشجرة صفتين وإنما نهاكما ربكما عنها إما لهذه أو لهذه ، أو إنما نهاكما ربكما عنها أن لا تخلدا في الجنة مع ملك خالد أو أن لا تخلدا بناء على أن الملك الخالد يستلزم حياة خالدة فافهم ذلك وكيف كان فلا منافاة بين الترديد في آية والجمع في أخرى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ الغي خلاف الرشد الذي هو بمعنى إصابة الواقع وهو غير الضلال الذي هو الخروج من الطريق ، والهدى يقابلهما ويكون بمعنى الإرشاد إذا قابل الغي كما في الآية التالية وبمعنى إراءة الطريق ، أو الإيصال الى المطلوب بتركيب الطريق إذا قابل الضلال فليس من المرضي تفسير الغي في الآية بمعنى الضلال .

ومعنى آدم ربه ـ كما أشرنا اليه آنفاً وقد تقدم تفصيله ـ إنما هي معصية أمر إرشادي لا مولوي والأنبياء عليهم السلام معصومون من المعصية والمخالفة في أمر يرجع الى الدين الذي يوحي

اليهم من جهة تلقيه فلا يخطئون، ومن جهة حفظه فلا ينسون ولا يحرّفون، ومن جهة إلقائه الى الناس وتبليغه لهم قولاً فلا يقولون إلا الحق الذي أُوحي اليهم وفعلاً فلا يخالف فعلهم قولهم ولا يقترفون معصية صغيرة ولا كبيرة لأن في لفعل تبليغاً كالقول. وأما المعصية بمعنى مخالفة الأمر الإرشادي الذي لا داعي فيه إلا إحراز المأمور خيراً أو منفعة من خيرات حياته ومنافعها بانتخاب الطريق الأصلح كما يأمر وينهى المشير الناصح نصحاً فإطاعته ومعصيته خارجتان من مجرى أدلة العصمة وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ الإجتباء ـ كما تقدم مراراً ـ بمعنى الجمع على طريق الاصطفاء ففيه جمعه تعالى عبده لنفسه لا يشاركه فيه أحد وجعله من المخلصين بفتح اللام. وعلى هذا المعنى يتفرع عليه قوله: «فتاب عليه وهدى»، كأنه كان ذا أجزاء متفرقة متشبتتة فجمعها من هنا وهناك الى مكان واحد ثم تاب عليه ورجع اليه وهداه وسلك به الى نفسه.

وإنما فسّرنا قوله: «هدى» وهو مطلق بهدايته الى نفسه بقرينة الاجتباء، ولا ينافي مع ذلك إطلاق الهداية لأن الهداية اليه تعالى أصل كل هداية ومحتدها، نعم يجب تقييد الهداية بما يكون في أمر الدين من اعتقاد حق وعمل صالح. والدليل عليه تفريع الهداية في الآية على الاجتباء، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تقديم تفسير مثله في سورتي البقرة والأعراف.

وفي قوله: «قال اهبطا» التفات من التكلم مع الغير الى الغيبة والإفراد ولعلّ الوجه فيه اشتمال الآية على القضاء والحكم وهو مما يختص به تعالى قال: ﴿والله يقضي بالحق﴾ (المؤمن / ٢٠)، وقال: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ (يوسف / ٦٧).

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا

يَشْقَىٰ ﴾ في الآية قضاء منه تعالى متفرع على الهبوط ولذا عطف بفاء التفريع . وأصل قوله : « فإما يأتينكم » فإن يأتكم زيد عليه ما ونون التأكيد للإشارة الى وقوع الشرط كأنه قيل : إن يأتكم مني هدى ـ وهو لا محالة آت ـ فمن اتبع . الخ .

وفي قوله : « فمن اتبع هداي » نسبة الاتباع الى الهدى على طريق الاستعارة بالكناية ، وأصله : من اتبع الهادي الذي يهدي بهداي .

وقوله : « فلا يضلُّ ولا يشقى » أي لا يضلُّ في طريقه ولا يشقى في غايته التي هي عاقبة أمره ، وإطلاق الضلال والشقاء يقضي بنفي الضلال والشقاء عنه في الدنيا والآخرة جميعاً وهو كذلك فإن الهدى الإلهي هو الدين الفطري الذي دعا اليه بلسان أنبيائه ، ودين الفطرة هو مجموع الاعتقادات والأعمال التي تدعو اليها فطرة الانسان وخلقته بحسب ما جهّز به من الجهازات ، ومن المعلوم أن سعادة كل شيء هو ما تستدعيه خلقته بما لها من التجهيز لا سعادة له وراءه ، قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ﴾ (الروم / ٣٠) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ قال الراغب : العيش الحياة المختصة بالحيوان وهو أخص من الحياة لأن الحياة يقال في الحيوان وفي الباري تعالى وفي الملك ويشتق منه المعيشة لما يتعيّش منه ، قال تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » « معيشة ضنكاً » انتهى . والضنك هو الضيق من كل شيء ويستوي فيه المذكر والمؤنث . يقال : مكان ضنك ومعيشة ضنك وهو في الأصل مصدر ضنك يضنك من باب شرف يشرف أي ضاق .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ يقابل قوله في الآية السابقة : « فمن اتبع هداي » وكان مقتضى المقابلة أن يقال : « ومن لم يتبع هداي » وإنما عدل عنه الى ذكر الإعراض عن الذكر ليشير به الى علة الحكم لأن نسيانه تعالى والاعراض عن ذكره هو السبب لضنك

العيش والعمى يوم القيامة، وليكون توطئة وتمهيداً لما سيذكر من نسيانه تعالى يوم القيامة من نسيه في الدنيا.

والمراد بذكره تعالى اما المعنى المصدري فقوله: «ذكري» من إضافة المصدر الى مفعوله أو القرآن أو مطلق الكتب السماوية كما يؤيده قوله الآتي: «أتتك آياتنا فنسيتها» أو الدعوة الحقة وتسميتها ذكراً لأن لازم اتباعها والأخذ بها ذكره تعالى.

وقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ أي ضيقة وذلك أن من نسي ربه وانقطع عن ذكره لم يبق له إلا أن يتعلق بالدنيا وجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له ويهتم بإصلاح معيشته والتوسع فيها والتمتع منها. والمعيشة التي أوتيها لا تسعه سواء كانت قليلة أو كثيرة لأنه كلما حصل منها واقتناها لم يرض نفسه بها وانتزعت الى تحصيل ما هو أزيد وأوسع من غير أن يقف منها على حد فهو دائماً في ضيق صدر وحنق مما وجد متعلق القلب بما وراءه مع ما يهجم عليه من الهم والغم والحزن والقلق والاضطراب والخوف بنزول النوازل وعروض العوارض من موت ومرض وعاهة وحسد حاسد وكيد كائد وخيبة سعي وفراق حبيب.

ولو أنه عرف مقام ربه ذاكراً غير ناس أيقن أن له حياة عند ربه لا يخالطها موت وملكاً لا يعتريه زوال وعزة لا يشوبها ذلة وفرحاً وسروراً ورفعة وكرامة لا تقدّر بقدر ولا تنتهي الى أمد وأن الدنيا دار مجاز وما حياتها في الآخرة إلا متاع فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قد عرف له من الدنيا ووسعه ما أوتيه من المعيشة من غير ضيق وضنك.

وقيل: المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر وشقاء الحياة البرزخية بناء على أن كثيراً من المعرضين عن ذكر الله ربما نالوا من المعيشة أوسعها وألقت اليهم أمور الدنيا بأزمّتها فهم في عيشة وسيعة سعيدة.

وفيه أنه مبني على مقايسة معيشة الغني من معيشة الفقير بالنظر الى نفس المعيشتين والإمكانات التي فيها ولا يتعلق نظر القرآن بها من هذه الجهة البته. وإنما تبحث الآيات فيها

بمقايسة المعيشة المضافة الى المؤمن وهو مسلح بذكر الله والايمان به من المعيشة المضافة الى الكافر الناسي لربه المتعلق النفس بالحياة الدنيا الأعزل من الايمان ولا ريب أن للمؤمن حياة حرة سعيدة يسعه ما أكرمه ربه به من معيشة وإن كانت بالعفاف والكفاف أو دون ذلك، وليس للمعرض عن ذكر ربه إلا عدم الرضا بما وجد والتعلق بما وراءه.

نعم عذاب القبر من مصاديق المعيشة الضنك بناء على كون قوله: «فإن له معيشة ضنكاً» متعرضاً لبيان حالهم في الدنيا وقوله: «ونحشره يوم القيامة أعمى» لبيان حالهم في الآخرة والبرزخ من أذناب الدنيا.

وقوله: «ونحشره يوم القيامة أعمى» أي بحيث لا يهتدي الى ما فيه سعادته وهو الجنة والدليل على ذلك ما يأتي في الآيتين التاليتين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ يسبق الى الذهن أن عمى يوم القيامة يتعلق ببصر الحس فإن الذي يسأل عنه هو ذهاب البصر الذي كان له في الدنيا وهو بصر الحس دون بصر القلب الذي هو البصيرة. فيشكل عليه ظاهر ما دلّ على أن المجرمين يبصرون يوم القيامة أهوال اليوم وآيات العظمة والقهر كقوله تعالى: ﴿إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ (الم السجدة / ١٢)، وقوله: ﴿اقرء كتابك﴾ (الإسراء / ١٤)، ولذلك ذكر بعضهم أنهم يحشرون أولاً مبصرين ثم يعمون، وبعضهم أنهم يحشرون مبصرين ثم عمياً ثم مبصرين.

وهذا قياس أُمور الآخرة وأحوالها بما لها من نظير في الدنيا وهو قياس مع الفارق فإن من الظاهر المسلّم من الكتاب والسنة أن النظام الحاكم في الآخرة غير النظام الحاكم في الدنيا الذي نألفه من الطبيعة وكون البصير مبصراً لكل مبصر والأعمى غير مدرك لكل ما من شأنه أن يرى كما هو المشهود في النظام الدنيوي لا دليل على عمومه للنظام الاخروي فمن الجائز أن يتبعض الأمر هناك فيكون المجرم أعمى لا يبصر ما فيه سعادة حياته وفلاحه وفوزه

بالكرامة وهو يشاهد ما يتم به الحجة عليه وما يفزعه من أهوال القيامة وما يشتد به العذاب عليه من النار وغيرها. قال تعالى: ﴿إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين / ١٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ الآية جواب سؤال السائل: رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ والاشارة في قوله: «كذلك أتتك» الى حشره أعمى المذكور في السؤال. وفي قوله: «وكذلك اليوم» الى معنى قوله: «أتتك آياتنا فنسيتها» ولمعنى قال: كما حشرناك أعمى أتتك آياتنا فنسيتها وكما أتتك آياتنا فنسيتها ننساك اليوم أي إن حشرك اليوم أعمى وتركك لا تبصر شيئاً مثل تركك آياتنا في الدنيا كما يترك الشيء المنسي وعدم اهتدائك بها مثل تركنا لك اليوم وعدم هدايتك بجعلك بصيراً تهتدي الى النجاة. وبعبارة أخرى إنما جازيناك في هذا اليوم بمثل ما فعلت في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ (الشورى / ٤٠).

وقد سمّى الله سبحانه معصية المجرمين وهم المعرضون عن ذكره التاركون لهداه نسياناً لآياته. ومجازاتهم بالاعماء يوم القيامة نسياناً منه لهم وانعطف بذلك آخر الكلام الى أوله وهو معصية آدم التي سماها نسياناً لعهده إذ قال: «ولقد عهدنا الى آدم فنسي» فكأن قصة جنة آدم بما لها من الخصوصيات كانت مثالاً من قبل يمثل به ما سيجري على بنيه من بعده الى يوم القيامة فيمثل بنهيه عن اقتراب الشجرة الدعوة الدينية وهدى الإلهي بعده. وبمعصيته التي كانت نسياناً للعهد معاصي بنيه التي هي نسيان لذكره تعالى وآياته المذكّرة. وإنما الفرق أن ابتلاء آدم كان قبل تشريع الشرائع فكان النهي المتوجه اليه إرشادياً وما ابتلي به من المخالفة من قبيل ترك الاولى بخلاف الأمر في بنيه[1].

---

١. طه ١١٥ ـ ١٢٦: بحث روائي حول قصة آدم ﷺ. بدء خلق الانسان. من يحشره الله يوم القيامة اعمى.

١٢٧ ۞ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ.

١٢٨ ۞ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ.

١٢٩ ۞ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى.

١٣٠ ۞ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ.

١٣١ ۞ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ.

١٣٢ ۞ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلٰوةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ.

١٣٣ ۞ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ.

١٣٤ ۞ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ.

١٣٥ ۞ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ الاسراف التجاوز عن الحد والظاهر أن الواو في قوله: «وكذلك» للاستيناف، والاشارة الى ما تقدم من مؤاخذة من أعرض عن ذكر الله ونسي آيات ربه فإنه تجاوز منه عن حد العبودية وكفر آيات ربه فجزاؤه جزاء من نسي آيات ربه وتركها بعدما عهد اليه معرضاً عن ذكره.

وقوله: «ولعذاب الآخرة أشد وأبقى» أي من عذاب الدنيا وذلك لكونه محيطاً بباطن الانسان كظاهره ولكونه دائماً لا يزول.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ الخ: الظاهر أن «يهد» مضمّن معنى يبيّن، والمعنى أفلم يبيّن لهم طريق الاعتبار والايمان بالآيات كثرة إهلاكنا القرون التي كانوا قبلهم وهم يمشون في مساكنهم كما كانت تمر أهل مكة في أسفارهم بمساكن عاد بأحقاف اليمن ومساكن ثمود وأصحاب الأيكة بالشام ومساكن قوم لوط بفلسطين «إن في ذلك لآيات لاولي النهى» أي أرباب العقول.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ مقتضى السياق السابق أن يكون «لزاماً» بمعنى الملازمة وهما مصدرا لازم يلازم. والمراد بالمصدر معنى اسم الفاعل وعلى هذا فاسم كان هو الضمير الراجع الى الهلاك المذكور في الآية السابقة. وأن قوله: «وأجل مسمّى» معطوف على «كلمة سبقت» والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمّى لكان الهلاك ملازماً لهم إذ أسرفوا ولم يؤمنوا بآيات ربهم.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ تكررت هذه الكلمة منه سبحانه في حق بني إسرائيل وغيرهم في مواضع من كلامه كقوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي

بينهم﴾ (يونس / ١٩) (هود / ١١٠) (حم السجدة / ٤٥). وقد عيّاها بالأجل المسمّى في قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى لقضي بينهم﴾ (الشورى / ١٤). وقد تقدم في تفسير سورتي يونس وهود أن المراد بها الكلمة التي قضى بها عند إهباط آدم الى الأرض بمثل قوله: ﴿ولكم في الارض مستقر ومتاع إلى حين﴾ (الأعراف / ٢٤).

فالناس آمنون من الهلاك وعذاب الاستئصال على إسرافهم وكفرهم ما بين استقرارهم في الارض وأجلهم المسمى إلا أن يجيئهم رسول فيقضي بينهم. قال تعالى: ﴿ولكل أُمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ (يونس / ٤٧) واليه يرجع عذاب الاستئصال عن الآيات المقترحة إذا لم يؤمن بها بعدما جاءت وهذه الامة حالهم حال سائر الامم في الأمن من عذاب الاستئصال بوعد سابق من الله. وأما القضاء بينهم وبين النبي ﷺ فقد أخّره الله الى أمد كما تقدم استفادته من قوله: ﴿ولكل أُمة رسول﴾ الآية من سورة يونس.

وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ قد تقدم في تفسير أول سورة الأنعام أن الأجل المسمى هو الأجل المعين بالتسمية الذي لا يتخطا ولا يتخلف كما قال تعالى: ﴿ما تسبق من أُمة أجلها وما يستأخرون﴾ (الحجر / ٥). وذكر بعضهم أن المراد بالأجل المسمى يوم القيامة. وقال آخرون: إن الأجل المسمى هو الكلمة التي سبقت من الله فيكون عطف الأجل على الكلمة من عطف التفسير. ولا معوّل على القولين لعدم الدليل.

فمحصل معنى الآية أنه لولا أن الكلمة التي سبقت من ربك ـ وفي إضافة الرب الى ضمير الخطاب إعزاز وتأييد للنبي ﷺ ـ تقضي بتأخير عذبهم والأجل المسمى يعيّن وقته في ظرف التأخير لكان الهلاك ملازماً لهم بمجرد الإسراف والكفر.

ومن هنا يظهر أن مجموع الكلمة التي سبقت والأجل المسمى سبب واحد تام لتأخير العذاب عنهم لا أن كل واحد منها سبب مستقل في ذلك كما اختاره كثير منهم.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ الخ: يأمره بالصبر على ما يقولون ويفرّعه على ما تقدم كأنه قيل: إذا كان من قضاء الله أن يؤخر عذابهم ولا يعاجلهم بالانتقام على ما يقولون فلا يبقى لك إلا أن تصبر راضياً على ما قضاه الله من الأمر وتنزهه عما يقولون من كلمة الشرك ويواجهونك به من السوء، وتحمده على ما تواجهه من آثار قضائه فليس إلا الجميل فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك لعلك ترضى.

وقوله: «وسبّح بحمد ربك» أي نزهه متلبساً بحمده والثناء عليه فإن هذه الحوادث التي يشقّ تحملها والصبر عليها لها نسبة الى فواعلها وليست إلا سيئة يجب تنزيهه تعالى عنها ولها نسبة بالاذن اليه تعالى وهي بهذه النسبة جميلة لا يترتب عليها إلا مصالح عامة يصلح بها النظام الكوني ينبغي أن يحمد الله ويثنى عليه بها.

وقوله: «قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» ظرفان متعلقان بقوله: «وسبح بحمد ربك».

وقوله: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ الجملة نظيرة قوله: ﴿وإياي فارهبون﴾ (البقرة / ٤٠). والآناء على أفعال جمع إني أو إنو بكسر الهمزة بمعنى الوقت و«من» للتبعيض والجار والمجرور متعلق بقوله: «فسبح» دال على ظرف في معناه متعلق بالفعل والتقدير وبعض آناء الليل سبح فيها.

وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ منصوب بنزع الخافض على ما ذكروا معطوف على قوله: «ومن آناء» والتقدير وسبح في أطراف النهار. وهل المراد بأطراف النهار ما قبل طلوع الشمس وما قبل غروبها، أو غير ذلك؟ اختلفت فيه كلمات المفسرين وسنشير اليه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ السياق السابق وقد ذكر فيه إعراضهم عن ذكر ربهم ونسيانهم آياته وإسرافهم في أمرهم وعدم إيمانهم ثم ذكر تأخير الانتقام منهم وأمره بالصبر والتسبيح والتحميد يقضي أن يكون المراد بالرضا الرضا بقضاء الله وقدره، والمعنى: فاصبر

وسبّح بحمد ربك ليحصل لك الرضا بما تقضي الله سبحانه فيعود الى مثل معنى قوله: «واستعينوا بالصبر والصلاة».

والوجه فيه أن تكرار ذكره تعالى بتنزيه فعله عن النقص والشين وذكره بالثناء الجميل والمداومة على ذلك يوجب أنس النفس به وزيادته وزيادة الانس بجمال فعله ونزاهته توجب رسوخه فيها وظهوره في نظرها وزوال الخطورات المشوّشة للإدراك والفكر، والنفس مجبولة على الرضا بما تحبه ولا تحب غير الجميل المنزّه عن القبح والشين فإدامة ذكره بالتسبيح والتحميد تورث الرضا بقضائه.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَٰوةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ الخ: مد العين مد نظرها وإطالته ففيه مجاز عقلي ثم مد النظر وإطالته الى شيء كناية عن التعلق به وحبه، والمراد بالأزدواج ـ كما قيل ـ الأصناف من الكفار أو الأزواج من النساء والرجال منهم ويرجع الى البيوتات وتنكير الأزواج للتقليل وإظهار أنهم لا يعبؤ بهم.

وقوله: «زهرة الحياة الدنيا» بمنزلة التفسير لقوله: «ما متعنا به» وهو منصوب بفعل مقدّر والتقدير نعني به ـ أو جعلنا لهم ـ زهرة الحياة الدنيا وهي زينتها وبهجتها، والفتنة الامتحان والاختبار، وقيل: المراد بها العذاب لأن كثرة الأموال والأولاد نوع عذاب من الله كما قال: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ (التوبة / ٨٥).

وقوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ المراد به بقرينة مقابلته لما متّعوا به من زهرة الحياة الدنيا هو رزق الآخرة وهو خير وأبقى.

والمعنى: لا تطل النظر الى زينة الحياة الدنيا وبهجتها التي متعنا بها أصنافاً أو أزواجاً معدودة منهم لنمتحنهم فيما متعنا به، والذي سيرزقك ربك في الآخرة خير وأبقى.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاٰ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوىٰ﴾الآية ذات سياق يلتئم بسياق سائر آيات السورة فهي مكية كسائرها على أنّا لم نظفر بمن يستثنيها ويعدّها مدنية. وعلى هذا فالمراد بقوله: «أهلك» بحسب انطباقه على وقت النزول خديجة زوج النبي ﷺ وعلي ؑ وكان من أهله وفي بيته أو هما وبعض بنات النبي ﷺ.

وقوله: «لا نسألك رزقاً نحن نرزقك» ظاهر المقابلة بين الجملتين أن المراد سؤال تعالى الرزق لنفسه وهو كناية عن أنّا في غنى منك وأنت المحتاج المفتقر الينا فيكون في معنى قوله: **﴿وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون، ما أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون، إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين﴾** (الذاريات / ٥٦ ـ ٥٨). وأيضاً هو من جهة تذييله بقوله: «والعاقبة للتقوى» في معنى قوله: **﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾** (الحج / ٣٧). بتفسيرهم سؤال الرزق بسؤال الرزق للخلق أو لنفس النبي ﷺ ليس بسديد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولىٰ﴾ حكاية قول مشركي مكة وإنما قالوا هذا تعريضاً للقرآن أنه ليس بآية دالّة على النبوة فليأتنا بآية كل أُرسل الأولون والبيّنة الشاهد المبين أو البيّن وقيل هو البيان.

وكيف كان فقولهم: «لولا يأتينا بآية من ربه» تحضيض بداعي إهانة القرآن وتعجيز النبي ﷺ باقتراح آية معجزة اخرى. وقوله: «أولم تأتهم بينة» الخ؛ جواب عنه ومعناه على الوجه الأول من معنيي البينة: أولم تأتهم بينة وشاهد يشهد على ما في الصحف الاولى ـ وهي التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية ـ من حقائق المعارف والشرائع ويبيّنها وهو القرآن وقد أتى به رجل لا عهد له بعلم يعلمه ولا ملقن يلقنه ذلك.

وعلى الوجه الثاني: أولم يأتهم بيان ما في الصحف الاولى من أخبار الامم الماضين الذين

اقترحوا على أنبيائهم الآيات المعجزة فأتوا بها وكان إتيانها سبباً لهلاكهم واستئصالهم لما لم يؤمنوا بها بعد إذ جاءتهم فلم لا ينتهون عن اقتراح آية بعد القرآن؟ ولكل من المعنيين نظير في كلامه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ الظاهر أن ضمير «من قبله» للبينة ـ في الآية السابقة ـ باعتبار أنها القرآن، والمعنى لا ولو أنّا أهلكناهم لإسرافهم وكفرهم بعذاب من قبل أن تأتيهم البينة لم تتم عليهم الحجة ولكانت الحجة لهم علينا ولقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك وهي التي تدلّ عليها البينة من قبل أن نذلّ بعذاب الاستئصال ونخزى.

وقيل الضمير للرسول المعلوم من مضمون الآية السابقة بشهادة قولهم: «لولا أرسلت إلينا رسولاً» وهو قريب من جهة اللفظ والمعنى الأول من جهة المعنى ويؤيده قوله: «فنتّبع آياتك» ولم يقل: فنتبع رسولك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ التربّص الانتظار، والصراط السوي الطريق المستقيم، وقوله: «كل متربص» أي كل منا ومنكم متربص منتظر فنحن ننتظر ما وعده الله لنا فيكم وفي تقدم دينه وتمام نوره وأنتم تنتظرون بنا الدوائر لتبطلوا الدعوة الحقة وكل منا ومنكم يسلك سبيلاً الى مطلوبه فتربصوا وانتظروا وفيه تهديد فستعلمون أي طائفة منا ومنكم أصحاب الطريق المستقيم الذي يوصله الى مطلوبه ومن الذين اهتدوا الى المطلوب وفيه ملحمة وإخبار بالفتح.

سورة الأنبياء مكية وهي مائة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ.

٢ ❁ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ.

٣ ❁ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هٰذا إِلاَّ بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ.

٤ ❁ قالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ.

٥ ❁ بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ ٱفْتَرِيهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ
كَما أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ.

٦ ❁ ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ.

٧ ❁ وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ

إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ.

٨ ● وَمٰا جَعَلْنٰاهُمْ جَسَداً لاٰ يَأْكُلُونَ الطَّعٰامَ وَمٰا كٰانُوا خٰالِدِينَ.

٩ ● ثُمَّ صَدَقْنٰاهُمُ اَلْوَعْدَ فَأَنْجَيْنٰاهُمْ وَمَنْ نَشٰاءُ وَأَهْلَكْنَا
اَلْمُسْرِفِينَ.

١٠ ● لَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ كِتٰاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ.

١١ ● وَكَمْ قَصَمْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ كٰانَتْ ظٰالِمَةً وَأَنْشَأْنٰا بَعْدَهٰا قَوْماً
آخَرِينَ.

١٢ ● فَلَمّٰا أَحَسُّوا بَأْسَنٰا إِذٰا هُمْ مِنْهٰا يَرْكُضُونَ.

١٣ ● لاٰ تَرْكُضُوا وَاَرْجِعُوا إِلىٰ مٰا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسٰاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْأَلُونَ.

١٤ ● قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا إِنّٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ.

١٥ ● فَمٰا زٰالَتْ تِلْكَ دَعْوٰيهُمْ حَتّٰى جَعَلْنٰاهُمْ حَصِيداً خٰامِدِينَ.

بيان:

غرض السورة الكلام حول النبوة بانياً ذلك على التوحيد والمعاد فتفتتح بذكر اقتراب الحساب وغفلة الناس عن ذلك وإعراضهم عن الدعوة الحقة التي تتضمن الوحي السماوي فهي ملاك حساب يوم الحساب وتنتقل من هناك الى موضوع النبوة واستهزاء الناب بنبوة النبي ﷺ ورميهم إياه بأنه بشر ساحر بل ما أتى به أضغاث أحلام بل مفتر بل شاعر! فترد ذلك بذكر أوصاف الأنبياء الماضين الكلية إجمالاً وأن النبي لا يفقد شيئاً مما وجدوه ولا ما جاء به يغاير شيئاً مما جاؤا به.

ثم تذكر قصص جماعة من الأنبياء تأييداً لما تقدم من الإجمال وهم موسى وهارون وابراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون وزكريا ويحيى وعيسى.

ثم تتخلص الى ذكر يوم الحساب وما يلقاه المجرمون والمتقون فيه، وأن العاقبة للمتقين وأن الأرض يرثها عباده الصالحون ثم تذكر أن إعراضهم عن النبوة إنما هو لإعراضهم عن التوحيد فتقيم الحجة على ذلك كما تقيمها على النبوة والغلبة في السورة للوعيد على الوعد وللإنذار على التبشير. والسورة مكية بلا خلاف فيها وسياق آياتها يشهد بذلك.

قوله تعالى: ﴿إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ الاقتراب افتعال من القرب واقترب وقرب بمعنى واحد غير أن اقترب أبلغ لزيادة بنائه ويدل على مزيد عناية بالقرب. ويتعدى القرب والإقتراب بمن وإلى يقال: قرب أو اقترب زيد من عمرو أو إلى عمرو والأول يدل على أخذ نسبة القرب من عمرو والثاني على أخذها من زيد لأن الأصل في معنى من ابتداء الغاية كما أن الأصل في معنى الى انتهاؤها.

ومن هنا يظهر أن اللام في «للناس» بمعنى إلى لا بمعنى «من» لأن المناسب للمقام أخذ نسبة الاقتراب من جانب الحساب لأنه الذي يطلب الناس بالإقتراب منهم والناس في غفلة معرضون.

والمراد بالحساب ـ وهو محاسبة الله سبحانه أعمالهم يوم القيامة ـ نفس الحساب لا زمانه بنحو التجوز أو بتقدير الزمان وإن أصرّ بعضهم عليه ووجّهه بعض آخر بأن الزمان هو الأصل في القرب والبعد وإنما ينسب القرب والبعد إلى الحوادث الواقعة فيه بتوسطه.

وذلك لأن الغرض في المقام متعلق بتذكرة نفس الحساب لتعلقه بأعمال الناس إذ كانوا مسؤلين عن أعمالهم فكان من الواجب في الحكمة أن ينزل عليهم ذكر من ربهم ينبههم على ما فيه مسؤليتهم، ومن الواجب عليهم أن يستمعوا له مجدين غير لاعبين ولا لاهية قلوبهم نعم

لو كان الكلام مسوقاً لبيان أهوال الساعة وما أُعدّ من العذاب للمجرمين كان الأنسب التعبير بيوم الحساب أو تقدير الزمان ونحو ذلك.

والمراد بالناس الجنس وهو المجتمع البشري الذي كان أكثرهم مشركين يومئذ لا المشركون خاصة وإن كان ما ذكر من أوصافهم كالغفلة والإعراض والإستهزاء وغيرها أوصاف المشركين فليس ذلك من نسبة حكم البعض الى الكل مجازاً بل من نسبة حكم المجتمع الى نفسه حقيقة ثم استثناء البعض الذي لا يتصف بالحكم كما يلوّح اليه أمثال قوله: «وأسرّوا النجوى الذين ظلموا» وقوله: «فأنجيناهم ومن نشاء» على ما هو دأب القرآن في خطاباته الاجتماعية من نسبة الحكم الى المجتمع ثم استثناء الأفراد غير المتصفة به.

وبالجملة فرق بين أخذ المجتمع موضوعاً للحكم واستثناء أفراد منه غير متصفة به وبين أخذ أكثر الأفراد موضوع الحكم ثم نسبة حكمه الى الكل مجازاً وما نحن فيه من القبيل الأول دون الثاني.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ ذلك أنهم تعلقوا بالدنيا واشتغلوا بالتمتع فامتلأت قلوبهم من حبها فلم يبق فيها فراغ يقع فيها ذكر الحساب وقوعاً تتأثر به حتى أنهم لو ذكّروا لم يذكروا وهو الغفلة فإن الشيء كما يكون مغفولاً عنه لعدم تصوّره من أصله قد يكون مغفولاً عنه لعدم تصوره كما هو حقه بحيث تتأثر النفس به.

قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ الآية بمنزلة التعليل لقوله: «وهم في غفلة معرضون» إذ لو لم يكونوا في غفلة معرضين لم يلعبوا ولم يتلهّوا عند استماع الذكر الذي لا ينبههم إلا على ما يهمهم التنبيه له ويجب عليهم التهيؤ له، ولذلك جيء بالفصل من غير عطف.

والمراد بالذكر ما يذكر به الله سبحانه من وحي إلهي كالكتب السماوية ومنها القرآن الكريم، والمراد بإتيانه لهم نزوله على النبي وإسماعه وتبليغه، ومحدث بمعنى جديد وهو معنى إضافي وهو

وصف ذكر فالقرآن مثلاً ذكر جديد أتاهم بعد الانجيل والإنجيل كان ذكراً جديداً أتاهم بعد التوراة وكذلك بعض سور القرآن وآياته ذكر جديد أتاهم بعد بعض.

وقوله: ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ استثناء مفرّغ عن جميع أحوالهم و«استمعوه» حال و«هم يلعبون» «لاهية قلوبهم» حالان من ضمير الجمع في «استمعوه» فهما حالان متداخلتان.

واللعب فعل منتظم الأجزاء لا غاية له إلا الخيال كلعب الأطفال واللهو اشتغالك عما يهمك يقال: ألها كذا أي شغله عما يهمه ولذلك تسمى آلات الطرب آلات اللهو وملاهي. واللهو من صفة القلب ولذلك قال: «لاهية قلوبهم» فنسبه الى قلوبهم.

ومعنى الآية: وما يأتيهم ـ بالنزول والبلوغ ـ ذكر جديد من ربهم في حال من الأحوال إ: والحال أنهم لاعبون لاهية قلوبهم فاستمعوه فيها أي إن إحداث الذكر وتجديده لا يؤثر فيهم ولا أثراً قليلاً ولا يمنعهم عن الإشتغال بلعب الدنيا عما وراءها وهذا كناية عن أن الذكر لا يؤثر فيهم في حال لا أن جديده لا يؤثر وقديمه يؤثر وهو ظاهر.

واستدل بظاهر الآية على كون القرآن محدثاً غير قديم، وأولها الأشاعرة بأن توصيف الذكر بالحدث من جهة نزوله وهو لا ينافي قدمه في نفسه وظاهر الآية عليهم وللكلام تتمة نوردها في بحث مستقل[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ الإسرار يقابل الإعلان فإسرار القول يفيد وحده معنى النجوى فإضافته الى النجوى تفيد المبالغة.

وضمير الفاعل في «أسرّوا النجوى» راجع الى الناس غير أنه لما لم يكن الفعل فعلاً لجميعهم ولا لأكثرهم فإن فيهم المستضعف ومن لا شغل له به وإن كان منسوباً الى الكل من

---

١. الانبياء ١ ـ ١٥: كلام في معنى حدوث الكلام وقدمه في فصول.

جهة ما في مجتمعهم من الغفلة والإعراض أوضح النسبة بقوله: «الذين ظلموا» فهو عطف بيان دل به على أن النجوى إنما كان من الذين ظلموا منهم خاصة.

وقوله: «هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون» هو الذي تناجوا به، وقد كانوا يصرحون بتكذيب النبي ﷺ ويعلنون بأنه بشر وأن القرآن سحر من غير أن يخفوا شيئاً من ذلك لكنهم إنما أسرّوا في نجواهم إذ كان ذلك منهم شورى يستشير بعضهم فيه بعضاً ماذا يقابلون به النبي ﷺ ويجيبون عما يسألهم من الإيمان بالله وبرسالته؟ فما كان يسعهم إلا كتمان ما يذكر فيما بينهم وإن كانوا أعلنوا به بعد الاتفاق على رد الدعوة.

وقد اشتمل نجواهم على قولين قطعوا عليهما أوردوهما بطريق الاستفهام الإنكاري وهما قوله: «هل هذا إلا بشر مثلكم» وقد اتخذوه حجة لإبطال نبوّته وهو أنه كما تشاهدونه ـ وقد أتوا باسم الإشارة دون الضمير فقالوا: هل هذا؟ ولم يقولوا: هل هو؟ للدلالة على العلم به بالمشاهدة ـ بشر مثلكم لا يفارقكم في شيء يختص به فلو كان ما يدّعيه من الإتصال بالغيب والإرتباط باللاهوت حقاً لكان عندكم مثله لأنكم بشر مثله، فإذ ليس عندكم من ذلك نبأ فهو مثلكم لا خبر عنده فليس بنبي كما يدّعي.

وقولهم: «أفتأتون السحر وأنتم تبصرون» وهو تفرع بفاء التفريع على نفي النبوة بإثبات البشرية فيرجع المعنى الى أنه لما لم يكن نبياً متصلاً بالغيب فالذي أتاكم به مدّعياً أنه آية النبوة ليس بآية معجزة من الله بل سحر تعجزون عن مثله، ولا ينبغي لذي بصر سليم أن يذعن بالسحر ويؤمن بالساحر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي إنه تعالى محيط علماً بكل قول سراً أو جهراً وفي أي مكان وهو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم فالأمر اليه وليس لي من الأمر شيء.

والآية حكاية قول النبي ﷺ لهم لما أسرّوا النجوى وقطعوا على تكذيب نبوته ورمي

آيته وهو كتابه بالسحر وفيها إرجاع الأمر وإحالته الى الله سبحانه كما في غالب الموارد التي اقترحوا عليه فيها الآية وكذلك سائر الأنبياء كقوله: ﴿قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ (الملك / ٢٦)، وقوله: ﴿قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أُرسلت به﴾ (الأحقاف / ٢٣)، وقوله: ﴿قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ (العنكبوت / ٥٠).

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ تدرّج منهم في الرمي والتكذيب. فقولهم: أضغات أحلام أي تخاليط من رؤى غير منظمة رآها فحسبها نبوة وكتاباً فأمره أهون من السحر. وقولهم: «بل افتراه» ترقٍّ من سابقه فإن كونه أضغاث أحلام كان لازمه التباس الأمر واشتباهه عليه لكن الافتراء يستلزم التعمد. وقولهم: «بل هو شاعر» ترقٍّ من سابقه من جهة أُخرى فإن المفتري إنما يقول عن تروٍّ وتدبر فيه لكن الشاعر إنما يلفظ ما يتخيله ويروم ما يزينه له إحساسه من غير ترو وتدبر فربما مدح القبيح على قبحه وربما ذم الجميل على جماله. وربما أنكر الضروري وربما أصر على الباطل المحض، وربما صدق الكذب أو كذّب الصدق.

وقولهم: «فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون» الكلام متفرع على ما تقدمه والمراد بالأولين الأنبياء الماضون أي إذا كان هذا الذي أتى به وهو يعدّه آية وهو القرآن أضغاث أحلام أو افتراء أو شعر فليس يتم بذلك دعواه النبوة ولا يقنعنا ذلك فليأتنا بآية كما أتى الأولون من الآيات مثل الناقة والعصا واليد البيضاء.

وفي قوله: «كما أُرسل الأولون» وكان الظاهر من السياق أن يقال: كما أتى بها الأولون إشارة الى أن الآية من لوازم الإرسال فلو كان رسولاً فليقتد بالأولين فيما احتجوا به على رسالتهم.

قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ رد وتكذيب لما يشتمل عليه قولهم: «فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون» من الوعد الضمني بالايمان لو أتى

بشيء مما اقترحوه من آيات الأولين.

ومحصل المعنى على ما يعطيه السياق أنهم كاذبون في وعدهم ولو أنزلنا شيئاً مما اقترحوه من آيات الأولين لم يؤمنوا بها وكان فيها هلاكهم فإن الأولين من أهل القرى اقترحوها فأنزلناها فلم يؤمنوا بها فأهلكناهم، وطباع هؤلاء طباع أوليهم في الإسراف والإستكبار فليسوا بمؤمنين فالآية بوجه مثل قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ (يونس / ٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ جواب عما احتجوا به على نفي نبوته ﷺ بقولهم: «هل هذا إلا بشر مثلكم» بأن الماضين من الأنبياء لم يكونوا إلا رجالا من البشر فالبشرية لا تنافي النبوة.

وتوصيف «رجالا» بقوله: «نوحي اليهم» للإشارة الى الفرق بين الأنبياء وغيرهم ومحصلة أن الفرق الوحيد بين النبي وغيره هو أنّا نوحي الى الأنبياء دون غيرهم والوحي موهبة ومن خاص لا يجب أن يعم كل بشر فيكون إذا تحقق تحقق في الجميع وإذا لم يوجد في واحد لم يوجد في الجميع حتى تحكموا بعدم وجدانه عندكم على عدم وجوده عند النبي ﷺ وذلك كسائر الصفات الخاصة التي لا توجد إلا في الواحد بعد الواحد من البشر ما لا سبيل الى إنكارها.

وقوله: «فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» تأييد وتحكيم لقوله: «وما أرسلنا قبلك إلا رجالا» أي إن كنتم تعلمون به فهو وإن لم تعلموا فارجعوا اى أهل الذكر واسألوهم هل كانت الأنبياء الأولون إلا رجالا من البشر؟.

والمراد بالذكر الكتاب السماوي وبأهل الذكر أهل الكتاب فإنهم كانوا يشايعون المشركين في عداوة النبي ﷺ وكان المشركون يعظمونهم وربما شاوروهم في أمره وسألوهم عن مسائل يمتحنونه بها وهم القائلون للمشركين على المسلمين ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا

سبيلاً﴾ (النساء / ٥١). والخطاب في قوله: «فسألوا» الخ: للنبي ﷺ وكل من يقرع سمعه هذا الخطاب عالماً كان أو جاهلاً وذلك لتأييد القول وهو شائع في الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ـ الى قوله ـ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي هم رجال من البشر وما سلبنا عنهم خواص البشرية بأن نجعلهم جسداً خالياً من روح الحياة لا يأكل ولا يشرب ولا عصمناهم من الموت فيكونوا خالدين بل هم بشر ممن خلق يأكلون الطعام وهو خاصة ضرورية ويموتون وهو مثل الأكل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ عطف على قوله المتقدم: «وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً» وفيه بيان عاقبة إرسالهم وما انتهى اليه أمر المسرفين من أممهم المقترحين عليهم الآيات، وفيه أيضاً توضيح ما أُشير اليه من هلاكهم في قوله: «من قرية أهلكناها» وتهديد للمشركين.

والمراد بالوعد في قوله: «ثم صدقناكم الوعد» ما وعدهم من النصرة لدينهم وإعلاء كلمتهم كلمة الحق كما في قوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (الصافات / ١٧٣)، الى غير ذلك من الآيات.

وقوله: «فأنجيناهم ومن نشاء» أي الرسل والمؤمنين وقد وعدهم النجاة كما تدلّ عليه قوله: ﴿حقاً علينا ننج المؤمنين﴾ (يونس / ١٠٣). والمسرفون هم المشركون المتعدّون طور العبودية، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ امتنان منه تعالى بإنزال القرآن على هذه الامة. فالمراد بذكرهم الذكر المختص بهم اللائق بحالهم وهو آخر ما تسعه حوصلة الإنسان من المعارف الحقيقية العالية وأقوم ما يمكن أن يجري في المجتمع البشري من الشريعة الحنيفية والخطاب لجميع الامة.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ الى آخر الآيات الخمس.

القصم في الأصل الكسر. يقال: قصم ظهره أي كسره، ويكنى به عن الهلاك. والإنشاء الإيجاد. والإحساس الإدراك من طريق الحس. والبأس العذاب. والركض العدو بشدة الوطء. والإتراف التوسعة في النعمة. والحصيد المقطوع ومنه حصاد الزرع. والخمود السكون والسكوت.

والمعنى «وكم قصمنا» وأهلكنا «من قرية» أي أهلها «كانت ظالمة» لنفسها بالإسراف والكفر «وأنشأنا» وأوجدنا «قوماً آخرين فلما أحسُّوا» ووجدوا بالحس أي أهل القرية الظالمة «بأسنا» وعذابنا «إذا هم منها يركضون» ويعدون هاربين كالمنهزمين فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: «لا تركضوا منها وارجعوا الى ما أُترفتم فيه» من النعم «ومساكنكم» والى مساكنكم «لعلكم تسألون» أي لعل المساكين وأرباب الحوائج يهجمون عليكم بالسؤال فتستكبروا عليهم وتختالوا أو تحتجبوا عنهم وهذا كناية عن اعتزازهم واستعلائهم وعدّ المتبوعين أنفسهم أرباباً للتابعين من دون الله.

«قالوا» تندّماً «يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك» وهي كلمتهم يا ويلنا المشتملة على الاعتراف بربوبيته تعالى وظلم أنفسهم «دعواهم حتى جعلناهم حصيداً» محصوداً مقطوعاً «خامدين» ساكتين ساكتين كما تخمد النار لا يسمع لهم صوت ولا يذكر لهم صيت.

١٦ ◉ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاٰعِبِينَ.

١٧ ◉ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ.

١٨ ◉ بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ.

١٩ ◉ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبادَتِهِ وَلاٰ يَسْتَحْسِرُونَ.

٢٠ ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَالنَّهارَ لاٰ يَفْتُرُونَ.

٢١ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ ٱلْأَرضِ هُمْ يُنْشِرُونَ.

٢٢ ﴿ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا ٱللّٰهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ ٱللّٰهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمّا يَصِفُونَ.

٢٣ ﴿ لاٰ يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.

٢٤ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هٰذا ذِكْرُ مَنْ
مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُمْ
مُعْرِضُونَ.

٢٥ ﴿ وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ
أَنَا فاعْبُدُونِ.

٢٦ ﴿ وَقالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ.

٢٧ ﴿ لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ.

٢٨ ﴿ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ٱرْتَضىٰ
وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ.

٢٩ ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ
نَجْزِي الظّالِمِينَ.

٣٠ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً
فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ ٱلْماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ أَفَلاٰ يُؤْمِنُونَ.

٣١ ۞ وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.

٣٢ ۞ وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ.

٣٣ ۞ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا إِنْ كُنّا فاعِلِينَ﴾ الآيتان توجهان نزول العذاب على القرى الظالمة التي ذكر الله سبحانه قصصها. وهما بعينهما ـ على ما يعطيه السياق السابق ـ حجة برهانية على ثبوت المعاد ثم في ضوئه النبوة وهي الغرض الأصيل من سرد الكلام في السورة.

فمحصل ما تقدم ـ أن هناك معاداً سيحاسب فيه أعمال الناس فمن الواجب أن يميزوا بين الخير والشر وصالح الأعمال وطالحها بهداية إلهية وهي الدعوة الحلقة المعتمدة على النبوة ولولا ذلك لكانت الخالقة عبثاً وكان الله سبحانه لاعباً لاهياً بها تعالى عن ذلك.

فمقام الآيتين ـ كما ترى ـ مقام الاحتجاج على حقيّة المعاد لتثبت بها حقية دعوة النبوة لأن دعوة النبوة ـ على هذا ـ من مقتضيات المعاد من غير عكس.

وحجة الآيتين ـ كما ترى ـ تعتمد على معنى اللعب واللهو واللعب هو الفعل المنتظم الذي له غاية خيالية غير واقعية كملاعب الصبيان التي لا أثر لها إلا مفاهيم خيالية من تقدم وتأخر وربح وخسارة ونفع وضرر كلها بحسب الفرض والتوهم وإذ كان اللعب بما تنجذب النفس

اليه يصرفها عن الأعمال الواقعية فهو من مصاديق اللهو هذا.

فلو كان خلق العالم المشهود لا لغاية يتوجه اليها ويقصد لأجلها وكان الله سبحانه لا يزال يوجد ويعدم ويحيي ويميت ويعمّر ويخرب لا لغاية تترتب على هذه الأفعال ولا لغرض يعمل لأجله ما يعمل بل إنما يفعلها لأجل نفسها ويريد أن يراها واحداً بعد واحد فيشتغل بها دفعاً لضجر أو ملل أو كسل أو فراراً من الوحدة أو انطلاقاً من الخلوة كحالنا نحن إذا اشتغلنا بعمل نلعب به ونتلهى لندفع به نقصاً طرأ علينا وعارضة سوء لا نستطيبها لأنفسنا من ملال أو كلال أو كسل أو فشل ونحو ذلك.

فاللعب بنظر آخر لهو. ولذلك نراه سبحانه عبّر في الآية الاولى باللعب «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين» ثم بدّله ـ في الآية الثانية التي هي في مقام التعليل لها ـ لهواً فوضع اللهو مكان اللعب لتتم الحجة.

وتلهّيه تعالى بشيء من خلقه محال لأن اللهو لا يتمّ لهواً إلا برفع حاجة من حوائج اللاهي ودفع نقيصة من نقائصه نفسه فهو من الأسباب المؤثرة. ولا معنى لتأثير خلقه تعالى فيه واحتياجه الى ما هو محتاج من كل جهة اليه فلو فرض تلهّيه تعالى بلهو لم يجز أن يكون أمراً خارجاً من نفسه، وخلقه فعله، وفعله خارج من نفسه، بل وجب أن يكون بأمر غير خارج من ذاته.

وبهذا يتم البرهان على أن الله ما خلق السماء والارض وما بينهما لعباً ولهواً وما أبدعها عبثاً ولغير غاية وغرض. وهو قوله: «لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنّا».

وأما اللهو بأمر غير خارج عن ذاته فهو وإن كان محالاً في نفسه لاستلزامه حاجة في ذاته الى ما يشغله ويصرفه عما يجده في نفسه فيكون ذاته مركبة من حاجة حقيقية متقررة فيها وأمر رافع لتلك الحاجة، ولا سبيل للنقص والحاجة الى ذاته المتعالية لكن البرهان لا يتوقف عليه لأنه في مقام بيان أن لا لعب ولا لهو في فعله تعالى وهو خلقه، وأما أنه لا لعب ولا لهو في

ذاته تعالى فهو خارج عن غرض المقام وإنما أُشير الى نفي هذا الاحتمال بالتعبير بلفظة «لو» الدالّة على الامتناع ثم أكده بقوله: «إن كنا فاعلين» فافهم ذلك.

وبهذا البيان يظهر أن قوله: «لو أردنا» الخ؛ في مقام التعليل للنفي في قوله: «وما خلقنا» الخ؛ وأن قوله: «من لدنّا» معناه من نفسنا، وفي مرحلة الذات دون مرحلة الخلق الذي هو فعلنا الخارج من ذاتنا، وأن قوله: «إن كنا فاعلين» إشارة استقلالية الى ما يدلّ عليه لفظة «لو» في ضمن الجملة فيكون نوعاً من التأكيد.

وبهذا البيان يتم البرهان على المعاد ثم النبوة ويتصل الكلام بالسياق المتقدم ومحصله أن للناس رجوعاً الى الله وحساباً على أعمالهم ليجازوا عليها ثواباً وعقاباً فمن الواجب أن يكون هناك نبوة ودعوة ليدلّوا بها الى ما يجازون عليه من الاعتقاد والعمل فالمعاد هو الغرض من الخلقة الموجب للنبوة ولو لم يكن معاد لم يكن للخلقة غرض وغاية فكانت الخلقة لعباً ولهواً منه تعالى وهو غير جائز، ولو جاز عليه اتخاذ اللهو لوجب أن يكون بأمر غير خارج من نفسه لا بالخلق الذي هو فعل من ذاته لأن من المحال أن يؤثر غيره فيه ويحتاج الى غيره بوجه وإذ لم يكن الخلق لعباً فهناك غاية وهو المعاد ويستلزم ذلك النبوة ومن لوازمه أيضاً نكال بعض الظالمين إذا ما طغوا وأسرفوا وتوقف عليه إحياء الحق كما يشير اليه قوله بعد: «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق».

وقوله: «إن كنا فاعلين» الظاهر أن «إنْ» شرطية كما تقدمت الإشارة اليه، وعلى هذا فجزاؤه محذوف يدلّ عليه قوله: «لاتخذناه من لدنا»، وقال بعضهم: إن «إنْ» نافية والجملة نتيجة البيان السابق، وعن بعضهم أنّ إنْ النافية لا تفارق غالباً اللام الفارقة، وقد ظهر مما تقدم من معنى الآية أن كون إنْ شرطية أبلغ بحسب المقام من كونها نافية.

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَىٰ ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ القذف الرمي البعيد، والدمغ ـ على ما في مجمع البيان ـ شجّ الرأس

حتى يبلغ الدماغ. يقال: دمغه يدمغه إذا أصاب دماغه. وزهوق النفس تلفها وهلاكها، يقال: زهق الشيء يزهق أي هلك.

والحق والباطل مفهومان متقابلان، فالحق هو الثابت العين. والباطل ما ليس له عين ثابتة لكنه يتشبّه بالحق تشبُّهاً فيظن أنه هو حتى إذا تعارضا بقي الحق وزهق الباطل كالماء الذي هو حقيقة من الحقائق، والسراب الذي ليس بالماء حقيقة لكنه يتشبّه به في نظر الناظر فيحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

والمعنى: ما خلقنا العالم لعبً أو لم نرد اتخاذ اللهو بل سنّتنا أن نرمي بالحق على الباطل رمياً بعيداً فيهلكه فيفاجئه الذهاب والتلف. فإن كان الباطل حجة أو عقيدة فحجة الحق تبطلها، وإن كان عملاً وسنّة كما في القرى المسرفة الظالمة فالعذاب المستأصل يستأصله ويبطله، وإن كان غير ذلك فغير ذلك.

وقوله: «ولكم الويل مما تصفون» وعيد للناس المنكرين للمعاد والنبوة على ما تقدم من توضيح مقتضى السياق.

ويظهر من الآية حقيقة الرجوع الى الله تعالى وهو أنه تعالى لا يزال يقذف بالحق على الباطل فيحق الحق ويخلّصه من الباطل الذي يشوبه أو يستره حتى لا يبقى إلا الحق المحض وهو الله الحق عزّ اسمه قال: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ (النور / ٢٥). فيسقط يومئذ ما كان يظن للأسباب من استقلال التأثير ويزعم لغيره من القوة والملك والأمر كما قال: ﴿لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾ (الأنعام / ٩٤). وقال: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ (البقرة / ١٦٥). وقال: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾ (المؤمن / ١٦). وقال: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ (الإنفطار / ١٩). والآيات المشيرة الى هذا المعنى كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دفع لأحد الاحتمالات المنافية للمعاد في الجملة وهو أن لا يتسلط سبحانه على بعض أو كل الناس فينحو من لا يملكه من

الرجوع اليه والحساب والجزاء فاجيب بأن ملكه تعالى عام شامل لجميع من في السماوات والأرض فله أن يتصرف فيها أي تصرف أراد.

ومن المعلوم أن هذا الملك حقيقي من لوازم الايجاد بمعنى قيام الشيء بسببه الموجد له بحيث لا يعصيه في أي تصرّف تصرّف فيه. والايجاد يختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه غيره حتى عند الوثنيين المثبتين لآلهة اخرى للتدبير والعبادة فكل من في السماوات والأرض مملوك لله لا مالك غيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ الى آخر الآية التالية. قال في مجمع البيان: الاستحسار الانقطاع عن الاعياء يقال: بعير حسير أي مُعي، وأصله من قولهم: حسر عن ذراعيه، فالمعنى أنه كشف قوته باعياء. انتهى.

والمراد بقوله: «ومن عنده» المخصوصون بموهبة القرب والحضور وربما انطبق على الملائكة المقرَّبين. وقوله: «يسبّحون الليل والنهار لا يفترون» بمنزلة التفسير لقوله: «ولا يستحسرون» أي لا يأخذهم عيّ وكلال بل يسبحون الليل والنهار من غير فتور. والتسبيح بالليل والنهار كناية عن دوام التسبيح من غير انقطاع.

يصف تعالى حال المقرَّبين من عباده والمكرمين من ملائكته أنه مستغرقون في عبوديته مكبُّون على عبادته لا يشغلهم عن ذلك شاغل ولا يصرفهم صارف، وكأن الكلام مسوق لبيان خصوصية مالكيته وسلطنته المذكورة في صدر الآية.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ الانشار إحياء الموتى فالمراد به المعاد. وفي الآية دفع احتمال آخر ينافي المعاد والحساب المذكور سابقاً وهو الرجوع الى الله بأن يقال: إن هناك آلهة أُخرى دون الله يبعثون الأموات ويحاسبونهم وليس لله سبحانه من أمر المعاد شيء حتى نخافه ونضطر الى إجابة رسله واتباعهم في دعوتهم بل نعبدهم ولا جناح.

وتقييد قوله: «أم اتخذوا آلهة» بقوله: «من الأرض» قيل: ليشير به الى أنهم إذا كانوا من الأرض كان حكمهم حكم عامة أهل الأرض من الموت ثم البعث فمن الذي يميتهم ثم يبعثهم؟.

ويمكن أن يكون المراد اتخاذ آلهة من جنس الأرض كالأصنام المتخذة من الحجارة والخشب والفلزات فيكون فيه نوع من التهكم والتحقير ويؤول المعنى الى أن الملائكة الذيه هم الآلهة عندهم إذا كانوا من عباده تعالى وعبّاده وانقطع هؤلاء عنهم ويئسوا من أُلوهيتهم ليلتجئوا اليهم في أمر المعاد فهل يتخذون أصنامهم وتماثيلهم آلهة من دون الله مكان أرباب الأصنام والتماثيل.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ قد تقدم في تفسير سورة هود وتكرر الإشارة اليه بعده أن النزاع بين الوثنيين والموحدين ليس في وحدة الإله وكثرته بمعنى الواجب الوجود الموجود لذاته الموجد لغيره فهذا مما لا نزاع في أنه واحد لا شريك له. وإنما النزاع في الإله بمعنى الرب المعبود والوثنيون على أن تدبير العالم على طبقات أجزائه مفوضة الى موجودات شريفة مقربين عند الله ينبغي أن يعبدوا حتى يشفعوا لعبادهم عند الله ويقربوهم اليه زلفى كرب السماء ورب الأرض ورب الإنسان وهكذا وهم آلهة من دونهم والله سبحانه إله الآلهة وخالق الكل كما يحكيه عنهم قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ (الزخرف / ٨٧) وقوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهنّ العزيز العليم﴾ (الزخرف / ٩).

والآية الكريمة إنما تنفي الآلهة من دون الله في السماء والأرض بهذا المعنى لا بمعنى الصانع الموجد الذي لا قائل بتعدده. والمراد بكون الإله في السماء والأرض تعلّق أُلوهيته بالسماء والأرض لأسكناه فيهما فهو كقوله تعالى: ﴿هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ (الزخرف / ٨٤).

وتقرير حجة الآية أنه لو فرض للعالم آلهة فوق الواحد لكانوا مختلفين ذاتاً متباثنين حقيقة وتباين حقائقهم يقضي بتباين تدبيرهم فيتفاسد التدبيرات وتفسد السماء والأرض لكن النظام الجاري نظام واحد متلائم الأجزاء في غاياتها فليس للعالم آلهة فوق الواحد وهو المطلوب.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه له تعالى عن وصفهم وهو أن معه آلهة هم ينشرون أو أن هناك آلهة من دونه يملكون التدبير في ملكه فالعرش كناية عن الملك، وقوله: «عما يصفون» «ما» فيه مصدرية والمعنى: عن وصفهم.

وللكلام تتمة ستوافيك.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ الضمير في «لا يسئل» له تعالى بلا إشكال، والضمير في «وهم يسئلون» للآلهة الذين يدعونهم أو للآلهة والناس جميعاً أو للناس فقط. وأحسن الوجوه أولها لأن ذلك هو المناسب للسياق والكلام في الآلهة الذين يدعونهم من دونه، فهم المسؤلون والله سبحانه لا يُسئل عن فعله.

والسؤال عن الفعل هو قولنا لفاعله: لمَ فعلت كذا؟ وهو سؤال عن جهة المصلحة في الفعل فإن الفعل المقارن للمصلحة لا مؤاخذة عليه عند العقلاء، والله سبحانه لما كان حكيماً على الإطلاق كما وصف به نفسه في مواضع من كلامه، والحكيم هو الذي لا يفعل فعلاً إلا لمصلحة مرجحة لا جرم لم يكن معنى للسؤال عن فعله بخلاف غيره فإن من الممكن في حقهم أن يفعلوا الحق والباطل وأن يقارن فعلهم المصلحة والمفسدة فجاز في حقهم السؤال حتى يؤاخذوا بالذم العقلي أو العقاب المولوي إن لم يقارن الفعل المصلحة.

هذا ما ذكره جماعة من المفسرين في توجيه الآية وهو معنى صحيح في الجملة لكن يبقى عليه أمران:

الأمر الأول: أن الآية مطلقة لا دليل فيها من جهة اللفظ على كون المراد فيها هو هذا المعنى

فإن كون المعنى صحيحاً في نفسه لا يستلزم كونه هو المراد من الآية .

ولذلك وجه بعضهم عدم السؤال بأنه مبني على كون أفعال الله لا تعلل بالأغراض لأن الغرض ما يبعث الفاعل الى الفعل ليستكمل به وينتفع وإذ كان تعالى أجل من أن يحتاج الى ما هو خارج عن ذاته ويستكمل بالانتفاع من غيره فلا يقال له : لم فعلت كذا سؤالاً عن الغرض الذي دعاه الى الفعل .

وإن رد بأن الفاعل التام الفاعلية إنما يصدر عنه الفعل لذاته فذاته هي غايته وغرضه في فعله من غير حاجة الى غرض خارج عن ذاته كالانسان البخيل الذي يكثر الإنفاق ليحصل ملكة الجود حتى إذا حصلت الملكة صدر عنها الإنفاق لذاتها لا لتحصيل ما هو حاصل فنفسها غاية لها في فعلها .

ولذلك أيضاً وجه بعض آخر عدم السؤال في الآية بأن عظمته تعالى وكبرياءه وعزته وبهاءه تقهر كل شيء من أن يسأله عن فعله أو يعترض له في شيء من شؤون إرادته فغيره تعالى أذل وأحقر من أن يجترىء عليه بسؤال أو مؤاخذة على فعل لكن له سبحانه أن يسأل كل فاعل عن فعله ويؤاخذ كل من حقت عليه المؤاخذة هذا .

وإن كان مردوداً بأن عدم السؤال من جهة أن ليس هناك من يتمكن من سؤاله اتقاء من قهره وسخطه كالملوك الجبارين والطغاة المتفرعنين غير كون الفعل بحيث لا يتسم بسمة النقص والفتور ولا يعتريه عيب وقصور . والذي يدل عليه عامة كلامه تعالى أن فعله من القبيل الثاني دون الأول كقوله : ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ (الم السجدة / ٧) . وقوله : ﴿له الأسماء الحسنى﴾ (الحشر / ٢٤) . وقوله : ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ (يونس / ٤٤) . الى غير ذلك من الآيات .

وبالجملة قولهم : إنه تعالى إنما لا يسأل عن فعله لكونه حكيماً على الإطلاق يؤول الى أن عدم السؤال عن فعله ليس لذات فعله بما هو فعله بل لأمر خارج عن ذات الفعل وهو كون

فاعله حكيماً لا يفعل إلا ما فيه مصلحة مرجحة، وقوله: لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لا دلالة في لفظه على التقييد بالحكمة فكان عليهم أن يقيموا عليه دليلاً.

ولو جاز الخروج في تعليل عدم السؤال في الآية لفظها لكان أقرب منه التمسك بقوله ـ وهو متصل بالآية ـ: «سبحان الله رب العرش عما يصفون» فإن الآية تثبت له الملك المطلق والملك متبع في إرادته مطاع في أمره لأنه ملك ـ أي لذاته ـ لا لأن فعله أو قوله موافق لمصلحة مرجحة وإلا لم يكن فرق بينه وبين أدنى رعيته وكانت المصلحة هي المتبعة ولم تكن طاعته مفترضة في بعض الأحيان، وكذلك المولى متبع ومطاع لعبده فيما له من المولوية من جهة أنه مولى ليس للعبد أن يسأله فيما يريده منه ويأمره به عن وجه الحكمة والمصلحة فالملك على ما له من السعة مبدأ لجواز التصرفات وسلطنة عليها لذاته.

فالله سبحانه ملك ومالك للكل والكل مملوكون له محضاً فله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وليس لغيره ذلك، وله أن يسألهم عما يفعلون وليس لغيره أن يسألوه عما يفعل نعم هو سبحانه أخبرنا أنه حكيم لا يفعل إلا ما فيه مصلحة ولا يريد إلا ذلك فليس لنا أن نسيء به الظن فيما ينسب اليه من الفعل بعد هذا العلم الإجمالي بحكمته المطلقة فضلاً عن سؤاله عما يفعل، ومن ألطف الآيات دلالة على هذا الذي ذكرنا قوله حكاية عن عيسى بن مريم: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ (المائدة / ١١٨) حيث يوجه عذابهم بأنهم مملوكون له ويوجه مغفرتهم بكونه حكيماً.

ومن هنا يظهر أن الحكمة بوجه ما أعم من قوله: «لا يسأل عما يفعل» بخلاف الملك فالملك أقرب الى توجيه الآية منها كما أشرنا اليه.

الأمر الثاني: أن الآية على ما وجّهوها به خفيّة الاتصال بالسياق السابق وغاية ما قيل في اتصالها بما قبلها ما في مجمع البيان: أنه تعالى لما بيّن التوحيد عطف عليه بيان العدل، وأنت خبير بأن مآله الاستطراد ولا موجب له.

ونظيره ما نقل عن أبي مسلم أنها تتصل بقوله في أول السورة: «إقترب للناس حسابهم» والحساب هو السؤال عما أنعم الله عليهم به، وهل قابلوا نعمه بالشكر أم قابلوها بالكفر؟ وفيه أن للآيات التالية لهذه الآية اتصالاً واضحاً بما قبلها فلا معنى لاتصالها وحدها بأول السورة.

على أن قوله على تقدير تسليمه يوجه اتصال ذيل الآية والصدر باق على ما كان.

وأنت خبير أن توجيه الآية بالملك دون الحكمة كما قدمناه يكشف عن اتصال الآية بما قبلها من قوله: «سبحان الله رب العرش عما يصفون» فالعرش ـ كما تقدم ـ كناية عن الملك فتتصل الآيتان ويكون قوله: «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» بالحقيقة برهاناً على ملكه تعالى كما أن ملكه وعدم مسؤليته برهان على ربوبيته، وبرهاناً على مملوكيتهم كما أن مملوكيتهم ومسؤليتهم برهان على عدم ربوبيتهم فإن الفاعل الذي ليس بمسؤل عن فعله بوجه هو الذي يملك الفعل مطلقاً لا محالة، والفاعل الذي هو مسؤل عن فعله هو الذي لا يملك الفعل إلا إذا كان ذا مصلحة والمصلحة هي التي تملكه وترفع المؤاخذة عنه، ورب العالم أو جزء من أجزائه هو الذي يملك تدبيره باستقلال من ذاته أي لذاته لا بإعطاء من غيره فالله سبحانه هو رب العرش وغيره مربوبون له[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ تثبيت لما قيل في الآية السابقة إن الذكر يذكر توحيده ووجوب عبادته ولا يخلو من تأييد ما للمعنى الثاني من معنيي الذكر.

وقوله: «نوحي اليه» مفيد للاستمرار، وقوله: «فاعبدون» خطاب للرسل ومن معهم من أممهم والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ظاهر

---

١ ـ الانبياء ١٦ ـ ٣٣: بحث في حكمته تعالى ومعنى كون فعله مقارناً للمصلحة وهو بحث فلسفي وقرآني.

السياق يشهد أنه حكاية قول الوثنيين إن الملائكة أولاده سبحانه فالمراد بالعباد المكرمين الملائكة، وقد نزّه الله نفسه عن ذلك بقوله: «سبحانه» ثم ذكر حقيقة حالهم بالإضراب.

وإذ كان قوله بعد: «لا يسبقونه بالقول» الخ: بيان كمال عبوديتهم من حيث الآثار وصفاتها من جهة الخواص والتبعات وقد ذكر قبلاً كونهم عباداً كان ظاهر ذلك أن المراد بإكرامهم إكرامهم بالعبودية لا بغيرها فيؤول المعنى الى أنهم عباد بحقيقة معنى العبودية ومن الدليل عليه صدور آثارها الكاملة عنهم.

فالمراد بكونهم عباداً ـ وجميع أرباب الشعور عباد الله ـ إكرامهم في أنفسهم بالعبودية فلا يشاهدون من أنفسهم إلا أنهم عباد، والمراد بكونهم مكرمين إكرامه تعالى لهم بإفاضة العبودية الكاملة عليهم، وهذا نظير كون البعد مخلِصاً ـ بكسر اللام ـ لربه ومقابلته تعالى ذلك بجعله مخلَصاً ـ بفتح اللام ـ لنفسه، وإنما الفرق بين كرامة الملائكة والبشر أنها في البشر اكتسابي بخلاف ما في الملائكة، وأما إكرامه تعالى فهو موهبي في القبيلين جميعاً فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يسبق فلان فلاناً بالقول أي لا يقول شيئاً قبل أن يقوله فقوله تبع، وربما يكنّى به عن الإرادة والمشيّة أي إرادته تبع إرادته، وقوله: «وهم بأمره يعملون» الظرف متعلق بيعملون قدّم عليه لإفادة الحصر أي يعملون بأمره لا بغير أمره، وليس المراد لا يعملون بأمر غيره ففعلهم تابع لأمره أي لإرادته كما أن قولهم تابع لقوله فهم تابعون لربهم قولاً وفعلاً.

وبعبارة أُخرى إرادتهم وعملهم تابعان لإرادته ـ نظراً الى كون القول كناية عن الإرادة ـ فلا يريدون إلا ما أراد ولا يعملون إلا ما أراد وهو كمال العبودية فإن لازم عبودية العبد أن يكون إرادته وعمله مملوكين لمولاه.

هذا ما يفيده ظاهر الآية على أن يكون المراد بالأمر ما يقابل النهي، وتفيد الآية أن الملائكة لا يعرفون النهي إذ النهي فرع جواز الإتيان بالفعل المنهي عنه وهم لا يفعلون إلا عن

أمر.

ويمكن أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ (يس / ٨٣)، وقوله: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ (القمر / ٥٠)، حقيقة معنى أمره تعالى وقد تقدم في بعض المباحث السابقة كلام في ذلك وسيجيء استيفاء البحث في كلام خاص بالملائكة فيما يعطيه القرآن في حقيقة الملك.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ فسّروا «ما بين أيديهم وما خلفهم» بما قدّموا من أعمالهم وما اخّروا، والمعنى: يعلم ما عملوا وما هم عاملون.

فقوله: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» استئناف في مقام التعليل لما تقدّمه من قوله: «لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» كأنه قيل: إنما لم يقدموا على قول أو عمل بغير أمره تعالى لانّه يعلم ما قدّموا من قول وعمل وما أخّروا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث إنهم يعلمون ذلك.

وهو معنى جيد في نفسه لكنه إنما يصلح لتعليل عدم إقدامهم على المعصية لا لتعليل قصر عملهم على مورد الأمر وهو المطلوب. على أن لفظ الآية لا دلالة فيه على أنهم يعلمون ذلك ولولا ذلك لم يتمّ البيان.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ تعرّض لشفاعتهم لغيرهم وهو الذي تعلق به الوثنيون في عبادتهم الملائكة كما ينبيء عنه قولهم: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» «إنما نعبدهم ليقرّبونا الى الله زلفى» فردّ تعالى عليهم بأن الملائكة إنما يشفعون لمن ارتضاه الله والمراد به ارتضاء دينه لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء /٤٨)، فالايمان بالله من غير شرك هو الارتضاء، والوثنيون مشركون، ومن عجيب أمرهم أنهم يشركون بنفس الملائكة الذين لا يشفعون إلا لغير المشركين من

الموحدين.

وقوله: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ هي الخشية من سخطه وعذابه مع الأمن منه بسبب عدم المعصية وذلك لأن جعله تعالى إياهم في أمن من العذاب بما أفاض عليهم من العصمة لا يحدد قدرته تعالى ولا ينتزع الملك من يده، فهو يملك بعد الأمن عين ما كان يملكه قبله، وهو على كل شيء قدير، وبذلك يستقيم معنى الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي من قال كذا كان ظالماً ونجزيه جهنم لأنها جزاء الظالم، والآية قضيه شرطية والشرطية لا تقتضي تحقق الشرط.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ المراد بالرؤية العلم الفكري وإنما عبّر بالرؤية لظهوره من حيث إنه نتيجة التفكير في أمر محسوس.

والرتق والفتق معنيان متقابلان، قال الراغب في المفردات: الرتق الضمّ والالتحام خلقة كان أم صنعة، قال تعالى: «كانتا رتقاً ففتقناهما» وقال: الفتق الفصل بين المتصلين وهو ضد الرتق. انتهى. وضمير التثنية في «كانتا رتقاً ففتقناهما» للسماوات والأرض بعدّ السماوات طائفة والأرض طائفة فهما طائفتان اثنتان، ومجيء الخبر أعني رتقاً مفرداً لكونه مصدراً وإن كان بمعنى المفعول والمعنى كانت هاتان الطائفتان منضمتين متصلتين ففصلناهما.

وهذه الآية والآيات الثلاث التالية لها برهان على توحيده تعالى في ربوبيته للعالم كله أوردها بمناسبة ما انجرّ الكلام الى توحيده ونفي ما اتخذوها آلهة من دون الله وعدوا الملائكة وهم من الآلهة عندهم أولاداً له، بانين في ذلك على أن الخلقة والإيجاد لله والربوبية والتدبير للآلهة. فأورد سبحانه في هذه الآيات أشياء من الخليقة خلقتها ممزوجة بتدبير أمرها فتبين بذلك أن التدبير لا ينفك عن الخلقة فمن الضروري أن يكون الذي خلقها هو الذي يدبر أمرها

وذلك كالسماوات والأرض وكل ذي حياة والجبال والفجاج والليل والنهار والشمس والقمر في خلقها وأحوالها التي ذكرها سبحانه.

فقوله: «أولم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما» المراد بالذين كفروا ـ بمقتضى السياق ـ هم الوثنيون حيث يفرقون بين الخلق والتدبير بنسبة الخلق الى الله سبحانه والتدبير الى الآلهة من دونه وقد بيّن خطأهم في هذه التفرقة بعطف نظرهم الى ما لا يرتاب فيه من فتق السماوات والأرض بعد رتقهما فإن في ذلك خلقاً غير منفكّ عن التدبير، فكيف يمكن قيام خلقهما بواحد وقيام تدبيرهما بآخرين.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال في المجمع: الرواسي الجبال رست ترسو رسواً إذا ثبتت بثقلها فهي راسية كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكنة في وقوفها، والميد الاضطراب بالذهاب في الجهات، والفج الطريق الواسع بين الجبلين. انتهى.

والمعنى: وجعلنا في الأرض جبالاً ثابت لئلا تميل وتضطرب الأرض بهم وجعلنا في تلك الجبال طرقاً واسعة هي سبل لعلهم يهتدون منها الى مقاصدهم ومواطنهم.

وفيه دلالة على أن للجبال ارتباطاً خاصاً بالزلازل ولولاهما لاضطربت الأرض بقشرها.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ كأن المراد بكون السماء محفوظة حفظها من الشياطين كما قال: ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ (الحجر / ١٧)، والمراد بآيات السماء الحوادث المختلفة السماوية التي تدل على وحدة التدبير واستناده الى موجدها الواحد.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الآية ظاهرة في إثبات الفلك لكل من الليل وهو الظل المخروطي الملازم لوجه

الأرض المخالف لمسامته الشمس. والنهار وهو خلاف الليل. وللشمس والقمر فالمراد بالفلك مدار كل منها.

والمراد مع ذلك بيان الأوضاع والأحوال الحادثة بالنسبة الى الأرض وفي جوها وإن كانت حال الأجرام الاخر على خلاف ذلك فلا ليل ولا نهار يقابله للشمس وسائر الثوابت، التي هي نيّرة بالذات وللقمر وسائر السيّارات الكاسبة للنور من الليل والنهار غير ما لنا.

وقوله: «يسبحون» من السبح بمعنى الجري في الماء بخرقة قيل: وإنما قال: يسبحون لأنه أضاف اليها فعل العقلاء كما قال: ﴿والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ (يوسف / ٤)[1].

٢٤ ۞ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ.

٢٥ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.

٢٦ ۞ وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ هُمْ كَافِرُونَ.

٢٧ ۞ خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ.

٢٨ ۞ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٢٩ ۞ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ.

٤٠ ۞ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ.

---

١. الانبياء ١٦ ـ ٣٣: بحث روائي في الحق والباطل، وصف الملائكة، معنى قوله تعالى «لا يسئل عما يفعل».

٤١ ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ.

٤٢ ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ.

٤٣ ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنّا يُصْحَبُونَ.

٤٤ ﴿ بَلْ مَتَّعْنا هٰؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ.

٤٥ ﴿ قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ.

٤٦ ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ.

٤٧ ﴿ وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ﴾ يلوح من الآية أنهم كانوا يسلّون أنفسهم بأن النبي ﷺ سيموت فيتخلصون من دعوته وتنجو آلهتهم من طعنه كما حكى ذلك عنهم في قولهم: ﴿نتربص به ريب المنون﴾ (الطور / ٣٠). فأجاب عنه بأنا لم نجعل لبشر من قبلك الخلد حتى يتوقع ذلك لك بل إنك ميت وإنهم

ميتون، ولا ينفعهم موتك شيئاً فلا أنهم يقبضون على الخلود بموتك، فالجميع ميتون، ولا أن حياتهم القصيرة المؤجلة تخلو من الفتنة والامتحان الإلهي فلا يخلو منه إنسان في حياته الدنيا، ولا أنهم خارجون بالآخرة من سلطاننا بل الينا يرجعون فنحاسبهم ونجزيهم بما عملوا.

وقوله: «أفإن مت فهم الخالدون» ولم يقل: فهم خالدون والإستفهام للإنكار يفيد نفي قصر القلب كأنه قيل: إن قولهم: نتربص به ريب المنون كلام من يرى لنفسه خلوداً أنت مزاحمه فيه فلو مت لذهب بالخلود وقبض عليه وعاش عيشة خالدة طيبة ناعمة وليس كذلك بل نفس ذائقة الموت، والحياة الدنيا مبنية على الفتنة والإمتحان، ولا معنى للفتنة الدائمة والامتحان الخالد بل يجب أن يرجعوا الى ربهم فيجازيهم على ما امتحنهم وميّزهم.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لفظ النفس ـ على ما يعطيه التأمل في موارد استعماله ـ أصل معناه هو معنى ما أُضيف اليه فنفس الشيء معناه الشيء ونفس الإنسان معناه هو الإنسان ونفس الحجر معناه هو الحجر فلو قطع عن الإضافة لم يكن له معنى محصل، وعلى هذا المعنى يستعمل لتأكيد اللفظي كقولنا: جاءني زيد نفسه أو لإفادة معناه كقولنا: جاءني نفس زيد.

وبهذا المعنى يطلق على كل شيء حتى عليه تعالى كما قال: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ (الأنعام / ١٢)، وقال: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (آل عمران / ٢٨)، وقال: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ (المائدة / ١١٦).

ثم شاع استعمال لفظها في شخص الإنسان خاصة وهو الموجود المركب من روح وبدن فصار ذا معنى في نفسه وإن قطع عن الإضافة قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾ أي من شخص إنساني واحد، وقال: ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ (المائدة / ٣٢)،

أي من قتل إنساناً ومن أحيا إنساناً، وقد اجتمع المعنيان في قوله: ﴿كل نفس تجادل عن نفسها﴾ فالنفس الاولى بالمعنى الثاني والثانية بالمعنى الأول.

ثم استعملوها في الروح الإنساني لما أن الحياة والعلم والقدرة التي بها قوام الإنسان قائمة بها ومنه قوله تعالى: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ (الأنعام / ٩٣).

ولم يطرد هذان الإطلاقان أعني الثاني والثالث في غير الإنسان كالنبات وسائر الحيوان إلا بحسب الإصطلاح العلمي فلا يقال للواحد من النبات والحيوان عرفا نفس ولا للمبدأ المدبر لجسمه نفس نعم ربما سمّيت الدم نفساً لأن الحياة توقفاً عليها ومنه النفس السائلة.

وكذا لا يطلق النفس في اللغة بأحد الإطلاقين الثاني والثالث على الملك والجن وإن كان معتقدهم أن لهما حياة. ولم يرد استعمال النفس فيهما في القرآن أيضاً وإن نطقت الآيات بأن للجن تكليفاً كالإنسان وموتاً وحشراً قال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات / ٥٦). وقال: ﴿في أُمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ (الأحقاف / ١٨). وقال: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ (الأنعام / ١٢٨). هذا ما يتحصل من معنى النفس بحسب عرف اللغة.

وأما الموت فهو فقد الحياة وآثارها من الشعور والإرادة عما من شأنه أن يتصف بها قال تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم﴾ (البقرة / ٢٨). وقال في الأصنام: ﴿أموات غير أحياء﴾ (النحل / ٢١). وأما أنه مفارقة النفس للبدن بانقطاع تعلقها التدبيري كما يعرّفه الأبحاث العقلية أو أنه الإنتقال من دار الى دار كما في الحديث النبوي فهو معنى كشف عنه العقل أو النقل غير ما استقر عليه الاستعمال ومن المعلوم أن الموت بالمعنى الذي ذكر إنما يتصف به الإنسان المركّب من الروح والبدن باعتبار بدنه فهو الذي يتصف بفقدان الحياة بعد وجدانه وأما الروح فلم يرد في كلامه تعالى ما ينطق باتصافه بالموت كما لم يرد ذلك في الملك. وأما قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ (القصص / ٨٨). وقوله: ﴿ونفخ في الصور فصعق

من في السماوات ومن في الأرض﴾ (الزمر/٦٨) فسيجيء إن شاء الله أن الهلاك والصعق غير الموت وإن انطبقا عليه أحياناً.

فقد تبين مما قدمناه أولاً: أن المراد بالنفس في قوله: «كل نفس ذائقة الموت» الإنسان ـ وهو الاستعمال الثاني من استعمالاتها الثلاث ـ دون الروح الإنساني إذ لم يعهد نسبة الموت الى الروح في كلامه تعالى حتى تحمل عليه.

وثانياً: أن الآية إنما تعم الإنسان لا غير كالملك والجن وسائر الحيوان وإن كان بعضها مما يتصف بالموت كالجن والحيوان، ومن القرينة على اختصاص الآية بالإنسان قوله قبله: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ وقوله بعده: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ على ما سنوضحه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾إن نافية والمراد بقوله: «إن يتخذونك إلا هزؤا» قصر معاملتهم معه على اتخاذهم إياه هزؤا أي لم يتخذوك إلا هزؤا يستهزء به.

وقوله: «أهذا الذي يذكر آلهتكم ـ والتقدير يقولون أو قائلين: أهذا الذي. الخ؛ حكاية كلمة استهزائهم. والاستهزاء في الإشارة اليه بالوصف، ومرادهم ذكره آلتهم بسوء ولم يصرحوا به أدباً مع آلهتهم وهو نظير قوله: ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ الآية ٦٠ من السورة.

وقوله: «وهم بذكر الرحمن هم كافرون» في موضع الحال من ضمير «إن يتخذونك» أو من فاعل يقولون المقدر وهو أقرب ومحصله أنهم يأنفون لآلهتهم عليك إذ تقول فيها إنها لا تنفع ولا تضر ـ وهو كلمة حق ـ فلا يواجهونك إلا بالهزء والإهانة ولا يأنفون لله إذ يكفر بذكره والكافرون هم أنفسهم.

والمراد بذكر الرحمن ذكره تعالى بأنه مفيض كل رحمة ومنعم كل نعمة ولازمه كونه تعالى هو الرب الذي تجب عبادته، وقيل: المراد بالذكر القرآن.

والمعنى: وإذ رآك الذين كفروا وهم المشركون ما يتخذونك ولا يعاملون معك إلا بالهزء والسخرية قائلين بعضهم لبعض أهذا الذي يذكر آلهتكم أي بسوء فيأنفون لآلهتهم حيث تذكرها والحال أنهم بذكر الرحمن كافرون ولا يعدونه جرماً ولا يأنفون له.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ كان المشركون على كفرهم بالدعوة النبوية يستهزؤن بالنبي ﷺ كلما رأوه، وهو زيادة في الكفر والعتو، والاستهزاء بشيء إنما يكون بالبناء على كونه هزلاً غير جد فيقابل الهزل بالهزل لكنه تعالى أخذ استهزاءهم هذا أخذ جد غير هزل فكان الاستهزاء بعد الكفر تعرضاً للعذاب الإلهي بعد تعرض وهو الاستعجال بالعذاب فإنهم لا يقنعون بما جاءتهم من الآيات وهم في عافية ويطلبون آيات تجازيهم بما صنعوا، ولذلك عد سبحانه استهزاءهم بعد الكفر استعجالا برؤية الآيات وهي الآيات الملازمة للعذاب وأخبرهم أنه سيريهم إياها.

فقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كناية عن بلوغ الانسان في العجل كأنه خلق من عجل ولا يعرف سواه نظير ما يقال: فلان خير كله أو شر كله وخلق من خير أو من شر وهو أبلغ من قولنا، ما أعجله وما أشد استعجاله، والكلام وارد مورد التعجيب، وفيه استهانة بأمرهم وأنه لا يعجل بعذابهم لأنهم لا يفوتونه.

وقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الآية الآتية تشهد بأن المراد بإرادة الآيات تعذيبهم بنار جهنم وهي قوله: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين﴾ الخ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ القائلون هم الذين كفروا والمخاطبون هم النبي ﷺ والمؤمنون وكان مقتضى الظاهر أن يقولوا؟ إن كنتم من الصادقين لكنهم عدلوا الى ما ترى ليضيفوا الى تعجيز النبي ﷺ بمطالبته ما لا يقدر عليه

إضلال المؤمنين به وإغرائهم عليه. والوعد هو ما اشتملت عليه الآية السابقة وتفسره الآية اللاحقة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ «لو» للتمني و«حين» مفعول يعلم على ما قيل. وقوله: «لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم» أي لا يدفعونها حيث تأخذهم من قدامهم ومن خلفهم وفيه إشارة الى إحاطتها بهم.

وقوله: «ولا هم ينصرون» معطوف على ما تقدمه لرجوع معناه الى الترديد بالمقابلة والمعنى لا يدفعون النار باستقلال من أنفسهم ولا بنصر من ينصرهم على دفعه.

والآية في موضع الجواب لسؤالهم عن الموعد، والمعنى ليت الذين كفروا يعلمون الوقت الذي لا يدفعون النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم لا باستقلال من أنفسهم ولا هم ينصرون في دفعها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ الذي يقتضيه السياق أن فاعل تأتيهم ضمير راجع الى النار دون الساعة كما ذهب اليه بعضهم، والجملة إضراب عن قوله في الآيه السابقة: «لا يكفون» الخ: لا عن مقدر قبله تقديره لا تأتيهم الآيات بحسب اقتراحهم بل تأتيهم بغتة، ولا عن قوله: ﴿لو يعلم الذين كفروا﴾ بدعوى أنه في معنى النفي والتقدير لا يعلمون ذلك بل تأتيهم بغتة فإن هذه كلها وجوه يأبى عنها السياق.

ومعنى إتيان النار بغتة أنها تفاجؤهم حيث لا يدرون من أين تأتيهم وتحيط بهم فإن ذلك لازم ما وصفه الله من أمرها بقوله: ﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة﴾ (الهمزة / ٧)، وقوله: ﴿النار التي وقودها الناس﴾ (البقرة / ٢٤)، وقوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ (الآية ٩٨ من السورة). والنار التي هذا شأنه تأخذ باطن الانسان كظاهره

على حد سواء لا كنار الدنيا حتى تتوجه من جهة الى جهة وتأخذ الظاهر قبل الباطن والخارج قبل الداخل حتى تمهلهم بقطع مسافة أو بتدرج في عمل أو مفارقة في جهة فيحتال لدفعها بتجاف أو تجنب أو إبداء حائل أو الالتجاء الى ركن بل هي معهم كما أن أنفسهم معهم لا تستطاع ردا إذ لا اختلاف جهة ولا تقبل مهلة إذ لا مسافة بينها وبينهم فلا تسمح لهم في نزولها عليهم إلا البهت والحيرة.

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ لا يدفعون النار عن وجوههم وظهورهم بل تأتيهم من حيث لا يشعرون بها ولا يدرون فتكون مباغتة لهم فلا يستطيعون ردها ولا يمهلون في إتيانها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ قال في المجمع: الفرق بين السخرية والهزء أن في السخرية معنى طلب الذلة لأن التسخير التذليل فأما الهزء فيقتضي طلب صغر القدر بما يظهر في القول. انتهى والحيق الحلول، والمراد بما كانوا به يستهزؤن، العذاب وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وتخويف وتهديد للذين كفروا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ الكلاءة الحفظ والمعنى أسألهم من الذي يحفظهم من الرحمان إن أراد أن يعذبهم ثم أضرب عن تأثير الموعظة والإنذار فيهم فقال: «بل هم عن ذكر ربهم» أي القرآن «معرضون» فلا يعتنون به ولا يريدون أن يصغوا اليه إذا تلوته عليهم وقيل المراد بالذكر مطلق المواعظ والحجج.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاٰ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أم منقطعة والاستفهام للإنكار، وكل من «تمنعهم» و «من دوننا» صفة آلهة. والمعنى بل أسألهم ألهم آلهة من دوننا تمنعهم منا.

وقوله: «لا يستطيعون نصر أنفسهم» الخ: تعليل للنفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري

ولذا جيء بالفصل والتقدير ليس لهم آلهة كذلك لأنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم بأن ينصر بعضهم بعضا ولا هم منا يجارون ويحفظون فكيف ينصرون عبادهم من المشركين أو يجيرونهم. وذكر بعضهم أن ضمائر الجمع راجعة الى المشركين والسياق يأباه.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ الى آخر الآية: هو إضراب عن مضمون الآية السابقة كما كان قوله: «بل هم عن ذكر ربهم معرضون» إضرابا عما تقدمه والمضامين ـ كما ترى ـ متقاربة.

وقوله: «حتى طال عليهم العمر» غاية لدوام التمتع المدلول عليه بالجملة السابقة والتقدير بل متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم ودام لهم التمتع حتى طالب عليهم العمر فاغتروا بذلك ونسوا ذكر الله وأعرضوا عن عبادته. وكذلك كان مجتمع قريش فإنهم كانوا بعد أبيهم إسماعيل قاطنين في حرم آمن متمتعين بأنواع النعم التي تحمل اليهم حتى تسلطوا على مكة وأخرجوا جرهماً منها فنسوا ما هم عليه من دين أبيهم إبراهيم وعبدوا الأصنام.

وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الأنسب للسياق أن يكون المراد من نقص الأرض من أطرافها هو انقراض بعض الامم التي تسكنها فإن لكل أمة أجلا ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ـ وقد تقدمت الإشارة الى أن المراد بطول العمر عليهم طول عمر مجتمعهم.

والمعنى: أفلا يرون أن الأرض تنقص منها أُمة بعد أُمة بالانقراض بأمر الله فماذا يمنعه أن يهلكهم أفهم الغالبون إن أرادهم الله سبحانه بضر أو هلاك وانقراض.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ أي إن الذي أُنذركم به وحي إلهي لا ريب فيه وإنما لا يؤثر فيكم أثره وهو الهداية لأن فيكم صمماً لا تسمعون الإنذار فالنقص في ناحيتكم لا فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ ﴾ النفحة الوقعة من العذاب . والمراد أن الإنذار بآيات الذكر لا ينفعهم بل هؤلاء يحتاجون الى نفحة من العذاب حتى يضطروا فيؤمنوا ويعترفوا بظلمهم .

قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ القسط العدل وهو عطف بيان للموازين أو صفة للموازين بتقدير مضاف والتقدير الموازين ذوات القسط . وقد تقدم الكلام في معنى الميزان المنصوب يوم القيامة في تفسير سورة الأعراف .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ الضمير في « وإن كان » للعمل الموزون المدلول عليه بذكر الموازين أي وإن كان العمل الموزون مقدار حبة من خردل في ثقله أتينا بها وكفى بنا حاسبين وحبة الخردل يضرب بها المثل في دقتها وصغرها وحقارتها ، وفيه إشارة الى أن الوزن من الحساب .

٤٨ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ .

٤٩ ۞ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ .

٥٠ ۞ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ .

٥١ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ .

٥٢ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ .

٥٣ ۞ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ .

٥٤ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

٥٥ ۞ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ .

٥٦ ۞ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا

عَلَىٰ ذٰلِكُمْ مِنَ الشّٰاهِدِينَ .
٥٧ ۞ وَتَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنٰامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ .
٥٨ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذٰاذاً إِلّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .
٥٩ ۞ قٰالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذٰا بِآلِهَتِنٰا إِنَّهُ لَمِنَ الظّٰالِمِينَ .
٦٠ ۞ قٰالُوا سَمِعْنٰا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقٰالُ لَهُ إِبْرٰاهِيمُ .
٦١ ۞ قٰالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلىٰ أَعْيُنِ النّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ .
٦٢ ۞ قٰالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذٰا بِآلِهَتِنٰا يٰا إِبْرٰاهِيمُ .
٦٣ ۞ قٰالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذٰا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كٰانُوا يَنْطِقُونَ .
٦٤ ۞ فَرَجَعُوا إِلىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقٰالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّٰالِمُونَ .
٦٥ ۞ ثُمَّ نُكِسُوا عَلىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا هٰؤُلاٰءِ يَنْطِقُونَ .
٦٦ ۞ قٰالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاٰ يَضُرُّكُمْ .
٦٧ ۞ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ .
٦٨ ۞ قٰالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ .
٦٩ ۞ قُلْنٰا يٰا نٰارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاٰماً عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ .
٧٠ ۞ وَأَرٰادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنٰاهُمُ الْأَخْسَرِينَ .
٧١ ۞ وَنَجَّيْنٰاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بٰارَكْنٰا فِيهٰا لِلْعٰالَمِينَ .
٧٢ ۞ وَوَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نٰافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنٰا صٰالِحِينَ .
٧٣ ۞ وَجَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا وَأَوْحَيْنٰا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰاتِ
وَإِقٰامَ الصَّلٰوةِ وَإِيتٰاءَ الزَّكٰوةِ وَكٰانُوا لَنٰا عٰابِدِينَ .

٧٤ ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ.

٧٥ ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ.

٧٦ ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ.

٧٧ ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾ رجوع بوجه الى تفصيل ما أجمل في قوله سابقاً: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ الآية؛ بذكر ما أوتي النبيون من المعارف والشرائع وأيدوا بإهلاك أعدائهم بالقضاء بالقسط.

والآية التالية تشهد أن المراد بالفرقان والضياء والذكر التوراة آتاها الله موسى وأخاه هارون شريكه في النبوة.

والفرقان مصدر كالفرق لكنه أبلغ من الفرق، وذكر الراغب أنه على ما قيل اسم لا مصدر وتسمية التوراة الفرقان لكونها فارقة أو لكونها يفرق بها بين الحق والباطل في الاعتقاد والعمل. والآية نظيرة قوله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ (البقرة / ٥٣) وتسميتها ضياء لكونها مضيئة لمسيرهم الى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وتسميتها ذكرا لاشتمالها على ما يذكر به الله من الحكم والمواعظ والعبر.

ولعل كون الفرقان أحد أسماء التوراة هو الموجب لإتيانه باللام بخلاف ضياء وذكر،

وبوجه آخر هي فرقان للجميع لكنها ضياء وذكر للمتقين خاصة لا ينتفع بها غـيرهم ولذا جيء بالضياء والذكر منكرين ليتقيدا بقوله: «للمتقين» بخلاف الفرقان وقد سميت التـوراة نوراً وذكراً في قوله تعالى: ﴿ فيها هدى ونور ﴾ (المائدة / ٤٤) وقوله: ﴿ فسئلوا أهل الذكر ﴾ (الآية ٧ من السورة).

قوله تعالى: ﴿ وَهٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ الإشارة بهذا الى القرآن وإنما سمي ذكرا مباركاً لأنه ثابت دائم كثير البركات ينتفع به المؤمن والكافر في المجتمع البشري وتتنعم به الدنيا سواء عرفته أو أنكرته أقرت بحقه أو جحدته.

يدل على ذلك تحليل ما نشاهد اليوم من آثار الرشد والصلاح في المجتمع العام البـشري والرجوع بها القهقرى الى عصر نزول القرآن فما قبله فهو الذكر المبارك الذي يسترشد بمعناه وان جهل الجاهلون لفظه، وأنكر الجاحدون حقه وكفروا بعظيم نعمته، وأعانهـم عـلى ذلك المسلمون بإهمالهم في أمره، وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ انعطاف الى ما قبل موسى وهارون ونزول التوراة كما يفيده قوله: «من قـبل» والمـراد أن إيـتاء التـوراة لموسى وهارون لم يكن بدعاً من أمرنا بل أُقسم لقد آتينا قبل ذلك إبراهيم رشده.

والرشد خلاف الغي وهو إصابة الواقع، وهو في إبراهيم عليه‌السلام اهتداؤه الفـطري التـام الى التوحيد وسائر المعارف الحـقة، وإضـافة الرشـد الى الضـمير الراجـع الى إبـراهـيم تـفيد الاختصاص وتعطي معنى اللياقة، ويؤيد ذلك قوله بعده: «وكنا به عاملين» وهو كناية عن العلم بخصوصية حاله ومبلغ استعداده.

والمعنى: وأُقسم لقد أعطينا إبراهيم ما يستعد له ويليق من الرشد وإصـابة الواقـع وكـنا عالمين بمبلغ استعداده ولياقته، والذي آتاه الله سبحانه ـ كما تقدم ـ هو ما أدركه بصفاء فطرته ونور بصيرته من حقيقة التوحيد وسائر المعارف الحقة من غير تعليم معلم أو تذكير مذكر أو

تلقين ملقن.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ التمثال الشيء المصور والجمع تماثيل. والعكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له كذا ذكره الراغب فيهما.

يريد ﷺ بهذه التماثيل الأصنام التي كانوا نصبوها للعبادة وتقريب القرابين وكان سؤاله عن حقيقتها ليعرف ما شأنها وقد كان أول وروده في المجتمع وقد ورد في مجتمع ديني يعبدون التماثيل والأصنام. والسؤال مع ذلك مجموع سؤالين اثنين وسؤاله أباه عن الأصنام كان قبل سؤاله قومه على ما أُشير اليه في سورة الأنعام ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ هو جواب القوم ولما كان سؤاله ﷺ عن حقيقة الأصنام راجعاً بالحقيقة الى سؤال السبب لعبادتهم اياها تمسكوا في التعليل بذيل السنة القومية فذكروا أن ذلك من سنة آبائهم وجدودهم يعبدونها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ووجه كونهم في ضلال مبين ما سيورده في محاجة القوم بعد كسر الأصنام من قوله: «أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ سؤال تعجب واستبعاد وهو شأن المقلد التابع من غير بصيرة إذا صادف إنكاراً لما هو فيه استبعد ولم يكد يذعن بأنه مما يمكن أن ينكره منكر ولذا سألوه أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين والمراد بالحق ـ على ما يعطيه السياق ـ الجد أي أتقول ما تقوله جدا أم تلعب به؟

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ هو ﷺ ـ كما ترى ـ يحكم بأن ربهم هو رب السماوات وأن هذا الرب هو الذي فطر السماوات والأرض وهو الله سبحانه. وفي ذلك مقابلة تامة لمذهبهم في

الربوبية والالوهية فإنهم يرون أن لهم إلها أو آلهة غير ما للسماوات والأرض من الإله أو الآلهة، وهم جميعاً غير الله سبحانه ولا يرونه تعالى إلهاً لهم ولا لشيء من السماوات والأرض بل يعتقدون أنه إله الآلهة ورب الأرباب وفاطر الكل.

فقوله: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ رد لمذهبهم في الالوهية بجميع جهاته وإثبات أن لا إله إلا الله وهو «التوحيد».

ثم كشف عليه‌السلام بقوله: «وأنا على ذلكم من الشاهدين» عن أنه معترف مقر بما قاله ملتزم بلوازمه وآثاره شاهد عليه شهادة إقرار والتزام فإن العلم بالشيء غير الالتزام به وربما تفارقا كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ (النمل / ١٤).

وبهذا التشهد يتم الجواب عن سؤالهم أهو مجد فيما يقول أم لاعب؟ والجواب لا بل أعلم بذلك وأتدين به.

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية، ولهم في تفسيرها أقاويل أُخر، وكذا في معاني آيات القصة السابقة واللاحقة وجوه أُخر أضربنا عنها لعدم جدوى في التعرض لها فلا سياق الآيات يساعد عليها ولا مذاهب الوثنية توافقها.

قوله تعالى: ﴿وَتَاللّٰهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ معطوف على قوله: «بل ربكم» الخ: أي قال لأكيدن أصنامكم، الخ: والكيد التدبير الخفي على الشيء بما يسوؤه، وفي قوله: «بعد أن تولوا مدبرين» دلالة على أنهم كانوا يخرجون من البلد أو من بيت الأصنام أحياناً لعيد كان لهم أو نحوه فيبقى الجو خالياً.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذٰاذاً إِلاّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ قال الراغب: الجذ كسر الشيء وتفتيته ويقال لحجارة الذهب المكسورة ولفتات الذهب جذاذاً ومنه قوله تعالى: «فجعلهم جذاذا» انتهى فالمعنى فجعل الأصنام قطعاً مكسورة إلا صنماً كبيراً من بينهم.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ظاهر السياق أن هذا الترجي لبيان ما كان يمثله فعله أي كان فعله هذا حيث كسر الجميع إلا واحداً كبيراً لهم فعل من يريد بذلك أن يرى القوم ما وقع على أصنامهم من الجذ ويجدوا كبيرهم سالماً بينهم فيرجعوا اليه ويتهموه في أمرهم كمن يقتل قوماً ويترك واحداً منهم ليتهم في أمرهم.

وعلى هذا فالضمير في قوله: «إليه» راجع الى «كبير لهم» ويؤيد هذا المعنى أيضاً قول إبراهيم الآتي «بل فعله كبيرهم هذا» في جواب قولهم: «أأنت فعلت هذا بآلهتنا».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ استفهام بداعي التأسف وتحقيق الأمر للحصول على الفاعل المرتكب للظلم ويؤيد ذلك قوله تلواً: ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾ الخ؛ فقول بعضهم: إن «من موصولة» ليس بسديد.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قضاء منهم بكونه ظالماً يجب أن يساس على ظلمه إذ قد ظلم الآلهة بالتعدي الى حقهم وهو التعظيم وظلم الناس بالتعدي الى حقهم وهو احترام آلهتهم وتقديس مقدساتهم وظلم نفسه بالتعدي الى ما ليس له بحق وارتكاب ما لم يكن له أن يرتكبه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ المراد بالذكر ـ على ما يستفاد من المقام ـ الذكر بالسوء أي سمعنا فتى يذكر الآلهة بالسوء فإن يكن فهو الذي فعل هذا بهم إذ لا يتجرىء لارتكاب مثل هذا الجرم إلا مثل ذاك المتجري.

وقوله: ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ برفع إبراهيم وهو خبر لمبتدء محذوف والتقدير هو إبراهيم كذا ذكره الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ المراد بإتيانه على أعين الناس إحضاره في مجمع من الناس ومرآهم وهو حيث كسرت الأصنام كما يظهر من قول إبراهيم عليه السلام «بل فعله كبيرهم هذا» بالإشارة الى كبير الأصنام.

وكأن المراد بشهادتهم أن يشهدوا عليه بأن كان يذكرهم بالسوء فيكون ذلك ذريعة الى أخذ الاقرار منه بالجذ والكسر. وأما ما قيل: أن المراد شهادتهم عقاب إبراهيم على ما فعل فبعيد.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ الإستفهام ـ كما قيل ـ للتقرير بالفاعل فإن أصل الفعل مفروغ عنه معلوم الوقوع. وفي قولهم: «بآلهتنا» تلويح الى أنهم ما كانوا يعدونه من عبدة الأصنام.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ما أخبر ﷺ به بقوله: «بل فعله كبيرهم هذا» دعوى بداعي إلزام الخصم وفرض وتقدير قصد به إبطال أُلوهيتها كما سيصرح به في قوله: «أفتعبدون ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم» الخ؛ وليس بخبر جدي البتة، وهذا كثير الورود في المخاصمات والمناظرات فالمعنى قال: بل شاهد الحال وهو صيرورة الجميع جذاذاً وبقاء كبيرهم سالماً يشهد أن قد فعله كبيرهم هذا وهو تمهيد لقوله: «فاسألوهم» الخ.

وقوله: ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أمر بأن يسألوا الأصنام عن حقيقة الحال وأن الذي فعل بهم هذا من هو؟ فيخبروهم به إن كانوا ينطقون فقوله: «إن كانوا ينطقون» شرط جزاؤه محذوف يدل عليه قوله: «فاسألوهم».

فتحصل أن الآية على ظاهرها من غير تكلف إضمار أو تقديم وتأخير أو محذور تعقيد، وأن صدرها المتضمن لدعوى استناد الفعل الى كبيرهم إلزام للخصم وتوطئة وتمهيد لذيلها وهو أمرهم بسؤال الأصنام إن نطقوا لينتهي الى اعتراف القوم بأنهم لا ينطقون.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تفريع على قوله: «فاسألوهم إن كانوا ينطقون» فإنهم لما سمعوا منه ذلك وهم يرون أن الأصنام جمادات لا شعور لها ولا نطق تمت عند ذلك عليهم الحجة فقضى كل منهم على نفسه أنه هو الظالم دون

ابراهيم فقوله: «فرجعوا الى أنفسهم» استعارة بالكناية عن تنبههم وتفكرهم في أنفسهم، وقوله: «فقالوا إنكم أنتم الظالمون» أي قال كل نفسه مخاطباً لها: إنك أنت الظالم حيث تعبد جماداً لا ينطق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هٰؤُلاٰءِ يَنْطِقُونَ﴾ قال الراغب: النكس قلب الشيء على رأسه ومنه نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه قال تعالى: «ثم نكسا على رؤسهم». انتهى فقوله: «ثم نكسوا على رؤسهم» كناية أو استعارة بالكناية عن قلبهم الباطل على مكان الحق الذي ظهر لهم والحق على مكان الباطل كأن الحق علا في قلوبهم الباطل فنكسوا على رؤسهم فرفعوا الباطل وهو كون إبراهيم ظالماً على الحق وهو كونهم هم الظالمين فخصموا إبراهيم بقوله: «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون».

ومعنى قولهم: «لقد علمت» الخ؛ أن دفاعك عن نفسك برمي كبير الأصنام بالفعل وهو الجذ وتعليق ذلك باستنطاق الآلهة مع العلم بأنهم لا ينطقون دليل على أنك أنت الفاعل الظالم فالجملة كناية عن ثبوت الجرم وقضاء على إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿قالَ افَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ ما لاٰ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاٰ يَضُرُّكُمْ ـ الى قوله ـ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ﴾ لما تفوهوا بقولهم: «ما هؤلاء ينطقون» وسمعه إبراهيم لم يشتغل بالدفاع فلم يكن قاصداً لذلك من أول بل استفاد من كلامهم لدعوته الحقة فخصمهم بلازم قولهم وأتمّ الحجة عليهم في كونهم أصنامهم غير مستحقة للعبادة أي غير آلهة.

فما حصل تفريع قوله: «أفتعبدون ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم» أن لازم كونهم لا ينطقون أن لا يعلموا شيئاً ولا يقدروا على شيء، ولازم ذلك أن لا ينفعوكم شيئاً ولا يضروكم، ولازم ذلك أن يكون عبادتهم لغوا إذ العبادة إما لرجاء خير أو لخوف شرّ وليس عندهم شيء من ذلك فليسوا بآلهة.

وقوله: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ﴾ تزجر وتبرّ منهم ومن آلهتهم بعد

إبطال أُلوهيتها. وهذا كشهادته على وحدانيته تعالى بعد إثباتها في قوله فيما مر: ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾. وقوله: «أفلا تعقلون» توبيخ لهم.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ هو ﷺ وإن أبطل بكلامه السابق أُلوهية الأصنام وكان لازمه الضمنيّ أن لا يكون كسرهم ظلماً وجرماً لكنه لوّح بكلامه الى أن رميه كبير الأصنام بالفعل وأمرهم أن يسألوا الآلهة عن ذلك لم يكن لدفع الجرم عن نفسه بل كان تمهيداً لابطال أُلوهية الآلهية وبهذا المقدار من السكوت وعدم الرد قضوا عليه بثبوت الجرم وأن جزاءه أن يحرق بالنار.

ولذلك قالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم بتعظيم أمرهم ومجازاة من أهان بهم وقولهم: «إن كنتم فاعلين» تهييج وإغراء.

قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ خطاب تكويني للنار تبدلت به خاصة حرارتها وإحراقها وإفنائها برداً وسلاماً بالنسبة الى إبراهيم ﷺ على طريق خرق العادة. وبذلك يظهر أن لا سبيل لنا الى الوقوف على حقيقة الأمر فيه تفصيلاً إذ الأبحاث العقلية عن الحوادث الكونية إنما تجري فيما لنا علم بروابط العلية والمعلولية فيه من العاديات المتكررة. وأما الخوارق التي نجهل الروابط فيها فلا مجرى لها فيها. نعم نعلم إجمالاً أن لهمم النفوس دخلا فيها وقد تكلمنا في ذلك في مباحث الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب.

والفصل في قوله: «قلنا» الخ؛ لكونه في معنى جواب سؤال مقدر وتقدير الكلام بما فيه من الحذف إيجازاً نحو من قولنا: فأضرموا ناراً وألقوه فيها فكأنه قيل: فماذا كان بعده فقيل: قلنا يا نور كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وعلى هذا النحو الفصل في كل «قال» و«قالوا» في الآيات السابقة من القصة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ أي احتالوا عليه ليطفئوا

نوره ويبطلوا حجته فجعلناهم الأخسرين حيث خسروا ببطلان كيدهم وعدم تأثيره وزادوا خسارة حيث أظهره الله عليهم بالحفظ والإنجاء.

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ الأرض المذكورة هي أرض الشام التي هاجر اليها إبراهيم. ولوط أول من آمن به وهاجر معه كما قال تعالى: ﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ (العنكبوت / ٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ النافلة العطية وقد تكرر البحث عن مضمون الآيتين.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ الى آخر الآية؛ الظاهر ـ كما يشير اليه ما يدل من[1] الآيات على جعل الإمامة في عقب إبراهيم عليه السلام ـ رجوع الضمير في «جعلناهم» الى إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وظاهر قوله: ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أن الهداية بالأمر يجري مجرى المفسر لمعنى الإمامة. وقد تقدم الكلام في معنى هداية الإمام بأمر الله في الكلام على قوله تعالى: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ (البقرة / ١٢٤) في الجزء الأول من الكتاب.

والذي يخص المقام أن هذه الهداية المجعولة من شئون الإمامة ليست هي بمعنى إراءة الطريق لأن الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماماً بعدما جعله نبياً ـ كما أوضحناه في تفسير قوله: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ فيما تقدم ـ ولا تنفك النبوة عن الهداية بمعنى إراءة الطريق فلا يبقى للإمامة إلا الهداية بمعنى الإيصال الى المطلوب وهي نوع تصرف تكويني في النفوس بتسييرها في سير الكمال ونقلها من موقف معنوي الى موقف آخر.

وإذ كانت تصرفاً تكوينياً وعملاً باطنياً فالمراد الذي تكون به الهداية ليس هو الأمر

---

١. كقوله تعالى: «وجعلها كلمة باقية في عقبه» (الزخرف / ٢٨) وغيره.

التشريعي الاعتباري بل ما يفسره في قوله : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ (يس / ٨٣) فهو الفيوضات المعنوية والمقامات الباطنية التي يهتدي اليها المؤمنون بأعمالهم الصالحة ويتلبسون بها رحمة من ربهم .

وإذ كان الإمام يهدي بالأمر ـ والباء للسببية أو الآلة ـ فهو متلبس به أولاً ومنه ينتشر في الناس على اختلاف مقاماتهم فالإمام هو الرابط بين الناس وبين ربهم في إعطاء الفيوضات الباطنية وأخذها كما أن النبي رابط بين الناس وبين ربهم في أخذ الفيوضات الظاهرية وهي الشرائع الإلهية تنزل بالوحي على النبي وتنتشر منه وبتوسطه الى الناس وفيهم . والإمام دليل هاد للنفوس الى مقاماتها كما أن النبي دليل يهدي الناس الى الاعتقادات الحقة والأعمال الصالحة ، وربما تجتمع النبوة والإمامة كما في إبراهيم وابنيه .

وقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوٰةِ ﴾ إضافة المصدر الى معموله تفيد تحقق معناه في الخارج فإن أُريد أن لا يفيد الكلام ذلك جيء بالقطع عن الإضافة أو بأن وأنّ الدالتين على تأويل المصدر نص على ذلك الجرجاني في دلائل الإعجاز فقولنا : يعجبني إحسانك وفعلك الخير . وقوله تعالى : ﴿ ما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ (البقرة / ١٤٣) أيدلّ على الوقوع قبلاً . وقولنا : يعجبني أن تحسن وأن تفعل الخير وقوله تعالى : ﴿ أن تصوموا خير لكم ﴾ (البقرة / ١٨٤) لا يدل على تحقق قبلي ، ولذا كان المألوف في آيات الدعوة وآيات التشريع والإتيان بأن والفعل دون المصدر المضاف كقوله : ﴿ أُمرت أن أعبد الله ﴾ (الرعد / ٣٦) ، و ﴿ أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ (يوسف / ٤٠) ﴿ وأن أقيموا الصلاة ﴾ (الأنعام / ٧٢) .

وعلى هذا فقوله : « وأوحينا اليهم فعل الخيرات » الخ : يدل على تحقق الفعل أي أن الوحي تعلق بالفعل الصادر عنهم أي أن الفعل كان يصدر عنهم بوحي مقارن له ودلالة إلهيه باطنية هو غير الوحي المشرّع الذي يشرّع الفعل أولاً ويترتب عليه إتيان الفعل على ما

شرّع.

ويؤيد هذا الذي ذكره قوله بعد: «وكانوا لنا عابدين» فإنه يدل بظاهره على أنهم كانوا قبل ذلك عابدين لله ثم أُيدوا بالوحي وعبادتهم لله إنما كانت بأعمال شرّعها لهم الوحي المشرع قبلاً فهذا الوحي المتعلق بفعل الخيرات وحي تسديد ليس وحي تشريع.

فالمحصل أنهم كانوا مؤيدين بروح القدس والطهارة مسددين بقوة ربانية تدعوهم الى فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهي الإنفاق المالي الخاص بشريعتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ الى آخر الآيتين. الحكم بمعنى فصل الخصومات أو بمعنى الحكمة والقرية التي كانت تعمل الخبائث سدوم التي نزل بها لوط في مهاجرته مع إبراهيم عليه السلام، والمراد بالخبائث الأعمال الخبيثة، والمراد بالرحمة الولاية أو النبوة ولكل وجه، وقد تقدمت قصة لوط عليه السلام في تفسير سورة هود من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ الى آخر الآيتين، أي واذكر نوحا إذ نادى ربه قبل ابراهيم ومن ذكر معه فاستجبنا له، ونداؤه ما حكاه سبحانه من قوله: ﴿رب إني مغلوب فانتصر﴾ والمراد بأهله خاصته إلا امرأته وابنه الغريق، والكرب الغم الشديد، وقوله: «ونصرناه من القوم» كأن النصر مضمن معنى الإنجاء ونحوه ولذا عدي بمن، والباقي ظاهر.

وقد تقدمت قصة نوح عليه السلام في تفسير سورة هود من الكتاب[1].

٧٨ ● وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ.

---

١. الانبياء ٤٨ ـ ٧٧: بحث روائي في قصة ابراهيم عليه السلام وقومه.

٧٩ ● فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلّاً آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنّا فاعِلِينَ.

٨٠ ● وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ.

٨١ ● وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ.

٨٢ ● وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذٰلِكَ وَكُنّا لَهُمْ حافِظِينَ.

٨٣ ● وَأَيُّوبَ إِذْ نادىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ.

٨٤ ● فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرىٰ لِلْعابِدِينَ.

٨٥ ● وَإِسْمٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصّابِرِينَ.

٨٦ ● وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصّالِحِينَ.

٨٧ ● وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادىٰ فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلٰهَ إِلّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ.

٨٨ ● فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ.

٨٩ ● وَزَكَرِيّا إِذْ نادىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ.

٩٠ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ.

٩١ ۞ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ـ الى قوله ـ حُكْماً وَعِلْماً﴾ الحرث الزرع والحرث أيضاً الكرم. والنفش رعي الماشية بالليل. وفي المجمع: النفش بفتح الفاء وسكونها أن تنتشر الإبل والغنم بالليل فترعى بلا راع. انتهى.

وقوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِيه﴾ السياق يعطي أنها واقعة واحدة بعينها رفع حكمها الى داود لكونه هو الملك الحاكم في بني إسرائيل وقد جعله الله خليفة في الأرض كما قال: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾ (ص / ٢٦)، فإن كان سليمان يداخل في حكم الواقعة فمن إذن منه ولحكمة ما ولعلها إظهار أهليته للخلافة بعد داود.

ومن المعلوم أن لا معنى لحكم حاكمين في واقعة واحد شخصية مع استقلال كل واحد منهما في الحكم ونفوذه. ومن هنا يظهر أن المراد بقوله: «إذ يحكمان» إذ يتناظران أو يتشاوران في الحكم لا إصدار الحكم النافذ. ويؤيده كمال التأييد التعبير بقوله: «إذ يحكمان» على نحو حكاية الحال الماضية كأنهما أخذا في الحكم أخذاً تدريجياً لم يتم بعد ولن يتم إلا حكما واحدا

نافذا وكان الظاهر أن يقال : إذ حكما .

ويؤيده أيضا قوله : « وكنا لحكمهم شاهدين» فإن الظاهر أن ضمير « لحكمهم » للأنبياء وقد تكرر في كلامه تعالى أنه آتاهم الحكم لا كما قيل : إن الضمير لداود وسليمان والمحكوم لهم إذ لا وجه يوجه به نسبة الحكم الى المحكوم لهم أصلا . فكان الحكم حكما واحدا هو حكم الأنبياء والظاهر أنه ضمان صاحب الغنم للمال الذي أتلفته غنمه .

فكان الحكم حكما واحدا اختلفا في كيفية إجرائه عملا إذ لو كان الاختلاف في أصل الحكم لكان فرض صدور حكمين منهما بأحد وجهين إما بكون كلا الحكمين حكما واقعيا لله ناسخاً أحدهما ـ وهو حكم سليمان ـ الآخر وهو حكم داود لقوله تعالى : « ففهمناها سليمان » وإما بكون الحكمين معا عن اجتهاد منهما بمعنى الرأي الظني مع الجهل بالحكم الواقعي وقد صدق تعالى اجتهاد سليمان فكان هو حكمه .

أما الأول وهو كون حكم سليمان ناسخاً لحكم داود فلا ينبغي الارتياب في أن ظاهر جمل الآية لا يساعد عليه إذ الناسخ والمنسوخ متباينان ولو كان حكماهما من قبيل النسخ ومتباينين لقيل : وكنا لحكمهما أو لحكميهما ليدل على التعدد والتباين ولم يقل : « وكنا لحكمهم شاهدين » المشعر بوحدة الحكم وكونه تعالى شاهدا له الظاهر في صونهم عن الخطاء ، ولو كان داود حكم في لواقعة بحكم منسوخ لكان على الخطاء ، ولا يناسبه أيضاً قوله : « وكلا آتينا حكما وعلما » وهو مشعر بالتأييد ظاهر في المدح .

وأما الثاني وهو كون الحكمين عن اجتهاد منهما مع الجهل بحكم الله الواقعي فهو أبعد من سابقه لأنه تعالى يقول « ففهمناها سليمان » وهو العلم بحكم الله الواقعي وكيف ينطبق على الرأي الظني بما أنه رأي ظني . ثم يقول : وكلا آتينا حكما وعلما فيصدق بذلك أن الذي حكم به داود أيضاً كان حكما علمياً لا ظنياً ولو لم يشمل قوله : « وكلا آتينا حكما وعلما » حكم داود في الواقعة لم يكن وجه لإيراد الجملة في المورد .

على أنك سمعت أن قوله: «وكنا لحكمهم شاهدين» لا يخلو من إشعار بل دلالة على أن الحكم كان واحدا ومصونا عن الخطاء. فلا يبقى إلا أن يكون حكمهما واحدا في نفسه مختلفا من حيث كيفية الإجراء وكان حكم سليمان أوفق وأرفق.

وقد وردت في روايات الشيعة وأهل السنة ما إجماله أن داود حكم لصاحب الحرث برقاب الغنم وسليمان حكم له بمنافعها في تلك السنة من ضرع وصوف ونتاج.

ولعل الحكم كان هو ضمان ما أفسدته الغنم من الحرث على صاحبها وكان ذلك مساويا لقيمة رقاب الغنم فحكم داود لذلك برقابها لصاحب الحرث، وحكم سليمان بما هو أرفق منه وهو أن يستوفي ما أتلفت من ماله من منافعها في تلك السنة والمنافع المستوفاة من الغنم كل سنة تعدل قيمتها قيمة الرقبة عادة.

فقوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي واذكر داود وسليمان «إذ» حين يحكمان في الحرث «إذ» حين «نفشت فيه غنم القوم» أي تفرقت فيه ليلا وأفسدته «وكنا لحكمهم» أي لحكم الأنبياء. وقيل: الضمير راجع الى داود وسليمان والمحكوم له، وقد عرفت ما فيه. وقيل: الضمير لداود وسليمان لأن الاثنين جمع وهو كما ترى «شاهدين» حاضرين نرى ونسمع ونوقفهم على وجه الصواب فيه «ففهمناها» أي الحكومة والقضية «سليمان وكلا» من داود وسليمان «آتيناه حكما وعلما» وربما قيل: إن تقدير صدر الآية «وآتينا داود وسليمان حكما وعلما» إذ يحكمان، الخ.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾

التسخير هو تذليل الشيء بحيث يكون عمله على ما هو عليه في سبيل مقاصد المسخر - بكسر الخاء - وهذا غير الإجبار والإكراه والقسر فإن الفاعل فيها خارج عن مقتضى اختياره أو طبقه بخلاف الفاعل المسخر - بفتح الخاء - فإنه جار على مقتضى طبعه واختياره كما أن إحراق الانسان الحطب بالنار فعل تسخيري من النار وليست بمقسورة وكذا فعل

الأجير لمؤجره فعل تسخيري من الأجير وليس بجبر ولا مكره.

ومن هنا يظهر أن معنى تسخير الجبال والطير مع داود يسبحن معه أن لهما تسبيحاً في نفسهما وتسخيرهما أن يسبحن مع داود بمواطاة تسبيحه فقوله: «يسبحن معه» بيان لقوله: «وسخرنا مع داود» وقوله: «والطير» معطوف على الجبال.

وقوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي كانت أمثال هذه المواهب والعنايات من سنتنا وليس ما أنعمنا به عليهما ببدع منا.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ قال في المجمع: اللبوس اسم للسلاح كله عند العرب ـ الى أن قال ـ وقيل: هو الدرع انتهى. وفي المفردات: وقوله تعالى: «صنعة لبوس لكم» يعني به الدرع.

والبأس شدة القتال وكأن المراد به في الآية شده وقع السلاح وضمير «وعلمناه» لداود كما قال في موضع آخر: ﴿وألنا له الحديد﴾ والمعنى وعلمنا داود صنعة درعكم ـ أي علمناه كيف يصنع لكم الدرع لتحرزكم وتمنعكم شدة وقع السلاح وقوله: «فهل أنتم شاكرون» تقرير على الشكر.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ الخ: عطف على قوله: «لداود» أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة أي شديدة الهبوب تجري الريح بأمره الى الأرض التي باركنا فيها وهي أرض الشام التي كان يأوي اليها سليمان وكنا عالمين بكل شيء.

وذكر تسخير الريح عاصفة مع أن الريح كانت مسخرة له في حالتي شدتها ورخائها كما قال: ﴿رخاء حيث أصاب﴾ (ص / ٣٦) لأن تسخير الريح عاصفة أعجب وأدل على القدرة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ كان الغوص لاستخراج أمتعة البحر من اللئالي وغيرها، والمراد

بالعمل الذي دون ذلك ما ذكره بقوله: ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ (سبأ / ١٣). والمراد بحفظ الشياطين حفظهم في خدمته ومنعهم من أن يهربوا أو يمتنعوا أو يفسدوا عليه الأمر. والمعنى ظاهر وستجيء قصتا داود وسليمان عليهما السلام في سورة سبأ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ الضر بالضم خصوص ما يمس النفس من الضرر كالمرض والهزال ونحوهما وبالفتح أعم.

وقد شملته عليه السلام البلية فذهب ماله ومات أولاده وابتلي في بدنه بمرض شديد مدة مديدة ثم دعا الله وشكى اليه حاله فاستجاب الله له ونجاه من مرضه وأعاد عليه ماله وولده ومثلهم معهم وهو قوله في الآية التالية: «فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرّ» أي نجيناه من مضره وشفيناه «وآتيناه أهله» أي من مات من أولاده «ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين» ليتذكروا ويعلموا أن الله يبتلي أولياءه امتحانا منه لهم ثم يؤتيهم أجرهم ولا يضيع أجر المحسنين.

وستجيء قصة أيوب عليه السلام في سورة ص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ الخ: أما إدريس عليه السلام فقد تقدمت قصته في سورة مريم. وأما إسماعيل فستجيء قصته في سورة الصافات. وتأتي قصة ذي الكفل في سورة ص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ الخ: النون الحوت وذو النون هو يونس النبي ابن متى صاحب الحوت الذي بعث الى أهل نينوى فدعاهم فلم يؤمنوا فسأل الله أن يعذبهم فلما أشرف عليهم العذاب تابوا وآمنوا فكشفه الله عنهم ففارقهم يونس فابتلاه الله أن ابتلعه حوت فناداه تعالى في بطنه فكشف عنه وأرسله ثانياً الى

قومه.

وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي واذكر ذا النون إذ ذهب مغاضباً أي لقومه حيث لم يؤمنوا به فظن أن لن نقدر عليه أي لن نضيق عليه من قدر عليه رزقه أي ضاق كما قيل.

ويمكن أن يكون قوله: «إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه» وارداً مورد التمثيل أي كان ذهابه هذا ومفارقة قومه ذهاب من كان مغاضبا لمولاه وهو يظن أن مولاه لن يقدر عليه وهو يفوته بالابتعاد منه فلا يقوى على سياسته وأما كونه ﷺ مغاضبا لربه حقيقة وظنه أن الله لا يقدر عليه جدا فما يجل ساحة الأنبياء الكرام عن ذلك قطعا وهم معصومون بعصمة الله.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الخ؛ فيه إيجاز بالحذف والكلام متفرع عليه والتقدير فابتلاه الله بالحوت فالتقمه في بطنه ربه، والظاهر أن المراد بالظلمات كما قيل ـ ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وظلمة الليل.

وقوله: ﴿أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ تبر منه ﷺ مما كان يمثله ذهابه لوجهه ومفارقته قومه من غير أن يؤمر فان ذهابه ذلک كان يمثل ـ وإن لم يكن قاصدا ذلك متعمداً فيه ـ أن هناك مرجعا يمكن أن يرجع اليه غير ربه فتبرء من ذلك بقوله: «لا إله إلا أنت» وكان يمثل أن من الجائز أن يعترض على فعله فيغاضب منه وأن من الممكن أن يفوته تعالى فائت فيخرج من حيطة قدرته فتبرء من ذلك بتنزيهه بقوله: سبحانك.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف بالظلم من حيث إنه أتى بعمل كان يمثل الظلم وإن لم يكن ظلما في نفسه ولا هو ﷺ قصد به الظلم والمعصية غير أن ذلك كان تأديبا منه تعالى وتربية لنبيه ليطأ بساط القرب بقدم مبرأة في مشيتها من تمثيل الظلم فضلاً عن نفس الظلم.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾

هو عليه السلام وإن لم يصرح بشيء من الطلب والدعاء، وإنما أتى بالتوحيد والتنزيه واعترف بالظلم لكنه أظهر بذلك حاله وأبدى موقفه من ربه وفيه سؤال النجاة والعافية فاستجاب الله له. ونجاه من الغم وهو الكرب الذي نزل به.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعد بالإنجاء لمن ابتلي من المؤمنين بغمّ ثم نادى ربه بمثل ما نادى به يونس عليه السلام وستجيء قصته عليه السلام في سورة الصافات إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ معطوف على ما عطف عليه ما قبله أي واذكر زكريا حين نادى ربه يسأل ولدا

وقوله: «ربِّ لا تذرني فردا» بيان لندائه، والمراد بتركه فردا أن يترك ولا ولد له يرثه.

وقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ثناء وتحميد له تعالى بحسب لفظه ونوع تنزيه له بحسب المقام إذ لما قال: «لا تذرني فردا» وهو كناية عن طلب الوارث والله سبحانه هو الذي يرث كل شيء نزهه تعالى عن مشاركة غيره له في معنى الوراثة ورفعه عن مساواة غيره فقال: «وأنت خير الوارثين».

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ الخ: ظاهر الكلام أن المراد بإصلاح زوجه أي زوج زكريا له جعلها شابة ولودا بعدما كانت عاقرا كما يصرح به في دعائه ﴿وكانت مرأتي عاقرا﴾ (مريم /٨).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ ظاهر السياق أن ضمير الجمع لبيت زكريا، وكأنه تعليل لمقدر معلوم من سابق الكلام والتقدير نحو من قولنا: انعمنا عليهم لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات.

والرغب والرهب مصدران كالرغبة والرهبة بمعنى الطمع والخوف وهما تميزان إن كانا باقيين على معناهما المصدري وحالان إن كانا بمعنى الفاعل، والخشوع هو تأثر القلب من مشاهدة العظمة والكبرياء.

والمعنى: أنعمنا عليهم لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات من الأعمال ويدعوننا رغبة في رحمتنا أو ثوابنا رهبة من غضبنا أو عقابنا أو يدعوننا راغبين راهبين وكانوا لنا خاشعين بقلوبهم.

وقد تقدمت قصة زكريا ويحيى عليهما السلام في أوائل سورة مريم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ المراد بالتي أحصنت فرجها مريم ابنة عمران وفيه مدح لها بالعفة والصيانة وردّ لما اتهمها به اليهود.

وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ الضمير لمريم والنفخ فيها من الروح كناية عن عدم استناد ولادة عيسى عليه السلام الى العادة الجارية في كينونة الولد من تصور النطفة أولاً ثم نفخه الروح فيها فإذا لم يكن هناك نطفة مصورة لم يبق إلا نفخ الروح فيها وهي الكلمة الالهية كما قال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (آل عمران / ٥٩) أي مثلهما واحد في استغناء خلقهما عن النطفة.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أفرد الآية فعدهما أعني مريم وعيسى عليهما السلام معا آية واحدة للعالمين لأن الآية هي الولادة كذلك وهي قائمة بهما معا ومريم أسبق قدما في إقامة هذه الآية ولذا قال تعالى: «وجعلناها وابنها آية» ولم يقل: وجعلنا ابنها وإياها آية. وكفى لها فخراً أن يدخل ذكرها في ذكر الأنبياء عليهم السلام في كلامه تعالى وليست منهم[1].

٩٢ ● إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ.

---

١. الانبياء ٧٨ ـ ٩١: بحث روائي في قصة داود وسليمان وذا النون.

٩٣ ❁ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ.

٩٤ ❁ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنّا لَهُ كاتِبُونَ.

٩٥ ❁ وَحَرامٌ عَلىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ.

٩٦ ❁ حَتّىٰ إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ.

٩٧ ❁ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذا بَلْ كُنّا ظالِمِينَ.

٩٨ ❁ إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ.

٩٩ ❁ لَوْ كانَ هٰؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ.

١٠٠ ❁ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ.

١٠١ ❁ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الْحُسْنىٰ أُولٰئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ.

١٠٢ ❁ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ.

١٠٣ ❁ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هٰذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ.

١٠٤ ❁ يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنّا كُنّا فاعِلِينَ.

١٠٥ ❁ وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ

الصّالِحُونَ.

١٠٦ ﴿ إِنَّ فِي هٰذٰا لَبَلاٰغاً لِقَوْمٍ عٰابِدِينَ.

١٠٧ ﴿ وَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ.

١٠٨ ﴿ قُلْ إِنَّمٰا يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

١٠٩ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلىٰ سَوٰاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ
مٰا تُوعَدُونَ.

١١٠ ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مٰا تَكْتُمُونَ.

١١١ ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ.

١١٢ ﴿ قٰالَ رَبِّ احْكُمْ بِالحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعٰانُ عَلىٰ مٰا
تَصِفُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الامة جماعة يجمعها مقصد واحد، والخطاب في الآية على ما يشهد به سياق الآيات ـ خطاب عام يشمل جميع الأفراد المكلفين من الإنسان، والمراد بالأمة النوع الانساني الذي هو نوع واحد، وتأنيث الإشارة في قوله: «هذه أمتكم» لتأنيث الخبر.

والمعنى: أن هذا النوع الإنساني أُمتكم معشر البشر وهي أُمة واحدة وأنا ـ الله الواحد عز اسمه ـ ربكم إذ ملكتكم ودبرت أمركم فاعبدوني لا غير.

وفي قوله: ﴿أُمَّةً وٰاحِدَةً﴾ إشارة الى حجة الخطاب بالعبادة لله سبحانه فإن النوع الإنساني لما كان نوعاً واحداً وأُمة واحدة ذات مقصد واحد وهو سعادة الحياة الإنسانية لم

يكن له إلا رب واحد إذ الربوبية والألوهية ليست من المناصب التشريفية الوضعية حتى يختار الإنسان منها لنفسه ما يشاء وكم يشاء وكيف يشاء بل هي مبدئية تكوينية لتدبير أمره، والانسان حقيقة نوعية واحدة. والنظام الجاري في تدبير أمره نظام واحد متصل مرتبط بعضي أجزائه ببعض، ونظام التدبير الواحد لا يقوم به إلا مدبر واحد فلا معنى لأن يختلف الإنسان في أمر الربوبية فيتخذ بعضهم ربا غير ما يتخذه الآخر أو يسلك قوم في عبادته غير ما يسلكه الآخرون فالإنسان نوع واحد يجب أن يتخذ ربا واحدا هو رب بحقيقة الربوبية. وهو الله عز اسمه.

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ التقطع على ما قال في مجمع البيان بمعنى التقطيع وهو التفريق. وقيل: هو بمعناه المتبادر وهو التفرق والاختلاف و«أمرهم» منصوب بنزع الخافض، والتقدير فتقطعوا في أمرهم وقيل «تقطعوا» مضمن معنى الجعل ولذا عدي الى المفعول بنفسه.

وكيف كان فقوله: «فتقطعوا أمرهم بينهم» استعارة بالكناية والمراد به أنهم جعلوا هذا الأمر الواحد وهو دين التوحيد المندوب اليه من طريق النبوة وهو أمر وحداني قطعا متقطعة وزعوه فيا بينهم أخذ كل منهم شيئاً منه وترك شيئاً كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس والصابئين على اختلاف طوائفهم وهذا نوع تقريع للناس وذم لاختلافهم في الدين وتركهم الأمر الإلهي أن يعبدوه وحده.

وقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فيه بيان أن اختلافهم في أمر الدين لا يترك سدى لا أثر له بل هؤلاء راجعون الى الله جميعاً وهم مجزيون حسب ما اختلفوا كما يلوح اليه التفصيل المذكور في قوله بعد: «فمن يعمل من الصالحات» الخ.

والفصل في جملة «كل إلينا راجعون» لكونها في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فإلى مَ ينتهي اختلافهم في أمر الدين؟ وماذا ينتج؟ فقيل: كل الينا راجعون فنجازيهم كما

علموا.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ تفصيل لحال المختلفين بحسب الجزاء الأخروي وسيأتي ما في معنى تفصيل جزائهم في الدنيا من قوله: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون».

فقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي من يعمل منهم شيئاً من الأعمال الصالحات وقد قيد عمل بعض الصالحات بالايمان إذ قال: «وهو مؤمن» فلا أثر للعمل الصالح بغير إيمان.

والمراد بالايمان ـ على ما يظهر من السياق وخاصة قوله في الآية الماضية: «وأنا ربكم فاعبدون» ـ الايمان بالله قطعا غير أن الايمان بالله لا يفارق الايمان بأنبيائه من دون استثناء لقوله: **﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ـ الى قوله ـ أولئك هم الكافرون حقاً﴾** (النساء / ١٥١).

وقوله: ﴿فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا ستر على ما عمله من الصالحات والكفران يقابل الشكر ولذا عبر عن هذا المعنى في موضع آخر بقوله: **﴿وكان سعيكم مشكورا﴾** (الدهر / ٢٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي مثبتون في صحائف الأعمال إثباتاً لا ينسى معه فالمراد بقوله: «فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون» أن عمله الصالح لا ينسى ولا يكفر.

والآية من الآيات الدالة على أن قبول العمل الصالح مشروط بالايمان كما تؤيده آيات حبط الأعمال مع الكفر. وتدل أيضاً على أن المؤمن العامل لبعض الصالحات من أهل النجاة.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ الذي يستبق من

الآية الى الذهن بمعونة من سياق التفصيل أن يكون المراد أن أهل القرية التي أهلكناها لا يرجعون ثانياً الى الدنيا ليحصلوا على ما فقدوه من نعمة الحياة ويتداركوا ما فوتوه من الصالحات وهو واقع محل أحد طرفي التفصيل الذي تضمن طرفه الآخر قوله: «فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن» الخ؛ فيكون الطرف الآخر من طرفي التفصيل أن من لم يكن مؤمنا قد عمل من الصالحات فليس له عمل مكتوب وسعي مشكور وإنما هو خائب خاسر ضل سعيه في الدينا ولا سبيل له الى حياة ثانية في الدنيا يتدارك فيها ما فاته.

غير أنه تعالى وضع المجتمع موضع الفرد إذ قال: «وحرام على قرية أهلكناها» ولم يقل: وحرام على من أهلكناه لأن فساد الفرد يسري بالطبع الى المجتمع وينتهي الى طغيانهم فيحق عليهم كلمة العذاب فيهلكون كما قال: ﴿ **وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا** ﴾ (الإسراء / ٥٨).

ويمكن ـ على بعد ـ أن يكون المراد بالإهلاك الإهلاك بالذنوب بمعنى بطلان استعداد السعادة والهدى كما في قوله: ﴿ **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ (الأنعام / ٢٦) فتكون الآية في معنى قوله: ﴿ **فإن الله لا يهدي من يضل** ﴾ (النحل / ٣٧)، والمعنى وحرام على قوم أهلكناهم بذنوبهم وقضينا عليهم الضلال أن يرجعوا الى التوبة وحال الاستقامة.

ومعنى الآية والقرية التي لم تعمل من الصالحات وهي مؤمنة وانجز أمرها الى الإهلاك ممتنع عليهم أن يرجعوا فيتداركوا ما فاتهم من السعي المشكور والعمل المكتوب المقبول.

وأما قوله: ﴿ **أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ** ﴾ وكان الظاهر أن يقال: أنهم يرجعون فالحق أنه مجاز عقلي وضع فيه نتيجة تعلق الفعل بشيء ـ أعني ما يؤول اليه حال المتعلق بعد تعلقه به ـ موضع نفس المتعلق فنتيجة تعلق الحرمة برجوعهم عدم الرجوع فوضعت هذه النتيجة موضع نفس الرجوع الذي هو متعلق الحرمة وفي هذا الصنع إفادة نفوذ الفعل كأن الرجوع يصير بمجرد تعلق الحرمة عدم رجوع من غير تخلل فصل.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ الحدب بفتحتين الارتفاع من الأرض بين الانخفاض. والنسول الخروج بإسراع ومنه نسلان الذئب. والسياق يقتضي أن يكون قوله: «حتى إذا فتحت» الخ: غاية للتفصيل المذكور في قوله: «فمن يعمل من الصالحات» الى آخر الآيتين؛ وأن يكون ضمير الجمع راجعاً الى يأجوج ومأجوج.

والمعنى: لا يزال الأمر يجري هذا المجرى نكتب الأعمال الصالحة للمؤمنين ونشكر سعيهم ونهلك القرى الظالمة ونحرم رجوعهم بعد الهلاك الى الزمان الذي يفتح فيه يأجوج ومأجوج أي سدهم أو طريقهم المسدود وهم أي يأجوج ومأجوج يخرجون الى سائر الناس من ارتفاعات الأرض مسرعين نحوهم وهو من أشراط الساعة وأمارات القيامة كما يشير اليه بقوله: ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾ (الكهف / ٩٩) وقد استوفينا الكلام في معنى يأجوج ومأجوج والسد المضروب دونهم في تفسير سورة الكهف.

قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الخ: المراد بالوعد الحق الساعة، وشخوص البصر نظره بحيث لا تطرف أجفانه. وكذا ذكره الراغب وهو لازم كمال اهتمام الناظر بما ينظر اليه بحيث لا يشتغل بغيره ويكون غالباً من الشر الذي يظهر للإنسان بغتة.

وقوله: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ حكاية قول الكفار إذا شاهدوا الساعة بغتة فدعوا لأنفسهم بالويل مدعين أنهم غفلوا عما يشاهدونه كأنهم أُغفلوا إغفالا ثم أضربوا عن ذلك بالاعتراف بأن الغفلة لم تنشأ إلا عن ظلمهم بالاشتغال بما يُنسي الآخرة ويُغفل عنها من أُمور النيا فقالوا: «بل كنا ظالمين».

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا

وَارِدُونَ ﴾ الحصب الوقود، وقيل: الحطب، وقيل: أصله ما يرمى في النار فيكون أعم.

والمراد بقوله: ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون ـ مع تعبيره تعالى عن الأصنام في أغلب كلامه بألفاظ تختص بأولي العقل كما في قوله بعد: «ما وردوها» ـ الأصنام والتماثيل التي كانوا يعبدونها دون المعبودين من الأنبياء والصلحاء والملائكة كما قيل ويدل على ذلك قوله بعد: «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى» الخ.

والظاهر أن هذه الآيات من خطابات يوم القيامة للكفار وفيها القضاء بدخولهم في النار وخلودهم فيها لا أنها إخبار في الدنيا بما سيجري عليهم في الآخرة واستدلال على بطلان عبادة الأصنام واتخاذهم آلهة من دون الله.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ اللام لتأكيد التعدي أو بمعنى الى، وظاهر السياق أن الخطاب شامل للكفار والآلهة جميعاً أي أنتم وآلهتكم تردون جهنم أو تردون اليها.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ تفريع وإظهار لحقيقة حال الآلهة التي كانوا يعبدونها لتكون لهم شفعاء، وقوله: «وكل فيها خالدون» أي كل منكم ومن الآلهة.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ الزفير هو الصوت برد النفس الى داخل ولذا فسر بصوت الحمار، وكونهم لا يسمعون جزاء عدم سمعهم في الدنيا كلمة الحق كما أنهم لا يبصرون جزاء لإعراضهم عن النظر في آيات الله في الدنيا.

وفي الآية عدول عن خطاب الكفار الى خطاب النبي ﷺ إعراضاً عن خطابهم ليبين سوء حالهم لغيرهم، وعليه فضمائر الجمع للكفار خاصة لا لهم وللآلهة معا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ الحسنى مؤنث أحسن وهي وصف قائم مقام موصوفه والتقدير العدة أو الموعدة الحسنى بالنجاة أو بالجنة والموعدة بكل منهما وارد في كلامه تعالى قال: ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر

الظالمين فيها جثياً﴾ (مريم / ٧٢)، وقال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ (التوبة / ٧٢).

قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ـ الى قوله ـ تُوعَدُونَ﴾ الحسيس الصوت الذي يحس به، والفزع الأكبر الخوف الأعظم وقد أخبر سبحانه عن وقوعه في نفخ الصور حيث قال: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض﴾ (النمل / ٨٧).

وقوله: «وتتلقاهم الملائكة» أي بالبشرى وهي قولهم: «هذا يومكم الذي كنتم توعدون».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ الى آخر الآية؛ قال في المفردات: والسجل قيل: حجر كان يكتب فيه ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلا قال تعالى: «كطي السجل للكتب» أي كطيه لما كتب فيه حفظا له، انتهى. وهذا أوضح معنى قيل في معنى هذه الكلمة وأبسطه.

وعلى هذا فقوله: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ مفعول طي كما أن السجل فاعله والمراد أن السجل وهو الصحيفة المكتوب فيها الكتاب إذا طوي انطوى بطيه الكتاب وهو الألفاظ أو المعاني التي لها نوع تحقق وثبوت في السجل بتوسط الخطوط والنقوش فغاب الكتاب بذلك ولم يظهر منه عين ولا أثر كذلك السماء تنطوي بالقدرة الالهية كما قال: ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ (الزمر / ٦٧) فتغيب عن غيره ولا يظهر منها عين ولا أثر غير أنها لا تغيب عن عالم الغيب وإن غاب عن غيره كما لا يغيب الكتاب عن السجل وإن غاب عن غيره.

فطي السماء على هذا رجوعها الى خزائن الغيب بعدما نزلت منها وقدرت كما قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما نزله إلا قدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١) وقال مطلقا: ﴿وإلى الله المصير﴾ (آل عمران / ٢٨) وقال: ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ (العلق / ٨).

ولعله بالنظر الى هذا المعنى قيل: إن قوله «كما بدأنا أول خلق نعيده» ناظر الى رجوع كل

شيء الى حاله التي كان عليه حين ابتدىء خلقه وهي أنه لم يكن شيئاً مذكوراً كما قال تعالى: ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ (مريم / ٩)، وقال: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ (الدهر / ١).

وقوله: ﴿وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي وعدناه وعد الزمنا ذلك ووجب علينا الوفاء به وإنا كنا فاعلين لما وعدنا وسنتنا ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الظاهر أن المراد بالزبور كتاب داود ﷺ وقد سمي بهذا الاسم في قوله: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ (النساء / ١٦٣)، (الإسراء / ٥٥)، وقيل: المراد به القرآن، وقيل: مطلق الكتب المنزّلة على الأنبياء أو على الأنبياء بعد موسى ولا دليل على شيء من ذلك.

والمراد بالذكر قيل: هو التوراة وقد سمّاها الله به في موضعين من هذه السورة وهما قوله: ﴿فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (الآية ٧) وقوله: ﴿وذكراً للمتقين﴾ (الآية ٤٨)، وقيل: هو القرآن وقد سمّاه الله ذكرا في مواضع من كلامه وكون الزبور بعد الذكر على هذا القول بعدية رتبية لا زمانية وقيل: هو اللوح المحفوظ وهو كما ترى.

وقوله: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الوراثة والإرث على ما ذكره الراغب انتقال قنية اليك من غير معاملة.

والمراد من وراثة الأرض انتقال التسلط على منافعها اليهم واستقرار بركات الحياة بها فيهم، وهذه البركات إما دنيوية راجعة الى الحياة الدنيا كالتمتع الصالح بأمتعتها وزيناتها فيكون مؤدي الآية أن الأرض ستتطهر من الشرك والمعصية ويسكنها مجتمع بشرى صالح يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ـ الى قوله ـ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ (النور / ٥٥).

وإما أُخروية وهي مقامات القرب التي اكتسبوها في حياتهم الدنيا فإنها من بركات الحياة الأرضية وهي نعيم الآخرة كما يشير اليه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أورثنا الأرض نتبوء من الجنة حيث نشاء ﴾ (الزمر / ٧٤) ، وقوله : ﴿ أُولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ﴾ (المؤمنون / ١١) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هٰذٰا لَبَلاٰغاً لِقَوْمٍ عٰابِدِينَ ﴾ البلاغ هو الكفاية ، وأيضاً ما به بلوغ البغية ، وأيضاً نفس البلوغ ، ومعنى الآية مستقيم على كل من المعاني الثلاثة ، والإشارة بهذا الى ما بيّن في السورة من المعارف .

والمعنى : أن فيما بيناه في السورة ـ أن الرب واحد لا رب غيره يجب أن يعبد من طريق النبوة ويستعد بذلك ليوم الحساب ، وأن جزاء المؤمنين كذا وكذا وجزاء الكافرين كيت وكيت ـ كفاية لقوم عابدين إن أخذوه وعملوا به كفاهم وبلغوا بذلك بغيتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ ﴾ أي أنك رحمة مرسلة الى الجماعات البشرية كلهم ـ والدليل عليه الجمع المحلى باللام ـ وذلك مقتضى عموم الرسالة .

وهو ﷺ رحمة لأهل الدنيا من جهة إتيانه بدين في الأخذ به سعادة أهل الدنيا في دنياهم وأُخراهم .

وهو ﷺ رحمة لأهل الدنيا من حيث الآثار الحسنة التي سرت من قيامه بالدعوة الحقة في مجتمعاتهم مما يظهر ظهوراً بالغا بقياس الحياة العامة البشرية اليوم الى ما قبل بعثته ﷺ وتطبيق إحدى الحياتين على الأُخرى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمٰا يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي إن الذي يوحى الى من الدين ليس إلا التوحيد وما يتفرع عليه وينحل اليه سواء كان عقيدة أو حكما والدليل على هذا الذي ذكرنا ورود الحصر وظهوره في الحصر الحقيقي .

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ الإيذان ـ كما قيل ـ إفعال من الإذن وهو العلم بالإجازة في شيء وترخيصه ثم تجوز به عن مطلق العلم واشتق منه الأفعال وكثيراً ما يتضمن معنى التحذير والإنذار.

وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ الظاهر أنه حال من مفعول «آذنتكم» والمعنى فإن أعرضوا عن دعوتك وتولوا عن الإسلام لله بالتوحيد فقل: أعلمتكم أنكم على خطرها لكونكم مساوين في الإعلام أو في الخطر. وقيل: أعلمتكم بالحرب وهو بعيد في سورة مكية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ تتمة قول النبي ﷺ المأمور به.

والمراد بقوله: «ما توعدون» ما يشير اليه قوله: «آذنتكم على سواء» من العذاب المهدد به أُمر ﷺ أولاً أن يعلمهم الخطر إن تولوا عن الإسلام، وثانياً أن ينفي عن نفسه العلم بقرب وقوعه وبعده ويعلله بقصر العلم بالجهر من قولهم ـ وهو طعنهم في الإسلام واستهزاؤهم علناً ـ وما يكتمون من ذلك، في الله سبحانه فهو العالم بحقيقة الأمر.

ومنه يعلم أن منشأ توجه العذاب اليهم هو ما كانوا يطعنون به في الإسلام في الظاهر وما يبطنون من المكر كأنه قيل: إنهم يستحقون العذاب بإظهارهم القول في هذه الدعوة الإلهية وإضمارهم المكر عليه فهددهم به لكن لما كنت لا تحيط بظاهر قولهم وباطن مكرهم ولا تقف على مقدار اقتضاء جرمهم العذاب من جهة قرب الأجل وبعده فأنف العلم بخصوصية قربه وبعده عن نفسك وارجع العلم بذلك الى الله سبحانه وحده.

وقد علم بذلك أن المراد بالجهر من القول ما أظهره المشركون من القول في الإسلام طعنا واستهزاء، وبما كانوا يكتمون ما أبطنوه عليه من المكر والخدعة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ من تتمة قول النبي ﷺ المأمور به وضمير «لعله» على ما قيل كناية عن غير مذكور ولعله راجع الى

الإيذان المأمور به. والمعنى وما أدري لعل هذا الإيذان الذي أُمرت به أي مراده تعالى من أمره لي بإعلام الخطر امتحان لكم ليظهر به ما في باطنكم في أمر الدعوة فهو يريد به أن يمتحنكم ويمتعكم الى حين وأجل استدارجا وإمهالا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ الضمير في «قال» للنبي ﷺ والآية حكاية قول النبي ﷺ عن دعوتهم الى الحق وردهم له وتوليهم عنه فكأنه ﷺ لما دعاهم وبلغ اليهم ما أُمر بتبليغه فأنكروا وشددوا فيه أعرض عنهم الى ربه منيباً اليه وقال: «رب احكم بالحق» وتقييد الحكم بالحق توضيحي لا احترازي فإن حكمه تعالى لا يكون إلا حقاً فكأنه قيل: رب احكم بحكمك الحق والمراد ظهور الحق لمن كان وعلى من كان.

ثم التفت ﷺ اليهم وقال: «وربنا الرحمان المستعان على ما تصفون» وكأنه يشير به الى سبب إعراضه عنهم ورجوعه الى الله سبحانه وسؤاله أن يحكم بالحق فهو سبحانه ربه وربهم جميعاً فله أن يحكم بين مربوبيه، وهو كثير الرحمة لا يخيب سائله المنيب اليه، وهو الذي يحكم لا معقب لحكمه وهو الذي يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته فهو ﷺ في كلمته «ربِّ احكم بالحق» راجع الذي هو ربه وربهم وسأله برحمته أن يحكم بالحق واستعان به على ما يصفونه من الباطل وهو نعتهم دينهم بما ليس فيه وطعنهم في الدين الحق بما هو بريء من ذلك[1].

---

١. الانبياء ٩٢ ـ ١١٢: بحث روائي في المشركين وما يعبدون من دون الله.

سورة الحج مدنية وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.

٢ ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ.

بيان:

السورة تخاطب المشركين بأُصول الدين إنذاراً وتخويفا كما كانوا يخاطبون في السور النازلة قبل الهجرة في سياق يشهد بأن لهم بعد شوكة وقوة، وتخاطب المؤمنين بمثل الصلاة ومسائل الحج وعمل الخير والإذن في القتال والجهاد في سياق يشهد بأن لهم مجتمعاً حديث العهد بالانعقاد قائماً على ساق لا يخلو من عدة وعدة وشوكة.

ويتعين بذلك أن السورة مدنية نزلت بالمدينة ما بين هجرة النبي ﷺ وغزوة بدر

وغرضها بيان أُصول الدين بيانا تفصيلياً ينتفع بها المشرك والموحد وفروعها بيانا اجمالياً ينتفع بها الموحدون من المؤمنين إذ لم يكن تفاصيل الأحكام الفرعية مشرعة يومئذ إلا مثل الصلاة والحج كما في السورة.

ولكون دعوة المشركين الى الاصول من طريق الإنذار وكذا ندب المؤمنين الى إجمال الفروع بلسان الأمر بالتقوى بسط الكلام في وصف يوم القيامة وافتتح السورة بالزلزلة التي هي من أشراطها وبها خراب الأرض واندكاك الجبال.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلة والزلزال شدة الحركة على الحال الهائلة وكأنه مأخوذ بالاشتقاق الكبير من زل بمعنى زلق فكرر للمبالغة والإشارة الى تكرر الزلة. وهو شائع في نظائره مثل ذب وذبذب ودم ودمدم وكب وكبكب ودك ودكدك ورف ورفرف وغيرها.

الخطاب يشمل الناس جميعاً من مؤمن وكافر وذكر وأُنثى وحاضر وغائب وموجود بالفعل ومن سيوجد منهم، وذلك بجعل بعضهم من الحاضرين وصلة الى خطاب الكل لاتحاد الجميع بالنوع.

وهو أمر الناس أن يتقوا ربهم فيتقيه الكافر بالإيمان والمؤمن بالتجنب عن مخالفة أوامره ونواهيه في الفروع، وقد علل الأمر بعظم زلزلة الساعة فهو دعوة من طريق الإنذار.

وإضافة الزلزلة الى الساعة لكونها من أشراطها وأماراتها، وقيل: المراد بزلزلة الساعة شدتها وهولها، ولا يخلو من بعد من جهة اللفظ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ الذهول الذهاب عن الشيء مع دهشة، والحمل بالفتح الثقل المحمول في الباطن كالولد في البطن وبالكسر الثقل المحمول في الظاهر كحمل بعير قاله الراغب. وقال في مجمع البيان: الحمل بفتح الحاء ما كان في بطن أو على رأس شجرة، والحمل بكسر الحاء ما كان على ظهر أو على رأس.

قال في الكشاف: إن قيل: لم قيل «مرضعة» دون مرضع؟ قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة.

وقال: فإن قلت: لم قيل أولاً: ترون ثم قيل: ترى على الافراد؟ قلت: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها، وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر فلابد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم. انتهى.

وقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ نفي السكر بعد إثباته للدلالة على أن سكرهم وهو ذهاب العقول وسقوطها في مهبط الدهشة والبهت ليس معلولاً للخمر بل شدة عذاب الله هي التي اوقعتها فيما وقعت وقد قال تعالى: ﴿إن أخذه أليم شديد﴾ (هود / ١٠٢).

وظاهر الآية أن هذه الزلزلة قبل النفخة الاولى التي يخبر تعالى عنها بقوله: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات والأرض إلى من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ (الزمر / ٦٨) وذلك لأن الآية تفرض الناس في حال عادية تفاجؤهم فيها زلزلة الساعة فتنقلب حالهم من مشاهدتها الى ما وصف، وهذا قبل النفخة التي تموت بها الأحياء قطعا.

٣ ● وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ.

٤ ● كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ

السَّعِيرِ.

٥ ◉ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ
تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ
مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلىٰ أَجَلٍ
مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ
يُتَوَفّٰى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ
عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ
اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

٦ ◉ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتىٰ وَأَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٧ ◉ وَأَنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللّٰهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

٨ ◉ وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا
كِتابٍ مُنِيرٍ.

٩ ◉ ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ
يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ.

١٠ ◉ ذٰلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ.

١١ ◉ وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّٰهَ عَلىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ
بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ
ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ.

١٢ ● يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُ وَمٰا لاٰ يَنْفَعُهُ ذٰلِكَ هُوَ الضَّلاٰلُ الْبَعِيدُ.

١٣ ● يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ.

١٤ ● إِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ إِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مٰا يُرِيدُ.

١٥ ● مَنْ كٰانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّٰهُ فِي الدُّنْيٰا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمٰاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مٰا يَغِيظُ.

١٦ ● وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ وَأَنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطٰانٍ مَرِيدٍ﴾ المريد الخبيث وقيل: المتجرد والمعري من الخير. والمجادلة في الله بغير علم التكلم فيما يرجع اليه تعالى من صفاته وأفعاله بكلام مبني على الجهل بالاصرار عليه.

وقوله: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطٰانٍ مَرِيدٍ﴾ بيان لمسلكه في الاعتقاد والعمل بعد بيان مسلكه في القول كأنه قيل: إنه يقول في الله بغير علم ويصر على جهله، ويعتقد بكل باطل ويعمل به وإذ كان الشيطان هو الذي يهدي الانسان الى الباطل والانسان إنما يميل اليه بإغوائه فهو يتبع في كل ما يعتقده ويعمل به الشيطان فقد وضع اتباع الشيطان في الآية موضع الاعتقاد

والعمل للدلالة على الكيفية وليبين في الآية التالية أنه ضال عن طريق الجنة سالك الى عذاب السعير.

وقد قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ولم يقل: ويتبع الشيطان المريد وهو إبليس للدلالة على تلبسه بفنون الضلال وأنواعه فإن أبواب الباطل مختلفة وعلى كل باب شيطاناً من قبيل إبليس وذريته وهناك شياطين من الإنس يدعون الى الضلال فيقلدهم أولياؤهم الغون ويتبعونهم وإن كان كل تسويل ووسوسة منتهياً الى إبليس لعنه الله.

والكلمة أعني قوله: «ويتبع كل شيطان» مع ذلك كناية عن عدم انتهائه في اتباع الباطل الى حد يقف عليه لبطلان استعداده للحق وكون قلبه مطبوعاً عليه فهو في معنى قوله: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾ (الأعراف / ١٤٦).

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ التولي أخذه ولياً متبعاً. وقوله: «فأنه يضله» الخ: مبتدء محذوف الخبر. والمعنى ويتبع كل شيطان مريد من صفته أنه كتب عليه أن من اتخذه ولياً واتبعه فإضلاله له وهدايته إياه الى عذاب السعير ثابت لازم.

والمراد بكتابته عليه القضاء الإلهي في حقه بإضلاله متبعيه أولاً وإدخاله إياهم النار ثانياً. وهذان القضاءان هما اللذان أشار اليهما في قوله: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ (الحجر / ٤٣) وقد تقدم الكلام في توضيح ذلك في الجزء الثاني عشر من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ - الى قوله - شَيْئاً﴾ المراد بالبعث إحياء الموتى والرجوع الى الله سبحانه وهو ظاهر. والعلقة القطعة من الدم الجامد. والمضغة القطعة من اللحم الممضوغة والخلقة على ما قيل

ـ تامة الخلقة وغير المخلقة غير تامتها وينطبق على تصوير الجنين الملازم لنفخ الروح فيه، وعليه ينطبق القول بأن المراد بالتخليق التصوير.

وقوله: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ظاهر السياق أن المراد لنبين لكم أن البعث ممكن ونزيل الريب عنكم فإن مشاهدة الانتقال من التراب الميت إلى النطفة ثم إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم الى الإنسان الحي لا تدع ريبا في إمكان تلبس الميت بالحياة ولذلك وضع قوله: «لنبين لكم» في هذا الموضع ولم يؤخر إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ونقر فيها ما نشاء من الأجنة ولا نسقطه الى تمام مدة الحمل ثم نخرجكم طفلاً، قال في المجمع: أي نخرجكم من بطون أُمهاتكم وأنتم أطفال، والطفل الصغير من الناس، وإنما وحد والمراد به الجمع لأنه مصدر كقولهم: رجل عدل ورجال عدل، وقيل: أراد ثم نخرج كل واحد منكم طفلاً. انتهى، والمراد ببلوغ الأشد حال اشتداد الأعضاء والقوى.

وقوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ المقابلة بين الجملتين تدل على تقيد الاولى بما يميزها من الثانية والتقدير ومنكم من يتوفى من قبل أن يرد الى أرذل العمر، والمراد بأرذل العمر أحقره وأهونه وينطبق على حال الهرم فإنه أرذل الحياة إذا قيس الى ما قبله.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي شيئاً يعتد به أرباب الحياة ويبنون عليه حياتهم، واللام للغاية أي ينتهي أمره الى ضعف القوى والمشاعر بحيث لا يبقى له من العلم الذي هو أنفس محصول للحياة شيء يعتد به لها.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ قال الراغب: يقال: همدت النار طفئت، ومنه أرض هامدة لا نبات فيها، ونبات هامد يابس. قال تعالى: «وترى الأرض هامدة» انتهى ويقرب

منه تفسيرها بالأرض المالكة.

وقال أيضاً: الهز التحريك الشديد يقال: هززت الريح فاهتز واهتز النبات إذا تحرك لنضارته. وقال أيضاً: ربا إذا زاد وعلا. قال تعالى: «فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت» أي زادت زيادة المتربي. انتهى بتلخيص ما.

وقوله: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي وأنبتت الأرض من كل صنف من النبات متصف بالبهجة وهي حسن اللون وظهور السرور فيه، أو المراد بالزوج ما يقابل الفرد فإن كلامه يثبت للنبات ازدواجا كما يثبت له حياة، وقد وافقته العلوم التجريبية اليوم.

والمحصل أن للأرض في إنباتها وإنمائها له شأناً يماثل شأن الرحم في إنباته الحيوي للتراب الصائر نطفة ثم علقة ثم مضغة الى أن يصير إنساناً حياً.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذلك إشارة الى ما ذكر في الآية السابقة من خلق الإنسان والنبات وتدبير أمرهما حدوثا وبقاء خلقاً وتدبيرا واقعيين لا ريب فيهما.

والذي يعطيه السياق أن المراد بالحق نفس الحق ـ أعني أنه ليس وصفا قائما مقام موصوف محذوف هو الخبر ـ فهو تعالى نفس الحق الذي تحقق كل شيء حق ويجري في الأشياء النظام الحق فكونه تعالى حقاً يتحقق به كل شيء حق هو السبب لهذه الموجودات الحقة والنظامات الحقة الجاريه فيها، وهي جميعاً تكشف عن كونه تعالى هو الحق.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ معطوف على ما قبله أي المذكور في الآية السابقه من صيرورة التراب الميت بالانتقال الى حال إنساناً حياً وكذا صيرورة الأرض الميتة بنزول الماء نباتاً واستمرار هذا الأمر بسبب أن الله يحيي الموتى ويستمر منه ذلك.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوف على سابقه كسابقه والمراد أن ما ذكرناه بسبب أن الله على كل شيء قدير وذلك أن إيجاد الإنسان والنبات وتدبير أمرهما في الحدوث

والبقاء مرتبط بما في الكون من وجود أو نظام جار في الوجود وكما أن إيجادهما وتدبير أمرهما لا يتم إلا مع القدرة عليهما كذلك القدرة عليهما لا تتم إلا مع القدرة على كل شيء فخلقهما وتدبير أمرهما بسبب عموم القدرة وإن شئت فقل: ذلك يكشف عن عموم القدرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ الجملتان معطوفتان على «أن» في قوله: «ذلك بأن الله».

وأما الوجه في اختصاص هذه النتائج الخمس المذكورة في الآيتين بالذكر مع أن بيان السابقة ينتج نتائج أُخرى مهمة في أبواب التوحيد كربوبيته تعالى ونفي شركاء العبادة كونه تعالى عليماً ومنعما وجوادا وغير ذلك.

فالذي يعطيه السياق ـ والمقام مقام إثبات البعث ـ وعرض هذه الآيات على سائر الآيات المثبتة للبعث أن الآية تؤم إثبات البعث من طريق إثبات كونه تعالى حقاً على الإطلاق فإن الحق المحض لا يصدر عنه إلا الفعل الحق دون الباطل، ولو لم يكن هناك نشأة أُخرى يعيش فيها الإنسان بماله من سعادة أو شقاء واقتصر في الخلقة على الإيجاد ثم الإعدام ثم الإيجاد ثم الإعدام وهكذا كان لعبا باطلا فكونه تعالى حقاً لا يفعل إلا الحق يستلزم نشأة البعث استلزاما بينا فإن هذه الحياة الدنيا تنقطع بالموت فبعدها حياة أُخرى باقية لا محالة.

فالآية أعني قوله: «فإنا خلقناكم من تراب ـ الى قوله ـ ذلك بأن الله هو الحق» في مجرى قوله: ﴿وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾ (الدخان / ٣٩)، وقوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا﴾ (ص / ٢٧) وغيرهما من الآيات المتعرضة لإثبات المعاد، وإنما الفرق أنها تثبته من طريق حقية فعله تعالى والآية المبحوث عنها تثبته من طريق حقيته تعالى في نفسه المستلزمة لحقية فعليه.

ثم لما كان من الممكن أن يتوهم استحالة إحياء الموتى فلا ينفع البرهان حينئذ دفعه بقوله:

«وأنه يحيي الموتى» فإحياؤه تعالى الموتى بجعل التراب الميت إنساناً حياً وجعل الأرض الميتة نباتاً حياً واقع مستمر مشهود فلا ريب في إمكانه وهذه الجملة أيضاً في مجرى قوله تعالى: ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ (يس / ٧٩) وسائر الآيات المثبتة لإمكان البعث والإحياء ثانياً من طريق ثبوت مثله أولا.

ثم لما أمكن أن يتوهم أن جواز الإحياء الثاني لا يستلزم الوقوع بتعلق القدرة به استبعاداً له واستصعاباً دفعه بقوله: «وأنه على كل شيء قدير» فإن القدرة لما كانت غير متناهية كانت نسبتها الى الإحياء الأول والثاني وما كان سهلاً في نفسه أو صعبا على حد سواء فلا يخالطها عجز ولا يطرء عليها عي وتعب.

وهذه الجملة أيضاً في مجرى قوله تعالى: ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ (ق / ١٥) وقوله: ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ (حم السجدة / ٣٩)، وسائر الآيات المثبتة للبعث بعموم القدرة وعدم تناهيها.

فهذه أعني ما في قوله تعالى: «ذلك بأن الله» الى آخر الآية؛ نتائج ثلاث مستخرجة من الآية السابقة عليها مسوقة جميعا لغرض واحد وهو ذكر ما يثبت به البعث وهو الذي تتضمنه الآية الأخيرة «وأن الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور».

ولم تتضمن الآية إلا بعث الاموات والظرف الذي يبعثون فيه فأما الظرف وهو الساعة فذكره في قوله: «وأن الساعة آتية لا ريب فيها» ولم ينسب إتيانها الى نفسه بأن يقال مثلاً: وأن الله يأتي بالساعة أو ما في معناه ولعل الوجه في ذلك اعتبار كونها لا تأتي إلا بغتة لا يتعلق به علم قط كما قال: «لا تأتيهم إلا بغتة».

وقال: ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ (الأعراف / ١٨٧) وقال: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ (طه / ١٥) فكان عدم نسبتها الى فاعل كعدم ذكر وقتها وكتمان مرساها مبالغة في إخفائها وتأييداً لكونها مباغتة مفاجئة. وقد كثر ذكرها في كلامه ولم يذكر في شيء منه هنا

فاعل بل كان التعبير مثل «آتية» «تأتيهم» «قائمة» «تقوم» ونحو ذلك.

وأما المظروف وهو إحياء الموتى من الإنسان فهو المذكور في قوله: «وأن الله يبعث من في القبور».

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ صنف آخر من الناس المعرضين عن الحق. قال في كشف الكشاف على ما نقل: إن الأظهر في النظم والأوفق للمقام أن هذه الآية في المقلدين بفتح اللام والآية السابقة «ومن الناس من يجادل ـ الى قوله ـ مريد» في المقلدين بكسر اللام انتهى محصلاً.

وهو كذلك بدليل قوله هنا ذيلاً: «ليضل عن سبيل الله» وقوله هناك: «ويتبع كل شيطان مريد» والإضلال من شأن المقلد بفتح اللام والإتباع من شأن المقلد بكسر اللام.

قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الى آخر الآية؛ الثني الكسر والعطف بكسر العين الجانب. وثني العطف كناية عن الإعراض كأن المعرض يكسر أحد جانبيه على الآخر.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق بقوله: «يجادل» واللام للتعليل أي يجادل في الله بجهل منه مظهر للإعراض والاستكبار ليتوصل بذلك الى إضلال الناس وهؤلاء هم الرؤساء المتبوعون من المشركين.

وقوله: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ تهديد بالخزي ـ وهو الهوان والذلة والفضيحة ـ في الدنيا. والى ذلك آل أمر صناديق قريش وأكابر مشركي مكة، وإيعاد بالعذاب في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ إشارة الى ما تقدم في الآية السابقة من الإيعاد بالخزي والعذاب. والباء في «بما قدمت» للمقابلة كقولنا: بعت هذا بهذا أو للسببية أي إن الذي تشاهده من الخزي والعذاب جزاء ما قدمت يداك أو

بسبب ما قدمت يداك من المجادلة في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب معرضاً مستكبرا لإضلال الناس وفي الكلام التفات من الغيبة الى الخطاب لتسجيل اللوم والعتاب.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ معطوف على «ما قدمت» أي ذلك لأن الله لا يظلم عباده بل يعامل كلا منهم بما يستحقه بعمله ويعطيه ما يسأله بلسان حاله.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الى آخر الآية؛ الحرف والطرف والجانب بمعنى، والاطمئنان: الاستقرار والسكون، والفتنة ـ كما قيل ـ المحنة والانقلاب الرجوع.

وهذا صنف آخر من الناس غير المؤمنين الصالحين وهو الذي يبعد الله سبحانه بانياً عبادته على جانب واحد دون كل جانب وعلى تقدير لا على كل تقدير وهو جانب الخير ولازمه استخدام الدين للدنيا فإن أصابته خير استقر بسبب ذلك الخير على عبادة الله واطمأن اليها، وإن أصابته فتنة ومحنة انقلب ورجع على وجهه من غير أن يلتفت يميناً وشمالاً وارتد عن دينه تشؤماً من الدين أو رجاء أن ينجو بذلك من المحنة والمهلكة وكان ذلك دأبهم في عبادتهم الأصنام فكانوا يعبدونها لينالوا بذلك الخير أوينجو من الشر بشفاعتهم في الدنيا وأما الآخرة فما كانوا يقولون بها فهذا المذبذب المنقلب على وجهه خسر الدنيا بوقوعه في المحنة والمهلكة، وخسر الآخرة بانقلابه عن الدين على وجهه وارتداده وكفره ذلك هو الخسران المبين.

هذا ما يعطيه التدبر في معنى الآية. وعليه فقوله: «يعبد الله على حرف» من قبيل الاستعارة بالكناية. وقوله: «فان أصابه خير» الخ؛ تفسير لقوله: «يعبد الله على حرف» وتفصيل له، وقوله: «خسر الدنيا» أي بإصابة الفتنة، وقوله: «والآخرة» أي بانقلابه على وجهه.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ

الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ المدعو هو الصنم فإنه لفقده الشعور والإرادة لا يتوجه منه الى عابده نفع أو ضرر والذي يصيب عابده من ضرر وخسران فإنما يصيبه من ناحية العبادة التي هي فعل له منسوب اليه.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ المولى الولي الناصر. والعشير الصاحب المعاشر.

ذكروا في تركيب جمل الآية أن «يدعو» بمعنى يقول. وقوله: «لمن ضره أقرب من نفعه» الخ: مقول القول. و«لمن» بتدء دخلت عليه لام الابتداء وهو موصول صلته «ضره أقرب من نفعه». وقوله: «لبئس المولى ولبئس العشير» جواب قسم محذوف وهو قائم مقام الخبر دال عليه.

والمعنى: يقول هذا الذي يعبد الأصنام يوم القيامة واصفاً لصنمه الذي اتخذه مولى وعشيرا، الصنم الذي ضره أقرب من نفعه مولى سوء وعشير سوء أُقسم لبئس المولى ولبئس العشير.

وإنما يعد ضره أقرب من نفعه لما يشاهد يوم القيامة ما تستتبعه عبادته له من العذاب الخالد والهلاك المؤبد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ الخ: لما ذكر الأصناف الثلاثة من الكفار وهم الأئمة المتبوعون المجادلون في الله بغير علم والمقلدة التابعون لكل شيطان مريد المجادلون كأئمتهم والمذبذبون العابدون لله على حرف. ووصفهم بالضلال والخسران قابلهم بهذا الصنف من الناس وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ووصفهم بكريم المثوى وحسن المنقلب وأن الله يريد بهم ذلك.

وذكر هؤلاء الأصناف كالتوطئة لما سيذكر من القضاء بينهم وبيان حالهم تفصيلاً.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ﴾ قال في المجمع: السبب كل ما يتوصل به الى الشيء ومنه قيل للحبل سبب وللطريق سبب وللباب سبب انتهى والمراد بالسبب في الآية الحبل. والقطع معروف ومن معانيه الاختناق يقال: قطع أي اختنق وكأنه مأخوذ من قطع النفس.

قالوا: إن الضمير فى «لن ينصره الله» للنبي ﷺ وذلك أن مشركي مكة كانوا يظنون أن الذي جاء به النبي ﷺ من الدين أُحدوثة كاذبة لا تبتني على أصل عريق فلا يرتفع ذكره، ولا ينتشر دينه، وليس له عند الله منزلة حتى إذا هاجر ﷺ الى المدينة فنصره الله سبحانه فبسط دينه ورفع ذكره غاظهم ذلك غيظاً شديداً فقرعهم الله سبحانه بهذه الآية وأشار بها الى أن الله ناصره ولن يذهب غيظهم ولو خنقوا أنفسهم فلن يؤثر كيدهم أثراً.

والمعنى: من كان يظن من المشركين أن لن ينصر الله تعالى نبيه ﷺ في الدنيا برفع الذكر وبسط الدين وفي الآخرة بالمغفرة والرحمة له وللمؤمنين به ثم غاظه ما يشاهد اليوم من نصر الله له فليمدد بحبل الى السماء ـ كأن يربط طرف الحبل على جذع عال ونحوه ـ ثم ليختنق به فلينظر هل يذهبن كيده وحيلته هذا ما يغيظ أي غيظه.

وهذا معنى حسن يؤيده سياق الآيات السابقة وما استفدناه سابقا من نزول السورة بعد الهجرة بقليل ومشركوا مكة بعد على قدرتهم وشوكتهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آياتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ قد تقدم مراراً أن هذا من تشبيه الكلي بفرده بدعوى البينونة للدلالة على أن ما في الفرد من الحكم جار في باقي أفراده كمن يشير الى زيد وعمرو وهما يتكلمان ويمشيان على قدميهما ويقول كذلك يكون الانسان أي حكم التكلم والمشي على القدمين جار في جميع الأفراد فمعنى

قوله: «وكذلك أنزلناه آيات بينات» أنزلنا القرآن وهو آيات واضحة الدلالات كما في الآيات السابقة من هذه السورة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي والأمر أن الله يهدي من يريد وأما من لم يرد أن يهديه فلا هادي له فمجرد كون الآيات بينات لا يكفي في هداية من سمعها أو تأمل فيها ما لم يرد الله هدايته.

وقيل: الجملة معطوفة على ضمير «أنزلناه» والتقدير وكذلك أنزلنا أن الله يهدي من يريد، والوجه الأول أوضح اتصالاً بأول الآية وهو ظاهر[١].

١٧ ● إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

١٨ ● أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

١٩ ● هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ.

٢٠ ● يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ.

---

١. الحج ٣-١٦: بحث روائي في خلق الانسان.

٢١ ۞ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ.

٢٢ ۞ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ.

٢٣ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ.

٢٤ ۞ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الخ: المراد بالذين آمنوا بقرينة المقابلة هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وكتابهم القرآن.

والذين هادوا هم المؤمنين بموسى ومن قبله من الرسل الواقفون فيه وكتابهم التوراة وقد أحرقها بخت نصر ملك بابل حينما استولى عليهم في أوساط القرن السابع قبل المسيح فافتقدوها برهة ثم جدد كتابتها لهم عزراء الكاهن في أوائل القرن السادس قبل المسيح حينما فتح كوروش ملك إيران بابل وتخلص بنو إسرائيل من الأسارة ورجعوا الى الأرض المقدسة.

والصابئون ليس المراد بهم عبدة الكواكب من الوثنية بدليل ما في الآية من المقابلة بينهم وبين الذين أشركوا بل هم - على ما قيل - قوم متوسطون بين اليهودية والمجوسية ولهم كتاب ينسبونه الى يحيى بن زكريا النبي ويسمى الواحد منهم اليوم عند العامة «صبي» وقد تقدم لهم ذكر في ذيل قوله: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين﴾ (البقرة / ٦٢).

والنصارى هم المؤمنون بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام ومن قبله من الأنبياء وكتبهم المقدسة الأناجيل الأربعة للوقا ومرقس ومتى ويوحنا وكتب العهد القديم على ما اعتبرته وقدسته الكنيسة لكن القرآن يذكر أن كتابهم الإنجيل النازل على عيسى عليه السلام.

والمجوس المعروف أنهم المؤمنون بزرتشت وكتابهم المقدس «أوستا» غير أن تاريخ حياته وزمان ظهوره مبهم جداً كالمنقطع خبره وقد افتقدوا الكتاب باستيلاء اسكندر على إيران ثم جددت كتابته في زمن ملوك ساسان فأشكل بذلك الحصول على حاق مذهبهم؛ والمسلم أنهم يثبتون لتدبير العالم مبدأين مبدء الخير ومبدء الشر ـ يزدان وأهريمن أو النور والظلمة ـ ويقدسون الملائكة ويتقربون اليهم من غير أن يتخذوا لهم أصناماً كالوثنية، ويقدسون البسائط العنصرية وخاصة النار وكانت لهم بيوت نيران بايران والصين والهند وغيرها وينهون الجميع الى «اهورا مزدا» موجد الكل.

والذين أشركوا هم الوثنية عبدة الأصنام، وأُصول مذاهبهم ثلاثة: الوثنية الصابئة، والبرهمانية، والبوذية، وقد كان هناك أقوام آخرون يعبدون من الأصنام ما شاؤا كما شاؤا من غير أن يبنوه على أصل منظم كعرب الحجاز وطوائف في أطراف المعمورة وقد تقدم تفصيل القول فيهم في الجزء العاشر من الكتاب.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ المراد به فصل القضاء فيما اختلف فيه أصحاب هذه المذاهب واختصموا فينفصل المحق منهم ويتميز من المبطل انفصالاً وتميزاً لا يستره ساتر ولا يحجبه حاجب.

وتكرار إن في الآية للتأكيد دعى الى ذلك الفصل بين «إن» في صدر الآية وبين خبرها ونظيره ما في قوله: ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ (النحل / ١١٠)، وقوله: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ (النحل / ١١٩).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل للفصل أنه فصل بالحق.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ الى آخر الآية: الظاهر أن الخطاب لكل من يرى ولايصلح لأن يخاطب، والمراد بالرؤية العلم، ويمكن أن يختص بالنبي ﷺ ويكون المراد بالرؤية القلبية كما قال فيه: ﴿ما كذب الفؤاد ما رآى أفتمارونه على ما يرى﴾ (النجم / ١٢).

وتعميم السجدة لمثل الشمس والقمر والنجوم والجبال من غير أُولي العقل دليل على أن المراد بها السجدة لتكوينية وهي التذلل والصغار قبال عزته وكبريائه تعالى وتحت قهره وسلطنته، ولازمه أن يكون «من في الأرض» شاملاً لنوع الإنسان من مؤمن وكافر إذ لا استثناء في السجدة التكوينية والتذلل الوجودي.

وعدم ذكر نفس السماوات والأرض في جملة الساجدين مع شمول الحكم لهما في الواقع يعطي أن معنى الكلام: أن المخلوقات العلوية والسفلية من ذي عقل وغير ذي عقل ساجدة لله متذللة في وجودها تجاه عزته وكبريائه، ولا تزال تسجد له تعالى سجوداً تكوينياً اضطرارياً.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ عطف على «من في السماوات» الخ؛ أي ويسجد له كثير من الناس. وإسناد السجود الى كثير من الناس بعد شموله في الجملة السابقة لجميعهم دليل على أن المراد بهذا السجود نوع آخر من السجود غير السابق وإن كانا مشتركين في أصل معنى التذلل، وهذا النوع هو السجود التشريعي الاختياري بالخرور على الأرض تمثيلاً للسجود والتذلل التكويني الاضطراري وإظهاراً لمعنى العبودية.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ المقابلة بينه وبين سابقه يعطي أن معناه وكثير منهم يأبى عن السجود، وقد وضع موضعه ما هو أثره اللازم المترتب عليه وهو ثبوت العذاب على من استكبر على الله وأبى أن يخضع له تعالى، وإنما وضع ثبوت العذاب موضع الإباء عن

السجدة للدلالة على أنه هو عملهم يرد اليهم. وليكون تمهيداً لقوله تلواً «ومن يهن الله فماله من مكرم» الدال على أن ثبوت العذاب لهم إثر إبائهم عن السجود هوان وخزي يتصل بهم ليس بعده كرامة وخير.

فإباؤهم عن السجود يستتبع بمشية الله تعالى ثبوت العذاب لهم وهو إهانة ليس بعده إكرام أبدا إذ الخير كله بيد الله كما قال: ﴿بيدك الخير﴾ (آل عمران / ٢٦) فإذا منعه أحداً لم يكن هناك من يعطيه غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ كناية عن عموم القدرة وتعليل لما تقدمه من حديث إثباته العذاب للمستكبرين عن السجود له وإهانتهم إهانة لا إكرام بعده.

فالمعنى ـ والله أعلم ـ أن الله يميز يوم القيامة بين المختلفين فإنك تعلم أن الموجودات العلوية والسفلية يخضعون ويتذللون له تكويناً لكن الناس بين من يظهر في مقام العبودية الخضوع والتذلل له وبين من يستكبر عن ذلك وهؤلاء هم الذين حق عليهم العذاب وأهانهم الله إهانة لا إكرام بعده وهو قادر على ما يشاء فعال لما يريد. ومن هنا يظهر أن للآية اتصالاً بما قبلها.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ الإشارة بقوله: «هذان» الى القبيلين الذين دل عليهما قوله سابقاً: «إن الله يفصل بينهم يوم القيامة» وقوله بعده: «وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب».

ويعلم من حصر المختلفين على كثرة أديانهم ومذاهبهم في خصمين اثنين أنهم جميعاً منقسمون الى محق ومبطل إذ لولا الحق والباطل لم ينحصر الملل والنحل على تشتتها في اثنين البتة، والمحق والمبطل هما المؤمن بالحق والكافر به فهذه الطوائف على تشتت أقوالهم ينحصرون في خصمين اثنين وعلى انحصارهم في خصمين اثنين لهم أقوال مختلفة فوق

اثنين فما أحسن تعبيره بقوله: «خصمان اختصموا» حيث لم يقل: خصوم اختصموا ولم يقل: خصمان اختصما.

وقد جعل اختصامهم في ربهم أي أنهم اختلفوا في وصف ربوبيته تعالى فالى وصف الربوبية يرجع اختلافات المذاهب بالغة ما بلغت فهم بين من يصف ربه بما يستحقه من الأسماء والصفات وما يليق به من الأفعال فيؤمن بما وصف وهو الحق ويعمل على ما يقتضيه وصفه وهو العمل الصالح فهو المؤمن العامل بالصالحات، ومن لا يصفه بما يستحقه من الأسماء والصفات كمن يثبت له شريكاً أو ولداً فينفي وحدانيته أو يسند الصنع والإيجاد الى الطبيعة أو الدهر أو ينكر النبوة أو رسالة بعض الرسل أو ضرورياً من ضروريات الدين الحق فيكفر بالحق ويستره وهو الكافر فالمؤمن بربه والكافر بالمعنى الذي ذكرهما الخصمان.

ثم شرع في جزاء الخصمين وبين عاقبه أمر كل منهما بعد فصل القضاء وقدم الذين كفروا فقال: «فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم» أي الماء الحار المغلي.

قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ الصهر الإذابة أي يذوب وينضج بذاك الحميم ما في بطونهم من الأمعاء والجلود.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ المقامع جمع مقمعة وهي المدقة والعمود.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ضمير «منها» للنار و«من غم» بيان له أو من بمعنى السببية والحريق بمعنى المحرق كالأليم بمعنى المؤلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الى آخر الآية: الأساور على ما قيل ـ جمع أسورة وهي جمع سوار وهو على ما ذكره الراغب معاب «دستواره» والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾

الطيب من القول ما لا خباثة فيه وخبيث القول باطله على أقسامه، وقد جمع القول الطيب كله قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ (يونس / ١٠) فهدايتهم الى الطيب من القول تيسيره لهم، وهدايتهم الى صراط الحميد والحميد من أسمائه تعالى أن لا يصدر عنهم إلا محمود الفعل كما لا يصدر عنهم إلا طيب القول.

وبين هذه الآية وقوله: «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق» مقابلة ظاهرة[١].

٢٥ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.

٢٦ ● وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

٢٧ ● وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ.

٢٨ ● لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ.

---

١. الحج ١٧ ـ ٢٤: بحث روائي في المجوس، مشيئة الله تعالى.

٢٩ ❁ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

٣٠ ❁ ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمٰاتِ اللّٰهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ
لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلاّٰ مٰا يُتْلٰى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ
الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ.

٣١ ❁ حُنَفٰاءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَكَأَنَّمٰا خَرَّ مِنَ
السَّمٰاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ.

٣٢ ❁ ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعٰائِرَ اللّٰهِ فَإِنَّهٰا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ.

٣٣ ❁ لَكُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهٰا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

٣٤ ❁ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنٰا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ عَلىٰ مٰا رَزَقَهُمْ
مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعٰامِ فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ
الْمُخْبِتِينَ.

٣٥ ❁ الَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصّٰابِرِينَ عَلىٰ مٰا
أَصٰابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاٰةِ وَمِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ.

٣٦ ❁ وَالْبُدْنَ جَعَلْنٰاهٰا لَكُمْ مِنْ شَعٰائِرِ اللّٰهِ لَكُمْ فِيهٰا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا
اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهٰا صَوٰافَّ فَإِذٰا وَجَبَتْ جُنُوبُهٰا فَكُلُوا مِنْهٰا
وَأَطْعِمُوا الْقٰانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سَخَّرْنٰاهٰا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ.

٣٧ ❁ لَنْ يَنٰالَ اللّٰهَ لُحُومُهٰا وَلاٰ دِمٰاؤُهٰا وَلٰكِنْ يَنٰالُهُ التَّقْوىٰ مِنْكُمْ
كَذٰلِكَ سَخَّرَهٰا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰيكُمْ وَبَشِّرِ

الْمُحْسِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ الخ: الصد المنع. و«سواء» مصدر بمعنى الفاعل. والعكوف في المكان الإقامة فيه. والبادي من البدو وهو الظهور. والمراد به ـ كما قيل ـ الطارىء أي الذي يقصده من خارج فيدخله. والإلحاد الميل الى خلاف الاستقامة وأصله إلحاد حافر الدابة.

والمراد بالذين كفروا مشركوا مكة الذين كفروا بالنبي ﷺ في أول البعثة قبل الهجرة وكانوا يمنعون الناس عن الإسلام وهو سبيل الله والمؤمنين عن دخول المسجد الحرام لطواف الكعبة وإقامة الصلاة وسائر المناسك فقوله: «يصدون» للإستمرار ولا ضير في عطفه على الفعل الماضي في قوله: «الذين كفروا» والمعنى الذين كفروا قبل ويستمرون على منع الناس عن سبيل الله والمؤمنين عن المسجد الحرام.

وبذلك يظهر أن قوله: «والمسجد الحرام» عطف على «سبيل الله» والمراد بصدهم منعهم المؤمنين عن أداء العبادات والمناسك فيه وكان من لوازمه منع القاصدين للبيت من خارج مكة من دخولها.

وبه يتبين أن المراد بقوله: «الذي جعلناه للناس» ـ وهو وصف المسجد الحرام ـ جعله لعبادة الناس لا تمليك رقبته لهم فالناس يملكون أن يعبدوا الله فيه ليس لأحد أن يمنع أحداً من ذلك ففيه إشارة الى أن منعهم وصدهم عن المسجد الحرام تعد منهم الى حق الناس وإلحاد بظلم كما أن إضافة السبيل الى الله تعد منهم الى حق الله تعالى.

ويؤيد ذلك أيضاً تعقيبه بقوله: «سواء العاكف فيه والباد» أي المقيم فيه والخارج منه مساويان في أن لهما حق العبادة فيه لله. والمراد بالإقامة فيه وفي الخارج منه إما الإقامة بمكة

وفي الخارج منها على طريق المجاز العقلي أو ملازمة المسجد للعبادة والطرو عليه لها.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بيان لجزاء من ظلم الناس في هذا الحق المشروع لهم في المسجد ولازمه تحريم صد الناس عن دخوله للعبادة فيه ومفعول «يرد» محذوف للدلالة على العموم، والباء في «بإلحاد» للملابسة وفي «بظلم» للسببية والجملة تدل على خبر قوله: «إن الذين كفروا» في صدر الآية.

والمعنى الذين كفروا ولا يزالون يمنعون الناس عن سبيل الله وهو دين الإسلام ويمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام الذي جعلناه معبداً للناس يستوي فيه العاكف فيه والبادي نذيقهم من عذاب أليم لأنهم يريدون الناس فيه بالحاد بظلم ومن يرد الناس فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ بوء له مكانا كذا أي جعله مباءة ومرجعاً له يرجع اليه ويقصده، والمكان ما يستقر عليه الشيء فكان البيت القطعة من الأرض التي بني فيها. والمراد بالقائمين على ما يعطيه السياق هم الناصبون أنفسهم للعبادة والصلاة. والركع جمع راكع كسجّد جمع ساجد والسجود جمع ساجد كالركوع جمع راكع.

وقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ الظرف فيه متعلق بمقدر أي واذكر وقت كذا وفيه تذكير لقصة جعل البيت معبداً للناس ليتضح به أن صد المؤمنين عن المسجد الحرام ليس إلا إلحاداً بظلم.

وتبوئته تعالى مكان البيت لإبراهيم هي جعل مكانه مباءة ومرجعاً لعباده لا لأن يتخذه بيت سكني يسكن فيه، ويلوح اليه قوله بعد: «ظهر بيتي» بإضافة البيت الى نفسه، ولا ريب أن هذا الجعل كان وحياً لإبراهيم فقوله: «بوّأنا لإبراهيم مكان البيت» في معنى قولنا: أوحينا الى إبراهيم أن اتخذ هذا المكان مباءة ومرجعاً لعبادتي وإن شئت فقل: أوحينا اليه أن اقصد

هذا المكان لعبادتي، وبعبارة أُخرى أن اعبدني في هذا المكان.

وبذلك يتضح أنّ «أن» في قوله: «أن لا تشرك بي شيئاً» مفسرة تفسر الوحي السابق باعتباره أنه قول من غير حاجة الى تقدير أوحينا أو قلنا ونحوه.

ويتضح أيضاً أن قوله: «أن لا تشرك بي شيئاً» ليس المراد به ـ وهو واقع في هذا السياق ـ النهي عن الشرك مطلقاً وإن كان منهياً عنه مطلقاً بل المنهي عنه فيه هو الشرك في العبادة التي يأتي بها حينما يقصد البيت للعبادة وبعبارة واضحة الشرك فيما يأتي به من أعمال الحج كالتلبية للأوثان والإهلال لها ونحوهما.

وكذا قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ والتطهير إزالة الأقذار والأدناس عن الشيء ليعود الى ما يقتضيه طبعه الأولي، وقد أضاف البيت الى نفسه إذ قال: «بيتي» أي بيتاً يختص بعبادتي، وتطهير المعبد بما أنه معبد تنزيهه من الأعمال الدنسة والأرجاس التي تفسد العبادة وليست إلا الشرك ومظاهره.

فتطهير بيته إما تنزيهه من الأرجاس المعنوية خاصة بأن يشرع إبراهيم عليه السلام للناس ويعلمهم طريقاً من العبادة لا يداخلها قذارة شرك ولا يدنسها دنسه كما امر لنفسه بذلك، وإما إزالة مطلق النجاسات عن البيت أعم من الصورية والمعنوية لكن الذي يمس سياق الآية منها هو الرجس المعنوي فحصل تطهير المعبد عن الأرجاس المعنوية وتنزيهه عنها للعبّاد الذين يقصدونه بالعبادة وضع عبادة فيه خالصة لوجه الله لا يشوبها شائب شرك يعبدون الله سبحانه بها ولا يشركون به شيئاً.

فالمعنى بناء على ما يهدي اليه السياق واذكر إذ أوحينا الى إبراهيم أن اعبدني في بيتي هذا بأخذه مباءة ومرجعاً لعبادتي ولا تشرك بي شيئاً في عبادتي وسن لعبادي القاصدين بيتي من الطائفين والقائمين والركع السجود عبادة في بيتي خالصة من الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ التأذين: الإعلام برفع الصوت ولذا فسّر بالنداء، والحج القصد سمي به العمل الخاص الذي شرعه أولاً إبراهيم عليه السلام وجرت عليه شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما فيه من قصد البيت الحرام، ورجال جمع راجل خلاف الراكب، والضامر المهزول الذي أضمره السير، والفج العميق ـ على ما قيل ـ الطريق البعيد.

وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي ناد الناس بقصد البيت أو بعمل الحج والجملة معطوفة على قوله: «لا تشرك بي شيئاً» والمخاطب به إبراهيم وما قيل: إن المخاطب نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعيد من السياق.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ الخ: جواب الأمر أي أذن فيهم وإن تؤذن فيهم يأتوك راجلين وعلى كل بعير مهزول يأتين من كل طريق بعيد، ولفظة «كل» تفيد في أمثال هذه الموارد معنى الكثرة دون الاستغراق.

قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ الخ: اللام للتعليل أو الغاية والجار والمجرور متعلق بقوله: «يأتوك» والمعنى يأتوك لشهادة منافع لهم أو يأتوك فيشهدوا منافع لهم وقد أُطلقت المنافع لهم ولم تتقيد بالدنيوية أو الاخروية.

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ قال الراغب: والبهيمة ما لا نطق له وذلك لما في صوته من الإبهام لكن خصّ في التعارف بما عدا السباع والطير فقال تعالى: «أُحلت لكم بهيمة الأنعام». انتهى.

وقال: والنعم مختص بالإبل وجمعه أنعام وتسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم نعمة، لكن الأنعام تقال للإبل والبقر والغنم، ولا يقال لها: أنعام حتى تكون في جملتها الإبل. انتهى.

فالمراد ببهيمة الأنعام الأنواع الثلاثة: الإبل والبقر والغنم من معز أو ضأن والإضافة بيانية.

والجملة أعني قوله: «ويذكروا» الخ: معطوف على قوله: «يشهدوا» أي وليذكروا اسم الله في أيام معلومات أي في أيام التشريق على ما فسرها أئمة أهل البيت عليهم السلام وهي يوم الأضحى عاشر ذي الحجة وثلاثة أيام بعده.

وظاهر قوله: «على ما رزقهم من بهيمة الأنعام» أنه متعلق بقوله: «يذكروا» وقوله: «من بهيمة الأنعام» بيان للموصول والمراد ذكرهم اسم الله على البهيمة ـ الاضحية ـ عند ذبحها أو نحرها على خلاف ما كان المشركون يهلونها لأصنامهم.

وقوله: «فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير» البائس من البؤس وهو شدة الضر والحاجة. والذي اشتمل عليه الكلام حكم ترخيصي إلزامي.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ التفث شعث البدن، وقضاء التفث إزالة ما طرأ بالاحرام من الشعث بتقليم الأظفار وأخذ الشعر ونحو ذلك وهو كناية عن الخروج من الإحرام.

والمراد بقوله: «وليوفوا نذورهم» إتمام ما لزمهم بنذر أو نحوه، وبقوله: «وليطوّفوا بالبيت العتيق» طواف النساء على ما تفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام فإن الخروج من الإحرام يحلل له كل ما حرم به إلا النساء فتحلّ بطواف النساء وهو آخر العمل.

والبيت العتيق هو الكعبة المشرّفة سمّيت به لقدمه فإنه أول بيت بني لعبادة الله كما قال تعالى: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ (آل عمران / ٩٦). وقد مضى على هذا البيت اليوم زهاء أربعة آلاف سنة وهو معمور وكان له يوم نزول الآيات أكثر من ألفين وخمسمائة سنة.

قوله تعالى: ﴿ ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّٰهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ الى آخر الآية: الحرمة مما لا يجوز انتهاكه ووجب رعايته، والأوثان جمع وثن وهو الصنم، والزور الميل عن الحق ولذا يسمى الكذب وقول الباطل زوراً.

وقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك أي الذي شرعناه لإبراهيم ﷺ ومن بعده من نسك الحج هو ذلك الذي ذكرناه وأشرنا اليه من الإحرام والطواف والصلاة والتضحية بالإخلاص لله والتجنب عن الشرك.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمٰاتِ اللّٰهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ ندب الى تعظيم حرمات الله وهي الامور التي نهى عنها وضرب دونها حدوداً منع عن تعدّيها واقتراف ما وراءها وتعظيمها الكف عن التجاوز اليها.

والذي يعطيه السياق أن هذه الجملة توطئة وتمهيد لما بعدها من قوله: «وأُحلَّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم» فإن انضمام هذه الجملة الى الجملة قبلها يفيد أن الأنعام ـ على كونها مما رزقهم الله وقد أحلّها لهم ـ فيها حرمة إلهية وهي التي يدلُّ عليها الاستثناء ـ إلا ما يتلى عليكم ـ.

والمراد بقوله: «ما يتلى عليكم» استمرار التلاوة. فإن محرَّمات الأكل نزلت في سورة الأنعام وهي مكية وفي سورة النحل وهي نازلة في آخر عهده ﷺ بمكة وأول عهده بالمدينة، وفي سورة البقرة وقد نزلت في أوائل الهجرة بعد مضي ستة أشهر منها ـ على ما روي ـ ولا موجب لجعل «يتلى» للاستقبال وأخذه إشارة الى آية سورة المائدة كما فعلوه.

والآيات المتضمنة لمحرَّمات الأكل وإن تضمنت منها عدة امور كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ به لغير الله إلا أن العناية في الآية بشهادة سياق ما قبلها وما بعدها بخصوص ما أُهلَّ به لغير الله فإن المشركين كانوا يتقرَّبون في حجهم ـ وهو السنَّة الوحيدة الباقية بينهم من ملة إبراهيم ـ بالأصنام المنصوبة على الكعبة وعلى الصفا وعلى المروة وبمنى ويهلّون بضحاياهم لها فالتجنب منها ومن الإهلال بذكر أسمائها هو الغرض المعني به من الآية وإن كان أكل الميتة والدم ولحم الخنزير أيضاً من جملة حرمات الله.

ويؤيد ذلك أيضاً تعقيب الكلام بقوله: «فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول

الزور» فإن اجتناب الأوثان واجتناب قول الزور وإن كانا من تعظيم حرمات الله ولذلك تفرع «فاجتنبوا الرجس» على ما تقدمه من قوله: «ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه» لكن تخصيص هاتين الحرمتين من بين جميع الحرمات في سياق آيات الحج بالذكر ليس إلا لكونهما مبتلى بهما في الحج يومئذ وإصرار المشركين على التقرب من الأصنام هناك وإهلال الضحايا باسمها.

وبذلك يظهر أن قوله: «فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور» نهي عام عن التقرب الى الأصنام وقول الباطل أُورد لغرض التقرب الى الأصنام في عمل الحج كما كانت عادة المشركين جارية عليه، وعن التسمية باسم الأصنام على الذبائح من الضحايا، وعلى ذلك يبتني التفريع بالفاء.

وفي تعليق حكم الاجتناب أولاً بالرجس ثم بيانه بقوله: «من الأوثان» إشعار بالعلّية كأنه قيل: إجتنبوا الأوثان لأنها رجس، وفي تعليقة بنفس الأوثان دون عبادتها أو التقرب أو التوجه اليها أو مسّها ونحو ذلك ـ مع أن الاجتناب إنما يتعلق على الحقيقة بالأعمال دون الأعيان ـ مبالغة ظاهرة.

وقد تبين بما مرّ أن «من» في قوله: «من الأوثان» بيانية. وذكر بعضهم أنها ابتدائية، والمعنى: اجتنبوا الرجس الكائن من الأوثان وهو عبادتها. وذكر آخرون أنها تبعيضية، والمعنى: اجتنبوا الرجس الذي هو بعض جهات الأوثان وهو عبادتها، وفي الوجهين من التكلف وإخراج معنى الكلام عن استقامته ما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ الخ: الحنفاء جمع حنيف وهو المائل من الأطراف الى حاق الوسط. وكونهم حنفاء لله ميلهم عن الأغيار وهي الآلهة من دون الله اليه فيتحد مع قوله غير مشركين به معنى.

وهما أعني قوله: «حنفاء لله» وقوله: «غير مشركين به» حالان عن فاعل «فاجتنبوا» أي اجتنبوا التقرب من الأوثان والإهلال لها حال كونكم مائلين اليه ممن سواه غير مشركين به في حجكم فقد كان المشركون يلبّون في الحج بقولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي تأخذه بسرعة، شبّه المشرك في شركه وسقوطه به من أعلى درجات الإنسانية الى هاوية الضلال فيصيده الشيطان، بمن سقط من السماء فتأخذه الطير.

وقوله: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي بعيد في الغايه وهو معطوف على «تخطفه الطير» تشبيه آخر من جهة البعد.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ «ذلك» خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك الذي قلنا، والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة، وشعائر الله الأعلام التي نصبها الله تعالى لطاعته كما قال: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾، وقال: «والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله» الآية.

والمراد بها البدن التي تساق هدياً وتشعر أي يشق سنامها من الجانب الأيمن ليعلم أنها هدي على ما في تفسير أئمة البيت عليهم السلام ويؤيده ظاهر قوله تلواً: «لكم فيها منافع» الخ؛ وقوله: «والبدن جعلناها» الآية، وقيل: المراد بها جميع الأعلام المنصوبة للطاعة، والسياق لا يلائمه.

وقوله: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي تعظيم الشعائر الإلهية من التقوى، فالضمير لتعظيم الشعائر المفهوم من الكلام ثم كأنه حذف المضاف وأُقيم المضاف اليه مقامه فارجع اليه الضمير.

وإضافة التقوى الى القلوب للإشارة الى أن حقيقة التقوى وهي التحرّز والتجنب عن

سخطه تعالى والتورّع عن محارمه أمر معنوي يرجع الى القلوب وهي النفوس وليست هي جسد الأعمال التي هي حركات وسكنات فإنها مشتركة بين الطاعة والمعصية كالمسّ في النكاح والزنا، وإزهاق الروح في القتل قصاصاً أو ظلماً والصلاة المأتي بها قربة أو رياء وغير ذلك. ولا هي العناوين المنتزعة من الأفعال كالاحسان والطاعة ونحوها.

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ المحل بكسر الحاء اسم زمان بمعنى وقت حلول الأجل. وضمير «فيها» للشعائر. والمعنى على تقديم كون المراد بالشعائر بدن الهدي أن لكم في هذه الشعائر ـ وهي البدن ـ منافع من ركوب ظهرها وشر ألبانها عند الحاجة الى أجل مسمى هو وقت نحرها ثم محلّها أي وقت حلول أجلها للنحر منته الى البيت العتيق أو بانتهائها اليه. والجملة في معنى قوله: «هدياً بالغ الكعبة» هذا على تفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وأما على القول بكون المراد بالشعائر مناسك الحج فقيل: المراد بالمنافع التجارة الى أجل مسمى ثم محل هذه المناسك ومنتهاها الى البيت العتيق لأ آخر ما يأتي به من الأعمال الطواف بالبيت.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ الى آخر الآية: المنسك مصدر ميمي واسم زمان ومكان. وظاهر قوله: «ليذكروا اسم الله» الخ: أنه مصدر ميمي بمعنى العبادة وهي العبادة التي فيها ذبح وتقريب قربان.

والمعنى: ولكل أمة ـ من الامم السالفة المؤمنة ـ جعلنا عبادة من تقريب القرابين ليذكروا اسم الله على بهيمة الأنعام التي رزقهم الله أي لستم معشر أتباع إبراهيم أول أُمة شرعت لهم التضحية وتقريب القربان فقد شرعنا لمن قبلكم ذلك.

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي إذ كان الله سبحانه هو الذي شرع لكم

وللامم قبلكم هذا الحكم فإلهكم وإله من قبلكم إله واحد فأسلموا واستسلموا له بإخلاص عملكم له ولا تتقربوا في قرابينكم الى غيره فالفاء في «فإلهكم» لتفريع السبب على المسبب وفي قوله: «فله أسلموا» لتفريع المسبب على السبب.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ فيه تلويح الى أن من أسلم لله في حجه مخلصاً فهو من المخبتين، وقد فسره بقوله: «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» وانطباق الصفات المعدودة في الآية وهي الوجل والصبر وإقامة الصلاة والإنفاق، على من حج البيت مسلماً لربه معلوم.

قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الى آخر الآية: البدن بالضم فالسكون جمع بدنة بفتحتين وهي السمينة الضخمة من الابل، والسياق أنها من الشعائر باعتبار جعلها هدياً.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ الصواف جمع صافة ومعنى كونها صافة أن تكون قائمة قد صفت يداها ورجلاها وجمعت وقد ربطت يداها.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ الوجوب السقوط يقال: وجبت الشمس أي سقطت وغابت، والجنوب جمع جنب، والمراد بوجوب جنوبها سقوطها على الأرض على جنوبها وهو كناية عن موتها. والأمر في قوله: «فكلوا منها» للاباحة وارتفاع الحظر، والقانع هو الفقير الذي يقنع بما أُعطيه سواء سأل أم لا، والمعتر هو الذي أتاك وقصدك من الفقراء، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ الى آخر الآية: بمنزلة دفع الدخل كأن متوهماً بسيط الفهم يتوهم أن لله سبحانه نفعاً في هذه الضحايا ولحومها ودمائها فاجيب ان الله سبحانه لن يناله شيء من لحومها ودمائها لتنزهه عن الجسمية وعن كل حاجة وإنما يناله التقوى نيلاً معنوياً فيقرب المتصفين به منه تعالى.

أو يتوهم أن الله سبحانه لما كان منزهاً عن الجسمية وعن كل نقص وحاجة ولا ينتفع بلحم أو دم فما معنى التضحية بهذه الضحايا فاجيب بتقرير الكلام وأن الأمر كذلك لكن هذه التضحية يصحبها صفة معنوية لمن يتقرب بها وهذه الصفة المعنوية من شأنها أن تنال الله سبحانه بمعنى أن تصعد اليه تعالى وتقرب صاحبها منه تقريباً لا يبقى معه بينه وبينه حجاب يحجبه عنه.

وقوله: ﴿كَذٰلِكَ سَخَّرَهٰا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰيكُمْ﴾ الظاهر أن المراد بالتكبير ذكره تعالى بالكبرياء والعظمة، فالهداية هي هدايته الى طاعته وعبوديته والمعنى كذلك سخرها لكم ليكون تسخيرها وصلة الى هدايتكم الى طاعته والتقرب اليه بتضحيتها فتذكروه بالكبرياء والعظمة على هذه الهداية.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين يأتون بالأعمال الحسنة أو بالإحسان وهو الانفاق في سبيل الله[1].

٣٨ ● إِنَّ اللّٰهَ يُدٰافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ خَوّٰانٍ كَفُورٍ.

٣٩ ● أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقٰاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.

٤٠ ● اَلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاّٰ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللّٰهُ وَلَوْلاٰ دَفْعُ اللّٰهِ النّٰاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوٰامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوٰاتٌ وَمَسٰاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّٰهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

---

١. الحج ٢٥ ـ ٣٧: بحث روائي حول الحج والكعبة.

٤١ ❁ ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَآتَوُا
الزَّكٰوةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلّٰهِ عَاقِبَةُ
ٱلْأُمُورِ.

٤٢ ❁ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ.

٤٣ ❁ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ.

٤٤ ❁ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ.

٤٥ ❁ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلىٰ
عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ.

٤٦ ❁ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ
آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى
ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي الصُّدُورِ.

٤٧ ❁ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ
رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

٤٨ ❁ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ
ٱلْمَصِيرُ.

٤٩ ❁ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

٥٠ ❁ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ.

٥١ ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ.

٥٢ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

٥٣ ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ.

٥٤ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٥٥ ﴿ وَلاَ يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ.

٥٦ ﴿ أَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

٥٧ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ المدافعة مبالغة في الدفع، والخوّان اسم مبالغة من الخيانة وكذا الكفور من الكفران والمراد بالذين آمنوا المؤمنون من الامة وإن انطبق بحسب المورد على المؤمنين في ذلك الوقت لأن الآيات تشرع القتال ولا يختص حكمه بطائفة دون طائفة. والمورد لا يكون

مختصاً.

والمراد بكل خوّان كفور المشركون. وإنما كانوا مكثرين في الخيانة والكفران لأن الله حملهم أمانة الدين الحق وجعلها وديعة عند فطرتهم لينالوا بحفظه ورعايته سعادة الدارين وعرفهم إياه من طريق الرسالة فخانوه بالجحد والإنكار وغمرهم بنعمه الظاهرة والباطنة فكفروا بها ولم يشكروه بالعبودية.

وفي الآية تمهيد لما في الآية التالية من الإذن في القتال وفذكر تمهيداً أن الله يدافع عن الذين آمنوا وإنما يدفع عنهم المشركين لأن يحب هؤلاء ولا يحب أُولئك لخيانتهم وكفرهم فهو إنما يحب هؤلاء لأمانتهم وشكرهم فهو إنما يدافع عن دينه الدي عند المؤمنين.

فهو تعالى مولاهم ووليهم الذي يدفع عنهم أعداءه كما قال: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ (سورة محمد / ١١).

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ظاهر السياق أن المراد بقوله: «أُذن» إنشاء الإذن دون الاخبار عن إذن سابق وإنما هو إذن في القتال كما يدل عليه قوله: «للذين يقاتلون» الخ؛ ولذا بدّل قوله: «الذين آمنوا» من قوله: «الذين يقاتلون» ليدل على المأذون فيه.

والقراءة الدائرة «يقاتلون» بفتح التاء مبنياً للمفعول أي الذين يقاتلهم المشركون لأنهم الذين أرادوا القتال وبدؤهم به. والباء في «بأنهم ظلموا» للسببية وفيه تعليل الإذن في القتال أي أُذن لهم فيه بسبب أنهم ظلموا. وأما ما هو الظلم فتفسيره قوله: «الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق» الخ.

وفي عدم التصريح بفاعل «أُذن» تعظيم وتكبير ونظيره ما في قوله: «وإن الله على نصرهم لقدير» من ذكر القدرة على النصر دون فعليته فإن فيه إشارة الى أنه مما لا يهتم به لأنه هين على من هو على كل شيء قدير.

والمعنى أُذن ـ من جانب الله ـ للذين يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون بسبب أنهم ظلموا ـ من جانب المشركين ـ وإن الله على نصرهم لقدير ، وهو كناية عن النصر.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الى آخر الآية: بيان جهة كونهم مظلومين وهو أنهم أُخرجوا من ديارهم وقد أخرجهم المشركون من ديارهم بمكة بغير حق يجوز لهم إخراجهم.

ولم يخرجوهم بحمل وتسفير بل آذوهم وبالغوا في إيذائهم وشدّوا بالتعذيب والتفتين حتى اضطروهم الى الهجرة من مكة والتغرب عن الوطن وترك الديار والأموال فقوم الى الحبشة وآخرون الى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ ، فإخراجهم إياهم إلجاؤهم الى الخروج.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع معناه ولكن أُخرجوا بسبب أن يقولوا ربنا الله ، وفيه إشارة الى أن المشركين انحرفوا في فهمهم وألحدوا عن الحق الى حيث جعلوا قول القائل ربنا الله وهو كلمة الحق يبيح لهم أن يخرجوه من داره.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً﴾ الصوامع جمع صومعة وهي بناء في أعلاه حدة كان يتخذ في الجبال والبراري ويسكنه الزهاد والمعتزلون من الناس للعبادة ، والبيع جمع بيعة بكسر الباء معبد اليهود والنصارى ، والصلوات جمع صلاة وهي مصلى اليهود سمي بها تسمية للمحل باسم الحال كما أُريد بها المسجد في قوله تعالى: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ الى قوله ـ ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾.

وقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قسم مع تاكيد بالغ على نصره تعالى من ينصره بالقتال ذباً عن الدين الالهي ولقد صدق الله وعده فنصر المسلمين في حروبهم ومغازيهم فأيدهم على أعدائه ورفع ذكره ما كانوا ينصرونه.

والمعنى أقسم لينصرن الله من ينصره بالدفاع عن دينه إن الله لقوي لا يضعفه أحد ولا

يمنعه شيء عما أراد عزيز منيع الجانب لا يتعدى إلى ساحة عزته ولا يعادله شيء في سلطنته وملكه.

ومن يظهر من الآية أنه كان في الشرائع السابقة حكم دفاعي في الجملة وان لم يبين كيفيته.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾ الخ: توصيف آخر للذين آمنوا المذكورين في أول الآيات، وهو توصيف المجموع من حيث هو مجموع من غير نظر الى الأشخاص والمراد من تمكينهم في الأرض إقدارهم على اختيار ما يريدونه من نحو الحياة من غير مانع يمنعهم أو مزاحم يزاحمهم.

يقول تعالى: إن من صفتهم أنهم إن تمكنوا في الأرض وأُعطوا الحرية في اختيار ما يستحبونه من نحو الحياة عقدوا مجتمعاً صالحاً تقام فيه الصلاة وتؤتى فيه الزكاة ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، وتخصيص الصلاة من بين الجهات العبادية والزكاة من بين الجهات المالية بالذكر لكون كل منها عمدة في بابها.

وإذ كان الوصف للذين آمنوا المذكورين في صدر الآيات والمراد به عقد مجتمع صالح وحكم الجهاد غير خاص بطائفة خاصة فالمراد بهم عامة المؤمنين يومئذ بل عامة المسلمين الى يوم القيامة والخصيصة خصيصتهم بالطبع فمن طبع المسلم بما هو مسلم الصلاح وإن كان ربما غشيته الغواشي.

وليس المراد بهم خصوص المهاجرين بأعيانهم سواء كانت الآيات مكية أو مدنية وإن كان المذكور من جهة المظلومية هو إخراجهم من ديارهم وذلك لمنافاته عموم الموصوف المذكور في صدر الآيات وعموم حكم الجهاد لهم ولغيرهم قطعاً.

على أن المجتمع الصالح الذي عقد لأول مرة في المدينة ثم انبسط فشمل عامة جزيرة العرب في عهد النبي ﷺ وهو أفضل مجتمع متكون في تاريخ الاسلام تقام فيه الصلاة وتؤتى فيه

الزكاة وتؤمر فيه بالمعروف وتنهى فيه عن المنكر مشمول للآية قطعاً وكان السبب الأول ثم العامل الغالب فيه الأنصار دون المهاجرين.

ولم يتفق في تاريخ الاسلام للمهاجرين، خاصة أن يعقدوا وحدهم مجتمعاً من غير شركة من الأنصار فيقيموا الحق ويميطوا الباطل فيه اللهمَّ إلا أن يقال: إن المراد بهم أشخاص الخلفاء الراشدين أو خصوص عليّ عليه السلام على الخلاف بين أهل السنة والشيعة، وفي ذلك إفساد معنى جميع الآيات.

على أن التاريخ يضبط من أعمال الصدر الأول وخاصة المهاجرين منهم أُموراً لا يسعنا أن نسميها إحياء للحق وإماتة للباطل سواء قلنا بكونهم مجتهدين معذورين أم لا فليس المراد توصيف أشخاصهم بل المجموع من حيث هو مجموع.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ تأكيد لما تقدم من الوعد بالنصر وإظهار المؤمنين على أعداء الدين الظالمين لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ـ الى قوله ـ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيه تعزية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تكذيب قومه له ليس ببدع فقد كذّبت أُمم قبلهم لأنبيائهم. وإنذار وتخويف للمكذبين بالإشارة الى ما انتهى اليه تكذيب من قبلهم من الامم وهو الهلاك بعذاب من الله تعالى.

وقد عدّ من تلك الامم قوم نوح وعاداً وهم قوم هود وثمود وهم قوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وهم قوم شعيب، وذكر تكذيب موسى. قيل: ولم يقل: وقوم موسى لأن قومه بنو إسرائيل وكانوا آمنوا به، وإنما كذّبه فرعون وقومه.

وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ الإملاء الإمهال وتأخير الأجل، والنكير الإنكار، والمعنى فأمهلت الكافرين ـ الذين كذّبوا رسلهم من هذه الامم ـ ثم أخذتهم وهو كناية عن العقاب فكيف كان إنكاري لهم في تكذيبهم وكفرهم؟ وهو

كناية عن بلوغ الإنكار وشدة الأخذ.

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ قرية خاوية على عروشها أي ساقطة جدرانها على سقوفها فهي خربة، والبئر المعطّلة الخالية من الواردين والمستقين وشاد القصر أي جصّصه والشيد بالكسر الجصّ.

وقوله: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ ظاهر السياق أنه بيان لقوله في الآية السابقة: «فكيف كان نكير» وقوله: «وبئر معطلة وقصر مشيد» عطف على قرية.

والمعنى: فكم من قرية أهلكنا أهلها حال كونهم ظالمين فهي خربة ساقطة جدرانها على سقوفها، وكم من بئر معطّلة باد النازلون عليها فلا وارد لها ولا مستقٍ منها، وكم من قصر مجصّص هلك سكانها لا يرى لهم أشباح ولا يسمع منهم حسيس، وأصحاب الآبار أهل البدو وأصحاب القصور أهل الحضر.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الخ: حثّ وتحضيض على الاعتبار بهذه القرى الهالكة والآثار المعطّلة والقصور المشيدة التي تركتها تلك الامم البائدة بالسير في الأرض فإن السير فيها ربما بعث الانسان الى أن يتفكر في نفسه في سبب هلاكهم ويستحضر الحجج في ذلك فيتذكر أن الذي وقع بهم إنما وقع لشركهم بالله وإعراضهم عن آياته واستكبارهم على الحق بتكذيب الرسل فيكون له قلب يعقل به ويردعه عن الشرك والكفر هذا إن وسعه أن يستقل بالتفكير.

وإن لم يسعه ذلك بعثه الاعتبار الى أن يُصغي الى قول المشفق الناصح الذي لا يريد به إلا الخير وعظة الواعظ الذي يميز له ما ينفعه مما يضره ولا عظة ككتاب الله ولا ناصح كرسوله فيكون له أُذن يسمع بها ما يهتدي به الى سعادته.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ

رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ كان القوم يكذبون النبي ﷺ إذا أخبرهم أن الله سبحانه وعده أن يعذبهم إن لم يؤمنوا به فكانوا يستعجلونه العذاب استهزاء به وتعجيزاً له قائلين: متى هذا الوعد؟ فردّ الله عليهم بقوله: «ولن يخلف الله وعده» فإن كان المراد بالعذاب عذاب مشركي مكة فالذي وعدهم من العذاب هو ما ذاقوه يوم بدر وإن كان المراد به ما يقضى به بين النبي ﷺ وبين أُمته بعذاب موعود لم ينزل بعد وقد أخبر الله عنه في قوله: ﴿ولكل أُمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم﴾ (يونس / ٤٧) الى آخر الآيات.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ حكم بتساوي اليوم الواحد والألف سنة عند الله سبحانه فلا يستقلّ هذا ولا يستكثر ذلك حتى يتأثر من قصر اليوم الواحد وطول الألف سنة فليس يخاف الفوت حتى يعجل لهم العذاب بل هو حليم ذو أناة يمهلهم حتى يستكملوا دركات شقائهم ثم يأخذهم فيما قدّر لهم من أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، ولذا عقّب الكلام بقوله في الآية التالية: «وكأيّن من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير».

وقول «وإن يوماً عند ربك كألف سنة» رد لاستعجالهم بالعذاب بأن الله يستوي عنده قليل الزمان وكثيره، كما أن قوله: «ولن يخلف لله وعده» تسلية وتأييد للنبي ﷺ وردّ لتكذيبهم له فيما أخبرهم به من وعد الله وتعجيزهم له واستهزائهم به.

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ الآية ـ كما مر ـ متممة لقوله: «وإن يوماً عند ربك كألف سنة» بمنزلة الشاهد على صدق المدّعى، والمعنى: قليل الزمان وكثيره عند ربك سواء وقد أملى لكثير من القرى الظالمة وأمهلها ثم أخذها بعد مهل.

وقوله: ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ بيان لوجه عدم تعجيله العذاب لأن لما كان مصير كل شيء اليه فلا يخاف الفوت حتى يأخذ الظالمين بعجل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ـ الى قوله ـ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أمر بإعلام الرسالة بالإنذار وبيان ما للإيمان به والعمل الصالح من الأجر الجميل وهو المغفرة بالإيمان والرزق الكريم وهو الجنة بما فيها من النعيم، بالعمل الصالح. وما للكفر والجحود من التبعة السيئة وهي صحابة الجحيم ن غير مفارقة.

وقوله: ﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ السعي الإسراع في المشي وهو كناية عن بذل الجهد في أمر آيات الله لإبطالها وإطفاء نورها بمعاجزة الله. والتعبير بلفظ المتكلم مع الغير رجوع في الحقيقة الى السابق بعد إيفاء الالتفات في الآية السابقة أعني قوله: «أمليت لها» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ الخ: التمني تقدير الإنسان وجود ما يحبه سواء كان ممكناً أو ممتنعاً كتمني الفقير أن يكون غنياً ومن لا ولد له أن يكون ذا ولد، وتمني الإنسان أن يكون له بقاء لا فناء معه وأن يكون له جناحان يطير بهما، ويسمى صورته الخيالية التي يلتذّ بها أُمنيّة، والأصل في معناه المني بالفتح فالسكون بمعنى التقدير، وقيل: ربما جاء بمعنى القراءة والتلاوة يقال: تمنيت الكتاب أي قرأته. والإلقاء في الامنية المداخلة فيها بما يخرجها عن صرافتها ويفسد أمرها.

ومعنى الآية على أول المعنيين وهو كون التمني هو تمني القلب: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى وقدّر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدّم دينه وإقبال الناس عليه وإيمانهم به ألقى الشيطان في أُمنيّته وداخل فيها بوسوسة الناس وتهييج الظالمين وإغراء المفسدين فأفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبي وأبطل سعيه فينسخ الله ويزيل ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعي الرسول أو النبي وإظهار الحق والله عليم حكيم.

والمعنى: على ثاني المعنيين وهو كون التمني بمعنى القراءة والتلاوة: وما أرسلنا من قبلك من

رسول ولا نبي إلا إذا تلا وقرء آيات الله ألق الشيطان شبهاً مضلة على الناس بالوسوسة ليجادلوه بها ويفسدوا على المؤمنين إيمانهم فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشبه ويذهب به بتوفيق النبي لردّه أو بإنزال ما يرده.

وفي الآية دلالة واضحة على اختلاف معنى النبوة والرسالة لا بنحو العموم والخصوص مطلقاً كما اشتهر بينهم أن الرسول هو من بعث وأُمر بالتبليغ والنبي من بعث سواء أُمر بالتبليغ أم لا، إذ لو كان كذلك لكان من الواجب أن يراد بقوله في الآية: «ولا نبي» غير الرسول أعني من لم يؤمر بالتبليغ، وينافيه قوله: «وما أرسلنا».

وقد قدَّمنا في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب ما يدل من روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الرسول هو من ينزل عليه الملك بالوحي فيراه ويكلمه والنبي هو من يرى المنام ويوحى اليه فيه. وقد استفدنا مضمون هذه الروايات من قوله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزَّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ (الإسراء / ٩٥) في الجزء الثالث عشر من الكتاب.

وفي قوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ التفات من التكلم بالغير الى الغيبة. والوجه فيه العناية بذكر لفظ الجلالة وإسناد النسخ والإحكام الى من لا يقوم له شيء، ولذلك بعينه أعاد لفظ الجلالة ثانياً مع أنه من وضع الظاهر موضع المضمر ومنه أيضاً إعادة لفظ الشيطان ثانياً دون ضميره ليشار الى أن الملقي هو الشيطان الذي لا يعبؤ به وبكيده في قباله تعالى، وكان الظاهر أن يقال: فينسخ ما يلقيه ثم يحكم آياته.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الخ: مرض القلب عدم استقامة حاله في التعقل بأن لا يذعن بما من شأنه أن يذعن به من الحق وهو الشك والارتياب. وقساوة القلب صلابته وغلظه مأخوذ من الحجر القاسي أي الصلب. وصلابته بطلان عواطفه الرقيقة المعينة في إدراك المعاني الحقة

كالشخوع والرحمة والتواضع والمحبة فالقلب المريض سريع التصور للحق بطيء الاذعان به، والقلب القسي بطيئهما معاً، وكلاهما سريع القبول للوساوس الشيطانية.

والإلقاءات الشيطانية التي تفسد الامور على الحق وأهله وتبطل مساعي الرسول والأنبياء دون أن تؤثر أثرها وإن كانت مستندة الى الشيطان نفسه لكنها كسائر الآثار لما كانت واقعة في ملكه تعالى، ولا يقع أثر من مؤثر أو فعل من فاعل إلا باذنه، ولا يقع شيء باذنه إلا استند اليه استناداً ما بمقدار الإذن، ولا يستند اليه إلا ما فيه خير لا يخلو من مصلحة وغاية.

لذا ذكر سبحانه في هذه الآية أن هذه الإلقاءات الشيطانية مصلحة وهي أنها محنة يمتحن بها الناس عامة والامتحان من النواميس الإلهية العامة الجارية في العالم الإنساني ويتوقف عليه تلبّس السعيد بسعادته والشقي بشقائه، وفتنة يفتتن بها الذين في قلوبهم مرض والقاسي ة قلوبهم خاصة فإن تلبّس الأشقياء بكمال شقائهم من التربية الإلهية المقصودة في نظام الخلقة. قال تعالى: ﴿كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان ربك محظوراً﴾ (الإسراء / ٢٠).

وهذا معنى قوله: «ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم» فاللام في «ليجعل» للتعليل يعلل بها إلقاء الشيطان في أُمنية الرسول والنبي أي يفعل الشيطان كذا ليفعل الله كذا ومعناه أنه مسخر لله سبحانه لغرض امتحان العباد وفتنة أهل الشك والجحود وغرورهم.

وقد تبين أن المراد بالفتنة الابتلاء والامتحان الذي ينتج الغرور والضلال وبالذين في قلوبهم مرض أهل الشك من الكفار وبالقاسية قلوبهم أهل الجحود والعناد.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ الشقاق والمشاقة المباينة والمخالفة وتوصيفه بالبعد توصيف له بحال موصوفه، والمعنى: وإن الظالمين ـ وهم أهل الجحود على ما

يعطيه السياق أو هم وأهل الشك جميعاً ـ لفي مباينة ومخالفة بعيد صاحبها من الحق وأهله.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ الخ: المتبادر من السياق أنه عطف على قوله: «ليجعل» وتعليل لقوله: «فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته» والضمير في «أنه» على هذا لما يتمناه الرسول والنبي المفهوم من قوله: «إذا تمنى» الخ: ولا دليل على إرجاعه الى القرآن.

والمعنى: فينسخ الله ما يلقيه الشيطان ثم يحكم آياته ليعلم الذين أُوتوا العلم بسبب ذاك النسخ والإحكام أن ما تمناه الرسول أو النبي هو الحق من ربك لبطلان ما يلقيه الشيطان فيؤمنوا به فتخبت أي تلين وتخشع له قلوبهم.

ويمكن أن يكون قوله: «وليعلم» معطوفاً على محذوف ومجموع المعطوف والمعطوف عليه تعليلاً لما بيّنه في الآية السابقة من جعله تعالى هذا الإلقاء فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم.

والمعنى: إنما بيّنا هذه الحقيقة لغاية كذا وكذا وليعلم الذين أُوتوا العلم أنه الحق من ربك، الخ: على حد قوله: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا﴾ (آل عمران / ١٤٠)، وهو كثير الورود في القرآن.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في مقام التعليل لكون علم الذين أُوتوا العلم غاية مترتبة على فعله تعالى فيفيد أنه تعالى إنما فعل ما فعل ليعلموا أن الأمر حق لأنه هاد يريد أن يهديهم فيهديهم بهذا التعليم الى صراط مستقيم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ الخ: الآية ـ كما ترى ـ تخبر عن حرمان هؤلاء الذين كفروا من الإيمان مدى حياتهم فليس المراد بهم مطلق الكفار لقبول بعضهم الإيمان بعد الكفر فالمراد به عدة من صناديد قريش الذين لم

يوفقوا للإيمان ما عاشوا كما في قوله: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (البقرة / ٦).

وعقم اليوم كونه بحيث لا يخلف يوماً بعده وهو يوم الهلاك أو يوم القيامة، والمراد بـه في الآية على ما يعطيه سياق الآية الثالثة يوم القيامة.

والمعنى ويستمر الذين كفروا في شك من القرآن حتى يأتيهم يوم القيامة أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وهو يوم يأتي بغتة لا يمهلهم حتى يحتالوا له بشيء ولا يخلف بعده يوماً حتى يقضى فيه ما فات قبله.

وإنما ردد بين يوم القيامة وبين عذابه لأنهم يعترفون عند مشاهدة كل منهما بالحق ويطيح عنهم الريب والمرية قال تعالى: ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعـد الرحمـن وصدق المرسلون﴾ (يس / ٥٢). وقال: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هـذا بالحق قالوا بلى وربنا﴾ (الأحقاف / ٣٤).

وقد ظهر بما تقدم أن تقييد اليوم تارة بكونه بغتة وتارة بالعقم للدلالة على كونه بحيث لا ينفع معها حيلة ولا يقع بعدها تدارك لما فات قبله.

قوله تعالى: ﴿ أَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ـ الى قـوله ـ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ قـد تقدَّم مراراً أن المراد بكون الملك يومئذ لله، ظهور كون الملك له تعالى لأن الملك له دائماً وكذا ما ورد من نظائره من أوصاف يوم القيامة في القرآن ككون الأمر يومئذ لله وكون القوة يومئذ لله وهكذا.

ولسنا نعني به أن المراد بالملك مثلاً في الآية ظهور الملك مجازاً بل نعني به أن الملك قسمان ملك حقيقي وملك مجازي صوري، وللأشياء ملك مجازي صوري ملكها الله ذلك وله تعالى مع ذلك الملك الحق بحقيقة معناه حتى إذا كان يوم القيامة ارتفع كل مـلك صـوري عـن الشيء المتلبّس به ولم يبقَ من الملك إلا حقيقته وهو لله وحده فمن خاصة يوم القيامة أن الملك يومئذ

لله وعلى هذا القياس.

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولا حاكم غيره لأن الحكم من فروع الملك فإذا لم يكن يومئذ لأحد نصيب في الملك لم يكن له نصيب في الحكم.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ـ وهؤلاء المعاندون المستكبرون ـ فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ بيان لحكمه تعالى[1].

٥٨ ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

٥٩ ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ.

٦٠ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

٦١ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.

٦٢ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

٦٣ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

---

١. الحج ٣٨ ـ ٥٧: بحث روائي في ايذاء المشركين المسلمين: اذن القتال للمسلمين: النبي والرسول.

٦٤ ● لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ.

٦٥ ● أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ.

٦٦ ● وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ لما ذكر إخراج المهاجرين من ديارهم ظلماً عقّبه بذكر ما يثيبهم به على مهاجرتهم ومحنتهم في سبيل الله وهو وعد حسن برزق حسن.

وقد قيّد الهجرة بكونها في سبيل الله لأن المثوبة إنما تترتب على صالح العمل، وإنما يكون العمل صالحاً عند الله بخلوص النية فيه وكونه في سبيله لا في سبيل غيره من مال أو جاه أو غيرهما من المقاصد الدنيوية، وبمثل ذلك يتقيد قوله: «ثم قتلوا أو ماتوا» أي قتلوا في سبيل الله أو ماتوا وقد تغرّبوا في سبيل الله.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ختم للآية يعلل به ما ذكر فيها من الرزق الحسن وهو النعمة الاخروية إذ موطنها بعد القتل والموت، وفي الآية إطلاق الرزق على نعم الجنة كما في قوله: ﴿أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران / ١٦٩).

قوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ المدخل بضم

الميم وفتح الخاء اسم مكان من الإدخال، واحتمال كونه مصدراً ميمياً لا يناسب السياق تلك المناسبة.

وتوصيف هذا المدخل وهو الجنة بقوله: «يرضونه» والرضا مطلق، دليل على اشتمالها على أقصى ما يريده الإنسان كما قال: ﴿لهم فيها ما يشاؤن﴾ (الفرقان / ١٦).

وقوله: «ليدخلنهم مدخلاً يرضونه» بيان لقوله: «ليرزقنهم الله رزقاً حسناً» وإدخالهم إياه مدخلاً يرضونه ولا يكرهونه على الرغم من إخراج المشركين إياهم إخراجاً يكرهونه ولا يرضونه ولذا علله بقوله: «وإن الله لعليم حليم» أي عليم بما يرضيهم فيعدّه لهم إعداداً حليم فلا يعاجل العقوبة لأعدائهم الظالمين لهم.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك الذي أخبرناك به وذكرناه لك، والعقاب مؤاخذة الإنسان بما يكرهه بإزاء فعله ما لا يرتضيه المعاقب وإنما سمي عقاباً لأنه يأتي عقيب الفعل.

والعقاب بمثل العقاب كناية عن المعاملة بالمثل ولما لم يكن هذه المعاملة بالمثل حسناً إلا فيما كان العقاب الأول من غير حق قيّده بكونه بغياً فعطف قوله: «بغي عليه» بثم عليه.

وقوله: ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللّٰهُ﴾ ظاهر السياق ـ والمقام مقام الإذن في الجهاد ـ أن المراد بالنصر هو إظهار المظلومين على الظالمين الباغين وتأييدهم عليهم في القتال لكن يمكن أن يستظهر من مثل قوله: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾ (الإسراء / ٣٣) أن المراد بالنصر هو تشريع حكم للمظلوم يتدارك به ما وقع عليه من وصمة الظلم والبغي فإن في إذنه أن يعامل الظالم الباغي عليه بمثل ما فعل بسطاً ليده على من بسط عليه اليد.

وبهذا يتضح معنى تعليل النصر بقوله: «إن الله لعفوّ غفور» فإن الإذن والإباحة في موارد

الإضطرار والحرج وما شابه ذلك من مقتضيات صفتي العفو والمغفرة كما تقدم مراراً في أمثال قوله تعالى: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ (المائدة / ٣) وقد أوضحنا ذلك في المجازاة والعفو في آخر الجزء السادس من الكتاب.

والمعنى - على هذا - ومن عامل من عاقبه بغياً عليه بمثل ما عاقب نصره الله بإذنه فيه ولم يمنعه عن المعاملة بالمثل لأن الله عفوّ غفور يمحو ما تستوجبه هذه المعاملة والإنتقام من السماءة والتبعة كأن العقاب وإيصال المكروه الى الناس مبغوض في نظام الحياة غير أن الله سبحانه يمحو ما فيه من المبغوضية ويستر على أثره السيء إذا كان عقاباً من مظلوم لظالمه الباغي عليه بمثل ما بغي عليه، فيجيز له ذلك ولا يمنعه بالتحريم والحظر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إيلاج كل من الليل والنهار في الآخر حلوله محل الآخر كورود ضوء الصباح على ظلمة الليل كشيء يلج في شيء ثم اتساعه وإشغال النهار من الفضاء ما أشغله الليل، وورود ظلمة المساء على نور النهار كشيء يلج في شيء ثم اتساعها وشمول الليل.

والمشار اليه بذلك - بناء على ما تقدم من معنى النصر - ظهور المظلوم بعقابه على الظالم الباغي عليه، والمعنى أن ذلك النصر بسبب أن من سنّة الله أن يظهر أحد المضادّين والمتزاحمين على الآخر كما يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وإن الله سميع لأقوالهم بصير بأعمالهم فينصر المظلوم وهو مهضوم الحق بعينه وما يسأله بلسان حاله في سمعه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ الإشارة بذلك الى النصر أو اليه والى ما ذكر من سببه.

والحصران في قوله: «بأن الله هو الحق» وقوله: «وأن ما يدعون من دونه هو الباطل» إما بمعنى أنه تعالى حق لا يشوبه باطل وأن ما يدعون من دونه وهي الأصنام باطل لا يشوبه حق

فهو قادر على أن يتصرف في تكوين الأشياء وأن يحكم لها وعليها بما شاء.

وإما بمعنى أنه تعالى حق بحقيقة معنى الكلمة مستقلاً بذلك لا حق غيره إلا ما حققه هو، وأن ما يدعون من دونه وهي الأصنام بل كان ما يركن اليه ويدعى للحاجة من دون الله هو الباطل لا غيره إذ مصداق غيره هو الله سبحانه فافهم ذلك. وإنما كان باطلاً إذ كان لا حقية له باستقلاله.

والمعنى ـ على أي تقدير ـ أن ذلك التصرف في التكوين والتشريع من الله سبحانه بسبب أنه تعالى حق يتحقق بمشيئته كل حق غيره، وأن آلهتهم من دون الله وكل ما يركن اليه ظالم باغ من دونه باطل لا يقدر على شيء.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ علوّه تعالى بحيث يعلو ولا يعلى عليه وكبره بحيث لا يصغر لشيء بالهوان والمذلة من فروع كونه حقاً أي ثابتاً لا يعرضه زوال وموجوداً لا يمسّه عدم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ استشهاد على عموم القدرة المشاره اليها آنفاً بإنزال الماء من السماء ـ والمراد بها جهة العلو ـ وصيرورة الأرض بذلك مخضرَّة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ تعليل لجعل الأرض مخضرَّة بإنزال الماء من السماء فتكون نتيجة هذا التعليل وذاك الاستشهاد كأنه قيل: إن الله ينزل كذا فيكون كذا لأنه لطيف خبير وهو يشهد بعموم قدرته.

قوله تعالى: ﴿لَهُ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ظاهره أنه خبر بعد خبر لأن فهو تتمة التعليل في الآية السابقة كأنه قيل: إن الله لطيف خبير مالك لما في السماوات وما في الأرض يتصرَّف في ملكه كما يشاء بلطف وخبرة، ويمكن أن يكون استئنافاً يفيد تعليلاً باستقلاله.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ يفيد عدم حاجته الى شيء من تصرفاته بما هو غنيٌّ على الإطلاق وهو مع ذلك جميلة نافعة يحمد عليها بما هو حميدعلى الإطلاق فـفاد الإسمين معاً أنه تعالى لا يفعل إلا ما هو نافع لكن لا يعود نفعه اليه بل الى الخلق أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الخ: استشهاد آخـر على عموم القدرة، والمقابلة بين تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك في البحر يؤيد أن المراد بالأرض البر مقابل البحر، وعلى هذا فتعقيب الجملتين بقوله: «ويمسك السماء» الخ: يعطي أن محصّل المراد أن الله سخَّر لكم ما في السماء والأرض برّها وبحرها.

والمراد بالسماء جهة العلو وما فيها فالله يمسكها أن تقع على الأرض إلا باذنه مما يسقط من الأحجار السماوية والصواعق ونحوها.

وقد ختم الآية بصفتي الرأفة والرحمة تتميماً للنعمة وامتناناً على الناس.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ سياق الماضي في «أحياكم» يدل على أن المراد به الحياة الدنيا وأهمية المعاد بالذكر تستدعي أن يكون المراد من قوله: «ثم يحـييكم» الحـياة الآخـرة يـوم البـعث دون الحـياة البرزخية.

وهذه الحياة ثم الموت ثم الحياة من النعم الإلهية العظمى ختم بها الامتنان ولذا عقبها بقوله: «إن الإنسان لكفور».

٦٧ ◉ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدىً مُسْتَقِيمٍ.

٦٨ ◉ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ.

٦٩ ❁ أَللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلقِيٰمَةِ فِيمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.
٧٠ ❁ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِي السَّمٰاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذٰلِكَ فِي
كِتٰابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ.
٧١ ❁ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً وَمٰا لَيْسَ لَهُمْ
بِهِ عِلْمٌ وَمٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ.
٧٢ ❁ وَإِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
ٱلْمُنْكَرَ يَكٰادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيهِمْ آيٰاتِنٰا قُلْ
أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكُم النّٰارُ وَعَدَهَا اللّٰهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ.
٧٣ ❁ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبٰاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ
الذُّبٰابُ شَيْئاً لاٰ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّٰالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ.
٧٤ ❁ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.
٧٥ ❁ اللّٰهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلاٰئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النّٰاسِ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ.
٧٦ ❁ يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمٰا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ.
٧٧ ❁ يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا
ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.
٧٨ ❁ وَجٰاهِدُوا فِي اللّٰهِ حَقَّ جِهٰادِهِ هُوَ ٱجْتَبٰيكُمْ وَمٰا جَعَلَ

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّيكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلٰيكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ الى آخر الآية: المنسك مصدر ميميّ بمعنى النسك وهو العبادة ويجيده قوله: «هم ناسكوه» أي يعبدون تلك العبادة. وليس اسم مكان كما احتمله بعضهم.

والمراد بكل أُمة هي الامة بعد الامة من الامم الماضين حتى تنتهي الى هـذه الامـة دون الامم المختلفة الموجودة في زمانه ﷺ كالعرب والعجم والروم لوحـدة الشريـعة وعـموم النبوة.

وقوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ نهي للكافرين بدعوة النبي ﷺ منازعته في المناسك التي أتى بها وهم وإن كانوا لا يؤمنون بدعوته ولا يـرون لما أتى بـه مـن الأوامـر والنواهي وقعاً يسلّمون له ولا أثر لنهي من لا يسلّم للناهي طاعة ولا مولوية لكن هذا النهي لما كان معتمداً على الحجة لم يصر لغواً لا أثر له وهي صدر الآية.

فكأن الكفار من أهل الكتاب أو المشركين لما رأوا من عبادات الإسلام ما لا عهد لهم به في الشرائع الـسابقة كشريعة اليهود مثلاً نازعوه في ذلك من أين جئت به ولا عهد به في الشرائع السابقة ولو كان من شرائع النبوة لعرفه المؤمنين من أُمم الأنبياء الماضين؟ فأجاب الله سبحانه عن منازعتهم بما في الآية.

ومعناها ان كلاً من الامم كان لهم منسك هم ناسكوه وعبادة يعبدونها ولا يتعدّاهم الى غيرهم لما أن الله سبحانه بدّل منسك السابقين بما هو أحسن منه في حق اللاحقين لتقدمهم في الرقيّ الفكري واستعدادهم في اللاحق لما هو أكمل وأفضل من السابق فالمناسك السابقة منسوخة في حق اللاحقين فلا معنى لمنازعة النبي ﷺ فيما جاء به من المنسك المغاير لمناسك الامم الماضين.

ولما كان نهيهم عن منازعته ﷺ في معنى أمره بطيب النفس من قبل نزاعهم ونهيه عن الاعتناء به عطف عليه قوله: «وادع الى ربك» كأنه قيل: طب نفساً ولا تعبأ بمنازعتهم واشتغل بما أُمرت به وهو الدعوة الى ربك.

وعلّل ذلك بقوله: «إنك لعلى هدى مستقيم» وتوصيف الهدي بالاستقامة وهي وصف الصراط الذي اليه الهداية من المجاز العقلي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ سياق الآية السابقة يؤيد أن المراد بهذا الجدال المجادلة والمراء في أمر اختلاف منسكه ﷺ مع الشرائع السابقة بعد الاحتجاج عليه بنسخ الشرائع. وقد أُمر ﷺ بارجاعهم الى حكم الله من غير أن يشتغل بالمجادلة معهم بمثل ما يجادلون.

وقوله: ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ توطئة وتمهيد الى إرجاعهم الى حكم الله أي الله أعلم بعملكم ويحكم حكم من يعلم بحقيقة الحال. وإنما يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون وتخالفون الحق وأهله ـ والاختلاف والتخالف بمعنى كالاستباق والتسابق ـ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ تعليل لعلمه تعالى بما يعملون أي إن ما يعملون بعض ما في السماء والأرض وهو يعلم جميع ما فيهما فهو يعلم بعلمهم.

وقوله: «إن ذلك في كتاب» تأكيد لما تقدمه أي إن ما علمه من شيء مثبت في كتاب فلا

يزول ولا ينسى ولا يسهو فهو محفوظ على ما هو عليه حين يحكم بينهم، وقوله: «إن ذلك على الله يسير» أي ثبت ما يعلمه في كتاب محفوظ هين عليه.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً وَمٰا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ الخ: الباء في «به» بمعنى مع، والسلطان البرهان والحجة والمعنى ويعبد المشركون من دون الله شيئاً ـ وهو ما اتخذوه شريكاً له تعالى ـ لم ينزل الله معه حجة حتى يأخذوها ويحتجوا بها ولا أن لهم به علماً.

وقوله: ﴿وَمٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ قيل: هو تهديد للمشركين والمراد أنه ليس لهم ناصر ينصرهم فيمنعهم من العذاب.

والظاهر ـ على ما يعطيه السياق ـ أنه في محل الاحتجاج على أن ليس لهم برهان على شركائهم ولا علم، بأن لو كان لهم حجة أو علم لكان لهم نصير ينصرهم إذ البرهان نصير لمن يحتج به والعلم نصير لكنهم ظالمون وما للظالمين من نصير فليس لهم برهان ولا علم، وهذا من ألطف الاحتجاجات القرآنية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا اَلْمُنْكَرَ يَكٰادُونَ يَسْطُونَ﴾ الخ: المنكر مصدر ميمي بمعنى الإنكار، والمراد بمعرفة الإنكار في وجوههم معرفة أثر الإنكار والكراهة، و«يسطون» من السطوة وهي على ما في مجمع البيان: إظهار الحال الهائلة للإخافة يقال: سطا عليه يسطو سطوة وسطاعة والإنسان مسطو عليه، والسطوة والبطشة بمعنى. انتهى.

والمعنى: وإذا تتلى عليهم آيتنا والحال أنها واضحات الدلالة تعرف وتشهد في وجوه الذين كفروا أثر الإنكار يقربون من أن يبطشوا على الذين يتلون ويقرؤن عليهم آياتنا لما يأخذهم من الغيظ.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكُم﴾ تفريع على إنكارهم وتحرزهم من استماع

القرآن أي قل: أفاخبركم بما هو شر من هذا الذي تعدونه شر أتحترزون منه وتتقون أن تسمعوه أفاخبركم به لتتقوه إن كنتم تتقون.

وقوله: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بيان للشر أي ذلكم الذي هو شر من هذا هي النار، وقوله: «وعدها الله» الخ: بيان لكونه شراً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ الى آخر الآية: خطاب للناس جميعاً والعناية بالمشركين منهم.

وقوله: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ المثل هو الوصف الذي يمثل الشيء في حاله سواء كان وصفاً محققاً واقعاً أو مقدراً متخيلاً كالأمثلال التي تشتمل على محاورات الحيوانات والجمادات ومشافهاتها، وضرب المثل نصبه ليتفكّر فيه كضرب الخيمة ليسكن فيها.

وهذا المثل هو قوله: «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه» والمعنى أنه لو فرض أن آلهتهم شاؤا أن يخلقوا ذباباً وهو أضعف الحيوانات عندهم لم يقدروا عليه أبداً وإن يسلبهم الذباب شيئاً مما عليهم لا يستنقذوه بالانتزاع منه.

فهذا الوصف يمثل حال آلهتهم من دون الله في قدرتهم على الإيجاد وعلى تدبير الأمر حيث لا يقدرون على خلق ذباب وعلى تدبير أهون الامور وهو استرداد ما أخذه الذباب منهم وأضرهم بذلك وكيف يستحق الدعوة والعبادة من كان هذا شأنه؟.

وقوله: «ضعف الطالب والمطلوب» مقتضى المقام أن يكون المراد بالطالب الآلهة وهي الأصنام المدعوّة فإن المفروض أنهم يطلبون خلق الذباب فلا يقدرون واستنقاذ ما سلبه إياهم فلا يقدرون، والمطلوب الذباب حيث يطلب ليخلق ويطلب ليستنقذ منه.

وفي هذه الجملة بيان غاية ضعفهم فإنهم أضعف من أضعف ما يستضعفه الناس من

الحيوانات التي فيها شيء من الشعور والقدرة.

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قدر الشيء هندسته وتعيين كميته ويكنّى عن منزلة الشيء تقتضيها أوصافه ونعوته يقال: قدر الشيء حق قدره أي نزّله المنزلة التي يستحقها وعامله بما يليق به.

وقدره تعالى حق القدر أن يلتزم بما يقتضه صفاته العليا ويعامل كما يستحقه بأن يتخذ رباً لا رب غيره ويعبد وحده لا معبود سواه لكن المشركين ما قدروه حق قدره إذ لم يتخذوه رباً ولم يعبدوه بل اتخذوا الأصنام أرباباً من دونه وعبدوها دونه وهم يرون أنها لا تقدر على خلق ذباب ويمكن أن يستذلها ذباب فهي من الضعف والذلة في نهايتها، والله سبحانه هو القوي العزيز الذي اليه ينتهي الخلق والأمر وهو القائم بالإيجاد والتدبير.

فقوله: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إشارة الى عدم التزامهم بربوبيته تعالى وإعراضهم عن عبادته ثم اتخاذهم الأصنام أرباباً من دونه يعبدونها خوفاً وطمعاً دونه تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تعليل للنفي السابق وقد أطلق القوة والعزة فأفاد أنه قوي لا يعرضه ضعف وعزيز لا تعتريه ذلة كما قال: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ (البقرة / ١٦٥)، وقال: ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ (النساء / ١٣٩)، وإنما خصّ الإسمين بالذكر لمقابلتهما ما في المثل المضروب من صفة آلهتهم وهو الضعف والذلة فهؤلاء استهانوا أمر ربهم إذ عدلوا بينه تعالى وهو القوي الذي يخلق ما يشاء والعزيز الذي لا يغلبه شيء ولا يستذله من سواه وبين الأصنام والآلهة الذين يضعفون من خلق ذباب ويستذلهم ذباب ثم لم يرضوا بذلك حتى قدّموهم عليه تعالى فاتخذوهم أرباباً يعبدونهم دونه تعالى.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ الإصطفاء أخذ صفوة الشيء وخالصته. قال الراغب: الإصطفاء تناول صفو الشيء

كما أن الإختيار تناول خيره والإجتباء تناول جبايته. انتهى.

فاصطفاه الله تعالى من الملائكة رسلاً ومن الناس اختياره من بينهم من يصفو لذلك ويصلح.

وهذه الآية والتي بعدها تبينان وجوب جعل الرسالة وصفتها وصفة الرسل وهي العصمة، وللكلام فيها بعض الإتصال بقوله السابق: «لكل امة جعلنا منسكاً هم ناسكوه» لإنبائه عن الرسالة.

تبيّن الآية أولاً أن لله رسلاً من الملائكة ومن الناس، وثانياً أن هذه الرسالة ليست كيفما اتفقت وممن اتفق بل هي بالإصطفاء وتعيين من هو صالح لذلك.

وقوله: «إن الله سميع بصير» تعليل لأصل الإرسال فإن الناس أعني النوع الإنساني يحتاج حاجة فطرية الى أن يهديهم الله سبحانه نحو سعادتهم وكمالهم المطلوب من خلقهم كسائر الأنواع الكونية فالحاجة نحو الهداية عامة، وظهور الحاجة فيهم وإن شئت فقل: إظهارهم الحاجة من أنفسهم سؤال منهم واستدعاء لما ترتفع به حاجتهم والله سبحانه سميع بصير يرى ببصره ما هم عليه من الحاجة الفطرية الى الهداية ويسمع بسمعه سؤالهم ذلك.

فقتضى سمعه وبصره تعالى أن يرسل اليهم رسولاً ويهديهم به الى سعادتهم التي خلقوا لنيلها والتلبس بها فما كل الناس بصالحين للاتصال بعالم القدس وفيهم الخبيث والطيب والطالح والصالح. والرسول رسولان رسول ملكي يأخذ الوحي منه تعالى ويؤديه الى الرسول الانساني ورسول إنساني يأخذ الوحي من الرسول الملكي ويلقيه الى الناس وبالجملة قوله: «إن الله سميع بصير» يتضمن الحجة على لزوم أصل الإرسال. وأما معنى الإصطفاء والحجة على لزومه فهو ما يشير اليه قوله: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم».

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

ظاهر السياق أن ضمير الجمع في الموضعين للرسل من الملائكة والناس، ويشهد وقوع هذا التعبير فيهم في غير هذا الموضع كقوله تعالى حكاية عن ملائكة الوحي: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ الآية (مريم / ٦٤)، وقوله: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم﴾ (الجن / ٢٨).

والآية ـ كما ترى ـ تنادي بأن ذكر علمه بما بين أيديهم وما خلفهم للدلالة على أنه تعالى مراقب للطريق الذي يسلكه الوحي فيما بينه وبين الناس حافظ له أن يختل في نفسه بنسيان أو تغيير أو يفسد بشيء من مكائد الشياطين وتسويلاتهم كل ذلك لأن حملة الوحي من الرسل بعينه وبمشهد منه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهو بالمرصاد.

ومن هنا يظهر أن المراد بما بين أيديهم هو ما بينهم وبين من يؤدون اليه فما بين أيدي الرسول الملكي هو ما بينه وبين الرسول الإنساني وما بين يدي الرسول الإنساني هو ما بينه وبين الناس، والمراد بما خلفهم هو ما بينهم وبين الله سبحانه والجميع سائرون من جانب الله الى الناس.

فالوحي في مأمن إلهي منذ يصدر من ساحة العظمة والكبرياء الى أن يبلغ الناس ولازمه أنّ الرسل معصومون في تلقي الوحي ومعصومون في حفظه ومعصومون في إبلاغه للناس.

وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ في مقام التعليل لعلمه بما بين أيديهم وما خلفهم أي كيف يخفى عليه شيء من ذلك؟ واليه يرجع جميع الامور وإذ ليس هذا الرجوع رجوعاً زمانياً حتى يجوز معه خفاء حاله قبل الرجوع وإنما هو مملوكية ذاته له تعالى فلا استقلال له منه ولا خفاء فيه له فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الأمر بالركوع والسجود أمر بالصلاة ومقتضى المقابلة أن يكون

المراد بقوله: «واعبدوا ربكم» الأمر بسائر العبادات المشرّعة في الدين كالحج والصوم ويبقى لقوله: «وافعلوا الخير» سائر الأحكام والقوانين المشرعة فإن في إقامتها والعمل بها خير المجتمع وسعادة الأفراد وحياتهم كما قال: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ (الأنفال / ٢٤).

وفي الآية أمر بإجمال الشرائع الإسلامية من عبادات وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ الى آخر الآية؛ الجهاد بذل الجهد واستفراغ الوسع في مدافعة العدو، ويطلق في الأكثر على المدافعة بالقتال لكن ربما يتوسع في معنى العدو حتى يشمل كل ما يتوقع منه الشر كالشيطان الذي يضل الإنسان والنفس الأمارة بالسوء وغير ذلك فيطلق اللفظ على مخالفة النفس في هواها والاجتناب عن طاعة الشيطان في وسوسته، وقد سمي النبي ﷺ مخالفة النفس جهاداً أكبر.

والظاهر أن المراد بالجهاد في الآية هو المعنى الأعم وخاصة بالنظر الى تقييده بقوله: «في الله» وهو كل ما يرجع اليه تعالى، ويؤيده أيضاً قوله: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (العنكبوت / ٦٩).

وعلى ذلك فمعنى كون الجهاد فيه حق جهاده أن يكون متمحضاً في معنى الجهاد ويكون خالصاً لوجهه الكريم لا يشاركه فيه غيره نظير تقوى الله حق تقواه في قوله: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ (آل عمران / ١٢٤).

وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امتنان منه تعالى على المؤمنين بأنهم ما كانوا لينالوا سعادة الدين من عند أنفسهم وبحولهم غير أن الله منَّ عليهم إذ وفقهم فاجتباهم وجمعهم للدين، ورفع عنهم كل حرج في الدين امتناناً سواء كان حرجاً في أصل الحكم أو حرجاً طارئاً عليه اتفاقاً فهي شريعة سهلة سمحة ملة أبيهم إبراهيم الحنيف الذي أسلم لربه.

وإنما سمي إبراهيم أبا المسلمين لأنه ﷺ أول من أسلم لله كما قال تعالى: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ (البقرة / ١٣١). وقال حاكياً عنه ﷺ: ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ (إبراهيم / ٣٦) فنسب اتباعه الى نفسه، وقال أيضاً: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ (إبراهيم / ٣٥). ومراده ببنيه المسلمون دون المشركون قطعاً وقال: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾ (آل عمران / ٦٨).

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّيْكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هٰذَا﴾ امتنان ثان منه تعالى على المؤمنين بعد الإمتنان بقوله: «هو اجتباكم» فالضمير له تعالى وقوله: «من قبل» أي من قبل نزول القرآن وقوله: «وفي هذا» أي وفي هذا الكتاب وفي امتنانه عليهم بذكر أنه سماهم المسلمين دلالة على قبوله تعالى إسلامهم.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ المراد به شهادة الأعمال وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة الآية ١٤٣ وغيرها وفي الآية تعليل ما تقدم من حديث الاجتباء ونفي الحرج وتسميتهم مسلمين.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ وَٱعْتَصِمُوا بِاللّٰهِ﴾ تفريع على جميع ما تقدم مما امتن به عليهم أي فعلى هذا يجب عليكم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ـ وهو إشارة الى العمل بالأحكام العبادية والمالية ـ وتعتصموا بالله في جميع الأحوال فتأتمروا بكل ما أمر به وتنتهوا عن جميع ما نهى عنه ولا تنقطعوا عنه في حال لأنه مولاكم وليس للعبد أن ينقطع عن مولاه في حال ولا للإنسان الضعيف أن ينقطع عن ناصره ـ بوجه على الاحتمالين في معنى المولى ـ.

فقوله: ﴿هُوَ مَوْلاٰكُمْ﴾ في مقام التعليل لما قبله من الحكم. وقوله: «فنعم المولى ونعم النصير» كلمة مدح له تعالى وتطييب لنفوس المؤمنين وتقوية لقلوبهم بأن مولاهم ونصيرهم هو الله الذي لا مولى غيره ولا نصير سواه.

واعلم أن الذي أوردناه من معنى الاجتباء وكذا الإسلام وغيره في الآية هو الذي ذكره جل المفسرين بالبناء على ظاهر الخطاب بيا أيها الذين آمنوا في صدر الكلام وشموله عـامة المؤمنين وجميع الامة.

وقد بيّنا غير مرة أن الاجتباء بحقيقة معناه يساوق جـعل العـبد مخـلصاً ـ بـفتح اللام ـ مخصوصاً بالله لا نصيب لغيره تعالى فيه، وهذه صفة لا توجد إلا في آحاد معدودين من الامة دون الجميع قطعاً، وكذا الكلام في معنى الإسلام والإعتصام، والمعنى بحقيقته مراد في الكلام قطعاً.

وعلى هذا فنسبة الاجتباء والإسلام والشهادة الى جمـيع الامة توسع من جـهة اشـتمالهم على من يتصف بهذه الصفات بحـقيقتهانظير قـوله في بـني إسرائـيل: ﴿ وجـعلكم مـلوكاً ﴾ (المائدة / ٢٠)، وقوله فيهم: ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ (الجاثية / ١٦) ونظائره كـثيرة في القرآن.

سورة المؤمنون مكية وهي مائة وثماني عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ.

٢ • أَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ.

٣ • وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ.

٤ • وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكٰوةِ فٰاعِلُونَ.

٥ • وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ.

٦ • إِلاَّ عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.

٧ • فَمَنِ ٱبْتَغىٰ وَرٰاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْعٰادُونَ.

٨ • وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رٰاعُونَ.

٩ • وَالَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلَوٰاتِهِمْ يُحٰافِظُونَ.

١٠ • أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْوٰارِثُونَ.

١١ • الَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ.

بيان:

في السورة دعوة الى الايمان بالله واليوم الآخر وتميز المؤمنين من الكفار بذكر ما لهؤلاء من جميل صفات العبودية وما لاولئك من رذائل الأخلاق وسفاسف الأعمال، وتعقيب ذلك بالتبشير والإنذار. وقد تضمّن الإنذار ذكر عذاب الآخرة وما غشي الامم المكذبين للدعوة الحقة من عذاب الاستئصال في مسير الدعوة آخذاً من زمن نوح الى زمن المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام.

والسورة مكية، وسياق آياتها يشهد بذلك.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قال الراغب: الفلح - بالفتح فالسكون - الشقّ، وقيل: الحديد بالحديد يفلح أي يشقّ. والفلاح الظفر وإدراك بغية وذلك ضربان: دنيوي وأُخروي. فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز، والاخروي أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذلّ، وعلم بلا جهل. ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة. انتهى ملخصاً. فتسمية الظفر بالسعادة فلاحاً بعناية أن فيه شقاً للمانع وكشفاً عن وجه المطلوب.

والايمان هو الإذعان والتصديق بشيء بالالتزام بلوازمه، فالايمان بالله في عرف القرآن التصديق بوحدانيته ورسله واليوم الآخر وبما جاءت به رسله مع الاتّباع في الجملة. ولذا نجد القرآن كلما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجر جزيل شفّع الايمان بالعمل الصالح كقوله: ﴿مَن عمل صالحاً من ذكر أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة﴾ (النحل / ٩٧)، وقوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾ (الرعد / ٢٩)، الى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة جداً.

وليس مجرد الاعتقاد بشيء إيماناً به حتى مع عدم الالتزام بلوازمه وآثره فإن الايمان علم

بالشيء مع اسكون والاطمئنان اليه ولا ينفكّ السكون الى الشيء من الالتزام بلوازمه لكن العلم ربما ينفكّ من السكون والالتزام ككثير من المعتادين بالأعمال الشنيعة أو المضرّة فإنهم يعترفون بشناعة عملهم أو ضرره لكنم لا يتركونها معتذرين بالاعتياد وقد قال تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ (النمل / ١٤).

والايمان وإن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه في الجملة لصارف من الصوارف النفسانية يصرف عنه لكنه لا يتخلف عن لوازمه بالجملة.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ الخشوع تأثر خاص من المقهور قبال القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجه اليه والظاهر أنه من صفات القلب ثم ينسب الى الجوارح أو غيرها بنوع من العناية كقوله ﷺ ـ على ما روي ـ فيمن يعبث بلحيته في الصلاة: أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، وقوله تعالى: ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ (طه / ١٠٨).

والخشوع بهذا المعنى جامع لجميع المعاني التي فسّر بها الخشوع في الآية، كقول بعضهم: هو الخوف وسكون الجوارح، وقول آخرين: غضّ البصر وخفض الجناح، أو تنكيس الرأس، أو عدم الالتفات يميناً وشمالاً، أو إعظام المقام وجمع الاهتمام، أو التذلّل الى غير ذلك.

وهذه الآية الى تمام ثماني آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما يلازم كون وصف الايمان حيّاً فعّالاً يترتب عليه آثاره المطلوبة منه ليترتب عليه الغرض المطلوب منه وهو الفلاح فإن الصلاة توجه ممن ليس له إلا الفقر والذلّة الى ساحة العظمة والكبرياء ومنبع العزة والبهاء ولازمه أن يتأثر الانسان الشاعر بالمقام فيستغرق في الذلّة والهوان وينتزع قلبه عن كل ما يلهوه ويشغله عما يهمّه ويواجهه، فلو كان إيمانه إيماناً صادقاً جعل همّه حين التوجه الى ربه همّاً واحداً وشغله الاشتغال به عن الالتفات الى غيره فماذا يفعل الفقير المحض إذا لقي غنى لا يقدَّر بقدر؟ والذليل إذا واجه عزة مطلقة لا يشوبها ذلّة وهوان؟

وهذا معنى قوله ﷺ في حديث الحارثة بن النعمان المروي في الكافي وغيره: إن لكل حق حقيقة ولكل صواب نواراً. الحديث[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو من الفعل هو ما لا فائدة فيه ويختلف باختلاف الامور التي تعود عليها الفائدة فرُبَّ فعل هو لغو بالنسبة الى أمر وهو بعينه مفيد مُجدٍ بالنسبة الى أمر آخر.

فاللغو من الأفعال في نظر الدين الأعمال المباحة التي لا ينتفع بها في الآخرة أو في الدنيا بحيث ينتهي أيضاً الى الآخرة كالأكل والشرب بداعي شهوة التغذي اللذين يتفرع عليهما التقوّي على طاعة الله وعبادته، فإذا كان الفعل لا ينتفع به في آخر ولا في دنيا تنتهي بنحو الى آخرة فهو اللغو وبنظر أدق هو ما عدا الواجبات والمستحبات من الأفعال.

ولم يصف سبحانه المؤمنين بترك اللغو مطلقاً فإن الانسان في معرف العثرة ومزلة الخطيئة وقد عفا عن السيئات إذا اجتنبت الكبائر كما قال: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نُكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ (النساء / ٣١).

بل وصفهم بالإعراض عن اللغو دون مطلق تركه والإعراض يقتضي أمراً بالفعل يدعو الى الاشتغال به فيتركه الانسان صارفاً وجهه عنه الى غيره لعدم اعتداده به واعتنائه بشأنه، ولازمه ترفّع النفس عن الأعمال الخسيسة واعتلاؤها عن الاشتغال بما ينافي الشرف والكرامة وتعلّقها بعظام الامور وجلائل المقاصد.

ومن حق الايمان أن يدعو الى ذلك فإن فيه تعلّقاً بساحة العظمة والكبرياء ومنبع العزة والمجد والبهاء والمتصف به لا يهتمّ إلا بحياة سعيدة أبدية خالدة فلا يشتغل إلا بما يستعظمه الحق ولا يستعظم ما يهتمّ به سفلة الناس وجهلتهم، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، وإذا

---

١. المؤمنون ١ ـ ١١: كلام في معنى تأثير الايمان.

مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً.

ومن هنا يظهر أن وصفهم بالإعراض عن اللغو كناية عن علوّ همّتهم وكرامة نفوسهم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ﴾ ذكر الزكاة مع الصلاة قرينة على كون المراد بها الإنفاق المالي دون الزكاة بمعنى تطهير النفس بإزالة رذائل الأخلاق عنها ولعل المراد بالزكاة المعنى المصدري وهو تطهير المال بالإنفاق من دون المقدار المخرج من المال فإن السورة مكية وتشريع الزكاة المعهودة في الإسلام إنما كان بالمدينة ثم صار لفظ الزكاة علماً بالغلبة للمقدار المعين المخرج من المال.

وبهذا يستصحُّ تعلّق «للزكاة» بقوله: «فاعلون» والمعنى: الذين هم فاعلون للإنفاق المالي، وأما لو كان المراد بالزكاة نفس المال المخرج لم يصحّ تعلقه به إذ المال المخرج ليس فعلاً متعلقاً بفاعل، ولذا قدّر بعض من حمل الزكاة على هذا المعنى لفظ التأدية فكان التقدير عنده والذين هم لتأدية الزكاة فاعلون، ولذا أيضاً فسّر بعضهم الزكاة بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيلة فراراً من تعلق «للزكاة» بقوله: «فاعلون».

وفي التعبير بقوله: «للزكاة فاعلون» دون أن يقول: للزكاة مؤدّون أو ما يؤدي معناه دلالة على عنايتهم بها كقول القائل: إني شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال: إني فاعل.

ومن حق الإيمان بالله أن يدعو الى هذا الإنفاق المالي فإن الانسان لا ينال كمال سعادته إلا في مجتمع سعيد ينال فيه كل ذي حق حقه ولا سعادة لمجتمع إلا مع تقارب الطبقات في التمتع من مزايا الحياة وأمتعة العيش، والإنفاق المالي على الفقراء والمساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ الى آخر الآيات الثلاث: الفروج جمع فرج وهو ـ على ما قيل ـ ما يسوء ذكره من الرجال والنساء، وحفظ الفروج كناية عن

الاجتناب عن المواقعة سواء كانت زنا أو لواطاً أو باتيان البهائم وغير ذلك.

وقوله: ﴿إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ استثناء من حفظ الفروج. والأزواج الحلائل من النساء، وما ملكت أيمانهم الجواري المملوكة فإنهم غير ملومين في مسّ الأزواج الحلائل والجواري المملوكة.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ تفريع على ما تقدم من الاستثناء والمستثنى منه أي إذا كان مقتضى الإيمان حفظ الفروج مطلقاً إلا عن طائفتين من النساء هما الأزواج وما ملكت أيمانهم. فمن طلب وراء ذلك أي مسّ غير الطائفتين فاولئك هم المتجاوزون عن الحد الذي حدّه الله تعالى لهم.

وقد تقدم كلام ما فيما يستعقبه الزنا من فساد النوع في ذيل قوله: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ (الإسراء / ٣٢) في الجزء الثالث عشر من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ الأمانة مصدر في الأصل وربما أُريد به ما ائتمن عليه من مال ونحوه، وهو المراد في الآية. ولعل جمعه للدلالة على أقسام الأمانات الدائرة بين الناس. وربما قيل بعموم الأمانات لكل تكليف إلهي اؤتمن عليه الانسان وما اؤتمن عليه من أعضائه وجوارحه وقواه أن يستعملها فيما فيه رضى الله وما أئتمنه عليه الناس من الأموال وغيرها. ولا يخلو من بُعد بالنظر الى ظاهر اللفظ وإن كان صحيحاً من جهة تحليل المعنى وتعميمه.

والعهد بحسب عرف الشرع ما التزم به بصيغة العهد شقيق النذر واليمين. ويمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجه الى المؤمن فإن الله سبحانه سمّى إيمان المؤمن به عهداً وميثاقاً منه على ما توجه اليه من تكاليفه تعالى بقوله: ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ (البقرة / ١٠٠)، وقوله: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار﴾ (الأحزاب / ١٥). ولعل إرادة هذا المعنى هو السبب في إفراد العهد لأن جميع التكاليف يجمعها عهد واحد بإيمان واحد.

والرعاية الحفظ، وقد قيل: إن أصل الرعي حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذبّ العدو عنه ثم استعمل في الحفظ مطلقاً. انتهى. ولعل العكس أقرب الى الاعتبار.

وبالجملة الآية تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تخان والعهد من أن ينقض، ومن حق الإيمان أن يدعو الى ذلك فإن في إيمانه معنى السكون والاستقرار والاطمئنان فإذا آمن أحد في أمانة أودعها عنده أو عهد عاهده وقطع على ذلك استقرّ عليه ولم يتزلزل بخيانة أو نقض.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ جمع الصلاة وتعليق المحافظة عليه دليل على أن المراد المحافظة على العدد فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شيء من الصلوات المفروضة ويراقبونها دائماً ومن حق إيمانهم أن يدعوهم الى ذلك.

ولذلك جمعت الصلاة ههنا وأُفردت في قوله: «في صلاتهم خاشعون» لأن الخشوع في جنس الصلاة على حدّ سواء فلا موجب لجمعها.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الفردوس أعلى الجنان، وقد تقدم معناها وشيء من وصفها في ذيل قوله تعالى: ﴿كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾ (الكهف / ١٠٧).

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ الخ: بيان لقوله: «الوارثون» ووراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعدما كانت في معرض أن يشاركهم فيها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت اليهم، وقد ورد في الروايات أن لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله. وستوافيك إن شاء الله في بحث روائي[١][٢].

---

١. المؤمنون ١ ـ ١١: بحث روائي في الخشوع في الصلاة؛ نكاح المتعة.

٢. المؤمنون ١ ـ ١١.

١٢ ● وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ.

١٣ ● ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ.

١٤ ● ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ.

١٥ ● ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ.

١٦ ● ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ تُبْعَثُونَ.

١٧ ● وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَافِلِينَ.

١٨ ● وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ.

١٩ ● فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ.

٢٠ ● وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ.

٢١ ● وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ.

٢٢ ● وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَٰلَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ قال في المجمع: السلالة اسم لما يسلّ من الشيء كالكساحة اسم لما يكسح انتهى. وظاهر السياق أن المراد بالإنسان هو النوع فيشمل آدم ومن دونه ويكون المراد بالخلق الخلق الإبتدائي الذي خلق به آدم من الطين ثم جعل النسل من النطفة. وتكون الآية وما بعدها في معنى قوله: ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾ (الم السجدة / ٨).

ويؤيد قوله بعد: «ثم جعلناه نطفة» إذ لو كان المراد بالإنسان ابن آدم فحسب وكان المراد بخلقه من طين انتهاء النطفة الى الطين لكان الظاهر أن يقال: ثم خلقناه نطفة كما قيل: ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة، الخ.

وبذلك يظهر أن قول بعضهم: إن المراد بالإنسان جنس بني آدم، وكذا القول بأن المراد به آدم ﷺ غير سديد.

وأصل الخلق ـ كما قيل ـ التقدير يقال: خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شيئاً من اللباس فالمعنى ولقد قدرنا الإنسان أولاً من سلالة من أجزاء الأرض المخلوطة بالماء.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ النطفة القليل من الماء وربما يطلق على مطلق الماء. والقرار مصدر أُريد به المقر مبالغة والمراد به الرحم التي تستقر فيها النطفة، والمكين المتمكن وصفت به الرحم لتمكنها في حفظ النطفة من الضيعة والفساد أو لكون النطفة مستقرة متمكنة فيها.

ولمعنى ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر متمكن هي الرحم كما خلقناه أولاً من سلالة من طين أي بدلنا طريق خلقه من هذا الى ذاك.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ـ الى قوله ـ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْماً ﴾

تقدم بيان مفردات الآية في الآية ٥ من سورة الحج في الجزء السابق من الكتاب وفي قوله: «فكسونا العظام لحماً» استعارة بالكناية لطيفة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ الإنشاء ـ كما ذكره الراغب ـ إيجاد الشيء وتربيته كما أن النشء والنشأة إحداثه وتربيته كما يقال للشاب الحديث السن ناشيء.

وقد غير السياق من الخلق الى الإنشاء فقال: «ثم أنشأناه خلقاً آخر» دون أن يقال: ثم خلقناه.الخ؛ للدلالة على حدوث أمر حديث ما كان يتضمنه ولا يقارنه ما تقدمه من مادة فإن العلقة مثلاً وإن خالفت النطفة في أوصافها وخواصها من لون وطعم وغير ذلك إلا أن في النطفة مكان كل من هذه الأوصاف والخواص ما يجانسه وإن لم يماثله كالبياض مكان الحمرة وهما جميعاً لون بخلاف ما أنشأه الله أخيراً وهو الإنسان الذي له حياة وعلم وقدرة فإن ماله من جوهر الذات وهو الذي نحكي عنه بأنا لم يسبق من سنخه في المراحل السابقة أعني النطفة والعلقة والمضغة والعظام المكسوة لحماً شيء، ولا سبق فيها شيء يناظر ماله من الخواص والأوصاف كالحياة والقدرة والعلم فهو منشأ حادث مسبوق بالعدم.

والضمير في «أنشأناه» ـ على ما يعطيه السياق ـ للإنسان المخلوق عظاماً مكسوة باللحم فهو الذي أُنشيء وأحدث خلقاً آخر أي بدّل وهو مادة ميتة جاهلة عاجزة موجوداً ذا حياة وعلم وقدرة. فقد كان مادة لها صفاتها وخواصها ثم برز وهو يغاير سابقته في الذات والصفات والخواص. فهو تلك المادة السابقة فإنها التي صارت إنساناً، وليس بها إذ لا يشاركها في ذات ولا صفات. وإنما له نوع اتحاد معها وتعلّق بها يستعملها في سبيل مقاصدها استعمال ذي الآلة للآلة كالكاتب للقلم.

وهذا هو الذي يستفاد من مثل قوله: ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ (الم السجدة / ١١). فالمتوفى والمأخوذ عند الموت هو الإنسان. والمتلاشي الضال في الأرض هو البدن

وليس به .

وقد اختلف العطف في مفردات الآية بالفاء وثم ، وقد قيل في وجهه أن ما عطف بثم له بينونة كاملة مع ما عطف عليه كما في قوله : « ثم جعلناه نطفة » « ثم خلقنا النطفة علقة » ، « ثم أنشأناه خلقاً آخر » ، وما لم يكن بتلك البينونة والبعد عطف بالفاء كقوله : « فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً » .

قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ قال الراغب : أصل البرك ـ بالفتح فالسكون ـ صدر البعير . قال : وبرك البعير ألقى ركبه واعتبر منه معنى اللزوم . قال : وسمي محبس الماء بركة ـ بالكسر فالسكون ـ والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء قال تعالى : ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة ، والمبارك ما فيه ذلك الخير .

قال : ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة . انتهى .

فالتبارك منه تعالى اختصاصه بالخير الكثير الذي يجود به ويفيضه على خلقه وقد تقدم أن الخلق في أصله بمعنى التقدير فهذا الخير الكثير كله في تقدير وهو إيجاد الأشياء وتركيب أجزائها بحيث تتناسب فيما بين أنفسها وتناسب ما وراءها ومن ذلك ينتشر الخير للكثير .

ووصفه تعالى بأحسن الخالقين يدل على عدم اختصاص الخلق به وهو كذلك لما تقدم أن معناه التقدير وقياس الشيء من الشيء لا يختص به تعالى ، وفي كلامه تعالى من الخلق المنسوب الى غيره قوله : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ (المائدة / ١١٠) ، وقوله : ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ (العنكبوت / ١٧) .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ بيان لتمام التدبير الإلهي وأن الموت من المراحل التي من الواجب أن يقطعها الإنسان في مسير التقدير ، وأنه حق كما تقدم في قوله

تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ (الأنبياء / ٣٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ وهذا تمام التدبير وهو أعني البعث آخر مرحلة في مسير الانسان إذا حل بها لزمها ولا يزال قاطناً بها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ المراد بالطرائق السبع بقرينة قوله: «فوقكم» السماوات السبع وقد سماها طرائق ـ جمع طريقة ـ وهي السبيل المطروقة لأنها ممر الامر النازل من عنده تعالى الى الأرض، قال تعالى: ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ (الطلاق / ١٢)، وقال: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه﴾ (الم السجدة / ٥). والسبل التي تسلكها الأعمال في صعودها الى الله والملائكة في هبوطهم وعروجهم كما قال: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ (فاطر / ١٠)، وقال: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ (مريم / ٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ المراد بالسماء جهة العلو فإن ما علاك وأظلّك فهو سماء، والمراد بالماء النازل منها ماء المطر.

وفي قوله: «بقدر» دلالة على أن الذي نزل إنما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهي الذي يقدّره بقدر لا يزيد قطرة على ما قدّر ولا ينقص، وفي تلميح أيضاً الى قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١).

والمعنى: وأنزلنا من جهة العلو ماء بقدر وهو ماء المطر فأسكناه في الأرض وهو الذخائر المدّخرة من الماء في الجبال والسهول تتفجر عنه العيون والأنهار وتكشف عنه الآبار، وإنا لقادرون على أن نذهب بهذا الماء الذي أسكناه في الأرض نوعاً من الذهاب لا تهتدون الى علمه.

قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ الى آخر الآية:

إنشاء الجنات إحداثها وتربيتها، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ معطوف على «جنات» أي وأنشأنا لكم به شجرة في طور سيناء، والمراد بها شجرة الزيتون التي تكثر في طور سيناء، وقوله: «تنبت بالدهن» أي تثمر ثمرة فيها الدهن وهو الزيت فهي تنبت بالدهن، وقوله: «وصبغ للآكلين» أي وتنبت بصبغ للآكلين، والصبغ بالكسر فالسكون الإدام الذي يؤتدم به، وإنما خصّ شجرة الزيتون بالذكر لعجيب أمرها، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ الخ: العبرة الدلالة يستدلُّ بها على أنه تعالى مدبّر لأمر خلقه حنين بهم رؤف رحيم، والمراد بسقيه تعالى مما في بطونها أنه رزقهم من ألبانها، والمراد بالمنافع الكثيرة ما ينتفعون من صوفها وشعرها ووبرها وجلودها وغير ذلك، ومنها يأكلون.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ضمير «عليها» للأنعام والحمل على الأنعام هو الحمل على الإبل، وهو حمل في البر يقابله الحمل في البحر وهو الحمل على الفلك، فالآية في معنى قوله: ﴿وحملناهم في البر والبحر﴾ (الإسراء / ٧٠)، والفلك جمع فلكة وهي السفينة.

٢٣ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ.

٢٤ ۞ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا

سَمِعْنا بِهٰذا فِي آبائِنَا ٱلأَوَّلِينَ.

٢٥ ❁ إِنْ هُوَ إِلاّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتّىٰ حِينٍ.

٢٦ ❁ قالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ.

٢٧ ❁ فَأَوْحَينا إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا
وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاّ
مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا
إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ.

٢٨ ❁ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ
ٱلَّذِي نَجّينا مِنَ القَوْمِ الظّالِمِينَ.

٢٩ ❁ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ.

٣٠ ❁ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنّا لَمُبْتَلِينَ.

٣١ ❁ ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ.

٣٢ ❁ فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ
أَفَلا تَتَّقُونَ.

٣٣ ❁ وَقالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ ٱلآخِرَةِ
وَأَتْرَفْناهُمْ فِي ٱلْحَيٰوةِ الدُّنْيا ما هٰذا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمّا
تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ.

٣٤ ❁ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ.

٣٥ ❁ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ.

٣٦ ❁ هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ.

٣٧ ❁ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ.

٣٨ ❁ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ ٱفْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ.

٣٩ ❁ قالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ.

٤٠ ❁ قالَ عَمّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ.

٤١ ❁ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ
الظّالِمِينَ.

٤٢ ❁ ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ.

٤٣ ❁ ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ.

٤٤ ❁ ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا
بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ.

٤٥ ❁ ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسىٰ وَأَخاهُ هٰرُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ.

٤٦ ❁ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ.

٤٧ ❁ فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ.

٤٨ ❁ فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ.

٤٩ ❁ وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى ٱلْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.

٥٠ ❁ وَجَعَلْنا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْناهُما إِلىٰ رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ
وَمَعِينٍ.

٥١ ❁ يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَٱعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما

تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ.

٥٢ ۞ وَإِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ.

٥٣ ۞ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.

٥٤ ۞ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتّىٰ حِينٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ﴾ قد تقدم في قصص نوح عليه السلام من سورة هود أنه أول أُولي العزم من الرسل أصحاب الكتب والشرائع المبعوثين الى عامة البشر والناهضين للتوحيد ونفي الشرك. فالمراد بقومه أُمته وأهل عصره عامة.

وقوله: «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» دعوة الى عبادة الله ورفض عبادة الآلهة من دونه فإن الوثنيين إنما يعبدون غيره من الملائكة والجنّ والقدّيسين بدعوى أُلوهيتهم أي كونهم معبودين من دونه.

فقوله عليه السلام لقومه الوثنيين: «اعبدوا الله» في معنى أن يقال: اعبدوا الله وحده كما ورد في سورة هود «أن لا تعبدوا إلا الله»، وقوله: «مالكم من إله غيره» في معنى أن يقال: مالكم من معبود سواه لأنه لا رب غيره يدبر أمركم حتى تعبدوه رجاء لرحمته أو خوفاً من سخطه، وقوله بالتفريع على ذلك: «أفلا تتقون» أي إذا لم يكن لكم رب يدبر أُموركم دونه أفلا تتقون عذابه حيث لا تعبدونه وتكفرون به؟

قوله تعالى: ﴿فَقالَ الْمَلَؤُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هٰذا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ـ الى قوله ـ حَتّىٰ حِينٍ﴾ ملأ القوم أشرافهم، ووصفهم بقوله: «الذين كفروا من قومه» وصف

توضيحي لا احترازي إذ لم يؤمن به من ملأ قومه أحد بدليل قولهم على ما حكاه الله : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذل بادي الرأي ﴾ (هود / ٢٧).

والسياق يدل على أن الملأ كانوا يخاطبون بمضمون الآيتين عامة الناس لصرف وجوههم عنه وإغرائهم عليه وتحريضهم على إيذائه وإسكاته ، وما حكاه تعالى من أقاويلهم في الآيتين وجوه أربعة أو خمسة من فرية أو مغالطة لفّقوها واحتجوا بها على بطلان دعوته .

الأول قولهم : « وما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » ومحصّلة أنه بشر مثلكم فلو كان صادقاً فيما يدّعيه من الوحي الإلهي والاتصال بالغيب كان نظير ما يدعيه متحققاً فيكم إذ لا تنقصون منه في شيء من البشرية ولوازمها ، ولم يتحقق فهو كاذب وكيف يمكن أن يكون كمال في وسع البشر أن يناله ثم لا يناله إلا واحد منهم فقط ثم يدعيه من غير شاهد يشهد عليه ؟ فلم يبقَ إلا أنه يريد بهذه الدعوة أن يتفضل عليكم ويترأس فيكم ويؤيده أن يدعوكم الى اتباعه وطاعته وهذه الحجة تنحل في الحقيقة الى حجتين مختلقتين .

والثاني قولهم : « ولو شاء الله لأنزل ملائكة » وحصّله أن الله سبحانه لو شاء أن يدعونا بدعوة غيبية لاختار لذلك الملائكة الذين هم المقربون عنده والشفعاء الروابط بيننا وبينه فأرسلهم الينا لا بشراً ممن لا نسبة بينه وبينه . على أن في نزولهم واعترافهم بوجوب العبادة له تعالى وحده وعدم جواز اتخاذهم أرباباً وآلهة معبودين آية بيّنة على صحه الدعوة وصدقها .

والتعبير عن إرسال الملائكة بإنزالهم إنما هو لكون إرسالهم يتحقق بالإنزال والتعبير بلفظ الجمع دون الإفراد لعله لكون المراد بهم الآلهة المتخذة منهم وهم كثيرون .

والثالث قولهم : « وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » ومحصله أنه لو كانت دعوته حقة لاتفق لها نظير فيما سلف من تاريخ الإنسانية ، وآباؤنا كانوا أفضل منا وأعقل ولم يتفق لهم وفي أعصارهم ما يناظر هذه الدعوة فليست إلا بدعة وأُحدوثة كاذبة .

والرابع قولهم: «إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين»، الجنة إما مصدر أي به جنون أو مفرد الجن أي حل به من الجن من يتكلم على لسانه لأنه يدعي ما لا يقبله العقل السليم ويقول ما لا يقوله إلا مصاب في عقله فتربصوا وانتظروا به الى حين ما لعله يفيق من حالة جنونه أو يموت فنستريح منه.

وهذه حجج مختلقة ألقاها ملأ قومه الى عامتهم أو ذكر كلاً منها بعضهم وهي وإن كانت حججاً جدلية مدخولة لكنهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها الى الناس فيصرفون وجوههم عنه ويغرونهم عليه ويمدون في ضلالهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ سؤال منه للنصر والباء في قوله: «بما كذبون» للبدلية والمعنى انصرني بدل تكذيبهم لي أو للآلة وعليه فالمعنى انصرني بالذي كذبوني فيه وهو العذاب فإنهم قالوا: ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ (هود / ٣٢)، ويؤيده قول نوح ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ (نوح / ٢٦)، وفصل الآية لكونها في معنى جواب السؤال.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ الى آخر الآية؛ متفرع على سؤال النصر، ومعنى صنع الفلك بأعينه صنعه بمرئى منه وهو كناية عن كونه تحت مراقبته تعالى ومحافظته، ومعنى كون الصنع بوحيه كونه بتعليمه الغيبي حالاً بعد حال.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ المراد بالأمر - كما قيل - حكمه الفصل بينه وبين قومه وقضاؤه فيهم بالغرق، والسياق يشهد على كون فوران التنّور بالماء أمارة نزول العذاب عليهم وهو أعني فوران الماء من التنور وهو محل النار من عجيب الأمر في نفسه.

وقوله: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ القراءة الدائرة «من كل» بالتنوين والقطع عن الإضافة، والتقدير من كل نوع من الحيوان، والسلوك فيها الإدخال في الفلك والظاهر أن «من» لابتداء الغاية والمعنى فأدخل في الفلك زوجين اثنين: ذكر وأنثى من

كل نوع من الحيوان.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ معطوف على قوله: «زوجين» وما قيل: إن عطف «أهلك» على «زوجين» يفسد المعنى المراد لرجوع التقدير حينئذ الى قولنا: واسلك فيها من كل نوع أهلك فالأولى تقدير «أسلك» ثانياً قبل «أهلك» وعطفه على «فاسلك» يدفعه أن «من كل» في موضع الحال من «زوجين» فهو متأخر عنه رتبة كما قدمنا تقديره فلا يعود ثانياً على المعطوف.

والمراد بالأهل خاصته، والظاهر أنهم أهل بيته المؤمنون به فقد ذكرهم في سورة هود مع الأهل ولم يذكر ههنا إلا الأهل فقط.

والمراد بمن سبق عليه القول منهم امرأته الكافرة على ما فهم نوح ﷺ وهي وابنه الذي أبى ركوب السفينة وغرق حينما أوى الى جبل في الحقيقة، وسبق القول هو القضاء المحتوم بالغرق.

وقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ النهي عن مخاطبته تعالى كناية عن النهي الشديد عن الشفاعة لهم، بدليل تعليق المخاطبة بالذين ظلموا وتعليل النهي بقوله: «إنهم مغرقون» فكأنه قيل: أنهاك عن أصل تكليمي فيهم فضلاً أن تشفع لهم فقد شملهم غضبي شمولاً لا يدفعه دافع.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ﴾ الى آخر الآيتين: علمه أن يحمد الله بعد الاستواء على الفلك على تنجيته تعالى من القوم الظالمين وهذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتماً، وأن يسأله أن ينجيه من الطوفان وينزله على الأرض إنزالاً مباركاً ذا خير كثير ثابت فإنه خير المنزلين.

وفي أمره ﷺ أن يحمده ويصفه بالجميل دليل على أنه من عباده المخلصين فإنه تعالى منزّه عما يصفه غيرهم كما قال: ﴿سبحانه الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصون﴾ (الصافات /

١٦٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ خطاب في آخر القصة للنبي ﷺ وبيان أن هذه الدعوة مع ما جرى معها كانت ابتلاء أي امتحاناً واختباراً اليها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ الى آخر الآية الثانية؛ القرن أهل عصر واحد، وقوله: «أن اعبدوا الله» تفسير لإرسال الرسول من قبيل تفسير الفعل بنتيجته كقوله تعالى: ﴿تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا﴾ (حم السجدة / ٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هؤلاء أشرافهم المتوغلون في الدنيا المخلدون الى الأرض يغرون بقولهم هذا عامتهم على رسولهم.

وقد وصفهم الله بصفات ثلاث وهي: الكفر بالله بعبادة غيره، والتكذيب بلقاء الآخرة ـ أي بلقاء الحياة الآخرة بقرينة مقابلتها لقوله: «في الحياة الدنيا ـ، ولكفرهم بالمبدأ والمعاد انقطعوا عما وراء الدنيا فانكبّوا عليها ثم لما أُترفوا في الحياة الدنيا وتمكنوا من زخارفها وزيناتها الملذّة اجتذبتهم الدنيا الى نفسها فاتّبعوا الهوى ونسوا كل حق وحقيقة، ولذلك تفوّهوا تارة بنفي التوحيد والرسالة وتارة بإنكار المعاد وتارة ردّوا الدعوة بإضرارها دنياهم وحريتهم في اتباع هواهم.

واعلم أن في قوله في صدر الآيات: «وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم» قدّم قوله: «من قومه» على «الذين كفروا» بخلاف ما في القصة السابقة من قوله: «فقال الملأ الذين كفروا من قومه» لأنهم لو وقع بعد «الذين كفروا» اختلّ به ترتيب الجمل المتوالية «كفروا» «وكذبوا» «وأترفناهم» ولو وقع بعد الجميع طال الفصل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ تقدم تفسيره في القصة السابقة.

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ استجابة لدعوة الرسول وصيرورتهم نادمين كناية عن حلول عذاب الاستئصال بهم ، وقوله : « عما قليل » عن بمعنى بعد و « ما » لتأكيد القلة ولضمير الجمع للقوم ، والكلام مؤكد بلام القسم ونون التأكيد . والمعنى : أُقسم لتأخذنهم الندامة بعد قليل من الزمان بمشاهدة حلول العذاب .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الباء في « بالحق » للمصاحبة وهو متعلق بقوله : « فأخذتهم » أي أخذتهم الصيحة أخذاً مصاحباً للحق ، أو للسببية . والحق وصف أُقيم مقام موصوفه المحذوف والتقدير فأخذتهم الصيحة بسبب الأمر الحق أو القضاء الحق كما قال : ﴿ فإذا جاء أمر الله قضي بالحق ﴾ (المؤمن / ٧٨) .

والغثاء بضم الغين وربما شدّدت الثاء : ما يحمله السيل من يابس النبات والورق والعيدان البالية ، وقوله : « فبعداً للقوم الظالمين » إبعاد ولعن لهم أو دعاء عليهم .

والمعنى : فأنجزنا للرسول ما وعدنا من عذابهم فأخذتهم الصيحة السماوية وهي العذاب فأهلكناهم وجعلناهم كغثاء السيل فليبعد القوم الظالمون بعداً .

ولم يصرّح باسم هؤلاء القوم الذين أنشأهم بعد قوم نوح ثم أهلكهم ولا باسم رسولهم ، وليس من البعيد أن يكونوا هم ثمود قوم صالح ﷺ فقد ذكر الله سبحانه في قصتهم في مواضع من كلامه أنهم كانوا بعد قوم نوح وقد أُهلكوا بالصيحة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ تقدم توضيح مضمون الآيتين كراراً .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ الى آخر الآية ؛ يقال : جاؤا تترى أي فرادى يتبع بعضهم بعضاً ، ومنه التواتر وهو تتابع الشيء وتراً وفرادى ، وعن الأصمعي : واترت الخبر أتبعت بعضه بعضاً وبين الخبرين هنيهة انتهى .

والكلام من تتمة قوله: «ثم أنشأنا من بعدهم قروناً» و«ثم» للتراخي بحسب الذكر دون الزمان. والقصة إجمال منتزع من قصص الرسل وأممهم بين أمة نوح والامة الناشئة بعدها وبين أمة موسى.

يقول تعالى: ثم أنشأنا بعد تلك الامة الهالكة بالصيحة بعد أمةنوح قروناً وأمماً آخرين وأرسلنا اليهم رسلنا متتابعين يتبع بعضهم بعضاً كلما جاء أمة رسولها المبعوث منها اليها كذبوه فأتبعنا بعضهم أي بعض هذه الامم بعضاً أي بالعذاب وجعلناهم أحاديث أي صيرناهم قصصاً وأخباراً بعدما كانوا أعياناً ذوات آثار فليبعد قوم لا يؤمنون.

والآيات تدل على أنه كان من سنة الله إنشاء قرن بعد قرن وهدايتهم الى الحق بإرسال رسول بعد رسول وهي سنة الابتلاء والامتحان، ومن سنة القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثم من سنة الله ثانياً ـ وهي سنة المجازاة ـ تعذيب المكذبين واتباع بعضهم بعضاً.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أبلغ كلمة تفصح عن القهر الالهي الذي يغشى أعداء الحق والمكذبين لدعوته حيث يمحو العين ويعفو الأثر ولا يبقى إلا الخبر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ الآيات هي العصا واليد البيضاء وسائر الآيات التي أراها موسى فرعون وقومه، والسلطان المبين الحجة الواضحة، وتفسير بعضهم السلطان بالعصا غير سديد.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ قيل: إنما ذكر ملأ فرعون واكتفى بهم عن ذكر قومه لأنهم الأشراف المتبوعون وسائر القوم أتباع يتبعونهم.

والمراد بكونهم عالين أنهم كانوا يعلون على غيرهم فيستعبدونهم كما علوا على بني إسرائيل واستعبدوهم فالعلوّ في الأرض كناية عن التطاول على أهلها وقهرهم على الطاعة.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ المراد

بكونهما بشرين مثلهم نفي أن يكون لهما فضل عليهم. ويكون قومهما عابدين فضلهم عليهما كما فضلوا على قومهما فإذا كان الفضل لهم عليهما كان من الواجب أن يعبداهم كما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما كما قال فرعون لموسى: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ ثم ختم تعالى القصة بذكر هلاكهم فقال: «فكذّبوهما فكانوا من المهلكين» ثم قال: «ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون» والمراد بهم بنو إسرائيل لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وملائه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ تقدم أن الآية هي ولادة عيسى ﷺ الخارقة للعادة وإذ كانت أمراً قائماً به وبامه معاً عدّا جميعاً آية واحدة.

والإيواء من الاويّ وأصله الرجوع ثم استعمل في رجوع الإنسان الى مسكنه ومقره، وآواه الى مكان كذا أي جعله مسكناً له والربوة المكان المرتفع المستوى الواسع، والمعين الماء الجاري.

والمعنى: وجعلنا عيسى بن مريم وأمه مريم آية دالّة على ربوبيتنا وأسكنّاهما في مكان مرتفع مستو وسيع فيه قرار وماء جار.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ خطاب لعامة الرسل بأكل الطيبات وكأن المراد بالأكل منها الإرتزاق بها بالتصرف فيها سواء كان بأكل أو غيره وهو استعمال شائع.

والسياق يشهد بأن في قوله: «كلوا من الطيبات» امتناناً منه تعالى عليهم، ففي قوله عقيبه: «واعملوا صالحاً» أمر بمقابلة المنّة بصالح العمل وهو شكر للنعمة وفي تعليله بقوله: «إني بما تعملون عليم» تحذير لهم من مخالفة أمره وبعث الى ملازمة التقوى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ تقدم تفسير

نظيرة الآية في سورة الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ في المجمع أن التقطع والتقطيع بمعنى واحد، والزبر بضمتين جمع زبور وهو الكتاب، والكلام متفرع على ما تقدمه، والمعنى أن الله أرسل اليهم رسله تترى والجميع أُمة واحدة لهم رب واحد دعاهم الى تقواه لكنهم لم يأتمروا بأمره وقطّعوا أمرهم بينهم قطعاً وجعلوه كتباً اختص بكل كتاب حزب وكل حزب بما لديهم فرحون.

وفي قراءة ابن عامر «زبراً» بفتح الباء وهو جمع زبرة وهي الفرقة، والمعنى وتفرقوا في أمرهم جماعات وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون، وهي أرجح.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال في المفردات: الغمرة معظم الماء الساترة لمقرها وجعل مثلاً للجهالة التي يغمر صاحبها، انتهى. وفي الآية تهديد بالعذاب، وقد تقدمت إشارة الى أن من سنته تعالى المجازاة بالعذاب بعد تكذيب الرسالة، وفي تنكير «حين» إشارة الى إتيان العذاب الموعود بغتة.

٥٥ ۞ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ.

٥٦ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ.

٥٧ ۞ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ.

٥٨ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ.

٥٩ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ.

٦٠ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ.

٦١ ❁ أُولٰئِكَ يُسارِعُونَ فِي ٱلْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ.

٦٢ ❁ وَلاٰ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَها وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ
لاٰ يُظْلَمُونَ.

٦٣ ❁ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذا وَلَهُم أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ هُمْ
لَها عامِلُونَ.

٦٤ ❁ حَتّىٰ إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْئَرُونَ.

٦٥ ❁ لاٰ تَجْئَرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنّا لاٰ تُنْصَرُونَ.

٦٦ ❁ قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلىٰ أَعْقابِكُمْ
تَنْكِصُونَ.

٦٧ ❁ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ.

٦٨ ❁ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ.

٦٩ ❁ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ.

٧٠ ❁ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كارِهُونَ.

٧١ ❁ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰواتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَنْ
فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ.

٧٢ ❁ أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ.

٧٣ ❁ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٧٤ ● وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ.

٧٥ ● وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ.

٧٦ ● وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ.

٧٧ ● حَتّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ «نمدُّهم» ـ بضمّ النون ـ من الإمداد والمد والإمداد بمعنى واحد وهو تتميم نقص الشيء وحفظه من أن ينقطع أو ينفد. قال الراغب: وأكثر ما يستعمل الإمداد في المحبوب والمد في المكروه. فقوله: «نمدُّهم» من الإمداد المستعمل في المكروه والمسارعة لهم في الخيرات إفاضة الخيرات بسرعة لكرامتهم عليه فيكون الخيرات على ظنهم هي المال والبنون سورع لهم فيها.

والمعنى: أيظن هؤلاء أن ما نعطيهم في مدة المهلة من مال وبنين خيرات نسارع لهم فيها لرضانا عنهم أو حبنا لأعمالهم أو كرامتهم علينا؟

لا، بل لا يشعرون أي إن الأمر على خلاف ما يظنون وهم في جهل بحقيقة الأمر وهو أن ذلك إملاء منا واستدراج وإنما نمدّهم في طغيانهم يعمهون كما قال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأُملي لهم إن كيدي متين﴾ (الأعراف / ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ الى آخر الآيات

الخمس: يبين تعالى في هذه الآيات الخمس بمعونة ما تقدم أن الذي يظن هؤلاء الكفار أن المال والبنين خيرات نسارع لهم فيها خطأ منهم فليست هي من الخيرات في شيء بل استدراج وإملاء وإنما الخيرات التي يسارع فيها هي ما عند المؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر الصالحين في أعمالهم.

فأفصح تعالى عن وصفهم فقال: «إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون»، قال الراغب: الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه. قال تعالى: ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدّي بفي فمعنى العناية فيه أظهر. قال: «إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين» «مشفقون منها». انتهى.

والآية تصفهم بأنهم اتخذوا الله سبحانه رباً يملكهم ويدبّر أمرهم، ولازم ذلك أن يكون النجاة والهلاك دائرين مدار رضاه وسخطه يخشونه في أمر يحبونه وهو نجاتهم وسعادتهم فهم مشفقون من خشيته وهذا هو الذي يبعثهم الى الايمان بآياته وعبادته. وقد ظهر بما مرَّ من المعنى أن الجمع في الآية بين الخشية والإشفاق ليس تكراراً مستدركاً.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وهي كل ما يدل عليه تعالى بوجه ومن ذلك رسله الحاملون لرسالته وما أُيدوا به من كتاب وغيره وما جاوا به من شريعة لأن إشفاقهم من خشية الله يبعثهم الى تحصيل رضاه ويحملهم على إجابته الى ما يدعوهم اليه وائتمارهم لما يأمرهم به من طريق الوحي والرسالة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾ والايمان بآياته هو الذي دعاهم الى نفي الشركاء في العبادة فإن الايمان بها إيمان بالشريعة التي شرعت عبادته تعالى والحجج التي دلت على توحده في ربوبيته وأُلوهيته.

على أن جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام إنما جاؤا من قبله وإرسال الرسل لهداية الناس الى الحق الذي فيه سعادتهم من شؤون الربوبية، ولو كان له شريك لأرسل رسولاً، ومن لطيف

كلام عليّ عليه أفضل السلام قوله: لو كان لربك شريك لأتتك رسله.

ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ الوجل الخوف، وقوله: «يؤتون ما آتوا» أي يعطون ما أعطوا من المال بالإنفاق في سبيل الله وقيل: المراد بإيتاء ما آتوا إتيانهم بكل عمل صالح، وقوله: «وقلوبهم وجلة» حال من فاعل «يؤتون».

والمعنى والذين ينفقون ما أنفقوا أو يأتون بالأعمال الصالحة والحال أن قلوبهم خائفة من أنهم سيرجعون الى ربهم أي إن الباعث لهم على الإنفاق في سبيل الله أو على صالح العمل ذكرهم رجوعهم المحتوم الى ربهم على وجل منه.

وفي الآية دلالة على إيمانهم باليوم الآخر وإتيانهم بصالح العمل وعند ذلك تعينت صفاتهم أنهم الذين يؤمنون بالله وحده لا شريك له وبرسله وباليوم الآخر ويعملون الصالحات.

ثم قال: ﴿ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ الظاهر أن اللام في «لها» بمعنى «الى» و «لها» متعلق بسابقون. والمعنى اولئك الذين وصفناهم هم يسارعون في الخيرات من الأعمال وهم سابقون اليها أي يتسابقون فيها لأن ذلك لازم كون كل منهم مريداً للسبق اليها.

فقد بيّن في الآيات أن الخيرات هي الأعمال الصالحة المبتنية على الاعتقاد الحق الذي عند هؤلاء المؤمنين وهم يسارعون فيها وليست الخيرات ما عند اولئك الكفار وهم يعدّونها بحسبانهم مسارعة من الله سبحانه لهم في الخيرات.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الذي يعطيه السياق أن في الآية ترغيباً وتحضيضاً على ما ذكره من صفات المؤمنين ودفعاً لما ربما ينصرف الناس بتوهمه عن التلبس بكرامتها من وجهين أحدهما أن التلبّس بها أمر سهل في وسع النفوس وليس بذاك الصعب الشاق الذي يستوعره المترفون،

والثاني أن الله لا يضيع عملهم الصالح ولا ينسى أجرهم الجزيل.

فقوله: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ نفي للتكليف الحرجي الخارج عن وسع النفوس أما في الاعتقاد فإنه تعالى نصب حججاً ظاهرة وآيات باهرة تدل على ما يريد الإيمان به من حقائق المعارف وجهز الإنسان بما من شأنه أن يدركها ويصدق بها وهو العقل ثم راعى حال العقول في اختلافها من جهة قوة الإدراك وضعفه فأراد من كل ما يناسب مقدار تحمله وطوقه فلم يرد من العامة ما يرده من الخاصة ولم يسأل الأبرار عما سأل عنه المقربين ولا ساق المستضعفين عما ساقه به المخلصين.

وأما في العمل فإنما ندب الإنسان منه الى ما فيه خيره في حياته الفردية والاجتماعية الدنيوية وسعادته في حياته الاخروية، ومن المعلوم أن خير كل نوع من الأنواع ومنها الإنسان إنما يكون فيما يتم به حياته وينتفع به في عيشته وهو مجهز بما يقوى على إتيانه وعمله، وما هذا شأنه لا يكون حرجياً خارجاً عن الوسع والطاقة.

فلا تكليف حرجياً في دين الله بمعنى الحكم الحرجي في تشريعه مبنياً على مصلحة حرجية، وبذلك امتن الله سبحانه على عباده، وطيّب نفوسهم ورغّبهم الى من وصفه من حال المؤمنين.

والآية ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ تدل على ذلك وزيادة فإنها تدل على نفي التكليف المبني على الحرج في أصل تشريعه كتشريع الرهبانية والتقرب بذبح الأولاد مثلاً، ونفي التكليف الذي هو في نفسه غير حرجي لكن اتفق أن صار بعض مصاديقه حرجياً لخصوصية في المورد كالقيام في الصلاة للمريض الذي لا يستطيعه فالجميع منفي بالآية وإن كان الامتنان والترغيب المذكوران يتمان بنفي القسم الأول.

والدليل عليه في الآية تعلق نفي التكليف بقوله: «نفساً» وهو نكرة في سياق النفي يفيد العموم، وعليه فأي نفس مفروضة في أي حادثة لا تكلف إلا وسعها ولا يتعلق بها حكم

حرجي سواء كان حرجياً من أصله أو صار حرجياً في خصوص المورد.

وقد ظهر أن في الآية إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول ورفعا للحرج سواء كان في أصل الحكم أو طارئاً عليه.

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ترغيب لهم بتطييب نفوسهم بأن عملهم لا يضيع وأجرهم لا يتخلف والمراد بنطق الكتاب إعرابه عما أُثبت فيه إعراباً لا لبس فيه وذلك لأن أعمالهم مثبتة في كتاب لا ينطق إلا بما هو حق فهو مصون عن الزيادة والنقيصة والتحريف. والحساب مبني على ما أُثبت فيه كما يشير اليه قوله: «ينطق» والجزاء مبني على ما يستنتج من الحساب كما يشير اليه قوله: «وهم لا يظلمون» فهم في أمن من الظلم بنسيان أجرهم أو بترك إعطائه أو بنقصه أو تغييره كما أنهم في أمن من أن لا يحفظ أعمالهم أو تنسى بعد الحفظ أو تتغير بوجه من وجوه التغير.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ المناسب لسياق الآيات أن يكون «هذا» إشارة الى ما وصفته الآيات السابقة من حال المؤمنين ومسارعتهم في الخيرات. ويمكن أن يكون إشارة الى القرآن كما يؤيده قوله بعد: «قد كانت آياتي تتلى عليكم» والغمرة الغفلة الشديدة أو الجهل الشديد الذي غمرهم. وقوله: «ولهم أعمال من دون ذلك» الخ؛ أي من غير ما وصفناه من حال المؤمنين وهو كناية عن أن لهم شاغلاً يشغلهم عن هذه الخيرات والأعمال الصالحة وهو الأعمال الرديئة الخبيثة التي هم لها عاملون.

والمعنى: بل الكفار في غفلة شديدة أو جهل شديد عن هذا الذي وصفنا به المؤمنين ولهم أعمال رديئة خبيثة من دون ذلك هم لها عاملون في شاغلتهم ومانعتهم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ الجؤار - بضم الجيم - صوت الوحش كالظباء ونحوها عند الفزع كنّي به عن رفعهم الصوت

بالاستغاثة والتضرُّع ، وقيل : المراد به ضجَّتهم وجزعهم والآيات التالية تؤيد المعنى الأول .

وإنما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلاً بقوله : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين » وهم الرؤساء المتنعمون منهم وغيرهم تابعون لهم .

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَجْئَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لاَ تُنْصَرُونَ ﴾ العدول عن سياق الغيبة الى الخطاب لتشديد التوبيخ والتقريع ولقطع طمعهم في النجاة بسبب الاستغاثة وأي رجاء وأمل لهم فيها فإن إخبار الوسائط أنهم لا ينصرون لدعاء أو شفاعة لا يقطع طمعهم في النصر كما يقطعه إخبار من اليه النصر نفسه .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ـ الى قوله ـ تَهْجُرُونَ ﴾ النكوص : الرجوع القهقري ، والسامر من السمر وهو التحديث بالليل ، قيل : السامر كالحاضر يطلق على المفرد والجمع ، وقرىء « سُمَّرا » ـ بضمّ السين وتشديد الميم ـ جمع سامر وهو أرجح ، وقرىء أيضاً « سُمّاراً » ـ بالضم والتشديد ـ . والهجر : الهذيان .

والفصل في قوله : « قد كانت آياتي » الخ ؛ لكونه في مقام التعليل . والمعنى : إنكم منا لا تنصرون لأنه قد كانت آياتي تُتلى وتُقرأ عليكم فكنتم تعرضون عنها وترجعون الى أعقابكم القهقرى مستكبرين بنكوصكم تحدّثون في أمره في الليل تهجرون وتهذون . وقيل : ضمير « به » عائد الى البيت أو الحرم وهو كما ترى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ شروع في قطع أعذارهم في الإعراض عن القرآن النازل لهدايتهم وعدم استجابتهم للدعوة الحقة التي قام بها النبي ﷺ .

فقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ الاستفهام فيه للإنكار واللام في « القول » للعهد والمراد به القرآن المتلو عليهم ، والكلام متفرع على ما تقدمه من كونهم في غفلة منه وشغل يشغلهم عنه ، والمعنى : هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدَّبروا هذا القول المتلو عليهم حتى يعلموا أنه

حق من عند الله فيؤمنوا به.

وقوله: «أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين» «أم» فيه وفيما بعده منقطعة في معنى الإضراب، والمعنى: بل أجاءهم شيء لم يأت آباءهم الأولين فيكون بدعاً ينكر ويحترز منه.

وكون الشيء بدعاً محدثاً لا يعرفه السابقون وإن لم يستلزم كونه باطلاً غير حق على نحو الكلية لكن الرسالة الالهية لما كانت لغرض الهداية لو صحّت وجبت في حق الجميع فلو لم يأت الأولين كان ذلك حجة قاطعة على بطلانها.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ المراد بمعرفة الرسول معرفته بنسبه وحسبه وبالجملة بسجاياه الروحية وملكاته النفسية من اكتسابية وموروثة حتى يتبين به أنه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو اليه مؤيد من عند الله وقد عرفوا من النبي ﷺ سوابق حاله قبل البعثة، وقد كان يتيماً فاقداً للأبوين لم يقرأ ولم يكتب ولم يأخذ أدباً من مؤدب ولا تربية من مربٍّ ثم لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأي ولا طمعاً في ملك أو حرصاً على مال أو ولعاً بجاه، وهو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادي للفلاح والسعادة ويندب الى حقائق معارف تبهر العقول ويدعو الى شريعة تحيّر الألباب ويتلو كتاباً.

فهم قد عرفوا رسولهم ﷺ بنعوته الخاصة المعجزة لغيره، ولو لم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذراً في إعراضهم عن دينه واستنكافهم عن الإيمان به لأن معنى عدم معرفته كذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه. ومن المعلوم أن إلقاء الزمام الى من هذا شأنه مما لا يجوزه العقل.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وهذا عذر آخر لهم تشبثوا به إذ قالوا: ﴿يا أيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ (الحجر / ٦) ذكره ورده بلازم قوله: «بل جاء بالحق».

فمدلول قوله : ﴿ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ ﴾ إضراب عن جملة محذوفة والتقدير إنهم كاذبون في قولهم : « به جنة » واعتذارهم عن عدم إيمانهم به بذلك بل إنما كرهوا الايمان به لأنه جاء بالحق وأكثرهم للحق كارهون .

ولازمه رد قولهم بحجة يلوّح اليها هذا الاضراب ، وهي أن قولهم : « به جنة » لو كان حقاً كان كلامه مختلَّ النظم غير مستقيم المعنى مدخولاً فيه كما هو مدخول في عقله ، غير رام الى مرمى صحيح ، لكن كلامه ليس كذلك فلا يدعو إلا الى حق ، ولا يأتي إلا بحق ، وأين ذلك من كلام مجنون لا يدري ما يريد ولا يشعر بما يقول .

وإنما نسب الكراهة الى أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يعبؤ بهم أرادوا أو كرهوا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوٰاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰواتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ لما ذكر أن أكثرهم للحق كارهون وإنما يكرهون الحق لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحق أي الدعوة الحقة أن يتبع أهواءهم وهذا مما لا يكون البتة .

إذ لو اتبع الحق أهواءهم فتركوا وما يهوونه من الاعتقاد والعمل فعبدوا الأصنام واتخذوا الأرباب ونفوا الرسالة والمعاد واقترفوا ما أرادوه من الفحشاء والمنكر والفساد جاز أن يتّبعهم الحق في غير ذلك من الخليقة والنظام الذي يجري فيها بالحق إذ ليس بين الحق والحق فرق فاعطي كل منهم ما يشتهيه من جريان النظام وفيه فساد السماوات والأرض ومن فيهن واختلال النظام وانتفاض القوانين الكلية الجارية في الكون فمن البيّن أن الهوى لا يقف على حد ولا يستقر على قرار .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرٰاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرّٰازِقِينَ ﴾ ، قال في مجمع البيان : أصل الخراج والخرج واحد وهو الغلة التي يخرج على سبيل الوظيفة انتهى .

وهذا رابع الأعذار التي ذكرت في هذه الآيات وردت ووبخوا عليها وقد ذكره الله بقوله: «أم تسألهم خرجا» أي مالاً يدفعونه اليك على سبيل الرسم والوظيفة ثم ذكر غنى النبي ﷺ بقوله: «فخراج ربك خير وهو خير الرازقين» أي إن الله هو رازقك ولا حاجة لك الى خرجهم، وقد تكرر الأمر بإعلامهم ذلك في الآيات ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا﴾ (الأنعام / ٩٠) (الشورى / ٢٣).

وقد تمت بما ذكر في الآية أربعة من الأعذار المردودة اليهم وهي مختلفة فأولها «أفلم يدَّبروا القول» راجع الى القرآن والثاني «أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين» الى الدين الذي اليه الدعوة، والثالث «أم يقولون به جنة» الى نفس النبي ﷺ والرابع «أم تسألهم خرجا» الى سيرته.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ النكب والنكوب العدول عن الطريق والميل عن الشيء.

قد تقدم في تفسير سورة الفاتحة أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا يختلف ولا يتخلف في حكمه وهو إيصاله سالكيه الى الغاية المقصودة، وهذه صفة الحق فإن الحق واحد لا يختلف أجزاؤه بالتناقض والتدافع ولا يتخلف في مطلوبه الذي يهدي اليه فالحق صراط مستقيم، وإذ ذكر أن النبي ﷺ يهدي الى الحق كان لازمه هذا الذي ذكره أنه يهدي الى صراط مستقيم.

ثم إن الذين كفروا لما كانوا كارهين للحق كما ذكره فهم عادلون عن الصراط أي الصراط المستقيم مائلون الى غيره.

وإنما أورد من أوصافهم عدم إيمانهم بالآخرة واقتصر عليه لأن دين الحق مبني على أساس أن للإنسان حياة خالدة لا تبطل بالموت وله فيها سعادة يجب أن تقتني بالإعتقاد الحق

والعمل الصالح وشقاوة يجب أن تجتنب، وهؤلاء لنفيهم الحياة الآخرة يعدلون عن الحق والصراط المستقيم.

وبتقرير آخر: دين الحق مجموع تكاليف اعتقادية وعملية والتكليف لا يتم إلا بحساب وجزاء، وقد عين لذلك يوم القيامة، وإذ لا يؤمن هؤلاء بالآخرة لغى الدين عندهم فلا يرون من الحياة إلا الحياة الدنيا المادية ولا يبقى من السعادة عندهم إلا نيل اللذائذ المادية وهو التمتع بالبطن فما دونه، ولازم ذلك أن يكون المتبع عندهم الهوى وافق الحق أو خالفه.

فمحصل الآيتين أنهم ليسوا بمؤمنين بك لأنك تدعو الى صراط مستقيم وهم لا همّ لهم إلا العدول والميل عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ـ الى قوله ـ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ اللجاج التمادي والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه، والعمه التردد في الأمر من التحير، ذكرهما الراغب، وفي المجمع: الاستكانة الخضوع وهو استفعل من الكون، والمعنى ما طلبوا الكون على صفة الخضوع. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾ بيان وتأييد لنكوبهم عن الصراط بأنا لو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر لم يرجعوا بمقابلة ذلك الشرك أصروا على تمردهم عن الحق وتمادوا يترددون في طغيانهم فلا ينفعهم رحمة بكشف الضر كما لا ينفعهم تخويف بعذاب ونقمة فإنا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربهم وما يتضرعون اليه فهؤلاء لا ينفعهم ولا يركبهم صراط الحق لا رحمة بكشف الضر ولا نقمة وتخويف بالأخذ بالعذاب.

والمراد بالعذاب العذاب الخفيف الذي لا ينقطع به الانسان عن عامة الأسباب بقرينة ما في الآية التالية فلا يرد أن الرجوع الى الله تعالى عند الاضطرار والانقطاع عن الأسباب من غريزيات الإنسان كما تكرر ذكره في القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثم لا يستكينوا ولا يتضرعوا؟

وقوله في الآية الاولى: «ما بهم من ضر» وفي الثانية «ولقد أخذناهم بالعذاب» يدل على أن الكلام ناظر الى عذاب قد وقع ولما يرتفع حين نزول الآيات، ومن المحتمل أنه الجدب الذي ابتلي به أهل مكة وقد ورد ذكر منه في الروايات.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي هم على حالهم هذه لا ينفع فيهم رحمة ولا عذاب حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد وهو الموت بما يستتبعه من عذاب الآخرة ـ على ما يعطيه سياق الآيات وخاصة الآيات الآتية ـ فيفاجئوهم الإبلاس واليأس من كل خير.

وقد ختم هذا الفصل من الكلام أعني قوله: «أفلم يدبروا القول» الخ؛ بنظير ما ختم به الفصل السابق أعني قوله: «أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين» الى آخر الآيات؛ وهو ذكر عذاب الآخرة، وسيعود اليه ثانياً.

٧٨ ● وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ.

٧٩ ● وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

٨٠ ● وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

٨١ ● بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ.

٨٢ ● قَالُوا ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ.

٨٣ ● لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

٨٤ ● قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٨٥ ● سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ.

٨٦ ● قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوٰاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ.

٨٧ ● سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ.

٨٨ ● قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٨٩ ● سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنّىٰ تُسْحَرُونَ.

٩٠ ● بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ.

٩١ ● مٰا ٱتَّخَذَ اللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ وَمٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ
إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ وَلَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ سُبْحٰانَ اللّٰهِ عَمّٰا
يَصِفُونَ.

٩٢ ● عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهٰادَةِ فَتَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ.

٩٣ ● قُلْ رَبِّ إِمّٰا تُرِيَنِّي مٰا يُوعَدُونَ.

٩٤ ● رَبِّ فَلاٰ تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ.

٩٥ ● وَإِنّٰا عَلىٰ أَنْ نُرِيَكَ مٰا نَعِدُهُمْ لَقٰادِرُونَ.

٩٦ ● إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَصِفُونَ.

٩٧ ● وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزٰاتِ الشَّيٰاطِينِ.

٩٨ ● وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ افتتح سبحانه من نعمه التي أنعمها عليهم بذكر إنشاء السمع والبصر وهما نعمتان خصَّ بهما جنس الحيوان خلقتا فيه إنشاء وإبداعاً لا عن مثال سابق إذ لا توجدان في الأنواع البسيطة التي قبل الحيوان كالنبات والجماد والعناصر.

وبحصول هذين الحسّين يقف الوجود المجهز بهما موقفاً جديداً ويتسع مجال فعاليته بالنسبة الى ما هو محروم منهما اتساعاً لا يتقدر بقدر فيدرك خيره وشره ونافعه وضارّه ويعطي معهما الحركة الإرادية الى ما يريده وعما يكرهه، ويستقر في عالم حديث طري فيه مجالي الجمال واللذة والعزة والغلبة ولمحبة مما لا خبر عنه فيما قبله.

وإنما اقتصر من الحواس بالسمع والبصر ـ قيل ـ لأن الاستدلال يتوقف عليهما ويتمّ بهما.

ثم ذكر سبحانه الفؤاد والمراد به المبدأ الذي يعقل من الإنسان وهو نعمة خاصة بالإنسان من بين سائر الحيوان ومرحلة حصول الفؤاد مرحلة وجودية جديدة هي أرفع درجة وأعلى منزلة وأوسع مجالاً من عالم الحيوان الذي هو عالم الحواس فيتسع به أولاً شعاع عمل الحواس مما كان عليه في عامة الحيوان بما لا يتقدر بقدر فإذا الإنسان يدرك بهما ما غاب وما حضر وما مضى وما غبر من أخبار الأشياء وآثارها وأوصافها بعلاج وغير علاج.

ثم يرقى بفؤاده أي بتعقله الى مافوق المحسوسات والجزئيات فيتعقل الكليات فيحصل القوانين الكلية، ويغور متفكراً في العلوم النظرية والمعارف الحقيقية، وينفذ بسلطان التدبر في أقطار السماوات والأرض.

ففي ذلك كله من عجيب التدبير الإلهي بإنشاء السمع والأبصار والأفئدة ما لا يسع الإنسان أن يستوفي شكره.

وقوله: «قليلاً ما تشكرون» فيه بعض العتاب ومعناه تشكرون شكراً قليلاً فقوله: «قليلاً» وصف للمفعول المطلق قائم مقامه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ قال الراغب: الذرأ إظهار الله تعالى ما أبداه يقال: ذرأ الله الخلق أي أوجد أشخاصهم. وقال: الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه الى الحرب ونحوها. انتهى.

فالمعنى: أنه لما جعلكم ذوي حس وعقل أظهر وجودكم في الأرض متعلقين بها ثم يجمعكم ويرجعكم الى لقائه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ معنى الآية ظاهر، وقوله: «وهو الذي يحيي ويميت» مترتب بحسب المعنى على الجملة التي قبله أي لما جعلكم ذوي علم وأظهر وجودكم في الأرض الى حين حتى تحشروا اليه لزمت ذلك سنة الإحياء والإماتة إذ العلم متوقف على الحياة والحشر متوقف على الموت.

وقوله: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ مترتب على ما قبله فإن الحياة ثم الموت لا تتم إلا بمرور الزمان وورود الليل بعد النهار والنهار بعد الليل حتى ينقضي العمر ويحل الأجل المكتوب، هذا لو أُريد باختلاف الليل والنهار وورود الواحد منهما بعد الواحد، ولو أُريد به اختلافهما في الطول والقصر كانت فيه إشارة الى إيجاد فصول السنة الأربعة المتفرعة على طول الليل والنهار وقصرهما وبذلك يتم أمر أرزاق الحيوان وتدبير معاشها كما قال: ﴿وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ (حم السجدة / ١٠).

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ إضراب عن نفي سابق يدلّ عليه الاستفهام المتقدم أي لم يعقلوا بل قالوا كذا وكذا.

وفي تشبيه قولهم بقول الأولين إشارة الى أن تقليد الآباء منعهم عن اتباع الحق وأوقعهم فيما

لا يبقى معه للدين جدوى وهو نفي المعاد، والإخلاص الى الأرض والانغمار في الماديات سنة جارية فيهم في آخريهم وأوليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بيان لقوله: «قالوا» في الآية السابقة والكلام مبني على الاستبعاد.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير الأباطيل والأحاديث الخرافية وهي جمع أسطورة كأكاذيب جمع أكذوبة وأعاجيب جمع أعجوبة وإطلاق الأساطير وهو جمع على البعث وهو مفرد بعناية أنه مجموع عدات كل واحد منها أسطورة كالإحياء والجمع والحشر والحساب والجنة والنار وغيرها، والإشارة بهذا الى حديث البعث وقوله: «من قبل» متعلق بقوله: «وعدنا» على ما يعطيه سياق الجملة.

والمعنى: أن وعد البعث وعد قديم ليس بحديث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن وآباؤنا ليس البعث الموعود إلا أحاديث خرافية وضعها ونظمها الأناسي الأولون في صورة إحياء الأموات وحساب الأعمال والجنة والنار والثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ثم إنكارهم له شرع في الاحتجاج على إمكانه من طريق الملك والربوبية والسلطنة، ووجه الكلام الى الوثنيين المنكرين للبعث وهم معترفون به تعالى بمعنى أنه الموجد للعالم ورب الأرباب والآلهة المعبودون دونه من خلقه، ولذا أخذ وجوده تعالى مسلّماً في ضمن الحجة.

فقوله: «قل لمن الأرض ومن فيها» أمر للنبي ﷺ أن يسألهم عن مالك الأرض ومن فيها من أولي العقل من هو؟ ومعلوم أن السؤال إنما هو عن الملك الحقيقي الذي هو قيام وجود شيء بشيء بحيث لا يستقل الشيء المملوك عن مالكه بأي وجه فرض دون الملك الاعتباري

الذي وضعناه معاشر المجتمعين لمصلحة الاجتماع وهو يقبل الصحة والفساد ويقع مورداً للبيع والشرى، وذلك لأن الكلام مسوق لإثبات صحة جميع التصرفات التكوينية وملاكها الملك التكويني الحقيقي دون التشريعي الاعتباري .

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ إخبار عن جوابهم وهو أن الأرض ومن فيها مملوكة لله، ولا مناص لهم عن الاعتراف بكونها لله سبحانه فإن هذا النوع من الملك لا يقوم إلا بالعلة الموجدة لمعلولها حيث يقوم وجود المعلول بها قياماً لا يستقلّ عنها بوجه من الوجوه، والعلة الموجدة للأرض ومن فيها هو الله سبحانه وحده لا شريك له حتى باعتراف الوثنيين .

وقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أمر بعد تسجيل الجواب أن يوبخهم على عدم تذكرهم بالحجة الدالة على إمكان البعث، والمعنى قل لهم فإذا كان الله سبحانه مالك الأرض ومن فيها لم لا تتذكرون أن له ـ لمكان مالكيّته ـ أن يتصرف في أهلها بالإحياء بعد الإماتة .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أمره ثانياً أن يسألهم عن رب السماوات السبع ورب العرش العظيم من هو ؟

والمراد بالعرش هو المقام الذي يجتمع فيه ازمّة الامور ويصدر عنه كل تدبير، وتكرار لفظ الرب في قوله: « ورب العرش العظيم » للإشارة إلى أهمية أمره ورفعة محله كما وصفه الله بالعظمة، وقد تقدم البحث عنه في تفسير سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب .

ذكروا أن قولنا: لمن السماوات السبع وقولنا: من رب السماوات السبع بمعنى واحد كما يقال: لمن الدار ومن رب الدار فقوله تعالى: « من رب السماوات السبع ؟ » سؤال عن مالكها، ولذا حكى الجواب عنهم بقوله: « سيقولون لله » على المعنى ولو أنه أُجيب عنه فقيل « الله » كما في القراءة الاخرى كان جواباً على اللفظ .

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ قل: من رب السماوات السبع التي منها تنزل أقدار الامور

وأقضيتها ورب العرش العظيم الذي منه يصدر الأحكام لعامة ما في العالم من الملائكة فمن دونهم؟ فإنهم وما يملكونهم باعتقادهم مملوكة لله وهو الذي ملّكهم ما ملكوه.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ حكاية لجوابهم بالاعتراف بأن السماوات السبع والعرش العظيم لله سبحانه.

والمعنى: سيجيبوك بأنها لله قل لهم تبكيتاً وتوبيخاً: فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر والعرش العظيم منه يصدر الأمر لله سبحانه فلم لا تتقون سخطه إذ تنكرون البعث وتعدونه من أساطير الأولين وتسخرون من أنبيائه الذين وعدوكم به؟ فإن له تعالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات وإنشاء النشأة الآخرة للانسان وينزل الأمر به من السماء.

ومن لطيف تعبير الآيه التعبير بقوله: «لله» فإن الحجة تتم بالملك وإن لم يعترفوا بالربوبية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الملكوت هو الملك بمعنى السلطنة والحكم، ويفيد مبالغة في معناه والفرق بين الملك بالفتح والكسر وبين المالك أن المالك هو الذي يملك المال والملك يملك المالك وماله، فله ملك في طول ملك وله التصرف بالحكم في المال ومالكه.

وقد فسر تعالى ملكوته بقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ (يس / ٨٣)، فلكوت كل شيء هو كونه عن أمره تعالى بكلمة كن وبعبارة اخرى وجوده عن إيجاده تعالى.

فكون ملكوت كل شيء بيده كناية استعارية عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشيء به تعالى كما قال: ﴿الله خالق كل شيء﴾ (الزمر / ٦٢)، فلكه تعالى محيط بكل شيء ونفوذ أمره ومضي حكمه ثابت على كل شيء.

ولما كان من الممكن أن يتوهم أن عموم الملك ونفوذ الأمر لا ينافي إخلال بعض ما أوجده

من الأسباب والعلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريده أو يمنعه عما يريده تمم قوله: «بيده ملكوت كل شيء» بقوله: «وهو يجير ولا يجار عليه» وهو في الحقيقة توضيح لاختصاص الملك بأنه بتمام معنى الكلمة فليس لشيء شيء من الملك في عرض ملكه ولو بالمنع والإخلال والاعتراض فله الملك وله الحكم.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ من الجوار، وهو في أصله قرب المسكن ثم جعلوا للجوار حقاً وهو حماية الجار لجاره عمن يقصده بسوء لكرامة الجار على الجار بقرب الدار واشتق منه الأفعال يقال: استجاره فأجاره أي سأله الحماية فحماه أي منع عنه من يقصده بسوء.

وهذا جار في جميع أفعاله تعالى فما من شيء يخصه الله بعطية حدوثاً أو بقاء إلا وهو يحفظه على ما يريد وبمقدار ما يريد من غير أن يمنعه مانع إذ منع المانع ـ لو فرض ـ إنما هو بإذن منه ومشية فليس منعاً له تعالى بل منعاً منه وتحديداً لفعل منه بفعل آخر، وما من سبب من الأسباب يفعل فعلاً إلا وله تعالى أن يتصرف فيه بما لا يريده لأنه تعالى هو الذي ملكه الفعل بمشيته فله أن يمنعه منه أو من بعضه.

فالمراد بقوله: «وهو يجير ولا يجار عليه» أنه يمنع السوء عمن قصده ولا يمنعه شيء إذا أراد شيئاً بسوء عما أراد.

ومعنى الآيه قل لهؤلاء المنكرين للبعث: من الذي يختص به إيجاد كل شيء بما له من الخواص والآثار وهو يحمي من استجار به ولا يحمي عنه شيء إذا أراد شيئاً بسوء؟ إن كنتم تعلمون.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ قيل: إن المراد بالسحر أن يخيل الشيء للانسان على خلاف ما هو عليه فهو من الاستعارة أو الكناية.

والمعنى: سيجيبونك أن الملكوت لله قل لهم تبكيتاً وتوبيخاً: فإلى متى يخيل لكم الحق

باطلاً فإذا كان الملك المطلق لله سبحانه فله أن يوجد النشأة الآخرة ويعيد الأموات للحساب والجزاء بأمر يأمره وهو قوله: «كن».

واعلم أن الاحتجاجات الثلاثة كما تثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحده تعالى في الربوبية فإن الملك الحقيقي لا يتخلف عن جواز التصرفات، والمالك المتصرف هو الربُّ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ إضراب عن النفي المفهوم من الحجج التي أُقيمت في الآيات السابقة، والمعنى فإذا كانت الحجج المبنية تدل على البعث وهم معترفون بصحتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلاً بل جئناهم بلسان الرسل بالحق وإنهم لكاذبون في دعواهم كذبهم ونفيهم للبعث.

قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الخ: القول بالولد كان شائعاً بين الوثنيين يعدّون الملائكة أو بعضهم وبعض الجن وبعض القديسين من البشر أولاداً لله سبحانه وتبعهم النصارى في قولهم: المسيح ابن الله، وهذا النوع من الولادة والبنوّة مبني على اشتمال الابن على شيء من حقيقة اللاهوت وجوهره وانفصاله منه بنوع من الاشتقاق فيكون المسمى بالابن إلهاً مولوداً من إله.

وأما البنوّة الادّعائية بالتبني وهو أخذ ولد الغير ابناً لتشريف أو لغرض آخر فلا يوجب اشتمال الابن على شيء من حقيقة الأب كقول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه، وليس الولد بهذا المعنى مراداً لأن الكلام مسوق لنفي تعدّد الآلهة. ولا يستلزم هذا النوع من البنوة أُلوهية وإن كان التسمي والتسمية بها ممنوعاً.

فالمراد باتخاذ الولد إيجاد شيء بنحو التبعّض والاشتقاق يكون مشتملاً بنحو على شيء من حقيقة الموجد لا تسمية شيء موجوداً بنا وولداً لغرض من الأغراض كما ذكره بعضهم.

والولد ـ كما عرفت ـ أخصّ مصداقاً عندهم من الإله فإن بعض آلهتهم ليس بولد عندهم

فقوله : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ ترقٍّ من نفي الأخص الى نفي الأعمّ ولفظة « من » في الجملتين زائدة للتأكيد.

وقوله : ﴿ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ حجة على نفي التعدد ببيان محذوره إذ لا يتصور تعدد الآلهة إلا ببينونتها بوجه من الوجوه بحيث لا تتحد في معنى اُلوهيتها وربوبيتها، ومعنى ربوبية الإله في شطر من الكون ونوع من أنواعه تفويض التدبير فيه اليه بحيث يستقل في أمره من غير أن يحتاج فيه الى شيء غير نفسه حتى الى من فوّض اليه الأمر. ومن البيّن أيضاً أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمران متباينان.

ولازم ذلك أن يستقل كل من الآلهة بما يرجع اليه من نوع التدبير وتنقطع رابطة الاتحاد والإتصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم كالنظام الجاري في العالم الإنساني عن الأنظمة الجارية في أنواع الحيوان والنبات والبر والبحر والسهل والجبل والأرض والسماء وغيرها وكل منها عن كل منها، وفيه فساد السماوات والأرض وما فيهنّ. ووحدة النظام الكوني والتئام أجزائه واتصال التدبير الجاري فيه يكذّبه.

وهذا هو المراد بقوله : « إذاً لذهب كل إله بما خلق » أي انفصل بعض الآلهة عن بعض بما يترشح منه من التدبير.

وقوله : ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ محذور آخر لازم لتعدد الآلهة تتألف منه حجة اخرى على النفي، بيانه أن التدابير الجارية في الكون مختلفة منها التدابير العرضية كالتدبيرين الجاريين في البر والبحر والتدبيرين الجاريين في الماء والنار، ومنها التدابير الطولية التي تنقسم الى تدبير عام كلي حاكم وتدبير خاص جزئي محكوم كتدبير العالم الأرضي وتدبير النبات الذي فيه، وكتدبير العالم السماوي وتدبير كوكب من الكواكب التي في السماء، وكتدبير العالم المادي برمّته وتدبير نوع من الأنواع المادية.

فبعض التدبير وهو التدبير العام الكلي يعلو بعضاً بمعنى أنه بحيث لو انقطع عنه ما دونه

بطل ما دونه لتقوّمه بما فوقه. كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضي أو التدبير الذي يجري فيه بالعموم لم يكن عالم إنساني ولا التدبير الذي يجري فيه بالخصوص.

ولازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع اليه نوع عال من التدبير عالياً بالنسبة الى الإله الذي فوّض اليه من التدبير ما هو دونه وأخصّ منه وأخسّ واستعلاء الإله على الإله محال.

لا لأن الإستعلاء المذكور يستلزم كون الإله مغلوباً لغيره أو ناقصاً في قدرته محتاجاً في تمامه الى غيره أو محدوداً والمحدودية تفضي الى التركيب، وكل ذلك من لوازم الإمكان المنافي لوجوب وجود الإله فيلزم الخلف ـ كما قرّره المفسرون ـ فإن الوثنيين لا يرون لآلهتهم من دون الله وجوب الوجود بل هي عندهم موجودات ممكنة عالية فوّض اليهم تدبير أمر ما دونها، وهي مربوبية لله سبحانه وأرباب لما دونها والله سبحانه رب الأرباب وإله الآلهة وهو الواجب الوجود بالذات وحده.

بل استحالة الاستعلاء إنما هو لاستلزامه بطلان استقلال المستعلى عليه في تدبيره وتأثيره إذ لا يجامع توقف التدبير على الغير والحاجة اليه الاستقلال فيكون السافل منها مستمداً في تأثيره محتاجاً فيه الى العالي فيكون سبباً من الأسباب التي يتوسل بها الى تدبير ما دونه لا إلهاً مستقلاً بالتأثير دونه فيكون ما فرض إلهاً غير إله بل سبباً يدبّر به الأمر هذا خلف.

قوله تعالى: ﴿ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ صفة لاسم الجلالة في قوله: «سبحان الله عما يصفون» وتأخيرها للدلالة على علمه بتنزهه عن وصفهم إياه بالشركة ـ على ما يعطيه السياق ـ فيكون في معنى قوله: **﴿قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** (يونس / ١٨).

ويرجع في الحقيقة الى الاحتجاج على نفي الشركاء بشهادته تعالى أنه لا يعلم لنفسه شريكاً كما أن قوله: **﴿شهد الله أنه لا إله الا هو﴾** (آل عمران / ١٨) احتجاج بالشهادة على

نفي أصل الوجود.

وقيل: إنه برهان آخر راجع الى إثبات العلوّ أو لزوم الجهل الذي هو نقص وضد العلوّ لأن المتعددين لا سبيل لهما الى أن يعلم كل واحد حقيقة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة وهو نوع جهل وقصور. انتهى.

وفيه أن ذلك كسائر ما قرروه من البراهين ينفي تعدُّد الإله الواجب الوجود بالذات، والوثنيون لا يلتزمون في آلهتهم من دون الله بذلك. على أن بعض مقدمات ما قرر من الدليل ممنوع.

وقوله: ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تفريع على جميع ما تقدم من الحجج على نفي الشركاء.

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لما فرغ من نقل ما تفوّهوا به من الشرك بالله وإنكار البعث والاستهزاء بالرسل وأقام الحجج على إثبات حقّيتها رجع الى ما تقدم من تهديدهم بالعذاب فأمر نبيه ﷺ أن يسأله أن ينجيه من العذاب الذي أوعدهم به إن أراه ذلك العذاب.

فقوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أمر بالدعاء والاستغاثة، وتكرار «رب» لتأكيد التضرع وما في قوله: «إما تريني» زائدة وهي المصححة لدخول نون التأكيد على الشرط وأصله: إن ترني. وفي قوله: «ما يوعدون» دلالة على أن بعض ما تقدم في السورة من الإيعاد بالعذاب إيعاد بعذاب دنيوي. وما في قوله: «رب فلا تجعلني في القوم الظالمين» من الكون فيهم كناية عن شمول عذابهم له.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ تطييب لنفس النبي ﷺ بقدرة ربه على أن يكشف عنه بإراءته ما يعدهم من العذاب، ولعل المراد به ما عذبهم الله به يوم بدر وقد أراه الله ذلك وأراه المؤمنين وشفى به غليل صدورهم.

قوله تعالى: ﴿إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي ادفع السيئة التي تتوجه اليك منهم بالحسنة واختر للدفع من الحسنات أحسنها، وهو دفع السيئة بالحسنة التي هي أحسن مثل أنه لو أساؤا اليك بالايذاء أحسن اليهم بغاية ما استطعت من الاحسان ثم ببعض الاحسان في الجملة ولو لم يسعك ذلك فبالصفح عنهم.

وقوله: «نحن أعلم بما يصفون» نوع تسلية للنبي ﷺ أن لا يسوءنّه ما يلقاه ولا يحزنه ما يشاهد من تجرّيهم على ربهم فإنه أعلم بما يصفون.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾، قال في مجمع البيان: الهمزة شدة الدفع، ومنه الهمزة للحرف الذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد ودفع، وهمزة الشيطان دفعه بالاغواء الى المعاصي انتهى. وفي تفسير القمي عنه عليه السلام: أنه ما يقع في قلبك من وسوسة الشياطين.

وفي الآيتين أمره ﷺ أن يستعيذ بربه من إغواء الشياطين ومن أن يحضروه، وفيه إيهام الى أن ما ابتلي به المشركون من الشرك والتكذيب من همزات الشياطين وإحاطتهم بهم بالحضور.

٩٩ ● حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ.

١٠٠ ● لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

١٠١ ● فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ.

١٠٢ ● فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

١٠٣ ● وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي

جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.

١٠٤ ● تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ.

١٠٥ ● أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ.

١٠٦ ● قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ.

١٠٧ ● رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ.

١٠٨ ● قَالَ ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ.

١٠٩ ● إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا
وَٱرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ.

١١٠ ● فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ
تَضْحَكُونَ.

١١١ ● إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ.

١١٢ ● قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ.

١١٣ ● قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ ٱلْعَادِّينَ.

١١٤ ● قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

١١٥ ● أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ.

١١٦ ● فَتَعَالَى اللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ.

١١٧ ● وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ
رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ.

١١٨ ● وَقُلْ رَبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ «حتى» متعلق بما تقدم من وصفهم له تعالى بما هو منزّه منه وشركهم به، والآيات المتخللة اعتراض في الكلام أي لا يزالون يشركون به ويصفونه بما هو منزّه منه وهم مغترّون بما نمدهم به من مال وبنين حتى إذا جاء أحدهم الموت.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الظاهر أن الخطاب للملائكة المتصدّين لقبض روحه و«ربِّ» استغاثة معترضة بحذف حرف النداء والمعنى قال ـ وهو يستغيث بربه ـ ارجعون.

قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ «لعلَّ» للترجّي وهو رجاء تعلقوا به بمعاينة العذاب المشرف عليهم كما ربما ذكروا الرجوع بوعد العمل الصالح كقولهم: ﴿فأرجعنا نعمل صالحاً﴾ (السجدة / ١٢)، وربما ذكروه بلفظ التمني كقولهم: ﴿يا ليتنا نردُّ ولا نكذب بآيات ربنا﴾ (الأنعام / ٢٧).

وقوله: ﴿أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي أعمل عملاً صالحاً فيما تركت من المال بإنفاقه في البرّ والإحسان وكل ما فيه رضى الله سبحانه.

وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي لا يرجع الى الدنيا إن هذه الكلمة «ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت» كلمة هو قائلها أي لا أثر لها إلا أنها كلمة هو قائلها، فهو كناية عن عدم إجابة مسألته.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ البرزخ هو الحاجز بين الشيئين كما في قوله: ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾ (الرحمن / ٢٠)، والمراد بكونه وراءهم كونه أمامهم محيطاً بهم وسمّي وراءهم بعناية أنه يطلبهم كما أن مستقبل الزمان أمام الإنسان ويقال: وراءك يوم كذا بعناية أن الزمان يطلب الإنسان ليمرَّ عليه وهذا معنى قول بعضهم: إن في

« وراء » معنى الإحاطة . قال تعالى : ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ (الكهف / ٧٩) .

والمراد بهذا البرزخ عالم القبر وهو عالم المثال الذي يعيش فيه الإنسان بعد موته الى قيام الساعة على ما يعطيه السياق وتدل عليه آيات أُخر وتكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام وكذا من طرق أهل السنة . وقد تقدم البحث عنه في الجزء الأول من الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ المراد به النفخة الثانية التي تحيا فيها الأموات دون النفخة الاولى التي تموت فيها الأحياء كما قاله بعضهم لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب والتساؤل وثقل الميزان وخفته الى غير ذلك من آثار النفخة الثانية .

وقوله : ﴿ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ نفي لآثار الأنساب بنفي أصلها فإن الذي يستوجب حفظ الأنساب واعتبارها هي الحوائج الدنيوية التي تدعو الإنسان الى الحياة الإجتماعية التي تبتني على تكون البيت ، والمجتمع المنزلي يستعقب التعارف والتعاطف وأقسام التعاون والتعاضد وسائر الأسباب التي تدوم بها العيشة الدنيوية ويوم القيامة ظرف جزاء الأعمال وسقوط الأسباب التي منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيوية التي منها الأنساب بلوازمها وخواصها وآثارها .

وقوله : ﴿ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ذكر لأظهر آثار الأنساب ، وهو التساؤل بين المنتسبين بسؤال بعضهم عن حال بعض ، للاعانة والإستعانة في الحوائج لجلب المنافع ودفع المضارّ .

ولا ينافي الآية ما وقع في مواضع أُخر من قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ (الصافات / ٢٧) ، فإن حكاية تساؤل أهل الجنة بعد دخولها وتساؤل أهل النار بعد دخولها وهذه الآية تنفي التساؤل في ظرف الحساب والقضاء .

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الى آخر الآيتين: الموازين جمع الميزان أو جمع الموزون وهو العمل الذي يوزن يومئذ، وقد تقدم الكلام في معنى الميزان وثقله وخفته في تفسير سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال في المجمع: اللفح والنفح بمعنى إلا أن اللفح أشد تأثيراً وأعظم من النفح، وهو ضرب من السموم للوجه والنفح ضرب الريح الوجه، والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدوا الأسنان. انتهى.

والمعنى: يصيب وجوههم لهب النار حتى تتقلص شفاههم وتنكشف عن أسنانهم كالرؤس المشوية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الخ: أي يقال لهم: ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ الشقوة والشقاوة والشقاء خلاف السعادة، وسعادة الشيء ما يختص به من الخير، وشقاوته فقد ذلك وإن شئت فقل: ما يختص به من الشر.

وقوله: «غلبت علينا شقوتنا» أي قهرنا واستولت علينا شقوتنا، وفي إضافة الشقوة الى أنفسهم تلويح الى أن لهم صنعاً في شقوتهم من جهة اكتسابهم ذلك بسوء اختيارهم، والدليل عليه قولهم بعد: «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» إذ هو وعد منهم بالحسنات ولو لم يكن لها ارتباط باكتسابهم الاختياري لم يكن للوعد معنى لكون حالهم بعد الخروج مساوية لما قبل الخروج.

وقد عدوا أنفسهم مغلوبة للشقوة فقد أخذوها ساذجة في ذواتها صالحة للحقوق السعادة والشقاوة غير أن الشقوة غلبت فأشغلت المحل وكانت الشقوة شقوة أنفسهم أي شقوة لازمة لسوء اختيارهم وسيآت أعمالهم لأنهم فرضوا أنفسهم خالية عن السعادة والشقوة لذاتها

فانتساب الشقوة الى أنفسهم وارتباطها بها إنما هي من جهة سوء اختيارهم وسيئات أعمالهم.

وبالجملة هو اعتراف منهم بتمام الحجة ولحوق الشقوة على ما يشهد به وقوع الآية بعد قوله: «ألم تكن آياتي تتلى عليكم» الخ.

ثم عقّبوا قولهم: «غلبت علينا شقوتنا» بقولهم: «وكنا قوماً ضالّين» تأكيداً لاعترافهم، وإنما اعترفوا بالذنب ليتوسلوا به الى التخلص من العذاب والرجوع الى الدنيا لكسب السعادة فقد شاهدوا في الدنيا أن اعتراف العاصي المتمرد بذنبه وظلمه توبة منه مطهّرة له تنجية من تبعة الذنب وهم يعلمون أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل والتوبة والاعتراف بالذنب من الأعمال لكن ذلك من قبيل ظهور الملكات كما أنهم يكذبون يومئذ وينكرون أشياء مع ظهور الحق ومعاينته لاستقرار ملكة الكذب والإنكار في نفوسهم، قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ (المجادلة / ١٨). وقال: ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلّوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾ (المؤمن / ٧٤).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ سؤال منهم للرجوع الى الدنيا على ما تدل عليه آيات أُخر فهو من قبيل طلب المسبَّب بطلب سببه، ومرادهم أن يعملوا صالحاً بعدما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممن تاب وعمل صالحاً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال الراغب: خسأت الكلب فخسأ أي زجرته مستهيناً به فانزجر وذلك إذا قلت له: اخسأ انتهى. في الكلام استعارة بالكناية، والمراد زجرهم بالتباعد وقطع الكلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ هؤلاء هم المؤمنون في الدنيا وكان إيمانهم توبة ورجوعاً الى الله كما سماه الله في كلامه توبة، وكان سؤالهم شمول الرحمة ـ وهي الرحمة الخاصة

بالمؤمنين البتة ـ سؤالاً منهم أن يوفقهم للسعادة فيعملوا صالحاً فيدخلوا الجنة، وقد توسلوا اليه بإسمه خير الراحمين.

فكان ما قاله المؤمنون في الدنيا معناه التوبة وسؤال الفوز بالسعادة وذلك عين ما قاله هؤلاء مما معناه التوبة وسؤال الفوز بالسعادة وإنما الفرق بينهما من حيث الموقف.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ضمائر الخطاب للكافر وضمائر الغيبة للمؤمنين، والسياق يشهد أن المراد من «ذكري» قول المؤمنين «ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا» الخ؛ وهو معنى قول الكفار في النار.

وقوله: ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي أنسى اشتغالكم سخرية المؤمنين والضحك منهم ذكري، ففي نسبة الإنساء الى المؤمنين دون سخريتهم إشارة الى أنه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشؤون إلا أن يتخذوهم سخرياً.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ﴾ المراد باليوم يوم الجزاء، ومتعلق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أي صبروا على ذكري مع سخريتكم منهم لأجله، وقوله: «أنهم هم الفائزون» مسوق للحصر أي هم الفائزون دونكم.

وهذه الآيات الأربع «قال اخسئوا ـ الى قوله ـ هم الفائزون» إيآس قطعي للكفار من الفوز بسبب ما تعلقوا به من الاعتراف بالذنب وسؤال الرجوع الى الدنيا ومحصّلها أن اقنطوا مما تطلبونه بهذا القول وهو الاعتراف والسؤال فإنه عمل إنما كان ينفع في دار العمل وهي الدنيا، وقد كان المؤمنون من عبادي يتخذونه وسيلة الى الفوز وكنتم تسخرون وتضحكون منهم حتى تركتموه وبدّلتموه من سخريتهم حتى إذا كان اليوم وهو يوم الجزاء لا يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل وبقيتم صفر الأكف تريدون أن تتوسلوا بالعمل اليوم وهو يوم الجزاء دون العمل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ مما يسأل الله الناس عنه

يوم القيامة مدة لبثهم في الأرض وقد ذكر في مواضع من كلامه والمراد به السؤال عن مدة لبثهم في القبور كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ (الروم / ٥٥)، وقوله: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ (الأحقاف / ٣٥) وغيرها من الآيات، فلا محل لقول بعضهم: إن المراد به المكث في الدنيا، واحتمال بعضهم أنه مجموع اللبث في الدنيا والبرزخ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ ظاهر السياق أن المراد باليوم هو الواحد من أيام الدنيا وقد استقلوا اللبث في الأرض حينما قايسوه بالبقاء الابدي الذي يلوح لهم يوم القيامة ويعاينونه.

ويؤيده ما وقع في موضع آخر من تقديرهم ذلك بالساعة، وفي موضع آخر بعشية أو ضحاها.

وقوله: «فاسأل العادّين» أي نحن لا نحسن إحصاءها فاسأل الذين يعدّونه وفسر بالملائكة العادين للأيام وليس ببعيد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ القائل هو الله سبحانه، وفي الكلام تصديق لهم في استقلالهم المكث في القبور وفيه توطئة لما يلحق به من قوله: «لو أنكم كنتم تعلمون» بما فيه من التمني.

والمعنى: قال الله: الأمر كما قلتم فما مكثتم إلا قليلاً فليتكم كنتم تعلمون في الدنيا أنكم لا تلبثون في قبوركم إلا قليلاً ثم تبعثون حتى لا تنكروا البعث ولم تبتلوا بهذا العذاب الخالد، والتمني في كلامه تعالى كالترجي راجع الى المخاطب أو المقام.

وجعل بعضهم «لو» في الآية شرطية والجملة شرطاً محذوف الجزاء وتكلف في تصحيح الكلام بما لا يرتضيه الذوق السليم وهو بعيد عن السياق كما هو ظاهر وأبعد منه جعل «لو» وصلية مع أن «لو» الوصلية لا تجيء بغير واو العطف.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً - الى قوله - رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ بعدما بين ما سيستقبلهم من أحوال الموت ثم اللبث في البرزخ ثم البعث بما فيه من الحساب والجزاء وبخهم على حسبانهم أنهم لا يبعثون فإن فيه جرأة على الله بنسبة البعث اليه ثم أشار الى برهان العبث.

فقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ الخ: معناه فإذا كان الأمر على ما أخبرناكم من تحسركم عند معاينة الموت ثم اللبث في القبور ثم البعث فالحساب والجزاء فهل تظنون إنما خلقناكم عبثاً تحيون وتموتون من غير غاية باقية في خلقكم وأنكم الينا لا ترجعون؟

وقوله: ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ إشارة الى برهان يثبت البعث ويدفع قولهم بالنفي، في صورة التنزيه، فإنه تعالى وصف نفسه في كلمة التنزيه بالأوصاف الأربعة: أنه ملك وأن حق وأنه لا إله إلا هو وأنه رب العرش الكريم.

فله أن يحكم بما شاء من بدء وعود وحياة وموت ورزق نافذاً حكمه ماضياً أمره لملكه، وما يصدر عنه من حكم فإنه لا يكون إلا حقاً فإنه حق ولا يصدر عن الحق بما هو حق إلا حق دون أن يكون عبثاً باطلاً ثم لما أمكن أن يتصور أن معه مصدر حكم آخر يحكم بما يبطل به حكمه وصفه بأنه لا إله - أي لا معبود - إلا هو، والاله معبود لربوبيته فإذا لا إله غيره فهو رب العرش الكريم - عرش العالم - الذي هو مجتمع أزمة الامور ومنه يصدر الأحكام والأوامر الجارية فيه.

فتلخص أنه هو الذي يصدر عنه كل حكم ويوجد منه كل شيء ولا يحكم إلا بحق ولا يفعل إلا حقاً فللأشياء رجوع اليه وبقاء به وإلا لكانت عبثاً باطلة ولا عبث في الخلق ولا باطل في الصنع.

والدليل على اتصافه بالأوصاف الأربعة كونه تعالى هو الله الموجود لذاته الموجد لغيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾، المراد من دعاء إله آخر مع الله دعاؤه مع وجوده تعالى لا دعاؤه تعالى ودعاء إله آخر معاً فإن المشركين جلّهم أو كلهم لا يدعون الله تعالى وإنما يدعون ما أثبتوه من الشركاء. ويمكن أن يكون المراد بالدعاء الإثبات فإن إثبات إله آخر لا ينفك عن دعائه.

وقوله: ﴿لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ﴾ قيد توضيحي لإله آخر إذ لا إله آخر يكون به برهان بل البرهان قائم على نفي الإله الآخر مطلقاً.

وقوله: ﴿فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ كلمة تهديد وفيه قصر حسابه بكونه عند ربه لا يداخله أحد فيما اقتضاه حسابه من جزاء ـ وهو النار كما صرّحت به الآيات السابقة ـ فإنه يصيبه لا محالة، ومرجعه الى نفي الشفعاء والإيآس من أسباب النجاة وتمّمه بقوله: «إنه لا يفلح الكافرون».

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرّاحِمِينَ﴾ خاتمة السورة وقد أمر فيها النبي ﷺ أن يقول ما حكاه عن عباده المؤمنين أنهم يقولونه في الدنيا وأن جزاء ذلك هو الفوز يوم القيامة ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون﴾ الخ: الآيتان ١٠٩ و ١١١ من السورة.

وبذلك يختتم الكلام بما افتتح به في أول السورة «قد أفلح المؤمنون» وقد تقدم الكلام في معنى الآية[1].

---

١. المؤمنون ٩٩ـ١١٨: بحث روائي في: الحياة البرزخية اهل الجنة والنار.

سورة النور مدنية وهي أربع وستون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ.

٢ ❁ أَلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ
تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

٣ ❁ أَلزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ
زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ.

٤ ❁ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولٰئِكَ
هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ.

٥ ❁ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ.

٦ ● وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ.

٧ ● وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

٨ ● وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ.

٩ ● وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

١٠ ● وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ.

بيان:

غرض السورة ما ينبيء عنه مفتتحها «سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات لعلكم تذكّرون» فهي تذكرة نبذه من الأحكام المروضة المشرّعة ثم جملة من المعارف الإلهية تناسبها ويتذكر بها المؤمنون.

وهي سورة مدنية بلا خلاف وسياق آياتها يشهد بذلك ومن غرر الآيات فيها آية النور.

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ السورة طائفة من الكلام يجمعها غرض واحد سيقت لأجله ولذا اعتبرت تارة نفس الآيات بما لها من المعاني فقيل «فرضناها»، وتارة ظرفاً لبعض الآيات ظرفية المجموع للبعض فقيل «أنزلنا فيها آيات بينات» وهي مما وضعه القرآن وسمّى به طائفة خاصة من آياته وتكرر استعمالها في كلامه تعالى. وكأنه مأخوذ من سور البلد وهو الحائط الذي يحيط به سمّيت به سورة القرآن لإحاطتها بما فيها من الآيات أو بالغرض الذي سيقت له.

وقال الراغب: الفرض قطع الشيء الصلب والتأثير فيه كفرض الحديد وفرض الزند والقوس. قال: والفرض كالايجاب لكن الايجاب يقال اعتباراً بوقوعه وثباته، والفرض بطع الحكم فيه، قال تعالى: «سورة أنزلناها وفرضناها» أي أوجبنا العمل بها عليك. قال: وكل موضع ورد «فرض الله عليه» ففي الايجاب الذي أدخل الله فيه، وما ورد «فرض الله له» فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو «ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له». انتهى.

فقوله: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي هذه سورة أنزلناها وأوجبنا العمل بما فيها من الأحكام فالعمل بالحكم الايجابي هو الاتيان به وبالحكم التحريمي الانتهاء عنه.

وقوله: «وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكّرون» المراد بها ـ بشهادة السياق ـ آية النور وما يتلوها من الآيات المبينة لحقيقة الايمان والكفر والتوحيد والشرك المذكّرة لهذه المعارف الالهية.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾الآية، الزنا المواقعة من غير عقد أو شبهة عقد أو ملك يمين، والجَلد هو الضرب بالسوط والرأفة الحنن والتعطف وقيل: هي رحمة في توجُّع، والطائفة في الأصل هي الجماعة كانوا يطوفون بالارتحال من مكان الى مكان قيل: وربما تطلق على الاثنين وعلى الواحد.

وقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ الخ؛ أي المرأة والرجل اللذان تحقق منهما الزنا فاضربوا كل واحد منهما مائة سوط، وهو حدّ الزنا بنص الآية غير أنها مخصصة بصور: منها أن يكونا محصنين ذوي زوج أو يكون أحدهما محصناً فالرجم ومنها أن يكونا غير حرّين أو أحدهما رقاً فنصف الحد.

قيل: وقدمت الزانية في الذكر على الزاني لأن الزنا منهن أشنع ولكون الشهوة فيهن أقوى وأكثر، والخطاب في الأمر بالجلد متوجه الى عامة المسلمين فيقوم بمن قام بأمرهم من ذوي الولاية من النبي والإمامة ومن ينوب منابه.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ الخ: النهي عن الرأفة النهي عن المسبب بالنهي عن سببه إذ الرأفة بمن يستحق نوعاً من العذاب توجب التساهل في إذاقته ما يستحقه من العذاب بالتخفيف فيه وربما أدّى الى تركه، ولذا قيّده بقوله: «في دين الله» أي حال كون الرأفة أي المساهلة من جهتها في دين الله وشريعته.

وقيل: المراد بدين الله حكم كما في قوله تعالى: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ (يوسف / ٧٦) أي في حكمه أي لا تأخذكم بهما رأفة في إنفاذ حكم الله وإقامة حدّه.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنتم كذا وكذا فلا تأخذكم بهما رأفة ولا تساهلوا في أمرهما وفيه تأكيد للنهي.

وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليحضر ولينظر الى ذلك جماعة منهم ليعتبروا بذلك فلا يقتربوا الفاحشة.

قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ظاهر الآية وخاصة بالنظر الى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أن الذي تشمل عليه حكم تشريعي تحريمي وإن كان صدرها وارداً في صورة الخبر فإن المراد النهي تأكيداً للطلب وهو شائع.

والمحصّل من معناها بتفسير من السنة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الزاني إذا اشتهر منه الزنا وأُقيم عليه الحد ولم تتبيّن منه التوبة يحرم عليه نكاح غير الزانية والمشركة، والزانية إذا اشتهر منها الزنا وأُقيم عليه الحد ولم تتبين منه التوبة يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك.

فالآية محكمة باقية على إحكامها من غير نسخ ولا تأويل، وتقييدها بإقامة الحد وتبيّن التوبة مما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامة الحد يلوّح الى أن المراد به الزاني والزانية المجلودان، وكذا إطلاق الزاني والزانية على من ابتلي بذلك ثم تاب توبة نصوحاً وتبيّن منه ذلك، بعيد من دأب القرآن وأدبه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ الخ: الرمي معروف ثم استعير لنسبة أمر غير مرضي الى الإنسان كالزنا والسرقة وهو القذف، والسياق يشهد أن المراد به نسبة الزنا الى المرأة المحصنة العفيفة، والمراد بالإتيان بأربعة شهداء، وهم شهود الزنا إقامة الشهادة لإثبات ما قذف به، وقد أمر الله تعالى بإقامة الحدّ عليهم إن لم يقيموا الشهادة، وحكم بفسقهم وعدم قبول شهاداتهم أبداً.

والمعنى: والذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثم لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم في قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلدة على قذفهم وهم فاسقون لا تقبلوا شهادتهم على شيء أبداً.

والآية كما ترى مطلقة تشمل من القاذف الذكر والانثى والحر والعبد، وبذلك تفسرها روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الاستثناء راجع الى الجملة الأخيرة وهي قوله: «وأُولئك هم الفاسقون» لكنها لما كانت تفيد معنى التعليل بالنسبة الى قوله: «ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً» ـ على ما يعطيه السياق ـ كان لازم ما تفيده من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهادة أبداً، ولازم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى الى الجملتين معاً.

والمعنى: إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أعمالهم فإن الله غفور رحيم يغفر ذنبهم ويرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق والحكم بعدم قبول شهادتهم أبداً.

وذكر بعضهم: أن الاستثناء راجع الى الجملة الأخيرة فحسب فلو تاب القاذف وأصلح بعد إقامة الحد عليه غفر له ذنبه لكن لا تقبل شهادته أبداً خلافا لمن قال برجوع الاستثناء الى الجملتين معاً.

والظاهر أن خلافهم هذا مبني على المسألة الاصولية المعنونة بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعددة هل يتعلق بالجميع أو بالجملة الأخيرة والحق في المسألة أن الاستثناء في نفسه صالح للأمرين جميعاً وتعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام، والذي يعطيه السياق في الآية التي نحن فيها تعلق الاستثناء بالجملة الأخيرة غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقيّد الجملة السابقة أيضاً بمعناه كالأخيرة على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ ـ الى قوله ـ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي لم يكن لهم شهداء يشهدون ما شهدوا فيتحملوا الشهادة ثم يؤدوها إلا أنفسهم، وقوله: «فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله» أي شهادة أحدهم يعني القاذف وهو واحد أربع شهادات متعلقة بالله إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف.

ومعنى الآيتين: والذين يقذفون أزواجهم ولم يكن لهم أربعة من الشهداء يشهدون ما شهدوا ـ ومن طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضروهم على الواقعة فيشهدوهم عليها فات الغرض بتفرّقهما ـ فالشهادة التي يجب على أحدهم أن يقيمها هي أن يشهد أربع شهادات أي يقول مرة بعد مرة «أُشهد الله على صدقي فيما أقذفه به» أربع مرات وخامستها أن يشهد ويقول: لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ الى آخر الآيتين؛ الدرء الدفع والمراد بالعذاب حد الزنا، والمعنى أن المرأة إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حد الزنا، وشهاداتها أن تشهد أربع مرات تقول فيها: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسة فتقول: لعنة الله عليَّ إن كان من الصادقين، وهذا هو اللعان الذي ينفصل به الزوجان.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جواب لولا محذوف يدل عليه ما أُخذ في شرطه من القيود إذ معناه لولا فضل الله ورحمته

وتوبته وحكمته لحلَّ بكم ما دفعته عنكم هذه الصفات والانفعال فالتقدير على ما يعطيه ما في الشرط من القيود لولا ما أنعم الله عليكم من نعمة الدين وتوبته لمذنبيكم وتشريعه الشرائع لنظم أُمور حياتكم لزمتكم الشقوة، وأهلكتكم المعصية والخطيئة، واختلَّ نظام حياتكم بالجهالة. والله أعلم[1].

١١ ❁ إِنَّ الَّذِينَ جاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ
بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ
وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ.
١٢ ❁ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً
وَقالُوا هٰذا إِفْكٌ مُبِينٌ.
١٣ ❁ لَوْلا جاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ
فَأُولٰئِكَ عِنْدَ اللّٰهِ هُمُ الْكاذِبُونَ.
١٤ ❁ وَلَوْلا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ
فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ.
١٥ ❁ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللّٰهِ عَظِيمٌ.
١٦ ❁ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذا سُبْحانَكَ
هٰذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ.

---

١. النور ١ ـ ١٠: بحث روائي في اقامة الحدود؛ حرمة الزنا: حرمة الزنا والقذف.

١٧ ❁ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

١٨ ❁ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

١٩ ❁ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ .

٢٠ ❁ وَلَوْلاٰ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ .

٢١ ❁ يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ
خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَلَوْلاٰ فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مٰا زَكٰى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلٰكِنَّ اللَّهَ
يُزَكِّي مَنْ يَشٰاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

٢٢ ❁ وَلاٰ يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبىٰ
وَٱلْمَسٰاكِينَ وَٱلْمُهٰاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا
أَلاٰ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

٢٣ ❁ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنٰاتِ ٱلْغٰافِلاٰتِ ٱلْمُؤْمِنٰاتِ لُعِنُوا فِي
الدُّنْيا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ .

٢٤ ❁ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا
يَعْمَلُونَ .

٢٥ ❁ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ
ٱلْمُبِينُ .

٢٦ ❁ أَلْخَبِيثٰاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثٰاتِ وَالطَّيِّبٰاتُ

لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الخ: الإفك على ما ذكره الراغب الكذب مطلقاً والأصل في معناه أنه كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه كالاعتقاد المصروف عن الحق الى الباطل ـ والفعل المصروف عن الجميل الى القبيح، والقول المصروف عن الصدق الى الكذب، وقد استعمل في كلامه تعالى في جميع هذه المعاني.

وذكر أيضاً أن العصبة جماعة متعصبة متعاضدة، وقيل: إنها عشرة الى أربعين.

والخطاب في الآية وما يتلوها من الآيات لعامة المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقة الإيمان والمنافق ومن في قلبه مرض، وأما قول بعضهم: إن المخاطب بالخطابات الأربعة الأوَل أو الثاني والثالث والرابع النبي ﷺ والمقذوفة والمقذوف ففيه تفكيك بين الخطابات الواقعة في الآيات العشر الاوَل وهي نيف وعشرين خطاباً أكثرها لعامة المؤمنين بلا ريب.

وأسوأ حالا منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعة أو الثلاثة المذكورة لمن ساءة ذلك من المؤمنين فإنه مضافاً الى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتوالية مجازفة ظاهرة.

والمعنى: إن الذين أتوا بهذا الكذب ـ واللام في الإفك للعهد ـ جماعة معدودة منكم مرتبط بعضهم ببعض، وفي ذلك إشارة الى أن هناك تواطؤاً منهم على إذاعة هذا الخبر ليطعنوا به في نزاهة بيت النبي ﷺ ويفضحوه بين الناس.

وهذا هو فائدة الخبر في قوله: «إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم» لا تسلية النبي ﷺ

أو تسليته وتسلية من ساءه هذا الإفك كما ذكره بعضهم فإن السياق لا يساعد عليه.

وقوله: ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مقتضى كون الخطاب لعامة المؤمنين أن يكون المراد بنفي كونه شراً لهم وإثبات كونه خيراً أن المجتمع الصالح من سعادته أن يتميز فيه أهل الزيغ والفساد ليكونوا على بصيرة من أمرهم وينهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم، وخاصة في مجتمع ديني متصل بالوحي ينزل عليهم الوحي عند وقوع أمثال هذه الوقائع فيعظهم ويذكّرهم بما هم في غفلة منه أو مساهلة حتى يحتاطوا لدينهم ويتفطنوا لما يهمّهم.

قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ توبيخ لهم إذ لم يردّوا الحديث حينما سمعوه ولم يظنوا بمن رمي به خيراً.

وقوله: «ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم» من وضع الظاهر موضع المضمر، والأصل «ظننتم بأنفسكم» والوجه في تبديل الضمير وصفا الدلالة على علة الحكم فإن صفة الإيمان رادعة بالطبع تردع والمتلبس بها عن الفحشاء والمنكر في القول والفعل فعلى المتلبس بها ان يظن على المتلبسين بها خيراً، وأن يجتنب القول فيهم بغير علم فإنهم جميعاً كنفس واحدة في التلبّس بالإيمان ولوازمه وآثاره.

فالمعنى: ولولا إذ سمعتهم الإفك ظننتم بمن رمي به خيراً فإنكم جميعاً مؤمنون بعضكم من بعض والمرميّ به من أنفسكم وعلى المؤمن أن يظن بالمؤمن خيراً ولا يصفه بما لا علم له به.

وقوله: ﴿وَقَالُوا هٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي قال المؤمنون والمؤمنات وهم السامعون ـ أي قلتم ـ هذا إفك مبين لأن الخبر الذي لا علم لمخبره به والدعوى التي لا بيّنة لمدّعيها عليها محكوم شرعاً بالكذب سواء كان بحسب الواقع صدقاً أو كذباً، والدليل عليه قوله في الآية التالية: «فإذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون».

قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ جاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ أي لو كانوا صادقين فيما يقولون ويرمون لأقاموا عليه الشهادة وهي في الزنا بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعاً بالكذب لأن الدعوى من غير بيّنة كذب وإفك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ إفاضة القوم في الحديث خوضهم فيه.

وقوله: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ﴾ الخ: عطف على قوله: «لولا إذ سمعتموه» الخ: وفيه كرّة ثانية على المؤمنين، وفي تقييد الفضل والرحمة بقوله: «في الدنيا والآخرة» دلالة على كون العذاب المذكور ذيلاً هو عذاب الدنيا والآخرة.

والمعنى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لوصل اليكم بسبب ما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ الخ: الظرف متعلق بقوله: «أفضتم» وتلقّي الإنسان القول أخذه القول الذي ألقاه اليه غيره، وتقييد التلقي بالألسنة للدلالة على أنه كان مجرد انتقال القول من لسان الى لسان من غير تثبت وتدبّر فيه.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من قبيل عطف التفسير، وتقييده أيضاً بقوله: «بأفواهكم» للإشارة الى أن القول لم يكن عن تثبت وتبيّن قلبيّ ولم يكن له موطن إلا الأفواه لا يتعداها.

والمعنى: أفضتم وخضتم فيه إذ تأخذونه وتنقلونه لساناً عن لسان وتتلفظون بما لا علم لكم به.

وقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيمٌ﴾ أي تظنون التلقي بألسنتكم

والقول بأفواهكم من غير علم سهلاً وهو عند الله عظيم لأنه بهتان وافتراء ، على أن الأمر مرتبط بالنبي ﷺ وشيوع إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم ويفسد أمر الدعوة الدينية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ عطف بعد عطف على قوله : « لولا إذ سمعتموه » الخ ؛ وفيه كرّة ثالثة على المؤمنين بالتوبيخ . وقوله : « سبحانك » اعتراض بالتنزيه لله سبحانه وهو من أدب القرآن أن ينزّه الله بالتسبيح عند تنزيه كل منزّه .

والبهتان الافتراء سمي به لأنه يبهت الإنسان المفترى عليه وكونه بهتاناً عظيماً لأنه افتراء في عرض وخاصة إذ كان متعلقاً بالنبي ﷺ وإنما كان بهتاناً لكونه إخباراً من غير علم ودعوى من غير بيّنة كما تقدم في قوله : « فإذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون » ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً ﴾ الى آخر الآيتين ؛ موعظة بالنهي عن العود لمثله ، ومعنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الى آخر الآية ؛ إن كانت الآية نازلة في جملة آيات الإفك ومتصلة بما تقدمها وموردها الرمي بالزنا بغير بيّنة كان مضمونها تهديد الرامين المفيضين في الإفك لكونه فاحشة وإشاعته في المؤمنين حباً منهم لشيوع الفاحشة .

فالمراد بالفاحشة مطلق الفحشاء كالزنا والقذف وغير ذلك ، وحب شيوعها ومنها القذف في المؤمنين يستوجب عذاباً أليماً لمحبيه في الدنيا والآخرة .

وعلى هذا فلا موجب لحمل العذاب في الدنيا على الحد إذ حب شيوع الفحشاء ليس مما يوجب الحد ، نعم لو كان اللام في « الفاحشة » للعهد والمراد بها القذف وكان حب الشيوع

كناية عن قصد الشيوع بالإفاضة والتلقي بالألسن والنقل أمكن حمل العذاب على الحد لكن السياق لا يساعد عليه.

على أن الرمي بمجرد تحققه مرة موجب للحد ولا موجب لتقييده بقصد الشيوع ولا نكتة تستدعي ذلك.

وقوله: ﴿وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وإعظام لما فيه من سخط الله وغضبه وإن جهله الناس.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ تكراراً للامتنان ومعناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ تقدم تفسير الآية في الآية ٢٠٨ من سورة البقرة في الجزء الثاني من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ الى آخر الآية: رجوع بعد رجوع الى الإمتنان بالفضل والرحمة، لا يخلو هذا الإهتمام من تأييد لكون الإفك متعلقاً بالنبي ﷺ وليس إلا لكرامته على الله سبحانه.

وقد صرح في هذه المرة الثالثة بجواب لولا وهو قوله: «ما زكى منكم من أحد أبداً» وهذا مما يدل عليه العقل فإن مفيض الخير والسعادة هو الله سبحانه. والتعليم القرآني أيضاً يعطيه كما قال تعالى: ﴿بيدك الخير﴾ (آل عمران / ٢٦)، وقال: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ (النساء / ٧٩).

وقوله: ﴿وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يُزَكِّي مَنْ يَشٰاءُ وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ اضراب عما تقدمه فهو تعالى يزكي من يشاء فالأمر الى مشيئته، ولا يشاء إلا تزكية من استعد لها وسأله بلسان استعداده ذلك، واليه يشير قوله: «والله سميع عليم» أي سميع لسؤال من سأله التزكية عليم بحال من استعد لها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الخ: الايتلاء التقصير والترك والحلف. وكل من المعاني الثلاثة لا يخلو من مناسبة، والمعنى لا يقصر أُولو الفضل منكم والسعة يعني الأغنياء في إيتاء اولي القرابة والمساكين والمهاجرين في سبيل الله من مالهم أو لا يترك إيتاءهم أو لا يحلف أن لا يؤتيهم ـ وليعفوا عنهم وليصفحوا ـ ثم حرضهم بقوله: «ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم».

وفي الآية ـ على تقدير نزولها في جملة الآيات واتصالها بها ـ دلالة على أن بعض المؤمنين عزم على أن يقطع ماكان يؤتيه بعض أهل الإفك فنهاه الله عن ذلك وحثه على إدامة الإيتاء كما سيجيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإن كلاً من الإحصان بمعنى العفة والغفلة والإيمان سبب تام في كون الرمي ظلماً والرامي ظالماً والمرمية مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم، وجزاؤه اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم، والآية عامة وإن كان سبب نزولها لو نزلت في جملة آيات الإفك خاصاً.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة: «ولهم عذاب عظيم».

والمراد بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما يقتضيه إطلاقه مطلق الأعمال السيئة ـ كما قيل ـ لا خصوص الرمي بأن تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم على رميهم فالمراد بالشهادة شهادة الأعضاء على السيآت والمعاصي بحسب ما يناسبها فما كان منها من قبيل الأقوال كالقذف والكذب والغيبة ونحوها شهدت عليه الألسنة، وماكان منها من قبيل الأفعال

كالسرقة والمشي للنميمة والسعاية وغيرهما شهدت عليه بقية الأعضاء، وإذ كان معظم المعاصي من الأفعال للأيدي والأرجل اختصتا بالذكر.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ المراد بالدين الجزاء كما في قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ (الحمد / ٤)، وتوفية الشيء بذله تاماً كاملاً. والمعنى: يوم القيامة يؤتيهم الله جزاءهم الحق إيتاء تاماً كاملاً ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

هذا بالنظر الى اتصال الآيه بما قبلها ووقوعها في سياق ما تقدمها. وأما بالنظر الى استقلالها في نفسها فمن الممكن ان يراد بالدين ما يرادف الملة وهو سنة الحياة، وهو معنى عال يرجع الى ظهور الحقائق يوم القيامة للانسان. ويكون أكثر مناسبة لقوله: «ويعلمون أن الله هو الحق المبين».

والآية من غرر الآيات القرآنية تفسر معنى معرفة الله فإن قوله: «ويعلمون أن الله هو الحق المبين» ينبىء أنه تعالى هو الحق لا سترة عليه بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيات التي لا يتعلق بها جهل لكن البديهي ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفلة عنه الذي ربما يعبر عنه بالعلم، وهذا هو الذي يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أن الله هو الحق المبين.

والى مثله يشير قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (ق / ٢٢).

قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ الخ: ذيل الآية «اولئك مبرّؤن مما يقولون» دليل على أن المراد بالخبيثات والخبيثين والطيبات والطيبين نساء ورجال متلبسون بالخباثة والطيب فالآية من تمام آيات الافك متصلة بها مشاركة لها في سياقها، وهي عامة لا مخصص لها من جهة

اللفظ البتة.

فالمراد بالطيب الذي يوجب كونهم مبرّئين مما يقولون على ما تدلُّ عليه الآيات السابقة هو المعنى الذي يقتضيه تلبّسهم بالايمان والإحصان فالمؤمنون والمؤمنات مع الإحصان طيبون وطيبات يختص كل من الفريقين بصاحبه، وهم بحكم الايمان والإحصان مصونون مبرّؤن شرعاً من الرمي بغير بيّنة، محكومون من جهة إيمانهم بأن لهم مغفرة كما قال تعالى: ﴿ وآمِنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ (الأحقاف / ٣١) ولهم رزق كريم. وهو الحياة الطيبة في الدنيا والأجر الحسن في الآخرة كما قال: ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾ (النحل / ٩٧).

والمراد بالخبث في الخبيثين والخبيثات وهم غير المؤمنين هو الحال المستقذرة التي يوجبها لهم تلبُّسهم بالكفر وقد خصَّت خبيثاتهم بخبيثهم وخبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى المجانسة والمسانخة وليسوا بمبرّئين عن التبُّس بالفحشاء ـ نعم هذا ليس حكماً بالتلبُّس ـ[1].

٢٧ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

٢٨ ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ.

---

١. النور ١١ ـ ٢٦: بحث روائي في قضية الافك؛ النهي عن اشاعة الفاحشة.

٢٩ ۞ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ
لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ.

٣٠ ۞ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ
أَزْكىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ.

٣١ ۞ وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ
وَلاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ ما ظَهَرَ مِنْها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلىٰ
جُيُوبِهِنَّ وَلاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي
إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ
التّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ
يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْراتِ النِّساءِ وَلاٰ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما
يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللّٰهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

٣٢ ۞ وَأَنْكِحُوا الْأَيامىٰ مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ
يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللّٰهُ واسِعٌ عَلِيمٌ.

٣٣ ۞ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ نِكاحاً حَتّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللّٰهُ مِنْ
فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ
فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللّٰهِ الَّذِي
آتيٰكُمْ وَلاٰ تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً

لِتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلحَيٰوةِ الدُّنْيا وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللّٰهَ مِنْ بَعْدِ
إِكْرٰاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٣٤ ● وَلَقَدْ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ آيٰاتٍ مُبَيِّنٰاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ
قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَدْخُلُوا بُـيُوتاً غَـيْرَ بُـيُوتِكُمْ حَـتّٰى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلىٰ أَهْلِهٰا﴾ الخ: الانس بالشيء واليه الالفة وسكون القلب اليه، والاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدّي اليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر الله والتنحنح ونحو ذلك ليتنبّه صاحب البيت أن هناك من يريد الدخول عليه فيستعدّ لذلك فربما كان في حال لا يحب أن يراه عليها أحد أو يطّلع عليها مطّلع.

ومنه يظهر أن مصلحة هذا الحكم هو الستر على عورات الناس والتحفظ على كرامة الايمان فإذا استأنس الداخل عند إرادة الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلّم عليه فقد أعانه على ستر عورته، وأعطاه الأمن من نفسه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهٰا أَحَداً فَلاٰ تَدْخُلُوهٰا حَتّٰى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الخ: أي إن علمتم بعدم وجود أحد فيها ـ وهو الذي يملك الاذن ـ فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن، وليس المراد به أن يتطلع على البيت وينظر فيه فإن لم يرَ فيه أحداً كفّ عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع في الحقيقة عن النظر والإطّلاع على عورات الناس.

وهذه الآية تبين حكم دخول بيت الغير وليس فيه من يملك الاذن، والآية السابقة تبين حكم الدخول وفيه من يملك الإذن ولا يمنع، وأما دخوله وفيه من يملك الإذن ويمنع ولا يأذن فيه فيبين حكمه قوله تعالى: «وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم».

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ الخ: ظاهر السياق كون قوله: «فيها متاع لكم» صفة بعد صفة لقوله: «بيوتاً» لا جملة مستأنفة معلّلة لقوله: «ليس عليكم جناح». والظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع.

ففيه تجويز الدخول في بيوت معدّة لأنواع الاستمتاع وهي غير مسكونة بالطبع كالخانات والحمامات والأرحية ونحوها فإن كونها موضوعة للاستمتاع إذن عام في دخولها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ الغضّ إطباق الجفن على الجفن، والأبصار جمع بصر وهو العضو الناظر، ومن هنا يظهر أن «من» في «من أبصارهم» لابتداء الغاية لا مزيدة ولا للجنس ولا للتعبيض كما قال بكل قائل، والمعنى يأتوا بالغض آخذاً من أبصارهم.

فقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ لما كان «يغضّوا» مترتباً على قوله: «قل» ترتّب جواب الشرط عليه دلّ ذلك على كون القول بمعنى الأمر والمعنى مرهم يغضّوا من أبصارهم والتقدير مرهم بالغض إنك إن تأمرهم به يغضوا، والآية أمر بغض الأبصار وإن شئت فقل: نهي عن النظر الى ما لا يحل النظر اليه من الأجنبي الأجنبية لمكان الإطلاق.

وقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي ومرهم يحفظوا فروجهم، والفرجة والفرج الشق بين الشيئين، وكنّي به عن السوأة، وعلى ذلك جرى استعمال القرآن المليء في أدباً وخلقاً ثم كثر استعماله فيها حتى صار كالنص كما ذكره الراغب.

والمقابلة بين قوله: «يغضوا من أبصارهم» و«يحفظوا فروجهم» يعطي أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لا حفظها عن الزنا واللواطة كما قيل، وقد ورد في الرواية عن الصادق عليه السلام أن كل آية في القرآن في حفظ الفروج فهي من الزنا إلا هذه الآية فهي من النظر.

وعلى هذا يمكن أن تتقيد أولى الجملتين بثانيتها ويكون مدلول الآية هو النهي عن النظر الى الفروج والأمر بسترها.

ثم أشار الى وجه المصلحة في الحكم وحثتهم على المراقبة في جنبه بقوله: «ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون».

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ﴾ الخ: الكلام في قوله: «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن» نظير ما مر في قوله: «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا من فروجهم» فلا يجوز لهن النظر الى ما لا يجوز النظر اليه ويجب عليهن ستر العورة عن الأجنبي والاجنبية.

وأما قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ فالإبداء الإظهار، والمراد بزينتهن مواضع الزينة لأن نفس ما يتزين به كالقرط والسوار لا يحرم إبداؤها فالمراد بإبداء الزينة إبداء مواضعها من البدن.

وقد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر، وقد وردت الرواية أن المراد بما ظهر منها الوجه والكفان والقدمان كما سيجيء إن شاء الله.

وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ الخمر بضمتين جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها وينسدل على صدرها، والجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون وهو معروف والمراد بالجيوب الصدور، والمعنى وليلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها.

وقوله: ﴿وَلاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ لِبُعُولَتِهِنَّ ـ الى قوله ـ أَوْ بَنِي أَخَوٰاتِهِنَّ﴾ البعولة هم أزواجهن، والطوائف السبع الاخر محارمهن من جهة النسب والسبب. وأجداد البعولة حكمهم حكم آبائهم وأبناء أبناء البعولة حكمهم حكم الأبناء.

وقوله: ﴿أَوْ نِسٰائِهِنَّ﴾ في الاضافة إشارة الى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء، وقد وردت به الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقوله: ﴿أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُنَّ﴾ إطلاقه يشمل العبيد والإماء، وقد وردت به الرواية كما سيأتي إن شاء الله، وهذا من موارد استعمال «ما» في اولي العقل.

وقوله: ﴿أَوِ التّٰابِعِينَ غَيْرِ أُولِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجٰالِ﴾ الاربة هي الحاجة، والمراد به الشهوة التي تحوج الى الازدواج، و«من الرجال» بيان للتابعين، والمراد بهم كما تفسره الروايات البله المولى عليهم من الرجال ولا شهوة لهم.

وقوله: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْرٰاتِ النِّسٰاءِ﴾ أي جماعة الأطفال ـ واللام للاستغراق ـ الذين لم يقووا ولم يظهروا ـ من الظهور بمعنى الغلبة ـ على امور يسوء التصريح بها من النساء، وهو ـ كم قيل ـ كناية عن البلوغ.

وقوله: ﴿وَلاٰ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ذلك بتصوت أسباب الزينة كالخلخال والعقد والقرط والسوار.

وقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلىٰ اللّٰهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المراد بالتوبة ـ على ما يعطيه السياق ـ الرجوع اليه تعالى بامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه وبالجملة اتّباع سبيله.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا ٱلْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَالصّٰالِحِينَ مِنْ عِبٰادِكُمْ وَإِمٰائِكُمْ﴾ الإنكاح التزويج، والأيامى جمع أيم بفتح الهمزة وكسر الياء المشددة وهو الذكر الذي لا انثى معه والانثى التي لا ذكر معها وقد يقال في المرأة أيمة، والمراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا

الصالحون في الأعمال .

وقوله : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وعد جميل بالغنى وسعة الرزق وقد أكده بقوله : « والله واسع عليم » والرزق يتبع صلاحية المرزوق بمشية من الله سبحانه ، وسيوافيك إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ (الذاريات / ٢٣) كلام في معنى سعة الرزق .

قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الاستعفاف والتعفف قريبا المعنى ، والمراد بعدم وجدان النكاح عدم القدرة على المهر والنفقة . ومعنى الآية الأمر بالتعفف لمن لا يقدر على النكاح والتحرز عن الوقوع في الزنا حتى يغنيه الله من فضله .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ﴾ الخ : المراد بالكتاب المكاتبة ، وابتغاء المكاتبة أن يسأل العبد مولاه أن يكاتبه على إيتائه المولى ما لا على أن يعتقه ، وفي الآية أمر للموالي بإجابتهم إن علموا فيهم خيراً وهو كناية عن إحراز صلاحيتهم لذلك .

وقوله : ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ إشارة الى إيتائهم مال المكاتبة من الزكاة المفروضة فسهم من سهام الزكاة لهم ، كما قال تعالى : ﴿ وفي الرقاب ﴾ (التوبة / ٦٠) أو إسقاط شيء من مال المكاتبة .

وفي هذه الآية والآيات السابقة مباحث فقهية جمة ينبغي أن يراجع فيها كتب الفقه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ الفتيات الإماء والولائد ، والبغاء الزنا وهو مفاعلة من البغي ، والتحصن والتعفف والازدواج وابتغاء عرض الحياة الدنيا طلب المال ، والمعنى ظاهر .

وإنما اشترط النهي عن الإكراه بإرادة التحصن لأن الإكراه لا يتحقق فيمن لا يريد

التحصن، ثم وعدهن المغفرة على تقدير الإكراه بقوله: «ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم» ومعناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ المثل الصفة، ومن الممكن أن يكون قوله: «ولقد أنزلنا» الخ؛ حالاً من فاعل قوله: «توبوا» في الآية السابقة أو استينافاً والمعنى وأُقسم لقد أنزلنا اليكم آيات تبين لكم من معارف الدين ما تفلحون به، وصفة من السابقين أخيارهم وأشرارهم يتميز بها لكما ينبغي أن تأخذوا به مما ينبغي لكم أن يتجتنبوا، وموعظه للمتقين منكم[1].

٣٥ ● أَللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٣٦ ● فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ.

٣٧ ● رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلٰوةِ وَإِيتَاءِ الزَّكٰوةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ.

---

١. النور ٢٧ ـ ٣٤: بحث روائي حول الاستيناس؛ غض البصر؛ حد الحجاب.

٣٨ ❁ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

٣٩ ❁ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ.

٤٠ ❁ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَيهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرِيهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ.

٤١ ❁ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلوٰتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ.

٤٢ ❁ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ ٱلْمَصِيرُ.

٤٣ ❁ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ.

٤٤ ❁ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصَارِ.

٤٥ ❁ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ

يَخْلُقُ اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

٤٦ * لَقَدْ أَنْزَلْنٰا آيٰاتٍ مُبَيِّنٰاتٍ وَاللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية: المشكاة على ما ذكره الراغب وغيره: كوّة غير نافذة وهي ما يتخذ في جدار البيت من الكوّ لوضع بعض الأثاث كالمصباح وغيره عليه وهو غير الفانوس.

والدريّ: من الكواكب العظيم الكثير النور، وهو معدود في السماء. والإيقاد: الإشعال، والزيت: الدهن المتخذ من الزيتون.

وقوله: ﴿ٱللّٰهُ نُورُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النور معروف وهو الذي يظهر به الأجسام الكثيفة لأبصارنا فالأشياء ظاهرة به وهو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته فهو الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر. هذا أول ما وضع عليه لفظ النور ثم عمّم لكل ما ينكشف به شيء من المحسوسات على نحو الاستعارة أو الحقيقة الثانية فعدَّ كل من الحواس نوراً أو ذا نور يظهر به محسوساته كالسمع والشم والذوق واللمس. ثم عمّم لغير المحسوس فعدَّ العقل نواراً يظهر به المعقولات كل ذلك بتحليل معنى النور المبصر الى الظاهر بذاته المظهر لغيره.

وإذ كان وجود الشيء هو الذي يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقاً تاماً للنور، ثم لما كانت الأشياء الممكنة الوجود إنما هي موجودة بإيجاد الله تعالى كان هو المصداق الأتم للنور فهناك وجود ونور يتصف به الأشياء وهو وجودها ونورها المستعار المأخوذ منه تعالى ووجود ونور قائم بذاته يوجد ويستنير به الأشياء.

فهو سبحانه نور يظهر به السماوات والأرض. وهذا هو المراد بقوله: «الله نـور السماوات والأرض» حيث أُضيف النور الى السماوات والأرض ثم حمل على اسم الجلالة. وعلى هـذا ينبغي أن يحمل قول من قال: إن المعنى الله منوّر السماوات والأرض. وعمدة الغرض منه أن ليس المراد بالنور النور المستعار القائم بها وهو الوجود الذي يحمل عليها تعالى الله عن ذلك وتقدس.

ومن ذلك يستفاد أنه تعالى غير مجهول لشيء من الاشياء إذ ظهور كـل شيء لنـفسه أو لغيره إنما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله. والى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى بعد آيتين: «ألم ترَ أن الله يسبّح له من في السماوات والأرض والطير صافّات كـل قـد عـلم صلاته وتسبيحه» إذ لا معنى للتسبيح والعلم به وبالصلاة مع الجهل بمن يصلّون له ويسبّحونه فهو نظير قوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء / ٤٤)، وسيوافيك البحث عنه إن شاء الله.

فقد تحصّل أن المراد بالنور في قوله: «الله نور السماوات والأرض» نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العام الذي يستنير به كل شيء وهو مساو لوجود كل شيء وظهوره في نفسه ولغيره وهي الرحمة العامة.

وقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يصف تعالى نوره. وإضافة النور الى الضمير الراجع اليه تعالى ـ وظاهره الاضافة اللامية ـ دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذي هو الله بل النور المستعار الذي يفيضه. وليس هو النور العام المستعار الذي يظهر به كل شيء وهو الوجـود الذي يستفيضه منه الأشياء وتتصف به. والدليل عليه قوله بعد تتميم المثل: «يهدي الله لنوره من يشاء» إذ لو كان هو النور العم لم يختص به شيء دون شيء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقة الايمان على ما يفيده الكلام.

وقد نسب تعالى في سائر كلامه الى نفسه نوراً كما في قوله: ﴿يـريدون ليـطفؤا نـور الله

بأفواههم والله متم نوره﴾ (الصف / ٨)، وقوله: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (الأنعام / ١٢٢) وقوله: ﴿يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ (الحديد / ٢٨)، وقوله: ﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه﴾ (الزمر / ٢٢)، وهذا هو النور الذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به في طريقهم الى ربهم وهو نور الايمان والمعرفة.

وليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآية تصف حال عامة المؤمنين قبل نزول القرآن وبعده. على أن هذا النور وصف لهم يتصفون به كما يشير اليه قوله: ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ (الحديد / ١٩) وقوله: ﴿يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ (التحريم / ٨)، والقرآن ليس وصفاً لهم وإن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع الى ما قلناه.

وقوله: ﴿كَمِشْكٰوةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ الْمِصْبٰاحُ فِي زُجٰاجَةٍ﴾ المشبه به مجموع ما ذكر من قوله: «مشكاة فيها مصباح المصباح» الخ؛ لا مجرد المشكاة وإلا فسد المعنى، وهذا كثير في تمثيلات القرآن.

وقوله: ﴿الزُّجٰاجَةُ كَأَنَّهٰا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ تشبيه الزجاجة بالكوكب الدرّي من جهة ازدياد لمعان نور المصباح وشروقه بتركيب الزجاجة على المصباح فتزيد الشعلة بذلك سكوناً من غير اضطراب بتموج الأهوية وضرب الرياح فهي كالكوكب الدري في تلألؤ نورها وثبات شروقها.

وقوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبٰارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاٰ شَرْقِيَّةٍ وَلاٰ غَرْبِيَّةٍ يَكٰادُ زَيْتُهٰا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ﴾ خبر بعد خبر للمصباح أي المصباح يشتعل آخذاً اشتعاله من شجرة مباركة زيتونة أي إنه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها، والمراد بكون الشجرة لا شرقية ولا غربية أنها ليست نابتة في الجانب الشرقي ولا في الجانب الغربي حتى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار ويفيء الظل عليها في الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو

الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة بل هي ضاحية تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها.

والدليل على هذا المعنى قوله: «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار» فإن ظاهر السياق أن المراد به صفاء الدهن وكمال استعداده للاشتعال وأن ذلك متفرع على الوصفين: لا شرقية ولا غربية.

وقوله: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف وهو ضمير راجع الى نور الزجاجة المفهوم من السياق. والمعنى نور الزجاجة المذكور نور عظيم على نور كذلك أي في كمال التلمع.

والمراد من كون النور على النور قيل: هو تضاعف النور لا تعدّده فليس المراد به أنه نور معين أو غير معين فوق نور آخر مثله. ولا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل أنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه وهذا التعبير شائع في الكلام.

وهذا معنى لا يخلو من جودة وإن كان إرادة التعدّد أيضاً لا تخلو من لطف ودقة فإن للنور الشارق من المصباح نسبة اليه بالأصالة والحقيقة ونسبة الى الزجاجة التي عليه بالاستعارة والمجاز، ويتغاير النور بتغاير النسبتين ويتعدّد بتعدّدهما وإن لم يكن بحسب الحقيقة إلا للمصباح والزجاجة صفر الكف منه فللزجاجة بالنظر الى تعدُّد النسب نور غير نور المصباح وهو قائم به ومستمد منه.

وهذا الاعتبار جار بعينه في الممثل له فإن نور الايمان والمعرفة نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه.

فقد تحصل أن الممثل له هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين والمثل هو المشبّه به النور المشرق من زجاجة على مصباح موقد من زيت جيّد صاف وهو موضوع في مشكاة فإن نور المصباح المشرق من الزجاجة والمشكاة تجمعه وتعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم في

نهاية القوة والجودة.

فأخذ المشكاة للدلالة على اجتماع النور في بطن المشكاة وانعكاسه الى جو البيت. واعتبار كون الدهن من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية للدلالة على صفاء الدهن وجودته المؤثر في صفاء النور المشرق عن اشتعاله وجودة الضياء على ما يدل عليه كون زيته يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار. واعتبار كون النور على النور للدلالة على تضاعف النور أو كون الزجاجة مستمدة من نور المصباح في إنارتها.

وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ استئناف يعلل به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان والمعرفة وحرمان غيرهم، فمن المعلوم من السياق أن المراد بقوله: «من يشاء» القوم الذين ذكرهم بقوله بعد: «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» الخ؛ فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم.

والمعنى: أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان الى نوره دون المتلبسين بالكفر ـ الذين سيذكرهم بعد ـ لمجرّد مشيئته، وليس المعنى أن الله يهدي بعض الأفراد الى نوره دون بعض بمشيته ذلك يحتاج في تتميمه الى القول بأنه إنما يشاء الهداية إذا استعد المحل الى الهداية بحسن السريرة والسيرة، وذلك مما يختص به أهل الإيمان دون أهل الكفر فافهمه.

والدليل على ذلك ما سيأتي من قوله: «ولله ملك السماوات والأرض» الى آخر الآيات؛ بالبيان الآتي إن شاء الله.

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة الى أن المثل المضروب تحته طور من العلم. وإنما اختير المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق والدقائق ويشترك فيه العالم والعامي فيأخذ منه كل ما قسم له. قال تعالى: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾** (العنكبوت / ٤٣).

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ﴾ الإذن في الشيء

هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله . والمراد بالرفع رفع القدر والمنزلة وهو التعظيم . وإذ كانت العظمة والعلوّ لله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره إلا أن ينتسب اليه . وبمقدار ما ينتسب اليه فالإذن منه تعالى في أن ترفع هذه البيوت إنما هو لانتساب ما منها اليه .

وبذلك يظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف عليه من ذكر اسمه فيها . والسياق يدل على الاستمرار أو التهيوء له فيعود المعنى الى مثل قولنا « أن يذكر فيها اسم فيرتفع قدرها بذلك » .

وقوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلق بقوله في الآية السابقة : « كمشكاة » أو قوله : « يهدي الله » الخ ؛ والمآل واحد . ومن المتيقن من هذه البيوت المساجد فإنها معدة لذكر اسمه فيها ممحضة لذلك . وقد قال تعالى : ﴿ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ (الحج / ٤٠) .

قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ الى آخر الآية : تسبيحه تعالى تنزيهه عن كل ما لا يليق بساحة قدسه . والغدو جمع غداة وهو الصبح والآصال جمع أصيل وهو العصر . والإلهاء صرف الإنسان عما يعنيه ويهمه . والتجارة على ما قاله الراغب : التصرف في رأس المال طلباً للربح . قال : وليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ . والبيع على ما قال : إعطاء المثمن أخذ الثمن . وقلب الشيء على ما ذكره صرف الشيء من وجه الى وجه . والتقليب مبارغة فيه والتقلب قبوله فتقلب القلوب والأبصار تحوّل منها من وجه من الإدراك الى وجه آخر .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ صفة لبيوت أو استئناف لبيان قوله : « ويذكر فيها اسمه » . وكون التسبيح بالغدو والآصال كناية عن استمرارهم فيه لا أن التسبيح مقصور في الوقتين لا يسبّح له في غيرهما .

والاكتفاء بالتسبيح من غير ذكر التحميد معه لأنه تعالى معلوم بجميع صفاته الكمالية لا سترة عليه إذ المفروض أنه نور والنور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره وإنما يحتاج خلوص

المعرفة الى نفي النقائص عنه وتنزيهه عما لا يليق به فإذا تمّ التسبيح لم يبق معه غيره وتمّت المعرفة ثم إذا تمت المعرفة وقع الثناء والحمد وبالجملة التوصيف بصفات الكمال موقعه بعد حصول المعرفة كما قال تعالى: ﴿ **سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين** ﴾ (الصافات / ١٦٠). فنزّهه عما يصفونه به إلا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده، وقد تقدم في تفسير سورة الحمد كلام في معنى حمده تعالى.

وبيان آخر حمده تعالى وهو ثناؤه بصفة الكمال مساوق لحصول نور المعرفة وتسبيحه وهو التنزيه بنفي ما لا يليق به عنه مقدّمة لحصوله. والآية في مقام بيان خصالهم التي تستدعي هدايتهم الى نوره فلا جرم اقتصر فيها بذكر ما هي المقدمة وهو التسبيح، فافهم ذلك.

وقوله: ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ ﴾ التجارة إذا قوبلت بالبيع كان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار في الاكتساب بالبيع والشراء والبيع هو العمل الاكتسابي الدفعي فالفرق بينهما هو الفرق بين الدفعة والاستمرار فمعنى نفي البيع بعد نفي التجارة مع كونه منفياً بنفيها الدلالة على أنهم لا يُلهون عن ربهم في مكاسبهم دائماً ولا في وقت من الأوقات، وبعبارة اخرى لا تنسيهم ربهم تجارة مستمرة ولا بيع ما من البيوع التي يوقعونها مدة تجارتهم.

وقيل: الوجه في نفي البيع بعد نفي إلهاء التجارة أن الربح في البيع ناجز بالفعل بخلاف التجارة التي هي الحرفة، فعدم إلهاء التجارة لا يستلزم عدم إلهاء البيع الرابح بالفعل، ولذلك نفى البيع ثانياً بعد نفي إلهاء التجارة ولذلك كرّرت لفظة «لا» لتذكير النفي وتأكيده. وهو وجه حسن.

وقوله: ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ ﴾ الاقام هو الاقامة بحذف التاء تخفيفاً.

والمراد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة الإتيان بجميع الأعمال الصالحة التي كلّف الله تعالى عباده بإتيانها في حياتهم الدنيا . وإقامة الصلاة ممثلة لإتيان ما للعبد من وظائف العبودية مع الله سبحانه . وإيتاء الزكاة ممثل لوظائفه مع الخلق وذلك لكون كل منها ركناً في بابه .

والمقابلة بين ذكر الله وبين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما ـ وخاصة الصلاة ـ من ذكر الله يعطي أن يكون المراد بذكر الله الذكر القلبي الذي يقابل النسيان والغفلة وهو ذكر علمي كما أن أمثال الصلاة والزكاة ذكر عملي .

فالمقابلة المذكورة تعطي أن المراد بقوله : « عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » أنهم لا يشتغلون بشيء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم وذكرهم الموقت بأعمالهم من الصلاة والزكاة . وعند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجارة والبيع وبين ذكر الله وإقام الصلاة . الخ . لرجوع المعنى الى أنهم لا يلهيهم مُلهٍ مستمر ولا موقت عن الذكر المستمر والموقت . فافهم ذلك .

وقوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ ﴾ هذا هو يوم القيامة . والمراد بالقلوب والأبصار ما يعمّ قلوب المؤمنين والكافرين وأبصارهم لكون القلوب والأبصار جمعاً محلّى باللام وهو يفيد العموم .

وأما تقلّب القلوب والأبصار فالآيات الواصفة لشأن يوم القيامة تدل على أنه بظهور حقيقة الأمر وانكشاف الغطاء كما قال تعالى : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ (ق / ٢٢) . وقال : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ (الزمر / ٤٧) . الى غير ذلك من الآيات .

فتنصرف القلوب والأبصار يومئذ عن المشاهدة والرؤية الدنيوية الشاغلة عن الله الساترة للحق والحقيقة الى سنخ آخر من المشاهدة والرؤية وهو الرؤية بنور الايمان والمعرفة فيتبصر المؤمن بنور ربه وهو نور الإيمان والمعرفة فينظر الى كرامة الله . ويعمى الكافر ولا يجد

إلا ما يسوؤه قال تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ (الزمر / ٦٩) وقال: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ (الحديد / ١٢)، وقال: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ (الإسراء / ٧٢)، وقال: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ (القيامة / ٢٣) وقال: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين / ١٥).

وقد تبين بما مر:

أولاً: وجه اختصاص هذه الصفة أعني تقلب القلوب والأبصار من بين أوصاف يوم القيامة بالذكر وذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به الى هدايته تعالى الى نوره وهو نور الإيمان والمعرفة الذي يستضاء به يوم القيامة ويبصّر به.

وثانياً: أن المراد بالقلوب والأبصار النفوس وبصائرها.

وثالثاً: أن توصيف اليوم بقوله: «تتقلب فيه القلوب والأبصار» لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب والأبصار، وإنما يخافون هذا التقلب لما في أحد شقيه من الحرمان من نور الله والنظر الى كرامته وهو الشقاء الدائم والعذاب الخالد وفي الحقيقة يخافون أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الظاهر أن لام «ليجزيهم» للغاية، والذي ذكره الله في خلال الكلام هو أعمالهم الصالحة والأجر الجميل على كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالى فقوله: إنه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزيهم بإزاء عملهم في كل باب جزاء أحسن عمل في ذلك الباب، ومرجع ذلك الى أنه تعالى يزكي أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذة في جهات توجب نقصها وانحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن.

ويؤيد هذا المعنى قوله في ذيل الآية: «والله يرزق من يشاء بغير حساب» فإن ظاهره عدم

المداقة في حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فيلحق الحسن بالأحسن.

وقوله: ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الفضل العطاء، وهذا نص في أنه تعالى يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحة، وأوضح منه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد ﴾ (ق / ٣٥)، حيث إن ظاهره أن هذا المزيد الموعود أمر وراء ما تتعلق به مشيتهم.

وقد دل كلامه سبحانه أن أجرهم أن لهم ما يشاؤن قال تعالى: ﴿ أُولئك هم المتقون لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾ (الزمر / ٣٤)، وقال: ﴿ أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً لهم فيها ما يشاؤن خالدين ﴾ (الفرقان / ١٦)، وقال: ﴿ لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزي الله المتقين ﴾ (النحل / ٣١).

فهذا المزيد الذي هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلى وأعظم من أن تتعلق به مشية الإنسان أو يوصل اليه سعيه، وهذا أعجب ما يعده القرآن المؤمنين ويبشرّهم به فأجد التدبر فيه.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ استئناف مآله تعليل الجملتين السابقتين بالمشية نظير قوله فيما تقدم: «يهدي الله لنوره من يشاء» على ما مر بيانه.

ومحصله أنهم عملوا صالحاً وكان لهم من الأجر ما يعادل عملهم كما هو ظاهر قوله: ﴿ وتوفّى كلُّ نفس ما عملت ﴾ (النحل / ١١١)، وما في معناه من الآيات لكنه تعالى يجزيهم بكل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل يؤتى به في بابه من غير أن يداق في الحساب فهذه موهبة ثم يرزقهم أمراً هو أعلى وأرفع من أن تتعلق به مشيتهم وهذه أيضاً موهبة ورزق بغير حساب، والرزق من الله موهبة محضة من غير أن يملك المرزوقون منه شيئاً أو يستحقوه عليه تعالى فله تعالى أن يخص منه ما يشاء لمن يشاء.

غير أنه تعالى وعدهم الرزق وأقسم على إنجازه في قوله: ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ (الذاريات / ٢٣)، فملكهم الاستحقاق لأصله وهو الذي يجزيهم به على قدر أعمالهم

وأما الزائد عليه فلم يملكهم ذلك فله أن يختص به من يشاء فلا يعلل ذلك إلا بمشية . وللكلام تتمة ستوافيك إن شاء الله في بحث مستقل .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ الى آخر الآية ؛ السراب هو ما يلمع في المفازة كالماء ولا حقيقة له ، والقيع والقاع هو المستوي من الأرض ومفرداهما القيعة والقاعة كالتينة والتمرة ، والظمآن هو العطشان .

لما ذكر سبحانه المؤمنين ووصفهم بأنهم ذاكرون له في بيوت معظمة لا تلهيهم عنه تجارة ولا بيع ، وأن الله الذي هو نور السماوات والأرض يهديهم الى نوره فيكرمهم بنور معرفته قابل ذلك بذكر الذين كفروا فوصف أعمالهم تارة بأنها لا حقيقة لها كسراب بقيعة فلا غاية لها تنتهي اليها ، وتارة بأنها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها وهي حاجز عن النور ، وهذه الآية هي التي تتضمن الوصف الأول .

فقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ شبّه أعمالهم ـ وهي التي يأتون بها من قرابين وأذكار وغيرهما من عباداتهم يتقربون بها الى آلهتهم ـ بسراب بقيعة يحسبه الانسان ماء ولا حقيقة له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش وغير ذلك .

وإنما قيل : يحسبه الظمآن ماء مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء لأن المطلوب بيان سيره اليه ولا يسيره اليه إلا الظمآن يدفعه اليه ما به من ظماء ، ولذلك رتب عليه قوله : « حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً » كأنه قيل : كسراب بقيعه يتخيله الظمآن ماء فيسير اليه ويقبل نحوه ليرتوي ويرفع عطشه به ، ولا يزال يسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

والتعبير بقوله : « جاءه » دون أن يقال : بلغه أو وصل اليه أو انتهى اليه ونحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه وينتظره انتظاراً وهو الله سبحانه . ولذلك أردفه بقوله : « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم

وجبلتهم وهو السعادة التي يريدها كل إنسان بفطرته وجبلته لكن أعمالهم لا توصلهم اليه، ولا أن الآلهة يبتغون بأعمالهم جزاء حسناً منهم لهم حقيقة بل الذي ينتهي اليه أعمالهم ويحيط هو بها ويجزيهم هو الله سبحانه فيوفيهم حسابهم، وتوفية الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجبه حساب الأعمال وإيصال ما يستحقه صاحب الأعمال.

ففي الآية تشبيه أعمالهم بالسراب، وتشبيههم بالظمآن يريد الماء وعنده عذب الماء لكنه يعرض ولا يصغي الى مولاه الذي ينصحه ويدعوه الى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير اليه ويقبل نحوه، وتشبيه مصيرهم الى الله سبحانه بحلول الآجال وعند ذلك تمام الأعمال بالظمآن السائر الى السراب إذا جاءه وعنده مولاه الذي كان ينصحه ويدعوه الى شرب الماء.

فهؤلاء قوم أُلهوا عن ذكر ربهم والأعمال الصالحة الهادية الى نوره وفيه سعادتهم وحسبوا أن سعادتهم عند غيره من الآلهة الذين يدعونهم، والأعمال المقربة اليهم وفيها سعادتهم فأكبوا على تلك الأعمال السرابية واستوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مدة أعمارهم حتى حلت آجالهم وشارفوا الدار الآخرة فلم يجدوا شيئاً مما يؤملونه من أعمالهم ولا أثراً من أُلوهية آلهتهم فوفاهم الله حسابهم والله سريع الحساب.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إنما هو لاحاطة علمه بالقليل والكثير والحقير والخطير والدقيق والجليل والمتقدم والمتأخر على حد سواء.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَيٰهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ تشبيه ثان لأعمالهم يظهر به أنها حجب متراكمة على قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفة، وقد تكرر في كلامه تعالى أنهم في الظلمات كقوله: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (البقرة / ٢٥٧)، ﴿كمن مثله في الظلمات ليست بخارج منها﴾ (الأنعام / ١٢٢)، وقوله: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون

كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين / ١٥).

وقوله: «أو كظلمات في بحر لجيّ» معطوف على «سراب» في الآية السابقة، والبحر اللجّي هو البحر المتردّد أمواجه منسوب الى لجّة البحر وهي تردّد أمواجه. والمعنى: أعمالهم كظلمات كائنة في بحر لجيّ.

وقوله: «يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب» صفة البحر جيء بها لتقرير الظلمات المفروضة فيه فصفته أنه يغشاه ويحيط به موج كائن من فوقه موج آخر كائن من فوقه سحاب يحجبنه جميعاً من الاستضاءة بأضواء الشمس والقمر والنجوم.

وقوله: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ تقرير لبيان أن المراد بالظلمات المفروضة الظلمات المتراكمة بعضها على بعض دون المتفرقة. وقد أكد ذلك بقوله: «إذا أخرج يده لم يكد يراها» فإن أقرب ما يشاهده الإنسان منه هو نفسه وهو أقدر على رؤية يده منه على سائر أعضائه لأنه يقرّبها تجاه باصرته كيفما أراد فإذا أخرج يده ولم يكد يراها كانت الظلمة بالغة.

فهؤلاء وهم سائرون الى الله وصائرون اليه من جهة أعمالهم كراكب بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب في ظلمات متراكمة كأشد ما يكون ولا نور هناك يستضيء به فيهتدي الى ساحل النجاة.

وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ نفي للنور عنهم بأن الله لم يجعله لهم، كيف لا؟ وجاعل النور هو الله الذي هو نور كل شيء، فإذا لم يجعل لشيء نوراً لم يكن له نور إذ لا جاعل غيره تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ الى آخر الآية: لما ذكر سبحانه أنه نور تستنير به السماوات والأرض وأنه يختص بمزيد نوره المؤمنين من عباده والذين كفروا لا نصيب لهم من ذلك شرع يحتج على ذلك بما في

هذه الآية والآيات الأربع التالية لها.

فكونه تعالى نور السماوات والأرض يدلُّ عليه أن ما في السماوات والأرض موجود بوجود ليس من عنده ولا من عند شيء مما فيهما لكونه مثله في الفاقة، فوجود ما فيهما من موجود من الله الذي ينتهي اليه الحاجات.

فوجود كل شيء مما فيهما كما يظهر به نفس الوجود يدل على من يظهره بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشيء ويدل على منوّره بما أشرق عليه من النور وأن هناك نوراً يستنير به كل شيء فكل شيء مما فيهما يدل على أن وراءه شيئاً منزّهاً من الظلمة التي غشيته، والفاقة التي لزمته، والنقص الذي لا ينفك عنه، وهذا هو تسبيح ما في السماوات والأرض له سبحانه، ولازمه نفي الاستقلال عن كل من سواه وسلب أي إله ورب يدبر الأمر دونه تعالى.

والى ذلك يشير قوله: «ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه» وبه يحتج تعالى على كونه نور السماوات والأرض لأن النور هو ما يظهر به الشيء المستنير ثم يدل بظهوره على مظهره، وهو تعالى يظهر ويوجد بإظهاره وإيجاده الأشياء ثم يدل على ظهوره ووجوده.

وتزيد الآية بالإشارة الى لطائف يكمل بها البيان:

منها: اختصاصها من في السماوات والأرض والطير صافات وهم العقلاء وبعض ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله: «وإن من شيء إلا يسبّح بحمده».

ولعلّ ذلك من باب اختيار أُمور من أعاجيب الخلقة للذكر فإن ظهور الموجود العاقل الذي يدل عليه لفظ «من السماوات والأرض» من عجيب أمر الخلقة الذي يدهش لبّ ذي اللب، كما أن صفيف الطير الصافّات في الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذي الشعور وأبدعه.

ويظهر من بعضهم أن المراد بقوله: «من في السماوات» الخ؛ جميع الأشياء وإنما عبّر بلفظ أُولي العقل لكون التسبيح المنسوب اليها من شؤن أُولي العقل أو للتنبيه على قوة تلك الدلالة ووضوح تلك الإشارة تنزيلاً للسان الحال منزلة المقال.

وفيه أنه لا يلائم إسناد العلم اليها في قوله بعد: «كلّ قد علم صلاته وتسبيحه».

ومنها: تصدير الكلام بقوله: «ألم ترَ» وفيه دلالة على ظهور تسبيحهم ووضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذو ريب فكثيراً ما يعبّر عن العلم الجازم بالرؤية كما في قوله تعالى: ﴿ألم ترَ أن الله خلق السماوات والأرض﴾ (إبراهيم / ١٩)، والخطاب فيه عام لكل ذي عقل وإن كان خاصاً بحسب اللفظ.

ومن الممكن أن يكون خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ وقد كان أراه الله تسبيح من في السماوات والأرض والطير صافّات فيما أراه من ملكوت السماوات والأرض وليس ببدع منه ﷺ وقد أرى الناس تسبيح الحصاة في كفه كما وردت به الأخبار المعتبرة.

ومنها: أن الآية تعمّم العلم لكل ما ذكر في السماوات والأرض والطير، وقد تقدم بعض البحث عنه في تفسير قوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء / ٤٤)، وستجيء تتمة الكلام فيه في تفسيرة سوة حم السجدة إن شاء الله.

وقول بعضهم: إن الضمير في قوله: «قد علم» راجع اليه تعالى، يدفعه عدم ملائمته للسياق وخاصة لقوله بعده: «والله عليم بما يفعلون» ونظيره قول آخرين: إن إسناد العلم الى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزلة العالم لقوة دلالته على تسبيحه وتنزيهه.

ومنها: تخصيصها التسبيح بالذكر مع أن الأشياء تشير الى صفات كماله تعالى وهو التحميد كما تسبّحه على ما يدل عليه البرهان ويؤيده قوله: «وإن من شيء إلا يسبّح بحمده» ولعل الوجه فيه كون الآيات مسوقة للتوحيد ونفي الشركاء وذلك بالتنزيه أمسّ فإن من يدعو من

دون الله إلهاً آخر أو يركن إلى غيره نوعاً من الركون إنما يكفر بإثبات خصوصية وجود ذلك الشيء للإله تعالى فنفيه إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه.

وأما قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَوٰتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ فصلاته دعاؤه والدعاء توجيه من الداعي للمدعو إلى حاجته ففيه دلالة على حاجة عند الداعي المدعو في غنى عنها فهو أقرب إلى الدلالة على التنزيه منه على الثناء والتحميد.

ومنها: أن الآية تنسب التسبيح والعلم به إلى من في السماوات والأرض فيعمّ المؤمن والكافر، ويظهر بذلك أن هناك نورين: نور عام يعم الأشياء والمؤمن والكافر فيه سواء، وإلى ذلك تشير آيات كآية الذر ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ (الأعراف / ١٧٢)، وقوله: ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (ق / ٢٢) إلى غير ذلك. ونور خاص وهو الذي تذكره الآيات ويختص بأوليائه من المؤمنين.

فالنور الذي ينوّر تعالى به خلقه كالرحمة التي يرحمهم بها قسمان: عام وخاص وقد قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ (الأعراف / ١٥٦)، وقوله: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ (الجاثية / ٣٠)، وقد جمع بينهما في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً﴾ (الحديد / ٢٨)، وما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء الثاني من كفلي الرحمة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ومن فعلهم تسبيحهم له سبحانه، وهذا التسبيح وإن كان في بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسبيح يجوز أن يعدّ فعلاً لهم بهذه العناية.

وفي ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسبيحهم ترغيب للمؤمنين وشكر لهم بأن ربهم يعلم ذلك وسيجزيهم جزاء حسناً، وإيذان بتمام الحجة على الكافرين. فإن من مراتب

علمه تعالى كتب الأعمال والكتاب المبين التي تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسبيحهم بوجودهم ثم إنكارهم بألسنتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ سياق الآية وقد وقعت بين قوله: «ألم تر أن الله يسبح له» الخ: وهو احتجاج على شمول نوره العام لكل شيء، وبين قوله: «ألم تر أن الله يزجي» الخ: وما يتعقبه وهو احتجاج على اختصاص النور الخاص، يعطي أنها كالمتوسط بين القبيلين أعني بين الأمرين يحتج بها على كليهما، فملكه تعاى لكل شيء وكونه مصيراً لها هو دليل على تعميمه نوره لعام وتخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

فقوله: «ولله ملك السماوات والأرض» يخص الملك ويقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ولازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكل شيء، وإذ كان لا مليك إلا هو واليه مرجع كل شيء ومصيره فله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ومن هنا يظهر أن المراد ـ والله أعلم ـ بقوله: «وإلى الله المصير» مرجعيته تعالى في الامور دون المعاد نظير قوله: ﴿ألا إلى الله تصير الامور﴾ (الشورى / ٥٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ إلى آخر الآية: الإزجاء هو الدفع، والركام المتراكم بعضه على بعض، والودق هو المطر، والخلال جمع الخلل وهو الفرجة بين الشيئين.

والخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع، والمعنى: ألم تر أنت وكل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحاباً متفرقاً ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكماً بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله وفرجه فينزل على الأرض.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ

وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ السماء جهة العلو، وقوله: «من جبال فيها» بيان للسماء. والجبال جمع جبل وهو معروف، وقوله: «من برد» بيان للجبال. والبرد قطعات الجمد النازل من السماء، وكونه جبالاً فيها كناية عن كثرته وتراكمه، والسنا بالقصر الضوء.

والكلام معطوف على قوله: «يزجي»، والمعنى: ألم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع والبساتين وربما قتل النفوس والمواشي ويصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالأبصار.

والآية ـ على ما يعطيه السياق ـ مسوقة لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره، والمعنى: أن الأمر في ذلك الى مشيّته تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزّل من السماء مطراً فيه منافع الناس لنفوسهم ومواشيهم ومزرعهم وبساتينهم، وإذا شاء نزّل برداً فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء.

قوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ بيان آخر لرجوع الأمر الى مشيّته تعالى فقط. وتقليب الليل والنهار تصريفهما بتبديل أحدهما من الآخر، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ بيان آخر لرجوع الأمر الى مشيّته تعالى محضاً حيث يخلق كل دابة من ماء ثم تختلف حالهم في المشي فمنهم من يمشي على بطنه كالحيّات والديدان، ومنهم من يمشي على رجلين كالأناسي والطيور ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم والسباع، واقتصر سبحانه على هذه الأنواع الثلاثة ـ وفيهم غير ذلك ـ إيجازاً لحصول الغرض بهذا المقدار.

وقوله: ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب، مع وحدة المادة

التي خلقت منها يبين أن الأمر الى مشية الله محضاً فله أن يعمم فيضاً من فيوضه على جميع خلقه كالنور العام والرحمة العامة، وله أن يختص بفيض من فيوضه بعضاً من خلقه دون بعض كالنور الخاص والرحمة الخاصة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لقوله: «يخلق الله ما يشاء» فإن إطلاق القدرة على كل شيء يستوجب أن لا يتوقف شيء من الأشياء في كينونته على أمر وراء مشيته وإلا كانت قدرته عليه مشروطة بحصول ذلك الأمر وهذا خلف. وهذا باب من التوحيد دقيق سيتضح بعض الاتضاح إن شاء الله بما في البحث الآتي[1].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يريد آية النور وما يتلوها المبينة لصفة نوره تعالى والصراط المستقيم سبيله التي لا سبيل للغضب والضلال الى من اهتدى اليها كما قال: ﴿إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ (الحمد / ٧)، وقد تقدم الكلام فيه في تفسيره سورة الحمد.

وتذييل الآية بقوله: «والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم» هو الموجب لعدم تقييد قوله: «لقد أنزلنا آيات مبينات» بلفظة اليكم بخلاف قوله قبل آيات: «لقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين».

إذ لو قيل: لقد أنزلنا اليكم آيات مبينات والله يهدي. تبادر إلى الذهن أن البيان اللفظي هداية الى الصراط المستقيم وأن المخاطبين عامة مهديّون إلى الصراط المستقيم وفيهم المنافق والذين في قلوبهم مرض والله العالم[2].

---

١. النور ٣٥ـ٤٦: بحث فلسفي في الارتباط الوجودي بين كل شيء وبين علله الممكنة.

٢. النور ٣٥ـ٤٦: بحث روائي حول قوله تعالى: «الله نور السماوات والارض»: معنى النور.

٤٧ ❁ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ.

٤٨ ❁ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ
مُعْرِضُونَ.

٤٩ ❁ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ.

٥٠ ❁ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

٥١ ❁ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.

٥٢ ❁ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
ٱلْفَائِزُونَ.

٥٣ ❁ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا
تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

٥٤ ❁ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا
حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ.

٥٥ ❁ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ
فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاٰ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ.

٥٦ ❁ وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

٥٧ ❁ لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوٰيهُمُ النّٰارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنٰا ثُمَّ يَتَوَلّٰى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ الخ: بيان حال بعض المنافقين حيث أظهروا الايمان والطاعة أولاً ثم تولوا ثانياً فالايمان بالله هو العقد على توحيده وما شرع من الدين. والايمان بالرسول هو العقد على كونه رسولا مبعوثاً من عند ربه أمره أمره ونهيه نهيه وحكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شيء. وطاعة الله هي تطبيق العمل بما شرعه. وطاعة الرسول الايتمار والإنتهاء عند أمره ونهيه وقبول ما حكم به وقضى عليه.

فالايمان بالله وطاعته موردهما نفس الدين والتشرّع به، والايمان بالرسول وطاعته موردهما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به وما حكم به وقضى عليه في المنازعات والانقياد له في ذلك كله.

فبين الايمانين والطاعتين فرق ما من حيث سعة المورد وضيقه. ويشير الى ذلك ما في العبارة من نوع من التفصيل حيث قيل «آمنّا بالله وبالرسول» فاشير إلى تعدُّد الايمان

والطاعة ولم يقل: آمنا بالله والرسول بحذف الباء. والإيمانان مع ذلك متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، قال تعالى: ﴿ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله﴾ (النساء / ١٥٠).

فقوله: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي عقدنا القلوب على دين الله وتشرّعنا به وعلى أن الرسول لا يخبر إلا بالحق ولا يحكم إلا بالحق.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي ثم يعرض طائفة من هؤلاء القائلين «آمنا بالله وبالرسول وأطعنا» عن مقتضى قولهم من بعدما قالوا ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس أُولئك القائلون بالمؤمنون، والمشار اليه باسم الإشارة القائلون جميعاً لا خصوص الفريق المتولّين على ما يعطيه السياق لأن الكلام مسوق لذمّ الجميع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يشهد سياق الآية أن الآيات إنما نزلت في بعض من المنافقين دعوا الى حكم النبي ﷺ في منازعة وقعت بينه وبين غيره فأبى الرجوع الى النبي ﷺ وفي ذلك نزلت الآيات.

والنبي ﷺ إنما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى: ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ (النساء / ١٠٥). فللحكم نسبة اليه بالمباشرة ونسبة الى الله سبحانه من حيث كان الحكم في ضوء شريعته وبنصبه النبي ﷺ للحكم والقضاء.

وبذلك يظهر أن المرد بالدعوة الى الله ليحكم بينهم هي الدعوة الى المتابعة لما يقتضيه شرعه تعالى في مورد النزاع، وبالدعوة إلى رسوله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى متابعة ما يقضي عليه بالمباشرة، وأن الظاهر أن ضمير «ليحكم» للرسول. وإنما أفرد الفاعل ولم يثنّ إشارة إلى أن حكم الرسول حكمه تعالى.

والآية بالنسبة إلى الآية السابقة كالخاص بالنسبة إلى العام فهي تقصّ إعراضنا معيّناً منهم والاعراض المذكور في الآية السابقة منهم إعراض مطلق.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ الإذعان الإنقياد، وظاهر السياق وخاصة قوله: «يأتوا اليه» أن المراد بالحق حكم الرسول بدعوى أنه حتى لا ينفك عنه، والمعنى وإن يكن الحق الذي هو حكم الرسول لهم لا عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلا لكونه عليهم لا لهم، ولازم ذلك أنهم يتّبعون الهوى ولا يريدون اتّباع الحق.

قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ الى آخر الآية: الحيف الجور.

وظاهر سياق الآيات أن المراد بمرض القلوب ضعف الايمان كما في قوله تعالى: ﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ (الأحزاب / ٣٢)، وقوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينه لنغرينك بهم﴾ (الأحزاب / ٦٠)، وغير ذلك من الآيات.

وأما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسّر به فيدفعه قوله في صدر الايات: «وما أُولئك بالمؤمنين» فإنه حكم بنفاقهم، ولا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله: «بل أُولئك هم الظالمون».

وقوله: ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ ظاهر إطلاق الإرتياب وهو الشكُّ أن يكون المراد هو شكهم في دينهم بعد الإيمان دون الشك في صلاحية النبي ﷺ للحكم أو عدله ونحوه ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجة الى بيان بنصب قرينة.

وقوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي أم يعرضون عن ذلك لأنهم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله لكون الشريعة الإلهية التي يتبعها حكم النبي ﷺ

مبنيّة على الجور وإماتة الحقوق الحقة، أو لكون النبي ﷺ لا يراعي الحق في قضائه.

وقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إضراب عن الترديد السابق بشقوقه الثلاثة وذلك أن سبب إعراضهم لو كان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا اليه مذعنين على تقدير كون الحق لهم بل كانوا يعرضون كان الحق لهم أو عليهم، وأما الخوف من أن يحيف الله عليهم ورسوله فلا موجب له فالله بري من الحيف ورسوله فليس إعراضهم عن إجابة الدعوة إلى حكم الله ورسوله إلا لكونهم حق عليهم أنهم ظالمون.

والظاهر أن المراد بالظلم التعدي عن طور الايمان مع الاقرار به قولا كما قال آنفا: «وما أُولئك بالمؤمنين» أو خصوص التعدي الى الحقوق غير المالية، ولو كان المراد مطلق الظلم لم يصح الإضراب عن الشقوق الثلاثة السابقة اليه لأنها من مطلق الظلم ويدل عليه أيضاً الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الى آخر الآية؛ سياق قوله: «إنما قول المؤمنين» وقد أُخذ فيه «كان» ووصف الايمان في «المؤمنين» يدل على ن ذلك من مقتضيات طبيعة الايمان فإن مقتضى الايمان بالله ورسوله وعقد القلب على اتباع ما حكم به الله ورسوله التلبية للدعوة الى حكم الله ورسوله دون الرد.

وعلى هذا فالمراد بقوله: «إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم» دعوة بعض الناس ممن ينازعهم كدعوة بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر الى التحاكم الى الله ورسوله ليحكم بينهم، ويدل عليه تصدير الجملة بلفظة «إذا» ولو كان المراد به دعوة الله ورسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين في منازعاتهم الى حكم الله ورسوله كان ذلك حكماً مؤبداً لا حاجة فيه الى التقييد بالزمان.

وقد ختمت الآية بقوله: «وأُولئك هم المفلحون» وفيه قصر الفلاح فيهم لا قصرهم في

الفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وورود الآية في سياق الآيات السابقة وانضمامها الى سابقتها يعطي أنها في مقام التعليل ـ كالكبرى الكلية ـ للآية السابقة حيث حكمت بفلاح من أجاب الدعوة الى حكم الله ورسوله بالسمع والطاعة بقيد الإيمان كأنه قيل: إنما أفلح من أجاب الى حكم الله ورسوله وهو مؤمن لأنه مطيع لله ولرسوله وهو مؤمن حقاً في باطنه خشية الله وفي ظاهره تقواه ومن يطع الله ورسوله فيما قضى عليه ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون، والفوز هو الفلاح.

وتشمل الآية الداعي الى حكم الله ورسوله من المتنازعين كما يشمل المدعو منهما إذا أجاب بالسمع والطاعة ففيها زيادة على تعليل حكم الآية السابقة تعميم الوعد الحسن للداعي والمدعو جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ الى آخر الآية: الجهد الطاقة، والتقدير في قوله: «أقسموا بالله جهد أيمانهم» أقسموا بالله مبلغ جهدهم في أيمانهم والمراد أقسموا بأغلظ أيمانهم.

والظاهر أن المراد بقوله: «ليخرجن» الخروج الى الجهاد على ما وقع في عدة من الآيات كقوله: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ (التوبة / ٤٧).

وقوله: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ نهي عن الإقسام، وقوله: «طاعة معروفة» خبر لمبتدأ محذوف هو الضمير الراجع الى الخروج وبالجملة في مقام التعليل للنهي عن الإقسام ولذا جيء بالفصل، وقوله: «والله خبير بما تعملون» من تمام التعليل.

ومعنى الآية: وأقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج الى الجهاد ليخرجن قل لهم: لا تقسموا فالخروج الى الجهاد طاعة معروفة من الدين ـ وهو واجب لا حاجة الى إيجابه

بيمين مغلظ ـ وإن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله ورسوله بذلك فالله خبير بما تعملون لا يغرّه إغلاظكم في الأيمان.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ الى آخر الآية: أمر بطاعة الله فيما أنزل من الدين، وأمر بطاعة الرسول فيما يأتيهم به من ربهم ويأمرهم به في أمر دينهم ودنياهم، وتصدير الكلام بقوله: «قل» إشارة الى أن الطاعة جميعاً لله، وقد أكده بقوله: «وأطيعوا الرسول» دون أن يقول: وأطيعوني لأن طاعة الرسول بما هو طاعة الرسول طاعة المرسل، وبذلك تتم الحجة.

ولذلك عقّب الكلام:

أولاً بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي فإن تتولوا وتعرضوا عن طاعة الرسول لم يضرّ ذلك الرسول فإنما عليه ما حمّل من التكليف ولا يمسّكم منه شيء وعليكم ما حمّلتم من التكليف ولا يمسّه منه شيء فإن الطاعة جميعاً لله سبحانه.

وثانياً بقوله: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي وإن كان لكل منكم ومنه ما حمّل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأن ما يجيء به اليكم وما يأمركم به من الله وبأمره، والطاعة لله وفيه الهداية.

وثالثاً بقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وهو بمنزلة التعليل لما تقدّمه أي إن ما حمّله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلّغ، وإذ كان رسولا لم يحتمل إلا التبليغ فطاعته طاعة من أرسله وفي طاعة من أرسله وهو الله سبحانه اهتداؤكم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الى آخر الآية.

ظاهر وقوع الآية موقعها أنها نزلت في ذيل الايات السابقة من السورة وهي مدنية ولم تنزل بمكة قبل الهجرة على ما يؤيده سياقها وخاصة ذيلها.

فالآية ـ على هذا ـ وعد جميل للذين آمنوا وعملوا الصالحات أن الله تعالى سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً يخص بهم فيستخلفهم في الأرض ويمكّن لهم دينهم ويبدلهم ن بعد خوفهم أمناً لا يخافون كيد منافق ولا صدّ كافر يعبدونه لا يشركون به شيئاً.

فقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من فيه تبعيضيّة لا بيانية والخطاب لعامة المسلمين وفيهم المنافق والمؤمن وفي المؤمنين منهم من يعمل الصالحات ومن لا يعمل الصالحات. والوعد خاص بالذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات محضاً.

وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إن كان المراد بالإستخلاف إعطاء الخلافة الالهية كما ورد في آدم وداود وسليمان ﷺ، قال تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (البقرة / ٣٠)، وقال: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ (ص / ٢٦)، وقال: ﴿وورث سليمان داود﴾ (النمل / ١٦)، فالمراد بالذين من قبلهم خلفاء الله من أنبيائه وأوليائه ولا يخلو من بعد كما سيأتي.

وإن كان المراد به إيراث الأرض وتسليط قوم عليها بعد قوم كما قال: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ (الأعراف / ١٢٨)، وقال: ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (الأنبياء / ١٠٥)، فالمراد بالذين من قبلهم المؤمنون من أُمم الأنبياء الماضين الذين أهلك الله الكافرين والفاسقين منهم ونجّى الخلّص من مؤمنيهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب كما أخبر عن جمعهم في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعودنّ في ملّتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين ولنسكننّكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ (إبراهيم / ١٤). فهؤلاء الذين أخلصوا لله

فنجّاهم فعقدوا مجتمعاً صالحاً وعاشوا فيه حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم.

وقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ تمكين الشيء إقراره في مكان وهو كناية عن ثبات الشيء من غير زوال واضطراب وتزلزل بحيث يؤثر أثره من غير مانع ولا حاجز فتمكن الدين هو كونه معمولا به في المجتمع من غير كفر به واستهانة بأمره، ومأخوذاً باصول معارفه من غير اختلاف وتخاصم وقد حكم الله سبحانه في مواضع من كلامه أن الاختلاف في الدين بغي المختلفين كقوله: ﴿**وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم**﴾ (البقرة / ٢١٣).

والمراد بدينهم الذي ارتضى لهم دين الإسلام، وأضاف الدين اليهم تشريفاً لهم ولكونه من مقتضى فطرتهم.

وقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ هو كقوله: «وليمكنن لهم» عطف على قوله: «ليستخلفنهم» وأصل المعنى: وليبدلن خوفهم أمناً فنسبة التبديل اليهم إما على المجاز العقلي أو على حذف مضاف يدل عليه قوله: «من بعد خوفهم» والتقدير وليبدلن خوفهم، أو كون «أمناً» بمعنى: آمين.

والمراد بالخوف على أي حال، ما كان يقاسيه المؤمنون في صدر الإسلام من الكفار والمنافقين.

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ الأوفق بالسياق أن يكون حالا من ضمير «وليبدلنهم» أي وليبدلن خوفهم أمناً في حال يعبدونني لا يشركون بي شيئاً.

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ ظاهر السياق كون «ذلك» إشارة الى الموعود والأنسب على ذلك كون «كفر» من الكفران مقابل الشكر، والمعنى: ومن كفر ولم يشكر الله بعد تحقق هذا الوعد بالكفر أو النفاق أو سائر المعاصي الموبقة فاولئك هم الفاسقون الكاملون في الفسق وهو الخروج عن زي العبودية.

والذي يعطيه سياق الآية الكريمة على ما تقدم من البحث بالتحرّز عن المسامحات التي ربما يرتكبها المفسرون في تفسير الآيات هو أن الوعد لبعض الامة لا لجميعها ولا لأشخاص خاصة منهم وهم الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات فالآية نص في ذلك، ولا قرينة من لفظ او عقل يدلّ على كونهم هم الصحابة أو النبي وأئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام. ولا على أن المراد بالذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات جميع الامة وإنما صرف الوعد الى طائفة خاصة منهم تشريفاً لهم أو لمزيد العناية بهم فهذا كله تحكّم من غير وجه.

والمراد باستخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم يرثون الأرض كما ورثها الذين من قبلهم من الامم الماضين أُولي القوة والشوكة، وهذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختص به أشخاص منهم كما كان كذلك في الذين من قبلهم، وأما إرادة الخلافة الإلهية بمعنى الولاية على المجتمع كما كان لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام وهي السلطنة الإلهية فمن المستبعد أن يعبّر عن أنبيائه الكرم بلفظ «الذين من قبلهم» وقد وقعت هذه اللفظة أو ما بمعناها في أكثر من خمسين موضعاً من كلامه تعالى ولم يقصد ولا في واحد منها الأنبياء الماضون مع كثرة ورود ذكرهم في القرآن، نعم ذكرهم الله بلفظ «رسل من قبلك» أو «رسل من قبلي» أو نحوهما بالإضافة الى الضمير الراجع الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والمراد بتمكين دينهم الذي ارتضى لهم كما مرّ ثبات الدين على ساقه بحيث لا يزلزله اختلافهم في أُصوله، ولا مساهلتهم في إجراء أحكامه، والعمل بفروعه وخلوص المجتمع من وصمة النفاق فيه.

والمراد من تبديل خوفهم أمناً انبساط الأمن والسلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدوّاً في داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهراً أو مستخفياً على دينهم أو دنياهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

﴿تُرْحَمُونَ﴾ مناسبة مضمون الآية لما سيقت لبيانه الآيات السابقة تعطي أنها من تمامها.

فقوله: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» أمر في الحقيقة بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده، وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما ركنين في التكاليف الراجعة الى الله تعالى والى الخلق. وقوله: «وأطيعوا الرسول» إنفاذ لولايته ﷺ في القضاء والحكومة.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تعليل للأمر بما في المأمور به من المصلحة، والمعنى ـ على ما يعطيه السياق ـ: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهية فينجز لكم وعده أو يعجل لكم إنجازه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين وعموم الصلاح والاتفاق على كلمة الحق مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدرّ عليهم بكل خير.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ من تمام الآيات السابقة. وفيها تأكيد ما مرّ من وعد الاستخلاف في الأرض وتمكين الدين وتبديل الخوف أمناً.

يخاطب تعالى نبيه ﷺ بعد الوعد ـ بخطاب مؤكد ـ أن لا يظن أن الكفار معجزون لله في الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوة والشوكة من أن ينجز وعده، وهذا في الحقيقة بشرى خاصة بالنبي ﷺ بما أكرم به أُمته وأن أعداءه سينهزمون ويغلبون ولذلك خصّه بالخطاب على طريق الالتفات.

ولكون النهي المذكور في معنى أن الكفار سينتهون عن معارضة الدين وأهله عطف عليه قوله: «ومأواهم النار» الخ؛ كأنه قيل: هم مقهورون في الدنيا ومسكنهم النار في الآخرة وبئس المصير[1].

---

١. النور ٤٧ـ٥٧: بحث روائي في امير المؤمنين علي عليه السلام والشيعة.

٥٨ ❁ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ
لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلوٰةِ الْفَجْرِ
وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلوٰةِ الْعِشاءِ
ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ
طَوّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ
الْآياتِ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

٥٩ ❁ وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

٦٠ ❁ وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ
جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ
خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

٦١ ❁ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى
الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ
صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا
دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ

مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

٦٢ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ
عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا
اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ
اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٦٣ ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ
اللّٰهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ
أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٦٤ ﴿ أَلَا إِنَّ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ الى آخر الآية؛ وضع الثياب خلعها وهو كناية عن كونهم على حال ربما لا يحبون أن يراهم عليها الأجنبي. والظهيرة وقت الظهر، والعورة السوأة سميت بها لما يلحق الإنسان من انكشافها من العار وكأن المراد بها في الآية ما ينبغي ستره.

فقوله: «يا أيها الذين آمنوا» الخ: تعقيب لقوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا» الخ؛ القاضي بتوقف دخول البيت على الإذن وهو كالاستثناء من عمومه في العبيد والأطفال بأنه

يكفيهم الاستيذان ثلاث مرات في اليوم.

وقوله: «ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم» أي مُروهم أن يستأذنوكم للدخول، وظاهر الذين ملكت أيمانكم العبيد دون الإماء وإن كان اللفظ لا يأبى عن العموم بعناية التغليب، وبه وردت الرواية كما سيجيء.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ يعني المميّزين من الأطفال قبل البلوغ، والدليل على تقيّدهم بالتمييز قوله بعد: «ثلاث عورات لكم».

وقوله: «ثلاث مرات» أي كل يوم بدليل تفصيله بقوله: «من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ـ أي وقت الظهر ـ ومن بعد صلاة العشاء» وقد أشار الى وجه الحكم بقوله: «ثلاث عورات لكم» أي الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لا ينبغي بالطبع أن يطّلع عليكم فيها غيركم.

وقوله: «ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن» أي لا مانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان ولا لهم من أن لا يستأذنوكم في غير هذه الأوقات، وقد أشار الى جهة نفي الجناح بقوله: «طوّافون عليكم بعضكم على بعض» أي هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض للخدمة فالاستيذان كلما دخل حرج عادة فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث.

ثم قال: «كذلك يبيّن الله الآيات» أي أحكام دينه التي هي آيات دالّة عليه «والله عليم» يعلم أحوالكم وما تستدعيه من الحكم «حكيم» يراعي مصالحكم في أحكامه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ الخ: بيان أن حكم الاستيذان ثلاث مرات في الأطفال مغيّى بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم بأن بلغوا فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم وهو البالغون من الرجال والنساء الأحرار «كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم».

قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ الى آخر الآية:

القواعد جمع قاعدة وهي المرأة التي قعدت عن النكاح فلا ترجوه لعدم الرغبة في مباشرتها لكبرها. فقوله: «اللاتي لا يرجون نكاحاً» وصف توضيحي. وقيل: هي التي يئست من الحيض. والوصف احترازي.

وفي المجمع: التبرُّج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره. وأصله الظهور ومنه البرج البناء العالي لظهوره.

والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب. والمعنى: والكبائر المسنّة من النساء فلا بأس عليهن أن لا يحتجبن حال كونهن غير متبرّجات بزينة.

وقوله: ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ كناية عن الاحتجاب أي الاحتجاب خير لهن من وضع الثياب. وقوله: «والله سميع عليم» تعليل لما شرع بالاسمين أي هو تعالى سميع يسمع ما يسألنه بفطرتهن عليم يعلم ما يحتجن اليه من الأحكام.

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ـ الى قوله ـ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ ظاهر الآية أن فيها جعل حق للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو التي ائتمنوا عليها أو بيوت أصدقائهم فهم مأذونون في أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف وإفساد.

فقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمىٰ حَرَجٌ ـ الى قوله ـ وَلاَ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ في عطف «على أنفسكم» على ما تقدمه دلالة على أن عدّ المذكورين ليس لاختصاص الحق بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحياناً وإلا فلا فرق بين الأعمى والأعرج والمريض وغيرهم في ذلك.

وقوله: ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ الخ؛ في عدّ «بيوتكم» مع بيوت الأقرباء وغيرهم إشارة الى نفي الفرق في هذا الدين المبني على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بين

بيوتهم أنفسهم وبيوت أقربائهم وما ملكوا مفاتحه وبيوت أصدقائهم.

على أن «بيوتكم» يشمل بيت الابن والزوج كما وردت به الرواية. وقوله: «أو ما ملكتم مفاتحه» المفاتح جمع مفتح وهو المخزن. والمعنى: أو البيت الذي ملكتم أي تسلّطتم على مخازنه التي فيها الرزق كما يكون الرجل قيّماً على بيت أو وكيلاً أو سُلّم اليه مفتاحه.

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ معطوف على ما تقدمه بتقدير بيت على ما يعلم من سياقه، والتقدير أو بيت صديقكم.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ الأشتات جمع شت وهو مصدر بمعنى التفرُّق استعمل بمعنى المتفرق مبالغة ثم جمع أو صفة بمعنى المتفرق كالحق. والمعنى: لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين وبعضكم مع بعض أو متفرقين. والآية عامة وإن كان نزولها لسبب خاص كما روي.

وللمفسرين في هذا الفصل من الآية وفي الفصل الذي قبلها اختلافات شديدة رأينا الصفح عن إيرادها والغور في البحث عنها أولى. وما أوردناه من المعنى في الفصلين هو الذي يعطيه سياقها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ الخ: لما تقدم ذكر البيوت فرّع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال: «فإذا دخلتم بيوتاً».

فقوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ المراد فسلّموا على من كان فيها من أهلها وقد بّدل من قوله: «على أنفسكم» للدلالة على أن بعضهم من بعض فإن الجميع إنسان وقد خلقهم الله من ذكر وأُنثى على أنهم مؤمنون والايمان يجمعهم ويوحّدهم أقوى من الرحم وأي شيء آخر.

وليس ببعيد أن يكون المراد بقوله: «فسلّموا على أنفسكم» أن يسلّم الداخل على أهل

البيت ويردُّوا السلام عليه.

وقوله: ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي حال كون السلام تحية من عند الله شرَّعها الله وأنزل حكمها ليحيّي بها المسلمون وهو مبارك ذو خير كثير باق وطيّب يلائم النفس فإن حقيقة هذه التحية بسط الأمن والسلامة على المسَلم عليه وهو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: «كذلك يبيّن الله لكم الآيات» وقد مرَّ تفسيره «لعلكم تعقلون» أي تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ ذكر قوله: «الذين آمنوا بالله ورسوله» بياناً للمؤمنين على ظهور معناه للدلالة على اتصافهم بحقيقة لمعنى أي إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله بحقيقة الإيمان وأيقنوا بتوحّده تعالى واطمأنّت نفوسهم وتعلّقت قلوبهم برسوله.

ولذلك عقّبه بقوله: «وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه» والأمر الجامع هو الذي يجمع الناس للتدبُّر في أطرافه والتشاور والعزم عليه كالحرب ونحوها.

والمعنى: وإذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الامور العامة لم يذهبوا ولم ينصرفوا من عند الرسول حتى يستأذنوه للذهاب.

ولذلك أيضاً عقّبه بقوله: «ان الذين يستأذنونك أُولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله» وهو بمنزلة عكس صدر الآية للدلالة على الملازمة وعدم الانفكاك.

وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تخيير منه تعالى لرسوله في أن يأذن لمن شاء ولا يأذن لمن لم يشأ.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أمر له بالاستغفار لهم تطييباً

لنفوسهم ورحمة بهم.

قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ الى آخر الآية، دعاء الرسول هو دعوته الناس الى أمر من الامور كدعوتهم الى الايمان والعمل الصالح، ودعوتهم ليشاورهم في أمر جامع، ودعوتهم الى الصلاة جامعة، أو مرهم بشيء في أمر دنياهم او أُخراهم فكل ذلك دعاء ودعوة منه ﷺ.

ويشهد بهذا المعنى قوله ذيلاً: «قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً» وما يتلوه من تهديد مخالفي أمره ﷺ كما لا يخفى. وهو أنسب لسياق الآية السابقة فإنها تمدح الذين يلبُّون دعوته ويحضرون عنده ولا يفارقونه حتى يستأذنوه وهذه تذمّ وتهدّد الذين يدعوهم فيتسللون عنه لواذاً غير مهتمّين بدعائه ولا معتنين.

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً﴾ التسلل: الخروج من البين برفق واحتيال من سلّ السيف من غمده، واللواذ: الملاوذة وهو أن يلوذ الانسان ويلتجىء الى غيره فيستتر به، والمعنى: أن الله يعلم منكم الذين يخرجون من بين الناس والحال أنهم يلوذون بغيرهم ويسترون به فينصرفون فلا يهتمُّون بدعاء الرسول ولا يعتنون به.

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ظاهر سياق الآية بما تقدم من المعنى أن ضمير «عن أمره» للنبي ﷺ وهو دعاؤه، ففي الآية تحذير لمخالفي أمر النبي ﷺ ودعوته من أن تصيبهم فتنة وهي البليّة أو يصيبهم عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ اختتام للسورة ناظر الى قوله في مفتتحها: «سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات» فما في مختتمها كالتعليل لما في مفتتحها.

فقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيان لعموم الملك وأن كل شيء

مملوك لله سبحانه قائم به فهي معلومة له بجميع خصوصيات وجودها فيعلم ما تحتاج اليه، والناس من جملة ما يعلم بحقيقة حاله وما يحتاج اليه فالذي يشرّعه لهم من الدين مما يحتاجون اليه في حياتهم كما أن ما يرزقهم من المعيشة مما يحتاجون اليه في بقائهم.

فقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ـ أي من حقيقة الحال المنبئة عن الحاجة ـ بمنزلة النتيجة المترتبة على الحجة أي ملكه لكم ولكل شيء يستلزم علمه بحالكم وبما تحتاجون اليه من شرائع الدين فيشرّعه لكم ويفرضه عليكم.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معطوف على قوله: «ما أنتم عليه» أي ويعلم يوماً يرجعون اليه وهو يوم القيامة فيخبرهم بحقيقة ما عملوا والله بكل شيء عليم.

وفي هذا الذيل حث على الطاعة والانقياد لما شرّعه وفرضه من الأحكام والعمل به من جهة أنه سيخبرهم بحقيقة ما عملوا به كما أن في الصدر حثاً على القبول من جهة أن الله إنما شرّعها لعلمه بحاجتهم اليها وأنها التي ترفع بها حاجتهم[1].

---

١. النور ٥٨ ـ ٦٤: بحث روائي في الاستيذان.

سورة الفرقان مكية وهي سبع وسبعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً.

٢ ﴿ أَلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً.

٣ ﴿ وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاٰ
يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاٰ نَفْعاً وَلاٰ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاٰ حَيٰوةً
وَلاٰ نُشُوراً.

بيان:

غرض السورة بيان أن دعوة النبي ﷺ دعوة حقة عن رسالة من جانب الله تعالى وكتاب نازل من عنده وفيها عناية بالغة بدفع ما أورده الكفار على كون النبي ﷺ رسولاً من جانب الله وكون كتابه نازلاً من عنده ورجوع اليه كرة بعد كرة.

وقد استتبع ذلك شيئاً من الاحتجاج على التوحيد ونفي الشريك وذكر بعض أوصاف يوم القيامة وذكر نبذة من نعوت المؤمنين الجميلة، والكلام فيها جار على سياق الإنذار والتخويف دون التبشير.

والسورة مكية على ما يشهد به سياق عامة آياتها نعم ربما استثني منها ثلاث آيات وهي قوله تعالى: «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ـ الى قوله ـ غفوراً رحيماً».

ولعل الوجه فيه اشتمالها على تشريع حرمة الزنا لكنّك قد عرفت فيما أوردناه من أخبار آية الخمر من سورة المائدة أن الزنا والخمر كانا معروفين بالتحريم في الإسلام من أول ظهور الدعوة الإسلامية.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ البركة بفتحتين ثبوت الخير في الشيء كثبوت الماء في البركة بالكسر فالسكون مأخوذ من برك البعير إذا ألقى صدره على الأرض واستقرّ عليها، ومنه التبارك بمعنى ثبوت الخير الكثير وفي صيغته دلالة على المبالغة على ما قيل، وهو كالمختص به تعالى لم يطلق على غيره إلا على سبيل الندرة.

والفرقان هو الفرق سمّي به القرآن لنزول آياته متفرقة أو لتمييزه الحق من الباطل ويؤيد هذا المعنى إطلاق الفرقان في كلامه تعالى على التوراة أيضاً مع نزولها دفعة، قال الراغب في المفردات: والفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل، وتقديره كتقدير رجل قُنعان يقنع به في الحكم. وهو اسم لا مصدر فيما قيل، والفرق يستعمل فيه وفي غيره. انتهى.

والعالمون جمع عالم ومعناه الخلق قال في الصحاح: العالم الخلق والجمع العوالم، والعالمون أصناف الخلق انتهى. واللفظة وإن كانت شاملة لجميع الخلق من الجماد والنبات والحيوان والإنسان والجن والملك لكن سياق الآية ـ وقد جعل فيها الإنذار غاية لتنزيل القرآن ـ يدل

على كون المراد بها المكلفين من الخلق وهو الثقلان: الإنس والجن فيما نعلم.

وبذلك يظهر عدم استقامة ما ذكره بعضهم أن الآية تدل على عموم رسالته ﷺ لجميع ما سوى الله فإن فيه غفلة عن وجه التعبير عن الرسالة بالإنذار ونظير الآية قوله تعالى: ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ (آل عمران / ٤٢) وقوله: ﴿وفضّلناهم على العالمين﴾ (الجاثية / ١٦).

والنذير بمعنى المنذر على ما قيل، والإنذار قريب المعنى من التخويف.

فقوله تعالى: «تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده» أي ثبت وتحقق خير كثير فيمن نزّل الفرقان على عبده محمد ﷺ، وثبوت الخير الكثير العائد الى الخلق فيه تعالى كناية عن فيضانه منه على خلقه حيث نزّل على عبده كتاباً فارقاً بين الحق والباطل منقذاً للعالمين من الضلال سائقاً لهم الى الهدى.

والجمع في الآية بين نزول القرآن من عنده تعالى وكون النبي ﷺ رسولا منه نذيراً للعالمين مع تسمية القرآن فرقاناً بين الحق والباطل وتوصيف النبي ﷺ بكونه عبداً له نذيراً للعالمين المشعر بكونه مملوكاً مأموراً لا يملك من نفسه شيئاً كل ذلك تمهيد لما سيحكي ـ عن المشركين ن طعنهم في القرآن بأنه افتراء على الله اختلقه النبي ﷺ وأعانه على ذلك قوم آخرون، ومن طعنهم في النبي ﷺ بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وسائر ما تفوّهوا به ـ وما يدفع به مطاعنهم.

فالمحصّل أنه كتاب يفرّق بحجته الباهرة بين الحق والباطل فلا يكون إلا حقاً إذ الباطل لا يفرّق بين الحق والباطل وإنما يشبّه الباطل بالحق ليلبس على الناس، وأن الذي جاء به عبد مطيع لله ينذر به العالمين ويدعوهم الى الحق فلا يكون إلا على الحق ولو كان مبطلاً لم يدع الى الحق بل حاد عنه وانحرف على أن الله سبحانه يشهد في كلامه المعجز بصدق رسالته وأن الذي جاء به من الكتاب منزل من عنده.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ اللام للتعليل وتدل على أن غاية تنزيل الفرقان على عبده أن يكون منذراً لجميع العالمين من الانس والجن. والجمع المحلّى باللام يفيد الاستغراق، ولا يخلو الإتيان بصيغة الجمع المحلى باللام من إشارة الى أن للجميع إلهاً واحداً لا كما يذهب اليه الوثنيون حيث يتخذ كل قوم إلهاً غير ما يتخذه الآخرون.

والإكتفاء بذكر الإنذار دون التبشير لأن الكلام في السورة مسوق سوق الإنذار والتخويف.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية: الملك بكسر الميم وفتحها قيام شيء بشيء بحيث يتصرف فيه كيف شاء سواء كان قيام رقبته به كقيام رقبة المال بمالكه بحيث كان له أنواع التصرف فيه أو قيامه به باستيلائه عليه بالتصرف بالأمر والنهي وأنواع الحكم كاستيلاء الملك على الناس من رعيته وما في أيديهم، ويطلق على القسم الثاني الملك بضم الميم.

فالملك بكسر الميم أعم من الملك بضمها كما قال الراغب الملك ـ بفتح الميم وكسر اللام ـ هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة الناطقين. ولهذا يقال: ملك الناس ولا يقال: ملك الأشياء ـ الى أن قال ـ فالملك بالضم ـ ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، والملك ـ بالكسر ـ كالجنس للملك فكل ملك ـ بالضم ـ ملك بالكسر ـ وليس كل ملك ـ بالكسر ـ ملكاً ـ بالضم ـ انتهى.

وربما يخص الملك بالكسر بما يتعلق بالرقبة، والملك بالضم بغيره.

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ واللام للاختصاص ـ يفيد أن السماوات والأرض مملوكة له غير مستقلة بنفسها في جهة من جهاتها ولا مستغنية عن التصرف فيها بالحكم وأن الحكم فيها وإدارة رحاها يختص به تعالى فهو الملك المتصرف بالحكم فيها على الإطلاق.

وبذلك يظهر ترتب قوله: «ولم يتخذ ولداً» على ما تقدمه فإن الملك على الإطلاق لا يدع حاجة الى اتخاذ الولد إذ اتخاذ الولد لأحد أمرين إما لكون الشخص لا يقوى على إدارة رحى جميع أموره ولا يملك تدبيرها جميعاً فيتخذ الولد ليستعين به على بعض حوائجه والله سبحانه يملك كل شيء ويقوى على ما أراد. وإما لكون الشخص محدود البقاء لا يملك ما يملك إلا في أمد محدود فيتخذ الولد ليخلفه فيقوم على أموره بعده والله سبحانه يملك كل شيء سرمداً ولا يعتريه فناء وزوال فلا حاجة له الى اتخاذ الولد البتة وفيه رد على المشركين والنصارى.

وكذا قوله تعالى بعده: «ولم يكن له شريك في الملك» فان الحاجة الى الشريك إنما هي فيما إذا لم يستوعب الملك الامور كلها وملكه تعالى عام لجميع الأشياء محيط بجميع جهاتها لا يشذ منه شاذ، وفيه رد على المشركين.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ بيان لرجوع تدبير عامة الامور اليه تعالى وحده بالخلق والتقدير فهو رب العالمين لا رب سواه.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الخ: لمّا نعت نفسه بأنه خالق كل شيء ومقدّره وأن له ملك السماوات والأرض وهكذا كان يجب أن يكون الإله المعبود، أشار الى ضلالة المشركين حيث عبدوا أصناماً ليست بخالقة شيئاً بل هي مخلوقة مصنوعة لهم ولا مالكة شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم.

وضمير «واتخذوا» للمشركين على ما يفيده السياق وإن لم يسبق لهم ذكر ومثل هذا التعبير يفيد التحقير والاستهانة.

وقوله: ﴿مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يريد به أصنامهم التي صنعوها بأيديهم بنحت او نحوه، وتوصيفها بالآلهة مع تعقيبها بمثل قوله: «لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون» إشارة الى أن ليس لها من الالوهية إلا اسم سمّوها به من غير أن تتحقق من

حقيقتها بشيء كما قال تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ (النجم / ٢٣).

ووضع النكرة في قوله: «لا يخلقون شيئاً» في سياق النفي مبالغة في تقريعهم حيث أعرضوا عن الله سبحانه وهو خالق كل شيء، وتعلقوا بأصنام لا يخلقون ولا شيئاً من الأشياء بل هم أردأ حالاً من ذلك حيث إنهم مصنوعون لعبّادهم مخلوقون لأوهامهم، ونظير الكلام جار في قوله: «ضراً ولا نفعاً» وقوله: «موتاً ولا حياة ولا نشوراً».

وقوله: ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ نفي للملك عنهم وهو ضروري في الإله إذ كان عبّادهم إنما يعبدونهم ليدفعوا عنهم الضر ويجلبوا إليهم النفع وإذ كانوا لا يملكون ضراً ولا نفعاً حتى لأنفسهم لم تكن عبادتهم إلا خبلاً وضلالاً.

وبذلك يظهر أن في وقوع «لأنفسهم» في السياق زيادة تقريع والكلام في معنى الترقي أي لا يملكون لأنفسهم ضراً حتى يدفعوه ولا نفعاً حتى يجلبوه فكيف لغيرهم؟ وقد قدّم الضر على النفع لكون دفع الضرر أهم من جلب النفع.

وقوله: ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيٰوةً وَلاَ نُشُوراً﴾ أي لا يملكون موتاً حتى يدفعوه عن عبّادهم او عمن شاؤا ولا حياة حتى يسلبوها عمن شاؤا او يفيضوها على من شاؤا ولا نشوراً حتى يبعثوا الناس فيجازوهم على أعمالهم، وملك هذه الامور من لوازم الالوهية.

٤ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ ٱفْتَرٰيهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جٰاءُوا ظُلْماً وَزُوراً.

٥ ۞ وَقَالُوا أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهٰا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً.

٦ ● قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً.

٧ ● وَقٰالُوا مٰالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعٰامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوٰاقِ لَوْلاٰ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً.

٨ ● أَوْ يُلْقىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهٰا وَقٰالَ الظّٰالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّٰ رَجُلاً مَسْحُوراً.

٩ ● أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً.

١٠ ● تَبٰارَكَ الَّذِي إِنْ شٰاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذٰلِكَ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً.

١١ ● بَلْ كَذَّبُوا بِالسّٰاعَةِ وَأَعْتَدْنٰا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسّٰاعَةِ سَعِيراً.

١٢ ● إِذٰا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهٰا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً.

١٣ ● وَإِذٰا أُلْقُوا مِنْهٰا مَكٰاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنٰالِكَ ثُبُوراً.

١٤ ● لاٰ تَدْعُوا ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وٰاحِداً وَٱدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً.

١٥ ● قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كٰانَتْ لَهُمْ جَزٰاءً وَمَصِيراً.

١٦ ● لَهُمْ فِيهٰا مٰا يَشٰاؤُنَ خٰالِدِينَ كٰانَ عَلىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً.

١٧ ● وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمٰا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبٰادِي هٰؤُلاٰءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ.

١٨ ● قٰالُوا سُبْحٰانَكَ مٰا كٰانَ يَنْبَغِي لَنٰا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ

أَوْلِيَاءَ وَلٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً.

١٩ • فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً.

٢٠ • وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ ٱفْتَرَيٰهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ الخ: في التعبير بمثل قوله: «وقال الذين كفروا» من غير أن يقال: وقالوا: مع تقدم ذكر الكفار في قوله: «واتخذوا من دونه آلهة» تلويح الى أن القائلين بهذا القول هم كفار العرب دون مطلق المشركين.

والمشار اليه بقولهم: «إن هذا» القرآن الكريم، وإنما اكتفوا بالإشارة دون أن يذكروه باسمه أو بشيء من أوصافه إزدراء به وحطاً لقدره.

والإفك هو الكلام المصروف عن وجهه، ومرادهم بكونه إفكاً افتراء كونه كذباً اختلقه النبي ﷺ ونسبه الى الله سبحانه.

والسياق لا يخلو من إيماء الى أن المراد بالقوم الآخرين بعض أهل الكتاب وقد ورد في بعض الآثار أن القوم الآخرين هم عداس مولى حويطب بن عبد العزّى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر كانوا من أهل الكتاب يقرؤن التوراة أسلموا وكان

النبي ﷺ يتعهدهم فقيل ما قيل.

وقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ قال في مجمع البيان: إن جاء وأتى ربما كانا بمعنى فعل فيتعديان مثله فعنى الآية فقد فعلوا ظلماً وكذباً. وقيل: إن ظلماً منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد جاؤا بظلم، وقيل: حال والتقدير فقد جاؤا ظالمين وهو سخيف.

وفيه أيضاً: ومتى قيل: كيف اكتفى بهذا القدر من جوابهم؟ قلنا: لما تقدم التحدي وعجزهم عن الإتيان بمثله اكتفى ههنا بالتنبيه على ذلك. انتهى والظاهر أن الجواب عن قولهم: «إن هذا إلا إفك افتراه» الخ: وقولهم: «أساطير الأولين اكتتبها» الخ؛ جميعاً هو قوله تعالى: «قل أنزله الذي يعلم السر» الخ؛ على ما سنبين والجملة أعني قوله: «فقد جاؤا ظلماً وزوراً» رد مطلق لقولهم وهو في معنى المنع مع السند وسنده الآيات المشتملة على التحدي.

وبالجملة معنى الآية: وقال الذين كفروا من العرب ليس هذا القرآن إلا كلاماً مصروفاً عن وجهه ـ حيث إنه كلام محمد ﷺ وقد نسبه الى الله ـ افترى به على الله وأعانه على هذا الكلام قوم آخرون وهم بعض أهل الكتاب فقد فعل هؤلاء الذين كفروا بقولهم هذا ظلماً وكذباً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ الأساطير جمع أُسطورة بمعنى الخبر المكتوب ويغلب استعماله في الأخبار الخرافية والاكتتاب هو الكتابة ونسبته اليه ﷺ مع كونه امياً لا يكتب إنما هي بنوع من التجوز ككونه مكتوباً باستدعاء منه كما يقول الأمير كتبت الى فلان كذا وكذا وإنما كتبه كاتبه بأمره، والدليل على ذلك قوله بعد: «فهي تملى عليه بكرة وأصيلا» إذ لو كان هو الكاتب لم يكن معنى للاملاء، وقيل: الاكتتاب بمعنى الاستكتاب.

والإملاء إلقاء الكلام الى المخاطب بلفظه ليحفظه ويعيه أو الى الكاتب ليكتبه والمراد به في

الآية هو المعنى الأول لى ما يعطيه سياق «اكتتبها فهي تملي عليه» إذ ظاهره تحقق الاكتتاب دفعة والإملاء تدريجاً على نحو الاستمرار فهي مكتوبة مجموعة عنده تقرأ عليه وقتاً بعد وقت وهو يعيها فيقرأ على الناسما وعاه وحفظه.

والبكرة والأصيل الغداة والعشي، وهو كناية عن الوقت بعد الوقت، وقيل المراد أول النهار قبل خروج الناس من منازلهم وآخر النهار بعد دخولهم في منازلهم وهو كناية عن أنها تملى عليه خفية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أمر للنبي ﷺ برد قولهم وتكذيبهم فيما رموا به القرآن أنه إفك مفترى وأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه وقتاً بعد وقت.

وتوصيفه تعالى بأنه يعلم السر أي خفيّات الامور وبواطنها في السماوات والأرض للإيذان بأن هذا الكتاب الذي أنزله منطو على أسرار مطوية عن عقول البشر. وفيه تعريض بمجازاتهم على جناياتهم التي منها رميهم القرآن بأنه إفك مفترى وأنه من الأساطير وهو مما يعلمه تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ تعليل لما هو المشاهد من إمهالهم وتأخير عقوبتهم على جناياتهم وتكذيبهم للحق وجرأتهم على الله سبحانه.

والمعنى: قل إن القرآن ليس إفكاً مفترى ولا من الأساطير كما يقولون بل كتاب منزل من عند الله سبحانه ضمّنه أسرار خفية لا تصل الى كنهها عقولكم ولا تحيط بها أحلامكم، ورميكم إياه بالإفك والأساطير وتكذيبكم لحقائقه جناية عظيمة تستحقون بها العقوبة غير أن الله سبحانه أمهلكم وأخّر عقوبة جنايتكم لأنه متصف بالمغفرة والرحمة وذلك يستتبع تأخير العذاب. هذا ملخص ما ذكروه في معنى الآية.

وفيه أن السياق لا يساعد عليه فإن محصّل معنى الآية على ما فسّروه يرجع الى رد دعوى

الكفار كون القرآن إفكاً مفترى ومن الأساطير بدعوى أنه منزل من عند الله منطو على أسرار خفية لا سبيل لهم الى الوقوف عليها لا مساغ في مقام المخاصمة لرد الدعوى بدعوى أُخرى مثلها او هي أخفى منها.

على أن التعليل بقوله: «إنه كان غفوراً رحيماً» إنما يناسب انتفاء العقوبة من أصلها دون الامهال والتأخير وإنما المناسب للإمهال والتأخير من الأسماء هو مثل الحليم والعليم والحكيم دون الغفور الرحيم.

والأوفق لمقام المخاصمة والدفاع بإبانة الحق والتعليل بالمغفرة والرحمة أن يكون قوله: «إنه كان غفوراً رحيماً» تعليلاً لانزال الكتاب وقد ذكر قبل ذلك أنه أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيراً وهذه هي النبوة. ويكون حينئذ وصفه تعالى بعلم السر في السماوات والأرض للإيماء الى أن في سرهم ما يستدعي شمول المغفرة والرحمة الإلهيتين لحالهم وهو طلبهم بفطرتهم وجبلّتهم للسعادة والعاقبة الحسنى التي ليست حقيقتها إلا السعادة الإنسانية بشمول المغفرة والرحمة وإن أخطأ كثير منهم في تطبيقها على التمتع بالحياة الدنيا وزينتها الدائرة فيكون حجة برهانية على حقّية الدعوة النبوية المشتملة عليها القرآن، وبطلان دعوى كونه إفكاً من أساطير الأولين.

وتقرير الحجة أن الله سبحانه يعلم السر في السماوات والأرض وهو يعلم أن في سركم المستقر في سرائركم المجبولة عليه فطرتكم حباً للسعادة وطلباً وانتزاعاً للعاقبة الحسنى وحقيقتها فوز الدنيا والآخرة، وكان سبحانه غفوراً رحيماً ومقتضى ذلك أن يجيبكم الى ما تسألونه في سركم وبلسان فطرتكم فيهديكم الى سبيله التي تضمن لكم السعادة.

وهذا كتاب ينطق عليكم بسبيله فليس إفكاً مفترى على الله ولا من قبيل الأساطير بل هو كتاب يتضمن ما تسألونه بفطرتكم وتستدعونه في سرّكم فإن استجبتم لداعيه شملتكم المغفرة والرحمة وإن توليتم حرمتم ذلك فهو كتاب منزل من عند الله ولو لم يكن نازلاً من عنده

كما يخبر عنه لم يهد الى حقيقة السعادة ولم يدع الى محض الحق ولاختلفت بياناته فدعاكم تارة الى ما فيه خيركم ونفعكم وهو الذي يجلب االيكم المغفرة والرحمة، وتارة الى ما هو شرّ لكم وضارّ وهو الذي يثير عليكم السخط الإلهي ويستوجب لكم العقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ هذه حكاية ما طعنوا به في الرسول بعد ما حكى طعنهم في القرآن بقوله: «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه» الخ.

وتعبيرهم عنه ﷺ بقولهم: «هذا الرسول» مع تكذيبهم برسالته مبني على التهكم والاستهزاء.

وقولهم: ﴿مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ استفهام للتعجيب والوجه فيه أن الوثنيين يرون أن البشر لا يسوغ له الاتصال بالغيب وهو متعلق الوجود بالمادة منغمر في ظلماتها، ومتلوّث بقذاراتها، ولذا يتوسلون في التوجه الى اللاهوت بالملائكة فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله ويقرّبوهم من الله زلفى فالملائكة هم المقرّبون عند الله المتصلون بالغيب المتعيّنون للرسالة لو كانت هناك رسالة، وليس للبشر شيء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر ـ كما قيل ـ فهو من وضع الظاهر موضع المضمر ووصفهم بالظلم للدلالة على بلوغهم في الظلم والاجتراء على الله ورسوله.

وقولهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ الخ؛ خطاب منهم للمؤمنين تعييراً لهم وإغواء عن طريق الحق، ومرادهم بالرجل المسحور النبي ﷺ يريدون أنه مسحور سحره بعض السحرة فصار يخيّل اليه أنه رسول يأتيه ملك الوحي بالرسالة والكتاب.

قوله تعالى: ﴿أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ

سَبِيلاً ﴾ الأمثال الأشباه وربما قيل: إن المثل هنا بمعنى الوصف على حدّ قوله تعالى: ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ (سورة محمد / ١٥)، والمحصّل: انظر كيف وصفوك فضلّوا فيك ضلالاً لا يرجى معه اهتداؤهم الى الحق كقولهم إنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فلا يصلح للرسالة لأن الرسول يجب أن يكون شخصاً غيبياً لا تعلّق له بالمادة ولا أقل من عدم احتياجه الى الأسباب العادية في تحصيل المعاش، وكقولهم: إنه رجل مسحور.

وقوله: ﴿ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ أي تفرّع على هذه الأمثال التي ضربوها لك أنهم ضلوا ضلالاً لا يستطيعون معه أن يردوا سبيل الحق ولا يرجى لهم معه الاهتداء فإن من أخطأ الطريق ربما أخطأها بانحراف يسير يرجى معه ركوبها ثانياً، وربما استدبرها فصار كلما أمعن في مسيره زاد منها بعداً، ومن سمى كتاب الله بالأساطير ووصف رسوله بالمسحور ولم يزل يزيد تعنتاً ولجاجاً واستهزاء بالحق كيف يرجى اهتداؤه وحاله هذه؟

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴾ الإشارة في قوله: «من ذلك» الى مااقترحوه من قولهم: «أو يكون له جنة يأكل منها» أو الى مجموع ما ذكروه من الكنز والجنة.

والقصور جمع قصر وهو البيت المشيد العالي. وتنكير «قصورا» للدلالة على التعظيم والتفخيم.

والآية بمنزلة الجواب عن طعنهم بالنبي ﷺ واقتراحهم أن ينزل اليه ملك أو يُلق اليه كنز أو يكون له جنة غير أن فيها التفاتاً من التكلم الى الغيبة فلم يقل: قل إن شاء ربي جعل لي كذا وكذا بل عدل الى قوله: «تبارك الذي إن شاء جعل لك» الخ.

وفيه تلويح الى أنهم لا يستحقون جواباً ولا يصلحون لأن يخاطبوا لأنهم على علم بفساد ما اقترحوا به عليه فالنبي ﷺ لم يذكر لهم إلا أنه بشر مثلهم يوحى اليه، ولم يدّع أن له قدر

غيبية وسلطنة إلهية على كل ما يريد أو يراد منه ، كما قال تعالى بعدما حكى بعض اقتراحاتهم في سورة الإسراء: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا﴾ (الإسراء / ٩٣).

فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم وعن الجواب عما اقترحوه، وانما ذكر لنبيه ﷺ أن ربه الذي اتخذه رسولا وأنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيراً قادر على أعظم ما يقترحونه فإن شاء جعل له خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، ويجعل له قصوراً لا يبلغ وصفها واصف وذلك خير من أن يكون له جنة يأكل منها أو يلق اليه كنز ليصرفه في حوائجه.

وبهذا المقدار يتحصل جوابهم فيما اقترحوه من الكنز والجنة. وأما نزول الملك اليه ليشاركه في الانذار ويعينه على التبليغ فلم يذكر جواب عنه لظهور بطلانه. وقد أجاب تعالى عنه في مواضع من كلامه بأجوبة مختلفة كقوله: ﴿ولو جعلنا ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ (الأنعام / ٩). وقوله: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا﴾ (الإسراء / ٩٥). وقوله: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا اذا منظرين﴾ (الحجر / ٨). وقد تقدم تقرير حجة كل من الآيات في ضمن تفسيرها.

ومن هنا يظهر أن المراد بجعل الجنات والقصور له ﷺ جعله في الدنيا على ما يقتضيه مقام المخاصمة ورد قولهم فإن المحصل من السياق أنهم يقترحون عليك كيت وكيت وهم يريدون تعجيزك وتبكيتك وإن ربك قادر على أعظم من ذلك فإن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار. الخ: وهي لا محالة في الدنيا وإلا لم ينقطع به الخصام.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾. اضراب عن طعنهم فيه ﷺ واعتراضهم عليه بأكل الطعام والمشي في الاسواق بما يتضمن معنى التكذيب أي ما كذبوك وردّوا نبوتك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق فإنما هو كلام منهم صوري بل السبب الأصلي في إنكارهم نبوّتك وطعنهم فيك أنهم كذّبوا بالساعة وأنكروا

المعاد، ومن المعلوم أن لا وقع للنبوة مع إنكار الساعة ولا معنى للدين والشريعة لولا المحاسبة والمجازاة.

فالإشارة الى السبب الأصلي بعد ذكر الاعتراض والاقتراح والجواب ههنا نظير ما وقع في سورة الإسراء بعد ذكر الاقتراحات ثم الجواب من ذكر السبب الاصلي في قوله: «قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً وما منع الناس أن يؤمنوا إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً».

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ وضع الموصول والصلة مكان الضمير الراجع للدلالة على أن الجزاء بالسعير ثابت في حق كل من كذّب بالساعة هم وغيرهم فيه سواء، وعلى أن سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعة.

ووضع الساعة ثانياً موضع ضميرها ليكون أنصّ وأصرح فهو المناسب لمقام التهديد، والسعير النار المشتعلة الملتهبة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ في المفردات: الغيظ أشد غضب ـ الى أن قال ـ والتغيظ هو إظهار الغيظ، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال: «سمعوا لها تغيظاً وزفيرا» انتهى، وفيه أيضاً: الزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه، انتهى.

والآية تمثل حال النار بالنسبة اليهم اذا برزوا لها يوم الجزاء أنها تشتد إذا ظهروا لها كالأسد يزأر إذا رأى فريسته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ «مكاناً» منصوب بتقدير في، والثبور الويل والهلاك.

والتقرين التصفيد بالأغلال والسلاسل وقيل: هو جعلهم مع قرناء الشياطين وهو بعيد من اللفظ. والمعنى وإذا أُلقوا يوم الجزاء في مكان ضيق من النار وهم مصفدون بالاغلال دعوا

هنالك ثبورا لا يوصف وهو قولهم: واثبوراه.

قوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَٱدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ الاستغاثة بالويل والثبور نوع احتيال للتخلص من الشدة وإذ كان اليوم يوم الجزاء فحسب لا ينفع فيه عمل ولا يجدي فيه سبب البتة لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلاً ولذا قال تعالى: «لا تدعوا اليوم» الخ؛ فهو كناية عن أن الثبور لا ينفعكم اليوم سواء استقللتم منه أو استكثرتم. فهو في معنى قوله تعالى: ﴿اصلوها فاصبروا او لا تصبروا سواء عليكم﴾ (الطور / ١٦)، وقوله حكاية عنهم: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ (إبراهيم / ٢١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ـ الى قوله ـ مَسْؤُلاً﴾ الإشارة الى السعير بما له من الوصف، أمر نبيه ﷺ أن يسألهم أيهما أرجح السعير أم جنة الخلد؟ والسؤال سؤال في أمر بديهي لا يتوقف في جوابه عاقل وهو دائر في المناظرة والمخاصمة يردد الخصم بين أمرين أحدهما بديهي الصحة والآخر بديهي البطلان فيكلف ان يختار أحدهما فإن اختار الحق فقد اعترف بما كان ينكره، وإن اختار الباطل افتضح.

وقوله: ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ اضافة الجنة الى الخلد وهو الدوام للدلالة على كونها في نفسها خالدة لا تفنى كما أن قوله بعد: «خالدين» للدلالة على ان أهلها خالدين فيها لا سبيل للفناء اليهم.

قوله: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ تقديره وعدها المتقون لان وعد يتعدى لمفعولين والمتقون مفعول ثان ناب مناب الفاعل.

وقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾ أي جزاء لتقواهم ومنقلباً ينقلبون اليه بما هم متقون كما قال تعالى: ﴿إن المتقين في جنات وعيون ـ الى أن قال ـ وما هم منها بمخرجين﴾ (الحجر / ٤٨)، وهو من الأقضية التي قضاها يوم خلق آدم وأمر الملائكة وإبليس بالسجود

له. ويتعين به جزاء المتقين ومصيرهم كما تقدم في تفسير سورة الحجر.

وقوله: «لهم فيها ما يشاؤن خالدين» أي انهم يملكون فيها بتمليك من الله لهم كل ما تعلق به مشيتهم. ولا تتعلق مشيتهم إلا بما يحبونه ويشتهونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم: ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ (سبأ /٥٤). ولا يحبون ولا يشتهون إلا ما من شأنه أن يتعلق به الحب واقعاً وهو الذي يحبه الله لهم وهو ما يستحقونه من الخير والسعادة مما يستكملون به ولا يستضرُّون به لا هم ولا غيرهم فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الى آخر الآية: ضمائر الجمع الأربعة عائدة الى الكفار. والمراد بما يعبدون الملائكة والمعبودون من البشر والاصنام ان كان «ما» أعم من غير اولي العقل. والا فالاصنام فقط.

والمشار اليهم المعنيون بقوله: «عبادي هؤلاء» الكفار ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ الخ: جواب المعبودين عن قوله: «ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء» الخ: وقد بدؤا بالتسبيح على ما هو من أدب العبودية في موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك او ما يوهم ذلك بوجه.

وقوله: ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي ما صحَّ وما استقام لنا أن نتجاوزك الى غيرك فنتخذ من دونك من أولياء، وهم الذين عبدونا واتخذونا أولياء من دونك. وقوله: «ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا اذكر وكانوا قوماً بورا» البور جمع بائر وهو الهالك وقيل: الفاسد.

لما نفى المعبودون المسؤلون عن سبب ضلال عبادهم نسبة الإضلال الى أنفسهم أخذوا في نسبته الى الكفار أنفسهم مع بيان السبب الذي أضلَّهم وهو أنهم كانوا قوماً هالكين او فاسدين وقد متعتهم وآباءهم من أمتعة الحياة الدنيا ونعمها حتى طال عليهم التمتيع امتحاناً

وابتلاء فتمتعوا منها واشتغلوا بها حتى نسوا الذكر الذي جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد الى الشرك.

فكونهم قوماً هالكين او فاسدين بسبب انكبابهم على الدنيا وانهماكهم في الشهوات هو السبب في استغراقهم في التمتع وانصراف هممهم الى الاشتغال بالأسباب وهو السبب لنسيانهم الذكر والعدول عن التوحيد الى الشرك.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً﴾ الى آخر الآية؛ كلام له تعالى يلقيه الى المشركين بعد براءة المعبودين منهم، وأما كلام المعبودين فقد تمّ في قوله: «وكانوا قوماً بوراً».

والمعنى: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون في حقهم إنهم آلهة من دون الله يصرفون عن عبدتهم السوء وينصرونهم، وإذ كذبوكم ونفوا عن أنفسهم الالوهية والولاية فلا تستطيعون أنتم أيها العبدة أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم، ولا تستطيعون نصراً لأنفسكم بسببهم.

والترديد بين الصرف والنصر كأنه باعتبار استقلال المعبودين في دفع العذاب عنهم وهو الصرف. وعدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب وهو النصر.

وقرأ غير عاصم من طريق حفص «يستطيعون» بالياء المثنّاة من تحت وهي قراءة حسنة ملائمة لمقتضى السياق، والمعنى: فقد كذّبكم المعبودون بما تقولون إنهم آلهة يصرفون عنكم السوء أو ينصرونكم ويتفرّع على ذلك أنهم لا يستطيعون لكم صرفاً ولا نصرا.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾ المراد بالظلم مطلق الظلم والمعصية وإن كان مورد الآيات السابقة خصوص الظلم الذي هو الشرك، فقوله: «ومن يظلم منكم» الخ؛ من قبيل وضع القانون العام موضع الحكم الخاص، ولو كان المراد به الحكم الخاص بهم لكان من حق الكلام أن يقال: «ونذيقكم بما ظلمتم عذاباً كثيراً» لأنهم كلهم ظالمون ظلم

الشرك.

والنكتة فيه الإشارة الى أن الحكم الإلهي نافذ جار لا مانع منه ولا معقب له كأنه قيل: وإن كذّبكم المعبودون وما استطاعوا صرفاً ولا نصراً فالحكم العام الإلهي «من يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً» على نفوذه وجريانه لا مانع منه ولا معقّب له فأنتم ذائقون العذاب البتة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ الى آخر الآية؛ أجاب تعالى عن قولهم: «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» الخ؛ أولاً بقوله: «تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك» الخ؛ مع ما يلحقه من قوله: «بل كذّبوا بالساعة» الخ: وهذا جواب ثان محصّله أن هذا الرسول ليس بأول رسول أُرسل الى الناس بل أرسل الله قبله جماً غفيراً من المرسلين وقد كانوا على العادة البشرية الجارية بين الناس يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ولم يخلق لهم جنة يأكلون منها ولا أُلقي إليهم كنز ولا أُنزل معهم ملك، وهذا الرسول إنما هو كأحدهم ولم يأت بأمر بدع حتى يتوقع منه ما لا يتوقع من غيره.

فالآية في معنى قوله: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتّبع إلا ما وحى إليّ﴾ (الأحقاف / ٩). وقرينة المعنى من قوله: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾ (الكهف / ١١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ متمم للجواب السابق بمنزلة التعليل لكون الرسل كسائر الناس في الخواص البشرية من غير أن تتميز حياتهم أو دعوتهم بخواص سماوية تورث القطع بكونهم حاملين للرسالة الإلهية كإنزال ملك عليهم أو إلقاء كنز اليهم او خلق جنة لهم فكأنه قيل: والسبب في كون الرسل جارين في حياتهم على ما يجري عليه الناس أنا جعلنا بعض الناس لبعض فتنة يمتحنون بها فالرسل فتنة لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان والمتبعون للأهواء الذين لا يصبرون على

مرّ الحق من طلاب الحق الصابرين في طاعة الله وسلوك سبيله.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي عالماً بالصواب في الامور فيضع كل أمر في الموضع المناسب له ويجري بذلك أتمّ النظم فهدف النظام الإنساني كمال كل فرد بقطعه طريق السعادة أو الشقاوة على حسب ما يستعد له ويستحقه ولازمه بسط نظام الامتحان بينهم ولازمه ارتفاع التمايز بين الرسل وغيرهم.

٢١ ◈ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰئِكَةُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً.

٢٢ ◈ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰئِكَةَ لاَ بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً.

٢٣ ◈ وَقَدِمْنَا إِلىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً.

٢٤ ◈ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً.

٢٥ ◈ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلٰئِكَةُ تَنْزِيلاً.

٢٦ ◈ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً.

٢٧ ◈ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً.

٢٨ ◈ يَا وَيْلَتىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً.

٢٩ ◈ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ

خَذُولاً.

٣٠ ۞ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً.

٣١ ۞ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾ قال في مجمع البيان: الرجاء ترقّب الخير الذي يقوى في النفس وقوعه ومثله الطمع والأمل. واللقاء المصير الى الشيء من غير حائل. والعتوّ الخروج الى أفحش الظلم. انتهى.

والمراد باللقاء الرجوع الى الله يوم القيامة سمّي به لبروزهم اليه تعالى بحيث لا يبقى في البين حائل جهل أو غفلة لظهور العظمة الالهية كما قال تعالى: «ويعلمون أن الله هو الحق المبين».

فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنكارهم للمعاد وتكذيبهم بالساعة ولم يعبّر عنه بتكذيب الساعة ونحوه كما عبّر في الآيات السابقة لمكان ذكرهم مشاهدة الملائكة ورؤية الرب تعالى وتقدس ففيه إشارة الى أنهم إنما قالوا ما قالوا وطلبوا إنزال الملائكة أو رؤية الرب ليأسهم وزعمهم استحالة ذلك فقد ألزموا بما هو مستحيل على زعمهم.

فقولهم: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ اعتراض منهم على رسالة الرسول أوردوه في صورة التحضيض كقولهم في موضع آخر: ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ (الحجر / ٧). وتقرير الحجة كما تقدمت الإشارة اليه أنه لو كانت الرسالة

- وهي نزول الملائكة بالوحي أو تكليمه تعالى البشر بالمشافهة - مما يتيسر للبشر نيله ونحن بشر أمثال هذا المدعي للرسالة فما بالنا لا ينزل علينا الملائكة ولا نرى ربنا؟ فهلا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا.

ويؤيد ما ذكرناه من التقرير إطلاق إنزال الملائكة ورؤية الرب من غير أن يقولوا: لولا أُنزل علينا الملائكة فيصدقوك أو نرى ربنا فيصدقك. على أنهم ذكروا في اعتراضهم السابق نزول الملك ليكون معه نذيراً وفيه تصديقه.

وفي التعبير عنه تعالى بلفظ ربنا نوع تهكم منهم فإن المشركين ما كانوا يرونه تعالى رباً لهم بل كان عندهم أن أربابهم ما كانوا يعبدونهم والله رب الأرباب فكأنهم قالوا للنبي ﷺ: إنك ترى أن الله ربك وقد حنّ اليك فخصك بالمشافهة والتكليم، وأنه ربنا، فليحن الينا وليشافهنا بالرؤية كما فعل بك.

على أنهم إنما عدلوا عن عبادة أرباب الأصنام وهم الملائكة وروحانيات الكواكب ونحوهم الى عبادة الأصنام والتماثيل لتكون محسوسة غير غائبة عن المشاهدة عند العبادة والتقرب بالقرابين.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾ أي أُقسم لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حق وطغوا طغياناً عظيماً.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلٰئِكَةَ لاَ بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ في المفردات: الحجر الممنوع منه بتحريمه قال تعالى: «وقالوا هذه أنعام وحرث حجر» «ويقولون حجراً محجوراً» كان الرجل إذا لقي من يخاف يقول ذلك فذكر تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك ظناً أن ذلك ينفعهم. انتهى.

وعن الخليل كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية في الأشهر الحرم فيقول: حجراً محجوراً أي حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر فلا يبدؤه بشر وعن أبي

عبيدة: هي عوذة للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة.

فقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يوم -على ما قيل- ظرف لقوله: «لا بشرى» وقوله: «يومئذ» تأكيد له. والمراد بقوله: «لا بشرى» نفي للجنس، والمراد بالمجرمين كل متصف بالاجرام غير أن مورد الكلام إجرام الشرك والمجرمون هم الذين لا يرجون اللقاء، وقد تقدم ذكرهم والمعنى: يوم يرى هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا الملائكة لا بشرى -على طريق نفي الجنس- يومئذ للمجرمين وهم منهم.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ فاعل يقولون هم المشركون أي يقول المشركون يومئذ للملائكة وهم قاصدوهم بالعذاب: حجراً محجوراً أي لنكن في معاذ منكم، وقيل: ضمير الجميع للملائكة، والمعنى: ويقول الملائكة للمشركين حراماً محرماً عليكم سماع البشرى، أو حراماً محرماً عليكم أن تدخلوا الجنة أو حراماً محرماً عليكم أن تتعوذوا من العذاب الى شيء فلا معاذ لكم هذا، والمعنى: الأول أقرب الى السياق.

والآية في موضع الجواب عن قولهم: «لولا أُنزل الينا الملائكة» وقد أعرضت عن جواب قولهم: «أو نرى ربنا» فإن الرؤية التي كانوا يقصدونها بقولهم هي الرؤية البصرية التي تستلزم التجسم والمادية تعالى عن ذلك. وأما الرؤية بعين اليقين وهي الرؤية القلبية فلم يكونوا ممن يفقه ذلك وعلى تقديره ما كانوا يقصدونه.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ قال الراغب في المفردات: العمل كل فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب الى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد وقد ينسب الى الجمادات. والعمل قلما ينسب الى ذلك، ولم يستعمل العمل في الحيوانات إلا في قولهم: البقر العوامل. انتهى.

وقال: الهباء دقائق التراب وما انبثّ في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوّة. انتهى. والنثر التفريق.

والمعنى : وأقبلنا الى كل عمل عملوه ـ والعمل هو الذي يعيش به الإنسان بعد الموت ـ ففرّقناه تفريقاً لا ينتفعون به كالهباء المنثور . والكلام مبني على التمثيل مثّل به استيلاء القهر الإلهي على جميع أعمالهم التي عملوها لسعادة الحياة وإبطالها بحيث لا يؤثر في سعادة حياتهم المؤبدة شيئاً بتشبيهه بسلطان غلب عدوه فحلَّ داره بعدما ظهر عليه فخرّب الدار وهدم الآثار وأحرق المتاع والأثاث فأفنى منه كل عين وأثر .

ولا منافاة بين ما تدل عليه الآية من حبط الأعمال يومئذ وبين ما تدل عليه آيات أُخر أن أعمالهم أُحبطت حينما عملوها في الدنيا بكفرهم وإجرامهم فإن معنى الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعدما كان خفياً في الدنيا عليهم وقد تقدم كلام مشبع في معنى الحبط في الجزء الثاني من الكتاب فراجع .

قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ المراد بأصحاب الجنة المتقون فقد تقدم قوله قبل آيات : « قل أذلك خير أم جنه الخلد التي وعد المتقون » . والمستقر والمقيل اسما مكان من الاستقرار ومعناه ظاهر ومن القيلولة وهي الاستراحة في منتصف النهار سواء كان معها نوم أم لا ـ على ما قيل ـ والجنة لا نوم فيه .

وكلمتا « خير » و « أحسن » منسلخان عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ (الروم / ٢٧) ، وقوله : ﴿ ما عند الله خير من اللهو ﴾ (الجمعة / ١١) كذا قيل . وليس يبعد أن يقال : إن « أفعل » أو ما هو في معناه كخير بناء على ما رجّحنا أنه صفة مشبهة تدل على التفضيل بمادته لا بهيئته في مثل هذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل والعناية في ذلك أنهم لما اختاروا الشرك والإجرام واستحسنوا ذلك ولازمه النار في الآخرة فقد أثبتوا لها خيرية وحسناً فقوبلوا بأن الجنة وما فيها خير وأحسن حتى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النار وأن يختاروا الإيمان على الكفر على أي حال . وقيل : إن التفضيل مبني على التهكم .

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ الظاهر أن الظرف منصوب بفعل مقدّر. والمعنى واذكر يوم كذا وكذا فإنهم يرون الملائكة فيه أيضاً وهذا اليوم هو يوم القيامة بدليل قوله بعد: «الملك يومئذ الحق للرحمان». وقيل في متعلق الظرف وجوه أخر لا فائدة في نقلها.

و«تشقق» أصله تتشقق من باب التفعل من الشق بمعنى الخرم والتشقق التفتح. والغمام السحاب سمي به لستره ضوء الشمس مأخوذ من الغم بمعنى الستر.

والباء في قوله: «تشقق السماء بالغمام» إما للملابسة والمعنى تتفتح السماء متلبسة بالغمام أي متغيمة، وإما بمعنى عن والمعنى تتفتح عن الغمام أي من قبل الغمام أو تشققه.

وكيف كان فظاهر الآية أن السماء تنشق يوم القيامة بما عليها من الغمام الساتر لها ونزّل منها الملائكة الذين هم سكانها فيشاهدونهم فالآية قريبة المعنى من قوله في موضع آخر: ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها﴾ (الحاقة / ١٧).

وليس من البعيد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل وبروز عالم السماء وهو من الغيب وبروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم الى العالم الأرضي موطن الإنسان.

والتعبير عن الواقعة بالتشقق دون التفتح وما يماثله للتهويل. وكذا التنوين في قوله: «تنزيلاً» للدلالة على التفخيم.

قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ أي الملك المطلق يومئذ حق ثابت للرحمان وذلك لبطلان الأسباب وزوال ما بينها وبين مسبباتها من الروابط المتنوعة. وقد تقدم غير مرة أن المراد بذلك في يوم القيامة هو ظهور أن الملك والحكم لله والأمر اليه وحده. وأن لا استقلال في شيء من الأسباب على خلاف ما كان يتراءى من ظاهر حالها في نشأة الدنيا قبل قيام الساعة ورجوع كل شيء اليه تعالى.

وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْماً عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ الوجه فيه ركونهم الى ظواهر الأسباب وإخلادهم الى الحياة الأرضية البائدة الدائرة وانقطاعهم عن السبب الحقيقي الذي هو مالك الملك بالحقيقة وعن حياتهم الباقية المؤبدة فيصبحون اليوم ولا ملاذ لهم ولا معاذ.

فعلى هذا يكون الملك مبتدأ والحق خبره عرّف لإفادة الحصر. ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ. وفائدة التقييد الدلالة على ظهور حقيقة الامر يومئذ فإن حقيقه الملك لله سبحانه دائماً، وإنما يختلف يوم القيامة مع غيره بزوال الملك الصوري عن الاشياء فيه وثبوته لها في غيره.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ قال الراغب في المفردات: العض أزم بالاسنان، قال تعالى: «عضوا عليكم الأنامل» و«يوم يعض الظالم» وذلك عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك. انتهى. ولذلك يتمنى عنده ما فات من واجب العمل كما حكى الله تعالى عنهم قولهم: «ياليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً».

والظاهر أن المراد بالظالم جنسه وهو كل من لم يهتد بهدى الرسول، وكذا المراد بالرسول جنسه وإن انطبق الظالم بحسب المورد على ظالمي هذه الامة والرسول على محمد ﷺ.

والمعنى: واذكر يوم يندم الظالم ندماً شديداً قائلاً من فرط ندمه ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ما الى الهدى أي سبيل كانت.

قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾ تتمة تمني الظالم النادم على ظلمه، وفلان كناية عن العلم المذكر وفلانة عن العلم المؤنث، قال الراغب: فلان وفلانة كنايتان عن الإنسان، والفلان والفلانة ـ باللام ـ كنايتان عن الحيوانات. انتهى.

والمعنى: ياويلتي ـ يا هلاكي ـ ليتني لم اتخذ فلاناً ـ وهو من اتخذه صديقاً يشاوره ويسمع منه ويقلده ـ خليلاً.

ومن لطيف التعبير قوله في الآية السابقة : « ياليتني اتخذت » الخ ؛ وفي هذه الآية « ياويلتي ليتني لم اتخذ » الخ ؛ فإن في ذلك تدرّجاً لطيفاً في النداء والاستغاثة فحذف المنادى في الآية السابقة يلوح الى أنه يريد أي منج ينجيه مما هو فيه من الشقاء وذكر الويل بعد ذلك ـ في هذه الآية يدل على أنه بان له أن لا يخلصه من العذاب شيء قط إلا الهلاك والفناء . ولذلك نادى الويل .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ تعليل للتمني السابق . والمراد بالذكر مطلق ما جاءت به الرسل أو خصوص الكتب السماوية وينطبق بحسب المورد على القرآن .

وقوله : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ من كلامه تعالى ويمكن أن يكون تتمة الكلام الظالم ذكره تأسفاً وتحسراً .

والخذلان بضم الخاء ترك من يظن به أن ينصر نصرته . وخذلانه أنه يعد الإنسان أن ينصره على كل مكروه إن تمسك بالأسباب ونسي ربه فلما تقطعت الأسباب بظهور القهر الإلهي يوم الموت جزئياً ويوم القيامة كلياً خذله وسلمه الى الشقاء . قال تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان أكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ (الحشر / ١٦) . وقال فيما يحكي عن الشيطان يوم القيامة : ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ (إبراهيم / ٢٢) .

وفي هذه الآيات الثلاث إشعار بل دلالة على أن السبب العمدة في ضلال أهل الضلال ولاية أهل الأهواء وأولياء الشيطان . والمشاهده يؤيد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ المراد بالرسول محمد ﷺ بقرينة ذكر القرآن . وعبر عنه بالرسول تسجيلاً لرسالته وإرغاماً لاولئك القادحين في رسالته وكتابه والهجر بالفتح فالسكون الترك .

وظاهر السياق أن قوله: «وقال الرسول» الخ: معطوف على «يعضُّ الظالم» والقول مما يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البث والشكوى، وعلى هذا فالتعبير بالماضي بعناية تحقق الوقوع. والمراد بالقوم عامة العرب بل عامة الامة باعتبار كفرتهم وعصاتهم.

وأما كونه استئنافاً أو عطفاً على قوله: «وقال الذين لا يرجون لقاءنا» وكون ما وقع بينهما اعتراضاً فبعيد من السياق، وعليه فلفظة قال على ظاهر معناها والمراد بالقوم هم القادحون في رسالته الطاعنون في كتابه.

ونظيره في الضعف قول بعضهم: إن المهجور من الهجر بمعنى: الهذيان. وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المجرمين عدواً لك كذلك جعلنا لكل نبي عدواً منهم أي هذه من سنتنا الجارية في الأنبياء واممهم فلا يسوءنك ما تلقى من عداوتهم ولا يشق عليك ذلك، ففيه تسلية للنبي ﷺ.

ومعنى: جعل العدو من المجرمين أن الله جازاهم على معاصيهم بالختم على قلوبهم فعاندوا الحق وأبغضوا الداعي اليه وهو النبي فلعداوتهم نسبة اليه تعالى المجازاة.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ معناه ـ على ما يعطيه السياق ـ لا يهولنك أمر عنادهم وعداوتهم ولا تخافنهم على اهتداء الناس ونفوذ دينك فيهم وبينهم فحسبك ربك كفى به هادياً يهدي من استحق من الناس الهداية واستعد له وإن كفر هؤلاء وعتوا فليس اهتداء الناس منوطاً باهتدائهم وكفى به نصيراً ينصرك وينصر دينك الذي بعثك به وإن هجره هؤلاء ولم ينصروك ولا دينك فالجملة مسوقة لإظهار الاستغناء عنهم.

فظهر أن صدر الآيه مسوق لتسلي النبي ﷺ وذيله للاستغناء عن المجرمين من قومه، وفي قوله: «وكفى بربك» حيث أُخذ بصفة الربوبية: مضافة الى ضمير الخطاب ولم يقل: وكفى

بالله تأييد له[1].

٣٢ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً.

٣٣ ۞ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً.

٣٤ ۞ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً.

٣٥ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هٰرُونَ وَزِيراً.

٣٦ ۞ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً.

٣٧ ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً.

٣٨ ۞ وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيراً.

٣٩ ۞ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً.

٤٠ ۞ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾

---

١. الفرقان ٢١ ـ ٣١: بحث روائي قبض روح المؤمن والكافر؛ الحياة البرزخية: حبط اعمال الكافرين.

المراد بهم مشركو العرب الرادّون لدعوة القرآن كما في قدحهم السابق المحكي بقوله: «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه» الخ.

وقوله: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ قد تقدم أن الانزال والتنزيل إنما يفترقان في أن الإنزال يفيد الدفعة والتنزيل يفيد التدريج لكن ذكر بعضهم أنَّ التنزيل في هذه الآية منسلخ عن معنى التدريج لأدائه الى التدافع إذ يكون المعنى على تقدير إرادة التدريج: لولا فرّق القرآن جملة واحدة والتفريق ينافي الجملية بل المعنى هلاّ أُنزل القرآن عليه دفعة غير مفرق كما أُنزل التوراة والإنجيل والزبور.

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ الثبات ضدُّ الزوال. والإثبات والتثبيت بمعنى واحد والفرق بينهما بالدفعة والتدريج. والفؤاد القلب والمراد به كما مر غير مرة الأمر المدرك من الانسان وهو نفسه. والترتيل ـ كما قالوا ـ الترسيل والإتيان بالشيء عقيب الشيء. والتفسير ـ كما قال الراغب ـ المبالغة في إظهار المعنى المعقول كما أن الفسر بالفتح فالسكون إظهار المعنى المعقول.

وظاهر السياق أن قوله: «كذلك» متعلق بفعل مقدر يعلله قوله: «لنثبت» ويعطف عليه قوله: «ورتلناه» والتقدير نزلناه أي القرآن كذلك أي نجوماً متفرقة لا جملة واحدة لنثبت به فؤادك. وقول بعضهم: إن «كذلك» من تمام قول الذين كفروا سخيف جداً.

فقوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بيان تام لسبب تنزيل القرآن نجوماً متفرقة وبيان ذلك أن تعليم علم من العلوم وخاصة ما كان مرتبطاً بالعمل بإلقاء المعلّم مسائله واحدة بعد واحدة الى المتعلّم حتى تتم فصوله وأبوابه إنما يفيد حصولاً ما لصور مسائله عند المتعلّم وكونها مذخورة بوجه ما عنده يراجعها عند مسيس الحاجة اليها. وأما استقرارها في النفس بحيث تنمو النفس عليها وتترتب عليها آثارها المطلوبة منها فيحتاج الى مسيس الحاجة

والإشراف على العمل وحضور وقته.

ففرق بيّن بين أن يلقي الطبيب المعلم مثلا مسألة طبية الى متعلم الطب إلقاء فحسب وبين أن يلقيها اليه وعنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الداء وهو يعالجه فيطابق بين ما يقول وما يفعل.

ومن هنا يظهر أن إلقاء أي نظرة علمية عند مسيس الحاجة وحضور وقت العمل الى من يراد تعليمه وتربيته أثبت في النفس وأوقع في القلب وأشد استقراراً وأكمل رسوخاً في الذهن وخاصة في المعارف التي تهدي اليها الفطرة فإن الفطرة إنما تستعد للقبول وتتهيأ للإذعان إذا أحست بالحاجة.

فتبين بما تقدم أن قوله: «كذلك لنثبّت به فؤادك ـ الى قوله ـ وأحسن تفسيراً» جواب عن قولهم: «لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة» بوجهين:

أحدهما: بيان السبب الراجع الى النبي ﷺ وهو تثبيت فؤاده بالتنزيل التدريجي.

وثانيهما: بيان السبب الراجع الى الناس وهو بيان الحق فيما يوردون على النبي ﷺ من المثل والوصف الباطل، والتفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المغيَّر عن وجهه المحرَّف عن موضعه.

ويلحق بهذا الجواب قوله تلواً: «الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أُولئك شر مكاناً وأضل سبيلا» فهو كالمتمم للجواب على ما سيجيء بيانه.

وتبين أيضاً أن الآيات الثلاث مسوقة جميعاً لغرض واحد وهو الجواب عما أوردوه من القدح في القرآن هذا، والمفسرون فرّقوا بين مضامين الآيات الثلاث فجعلوا قوله: «كذلك لنثبّت به فؤادك» جواباً عن قولهم: «لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة»، وقوله: «ورتلناه ترتيلا» خبراً عن ترسيله في النزول او في القراءة على النبي ﷺ من غير ارتباط بما تقدمه.

قوله تعالى: ﴿أَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ اتصال الآية بما قبلها من الآيات على ما لها من السياق يعطي أن هؤلاء القادحين في القرآن استنتجوا من قدحهم ما لا يليق بمقام النبي ﷺ فذكروه واصفين له بسوء المكانة وضلال السبيل فلم يذكره الله تعالى في ضمن ما حكي من قولهم في القرآن صونا لمقام النبوة أن يذكر بسوء، وإنما أشار الى ذلك في ما أورد في هذه الآية من الردّ عليهم بطريق التكنية.

فقوله: ﴿أَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ كناية عن الذين كفروا القادحين في القرآن الواصفين للنبي ﷺ بما وصفوا. والكناية أبلغ من التصريح.

فالمراد أن هؤلاء القادحين في القرآن الواصفين لك هم شر مكانا وأضل سبيلاً لا أنت فالكلام مبني على قصر القلب، ولفظتا «شر» و«أضل» منسلختان عن معنى التفضيل أو مفيدتان على التهكم ونحوه.

وقد كنى عنهم بالمحشورين على وجوههم الى جهنم وهو وصف من أضله الله من المتعنتين المنكرين للمعاد كما قال تعالى: ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا﴾ الخ (الإسراء / ٩٨).

ففي هذه التكنية مضافا الى كونها أبلغ، تهديد لهم بشر المكان وأليم العذاب وأيضا هي في معنى الاحتجاج على ضلالهم إذ لا ضلال أضل من أن يسير الإنسان على وجهه وهو لا يشعر بما في قدامه. وهذا الضلال الذي حشرهم على وجوههم الى جهنم ممثل للضلال الذي كان لهم في الدنيا فكأنه قيل: إن هؤلاء هم الضالون فإنهم محشورون على وجوههم، ولا يبتلي بذلك إلا من كان ضالا في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيراً﴾ استشهاد على رسالة النبي ﷺ ونزول الكتاب عليه قبال تكذيب الكفار به وبكتابه برسالة

موسى وإيتائه الكتاب وإشراك هارون في أمره للتخلص الى ذكر تعذيب آل فرعون وإهلاكهم، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ قال في مجمع البيان: التدمير الإهلاك لأمر عجيب، ومنه التنكيل يقال: دمَّر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه. انتهى.

والمراد بالآيات آيات الآفاق والأنفس الدالة على التوحيد التي كذَّبوا بها، وذكر أبوالسعود في تفسيره أن الآيات هي المعجزات التسع المفصّلات الظاهرة على يدي موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند إرسالهما اليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن إظهار المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بياناً لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أي فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذّبوها تكذيباً مستمراً فدمرناهم. انتهى. وهو حسن لو تعين حمل الآيات على آيات موسى عليه السلام.

ووجه اتصال الآيتين بما قبلهما هو تهديد القادحين في كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته بتنظير الأمر بأمر موسى حيث آتاه الله الكتاب وأرسله مع أخيه الى قوم فرعون فكذّبوه فدمرهم تدميراً.

ولهذه النكتة قدّم ذكر إيتاء الكتاب على إرسالهما الى القوم وتدميرهم مع أن التوراة إنما نزلت بعد غرق فرعون وجنوده فلم يكن الغرض من القصة إلا الإشارة الى إيتاء الكتاب والرسالة لموسى وتدمير القوم بالتكذيب.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ الظاهر أن قوله: «قوم نوح» منصوب بفعل مقدّر يدل عليه قوله: «أغرقناهم».

والمراد بتكذيبهم الرسل تكذيبهم نوحاً فإن تكذيب الواحد من رسل الله تكذيب للجميع لاتفاقهم على كلمة الحق. على أن هؤلاء الامم كانوا أقواماً وثنيين وهم ينكرون النبوة ويكذّبون الرسالة من رأس.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي لمن بقي بعدهم من ذراريهم. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً﴾ قال في مجمع البيان: الرس البئر التي لم تطو ذكروا أنهم كانوا قوماً بعد ثمود نازلين على بئر أرسل الله اليهم رسولاً فكذّبوا به فأهلكهم الله، وقيل هو اسم نهر كانوا على شاطئه وفي روايات الشيعة ما يؤيد ذلك.

وقوله: ﴿وَعَاداً﴾ الخ: معطوف على «قوم نوح» والتقدير: ودمرنا أو وأهلكنا عاداً وثمود وأصحاب الرس، الخ.

وقوله: ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً﴾ القرن أهل عصر واحد وربما يطلق على نفس العصر والاشارة بذلك الى من مر ذكرهم من الأقوام أولهم قوم نوح وآخرهم أصحاب الرس او قوم فرعون. والمعنى ودمرنا او وأهلكنا عاداً وهم قوم هود، وثمود وهم قوم صالح، وأصحاب الرسّ. وقروناً كثيراً متخللين بين هؤلاء الذين ذكرناهم وهم قوم نوح فمن بعدهم.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ كلا منصوب بفعل يدل عليه قوله: «ضربنا له الأمثال» فإن ضرب الأمثال في معنى التذكير والموعظة والانذار، والتتبير التفتيت. ومعنى الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ هذه القرية هي قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجيل وقد مر تفصيل قصصهم في السور السابقة.

وقوله: «أفلم يكونوا يرونها» استفهام توبيخي فإن القرية كانت على طريق أهل الحجاز

الى الشام.

وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ أي لا يخافون معادا أو كانوا آئيسين من المعاد. وهذا كقوله تعالى فيما تقدم: «بل كذبوا بالساعة» والمراد به أن المنشأ الأصيل لتكذيبهم بالكتاب والرسالة وعدم اتعاظهم بهذه المواعظ الشافية وعدم اعتبارهم بما يعتبر به المعتبرون أنهم منكرون للمعاد فلا ينجح فيهم دعوة ولا تقع في قلوبهم حكمة ولا موعظة[1].

٤١ ◉ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً.

٤٢ ◉ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً.

٤٣ ◉ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَيهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً.

٤٤ ◉ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً.

٤٥ ◉ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً.

٤٦ ◉ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً.

٤٧ ◉ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً.

---

١. الفرقان ٣٢ ـ ٤٠: بحث روائي حول قصة أصحاب الرسّ.

٤٨ ● وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ
السَّماءِ ماءً طَهُوراً.

٤٩ ● لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً.

٥٠ ● وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبىٰ أَكْثَرُ النّاسِ إِلاّٰ كُفُوراً.

٥١ ● وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً.

٥٢ ● فَلاٰ تُطِعِ ٱلْكٰافِرِينَ وَجٰاهِدْهُمْ بِهِ جِهٰاداً كَبِيراً.

٥٣ ● وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هٰذٰا عَذْبٌ فُراتٌ وَهٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ
وَجَعَلَ بَيْنَهُمٰا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً.

٥٤ ● وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمٰاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكٰانَ
رَبُّكَ قَدِيراً.

٥٥ ● وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَلاٰ يَضُرُّهُمْ وَكٰانَ
ٱلْكٰافِرُ عَلىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً.

٥٦ ● وَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ مُبَشِّراً وَنَذِيراً.

٥٧ ● قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ
سَبِيلاً.

٥٨ ● وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ الَّذِي لاٰ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفىٰ بِهِ
بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيراً.

٥٩ ● الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ
ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً.

٦٠ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً.

٦١ ۞ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً.

٦٢ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ ضمير الجمع للذين كفروا السابق ذكرهم، والهزؤ الإستهزاء والسخرية فالمصدر بمعنى المفعول. والمعنى: وإذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا مهزوّاً به.

وقوله: ﴿أَهٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ بيان لاستهزائهم أي يقولون كذا استهزاء بك.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ الخ: «إن» مخففة من الثقيلة. والإضلال كأنه مضمن معنى الصرف ولذا عدّي بعن، وجواب لولا محذوف يدل عليه ما تقدمه، والمعنى أنه قرب أن يصرفنا عن آلهتنا مضلاً لنا لولا أن صبرنا على آلهتنا أي على عبادتها لصرفنا عنها.

وقوله: «وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا» توعد وتهديد منه تعالى لهم وتنبيه أنهم على غفلة مما سيستقبلهم من معاينة العذاب واليقين بالضلال والغي.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ الهوى

ميل النفس إلى الشهوة من غير تعديله بالعقل. والمراد باتخاذ الهوى إلهاً طاعته واتباعه من دون الله وقد أكثر الله سبحانه في كلامه ذم اتباع الهوى وعدّ طاعة الشيء عبادة له في قوله: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني﴾ (يس / ٦١).

وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ استفهام إنكاري أي لست أنت وكيلا عليه قائماً على نفسه وباموره حتى تهديه الى سبيل الرشد فليس في مقدرتك ذلك وقد أضله الله وقطع عنه أسباب الهداية وفي معناه قوله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ (القصص / ٥٦)، وقوله: ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ (فاطر / ٢٢)، والآية كالاجمال للتفصيل الذي في قوله: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه قلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله﴾ (الجاثية / ٢٣).

ويظهر مما تقدم من المعنى أن قوله: «اتخذ إلهه هواه» على نظمه الطبيعي أي إن «اتخذ» فعل متعدّ الى مفعولين و«إلهه» مفعوله الأول و«هواه» مفعول ثان له فهذا هو الذي يلائم السياق وذلك أن الكلام حول شرك المشركين وعدولهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام. وإعراضهم عن طاعة الحق التي هي طاعة الله إلى طاعة الهوى الذي يزين لهم الشرك. وهؤلاء يسلّمون أن لهم إلهاً مطاعاً وقد أصابوا في ذلك. لكنهم يرون أن هذا المطاع هو الهوى فيتخذونه مطاعاً بدلا من أن يتّخذوا الحق مطاعاً فقد وضعوا الهوى موضع الحق لا أنهم وضعوا المطاع موضع غيره فافهم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أم منقطعة. والحسبان بمعنى الظن وضمائر الجمع راجعة إلى الموصول في الآية السابقة باعتبار المعنى. والترديد بين السمع والعقل من جهة أن وسيلة الانسان إلى سعادة الحياة أحد أمرين إما أن يستقلّ بالتعقل فيعقل الحق فيتبعه أو يرجع إلى قول من يعقله

وينصحه فيتبعه ان لم يستقل بالتعقل فالطريق الى الرشد سمع أو عقل فالآية في معنى قوله: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ (الملك / ١٠).

والمعنى: بل أتظن أن أكثرهم لهم استعداد استماع الحق ليتبعه أو استعداد عقل الحق ليتبعه فترجو اهتداءهم فتبالغ في دعوتهم.

وقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعامِ﴾ بيان للجملة السابقة فإنه في معنى: أن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون فتنبّه أنهم ليسوا إلا كالأنعام والبهائم في أنها لا تعقل ولا تسمع إلا اللفظ دون المعنى.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي من الأنعام وذلك أنَّ الأنعام لا تقتحم على ما يضرها وهؤلاء يرجحون ما يضرهم على ما ينفعهم، وأيضاً الأنعام إن ضلت عن سبيل الحق فإنها لم تجهز في خلقتها بما يهديها اليه وهؤلاء مجهزون وقد ضلوا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً﴾ هاتان الآيتان وما بعدهما إلى تمام تسع آيات في معنى التنظير لما تضمنته الآيتان السابقتان بل الآيات الأربع السابقة من أن الله سبحانه جعل رسالة الرسول لهداية الناس إلى سبيل الرشد وإنقاذهم من الضلال فيهتدي بها بعضهم ممن شاء الله وأما غيرهم ممن اتخذ إلهه هواه فصار لا يسمع ولا يعقل فليس في وسع أحد أن يهديهم من بعد الله.

فهي تبين أن ليس هذا ببدع من الله سبحانه في عجائب صنعه وبيّنات آيات نظائر لذلك ففعله متشابه وهو على صراط مستقيم. وذلك كمدّ الظل وجعل الشمس دليلاً عليه تنسخه، وكجعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً، وكجعل الرياح بشراً وإنزل المطر وإحياء الأرض الميتة وإرواء الأنعام والأناسي به.

ثم ما مثل المؤمن والكافر في اهتداء هذا وضلال ذاك ـ وهم جميعاً عباد الله يعيشون في

أرض واحدة ـ إلا كمثل المائين العذب الفرات والملح الاجاج مرجهما الله تعالى لكن جعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً، وكالماء خلق الله سبحانه منه بشراً ثم جعله نسباً وصهراً فاختلف بذلك المواليد وكان ربك قديراً.

هذا ما يهدي اليه التدبر في مضامين الآيات وخصوصيات نظمها، وبه يظهر وجه اتصالها بما تقدمها، وأما ما ذكروه من أن لآيات مسوقة لبيان بعض أدلة التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالهم فالسياق لا يساعد عليه وسنزيد ذلك إيضاحاً.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ تنظير ـ كما تقدمت الإشارة اليه ـ لشمول الجهل والضلال للناس ورفعه تعالى ذلك بالرسالة والدعوة الحقة كما يشاء ولازم ذلك أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل الحادث بعد الزوال من التمدد شيئاً فشيئاً من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الافق حتى إذا غربت كانت فيه نهاية الإمتداد وهو الليل، وهو في جميع أحواله متحرك ولو شاء الله لجعله ساكناً.

وقوله: «ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً» والدليل هي الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناك ظلاً وبانبساطه شيئاً فشيئاً على تمدُّد الظل شيئاً فشيئاً ولولاها لم يتنبه لوجود الظل فإن السبب العام لتمييز الإنسان بعض المعاني من بعض تحوّل الأحوال المختلفة عليه من فقدان ووجدان فإذا فقد شيئاً كان يجده تنبّه لوجوده واذا وجد ما كان يفقده تنبّه لعدمه، وأما الأمر الثابت الذي لا تتحول عليه الحال فليس الى تصوّره بالتنبه سبيل.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي أزلنا الظل بإشراق الشمس وارتفاعها شيئاً فشيئاً حتى ينسخ بالكلية. وفي التعبير عن الإزالة والنسخ بالقبض، وكونه اليه، وتوصيفه باليسير دلالة على كمال القدرة الإلهية وأنها لا يشق عليها فعل، وأن فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام والبطلان بل بالرجوع اليه تعالى.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ رجوع الى السياق

السابق، وفي ذلك مع ذلك من إظهار العظمة والدلالة على الكبرياء ما لا يخفى.

والكلام في قوله الآتي: «وهو الذي جعل لكم الليل» الخ؛ وقوله: «وهو الذي أرسل الرياح» وقوله: «وهو الذي مرج البحرين»، وقوله: «وهو الذي خلق من الماء بشراً»، كالكلام في قوله: «ألم ترَ الى ربك» والكلام في قوله «وأنزلنا من السماء ماء» الخ؛ وقوله: «ولقد صرّفناه بينهم»، وقوله: «ولو شئنا لبعثنا»، كالكلام في قوله: «ثم جعلنا الشمس».

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً﴾ كون الليل لباساً إنما هو ستره الإنسان بغشيان الظلمة كما يستر اللباس لابسه.

وقوله: ﴿وَالنَّوْمَ سُباتاً﴾ أي قطعاً للعمل، وقوله: «وجعل النهار نشورا» أي جعل فيه الانتشار وطلب الرزق على ما ذكره الراغب في معنى اللفظتين.

وحال ستره تعالى الناس بلباس الليل وقطعهم به عن العمل والحركة ثم نشرهم للعمل والسعي بإظهار النهار وبسط النور كحال مد الظل ثم جعل الشمس عليه دليلاً وقبض الظل بها اليه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً﴾ البشر بالضم فالسكون مخفف بشر بضمتين جمع بشور بمعنى مبشر أي هو الذي أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهي المطر.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً﴾ أي من جهة العلو وهي جو الأرض ماء طهورا أي بالغاً في طهارته فهو طاهر في نفسه مطهّر لغيره يزيل الأوساخ ويذهب بالأرجاس والأحداث ـ فالطهور على ما قيل صيغة مبالغة ـ.

قوله تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً﴾، البلدة معروفة قيل: وأُريد بها المكان كما في قوله: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه﴾ (الأعراف / ٥٨)، ولذا اتصف بالميت وهو مذكر والمكان الميت ما لا نبات فيه وإحياؤه

إنباته، والأناسي جمع إنسان، ومعنى الآية ظاهر.

وحال شمول الموت للأرض والحاجة الى الشرب والري للأنعام والأناسي ثم إنزاله تعالى من السماء ماء طهورا ليحيي به بلدة ميتاً ويسقيه أنعاماً وأناسي كثيرا من خلقه كحال مد الظل ثم الدلالة عليه بالشمس ونسخه بها كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ ظاهر اتصال الآية بما قبلها أن ضمير «صرفناه» للماء وتصريفه بينهم صرفه عن قوم الى غيرهم تارة وعن غيرهم اليهم أخرى فلا يدوم في نزوله على قوم فيهلكوا ولا ينقطع عن قوم دائماً فيهلكوا بل يدور بينهم حتى ينال كل نصيبه بحسب المصلحة. وقيل: المراد بالتصريف التحويل من مكان الى مكان.

وقوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ تعليل للتصريف أي وأُقسم لقد صرّفنا الماء بتقسيمه بينهم ليتذكّروا فيشكروا فأبى وامتنع أكثر الناس إلا كفران النعمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ أي لو أردنا أن نبعث في كل قرية نذيرا ينذرهم ورسولاً يبلغهم رسالاتنا لبعثنا ولكن بعثناك الى القرى كلها نذيرا ورسولاً لعظيم منزلتك عندنا. هكذا فسرت الآية ولا تخلو الآية التالية من تأييد لذلك، وهذا المعنى لما وجهنا به اتصال الآيات أنسب.

أو أن المراد أنّا قادرون على أن نبعث في كل قرية رسولاً وإنما اخترناك لمصلحة في اختيارك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ متفرع على معنى الآية السابقة، وضمير «به» للقرآن بشهادة سياق الآيات، والمجاهدة والجهاد بذل الجهد والطاقة في مدافعة العدو وإذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم وبيان حقائقه لهم وإتمام حججه عليهم.

فحصل مضمون الآية أنه إذا كان مثل الرسالة الإلهية في رفع حجاب الجهل والغفلة المضروب على قلوب الناس بإظهار الحق لهم وإتمام الحجة عليهم مثل الشمس في الدلالة على الظل الممدود ونسخه بأمر الله ، ومثل النهار بالنسبة الى الليل وسبته ، ومثل المطر بالنسبة الى الأرض الميتة والأنعام والأناسيّ الظامئة ، وقد بعثناك لتكون نذيرا لأهل القرى فلا تطع الكافرين لأن طاعتهم تبطل هذا الناموس العام المضروب للهداية . وابذل مبلغ جهدك ووسعك في تبليغ رسالتك وإتمام حجتك بالقرآن المشتمل على الدعوة الحقة وجاهدهم به مجاهدة كبيرة .

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ المرج الخلط ومنه أمر مريج أي مختلط ، والعذب من الماء ما طاب طعمه ، والفرات منه ما كثر عذوبته ، والملح هو الماء المتغير طعمه . والاجاج شديد الملوحة ، والبرزخ هو الحد الحاجز بين شيئين ، وحجرا محجورا أي حراماً محرماً أن يختلط أحد الماءين بالآخر .

وقوله : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾ الخ : قرينة على أن المراد بمرج البحرين إرسال الماءين متقارنين لا الخلط بمعنى ضرب الأجزاء بعضها ببعض .

والكلام معطوف على ما عطف عليه قوله : « وهو الذي أرسل الرياح » الخ : وفيه تنظير لامر الرسالة من حيث تأديتها الى تميز المؤمن من الكافر مع كون الفريقين يعيشان على أرض واحدة مختلطين وهما مع ذلك غير متمازجين كما تقدمت الإشارة اليه في أول الآيات التسع .

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ الصهر على ما نقل عن الخليل الختن وأهل بيت المرأة فالنسب هو التحرّم من جهة الرجل والصهر هو التحرم من جهة المرأة ـ كما قيل ـ ويؤيده المقابلة بين النسب

والصهر.

والمعنى: وهو الذي خلق من النطفة ـ وهي ماء واحد ـ بشراً فقسَّمه قسمين ذا نسب وذا صهر يعني الرجل والمرأة وهذا تنظير آخر يفيد ما تفيده الآية السابقة أن لله سبحانه أن يحفظ الكثرة في عين الوحدة والتفرق في عين الاتحاد وهكذا يحفظ اختلاف النفوس والآراء بالإيمان والكفر مع اتحاد المجتمع البشري بما بعث الله الرسل لكشف حجاب الضلال الذي من شأنه غشيانه لولا الدعوة الحقة.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ في إضافة الرب الى ضمير الخطاب من النكتة نظير ما تقدم في قوله: «ألم ترَ الى ربك».

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ معطوف على قوله: «وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوًا». والظهير بمعنى المظاهر على ما قيل والمظاهرة المعاونة.

والمعنى: ويعبدون ـ هؤلاء الكفار المشركون ـ من دون الله ما لا ينفعهم بإيصال الخير على تقدير العبادة ولا يضرهم بإيصال الشر على تقدير ترك العبادة وكان الكافر معاوناً للشيطان على ربه.

وكون هؤلاء المعبودين وهم الأصنام ظاهرا لا ينفعون ولا يضرون لا ينافي كون عبادتهم مضرة فلا يستلزم نفي الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرون على شيء نفي الضرر عن عبادتهم المضرة المؤدية للإنسان الى شقاء لازم وعذاب دائم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ أي لم نجعل في رسالتك إلا التبشير والانذار وليس لك وراء ذلك من الأمر شيء فلا عليك إن كانوا معاندين لربهم مظاهرين لعدوه عليه فليسوا بمعجزين لله وما يمكرون إلا بأنفسهم، هذا هو الذي يعطيه السياق.

وعليه فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ هذا الفصل من الكلام نظير

قوله: «أفأنت تكون عليهم وكيلاً» في الفصل السابق.

ومنه يظهر أن أخذ بعضهم الآية تسلية منه تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله حيث قال والمراد ما أرسلناك إلا مبشّرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم. غير سديد.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ ضمير «عليه» للقرآن بما أن تلاوته عليهم تبلغ للرسالة كما قال تعالى: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ (المزمل / ١٩) (الدهر / ٢٩)، وقال: ﴿قل ما أسألكم عليه أجرا وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ (ص / ٨٧).

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ استثناء منقطع في معنى المتصل فإنه في معنى إلا أن يتخذ الى ربه سبيلا من شاء ذلك على حد قوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء / ٨٩)، أي إلا أن يأتي الله بقلب سليم من أتاه به.

ففيه وضع الفاعل وهو من اتخذ السبيل موضع فعله وهو اتخاذ السبيل شكرا له ففي الكلام عدَّ اتخاذهم سبيلا الى الله سبحانه باستجابة الدعوة أجرا لنفسه ففيه تلويح الى نهاية استغنائه عن أجر مالي أو جاهي منهم، وأنه لا يريد منهم وراء استجابتهم للدعوة واتباعهم للحق شيئاً آخر من مال أو جاه او أي أجر مفروض فليطيبوا نفساً ولا يتهموه في نصيحته.

وقد علّق اتخاذ السبيل على مشيتهم للدلالة على حريتهم الكاملة عن قبله صلى الله عليه وآله فلا إكراه ولا إجبار إذ لا وظيفة له عن قبل ربه وراء التبشير والإنذار وليس عليهم بوكيل بل الامر الى الله يحكم فيهم ما يشاء.

فقوله: ﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ﴾الخ: بعدما سجل لنبيه صلى الله عليه وآله أن ليس له إلا الرسالة بالتبشير والإنذار يأمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا أن يستجيبوا له ويتخذوا الى ربهم سبيلاً من غير غرض زائد من الاجر أياً ما

كان. وأن لهم الخيرة في أمرهم من غير أي إجبار وإكراه فهم والدعوة إن شاؤا فليؤمنوا وإن شاؤا فليكفروا.

هذا ما يرجع اليه ﷺ وهو تبليغ الرسالة فحسب من غير طمع في أجر ولا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكال. وأما ما وراء ذلك فهو لله فليرجعه اليه وليتوكل عليه كما أشار اليه في الآية التالية «وتوكل على الحي الذي لا يموت».

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ لما سجل على نبيه ﷺ أن ليس له من أمرهم شيء إلا الرسالة وأمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا الإستجابة لها وأنهم على خيرة من أمرهم إن شاؤا آمنوا وإن شاؤا كفروا تمم ذلك بأمره ﷺ أن يتخذه تعالى وكيلاً في أمرهم فهو تعالى عليهم وعلى كل شيء وكيل وبذنوب عباده خبير.

فقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ أي اتخذه وكيلاً في أمرهم يحكم فيهم ما يشاء ويفعل بهم ما يريد فإنه الوكيل عليهم وعلى كل شيء وقد عدل عن تعليق التوكل بالله الى تعليقه بالحي الذي لا يموت ليفيد التعليل فإن الحي الذي لا يموت لا يفوته فائت فهو المتعين لأن يكون وكيلاً.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي نزهه عن العجز والجهل وكل ما لا يليق بساحة قدسه مقارناً ذلك للثناء عليه بالجميل فإن أمهلهم واستدرجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلك ولا عن جهل بذنوبهم وإن أخذهم بذنوبهم فبحكمة اقتضته وباستحقاق منهم استدعى ذلك فسبحانه وبحمده.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ مسوق للدلالة على توحيده في فعله وصفته فهو الوكيل المتصرف في أمور عباده وحده وهو خبير بذنوبهم وحاكم فيهم وحده من غير حاجة الى من يعينه في علمه أو في حكمه.

ومن هنا يظهر أن الآية التالية «الذي خلق السماوات والأرض» متممة لقوله: «وتوكل على الحي الذي لا يموت» الخ؛ لاشتمالها على توحيده في ملكه وتصرفه كما يشتمل قوله: «وكفى به» الخ؛ على علمه وخبرته وبالحياة والملك والعلم معاً يتم معنى الوكالة وسنشير اليه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ ظاهر السياق أن الموصول صفة لقوله في الآية السابقة: «الحي الذي لا يموت» وبهذه الآية يتم البيان في قوله: «وتوكل على الحي الذي لا يموت» فإن الوكالة كما تتوقف على حياة الوكيل تتوقف على العلم، وقد ذكره في قوله: «وكفى به بذنوب عباده خبيرا» وتتوقف على السلطنة على الحكم والتصرف وهو الذي تتضمنه هذه الآية بما فيها من حديث خلق السماوات والارض وإلاستواء على العرش.

وقد تقدم تفسير صدر الآية في مواضع من السور السابقة، وأما قوله: «الرحمن فاسأل به خبيراً» فالذي يعطيه السياق ويهدي اليه النظم أن يكون الرحمن خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير هو الرحمن. وقوله: «فاسأل» متفرّعاً والفاء للتفريع، والباء في قوله: «به» للتعدية مع تضمين السؤال معنى الإعتناء. وقوله: «خبيراً» حال من الضمير.

والمعنى: هو الرحمن ـ الذي استوى على عرش الملك والذي برحمته وإفاضته يقوم الخلق والأمر ومنه يبتدي كل شيء واليه يرجع ـ فاسأله عن حقيقة الحال يخبرك بها فإنه خبير.

فقوله: ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ كناية عن أن الذي أخبر به حقيقة الأمر التي لا معدل عنها وهذا كما يقول من سئل عن أمر: سلني أُجبك إن كذا وكذا ومن هذا الباب قولهم: على الخبير سقطت.

ولهم في قوله: ﴿الرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ أقوال أُخرى كثيرة: فقيل: إن الرحمن

مرفوع على القطع للمدح، وقيل: مبتدأ خبره قوله: «فاسأل به»، وقيل: خبر مبتدؤه «الذي» في صدر الآية، وقيل: بدل من الضمير المستكن في «استوى».

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول ودعوته الحقة يذكر فيه استكبارهم عن السجود لله سبحانه إذا دعوا اليه ونفورهم منه وللآية اتصال خاص بما قبلها من حيث ذكر الرحمن فيها وقد وصف في الآية السابقة بما وصف ولعل اللام فيه للعهد.

فقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ الضمير للكفار، والقائل هو النبي ﷺ بدليل قوله بعد: «أنسجد لما تأمرنا» ولم يذكر اسمه ليتوجه استكبارهم الى الله سبحانه وحده.

وقوله: ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ ﴾ سؤال منهم عن هويته ومائيته مبالغة منهم في التجاهل به استكبارا منهم على الله ولولا ذلك لقالوا: ومن الرحمن، وهذا كقول فرعون لموسى لما دعاه الى رب العالمين ﴿ وما رب العالمين ﴾ (الشعراء / ٢٣)، وقول إبراهيم لقومه ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ (الأنبياء / ٥٢)، ومراد السائل في مثل هذا السؤال أنه لا معرفة له من المسؤل عنه بشيء أزيد من اسمه كقول هود لقومه ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ (الأعراف / ٧١).

وقوله حكاية عنهم: «أنسجد لما تأمرنا» في تكرار التعبير عنه تعالى بما إصرار على الاستكبار، والتعبير عن طلبه عنهم السجدة بالأمر لا يخلو من تهكم واستهزاء.

وقوله: ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ معطوف على جواب إذا والمعنى: وإذا قيل لهم اسجدوا استكبروا وزادهم ذلك نفورا ففاعل (زادهم) ضمير راجع الى القول المفهوم من سابق الكلام.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ الظاهر أن المراد بالبروج منازل الشمس والقمر من السماء او الكواكب التي عليها كما تقدم في قوله: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ (الحجر / ١٧)، وإنما خصّت بالذكر في الآية للإشارة الى الحفظ والرجم المذكورين.

والذي يعطيه التدبر أن قوله: «تبارك الذي جعل في السماء بروجاً» الخ: مسوق سوق التعزز والاستغناء. وأنهم غير معجزين باستكبارهم على الله واستهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن الاقتراب من حضرة قربه والصعود الى سماء جواره والمعارف الإلهية مضيئة مع ذلك لأهله وعباده بما نوّرها الله سبحانه بنور هدايته وهو نور الرسالة.

وعلى هذا فقد أثنى الله سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج المحفوظة الراجمة للشياطين بالشهب في السماء المحسوسة وجعل الشمس المضيئة والقمر المنير فيها لإضاءة العالم المحسوس. وأشار بذلك الى ما يناظره في الحقيقة من إضاءة العالم الإنساني بنور الهداية من الرسالة ليتبصر به عباده، كما يذكر حالهم بعد هذه الآيات ودفع أولياء الشياطين عن الصعود اليه بما هيّأ لدفعهم من بروج محفوظة راجمة.

هذا ما يعطيه السياق وعلى هذا النمط من البيان سيقت هذه الآيات والتي قبلها كما تقدمت الإشارة اليه في تفسير قوله: «ألم ترَ الى ربك كيف مدّ الظل» فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ الخلفة هي الشيء يسدّ مسدّ شيء آخر وبالعكس وكأنه بناء نوع أريد به معنى الوصف فكون الليل والنهار خلفة أن كلاً منهما يخلف الآخر. وتقييد الخلفة بقوله: «لمن أراد أن يذكّر او أراد شكوراً» للدلالة على نيابة كل منهما عن الآخر في التذكر والشكر.

والمقابلة بين التذكر والشكر يعطي أن المراد بالتذكر الرجوع الى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الدالة على توحيد ربه وما يليق به تعالى من الصفات والأسماء وغايته الإيمان بالله، وبالشكور القول او الفعل الذي يُنبىء عن الثناء عليه بجميل ما أنعم. وينطبق على عبادته وما يلحق بها من صالح العمل.

وعلى هذا فالآية اعتزاز او امتنان بجعله تعالى الليل والنهار بحيث يخلف كل صاحبه فمن فاته الإيمان به في هذه البرهة من الزمان تداركه في البرهة الاخرى منه. ومن لم يوفّق لعبادة او لأي عمل صالح في شيء منهما أتى به في الآخر.

هذا ما تفيده الآية ولها مع ذلك ارتباط بقوله في الآية السابقة: «وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً» ففيه إشارة الى أن الله سبحانه وإن دفع أُولئك المستكبرين عن الصعود الى ساحة قربه لكنه لم يمنع عباده عن التقرب اليه والاستضاءة بنوره فجعل نهاراً ذا شمس طالعة وليلا ذا قمر منير وهما ذوا خلفة من فاته ذكر أو شكر في أحدهما أتى به في الآخر.

٦٣ ۞ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً.

٦٤ ۞ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً.

٦٥ ۞ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً.

٦٦ ۞ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً.

٦٧ ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً.

٦٨ ﴿ وَالَّذِينَ لاٰ يَدْعُونَ معَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلاٰ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَلاٰ يَزْنُونَ وَمَنْ يفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثاماً .

٦٩ ﴿ يُضٰاعَفْ لَهُ ٱلْعَذٰابُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيه مُهٰاناً .

٧٠ ﴿ إِلاّٰ مَنْ تٰابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صٰالِحاً فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللّٰهُ سَيِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ وَكٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً .

٧١ ﴿ وَمَنْ تٰابَ وَعَمِلَ صٰالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّٰهِ مَتٰاباً .

٧٢ ﴿ وَالَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذٰا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرٰاماً .

٧٣ ﴿ وَالَّذِينَ إِذٰا ذُكِّرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهٰا صُمّاً وَعُمْيٰاناً .

٧٤ ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنٰا هَبْ لَنٰا مِنْ أَزْوٰاجِنٰا وَذُرِّيّٰاتِنٰا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِينَ إِمٰاماً .

٧٥ ﴿ أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمٰا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهٰا تَحِيَّةً وَسَلاٰماً .

٧٦ ﴿ خٰالِدِينَ فِيهٰا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقٰاماً .

٧٧ ﴿ قُلْ مٰا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاٰ دُعٰاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزٰاماً .

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَعِبٰادُ الرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذٰا خٰاطَبَهُمُ ٱلْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً﴾ لما ذكر في الآية السابقة استكبارهم على الله سبحانه

وإهانتهم بالاسم الكريم: الرحمن، قابله في هذه الآية بذكر ما يقابل ذلك للمؤمنين وسماهم عبادا وأضافهم الى نفسه متسمياً باسم الرحمن الذي كان يحيد عنه الكفار وينفرون.

وقد وصفتهم الآية بوصفين من صفاتهم:

أحدهما: ما اشتمل عليه قوله: «الذين يمشون على الأرض هوناً» والهون على ما ذكره الراغب التذلل، والأشبه حينئذ أن يكون المشي على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطة الناس ومعاشرتهم فهم في أنفسهم متذللون لربهم ومتواضعون للناس لما أنهم عباد الله غير مستكبرين على الله ولا مستعلين على غيرهم بغير حق، وأما التذلل لأعداء الله ابتغاء ما عندهم من العزة الوهمية فحاشاهم وإن كان الهون بمعنى الرفق واللين فالمراد أنهم يمشون من غير تكبر وتبختر.

وثانيهما: ما اشتمل عليه قوله: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» أي إذ خاطبهم الجاهلون خطاباً ناشئا عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول وقالوا لهم قولاً سلاماً خالياً عن اللغو والاثم، قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثياً إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ (الواقعة / ٢٦)، ويرجع الى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل.

وهذه ـ كما قيل ـ صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس وأما صفة ليلهم فهي التي تصفها الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ البيتوتة إدراك الليل سواء نام أم لا، و«لربهم» متعلق بقوله: «سجّداً» والسجد والقيام جمعا ساجد وقائم، والمراد عبادتهم له تعالى بالخرور على الأرض والقيام على السوق، ومن مصاديقه الصلاة.

والمعنى: وهم الذين يدركون الليل حال كونهم ساجدين فيه لربهم وقائمين يتراوحون سجوداً وقياماً، ويمكن أن يراد به التهجد بنوافل الليل.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ الغرام ما ينوب الانسان من شدة أو مصيبة فيلزمه ولا يفارقه والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ الضمير لجهنم والمستقر والمقام اسما مكان من الاستقرار والإقامة. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾، الإنفاق بذل المال وصرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره، والإسراف الخروج عن الحد ولا يكون إلا في جانب الزيادة. وهو في الإنفاق التعدي عما ينبغي الوقوف عليه في بذل المال، والقتر بالفتح فالسكون التقليل في الإنفاق وهو بإزاء الاسراف على ما ذكره الراغب، والقتر والاقتار والتقتير بمعنى.

والقوم بالفتح الواسط العدل. وبالكسر ما يقوم به الشيء وقوله: «بين ذلك» متعلق بالقوام. والمعنى: وكان إنفاقهم وسطاً عدلاً بين ما ذكر من الاسراف والقتر فقوله: «وكان بين ذلك قواماً» تنصيص على ما يستفاد من قوله: «إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا»، فصدر الآية ينفي طرفي الافراط والتفريط في الانفاق. وذيلها يثبت الوسط.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾ الى آخر الآية: هذا هو الشرك وأُصول الوثنية لا تجيز دعاءه تعالى وعبادته أصلا لا وحده ولا مع آلهتهم وإنما توجب دعاء آلهتهم وعبادتهم ليقربوهم الى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده.

فالمراد بدعائهم مع الله إلهاً آخر إما التلويح الى أنه تعالى إله مدعو بالفطرة على كل حال فدعاء غيره دعاء لإله آخر معه وإن لم يذكر الله.

أو أنه تعالى ثابت في نفسه سواء دعي غيره أم لا فالمراد بدعاء غيره دعاء إله آخر مع وجوده وبعبارة أُخرى تعدّيه الى غيره.

أو إشارة الى ما كان يفعله جهلة مشركي العرب فإنهم كانوا يرون أن دعاء آلهتهم إنما

ينفعهم في البر وأما البحر فإنه لله لا يشاركه فيه أحد فالمراد دعاؤه تعالى في ورد كما عند شدائد البحر من طوفان ونحوه ودعاء غيره مع في مورد وهو البر، وأحسن الوجوه أوسطها.

وقوله: ﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاّ بِالْحَقِّ﴾ أي لا يقتلون النفس الإنسانية التي حرّم الله قتلها في حال من الأحوال إلا حال تلبّس القتل بالحق كقتلها قصاصاً وحداً.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزْنُونَ﴾ أي لا يطؤن الفرج الحرام وقد كان شائعاً بين العرب في الجاهلية. وكان الإسلام معروفاً بتحريم الزنا والخمر من أول ما ظهرت دعوته.

وقوله: ﴿وَمَنْ يفْعَلْ ذٰلِكَ يلْقَ أَثَاماً﴾ الإشارة بذلك الى ما تقدم ذكره وهو الشرك وقتل النفس المحترمة بغير حق والزنا، والأثام الإثم وهو وبال الخطيئة وهو الجزاء بالعذاب الذي سيلقاه يوم القيامة المذكور في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيه مُهَاناً﴾ بيان للقاء الأثام، وقوله: «ويخلد فيها مهاناً» أي يخلد في العذاب قد وقعت عليه الإهانة.

والخلود في العذاب في الشرك لا ريب فيه، وأما الخلود فيه عند قتل النفس المحترمة والزنا وهما من الكبائر وقد صرّح القرآن بذلك فيهما وكذا في أكل الربا فيمكن أن يحمل على اقتضاء طبع المعصية ذلك كما ربما استفيد من ظاهر قوله: «إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».

أو يحمل الخلود على المكث الطويل أعمّ من المنقطع والمؤبّد أو يحمل قوله: «ومن يفعل ذلك» على فعل جميع الثلاثة لأن الآيات في الحقيقة تنزّه المؤمنين عما كان الكفار مبتلين به وهو الجميع دون البعض.

قوله تعالى: ﴿إِلاّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللّٰهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ استثناء من لقي الأثام والخلود فيه،

وقد أُخذ في المستثنى التوبة والايمان وإتيان العمل الصالح. أما التوبة وهي الرجوع عن المعصية وأقل مراتبها الندم فلو لم يتحقق لم ينتزع العبد عن المعصية ولم يزل مقيماً عليها، وأما إتيان العمل الصالح فهو مما تستقر به التوبة وبه تكون نصوحاً.

وأما أخذ الايمان فيدلُّ على أن الاستثناء إنما هو من الشرك فتختص الآية بمن أشرك وقتل وزنا او بمن أشرك سواء أتي معه بشيء من القتل المذكور والزنا او لم يأتِ. وأما من أتى بشيء من القتل والزنا من غير شرك فالمتكفل لبيان حكم توبته الآية التالية.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ تفريع على التوبة والايمان والعمل الصالح يصف ما يترتب على ذلك من جميل الأثر وهو أن الله يبدّل سيئاتهم حسنات.

والذي يفيد ظاهر قوله: «يبدّل الله سيئاتهم حسنات» وقد ذيّله بقوله: «وكان الله غفوراً رحيماً» أن كل سيئة منهم نفسا تتبدّل حسنة، وليست السيئة هي متن الفعل الصادر من فاعله وهو حركات خاصة مشتركة بين السيئة والحسنة كعمل المواقعة مثلاً المشترك بين الزنا والنكاح، والأكل المشترك بين أكل المال غصباً وبإذن من مالكه بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله ومخالفته له مثلاً من حيث إنه يتأثر به الانسان ويحفظ عليه دون الفعل الذي هو مجموع حركات متصرِّمة متقضية فانية وكذا عنوان القائم به الفاني بفنائه.

وهذه الآثار السيئة التي يتبعها العقاب أعني السيئات لازمة للانسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر.

ولولا شوب من الشقوة والمساءة في الذات لم يصدر عنها عمل سيء إذ الذات السعيدة الطاهرة من كل وجه لا يصدر عنها سيئة قذرة فالأعمال السيئة إنما تلحق ذاتاً شقيّة خبيثة بذاتها او ذاتاً فيها شوب من شقاء وخباثة.

ولازم ذلك إذا تطهرت بالتوبة وطابت بالايمان والعمل الصالح فتبدلت ذاتاً سعيدة ما فيها شوب من قذارة الشقاء أن تتبدل آثارها اللازمة التي كانت سيئات قبل ذلك فتناسب الآثار

للذات بمغفرة من الله ورحمة وكان الله غفوراً رحيما.

والى مثل هذا يمكن أن تكون الإشارة بقوله: «فاولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّٰهِ مَتاباً﴾ المتاب مصدر ميمي للتوبة. وسياق الآية يعطي أنها مسوقة لرفع استغراب تبدُّل السيئات حسنات بتعظيم أمر التوبة وأنها رجوع خاص الى الله سبحانه فلا بدع في أن يبدِّل السيئات حسنات وهو الله يفعل ما يشاء.

وفي الآية مع ذلك شمول للتوبة من جميع المعاصي سواء قارنت الشرك أم فارقته، والآية السابقة ـ كما تقدمت الإشارة اليه ـ كانت خفية الدلالة على حال المعاصي إذا تجردت من الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ قال في مجمع البيان: أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنه حق. انتهى. فيشمل الكذب وكل لهو باطل كالغناء والفحش والخناء بوجه، وقال أيضاً: يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه منه انتهى.

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق والتقدير لا يشهدون شهادة الزور. وإن كان المراد اللهو الباطل كالغناء ونحوه كان مفعولاً به والمعنى لا يحضرون مجالس الباطل، وذيل الآية يناسب ثاني المعنيين.

وقوله: ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ اللغو ما لا يعتد به من الأفعال والأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائي ويعم ـ كما قيل ـ جميع المعاصي، والمراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو وهم مشتغلون به.

والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو وهم يلغون مروا معرضين عنهم منزهين أنفسهم عن

الدخول فيهم والاختلاط بهم ومجالستهم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ الخرور على الأرض السقوط عليها وكأنها في الآية كناية عن لزوم الشيء والانكباب عليه.

والمعنى: والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم من حكمة أو موعظة حسنة من قرآن أو وحي لم يسقطوا عليه وهم صم لا يسمعون وعميان لا يبصرون بل تفكروا فيها وتعقلوها فأخذوا بها من بصيرة فآمنوا بحكمتها واتعظوا بموعظتها وكانوا على بصيرة من أمرهم وبينة من ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ قال الراغب في المفردات: قرت عينه تقرُّ سُرّت قال تعالى: «كي تقر عينها» وقيل لمن يسر به قرة عين قال: «قرة عين لي ولك» وقوله تعالى: «هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين» قيل: أصله من القر أي البرد فقرت عينه قيل: معناه بردت فصحّت. وقيل: بل لأن للسرور دمعة باردة قارة وللحزن دمعة حارة ولذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن الله عينه. وقيل: هو من القرار والمعنى أعطاه الله ما يسكن به عينه فلا تطمح الى غيره انتهى.

ومرادهم بكون أزواجهم وذرياتهم قرة أعين لهم أن يسروهم بطاعة الله والتجنب عن معصيته فلا حاجة لهم في غير ذلك ولا إربة وهم أهل حق لا يتبعون الهوى.

وقوله: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ أي متسابقين الى الخيرات سابقين الى رحمتك فيتبعنا غيرنا من المتقين كما قال تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ (البقرة / ١٤٨)، وقال: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾ (الحديد / ٢١)، وقال: ﴿والسابقون السابقون أُولئك المقربون﴾ (الواقعة / ١١). وكأن المراد أن يكونوا صفاً واحداً متقدماً على غيرهم من المتقين ولذا جيىء بالإمام بلفظ الإفراد.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ الغرفة ـ كما قيل ـ البناء فوق البناء فهو الدرجة العالية من البيت، وهي كناية عن الدرجة العالية في الجنة. والمراد بالصبر الصبر على طاعة الله وعن معصيته فهذان القسمان من الصبر هما المذكوران في الآيات السابقة لكن لا ينفك ذلك عن الصبر عند النوائب والشدائد.

والمعنى: أُولئك الموصوفون بما وصفوا يجزون الدرجة الرفيعة من الجنة يلقون فيها أي يتلقاهم الملائكة بالتحية وهو ما يقدم للإنسان مما يسره وبالسلام وهو كل ما ليس فيه ما يخافه ويحذره. وفي تنكير التحية والسلام دلالة على التفخيم والتعظيم. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ قال في المفردات: ما عبأت به أي لم أُبال به. وأصله من العبء أي الثقل كأنه قال: ما أرى له وزناً وقدراً، قال تعالى: «قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم» وقيل: عبأت الطيب كأنه قيل: ما يبقيكم لولا دعاؤكم. انتهى.

والمعنى: قل لا قدر ولا منزلة لكم عند ربي فوجودكم وعدمكم عنده سواء لأنكم كذّبتم فلا خير يرجى فيكم فسوف يكون هذا التكذيب ملازماً لكم أشد الملازمة. إلا أن الله يدعوكم ليتم الحجة عليكم أو يدعوكم لعلكم ترجعون عن تكذيبكم. وهذا معنى حسن.

والآية خاتمة السورة وتنعطف الى غرض السورة ومحصّل القول فيه وهو الكلام على اعتراض المشركين على الرسول وعلى القرآن النازل عليه وتكذيبهما.

سورة الشعراء مكية وهي مائتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● طسٓمٓ.

٢ ● تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ.

٣ ● لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

٤ ● إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا
خَاضِعِينَ.

٥ ● وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ
مُعْرِضِينَ.

٦ ● فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبٰؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ.

٧ ● أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ.

٨ ● إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

٩ ● وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

بيان:

غرض السورة تسلية النبي ﷺ قبال ما كذّبه قومه وكذّبوا بكتابه النازل عليه من ربه ـ على ما يلوّح اليه صدر السورة: تلك آيات الكتاب المبين ـ وقد رموه تارة بأنه مجنون وأُخرى بأنه شاعر، وفيها تهديدهم مشفّعاً ذلك بإيراد قصص جمع من الأنبياء وهم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليه السلام وما انتهت اليه عاقبة تكذيبهم لتتسلى به نفس النبي ﷺ ولا يحزن بتكذيب أكثر قومه وليعتبر المكذبون.

والسورة من عتائق السور المكية وأوائلها نزولاً وقد اشتملت على قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. وربما أمكن أن يستفاد من وقوع هذه الآية في هذه السورة ووقع قوله: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ في سورة الحجر وقياس مضمونيها كل مع الاخرى أن هذه السورة أقدم نزولاً من سورة الحجر وظاهر سياق آيات السورة أنها جميعاً مكية واستثنى بعضهم الآيات الخمس التي في آخرها، وبعض آخر قوله: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ وسيجيء الكلام فيهما.

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾ الإشارة بتلك الى آيات الكتاب مما سينزل بنزول السورة وما نزل قبل، وتخصيصها بالإشارة البعيدة للدلالة على علوّ قدرها ورفعة مكانتها، والمبين من أبان بمعنى ظهر وانجلى.

والمعنى: تلك الآيات العالية قدراً الرفيعة مكاناً آيات الكتاب الظاهر الجلي كونه من عند الله سبحانه بما فيه من سمة الإعجاز وإن كذّب به هؤلاء المشركون المعاندون ورموه تارة بأنه من إلقاء شياطين الجن وأُخرى بأنه من الشعر.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ البخوع هو إهلاك النفس عن وجد، وقوله: «ألا يكونوا مؤمنين» تعليل للبخوع، والمعنى: يرجى منك أن تهلك نفسك

بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك.

والكلام مسوق سوق الإنكار والغرض منه تسلية النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ متعلق المشيّة محذوف لدلالة الجزاء عليه. وقوله: «فظلّت» الخ: ظلّ فعل ناقص اسمه «أعناقهم» وخبره «خاضعين» ونسب الخضوع الى أعناقهم وهو وصفهم أنفسهم لأن الخضوع أول ما يظهر في عنق الإنسان حين يطأطىء رأسه تخضعاً فهو من المجاز العقلي.

والمعنى: إن نشأ أن ننزّل عليهم آية تخضعهم وتلجئهم الى القبول وتضطرهم الى الإيمان ننزل عليهم آية كذلك فظلوا خاضعين لها خضوعاً بيّناً بانحناء أعناقهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات الله وتمكن الإعراض عن ذكر الله في نفوسهم بحيث كلما تجدد عليهم ذكر من الرحمن ودعوا اليه دفعه بالإعراض.

فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كل ذكر أتاهم لا أنهم يعرضون عن محدث الذكر ويقبلون الى قديمه وفي ذكر صفة الرحمن إشارة الى أن الذكر الذي يأتيهم إنما ينشأ عن صفة الرحمة العامة التي بها صلاح دنياهم وأخراهم.

وقد تقدم في تفسير أول سورة الأنبياء كلام في معنى الذكر المحدث فراجع.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تفريع على ما تقدم من استمرار إعراضهم. وقوله: «فسيأتيهم» الخ: تفريع على التفريع والأنبياء جمع نبأ وهو الخبر الخطير. والمعنى لما استمر منهم الإعراض عن كل ذكر يأتيهم تحقق منهم وثبت عليهم أنهم كذبوا، وإذ تحقق منهم التكذيب فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون من آيات الله. وتلك الأنباء العقوبات العاجلة والآجلة التي ستحيق بهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي والجملة معطوف على مقدر يدل عليه المقام والتقدير أصروا واستمروا على الإعراض وكذبوا بالآيات ولم ينظروا الى هذه الأزواج الكريمة من النباتات التي أنبتناها في الأرض.

فالرؤية في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ مضمنة معنى النظر ولذا عديت بإلى، والظاهر أن المراد بالزوج الكريم. وهو الحسن على ما قيل: النوع من النبات وقد خلق الله سبحانه أنواعه أزواجاً. وقيل: المراد بالزوج الكريم الذي أنبته الله يعم الحيوان وخاصة الانسان بدليل قوله: «والله أنبتكم من الأرض نباتاً».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الاشارة بذلك الى ما ذكر في الآية السابقة من إنبات كل زوج كريم حيث أن فيه إيجاداً لكل زوج منه وتتميم نقائص كل من الزوجين بالآخر وسوقهما الى الغاية المقصودة من وجودهما وفيه هداية كل الى سعادته الأخيرة ومن كانت هذه سنته فكيف يهمل أمر الانسان ولا يهديه الى سعادته ولا يدعوه ال ما فيه خير دنياه وآخرته. هذا ما تدل عليه آية النبات.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لم يكن المترقب من حال أكثرهم بما عندهم من ملكة الاعراض وبطلان الاستعداد أن يؤمنوا فظاهر الآية نظير ظاهر قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ (يونس / ٧٤). وتعليل الكفر والفسوق برسوخ الملكات الرذيلة واستحكام الفساد في السريرة من قبل في كلامه تعالى أكثر من أن تحصى.

ومن هنا يظهر أن قول بعضهم: إن المراد ما كان في علم الله أن لا يؤمنوا غير سديد لأنه مضافاً الى كونه خلاف المتبادر من الجملة، مما لا دليل على أنه المراد من اللفظ بل الدليل على خلافه لسبق الدلالة على أن ملكة الاعراض راسخة لم تزل في نفوسهم.

وعن سيبويه أن «كان» في قوله: «وما كان أكثرهم مؤمنين» صلة زائدة والمعنى: وما

أكثرهم مؤمنين. وفيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن المقام بما تقدم من المعنى أوفق.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فهو تعالى لكونه عزيزاً غير مغلوب يأخذ المعرضين عن ذكره المكذبين لآياته المستهزئين بها ويجازيهم بالعقوبات العاجلة والآجلة. ولكونه رحيماً ينزّل عليهم الذكر ليهديهم ويغفر للمؤمنين به ويمهل الكافرين[١].

١٠ ● وَإِذْ نادىٰ رَبُّكَ مُوسىٰ أَنِ آئْتِ ٱلْقَوْمَ الظّالِمِينَ.

١١ ● قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاٰ يَتَّقُونَ.

١٢ ● قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ.

١٣ ● وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاٰ يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰرُونَ.

١٤ ● وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ.

١٥ ● قالَ كَلاّٰ فَاذهَبا بِآياتِنا إِنّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ.

١٦ ● فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولاٰ إِنّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ.

١٧ ● أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ.

١٨ ● قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ.

١٩ ● وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكافِرِينَ.

٢٠ ● قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضّالِّينَ.

٢١ ● فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

---

١. الشعراء ١ ـ ٩: بحث عقلي متعلق بالعلم في علم الله الازلي.

٢٢ ● وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

٢٣ ● قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ.

٢٤ ● قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ.

٢٥ ● قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ.

٢٦ ● قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ.

٢٧ ● قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ.

٢٨ ● قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ.

٢٩ ● قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ.

٣٠ ● قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ.

٣١ ● قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

٣٢ ● فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ.

٣٣ ● وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ.

٣٤ ● قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ.

٣٥ ● يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ.

٣٦ ● قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ.

٣٧ ● يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.

٣٨ ● فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ.

٣٩ ● وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ.

٤٠ ● لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ.

٤١ ۞ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ
الْغَالِبِينَ.

٤٢ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ.

٤٣ ۞ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ.

٤٤ ۞ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
الْغَالِبُونَ.

٤٥ ۞ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ.

٤٦ ۞ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ.

٤٧ ۞ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

٤٨ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ.

٤٩ ۞ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ
السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ
خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ.

٥٠ ۞ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ.

٥١ ۞ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ.

٥٢ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ.

٥٣ ۞ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ.

٥٤ ۞ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ.

٥٥ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ.

٥٦ ۞ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ.

٥٧ ۞ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ.

٥٨ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ.

٥٩ ۞ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ.

٦٠ ۞ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ.

٦١ ۞ فَلَمَّا تَرَاءَ ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ.

٦٢ ۞ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ.

٦٣ ۞ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ.

٦٤ ۞ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ.

٦٥ ۞ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ.

٦٦ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ.

٦٧ ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

٦٨ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ـ الى قوله ـ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي واذكر وقتاً نادى فيه ربك موسى وبعثه بالرسالة الى قوم فرعون لإنجاء بني إسرائيل على ما فصّله في سورة طه وغيرها.

وقوله: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ نوع تفسير للنداء. وتوصيفهم أولاً بالظالمين ثم

بيانه ثانياً بقوم فرعون للإشارة الى حكمة الارسال وهي ظلمهم بالشرك وتعذيب بني إسرائيل كما في سورة طه من قوله: ﴿ إذهبا إلى فرعون إنه طغى ـ الى أن قال ـ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ (طه / ٤٧).

وقوله: ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ بصيغة الغيبة، وهو توبيخ غيابي منه تعالى لهم وإيراده في مقام عقد الرسالة لموسى عليه السلام في معنى قولنا: قل لهم إن ربي يوبخكم على ترك التقوى ويقول: ألا تتقون.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ـ الى قوله ـ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾، قال في مجمع البيان: الخوف انزعاج النفس بتوقع الضرع ونقيضه الأمن وهو سكون النفس الى خلوص النفع، انتهى. وأكثر ما يطلق الخوف على إحساس الشر بحيث يؤدي الى الاتقاء عملاً وإن لم تضطرب النفس. والخشية على تأثر النفس من توقع الشر بحيث يورث الاضطراب والقلق. ولذا نفى الله الخشية من غيره عن أنبيائه وربما أثبت الخوف فقال: ﴿ ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ (الأحزاب / ٣٩)، وقال: ﴿ وإما تخافن منهم خيانة ﴾ (الأنفال / ٥٨).

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ أي ينسبني قوم فرعون الى الكذب، وقوله: «ويضيق صدري ولا ينطلق لساني» الفعلان مرفوعان وهما معطوفان على قوله: «أخاف» فالذي اعتلّ به أمور ثلاثة: خوف التكذيب وضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان، وفي قراءة يعقوب وغيره يضيق وينطلق بالنصب عطفاً على «يكذبون» وهو أوفق بطبع المعنى، وعلى فالعلة واحدة وهي خوف التكذيب الذي يترتب عليه ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان. ويطابق ما سيجيء من آية القصص من ذكر علة واحدة هي خوف التكذيب.

وقوله: ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ أي أرسل ملك الوحي الى هارون ليكون معيناً لي

على تبليغ الرسالة يقال لمن نزلت به نائبة أو أشكل عليه أمر: أرسل الى فلان أي استمد منه واتخذه عوناً لك.

فالجملة أعني قوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ متفرعة على قوله: «إني أخاف» الخ؛ وذكر خوف التكذيب مع ما معه من ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان توطئة وتقدمة لذكرها وسؤال موهبة الرسالة لهارون.

وإنما اعتلّ بما اعتل به وسأل الرسالة لأخيه ليكن شريكاً له في أمره، معيناً مصدِّقاً له في التبليغ لا فراراً عن تحمل أعباء الرسالة. واستعفاءً منها، قال في روح المعاني: ومن الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع «فأرسل» بين الأوائل وبين الرابعة أعني قوله: «ولهم عليّ ذنب» الخ؛ فآذن بتعلقه بها ولو كان تعللاً لاخّر. انتهى.

وهو حسن وأوضح منه قوله تعالى في سورة القصص في القصة: ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون، وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾ (القصص / ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ قال الراغب في المفردات: الذنب في الأصل الأخذ بذنب الشيء يقال: ذنبته أصبت ذنبه، ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً لما يحصل من عاقبته. انتهى.

وفي الآية إشارة الى قصة قتله ﷺ، وكونه ذنباً لهم عليه إنما هو بالبناء على اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغوي المذكور آنفاً، وأما كونه ذنباً بمعنى معصية الله تعالى فلا دليل عليه وسيوافيك فيه كلام عند تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ كلا للردع وهو متعلق بما ذكره من خوف القتل، ففيه تأمين له وتطييب لنفسه أنهم لا يصلون اليه، وأما سؤاله الإرسال الى هارون فلم يذكر ما أُجيب به عنه، غير أن قوله: «فاذهبا بآياتنا» دليل على

إجابة مسؤوله.

وقوله: ﴿فَاذهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ متفرع على الردع فيفيد أن اذهبا اليه بآياتنا ولا تخافا، وقد علّل ذلك بقوله: «إنا معكم مستمعون» والمراد بضمير الجمع موسى وهارون والقوم الذين أُرسلا اليهم، ولا يعبؤ بقول من قال: إن المراد به موسى وهارون بناء على كون أقلّ الجمع اثنين فإنه مع فساده في أصله لا تساعد عليه ضمائر التثنية قبله وبعده كما قيل.

والاستماع هو الإصغاء الى الكلام والحديث وهو كناية عن الحضور وكمال العناية بما يجري بينهما وبين فرعون وقومه عند تبليغ الرسالة كما قال في القصة من سورة طه: ﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ (طه / ٤٦).

ومحصل المعنى: كلا لا يقدرون على قتلك فاذهبا اليهم بآياتنا ولا تخافا إنا حاضرون عندكم شاهدون عليكم معتنون بما يجري بينكم.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بيان لقوله في الآية السابقة: «فاذهبا اليهم بآياتنا».

وقوله: ﴿فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ تفريع على إتيان فرعون، والتعبير بالرسول بلفظ المفرد إما باعتبار كون رسالتهما واحدة وهي قولهما: «أن أرسل» الخ؛ أو باعتبار أن الرسول مصدر في الأصل فالأصل أن يستوي فيه الواحد والجمع، والتقدير إنا ذوا رسول رب العالمين أي ذوا رسالته كما قيل.

وقوله ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تفسير للرسالة المفهومة من السياق والمراد بارسالهم إطلاقهم لكن لما كان المطلوب أن يعودوا الى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وهي أرض آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام سمّي إطلاقهم ليعودوا اليها إرسالاً منه لهم اليها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾

الاستفهام للإنكار التوبيخي، و «نربك» من التربية، والوليد الصبي.

لما أقبل فرعون على موسى وهارون وسمع كلامهما عرف موسى وخصه بالخطاب قائلا ألم نربك، الخ: ومراده الاعتراض عليه أولاً من جهة دعواه الرسالة يقول: أنت الذي ربيناك وأنت وليد ولبثت فينا من عمرك سنين عديدة نعرفك باسمك ونعتك ولم ننس شيئاً من أحوالك فمن أين لك هذه الرسالة وأنت من نعرفك ولا نجهل أصلك؟

قوله تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ الفعلة بفتح الفاء بناء مرة من الفعل، وتوصيف الفعلة بقوله: «التي فعلت» للدلالة على عظم خطره وكثرة شناعته وفظاعته نظير ما في قوله: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ (طه / ٧٨)، ومراده بهذه الفعلة قتله ﷺ القبطي.

وقوله: ﴿وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ ظاهر السياق على ما سيأتي الإشارة اليه أن مراده بالكفر كفران النعمة وأن قتله القبطي وإفساده في أرضه كفران لنعمته عليه بالخصوص بما له عنده من الصنيعة حيث كف عن قتله كسائر المواليد من بني إسرائيل ورباه في بيته بل لأنه من بني إسرائيل وهو يراهم عبيداً لنفسه ويرى نفسه رباً منعماً عليهم فقتل الواحد منهم رجلاً من قومه وإفساده في الأرض خروج من طور العبودية وكفر بنعمته.

فمحصل اعتراضه المشار اليه في الآيتين أنك الذي ربيناك صبياً صغيراً ولبثت فينا من عمرك سنين، وأفسدت في الأرض بقتل النفس فكفرت بنعمتي وأنت من عبيدي الإسرائيليين فمن أين جاءتك هذه الرسالة؟ وكيف تكون رسولا وأنت هذا الذي نعرفك؟.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ضمير «فعلتها» راجع الى الفعلة. والظاهر أن «إذاً» مقطوع عن الجواب والجزاء ويفيد معنى حينئذ كما قيل. وعبده تعبيداً وأعبده إعباداً إذا اتخذه عبداً

لنفسه.

والآيات الثلاث جواب موسى عليه السلام عما اعترض به فرعون، والتطبيق بين جوابه عليه السلام وما اعترض به فرعون يعطي أنه عليه السلام حلل كلام فرعون الى القدح في دعواه للرسالة من ثلاثة أوجه: أحدها استغراب رسالته واستبعادها وهو الذي يعلم حاله وقد أشار اليه بقوله: «ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين» والثاني استقباح فعلته ورميه بالإفساد والجرم بقوله: «وفعلت فعلتك التي فعلت» والثالث المن عليه بأنه من عبيده ويستفاد ذلك من قوله: «وأنت من الكافرين» وقد اقتضى طبع ما يذكره في الجواب أن يغير الترتيب في الجواب فيجيب أولاً عن اعتراضه الثاني ثم عن الأول ثم عن الثالث.

فقوله: ﴿فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ جواب عن اعتراضه بقتل القبطي وقد استعظمه حيث لم يصرّح باسمه بل كنّى عنه بالفعلة التي فعلت صوناً للأسماع أن تقرع باسمه فتتألم.

والتدبر في متن الجواب ومقابلته الاعتراض يعطي أن قوله: «ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً» من تمام الجواب عن القتل فيتقابل الحكم والضلال ويتضح حينئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم والحكم إصابة النظر في حقيقه الأمر وإتقان الرأي في تطبيق العمل عليه فيرجع معناه الى القضاء الحق في حسن الفعل وقبحه وتطبيق العمل عليه، وهذا هو الذي كان يؤتاه الأنبياء، قال تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاع بإذن الله».

فالمراد أني فعلتها حينئذ والحال أني في ضلال من الجهل بجهة المصلحة في والحق الذي يجب أن يتبع هناك فأقدمت على الدفاع عمن استنصرني ولم أعلم أنه يؤدي الى قتل الرجل ويؤدي ذلك الى عاقبة وخيمة تحوجني الى خروجي من مصر وفراري الى مدين والتغرّب عن الوطن سنين.

وقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ متفرع على قصة

القتل، والسبب في خوفه وفراره ما أخبر الله به في سورة القصص بقوله: ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ (القصص / ٢١).

وأما الحكم فالمراد به ـ كما استظهرناه ـ إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في العمل به.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ جواب عن الاعتراض الأول وهو استغراب رسالته واستبعادها وهم يعرفونه. وقد شاهدوا أحواله حينما كانوا يربّونه فيهم وليداً ولبث فيهم من عمره سنين، وتقريره أن استغرابهم واستبعادهم رسالته استناداً الى سابق معرفتهم بحاله إنما يستقيم لو كانت الرسالة أمراً اكتسابياً يمكن أن يحدس به أو يتوقع حصول مقدماته الاختيارية، وليس الأمر كذلك بل هي أمر وهبي لا تأثير للأسباب العادية فيها وقد جعله الله من المرسلين كما وهب له الحكم بغير اكتساب هذا ما يعطيه التدبر في السياق.

وقوله: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ جواب عن منّه عليه وتقريعه بأنه من عبيده وقد كفر نعمته وتقرير الجواب أنهذا الذي تعدّه نعمة وتقرّ عني بكفرانها سلطة ظلم وتغلّب إذ عبّدت بني إسرائيل والتعبيد ظلماً وتغلّباً ليس من النعمة في شيء.

فالجملة استفهامية مسوقة للإنكار و«أن عبّدت بني إسرائيل» بيان لما أُشير اليه بقوله: «تلك» والمحصّل أن الذي تشير اليه بقولك «وأنت من الكافرين» من أن لك عليَّ نعمة كفرتها إذ كنت وليَّ نعمتي وسائر بني إسرائيل ـ أو إذ كنت وليّ نعمتنا معشر بني إسرائيل ـ ليس بحق إذ كونك ولياً منعماً ليس إلا استناداً الى التعبيد. والتعبيد ظلم والولاية المستندة اليه أيضاً ظلم وحاشا أن يكون الظالم ولياً منعماً له على من عبّده نعمة وإلا كان التعبيد نعمة وليس نعمة، ففي قوله: «أن عبّدت بني إسرائيل» وضع السبب موضع المسبب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ـ الى قوله ـ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ لمّا كلم فرعون موسى ﷺ في معنى رسالته قادحاً فيها فتلق الجواب بما كان فيه إفحامه أخذ يكلمه في خصوص مرسله وقد أخبره أن الذي أرسله هو رب العالمين فراجعه فيه واستوضحه بقوله: «وما رب العالمين؟» الى تمام سبع آيات.

واتضاح المراد منها يتوقف على تذكر أُصول مذاهب الوثنية في أمر الربوبية وقد تقدمت الإشارة اليها في خلال الأبحاث السابقة من هذا الكتاب كراراً.

فقوله: «قال فرعون وما رب العالمين» سؤال منه عن حقيقة رب العالمين بيانه أن فرعون كان وثنياً يعبد الأصنام وهو مع ذلك يدّعي الالوهية، أما عبادته الأصنام فلقوله تعالى: ﴿ويذرك وآلهتك﴾ (الأعراف / ١٢٧). وأما دعواه الالوهية فللآية المذكورة ولقوله تعالى: ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ (النازعات / ٢٤).

ولا منافاة عند الوثنية بين كون الشيء إلهاً رباً وبين كونه مربوباً لرب آخر لأن الربوبية هو الاستقلال في تدبير شيء من العالم وهو لا ينافي الإمكان والمربوبية لشيء آخر وكل رب عندهم مربوب لآخر إلا الله سبحانه فهو رب الأرباب لا رب فوقه وإله الآلهة لا إله له.

وكان المُلك عند الوثنية ظهوراً من اللاهوت في بعض النفوس البشرية بالسلطة ونفوذ الحكم فكان يعبد الملوك كما يعبد أرباب الأصنام وكذلك رؤساء البيوت في بيوتهم. وكان فرعون وثنياً يعبد الآلهة وهو ملك القبط يعبده قومه كسائر الآلهة.

فلما سمع من موسى وهارون قولهما: «إنّا رسول رب العالمين» تعجّب منه إذ لم يعقل له معنى محصلاً إذ لو أُريد به الواجب وهو الله سبحانه فهو عنده رب عالم الأرباب دون جميع العالمين ولو أُريد به بعض الممكنات الشريفة من الآلهة كبعض الملائكة وغيرهم فهو أيضاً عنده رب عالم من عوالم الخلقة دون جميع العالمين فما معنى رب العالمين.

ولذلك قال: «وما رب العالمين» فسأل عن حقيقة الموصوف بهذه الصفة بما هو موصوف

بهذه الصفة ولم يسأل عن حقيقة الله سبحانه فإن لوثنيته كان معتقداً بوجوده مذعناً له وهو يرى كسائر الوثنيين أنه لا سبيل الى إدراك حقيقته كيف؟ وهو أساس مذهبهم الذي يبنون عليه عبادة سائر الآلهة والأرباب كما سمعت.

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ جواب موسى ﷺ عن سؤاله «وما رب العالمين» وهو خبر لمبتدأ محذوف، ومحصل المعنى على ما يعطيه المطابقة بين السؤال والجواب: هو رب السماوات والأرض وما بينهما التي تدل بوجود التدبير فيها وكونه تدبيراً واحداً متصلاً مرتبطاً على أن لها مدبّراً ـ رباً ـ واحداً على ما يراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان والوجدان.

وبتعبير آخر مرادي بالعالمين السماوات والأرض وما بينهما التي تدل بالتدبير الواحد الذي فيها على أن لها رباً مدبراً واحداً، ومرادي برب العالمين ذلك الرب الواحد الذي تدل عليه وهذه دلالة يقينية يجدها أهل اليقين الذين يتعاطون البرهان والوجدان.

وقوله: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي ألا تصغون الى ما يقول موسى؟ والاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا اليه فيتجبوا من قوله حيث يدّعي رسالة رب العالمين وإذا سئل ما رب العالمين؟ أعاد الكلمة ثانياً ولم يزد على ما بدأ به شيئاً.

وهذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذي لاح من كلام موسى ﷺ فإنه إنما قال: إن جميع العالمين تدلّ بوحدة التدبير الذي يشاهده أهل اليقين فيها على أن لها رباً مدبراً واحداً هو الذي تسألني عنه، وهو يفسر كلامه أنه يقول: أنا رسول رب العالمين، فإذا سألته ما رب العالمين؟ يجيبني بأنه رب لعالمين.

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جواب موسى ﷺ ثانياً فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله وقد كان أجاب عن سؤاله «وما رب العالمين» بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات والأرض وما بينهما عدل ثانياً الى ما يكون أصرح في المقصود فذكر

ربوبيته تعالى لعالمي الإنسانية فإن العالم الجماعة من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين والماضين ولذلك قال: «ربكم ورب آبائكم الأولين».

وكان محصّل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانياً بالتصريح على أن رب العالمين هو رب عالمي الإنسانية من الحاضرين والماضين وبذلك تنقطع حيلته.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ قول فرعون ثانياً وقد سمى موسى رسولاً تهكماً واستهزاء وأضافه الى من حوله ترفعاً من أن يكون رسولاً اليه، وقد رماه بالجنون مستنداً الى قوله ﷺ: «ربكم ورب آبائكم» الخ.

وقوله: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي ألا تصغون إلى ما يقول موسى؟ والاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا اليه فيتعجبوا من قوله حيث يدّعي رسالة رب العالمين وإذا سئل ما رب العالمين؟ أعاد الكلمة ثانياً ولم يزد على ما بدأ به شيئاً.

وهذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذي لاح من كلام موسى ﷺ فإنه إنما قال إن جميع العالمين تدّل بوحدة التدبير الذي يشاهده أهل اليقين عليها على أن لها رباً مدبراً واحداً هو الذي تسألني عنه، وهو يفسر كلامه أنه يقول أنا رسول رب العالمين، فإذا سألته ما رب العالمين؟ يجيبني بأنه رب العالمين.

وقوله ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ جواب موسى ﷺ ثانياً فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله وقد كان أجاب عن سؤاله «وما رب العالمين» بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات والأرض وما بينهما عدل ثانياً إلى ما يكون أصرح في المقصود فذكر ربوبيته تعالى لعالمي الإنسانية فإن العالم الجماعة من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين والماضين ولذلك قال: «ربكم ورب آبائكم الأولين».

وكان محصّل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانياً

بالتصريح على أنه رب العالمين هو رب عالمي الانسانية من الحاضرين والماضين وبذلك تنقطع حيلته.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ قول فرعون ثانياً وقد سمى موسى رسولاً تهكماً واستهزاء وأضافه إلى من حوله ترفعاً من أن يكون رسولاً اليه، وقد رماه بالجنون مستنداً إلى قوله عليه السلام: «ربكم ورب آبائكم» الخ.

كأنه يقول: إنه لمجنون لما في كلامه من الاختلال الكاشف عن الاختلال في تعقله يدّعي رسالة رب العالمين فأسأله ما رب العالمين؟ فيكرر اللفظ تقريباً أولاً ثم يفسره بأنه ربكم ورب آبائكم الأولين.

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ظاهر السياق أن المراد بالمشرق جهة شروق الشمس وسائر الأجرام النيّرة السماوية وطلوعها وبالمغرب الجهة التي تغرب فيها بحسب الحس، وبما بينهما ما بين الجهتين فيشمل العالم المشهود ويساوي السماوات والأرض وما بينهما.

فيكون إعادة لمعنى الجواب الأول بتقرير آخر وهو مشتمل على ما اشتمل عليه من نكتة اتصال التدبير واتحاده فإن للشروق ارتباطاً بالغروب والمشرق والمغرب يتحققان طرفين لوسط بينهما، كما أن للسماء أرضاً ولهما أمر بينهما وهذا النوع من الاتحاد لا يقبل إلا تدبيراً متصلاً واحداً، وكما أن كل أُمة حاضرة لها ارتباط وجودي بالامم الماضية ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنوع واحد والتدبير واحد فالمدبر واحد.

وقد بدّل قوله في الجواب الأول: «إن كنتم موقنين» من قوله ههنا: «إن كنتم تعقلون» تعريضاً له حيث قال لمن حوله: «ألا تستمعون» استهزاء به وإهانة له، ثم رماه ثانياً بالجنون واختلال الكلام فأشار عليه السلام بقوله: «إن كنتم تعقلون» الى أنهم هم المحرومون من نعمة التعقل والتفقه ولو كانوا يعقلون لفهموا أن جوابه الأول ليس بتكرار غير مفيد ولكفاهم حجة على

توحيد الرب وأن القائم بتدبير جميع العالمين من السماوات والأرض وما بينهما مدبّر واحد لا مدبّر سواه ولا رب غيره.

وقد تبين بما ذكر أن الآيه أعني قوله: «رب المشرق» الخ: تقرير آخر لقوله في الجواب الأول: «رب السماوات والأرض وما بينهما» وأنه برهان على وحدة المدبر من طريق وحدة التدبير وفي ذلك تعريف لرب العالمين بأنه المدبّر الواحد الذي يدل عليه التدبير والواحد في جميع العالمين. نعم البيان الذي يشير اليه هذه الآية أوضح لاشتماله على معنى الشروق والغروب وكونهما من التدبير ظاهر.

وقوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ تهديد منه لموسى ﷺ لو دام على ما يقول به من ربوبية رب العالمين مدّعياً أنه رسول منه وهذا دأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحجة أخذ في التهديد وتشبّث بالوعيد.

واتخاذ إله غيره كناية عن القول بربوبية رب العالمين الذي يدعو اليه موسى وإنما لم يذكره صوناً للسانه عن التفوّه باسمه، ولم يعبأ بسائر الآلهة التي كانوا يعبدونها استكباراً وعلوّاً. وكأن السجن كان جزاء المعرضين عنه المنكرين لالوهيته.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ القائل هو موسى ﷺ والمراد بشيء مبين شيء يبين ويظهر صحة دعواه وهو آية الرسالة التي تدل على صحة دعوى الرسالة من مدّعيه فإن الآية المعجزة إنما تدل على صدق الرسول في دعواه الرسالة وأما المعارف الالهية التي يدعو اليها كالتوحيد والمعاد وما يتعلق بها فالسبيل الى إثباته الحجة البرهانية وعلى ذلك كانت تجري سيرة الأنبياء في دعوتهم وقد تقدم كلام فيه في الجزء الأول من الكتاب.

والمعنى: قال موسى: أتجعلني من المسجونين ولو أتيتك بشيء يوضح صدقي فيما ادّعيت من الرسالة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ القائل فرعون وقد فرّع أمره

بإتيانه على استفهام موسى المشعر بأنه يدعي أن عنده شيئاً مبيناً ولذا قيّد الأمر بالإتيان بقوله: «إن كنت من الصادقين» أي إن كنت صادقاً في أن عندك شيئاً كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ هاتان الآيتان اللتان أوتيهما موسى ليلة الطور، والثعبان: الحية العظيمة وكونه مبيناً ظهور واقعيته بحيث لا يرتاب فيه، والمراد بنزع يده نزعه من جيبه بعد وضعها فيه كما في سورتي: النمل الآية ١٢ والقصص الآية ٣٢.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ القائل فرعون وقد قال لموسى: «فأت به إن كنت من الصادقين» رجاء أن يأتي بأمر فيه موضع معارضة ومناقشة فلما أتى بما لا مغمض فيه لم يجد بدأ دون أن يبهته بأنه ساحر عليم.

ولذا أتبع رميه بالسحر بقوله: «يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره» إغراء لهم عليه وحثاً لهم على أن يتفقوا معه على دفعه بأي وسيلة ممكنة.

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ لعل المراد بالأمر الإشارة عليه لما أن المشير يشير على من يستشيره بلفظ الأمر فالمعنى إذا كان الشأن هذا فماذا تشيرون عليّ أن أُعامله به حتى أعمل به وذلك أنه كان يرى نفسه ربهم الأعلى ويراهم عبيده ولا يناسب ذلك حمل الأمر على معناه المتعارف.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ القائلون هم الملأ حوله وهم أشراف قومه، وقوله: «أرجه» بسكون الهاء على القراءة الدائرة وهو أمر من الإرجاء بمعنى التأخير أي أخر موسى وأخاه وأمهلهما ولا تعجل اليهما بسياسة أو سجن ونحوه حتى تعارض سحرهما بسحر مثله.

وقرىء «أرجه» بكسر الهاء و«أرجئه» بالهمزة وضم الهاء، وهما أفصح من القراءة

الدائرة، والمعنى واحد على أي حال.

وقوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ المدائن جمع مدينة وهي البلدة والحاشر من الحشر وهو إخراج الى مكان بإزعاج أي ابعث في البلاد عدة من شرطانك وجنودك يحشرون كل سحّار عليم فيها ويأتوك بهم لتعارضها بسحرهم.

والتعبير بالسحارون الساحر للاشاره الى أن هناك من هو أعلم منه بفنون السحر وأكثر عملاً.

قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾، هو يوم الزينة الذي اتفق موسى وفرعون على جعله ميقاتاً للمعارضة كما في سورة طه ففي الكلام إيجاز وتلخيص.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ﴾ الاستفهام لحث الناس وترغيبهم على الاجتماع.

قال في الكشاف ما حاصله أن المراد باتباع السحرة اتباعهم في دينهم ـ وكانوا متظاهرين بعبادة فرعون كما يظهر من سياق الآيات التالية ـ وليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى لا اتباع السحرة، وإنما ساقوا كلامهم مساق الكناية ليحملوا به السحرة على الاهتمام والجد في المغالبة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ. الاستفهام في معنى الطلب، وقد قالوا: «إن كنا» ولم يقولوا، إذا كنا نحن الغالبين ليفيد القطع بالغلبة كما يفيد قولهم بعد: «بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون» بل ألقوه في صورة الشك لكون أدعى لفرعون الى جعل الأجر.

وقد أثّر ذلك أثره حيث جعل لهم أجراً وزاد عليه الوعد بجعلهم من المقرَّبين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا ـ الى قوله ـ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الحبال جمع حبل، والعصي جمع عصى، واللقف الإبتلاع بسرعة، وما يأفكون من الإفك بمعنى صرف

الشيء عن وجهه سُمّي السحر إفكا لأن فيه صرف الشيء عن صورته الواقعية الى صورة خيالية، ومعنى الآيات ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يريد أن السحرة لما رأوا ما رأوا من الآيات الباهرة بهرهم وأدهشهم ذلك فلم يتمالكوا أنفسهم دون أن خرّوا على الأرض ساجدين لله سبحانه فاستعير الإلقاء لخرورهم على الأرض للدلالة على عدم تمالك أنفسهم كأنهم قد طرحوا على الأرض طرحاً.

وقوله: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه إيمان بالله سبحانه إيمان توحيد لما تقدّم أن الاعتراف بكونه تعالى رب العالمين لا يتم إلا مع التوحيد ونفي الآلهة من دونه.

وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ فيه إشارة الى الإيمان بالرسالة مضافاً الى التوحيد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الى آخر الآية: القائل فرعون، والمراد بقوله: «آمنتم له قبل أن آذن لكم» آمنتم من دون إذن مني كما في قوله تعالى: «لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي» وليس مفاده أن الإذن كان ممكناً أو متوقعاً منه كما قيل.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ بهتان آخر يبهت به موسى ﷺ ليصرف به قلوب قومه وخاصة ملأهم عنه.

وقوله: «فلسوف تعلمون» تهديد لهم في سياق الإبهام للدلالة على أنه في غنى عن ذكره وأما هم فسوف يعلمونه.

وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس والتصليب جعل المجرم على الصليب، وقد تقدم نظير الآية في سورتي الأعراف وطه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ الضير هو الضرر، وقوله: «إنا

الى ربنا منقلبون» تعليل لقولهم: لا ضير أي إنا لا نستضر بهذا العذاب الذي توعدنا به لأنا نصبر ونرجع بذلك الى ربنا وما أكرمه من رجوع!.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنهم لا يخافون الموت والقتل بل يشتاقون الى لقاء ربهم يقولون: لا نخاف من عذابك شيئاً لأنا نرجع به الى ربنا ولا نخاف الرجوع لأنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا بسبب كوننا أول المؤمنين بموسى وهارون رسولي ربنا.

وفتح الباب في كل خير له أثر من الخير لا يرتاب فيه العقل السليم فلو أن الله سبحانه أكرم مؤمناً لايمانه والرحمة لم تطفر مغفرته ورحمته أول الفاتحين لهذا الباب والواردين هذا المورد.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ شروع في سرد الشطر الثاني من القصة وهو وصف عذاب آل فرعون بسبب ردهم دعوة موسى وهارون عليهما السلام، وقد كان الشطر الأول رسالة موسى وهارون اليهم ودعوتهم الى التوحيد، والإسراء والسري السير بالليل، والمراد بعبادي بنو إسرائيل وفي هذا التعبير نوع إكرام لهم.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ تعليل للأمر أي سر بهم ليلاً ليتبعكم آل فرعون وفيه دلالة على أن لله في اتباعهم أمراً وأنَّ فيه فرج بني إسرائيل وقد صرَّح بذلك في قوله: ﴿فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون﴾ (الدخان / ٢٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ - الى قوله - ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ قصة غرق آل فرعون وإنجاء بني إسرائيل في أربع عشرة آية وقد أوجز في الكلام بحذف بعض فصول القصة لظهوره من سياقها كخروج موسى وبني إسرائيل ليلاً من مصر لدلالة قوله: «أن أسر بعبادي» عليه وعلى هذا القياس.

فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ أي فأسرى موسى بعبادي فلما علم فرعون بذلك

أرسل «في المدائن» التي تحت سلطانه رجالاً «حاشرين» يحشرون الناس ويجمعون الجموع قائلين للناس «إن هؤلاء» بني إسرائيل «لشرذمة قليلون» والشرذمة من كل شيء بقيته القليلة فتوصيفها بالقلة تأكيد «وإنهم لنا لغائظون» يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به «وإنا لجميع» مجموع متفق فيما نعزم عليه «حاذرون» نحذر العدو أن يغتالنا أو يمكر بنا وإن كان ضعيفاً قليلا، والمطلوب بقولهم هذا وهو لا محالة بلاغ من فرعون حثّ الناس عليهم.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ فيه قصورهم المشيدة وبيوتهم الرفيعة، ولما كان خروجهم عن مكر إلهي بسبب داعية الاستعلاء والاستكبار التي فيهم نسب الى نفسه أنه أخرجهم «كذلك» أي الأمر كذلك «وأورثناها» أي تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم «بني إسرائيل» حيث أهلكنا فرعون وجنوده وأبقينا بني إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين.

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ﴾ أي لحقوا ببني إسرائيل «مشرقين» أي داخلين في وقت شروق الشمس وطلوعها «فلما تراءى الجمعان» أي دنا بعضهم من بعض فرأى كل من الجمعين جمع فرعون وجمع موسى الآخر. «قال أصحاب موسى» من بني إسرائيل خائفين فزعين «إنا لمدركون» سيدركنا جنود فرعون.

﴿قَالَ موسىٰ كَلَّا﴾ لن يدركونا «إن معي ربي سيهدين» والمراد بهذه المعيه معية الحفظ والنصرة وهي التي وعدها له ربه أول ما بعثه وأخاه الى فرعون «إنني معكما» وأما معية الإيجاد والتدبير فالله سبحانه مع موسى وفرعون على نسبة سواء، وقوله: «سيهدين» أي سيدلني على طريق لا يدركني فرعون معها.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ والانفلاق انشقاق الشيء وبينونة بعضه من بعض «فكان كل فرق» أي قطعة منفصلة من الماء «كالطود» وهو القطعة من الجبل «العظيم» فدخلها موسى ومن معه من بني إسرائيل.

«وأزلفنا ثمّ» أي وقربنا هناك «الآخرين» وهم فرعون وجنوده «وأنجينا موسى ومن معه أجمعين» بحفظ البحر على حاله وهيئته حتى قطعوه وخرجوا منه. «ثم أغرقنا الآخرين» باطباق البحر عليهم وهم في فلقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ظاهر السياق ـ ويؤيده سياق القصص الآتية ـ أن المشار اليه مجموع ما ذكر في قصة موسى من بعثه ودعوته فرعون وقومه وإنجاء بني إسرائيل وغرق فرعون وجنوده، ففي ذلك كله آية تدل على توحّده تعالى بالربوبية وصدق الرسالة لمن تدبر فيها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي وما كان أكثر هؤلاء الذين ذكرنا قصتهم مؤمنين مع ظهور ما دل عليه من الآية وعلى هذا فقوله بعد كل من القصص الموردة في السورة: «وما كان أكثرهم مؤمنين» بمنزلة أخذ النتيجة وتطبيق الشاهد على المستشهد له كأنه يقال بعد إيراد كل واحدة من القصص: هذه قصتهم المتضمنة لآيته تعالى وما كان أكثرهم مؤمنين كما لم يؤمن أكثر قومك فلا تحزن عليهم فهذا دأب كل من الامم التي بعثنا اليهم رسولا فدعاهم الى توحيد الربوبية.

٦٩ ● وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ.

٧٠ ● إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ.

٧١ ● قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ.

٧٢ ● قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ.

٧٣ ● أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ.

٧٤ ● قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ.

٧٥ ● قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ.

٧٦ ● أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ.

٧٧ ● فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ.

٧٨ ● ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ.

٧٩ ● وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ.

٨٠ ● وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ.

٨١ ● وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ.

٨٢ ● وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ.

٨٣ ● رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّالِحِينَ.

٨٤ ● وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ.

٨٥ ● وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ.

٨٦ ● وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ.

٨٧ ● وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ.

٨٨ ● يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ.

٨٩ ● إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

٩٠ ● وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ.

٩١ ● وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ.

٩٢ ● وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ.

٩٣ ● مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ.

٩٤ ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ.

٩٥ ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ.

٩٦ ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ.

٩٧ ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

٩٨ ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

٩٩ ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ.

١٠٠ ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ.

١٠١ ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ.

١٠٢ ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

١٠٣ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

١٠٤ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ غيّر السياق عما كان عليه أول القصة «وإذ نادى ربك موسى» الخ: لمكان قوله: «عليهم» فإن المطلوب تلاوته على مشركي العرب وعمدتهم قريش وإبراهيم هذا أبوهم وقد قام لنشر التوحيد وإقامة الدين الحق ولم يكن بينهم يومئذ من يقول: لا إله إلا الله، فنصر الله ونصره حتى ثبتت كلمة التوحيد في الأرض المقدسة وفي الحجاز.

فلم يكن ذلك كله إلا عن دعوة من الفطرة وبعث من الله سبحانه ففي ذلك آية لله فليعتبروا به وليتبرّؤا به من دين الوثنية كما تبرّأ منه ومن أبيه وقومه المنتحلين به أبوهم إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ مخاصمته ومناظرته ﷺ مع أبيه غير مخاصمته مع قومه واحتجاجه عليهم كما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام وغيرها لكن البناء هٰهنا على الإيجاز والاختصار ولذا جمع بين المحاجتين وسبكهما محاجة واحدة أورد فيها ما هو القدر المشترك بينهما.

وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن الحقيقة بوضع نفسه موضع من لا يعرف شيئاً من حقيقتها وسائر شؤنها وهذا من طرق المناظرة سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقة مدّعاه وسائر شؤنه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه.

على أن هذه المحاجة كانت من إبراهيم أول ما خرج من كهفه ودخل في مجتمع أبيه وقومه ولم يكن شهد شيئاً من ذلك قبل اليوم فحاجّهم عن فطرة ساذجة طاهرة كما تقدم تفصيل القول في تفسير سورة الأنعام.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ ظلَّ بمعنى دام، والعكوف على الشيء ملازمته والإقامة عنده، واللام في «لها» للتعليل أي ندوم عاكفين عليها لأجلها وهو تفريع على عبادة الأصنام.

وبالجملة فجوابهم عن سؤال إبراهيم «ما تعبدون» بقولهم: «نبعد أصناماً» إبانة أن هذه الأجسام المعبودة ممثلات مقصودة لغيرها لا لنفسها، وقد أخذ إبراهيم قولهم: «نعبد» وخاصمهم به فإن استقلال الأصنام بالمعبودية لا يجامع كونها أصناماً ممثلة للغير فإذ كانت مقصودة بالعبادة فمن الواجب أن يشتمل على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضر بالتوجه العبادي والدعاء والمسألة والأصنام بمعزل من أن تعلم بمسألة أو تجيب مضطراً بإيصال نفع أو صرف ضر ولذلك سألهم إبراهيم بقوله: «هل يسمعونكم» الخ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ اعترض ﷺ عليهم في عبادتهم الأصنام من جهتين:

إحداهما: أن العبادة تمثيل لذلة العابد وحاجته الى المعبود فلا يخلو من دعاء من العابد للمعبود، والدعاء يتوقف على علم المعبود بذلك وسمعه ما يدعوه به، والأصنام أجسام جمادية لا سمع لها فلا معنى لعبادتها.

والثانية: أن الناس إنما يعبدون الإله إما طمعاً في خيره ونفعه وإما اتّقاء من شرّه وضرّه والأصنام جمادات لا قدرة لها على إيصال نفع أو دفع ضرر.

فكل من الآيتين يتضمن جهة من جهتي الاعتراض، وقد أوردهما في صورة الاستفهام ليضطرهم على الاعتراف.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ كان مقتضى المقام أن يجيبوا عن سؤاله ﷺ بالنفي لكنه لما كان ينتج خلاف ما هم عليه من الانتحال بالوثنية أضربوا عنه الى التشبث بذيل التقليد فذكروا أنهم لا مستند لهم في عبادتها إلا تقليد الآباء محضاً.

وقوله: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي ففعلنا كما كانوا يفعلون وعبدناهم كما كانوا يعبدون، ولم يعدل عن قوله: «كذلك يفعلون» الى مثل قولنا: يعبدونها ليكون أصرح في التقليد كأنهم لا يفهمون من هذه العبادات إلا أنها أفعال كأفعال آبائهم من غير أن يفقهوا منها شيئاً أزيد من أشكالها وصورها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ لما انتهت محاجته مع أبيه وقومه الى أن لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آباءهم محضاً تبرأ ﷺ من آلهتهم ومن أنفسهم وآبائهم بقوله: «أفرأيتم» الخ.

فقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ تفريع على ما ظهر مما تقدم من عدم الدليل على عبادة الأصنام إلا التقليد بل بطلانها من أصلها أي فإذا كانت

باطلة لا حجة لكم عليها إلا تقليد آبائكم فهذه الأصنام التي رأيتموها أي هذه بأعيانها التي تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنها عدو لي لأن عبادتها ضارة لديني مهلكة لنفسي فليست إلا عدواً لي.

وذكر آبائهم الأقدمين للدلالة على أنه لا يأخذ بالتقليد كما أخذوا وأن لا وقع عنده عليه السلام لتقدم العهد، ولا أثر للسبق الزماني في إبطال حق أو إحقاق باطل، وإرجاع ضمير أُولي العقل الى الأصنام لمكان نسبة العبادة اليها وهي تستلزم الشعور والعقل، وهو كثير الوقوع في القرآن.

وقوله: ﴿إِلاَّ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع من قوله: «فإنهم عدو لي» أي لكن رب العالمين ليس كذلك.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ـ الى قوله ـ يَوْمَ الدِّينِ﴾ لما استثنى رب العالمين جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجة على أنه تعالى ليس عدواً له بل رب رحيم ذو عناية بحاله منعم عليه بكل خير دافع عنه كل شر فقال: «الذي خلقني» الخ؛ وأما قول القائل: إن قوله: «الذي خلقني» الخ؛ استيناف من الكلام لا يعبأ به.

فقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ بدأ بالخلق لأن المطلوب بيان استناد تدبير أمره اليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل، والبرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق والايجاد به لوضوح أن الخلق والتدبير لا ينفكان في هذه الموجودات الجسمانية التدريجية الوجود التي تستكمل الوجود على التدريج فليس من المعقول أن يقوم الخلق بشيء والتدبير بشيء وإذ كان الخلق والايجاد لله سبحانه فالتدبير له أيضاً.

ولهذا عطف الهداية على الخلق بفاء التفريع، فدل على أنه تعالى هو الهادي لأنه هو الخالق.

وظاهر قوله: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ـ وهو مطلق ـ أن المراد به مطلق الهداية الى المنافع

دنيوية كانت أو أُخروية والتعبير بلفظ المضارع لإفادة الإستمرار فالمعنى أنه الذي خلقني ولا يزال يهديني الى ما فيه سعادة حياتي منذ خلقني ولن يزال كذلك. فيكون الآية في معنى ما حكاه الله عن موسى إذ قال لفرعون: ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (طـه / ٥٠)، أي هداه الى منافعه وهي الهداية العامة.

وهذا هو الذي أُشير اليه في أول السورة بقوله: «أولم يروا الى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم إن في ذلك لآية» وقد مر تقرير الحجة فيه.

وعلى هذا فما سيأتي في قوله: «والذي هو يطعمني» الخ؛ من الصفات المعدودة من قبيل ذكر الخاص بعد العام فإنها جميعاً من مصاديق الهداية العامة بعضها هداية الى منافع دنيوية وبعضها هداية الى ما يرجع الى الآخرة.

ولو كان المراد بالهداية الهداية الخاصة الدينية فالصفات المعدودة على رسلها وذكر الهداية بعد الخلقة، وتقديمها على سائر النعم والمواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ هو كالكناية عن جملة النعم المادية التي يرزقه الله اياها لتتميم النواقص ورفع الحوائج الدنيوية، وقد خصّ بالذكر منها ما هو أهمها وهو الإطعام والسقي والشفاء إذا مرض.

ومن هنا يظهر أن قوله: «وإذا مرضت» توطئة وتمهيد لذكر الشفاء. فالكلام في معنى يطعمني ويسقيني ويشفين، ولذا نسب المرض الى نفسه لئلا يختل المراد بذكر ما هو سلب النعمة بين النعم. وأما قول القائل: إنه إنما نسب المرض الى نفسه مع كونه من الله للتأدب فليس بذاك.

وإنما أعاد الموصول فقال: «الذي هو يطعمني» الخ؛ ولم يعطف الصفات على ما في قوله: «الذي خلقني فهو يهدين» للدلالة على أن كلاً من الصفات المذكورة في هذه الجملة المترتبة كان في إثبات كونه تعالى هو الرب المدبّر لأمره والقائم على نفسه المجيب لدعوته.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يريد الموت المقضي لكل نفس المدلول عليه بقوله: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ (الأنبياء / ٣٥)، وليس بانعدام وفناء بل انتقال من دار الى دار من جملة التدبير العام الجاري، والمراد بالإحياء إفاضة الحياة بعد الموت.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء وهو يوم القيامة، ولم يقطع بالمغفرة كما قطع في الامور المذكورة قبلها لأن المغفرة ليست بالاستحقاق بل هي فضل من الله فليس يستحق أحد على الله سبحانه شيئاً لكنه سبحانه قضى على نفسه الهداية والرزق والإماتة والإحياء لكل ذي نفس ولم يقضِ المغفرة لكل ذي خطيئة فقال: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ (الذاريات / ٢٣)، وقال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ (الأنبياء / ٣٥)، وقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً﴾ (يونس / ٤)، وقال في المغفرة: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء / ٤٨).

ونسبة الخطيئة الى نفسه وهو عليه السلام نبي معصوم من المعصية دليل على أن المراد بالخطيئة غير المعصية بمعنى مخالفة الأمر المولوي فإن للخطيئة والذنب مراتب تتقدر حسب حال العبد في عبوديته كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، وقد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: «واستغفر لذنبك».

فالخطيئة من مثل إبراهيم عليه السلام اشتغاله عن ذكر الله محضاً بما تقتضيه ضروريات الحياة كالنوم والأكل والشرب ونحوها وإن كانت بنظر آخر طاعة منه عليه السلام كيف؟ وقد نص تعالى على كونه عليه السلام مخلصاً لله لا يشاركه تعالى فيه شيء إذ قال: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾ (ص / ٤٦)، وقد قدمنا كلاماً له تعلق بهذا المقام في آخر الجزء السادس وفي قصص إبراهيم في الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ لما ذكر عليه السلام نعم ربه المستمرة المتوالية المتراكمة عليه منذ خلق الى ما لا نهاية له من أمد البقاء وصوَّر بذلك شمول

اللطف والحنان الإلهي أخذته جاذبة الرحمة الملتئمة بالفقر العبودي فدعته الى إظهار الحاجة وبثّ المسألة فالتفت من الغيبة الى الخطاب فسأل ما سأل.

فقوله: ﴿رَبِّ﴾ أضاف الرب الى نفسه بعدما كان يصفه بما أنه رب العالمين إثارة للرحمة الالهية وتهييجاً للعناية الربانية لاستجابة دعائه ومسألته.

وقوله: ﴿هَبْ لِي حُكْماً﴾ يريد بالحكم ما تقدم في قول موسى عليه السلام ﴿فوهب لي ربي حكماً﴾ الآية ٢١ من السورة وهو ـ كما تقدم ـ إصابة النظر والرأي في المعارف الاعتقادية والعملية الكلية وتطبيق العمل عليها كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (الأنبياء / ٢٥)، وهو وحي المعارف الاعتقادية والعملية التي يجمعها التوحيد والتقوى، وقوله تعالى: ﴿وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ (الأنبياء / ٧٣)، وهو وحي التسديد والهداية الى الصلاح في مقام العمل، وتنكير الحكم لتفخيم أمره.

وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ الصلاح ـ على ما ذكره الراغب ـ يقابل الفساد الذي هو تغير الشيء عن مقتضى طبعه الأصلي فصلاحه كونه على مقتضى الطبع الأصلي فيترتب عليه من الخير والنفع ما من شأنه أن يترتب عليه من غير أن يفسد فيحرم من آثاره الحسنة.

وإذ كان «الصالحين» غير مقيد بالعمل ونحوه فالمراد به الصالحون ذاتاً لا عملاً فحسب وإن كان صلاح الذات لا ينفك عنه صلاح العمل، قال تعالى: ﴿البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ (الأعراف / ٥٨).

فصلاح الذات كونها تامة الاستعداد لقبول الرحمة الإلهية وإفاضة كل خير وسعادة من شأنها أن تتلبس به من غير أن يقارنها ما يفسدها من اعتقاد باطل أو عمل سيىء وبذلك يتبين أن الصلاح الذاتي من لوازم موهبة الحكم بالمعنى الذي تقدم وإن كان الحكم أخص

مورداً من الصلاح وهو ظاهر.

فمسألته الإلحاق بالصالحين من لوازم مسألة موهبة الحكم وفروعها المترتبة عليها فيعود معنى قوله: «رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين» الى مثل قولنا: رب هب لي حكماً وتمّم أثره فيَّ وهو الصلاح الذاتي.

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ (البقرة / ١٣٠) في الجزء الأول من الكتاب كلام له تعلّق بهذا المقام.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ إضافة اللسان الى الصدق لامية تفيد اختصاصه بالصدق بحيث لا يتكلم إلا به، وظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصاً به كلسانه لا يتكلم إلا بما في ضميره مما يتكلم هو به فيؤل المعنى الى مسألة أن يبعث الله في الآخرين من يقوم بدعوته ويدعو الناس الى ملّته وهي دين التوحيد.

فتكون الآية في معنى قوله في سورة الصافات بعد ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ (الصافات / ١٠٨)، وقد ذكر هذه الجملة بعد ذكر عدة من الأنبياء غيره كنوح وموسى وهارون وإلياس، وكذا قال تعالى في سورة مريم بعد ذكر زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وهارون: ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليّا﴾ (مريم / ٥٠) فالمراد على أي حال إبقاء دعوتهم بعدهم ببعث رسل أمثالهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ تقدم معنى وراثة الجنة في تفسير قوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون﴾ (المؤمنون / ١٠).

قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ استغفار لأبيه حسب ما وعده في قوله: ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي﴾ (مريم / ٤٧)، وليس ببعيد أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرّأ منه﴾ (التوبة / ١١٤)، أنه دعا لأبيه بهذا الدعاء وهو حيّ بعد، وعلى هذا فمعنى قوله:

«إنه كان من الضالين» أنه كان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الخزي عدم النصر ممن يؤمّل منه النصر، والضمير في «يبعثون» للناس ولا يضرُّه عدم سبق الذكر لكونه معلوماً من خارج.

ويعلم من سؤاله عدم الإخزاء يوم القيامة أن الإنسان في حاجة الى النصر الإلهي يومئذ فهذه البنية الضعيفة لا تقوم دون الأهوال التي تواجهها يوم القيامة إلا بنصر وتأييد منه تعالى.

وقوله: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ الظرف بدل من قوله: «يوم يبعثون» وبه يندفع قول من قال: إن قول إبراهيم قد انقطع في «يبعثون» والآية الى تمام خمسة عشر آية من كلام الله تعالى.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال الراغب: السلم والسلامة التعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة. انتهى. والسياق يعطي أنه عليه السلام في مقام ذكر معنى جامع يتميز به اليوم من غيره وقد سأل ربه أولاً أن ينصره ولا يخزيه يوم لا ينفعه ما كان ينفعه في الدنيا من المال والبنين، ومقتضى هذه التوطئة أن يكون المطلوب بقوله: «إلا من أتى الله بقلب سليم» بيان ما هو النافع يومئذ وقد ذكر فيه الإتيان بالقلب السليم.

فالاستثناء منقطع، والمعنى: لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينتفع به، والمحصّل أن مدار السعادة يومئذ على سلامة القلب سواء كان صاحبه ذا مال وبنين في الدنيا أو لم يكن.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ الازلاف التقريب والتبريز الاظهار، وفي المقابلة بين المتقين والغاوين واختيار هذين الوصفين لهاتين الطائفتين إشارة الى ما قضى به الله سبحانه يوم رجم إبليس عند إبائه أن يسجد لآدم كما ذكر في سورة الحجر ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم

لموعدهم أجمعين ـ الى أن قال ـ إنّ المتقين في جنات وعيون﴾ (الحجر / ٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي هل يدفعون الشقاء والعذاب عنكم او عن أنفسكم. والمحصل أنه يتبين لهم أنهم ضلوا في عبادتهم غير الله.

قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ يقال: كبه فانكب أي ألقاه على وجهه وكبكبه أي ألقاه على وجهه مرة بعد اخرى فهو يفيد تكرار الكب كذب ودبدب وذب وذبذب وزال وزلزل ودك ودكدك.

وضمير الجمع في قوله: «فكبكبوا فيها هم» للأصنام كما يدل عليه قوله: ﴿انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ (الأنبياء / ٩٨) وهؤلاء إحدى الطوائف الثلاث التي تذكر الآية أنها تكبكب في جهنم يوم القيامة. والطائفة الثانية الغاون المقضي عليهم ذلك كما في آية الحجر المنقولة آنفاً. والطائفة الثالثة جنود إبليس وهم قرناء الشياطين الذين يذكر القرآن أنهم لا يفارقون أهل الغواية حتى يدخلوا النار. قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين ـ الى أن قال ـ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ (الزخرف / ٣٩).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ـ الى قوله ـ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الظاهر أن القائلين هم الغاون. والاختصام واقع بينهم يخاصمون أنفسهم والشياطين على ما ذكره الله سبحانه في مواضع من كلامه.

وقوله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ اعتراف منهم بالضلال. والخطاب في قوله: «إذ نسويكم برب العالمين» للآلهة من الأصنام وهم معهم في النار. أولهم وللشياطين أولها وللمتبوعين والرؤساء من الغاوين وخير الوجوه أولها.

وقوله: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الظاهر أن كلا من القائلين يريد بالمجرمين

غيره من إمام ضلال اقتدى به في الدنيا وداع دعاه الى الشرك فاتبعه وآباء مشركين قلدهم فيه وخليل تشبه به. والمجرمون على ما يستفاد من آيات القيامة هم الذين ثبت فيهم الإجرام وقضي عليهم بدخول النار قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ (يس / ٥٦).

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الحميم على ما ذكره الراغب القريب المشفق.

وهذا الكلام تحسّر منهم على حرمانهم من شفاعة الشافعين وإغاثة الأصدقاء وفي التعبير بقوله: «فما لنا من شافعين» إشارة الى وجود شافعين هناك يشفعون بعض المذنبين، ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: فما لنا من شافع إذ لا نكتة تقتضي الجمع، وقد روي أنهم يقولون ذلك لما يرون الملائكة والأنبياء والمؤمنين يشفعون.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تمن منهم أن يرجعوا الى الدنيا فيكونوا من المؤمنين حتى ينالوا ما ناله المؤمنون من السعادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ الى آخر الآيتين: أي في قصة إبراهيم عليه السلام ولزومه عن فطرته الساذجة دين التوحيد وتوجيه وجهه نحو رب العالمين وتبرّيه من الأصنام واحتجاجه على الوثنيين وعبدة الأصنام آية لمن تدبّر فيها على أن في سائر قصصه من محنه وابتلاآته التي لم تذكر ههنا كإلقائه في النار ونزول الضيف من الملائكة عليه وقصة إسكانه إسماعيل وأُمه بوادي مكة وبناء الكعبة وذبح إسماعيل آيات لاولي الألباب.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين والباقي ظاهر مما تقدم.

١٠٥ ● كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ.

١٠٦ ● إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ.

١٠٧ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.

١٠٨ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

١٠٩ ۞ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ.

١١٠ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

١١١ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ.

١١٢ ۞ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

١١٣ ۞ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ.

١١٤ ۞ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

١١٥ ۞ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

١١٦ ۞ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ.

١١٧ ۞ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ.

١١٨ ۞ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

١١٩ ۞ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ.

١٢٠ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ.

١٢١ ۞ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

١٢٢ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال في المفردات: القوم جماعة الرجال

في الأصل دون النساء، ولذلك قال: «لا يسخر قوم من قوم» الآية؛ قال الشاعر: أقوم آل حصن أم نساء، وفي عامّة القرآن أُريدوا به والنساء جميعاً. انتهى.

ولفظ القوم قيل: مذكر وتأنيث الفعل المسند اليه بتأويل الجماعة وقيل: مؤنث وقال في المصباح: يذكر ويؤنث.

وعد القوم مكذبين للمرسلين مع أنهم لم يكذبوا إلا واحداً منهم وهو نوح عليه السلام إنما هو من جهة أن دعوتهم واحدة وكلمتهم متفقة على التوحيد فيكون المكذب للواحد منهم مكذباً للجميع ولذا عد الله سبحانه الإيمان ببعض رسله دون بعض كفراً بالجميع قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً اولئك هم الكافرون حقاً﴾ (النساء / ١٥١).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ المراد بالأخ النسيب كقولهم: اخو تميم واخو كليب والإستفهام للتوبيخ.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ اي رسول من الله سبحانه أمين على ما حملته من الرسالة لا أُبلغكم إلا ما أمرني ربي واراده منكم، ولذا فرع عليه قوله: «فاتقوا الله وأطيعون» فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ مسوق لنفي الطمع الدنيوي بنفي سؤال الأجر فيثبت بذلك انه ناصح لهم فيما يدعوهم اليه لا يخونهم ولا يغشهم فعليهم ان يطيعوه فيما يأمرهم، ولذا فرّع عليه ثانياً قوله: «فاتقوا الله وأطيعون».

والعدول في قوله: «إن أجري إلا على رب العالمين» عن اسم الجلالة الى «رب العالمين» للدلالة على صريح التوحيد فإنهم كانوا يرون انه تعالى إله عالم الالهة وكانوا يرون لكل عالم إلهاً آخر يعبدونه من دون الله فإثباته تعالى رباً للعالمين جميعاً تصريح بتوحيد العبادة ونفي

الآلهة من دون الله مطلقاً.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ قد تقدم وجه تكرار الآية فهو يفيد ان كلا من الأمانة وعدم سؤال الأجر سبب مستقل في إيجاب طاعته عليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ الأرذلون جمع أرذل على الصحة وهو اسم تفضيل من الرذالة والرذالة الخسة والدناءة، ومرادهم بكون متبعيه أراذل انهم ذوو أعمال رذيلة ومشاغل خسيسة ولذا أجاب ﷺ عنه بمثل قوله: «وما علمي بما كانوا يعلمون».

والظاهر انهم كانوا يرون الشرف والكرامة في الأموال والجموع من البنين والاتباع كما يستفاد من دعاء نوح ﷺ إذ يقول ﴿رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً﴾ (نوح / ٢١). فرادهم بالأرذلين من يعدُّهم الأشراف والمترفون سفلة يتجنبون معاشرتهم من العبيد والفقراء وأرباب الحرف الدنية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الضمير لنوح ﷺ، و«ما» استفهامية وقيل: نافية وعليه فالخبر محذوف لدلالة السياق عليه، والمراد على اي حال نفي علمه بأعمالهم قبل إيمانهم به لمكان قوله: «كانوا يعملون».

قوله تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ المراد بقوله: «ربي» رب العالمين فإنه الذي كان يختص نوح بالدعوة اليه من بينهم، وقوله: «لو تشعرون» مقطوع عن العمل أي لو كان لكم شعور، وقيل: المعنى لو تشعرون بشيء لعلمتم ذلك وهو كما ترى.

والمعنى: بالنظر الى الحصر الذي في صدر الآية انه لا علم لي بسابق أعمالهم وليس على حسابهم حتى أتجسس وأبحث عن أعمالهم وإنما حسابهم على ربي «لو تشعرون» فيجازيهم حسب أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، الآية الثانية

بمنزلة التعليل للاولى والمجموع متمّم للبيان السابق والمعنى: لا شأن لي إلا الانذار والدعوة فلست أطرد من أقبل عليَّ وآمن بي ولست أتفحّص عن سابق أعمالهم لاحاسبهم عليها فحسابهم على ربي وهو رب العالمين لا عليَّ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ المراد بالانتهاء ترك الدعوة، والرجم هو الرمي بالحجارة، وقيل: المراد به الشتم وهو بعيد، وهذا مما قالوه في آخر العهد من دعوتهم يهددونه ﷺ بقول جازم كما يشهد به ما في الكلام من وجوه التأكيد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ الخ: هذا استفتاح منه ﷺ وقد قدّم له قوله: «رب إن قومي كذّبون» على سبيل التوطئة أي تحقق منهم التكذيب المطلق الذي لا مطمع في تصديقهم بعده كما يستفاد من دعائه عليهم إذ يقول ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً﴾ (نوح / ٢٧).

وقوله: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ كناية عن القضاء بينه وبين قومه كما قال تعالى: ﴿ولكل أُمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ (يونس / ٤٧).

وأصله من الاستعارة بالكناية كأنه وأتباعه والكفار من قومه اختلطوا واجتمعوا من غير تميّز فسأل ربه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحة بينه وبين قومه يبتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر وذلك كناية عن نزول العذاب وليس يُهلك إلا القوم الفاسقين والدليل عليه قوله بعد: «ونجّني ومن معي من المؤمنين».

وقيل: الفتح بمعنى الحكم والقضاء من الفتاحة بمعنى الحكومة.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء منهم ومن

كل زوجين اثنين كما ذكره في سورة هود.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ـ الى قوله ـ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام في معنى الآيتين.

١٢٣ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ.

١٢٤ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ.

١٢٥ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.

١٢٦ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

١٢٧ ﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ.

١٢٨ ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ.

١٢٩ ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ.

١٣٠ ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ.

١٣١ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

١٣٢ ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ.

١٣٣ ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ.

١٣٤ ﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ.

١٣٥ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

١٣٦ ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ ٱلْوَاعِظِينَ.

١٢٧ ❁ إِنْ هٰذا إِلاّ خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ.

١٢٨ ❁ وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

١٣٩ ❁ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

١٤٠ ❁ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عادُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قوم عاد من العرب العاربة الاولى كانوا يسكنون الأحقاف من جزيرة العرب لهم مدنية راقية وأراض خصبة وديار معمورة فكذبوا الرسل وكفروا بأنعم الله وطغوا فأهلكهم الله بالريح العقيم وخرّب ديارهم وعفا آثارهم.

وعاد فيما يقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسمية القوم باسم أبيهم كما يقال تميم وبكر وتغلب ويراد بنو تميم وبنو بكر وبنو تغلب.

وقد تقدم في نظير الآية من قصة نوح وجه عد القوم مكذّبين للمرسلين ولم يكذبوا ظاهراً إلا واحداً منهم.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ـ الى قوله ـ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ﴾ تقدم الكلام فيها في نظائرها من قصة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ الريع هو المرتفع من الأرض والآية العلامة، والعبث الفعل الذي لا غاية له، وكأنهم كانوا يبنون على قلل الجبال وكل مرتفع من الأرض ابنية كالأعلام يتنزهون فيها ويفاخرون بها من غير ضرورة تدعوه الى ذلك بل لهواً واتباعاً للهوى فوبخهم عليه.

وقد ذكر للآية معان أُخر لا دليل عليها من جهة اللفظ ولا ملاءمة للسياق اضربنا عنها.

قولن عالى ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، المصانع على ما قيل: الحصون المنيعة والقصور المشيدة والأبنية العالية واحدها مصنع.

وقوله: «لعلكم تخلدون» في مقام التعليل لما قبله أي تتخذون هذه المصانع بسبب أنكم ترجون الخلود ولو لارجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال التي من طبعها أن تدوم دهراً طويلاً لا يفي به أطول الأعمار الإنسانية، وقيل في معنى الآية ومفرداتها وجوه أُخرى أغمضنا عنها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قال في المجمع: البطش العسف قتلاً يره بعظيم سلطانه. وهو في صفة الله سبحانه

أي اتقوا الله يمدّكم بنعمه لأنه يمدّكم بها فيجب عليكم أن تشكروه بوضع نعمه في موضعها من غير إتراف واستكبار فإن كفران النعمة يستعقب السخط والعذاب قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (إبراهيم / ٧).

وقد ذكر النعم إجمالاً بقوله أولاً: «أمدّكم بما تعلمون» ثم فصّلها بقوله ثانياً: «أمدكم بأموال وبنين وجنات وعيون».

وفي قوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ نكتة أُخرى هي أنكم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالى وصنعه لا يشاركه في إيجادها والإمداد بها غيره فهو الذي يجب لكم أن تتقوه بالشكر والعبادة دون الأوثان والأصنام فالكلام متضمن للحجة.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليل للأمر بالتقوى أي إني آمركم بالتقوى شكراً لأني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إن تكفروا ولم تشكروا، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم القيامة وإن جوّز بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ ٱلْوَاعِظِينَ﴾ نفي لأثر كلامه وإيآس له من إيمانهم بالكلية.

قيل: الكلام لا يخلو من مبالغة فقد كان مقتضى الترديد أن يقال: أوعظت أم لم تعظ ففي العدول عنه الى قوله: «أم لم تكن من الواعظين» النافي لأصل كونه واعظاً ما لا يخفى من المبالغة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلاَّ خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الخلق بضم الخاء واللام أو سكونها قال الراغب: الخلق والخلق ـ أي بفتح الخاء وضمها ـ في الأصل واحد كالشَّرب والشُّرب والصَّرم والصُّرم لكن خصَّ الخلق ـ بفتح الخاء ـ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخصَّ الخلق ـ بضم الخاء ـ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة، قال تعالى: «إنك

لعلى خُلق عظيم» وقرىء «إن هذا إلا خلق الأولين» انتهى.

والإشارة بهذا الى ما جاء به هود وقد سموه وعظاً والمعنى: ليس ما تلبّست به من الدعوة الى التوحيد والموعظة إلا عادة البشر الأولين الماضين من أهل الأساطير والخرافات، وهذا كقولهم: إن هذا إلا أساطير الأولين.

ويمكن أن تكون الإشارة بهذا الى ما هم فيه من الشرك وعبادة الآلهة من دون الله اقتداء بآبائهم الأولين كقولهم: «وجدنا آباءنا كذلك يفعلون».

واحتمل بعضهم أن يكون المراد ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ولا عذاب. وهو بعيد من السياق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إنكار للمعاد بناء على كون المراد باليوم العظيم في كلام هود عليه السلام يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ـ الى قوله ـ الرَّحِيمُ﴾ معناه ظاهر مما تقدم.

١٤١ ● كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ.

١٤٢ ● إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ.

١٤٣ ● إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.

١٤٤ ● فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

١٤٥ ● وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ.

١٤٦ ● أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هٰهُنَا آمِنِينَ.

١٤٧ ● فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ.

١٤٨ ● وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ.

١٤٩ ● وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ.

١٥٠ ● فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ.

١٥١ ● وَلاٰ تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ.

١٥٢ ● اَلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاٰ يُصْلِحُونَ.

١٥٣ ● قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ.

١٥٤ ● مَا أَنْتَ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

١٥٥ ● قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ.

١٥٦ ● وَلاٰ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

١٥٧ ● فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ.

١٥٨ ● فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

١٥٩ ● وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ـ الى قوله ـ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ قد اتضح معناها مما تقدم.

قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هٰهُنَا آمِنِينَ﴾ الظاهر أن الاستفهام للانكار و«ما» موصولة والمراد بها النعم التي يفصلها بعد قوله: «في جنات وعيون» الخ؛ و«ههنا» إشارة الى المكان الحاضر القريب وهو أرض ثمود و«آمنين» حال من نائب فاعل «تتركون».

والمعنى: لا تتركون في هذه النعم التي أحاطت بكم في أرضكم هذه وأنتم مطلقو العنان لا

تسألون عما تفعلون آمنون من أي مؤاخذة إلهية.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ بيان تفصيلي لقوله: «فيما ههنا»، وقد خص النخل بالذكر مع دخوله في الجنات لاهتمامهم به، والطلع في النخل كالنور في سائر الأشجار والهضيم ـ على ما قيل ـ المتداخل المنضم بعضه الى بعض.

قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ قال الراغب: الفره ـ بالفتح فالكسر صفة مشبهة ـ الأشر، وقوله تعالى: «وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين» أي حاذقين وقيل: معناه أشرين. انتهى ملخصاً. وعلى ما اختاره تكون الآية من بيان النعمة، وعلى المعنى الآخر تكون مسوقة لإنكار أشرهم وبطرهم. والآية على أي حال في حيز الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تفريع على ما تقدم من الإنكار الذي في معنى المنفي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ الظاهر أن المراد بالأمر ما يقابل النهي بقرينة النهي عن طاعته وإن جوّز بعضهم كون الأمر بمعنى الشأن وعليه يكون المراد بطاعة أمرهم تقليد العامة واتباعهم لهم في أعمالهم وسلوكهم السبيل التي يستحبون لهم سلوكها.

والمراد بالمسرفين على أي حال أشراف القوم وعظماؤهم المتبوعون والخطاب للعامة التابعين لهم وأما السادة الأشراف فقد كانوا مأيوساً من إيمانهم واتباعهم للحق.

ويمكن أن يكون الخطاب للجميع من جهة أن الأشراف منهم أيضاً كانوا يقلدون آباءهم ويطيعون أمرهم كما قالوا لصالح ﷺ: ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ (هود / ٦٢)، فقد كانوا جميعاً يطيعون أمر المسرفين فنهوا عنه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي ممن سحر مرة بعد مرة حتى

غلب على عقله، وقيل: إن السحر أعلى البطن والمسحّر من له جوف فيكون كناية عن أنك بشر مثلنا تأكل وتشرب فيكون قوله بعده: «وما أنت إلا بشر مثلنا» تأكيداً له، وقيل: المسحّر من له سحر أي رئة كأن مرادهم أنك متنفس بشر مثلنا.

قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ـ الى قوله ـ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الشرب بكسر الشين النصيب من الماء، والباقي ظاهر وقد تقدمت تفصيل القصة في سورة هود.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ نسبة العقر الى الجميع ـ ولم يعقرها إلا واحد منهم ـ لرضاهم بفعله، وفي نهج البلاغة: أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه: «فعقروها فأصبحوا نادمين».

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ لعل ندمهم إنما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب وإن قالوا له بعد العقر تعجيزاً واستهزاء: ﴿يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ (الأعراف / ٧٧).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ـ الى قوله ـ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ اللام للعهد أي أخذهم العذاب الموعود فإن صالحاً وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثة أيام كما في سورة هود. والباقي ظاهر.

١٦٠ ● كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ.
١٦١ ● إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ.
١٦٢ ● إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.
١٦٣ ● فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

١٦٤ ۞ وَمٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ.

١٦٥ ۞ أَتَأْتُونَ الذُّكْرٰانَ مِنَ ٱلْعالَمِينَ.

١٦٦ ۞ وَتَذَرُونَ مٰا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عٰادُونَ.

١٦٧ ۞ قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يٰا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ.

١٦٨ ۞ قٰالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ ٱلْقٰالِينَ.

١٦٩ ۞ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمّٰا يَعْمَلُونَ.

١٧٠ ۞ فَنَجَّيْنٰاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ.

١٧١ ۞ إِلاّٰ عَجُوزاً فِي ٱلْغٰابِرِينَ.

١٧٢ ۞ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ.

١٧٣ ۞ وَأَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسٰاءَ مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ.

١٧٤ ۞ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

١٧٥ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ـ الى قوله ـ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ﴾. تقدم تفسيره.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرٰانَ مِنَ ٱلْعالَمِينَ﴾ الاستفهام للانكار والتوبيخ والذكران جمع ذكر مقابل الانثى وإتيانهم كناية عن اللواط وقد كان شاع فيا بينهم. والعالمين جمع عالم وهو الجماعة من الناس.

وقوله: ﴿ مِنَ ٱلْعالَمِينَ ﴾ يمكن ان يكون متصلاً بضمير الفاعل في «تأتون» والمراد أتأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع؟ فيكون في معنى قوله في موضع آخر: ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ (الاعراف / ٨٠)، (العنكبوت / ٢٨).

ويمكن ان يكون متصلاً بقوله: «الذكران» والمعنى على هذا أتنكحون من بين العالمين ـ على كثرتهم واشتمالهم على النساء ـ الرجال فقط؟.

قوله تعالى: ﴿ وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ ﴾ الخ: «تذرون» بمعنى تتركون ولا ماضي له من مادته.

والمتأمل في خلق الإنسان وانقسام أفراده الى صنفي الذكر والانثى وما جهز به كل من الصنفين من الأعضاء والأدوات وما يختص به من الخلقة لا يرتاب في ان غرض الصنع والإيجاد من هذا التصوير المختلف وإلقاء غريزة الشهوة في القبيلين وتفريق أمرهما بالفعل والانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسل بذلك الى التناسل الحافظ لبقاء النوع حتى حين.

فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأة منه لا لرجل مثله والمرأة من الإنسان بما هي امرأة مخلوقة للرجل منه لا لامرأة مثلها وما يختص به الرجل في خلقته للمرأة وما تختص به المرأة في خلقتها للرجل وهذه هي الزوجية الطبيعية التي عقدها الصنع والإيجاد بين الرجل والمرأة من الإنسان فجعلهما زوجين.

ثم الأغراض والغايات الاجتماعية أو الدينية سنَّت بين الناس سنة النكاح الاجتماعي الاعتباري الذي فيه نوع من الاختصاص بين الزوجين وقسم من التحديد للزوجية الطبيعية المذكورة فالفطرة الإنسانية والخلقة الخاصة تهديه الى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجال وازدواج النساء بالرجال دون النساء، وأن الازدواج مبني على أصل التوالد والتناسل دون الاشتراك في مطلق الحياة.

ومن هنا يظهر أن الأقرب ان يكون المراد بقوله: «ما خلق لكم ربكم» العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج واللام للملك الطبيعي، وان من في قوله: «من أزواجكم» للتبعيض والزوجية هي الزوجية الطبيعية وإن أمكن ان يراد بها الزوجية الاجتماعية الاعتبارية بوجه.

وأما تجويز بعضهم ان يراد بلفظة «ما» النساء ويكون قوله: «من أزواجكم» بياناً له فبعيد.

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ اي متجاوزون خارجون عن الحد الذي خطته لكم الفطرة والخلقة فهو في معنى قوله: ﴿ءإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل﴾ (العنكبوت / ٢٩).

وقد ظهر في جميع ما مر أن كلامه عليه السلام مبني على حجة برهانية أُشير اليها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي المبعدين المنفيين من قريتنا كما نقل عنهم في موضع آخر «أخرجوا آل لوط من قريتكم».

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ المراد بعملهم ـ على ما يعطيه السياق ـ إتيان الذكر ان وترك الاناث. والقالي المبغض، ومقابلة تهديدهم بالنفي بمثل هذا الكلام من غير تعرّض للجواب عن تهديدهم يفيد من المعنى أني لا أخاف الخروج من قريتكم ولا أكترث به بل مبغض لعملكم راغب في النجاة من وباله النازل بكم لا محالة، ولذا أتبعه بقوله: «رب نجني وأهلي مما يعملون».

قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ اي من أصل عملهم الذي يأتون به بمرئى ومسمع منه فهو منزجر منه او من وبال عملهم والعذاب الذي سيتبعه لا محالة.

وإنما لم يذكر إلا نفسه وأهله إذ لم يكن آمن به من أهل القرية أحد، قال تعالى في ذلك: ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ (الذاريات / ٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ـ الى قوله ـ الْآخَرِينَ﴾ الغابر كما قيل الباقي بعد ذهاب من كان معه، والتدمير الإهلاك، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ الخ: وهو السجّيل كما قال تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل﴾ (الحجر / ٧٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ـ الى قوله ـ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره.

١٧٦ ❁ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ.

١٧٧ ❁ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ.

١٧٨ ❁ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.

١٧٩ ❁ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

١٨٠ ❁ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

١٨١ ❁ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ.

١٨٢ ❁ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ.

١٨٣ ❁ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

١٨٤ ❁ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ.

١٨٥ ❁ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ.

١٨٦ ❁ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ.

١٨٧ ❁ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

١٨٨ ❁ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ.

١٨٩ ◉ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

١٩٠ ◉ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

١٩١ ◉ وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ - الى قوله - رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأيكة الغيضة الملتف شجرها. قيل: إنها كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بُعث اليهم شعيب عليه السلام، وكان أجنبياً منهم ولذلك قيل «إذ قال لهم شعيب» ولم يقل: أخوهم شعيب بخلاف هود وصالح فقد كانا نسيبين الى قومهما وكذا لوط فقد كان نسيباً الى قومه بالمصاهرة ولذا عبّر عنهم بقوله: «أخوهم هود» «أخوهم صالح» «أخوهم لوط».

وقد تقدم تفسير باقي الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. الكيل ما يقدّر به المتاع من جهة حجمه وإيفاؤه أن لا ينقص الحجم، والقسطاس الميزان الذي يقدّر به من جهة وزنه واستقامته أن يزن بالعدل، والآيتان تأمران بالعدل في الأخذ والإعطاء بالكيل والوزن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ البخس النقص في الوزن والتقدير كما أن الإخسار النقص في رأس المال.

وظاهر السياق أن قوله: «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» أي سلعهم وأمتعتهم قيد متمم لقوله: «وزنوا بالقسطاط المستقيم» كما أن قوله: «ولا تكونوا من المخسرين» قيد متمم لقوله:

«أوفوا الكيل» وقوله: «ولا تعثوا في الأرض مفسدين» تأكيد للنهيين جميعاً أعني قوله: «لا تخسروا» وقوله: «لا تبخسوا» وبيان لتبعة التطفيف السيئة المشومة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثيّ والعيث الإفساد. فقوله: «مفسدين» حال مؤكد وقد تقدم في قصة شعيب من سورة هود وفي قوله: ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ (الآية ٣٥ من سورة الإسراء) كلام في كيفية إفساد التطفيف المجتمع الإنساني، فراجع.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال في المجمع: الجبلّة الخليقة التي طبع عليها الشيء. انتهى. فالمراد بالجبلّة ذوو الجبلّة أي اتقوا الله الذي خلقكم وآباءكم الأولين الذين فطرهم وقرّر في جبلّتهم تقبيح الفساد والاعتراف بشؤمه.

ولعل هذه الذي أشرنا اليه من المعنى هو الموجب لتخصيص الجبلّة بالذكر، وفي الآية على أي حال دعوة الى توحيد العبادة فإنهم لم يكونوا يتقون الخالق الذي هو رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ - الى قوله - وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ تقدم تفسير الصدر، و«إن» في قوله: «إن نظنك» مخففة من الثقيلة.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ الخ: الكسف بالكسر فالفتح - على ما قيل - جمع كسفة وهي القطعة، والأمر مبني على التعجيز والاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ جواب شعيب عن قولهم واقتراحهم منه إتيان العذاب، وهو كناية عن أنه ليس له من الأمر شيء وإنما الأمر الى الله لأنه أعلم بما يعملون وأن عملهم هل يستوجب عذاباً؟ وما هو العذاب الذي يستوجبه إذا استوجب؟ فهو كقول هود لقومه ﴿إنما العلم عند الله وأُبلّغكم ما أُرسِلتُ به﴾ (الأحقاف / ٢٣).

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ الخ: يوم الظلّة يوم عُذّب فيه قوم شعيب بظلّة من الغمام، وقد تقدم تفصيل قصتهم في سورة هود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ـ الى قوله ـ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره.

١٩٢ ● وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ.

١٩٣ ● نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ ٱلْأَمِينُ.

١٩٤ ● عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ.

١٩٥ ● بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.

١٩٦ ● وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ.

١٩٧ ● أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

١٩٨ ● وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ.

١٩٩ ● فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ.

٢٠٠ ● كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ.

٢٠١ ● لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ.

٢٠٢ ● فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

٢٠٣ ● فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ.

٢٠٤ ● أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ.

٢٠٥ ● أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ.

٢٠٦ ● ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ.

٢٠٧ ● مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ.

٢٠٨ ● وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ.

٢٠٩ ● ذِكْرىٰ وَما كُنّا ظالِمِينَ.

٢١٠ ● وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ.

٢١١ ● وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ.

٢١٢ ● إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ.

٢١٣ ● فَلا تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ.

٢١٤ ● وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ.

٢١٥ ● وَٱخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

٢١٦ ● فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ.

٢١٧ ● وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ الرَّحِيمِ.

٢١٨ ● الَّذِي يَرٰيكَ حِينَ تَقُومُ.

٢١٩ ● وَتَقَلُّبَكَ فِي السّاجِدِينَ.

٢٢٠ ● إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ.

٢٢١ ● هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ.

٢٢٢ ● تَنَزَّلُ عَلىٰ كُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ.

٢٢٣ ● يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ.

٢٢٤ ● وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ.

٢٢٥ ● أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ.

٢٢٦ ● وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ.

٢٢٧ ● إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللّٰهَ كَثِيراً

وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الضمير للقرآن، وفيه رجوع الى ما في صدر السورة من قوله: «تلك آيات الكتاب المبين» وتعقيب لحديث كفرهم به كما في قوله بعد ذلك: «وما يأتيهم من ذكر الرحمان محْدَث إلا كانوا عنه معرضين. فقد كذبوا به» الآية.

والتنزيل والانزال بمعنى واحد، غير أن الغالب على باب الإفعال الدفعة وعلى باب التفعيل التدريج، وأصل النزول في الأجسام انتقال الجسم من مكان عالٍ الى ما هو دونه وفي غير الأجسام بما يناسبه.

وتنزيله تعالى إخراجه الشيء من عنده الى موطن الخلق والتقدير وقد سمى نفسه بالعلي العظيم والكبير المتعال ورفيع الدرجات والقاهر فوق عباده فيكون خروج الشيء بإيجاده من عنده الى عالم الخلق والتقدير ـ وإن شئت فقل: إخراجه من عالم الغيب الى عالم الشهادة ـ تنزيلاً منه تعالى له.

وقد استعمل الإنزال والتنزيل في كلامه تعالى في أشياء بهذه العناية كقوله تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم﴾ (الأعراف / ٢٦)، وقوله: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ (الزمر / ٦)، وقوله: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ (الحديد / ٢٥)، وقوله: ﴿ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ (البقرة / ١٠٥)، وقد أطلق القول في قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١).

ومن الآيات الدالة على اعتبار هذا المعنى في خصوص القرآن في قوله: ﴿إنّا جعلناه قرآناً

عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أُم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ (الزخرف / ٤).

وقد أُضيف التنزيل الى رب العالمين للدلالة على توحيد الرب تعالى لما تكرّر مراراً أن المشركين إنما كانوا يعترفون به تعالى بما أنه رب الأرباب ولا يرون أنه رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ المراد بالروح الأمين هو جبريل ملك الوحي بدليل قوله: ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ (البقرة / ٩٧)، وقد سماه في موضع آخر بروح القدس ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ (النحل / ١٠٢)، وقد تقدم في تفسير سورتي النحل والإسراء ما يتعلق بمعنى الروح من الكلام.

وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنه مأمون في رسالته منه تعالى الى نبيّه ﷺ لا يغير شيئاً من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمد أو سهو او نسيان كما أن توصيفه في آية أُخرى بالقدس يشير الى ذلك.

وقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ الباء للتعدية أي نزله الروح الأمين، وأما قول من قال: إن الباء للمصاحبة والمعنى نزل معه الروح فلا يلتفت اليه لأن العناية في المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن.

والضمير في «نزل به» للقرآن بما أنه كلام مؤلف من ألفاظ لها معانيها الحقة فإن ألفاظ القرآن نازلة من عنده تعالى كما أن معانيها نازلة من عنده على ما هو ظاهر قوله: ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ (القيامة / ١٨)، وقوله: ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ (آل عمران / ١٠٨)، (الجاثية / ٦)، الى غير ذلك.

والمراد بالقلب المنسوب اليه الإدراك والشعور في كلامه تعالى هو النفس الإنسانية التي لها الإدراك واليها تنتهي أنواع الشعور والإرادة دون اللحم الصنوبري المعلق عن يسار الصدر الذي هو أحد الأعضاء الرئيسة كما يستفاد من مواضع في كلامه تعالى، كقوله: ﴿ وبلغت

القولب الحناجر﴾ (الأحزاب / ١٠)، أي الأرواح. وقوله: ﴿فإن آثم قلبه﴾ (البقرة / ٢٨٣)، أي نفسه إذ لا معنى لنسبة الإثم الى العضو الخاص.

ولعل الوجه في قوله: «نزل به الروح الأمين على قلبك» دون أن يقول: عليك هو الإشارة الى كيفية تلقيه ﷺ القرآن النازل عليه، وأن الذي كان يتلقاه من الروح هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الامور الجزئية.

فكان ﷺ يرى ويسمع حينما كان يوحي اليه من غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع كما روي أنه كان يأخذه شبه إغماء يسمى برجاء الوحي.

فكان ﷺ يرى الشخص ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت غير أنه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه الماديتين في ذلك كما نستخدمها.

ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع الماديين لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره فكان سائر الناس يرون ما يراه ويسمعون ما يسمعه، والنقل القطعي يكذب ذلك فكثيراً ما كان يأخذه برجاء الوحي وهو بين الناس فيوحي اليه ومن حوله لا يشعرون بشيء ولا يشاهدون شخصاً يكلمه ولا كلاماً يلقى اليه.

والقول بأن من الجائز أن يصرف الله تعالى حواسّ غيره ﷺ من الناس عن بعض ما كانت تناله حواسه وهي الامور الغيبية المستورة عنا.

هدم لبنيان التصديق العلمي إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظيم على الحواس وهي مفتاح العلوم الضرورية والتصديقات البديهية وغيرها لم يبق وثوق على شيء من العلوم والتصديقات.

على أن هذا الكلام مبني على أصالة الحس وأن لا وجود إلا لمحسوس وهو من أفحش الخطأ وقد تقدم في تفسير سورة مريم كلام في معنى تمثل الملك نافع في المقام.

وللبحث تتمة لعل الله سبحانه يوفقنا لاستيفائها بإيراد كلام جامع في الملك وآخر في

الوحي.

وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي من الداعين الى الله سبحانه بالتخويف من عذابه وهو المراد بالانذار في عرف القرآن دون النبي او الرسول بالخصوص. قال تعالى في مؤمني الجن: ﴿وإذا صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ (الأحقاف / ٢٩)، وقال في المتفقهين من المؤمنين: ﴿ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم﴾ (التوبة / ١٢٢).

وإنما ذكر إنذاره ﷺ غاية لإنزال القرآن دون نبوته أو رسالته لأن سياق آيات السورة سياق التخويف والتهديد.

وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر في عربيته او مبين للمقاصد تمام البيان والجار والمجرور متعلق بنزل اي أنزله بلسان عربي مبين.

وجوز بعضهم ان يكون متعلقاً بقوله: «منذرين» والمعنى أنزله على قلبك لتدخل في زمرة الأنبياء من العرب وقد ذكر منهم في القرآن هود وصالح وإسماعيل وشعيب عليهم السلام وأول الوجهين أحسنهما.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الضمير للقرآن أو نزوله على النبي ﷺ والزبر جمع زبور وهو الكتاب والمعنى وإن خبر القرآن او خبر نزوله عليك في كتب الماضين من الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ضمير «أن يعلمه» لخبر القرآن او خبر نزوله على النبي ﷺ اي أولم يكن علم علماء بني إسرائيل بخبر القرآن او نزوله عليك على سبيل البشارة في كتب الأنبياء الماضين آية للمشركين على صحة نبوتك وكانت اليهود تبشر بذلك وتستفتح على العرب به كما مر في قوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ (البقرة / ٨٩).

وقد أسلم عدة من علماء اليهود في عهد النبي ﷺ واعترفوا بأنه مبشر بـه في كـتبهم، والسورة من أوائل السـور المكية النازلة قبل الهجرة ولم تبلغ عداوة اليهود للنبي ﷺ مبلغها بعد الهجرة وكان من المرجو أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحق ولو بوجه كلي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِـهِ مُؤْمِنِينَ﴾ قال في المفردات: العجمة خلاف الإبانة والاعجام الابهام ـ الى أن قال ـ والعجم خلاف العرب والعجمي منسوب اليهم، والأعجم من في لسانه عجمة عربياً كان أو غير عربي اعتباراً بقلة فهمهم عن العجم، ومنه قيل للبهيمة عجماء والأعجمي منسوب اليه قوله تعالى: «ولو نزلناه على بعض الأعجمين» على حذف الياءات انتهى.

ومقتضى ما ذكره ـ كما ترى ـ ان أصل الأعجمين الأعجميين ثم حذفت ياء النسبة وبـه صرح بعض آخر، وذكر بعضهم ان الوجه ان أعجم مؤنثه عجماء وأفعل فعلاء لا يجمع جمع السـلامة لكن الكوفيين من النحاة يجوزون ذلك وظاهر اللفظ يؤيد قولهم فلا موجب للقول بالحذف.

وكيف كان فظاهر السياق اتصال الآيتين بقوله: «بلسـان عربي مبين»، فتكونان في مقام التعليل له ويكون المعنى: نزّلناه عليك بلسـان عربي ظاهر العربية واضح الدلالة ليؤمنوا به ولا يتعللوا بعدم فهمهم مقاصده ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلسان أعـجمي مـا كـانوا بـه مؤمنين وردّوه بعدم فهم مقاصده.

فيكون المراد بنزوله على بعض الأعجمين نزوله أعجمياً وبلسانه، والآيتان والتي بعدهما في معنى قوله تعالى: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصّلت آياته ءأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذيـن لا يـؤمنون في آذانهـم وقـر وهـو عـليهم عـمى﴾ (حم السجدة / ٤٤).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الإشارة بقوله: «كذلك»

الى الحال التي عليها القرآن عند المشركين وقد ذكرت في الآيات السابقة وهي أنهم معرضون عنه لا يؤمنون به وإن كان تنزيلاً من رب العالمين وكان عربياً مبيناً غير أعجمي وكان مذكوراً في زبر الأولين يعلمه علماء بني إسرائيل.

والسلوك الإدخال في الطريق والإمرار. والمراد بالمجرمين هم الكفار والمشركون وذكرهم بوصف الإجرام للإشارة الى علة الحكم وهو سلوكه في قلوبهم على هذه الحال المبغوضة والمنفورة وأن ذلك مجازاة إلهية جازاهم بها عن إجرامهم وليعمّ الحكم بعموم العلة.

والمعنى على هذه الحال ـ وهي أن يكون بحيث يعرض عنه ولا يؤمن به ـ ندخل القرآن في قلوب هؤلاء المشركين وغرّه في نفوسهم جزاء لإجرامهم وكذلك كل مجرم.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ـ الى قوله ـ مُنْظَرُونَ﴾ تفسير وبيان لقوله: «كذلك نسلكه» الخ؛ هذا على الوجه الأول والثالث من الوجوه المذكورة في الآية السابقة وأما على الوجه الثاني فهو استئناف غير مرتبط بما قبله.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي حتى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم الى الإيمان الاضطراري الذي لا ينفعهم. والظاهر أن المراد بالعذاب الأليم ما يشاهدونه عند الموت واحتمل بعضهم ان يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل. لكن عموم الحكم في الآية السابقة لمشركي مكة وغيرهم لا يلائم ذلك.

وقوله: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كالتفسير لقوله: «حتى يروا العذاب الأليم» إذ لو لم يأتهم بغتة وعلموا به قبل موعده لاستعدوا له وآمنوا باختيار منهم غير ملجئين اليه.

وقوله: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ كلمة تحسّر منهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ توبيخ وتهديد.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ـ الى قوله ـ يُمَتَّعُونَ﴾ متصل بقوله: «فيقولوا هل نحن منظرون» ومحصل المعنى أن تمني الإمهال والإنظار تمني أمر لا ينفعهم لو وقع على ما يتمنونه ولم يغن عنهم شيئاً لو أُجيبوا الى ما سألوه فإن تمتيعهم أمداً محدوداً طال أو قصر لا يرفع العذاب الخالد الذي قضي في حقهم.

وهو قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ معدودة ستنقضي «ثم جاءهم ما كانوا يوعدون» من العذاب بعد انقضاء سني الإنظار والإمهال «ما أغنى عنهم ماكانوا يمتعون» أي تمتيعهم أمداً محدوداً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ الخ: الأقرب ان يكون قوله: «لها منذرون» حالاً من «قرية» وقوله: «ذكرى» حالاً من ضمير الجمع في «منذرون» أو مفعولاً مطلقاً عامله «منذرون» لكونه في معنى مذكرون والمعنى ظاهر، وقيل غير ذلك مما لا جدوى في ذكره وإطالة البحث عنه.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ورود النفي على الكون دون ان يقال: وما ظلمناهم ونحو ذلك يفيد نفي الشأنية اي وما كان من شأننا ولا المترقب منا ان نظلمهم.

والجملة في مقام التعليل للحصر السابق والمعنى: ما أهلكنا من قرية إلا في حال لها منذرون مذكرون تتم بهم الحجة عليهم لأنا لو أهلكناهم في غير هذه الحال لكنا ظالمين لهم وليس من شأننا أن نظلم أحداً فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ (الإسراء / ١٥)[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ـ الى قوله ـ لَمَعْزُولُونَ﴾ شروع في الجواب عن قول المشركين: إنَّ لمحمد جناً يأتيه بهذا الكلام، وقولهم: إنه شاعر. وقدَّم الجواب

---

١. الشعراء ١٩٢ ـ ٢٢٧: كلام في معنى نفي الظلم عنه تعالى.

عن الأول وقد وجّه الكلام أولاً الى النبي ﷺ فبيّن له أن القرآن ليس من تنزيل الشياطين وطيّب بذلك نفسه ثم وجّه القول الى القوم فبيّنه لهم بما في وسعهم أن يفقهوه.

فقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ أي ما نزّلته والآية متصلة بقوله: «وإنه لتنزيل رب العالمين» ووجّه الكلام كما سمعت الى النبي ﷺ بدليل قوله تلواً: «فلا تدع مع الله إلهاً آخر» الى آخر الخطابات المختصة به ﷺ المتفرعة على قوله: «وما تنزّلت به» الخ؛ على ما سيجيء بيانه.

وإنما وجّه الكلام الى النبي ﷺ دون القوم لأنه معلّل بما لا يقبلونه بكفرهم أعني قوله: «إنهم عن السمع لمعزولون» والشيطان الشرير وجمعه الشياطين والمراد بهم أشرار الجن.

وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ أي للشياطين. قال في مجمع البيان: ومعنى قول العرب: ينبغي لك أن تفعل كذا أنه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية التي هي الطلب. انتهى.

والوجه في أنه لا ينبغي لهم أن يتنزّلوا به أنهم خلق شرير لا همّ لهم إلا الشر والفساد والأخذ بالباطل وتصويره في صورة الحق ليضلوا به عن سبيل الله. والقرآن كلام حق لا سبيل للباطل اليه فلا يناسب جبلتهم الشيطانية أن يلقوه الى أحد.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وما يقدرون على التنزّل به لأنه كلام سماوي تتلقاه الملائكة من رب العزة فينزّلونه بأمره في حفظ وحراسة منه تعالى كما قال: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم﴾ (الجن / ٢٨)، والى ذلك يشير قوله: «إنهم عن السمع» الخ.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي إن الشياطين عن سمع الأخبار السماوية والاطلاع على ما يجري في الملأ الأعلى معزولون حيث يقذفون بالشهب الثاقبة لو تسمعوا كما ذكره الله في مواضع من كلامه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ خطاب

للنبي ﷺ ينهاه عن الشرك بالله متفرع على قوله: «وما تنزّلت به الشياطين» الخ؛ أي إذا كان هذا القرآن تنزيلاً من رب العالمين ولم تنزّل به الشياطين وهو ينهى عن الشرك ويوعد عليه العذاب فلا تشرك بالله فينالك العذاب الموعود عليه وتدخل في زمرة المعذّبين.

وكونه ﷺ معصوماً بعصمة إلهية يستحيل معها صدور المعصية منه لا ينافي نهيه عن الشرك فإن العصمة لا توجب بطلان تعلّق الأمر والنهي بالمعصوم وارتفاع التكليف عنه بما أنه بشر مختار في الفعل والترك متصور في حقه الطاعة والمعصية بالنظر الى نفسه، وقد تكاثرت الآيات في تكليف الأنبياء ﷺ في القرآن الكريم كقوله في الأنبياء ﷺ: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ (الأنعام / ٨٨)، وقوله في النبي ﷺ: ﴿لئن أشركت ليحبطنّ عملك﴾ (الزمر / ٦٥)، والآيتان في معنى النهي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ في مجمع البيان: عشيرة الرجل قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه انتهى. وخص عشريته وقرابته الأقربين بالذكر بعد نهي نفسه عن الشرك وإنذاره تنبيهاً على أنه لا استثناء في الدعوة الدينية ولا مداهنة ولا مساهلة كما هو معهود في السنن الملوكية فلا فرق في تعلق الإنذار بين النبي وامته، ولا بين الأقارب والأجانب، فالجميع عبيد والله مولاهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اي اشتغل بالمؤمنين بك واجمعهم وضمهم اليك بالرأفة والرحمة كما يجمع الطير أفراخه اليه بخفض جناحه لها، وهذا من الاستعارة بالكناية تقدم نظيره في قوله: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ (الحجر / ٨٨).

والمراد بالاتباع الطاعة بقرينة قوله في الآية التالية: «فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون» فملخص معنى الآيتين: إن آمنوا بك واتبعوك فاجمعهم اليك بالرأفة واشتغل بهم بالتربية وإن عصوك فتبرّء من عملهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي ليس لك من أمر طاعتهم ومعصيتهم شيء وراء ما كلفناك فكل ما وراء ذلك الى الله سبحانه فإنه لعزته سيعذب العاصين وبرحمته سينجي المؤمنين المتبعين.

وفي اختصاص اسمي العزيز والرحيم إلفات للذهن الى ما تقدم من القصص ختمت واحدة بعد واحدة بالاسمين الكريمين.

فهو في معنى أن يقال: توكل في أمر المتبعين والعاصين جميعاً الى الله فهو العزيز الرحيم الذي فعل بقوم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وقوم فرعون ما فعل مما قصصناه فسنته أخذ العاصين وإنجاء المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ظاهر الآيتين ـ على ما يسبق إلى الذهن ـ أن المراد بالساجدين الساجدون في الصلاة فيكون المعنى: الذي يراك وأنت بعينه في حالتي قيامك وسجودك متقلباً في الساجدين وأنت تصلي مع المؤمنين.

وفي معنى الآية روايات من طرق الشيعة وأهل السنة سنتعرض لها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تعليل لقوله: «وتوكل على العزيز الرحيم» وفي الآيات ـ على ما تقدم من معناها ـ تسلية للنبي ﷺ وبشرى للمؤمنين بالنجاة وإيعاد للكفار بالعذاب.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ـ الى قوله ـ كَاذِبُونَ﴾، تعريف لمن تتنزل عليه الشياطين بما يخصه من الصفة ليعلم أن النبي ﷺ ليس منهم ولا أن القرآن من إلقاء الشياطين، والخطاب متوجه الى المشركين.

فقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ في معنى هل أعرفكم الذين

تتنزل عليهم شياطين الجن بالأخبار ؟

وقوله : ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ قال في مجمع البيان : الأفاك الكذاب وأصل الإفك القلب والأفاك الكثير القلب للخبر عن جهة الصدق الى جهة الكذب ، والأثيم الفاعل للقبيح يقال : أثم يأثم إثماً إذا ارتكب القبيح وتأثم إذا ترك الإثم انتهى .

وذلك أن الشياطين لا شأن لهم إلا إظهار الباطل في صورة الحق وتزيين القبيح في زي الحسن فلا يتنزلون إلا على أفاك أثيم .

وقوله : ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ الظاهر أن ضميري الجمع في « يلقون » و « أكثرهم » معاً للشياطين ، والسمع مصدر بمعنى المسموع والمراد به ما سمعه الشياطين من أخبار السماء ولو ناقصاً فإنهم ممنوعون من الاستماع مرميون بالشهب فما استرقوه لا يكون إلا ناقصاً غير تام ولا كامل ولذا يتسرب اليه الكذب كثيراً .

وقوله : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ أي أكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق أصلاً وهذا هو الكثرة بحسب الأفراد ويمكن أن يكون المراد الكثرة من حيث التنزل أي أكثر المتنزلين منهم كاذبون أي أكثر أخبارهم كاذبة .

ومحصل حجة الآيات الثلاث أن الشياطين لابتناء جبلّتهم على الشر لا يتنزلون إلا على كل كذاب فاجر وأكثرهم كاذبون في أخبارهم ، والنبي ﷺ ليس بأفّاك أثيم ولا ما يوحى اليه من الكلام كذباً مختلقاً فليس ممن تتنزل عليه الشياطين ولا الذي يتنزل عليه شيطاناً ، ولا القرآن النازل عليه من إلقاء الشياطين .

قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ـ الى قوله ـ لَا يَفْعَلُونَ ﴾ جواب عن رمي المشركين للنبي ﷺ بأنه شاعر ، نبّه عليه بعد الجواب عن قولهم إن له شيطاناً يوحي اليه القرآن .

وهذان أعني قولهم : إن من الجن من يأتيه ، وقولهم : إنه شاعر ، مما كانوا يكررونه في

ألسنتهم بمكة قبل الهجرة يدفعون به الدعوة الحقة، وهذا مما يؤيد نزول هذه الآيات بمكة خلافاً لما قيل إنها نزلت بالمدينة.

على أن الآيات مشتملة على ختام السورة أعني قوله: «وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون» ولا معنى لبقاء سورة هي من أقدم السور المكية سنين على نعت النقص ثم تمامها بالمدينة، ولا دلالة في الاستثناء على أن المستثنين هم شعراء المؤمنين بعد الهجرة.

وكيف كان فالغيّ خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع فالرشيد هو الذي لا يهتم إلا بما هو حق واقع، والغويّ هو السالك سبيل الباطل والمخطىء طريق الحق، والغواية مما يختص به صناعة الشعر المبنية على التخييل وتصوير غير الواقع في صورة الواقع ولذلك لا يهتم به إلا الغويّ المشعوف بالتزيينات الخيالية والتصويرات الوهمية الملهية عن الحق الصارفة عن الرشد، ولا يتبع الشعراء الذين يبتني صناعتهم على الغيّ والغواية إلا الغاون وذلك قوله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاون».

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾ يقال: هام يهيم هياماً إذا ذهب على وجهه والمراد بهيامهم في كل واد استرسالهم في القول من غير أن يقفوا على حد فربما مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحق المحمود وربما هجوا الجميل كما يهجى القبيح الدميم وربما دعوا الى الباطل وصرفوا عن الحق وفي ذلك انحراف عن سبيل الفطرة الانسانية المبنية على الرشد الداعية الى الحق، وكذا قولهم ما لا يفعلون من العدول عن صراط الفطرة.

وملخص حجة الآيات الثلاث أنه ﷺ ليس بشاعر لأن الشعراء يتبعهم الغاون لابتناء صناعتهم على الغواية وخلاف الرشد لكن الذين يتبعونه إنما يتبعونه ابتغاء للرشد وإصابة الواقع وطلباً للحق لابتناء ما عنده من الكلام المشتمل على الدعوة على الحق والرشد دون الباطل والغيّ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ الخ؛ استثناء من الشعراء المذمومين، والمستثنون هم شعراء المؤمنين فإن الايمان وصالحات الأعمال تردع الانسان بالطبع عن ترك الحق واتباع الباطل ثم الذكر الكثير لله سبحانه يجعل الانسان على ذكر منه تعالى مقبلاً الى الحق الذي يرتضيه مدبراً عن الباطل الذي لا يحب الاشتغال به فلا يعرض لهؤلاء ما كان يعرض لاولئك.

وبهذا البيان يظهر وجه تقييد المستثنى بالايمان وعمل الصالحات ثم عطف قوله: «وذكروا الله كثيراً» على ذلك.

وقوله: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ الانتصار الانتقام، قيل: المراد به ردّ الشعراء من المؤمنين على المشركين أشعارهم التي هجوا بها النبي ﷺ أو طعنوا فيها في الدين وقدحوا في الاسلام والمسلمين، وهو حسن يؤيده المقام.

وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ المنقلب اسم مكان أو مصدر ميمي، والمعنى: وسيعلم الذين ظلموا ـ وهم المشركون على ما طعيه السياق ـ الى أي مرجع ومنصرف يرجعون وينصرفون وهو النار أو ينقلبون أي انقلاب.

وفيه تهديد للمشركين ورجوع مختتم السورة الى مفتتحها وقد وقع في أولها قوله: «فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن»[1].

---

١. الشعراء ١٩٢ ـ ٢٢٧: بحث روائي حول رؤيا النبي ﷺ. قوله تعالى: «وانذر عشيرتك الاقربين».

سورة النمل مكية وهي ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ طٰسٓ تِلْكَ آيٰاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتٰابٍ مُبِينٍ.

٢ ❁ هُدىً وَبُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ.

٣ ❁ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.

٤ ❁ إِنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنّٰا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ.

٥ ❁ أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْعَذٰابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ.

٦ ❁ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ.

بيان:

غرض السورة ـ على ما تدلُّ عليه آيات صدرها والآيات الخمس الخاتمة لها ـ التبشير

والإنذار وقد استشهد لذلك بطرف من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام ثم عقبها ببيان نبذة من أُصول المعارف كوحدانيته تعالى في الربوبية والمعاد وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الإشارة بتلك ـ كما مر في أول سورة الشعراء ـ الى آيات السورة مما ستنزل بعد وما نزلت قبل، والتعبير باللفظ الخاص بالبعيد للدلالة على رفعة قدرها وبعد منالها.

والقرآن اسم الكتاب باعتبار كونه مقروءاً، والمبين من الإبانة بمعنى الإظهار، وتنكير «قرآن» للتفخيم أي تلك الآيات الرفيعة القدر التي ننزلها آيات الكتاب وآيات كتاب مقروّ عظيم الشأن مبين لمقاصده من غير إبهام ولا تعقيد.

قال في مجمع البيان: وصفه بالصفتين يعني الكتاب والقرآن ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً، ووصفه بأنه مبين تشبيه له بالناطق بكذا. انتهى.

قوله تعالى: ﴿هُدىً وَبُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدران أعني «هدىً وبشرى» بمعنى اسم الفاعل أو المراد بهما المعنى المصدري للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ﴾ الخ؛ المراد إتيان الأعمال الصالحة وإنما اقتصر على الصلاة والزكاة لكون كل منهما ركناً في بابه فالصلاة فيما يرجع الى الله تعالى والزكاة فيما يرجع الى الناس وبنظر آخر الصلاة في الأعمال البدنية والزكاة في الأعمال المالية.

وقوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وصف آخر للمؤمنين معطوف على ما قبله جيىء به للاشارة الى أن هذه الأعمال الصالحة إنما تقع موقعها وتصيب غرضها مع الإيقان بالآخرة فإن العمل يحبط مع تكذيب الآخرة، قال تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ (الأعراف / ١٤٧).

وتكرار الضمير في قوله: «وهم بالآخرة هم» الخ؛ للدلالة على أن هذا الإيقان من شأنهم وهم أهله المترقب منهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ العمه التحير في الأمر ومعنى تزيين العمل جعله بحيث ينجذب اليه الإنسان والذين لا يؤمنون بالآخرة لما أنكروها وهي غاية مسيرهم بقوا في الدنيا وهي سبيل لا غاية فتعلقوا بأعمالهم فيها وكانوا متحيرين في الطريق لا غاية لهم يقصدونها.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ الخ؛ إيعاد بمطلق العذاب من دنيوي وأخروي بدليل ما في قوله: «وهم في الآخرة هم الأخسرون» ولعل وجه كونهم أخسر الناس أن سائر العصاة لهم صحائف أعمال مثبتة فيها سيئاتهم وحسناتهم يجازون بها وأما هؤلاء فسيئاتهم محفوظة عليهم يجازون بها وحسناتهم حابطة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ التلقية قريبة المعنى من التلقين، وتنكير «حكيم عليم» للتعظيم، والتصريح بكون هذا القرآن من عنده تعالى ليكون ذلك حجة على الرسالة وتأييداً لما تقدم من المعارف ولصحة ما سيذكره من قصص الأنبياء عليهم السلام.

وتخصيص الاسمين الكريمين للدلالة على نزوله من ينبوع الحكمة فلا ينقضه ناقض ولا يوهنه موهن، ومنبع العلم فلا يكذب في خبره ولا يخطىء في قضائه.

٧ • إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ.

٨ • فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا

وَسُبْحَانَ اللّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالِمِينَ.

٩ ● يٰا مُوسىٰ إِنَّهُ أَنَا اللّٰهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.

١٠ ● وَأَلْقِ عَصٰاكَ فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جٰانٌّ وَلّٰىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يٰا مُوسىٰ لاٰ تَخَفْ إِنِّي لاٰ يَخٰافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ.

١١ ● إِلّاٰ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٢ ● وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضٰاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيٰاتٍ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِينَ.

١٣ ● فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ آيٰاتُنٰا مُبْصِرَةً قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ.

١٤ ● وَجَحَدُوا بِهٰا وَٱسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِأَهْلِهِ﴾ الخ: المراد بأهله امرأته وهي بنت شعيب على ما ذكره الله تعالى في سورة القصص قال في المجمع: إن خطابها بقوله: «آتيكم» بصيغة الجمع لإقامتها مقام الجماعة في الانس بها في الأمكنة الموحشة. انتهى ومن المحتمل أنه كان معها غيرها من خادم أو مكار أو غيرهما.

وفي المجمع: الإيناس الإبصار، وقيل: آنست أي أحسست بالشيء من جهة يؤنس بها وما آنست به فقد أحسست به مع سكون نفسك اليه. انتهى والشهاب على ما في المجمع نور كالعمود من النار وكل نور يمتدُّ كالعمود يسمى شهاباً والمراد الشعلة من النار، وفي المفردات: الشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو وفي المفردات أيضاً: القبس

المتناول من الشعلة ، والاصطلاء بالنار الاستدفاء بها .

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فلما أتى النار وحضر عندها نودي أن بورك ، الخ .

والمراد بالمباركة إعطاء الخير الكثير يقال : باركه وبارك عليه وبارك فيه أي ألبسه الخير الكثير وحباه به ، وقد وقع في سورة طه في هذا الموضع من القصة قوله : ﴿فلما أتاه نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدّس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾ (طه / ١٣). ويستأنس منه أن المراد بمن حول النار موسى أو هو ممن حول النار . ومباركته اختياره بعد تقديسه .

وأما المراد بمن في النار فقد قيل : إن معناه من ظهر سلطانه وقدرته في النار فإن التكليم كان من الشجرة ـ على ما في سورة القصص ـ وقد أحاطت بها النار . وعلى هذا فالمعنى : تبارك من تجلّى لك بكلامه من النار وبارك فيك ، ويكون قوله : «وسبحان الله رب العالمين» تنزيهاً له سبحانه من أن يكون جسماً أو جسمانياً يحيط به المكان أو يجاوره الحدثان لا لتعجيب موسى كما قيل .

قوله تعالى : ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعرّف منه تعالى لموسى ﷺ ليعلم أن الذي يشافهه بالكلام ربه تعالى فهذه الآية في هذه السورة تحاذي قوله من سورة طه : «نودي أن يا موسى إني أنا ربك فاخلع» الخ : فارجع الى سورة طه وتدبّر في الآيات .

قوله تعالى : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ الخ : الاهتزاز التحرك الشديد ، والجان الحية الصغيرة السريعة الحركة ، والإدبار خلاف الإقبال ، والتعقيب الكرّ بعد الفر من عقّب المقاتل إذا كرَّ بعد فراره .

قوله تعالى : ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ حكاية

نفس الخطاب الصادر هناك وهو في معنى قال الله يا موسى لا تخف، الخ.

وقوله: ﴿لاَ تَخَفْ﴾ نهي مطلق يؤمنه عن كل ما يسوء مما يخاف منه ما دام في حضرة القرب والمشافهة سواء كان المخوف منه عصا أو غيرها ولذا علّل النهي بقوله: «إني لا يخاف لديَّ المرسلون» فإن تقييد النفي بقوله: «لديَّ» يفيد أن مقام القرب والحضور يلازم الأمن ولا يجامع مكروهاً يخاف منه. ويؤيده تبديل هذه الجملة في القصة من سورة القصص من قوله: «إنك من الآمنين» فيتحصّل المعنى: لا تخف من شيء إنك مرسل والمرسلون ـ وهم لديَّ في مقام القرب ـ في مقام الأمن ولا خوف مع الأمن.

وأما فرار موسى عليه السلام من العصا وقد تصوَّرت بتلك الصورة الهائلة وهي تهتزُّ كأنها جان فقد كان جرياً منه على ما جبل الله الطبيعة الانسانية عليه إذا فاجأه من المخاطر ما لا سبيل له الى دفعه عن نفسه إلا الفرار وقد كان أعزل لا سلاح معه إلا عصاه وهي التي يخافها على نفسه ولم يرد عليه من جانبه تعالى أمر سابق أن يلزم مكانه أو نهي عن الفرار مما يخافه على نفسه إلا قوله تعالى: «وألق عصاك» وقد امتثله، وليس الفرار من المخاطر العظيمة التي لا دافع لها إلا الفرار. من الجبن المذموم حتى يذمَّ عليه.

وأما أن الأنبياء والمرسلين لا يخافون شيئاً وهم عند ربهم ـ على ما يدل عليه قوله: «إني لا يخاف لديّ المرسلون» ـ فهم لا يملكون هذه الكرامة من عند أنفسهم بل إنما ذلك بتعليم من الله وتأديب وإذ كان موقف ليلة الطور أول موقف من موسى قرَّبه الله اليه فيه وخصّه بالتكليم وحباه بالرسالة والكرامة فقوله: «لا تخف إنك من الآمنين» وقوله: «لا تخف إني لا يخاف لديَّ المرسلون» تعليم وتأديب إلهي له عليه السلام.

فتبين بذلك أن قوله: «لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون» تأديب وتربية إلهية لموسى عليه السلام وليس من التوبيخ والتأنيب في شيء.

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

الذي ينبغي أن يقال ـ والله أعلم ـ أن الآية السابقة لما أخبرت عن أن المرسلين آمنون لا يخافون فهم منه أن غيرهم من أهل الظلم غير آمنين لهم أن يخافوا استدرك في هذه الآية حال أهل التوبة من جملة أهل الظلم فبيّن أنهم لتوبتهم وتبديلهم ظلمهم ـ وهو السوء ـ حسناً بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا يخافون أيضاً.

فالاستثناء من المرسلين وهو استثناء منقطع والمراد بالظلم مطلق المعصية وبالحسن بعد السوء التوبة بعد المعصية أو العمل الصالح بعد السيء، والمعنى: لكن من ظلم باقتراف المعصية ثم بدّل ذلك حسناً بعد سوء وتوبة بعد معصية أو عملاً صالحاً بعد سيء فإني غفور رحيم أغفر ظلمه وأرحمه فلا يخافن من بعد ذلك شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ الخ: فسّر السوء بالبرص وقد تقدم، وقوله: «في تسع آيات الى فرعون وقومه» يمكن أن يستظهر من السياق أولاً أن «في تسع» حال من الآيتين جميعاً، والمعنى: آتيتك هاتين الآيتين ـ والعصا واليد ـ حال كونهما في تسع آيات.

وثانياً: أن الآيتين من جملة الآيات التسع، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات﴾ (الإسراء / ١٠١)، كلام في تفصيل الآيات التسع، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ المبصرة بمعنى الواضحة الجلية، وفي قولهم: «هذا سحر مبين» إزراء وإهانة بالآيات حيث أهملوا الدلالة على خصوصيات الآيات حتى العدد فلم يعبؤا بها إلا بمقدار أنها أمر ما.

قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الخ: قال الراغب: الجحد نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه. انتهى. والاستيقان والإيقان بمعنى.

١٥ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالَا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنا
عَلىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.
١٦ ۞ وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّها النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ
وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هٰذا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ.
١٧ ۞ وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ.
١٨ ۞ حَتّىٰ إِذا أَتَوْا عَلىٰ وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّها النَّمْلُ
ٱدْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا
يَشْعُرُونَ.
١٩ ۞ فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلىٰ والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً
تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصّالِحِينَ.
٢٠ ۞ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ ٱلْغائِبِينَ.
٢١ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ.
٢٢ ۞ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ
سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ.
٢٣ ۞ إِنِّي وَجَدْتُ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ
عَظِيمٌ.

٢٤ ● وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ.

٢٥ ● أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ.

٢٦ ● اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

٢٧ ● قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

٢٨ ● اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ.

٢٩ ● قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ.

٣٠ ● إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ.

٣١ ● أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ.

٣٢ ● قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ.

٣٣ ● قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ.

٣٤ ● قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ.

٣٥ ● وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ.

٣٦ ● فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ

مِمّا آتيكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ.

٣٧ ۞ إِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها
أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ.

٣٨ ۞ قالَ يا أَيُّها ٱلْمَلَؤُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ.

٣٩ ۞ قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ ٱلْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ
وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ.

٤٠ ۞ قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ ٱلْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ
إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي
لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ
كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ.

٤١ ۞ قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا
يَهْتَدُونَ.

٤٢ ۞ فَلَمّا جاءَتْ قِيلَ أَهٰكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينا ٱلْعِلْمَ
مِنْ قَبْلِها وَكُنّا مُسْلِمِينَ.

٤٣ ۞ وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ
كافِرِينَ.

٤٤ ۞ قِيلَ لَها ٱدْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ
ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي

ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾ الخ؛ في تنكير العلم إشارة الى تفخيم أمره، ومما أُشير فيه الى علم داود من كلامه تعالى قوله: ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ (ص / ٢٠). ومما أُشير فيه الى علم سليمان قوله: ﴿ففهّمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ (الأنبياء / ٧٩)، وذيل الآية يشملهما جميعاً.

وقوله: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بالتفضيل إما التفضيل بالعلم على ما ربما يؤديه سياق الآية، وإما التفضيل بمطلق ما خصّهما الله به من المواهب كتسخير الجبال والطير لداود وتليين الحديد له وإيتائه الملك، وتسخير الجن والوحش والطير وكذا الريح لسليمان وتعليمه منطق الطير وإيتائه الملك على ما يستدعيه إطلاق التفضيل.

والآية أعني قوله: «وقالا الحمد لله» الخ؛ على أي حال بمنزلة حكاية اعترافهما على التفضيل الإلهي فيكون كالشاهد على المدّعى الذي تشير اليه بشارة صدر السورة أن الله سبحانه سيخصّ المؤمنين بما تقرّ به عيونهم ومثلها ما سيأتي من اعترافات سليمان في مواضع من كلامه.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ الخ؛ أي ورثه ماله وملكه، وأما قول بعضهم: المراد به وراثة النبوة والعلم ففيه أن النبوة لا تقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنه إنما يصحّ في العلم الفكري الاكتسابي والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل كرامةً من الله لهم وهبيّ ليس مما يكتسب بالفكر فغير النبي يرث العلم من النبي لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا من غير نبي.

وقوله: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ ظاهر السياق أنه ﷺ يباهي عن نفسه وأبيه وهو منه ﷺ تحديث بنعمة الله كما قال تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدّث﴾ (الضحى / ١١). وأما إصرار بعض المفسرين على أن الضمير في قوله: «عُلّمنا» و«أُوتينا» لنفسه لا له ولأبيه على ما هو عادة الملوك والعظماء في الإخبار عن أنفسهم ـ فإنهم يخبرون عنهم وعن خدمهم وأعوانهم رعاية لسياسة الملك ـ فالسياق السابق لا يساعد عليه كل المساعدة.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي أُعطينا من كل شيء، و«كل شيء» وإن كان شاملاً لجميع ما يفرض موجوداً ـ لأن مفهوم شيء من أعمُّ المفاهيم وقد دخل عليه كلمة الاستغراق ـ لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمة ولا كل نعمة بل النعم التي يمكن أن يؤتاها الانسان فيتنعم بها تقيد به معنى كل شيء وكان معنى الجملة: وأعطانا الله من كل نعمة يمكن أن يعطاها الانسان فيتنعم بها مقداراً معتداً به كالعلم والنبوة والملك والحكم وسائر النعم المعنوية والمادية.

وقوله: ﴿هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ شكر وتأكيد للتحديث بالنعمة من غير عجب ولا كبر واختيال لاسناده الجميع الى الله بقوله: «عُلّمنا» و«أُوتينا»، واحتمل بعضهم أن تكون الجملة من كلام الله سبحانه لا من كلام سليمان والسياق يأباه.

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ الحشر هو جمع الناس وإخراجهم لأمر بإزعاج والوزع المنع وقيل الحبس، والمعنى كما قيل: وجمع لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يمنعون من التفرّق والاختلاط كل جمع بآخر برد أولهم الى آخرهم وحبس كل في مكانه.

ويستفاد من الآية أنه كان له جنود من الجن والطير يسيرون معه كجنوده من الإنس.

وكلمة الحشر ووصف المحشورين بأنهم جنود، وسياق الآيات التالية كل ذلك دليل على

أن جنوده كانوا طوائف خاصة من الجن والإنس والطير سواء كانت «من» في الآية للتبعيض او للبيان.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ الآية: «حتى» غاية لما يفهم من الآية السابقة، وضمير الجمع لسليمان وجنوده، وتعدية الإتيان بعلى قيل: لكون الإتيان من فوق، ووادي النمل وادٍ بالشام على ما قيل، وقيل: في أرض الطائف، وقيل: في أقصى اليمن، والحطم الكسر.

والمعنى: فلما سار سليمان وجنوده حتى أتوا على وادي النمل قالت نملة مخاطبة لسائر النمل: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسرنّكم سليمان وجنوده أي لا يطأنكم بأقدامهم وهم لا يشعرون. وفيه دليل على أنهم كانوا يسيرون على الأرض.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾ الى آخر الآية: قيل: التبسُّم دون الضحك، وعلى هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازاً.

ولا منافاة بين قوله عليه السلام: «عُلِّمنا منطق الطير» وبين فهمه كلام النملة إذ لم ينف فهمه كلام سائر الحيوان او كلام بعضها كالنملة.

وقد تسلّم جمع منهم دلالة قوله: «علّمنا منطق الطير» على نفي ما عداه فتكلفوا في توجيه فهمه عليه السلام قول النملة تارة بأنه كانت قضية في واقعة، وأُخرى بتقدير أنها كانت نملة ذات جناحين وهي من الطير، وثالثة بأن كلامها كان من معجزات سليمان عليه السلام، ورابعة بأنه عليه السلام لم يسمع منها صوتاً قط وإنما فهم ما في نفس النملة إلهاماً من الله تعالى هذا.

وما تقدم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام. على أن سياق الآيات وحده كافٍ في دفعها.

وقوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ الايزاع الإلهام. تبسّم عليه السلام مبتهجاً مسروراً بما أنعم

الله عليه حتى أوقفه هذا الموقف وهي النبوّة والعلم بمنطق الحيوان والملك والجنود من الجنّ والإنس والطير فسأل الله أن يلهمه شكر نعمته وأن يعمل بما فيه رضاه سبحانه.

وقد جعل الشكر للنعمة التي أنعم الله تعالى بها على نفسه مختصة به، وللنعمة التي أنعم بها على والديه فإن الإنعام على والديه إنعام عليه بوجه لكونه منهما وقد أنعم الله تعالى على أبيه داود بالنبوة والملك والحكمة وفصل الخطاب وغيرها وأنعم على أُمه حيث زوَّجها من داود النبي ورزقها سليمان النبي وجعلها من أهل بيت النبوة.

وفي كلامه هذا دليل على أن والدته من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم[1] وهم احدى الطوائف الأربع المذكورين في قوله تعالى: ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾ (النساء / ٦٩).

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ عطف على قوله: «أن أشكر نعمتك» ومسألة هذه «أوزعني أن أعمل» الخ؛ أمر أرفع قدراً وأعلى منزلة من سؤال التوفيق للعمل الصالح فإن التوفيق يعمل في الأسباب الخارجية بترتيبها بحيث توافق سعادة الإنسان والايزاع الذي سأله دعوة باطنية في الإنسان الى السعادة، وعلى هذا فليس من البعيد أن يكون المراد به الوحي الذي أكرم الله به إبراهيم وآله فيما يخبر عنه بقوله: ﴿وأوحينا اليهم فعل الخيرات﴾ الآية (الأنبياء / ٧٣)، وهو التأييد بروح القدس على ما مر في تفسير الآية.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي اجعلني منهم. وهذا الصلاح لما لم يتقيد بالعمل كان هو صلاح الذات وهو صلاح النفس في جوهرها الذي يستعد به لقبول أي كرامة إلهية.

---

١. وفيه تبرئة ساحتها عما في التوراة الدائرة فبي التوراة أنها كانت امرأة اوريا فجر بها داود ثم كاد في قتل اوريا فقتل في بعض الحروب فأدخلها في أزواجه فولدت له سليمان.

ومن المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدراً من صلاح العمل ففي قوله: «وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين» تدرّج في المسألة من الأدنى الى الأعلى وقد كان صلاح العمل منسوباً الى صنعه واختياره بوجه دون صلاح الذات ولذا سأل صلاح الذات من ربه ولم يسأل نفس صلاح العمل بل أن يوزعه أن يعمل.

وفي تبديله سؤال صلاح الذات من سؤال أن يدخله في عباده الصالحين إيذان بسؤاله ما خصهم الله به من المواهب وأعزرها العبودية وقد وصفه الله بها في قوله: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ (ص / ٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ﴾ قال الراغب: التفقد التعهد لكن حقيقة التفقد تعرف فقدان الشيء والتعهد تعرف العهد المتقدم قال تعالى: «وتفقد الطير». انتهى.

استفهم أولاً متعجباً من حال نفسه إذ لا يرى الهدهد بين الطير كأنه لم يكن من المظنون في حقه أن يغيب عن موكبه ويستنكف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته.

والمعنى: ما بالي لا أرى الهدهد بين الطيور الملازمة لموكبي بل أكان من الغائبين.

قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ اللامات للقسم والسلطان المبين البرهان الواضح، يقضي عليه السلام على الهدهد أحد ثلاث خصال: العذاب الشديد والذبح وفيهما شقاؤه، والإتيان بحجة واضحة وفيه خلاصه ونجاته.

قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ضمير «فمكث» لسليمان ويحتمل أن يكون للهدهد ويؤيد الأول سابق السياق والثاني لاحقه، والمراد بالإحاطة العلم الكامل، وقوله: «وجئتك» الخ؛ بمنزلة عطف التفسير لقوله: «أحطت» الخ؛ وسبأ بلدة باليمن كانت عاصمته يومئذ والنبأ الخبر الذي له

أهمية، واليقين ما لا شك فيه.

والمعنى: فمكث سليمان ـ أو فمكث الهدهد ـ زماناً غير بعيد ـ ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته وعاتبه ـ فقال أحطت من العلم بما لم تحط به وجئتك من سبإ بخبر مهم لا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ الضمير في «تملكهم» لأهل سبإ وما يتبعها وقوله: «وأُوتيت من كل شيء» وصف لسعة ملكها وعظمته وهو القرينة على أن المراد بكل شيء في الآية كل شيء هو من لوازم الملك العظيم من حزم وعزم وسطوة ومملكة عريضة وكنوز وجنود مجندة ورعيّة مطيعة، وخصّ بالذكر من بينها عرشها العظيم.

قوله تعالى: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ الخ؛ أي إنهم من عبَدة الشمس من الوثنيين.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ بمنزلة عطف التفسير لما سبقه وهو مع ذلك توطئة لقوله بعد: «فصدَّهم عن السبيل» لأن تزيين الشيطان لهم أعمالهم التي هي سجدتهم وسائر تقرّباتهم هو الذي صرفهم ومنعهم عن سبيل الله وهى عبادته وحده.

وفي إطلاق السبيل من غير إضافتها اليه تعالى إشارة الى أنها السبيل المتعينة للسبيلية بنفسها للانسان بالنظر الى فطرته بل لكل شيء بالنظر الى الخلقة العامة.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ تفريع على صدّهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصدّ عن السبيل فلا اهتداء، فافهمه.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ القراءة الدائرة «ألا» ـ بتشديد اللام ـ مؤلف من «أن ولا» وهو عطف بيان من «أعمالهم»، والمعنى: زيّن لهم الشيطان أن لا يسجدوا لله، وقيل: بتقدير لام التعليل، والمعنى: زيّن لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله.

والخبء على ما في مجمع البيان المخبوء وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه وهو مصدر وصف به يقال: خبأته أخبئه خبأ وما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم الى الوجود يكون بهذه المنزلة. انتهى.

ففي قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استعارة كأن الأشياء مخبوءة مستورة تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى الى الوجود واحداً بعد آخر فيكون تسمية الإيجاد بعد العدم إخراجاً للخبء قريباً من تسميته بالفطرة وتوصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض والفطر هو الشق كأنه يشقُّ العدم فيخرج الأشياء.

ويمكن حمل الجملة على الحقيقة من غير استعارة لكنه مفتقر الى بيان موضعه غير هذا الموضع. وقيل: المراد بالخبء الغيب وإخراجه العلم به وهو كما ترى.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالتاء على الخطاب أي يعلم سرَّكم وعلانيتكم، وقرأ الأكثرون بالياء على الغيبة وهو أرجح.

وملخص الحجة: انهم إنما يسجدون للشمس دون الله تعظيماً لها على ما أودع الله سبحانه في طباعها من الآثار الحسنة والتدبير العام للعالم الأرضي وغيره، والله الذي أخرج جميع الأشياء من العدم الى الوجود ومن الغيب الى الشهادة فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله ـ ومنجملتها الشمس وتدبيرها ـ أولى بالتعظيم وأحق ان يسجد له، مع أنه لا معنى لعبادة ما لا شعور له بها ولا شعور للشمس بسجدتهم والله سبحانه يعلم ما يخفون وما يعلنون فالله سبحانه هو المتعين للسجدة والتعظيم لا غير.

وبهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلواً: «الله لا إله إلا هو» الخ.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من تمام كلام الهدهد وهو بمنزلة التصريح بنتيجة البيان الضمني السابق وإظهار الحق قبال باطلهم ولذا أتى أولاً بالتهليل الدالّ على توحيد العبادة ثم ضمّ اليه قوله: «رب العرش العظيم» الدال على انتهاء تدبير الأمر

اليه فإن العرش الملكي هو المقام الذي تجتمع عنده ازمة الامور وتصدر منه الأحكام الجارية في الملك.

وفي قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ مناسبة محاذاة اخرى مع قوله في وصف ملكة سبأ: «ولها عرش عظيم» ولعل قول الهدهد هذا الذي دعا ـ او هو من جملة ما دعا ـ سليمان عليه السلام ان يأمر ان يأتوا بعرشها اليه ليخضع لعظمة ربه كل عظمة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ الضمير لسليمان عليه السلام. أحال القضاء في أمر الهدهد الى المستقبل فلم يصدقه في قوله لعدم بيّنة عليه بعد ولم يكذبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده ان يجرّب ويتأمل.

قوله تعالى: ﴿إِذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ حكاية قول سليمان خطاباً للهدهد كأنه قيل: فكتب سليمان كتاباً ثم قال للهدهد: اذهب بكتابي هذا إليهم أي الى ملكة سبأ وملأها فألقه إليهم ثم تولّ عنهم أي تنحّ عنهم وقع في مكان تراهم فانظر ماذا يرجعون أي ماذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه.

وقوله: ﴿فَأَلْقِهْ﴾ بسكون الهاء وصلاً ووقفاً في جميع القراءات وهي هاء السكت. ومما قيل في الآية: أن قوله: «ثم تولّ عنهم فانظر» الخ؛ من قبيل التقديم والتأخير والأصل فانظر ماذا يرجعون ثم تولّ عنهم: وهو كما ترى.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في الكلام حذف وإيجاز والتقدير فأخذ الهدهد الكتاب وحمله الى ملكة سبأ حتى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذتها ولما قرأتها قالت لملإها وأشراف قومها: يا أيها الملؤ، الخ.

فقوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ حكاية ذكرها لملإها

أمر الكتاب وكيفية وصوله إليها ومضمونه. وقد عظّمته إذ وصفته بالكرم.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريماً أي والسبب فيه أنه من سليمان ولم يكد يخفى عليها جبروت سليمان وما أُوتيه من الملك العظيم والشوكة العجيبة كما اعترفت بذلك في قولها على ما حكاه الله بعد: «وأُوتينا العلم من قبله وكنا مسلمين».

وإنه بسم الله الرحمن الرحيم: أي الكتاب باسمه تعالى فهو كريم لذلك والوثنيون جميعاً قائلون بالله سبحانه يرونه رب الأرباب وإن لم يعبدوه، وعبدة الشمس منهم وهم من شعب الصابئين يعظّمونه ويعظّمون صفاته وإن كانوا يفسّرون الصفات بنفي النقائص والأعدام فيفسرون العلم والقدرة والحياة والرحمة مثلاً بانتفاء الجهل والعجز والموت والقسوة فكون الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم يستدعي كونه كريماً. كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعي كونه كريماً. وعلى هذا فالكتاب أي مضمونه هو قوله: «أن لا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين» وأن مفسّره.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أن مفسرة تفسر مضمون كتاب سليمان كما تقدمت الإشارة اليه.

والمراد بعلوهم عليه استكبارهم عليه. وبقوله: «وأتوني مسلمين» إسلامهم بمعنى الإنقياد على ما يؤيده قوله: «أن لا تعلوا علي» دون الإسلام بالمعنى المصطلح وهو الإيمان بالله سبحانه وإن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد وسياق الآيات الآتية. ولو كان المراد بالايمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال: أن لا تعلوا على الله.

وكون سليمان عليه السلام نبياً شأنه الدعوة الى الإسلام لا ينافي ذلك فإنه كان ملكاً رسولاً وكانت دعوته الى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم وقد انتهت الى إسلامها لله كما حكى الله تعالى

عنها «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين».

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ الإفتاء إظهار الفتوى وهي الرأي، وقطع الأمر القضاء به والعزم عليه والشهادة الحضور وهذا استشارة منها لهم تقول: أشيروا علي في هذا الأمر الذي واجهته ـ وهو الذي يشير اليه كتاب سليمان ـ وإنما أستشيركم فيه لأني لم أكن حتى اليوم استبد برأيي في الامور بل أقضي وأعزم عن إشارة وحضور منكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ القوة ما يتقوى به على المطلوب وهي ههنا الجند الذي يتقوى به على دفع العدو وقتاله، والبأس الشدة في العمل والمراد به النجدة والشجاعة.

والآية تتضمن جواب الملإ لها يسمعونها أولاً ما يطيب له نفسها ويسكن به قلقها ثم يرجعون اليها الأمر يقولون: طيبي نفساً ولا تحزني فإن لنا من القوة والشدة ما لا نهاب به عدواً وإن كان هو سليمان ثم الأمر اليك مري بما شئت فنحن مطيعوك.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ إفساد القرى تخريبها وإحراقها وهدم أبنيتها، وإذلال أعزة أهلها هو بالقتل والأسر والسبي والإجلاء والتحكم.

كان رأيها على ما يستفاد من هاتين الآيتين ـ زيادة التبصر في أمر سليمان عليه السلام بأن ترسل اليه من يختبر حاله ويشاهد مظاهر نبوته وملكه فيخبر الملكة بما رأى حتى تصمم هي العزم على أحد الأمرين: الحرب أو السلم وكان الظاهر من كلام الملاء حيث بدؤا في الكلام معها بقولهم نحن اولو قوة واولو بأس شديد، أنهم يميلون الى القتال لذلك أخذت أولاً تذم الحرب ثم نصت على ما هو رأيها فقالت: «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» الخ: اي إن الحرب لا تنتهي إلا الى غلبة أحد المتحاربين وفيها فساد القرى وذلة أعزتها فليس من الحزم والإقدام

عليها مع قوة العدو وشوكته مهما كانت الى السلم والصلح سبيل إلا لضرورة ورأيي الذي أراه ان أُرسل اليهم بهدية ثم أنظر بماذا يرجع المرسلون من الخبر وعند ذلك أقطع بأحد الأمرين الحرب او السلم.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا﴾ الخ: توطئة لقوله بعد: «وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة» الخ.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أبلغ وآكد من قولنا مثلاً: استذلوا أعزتها لأنه مع الدلالة على تحقق الذلة يدل على تلبسهم بصفة الذلة.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مسوق للدلالة على الاستمرار بعد دلالة قوله: «أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة» على اصل الوقوع. وقيل: إن الجملة من كلام الله سبحانه لا من تمام كلام ملكة سبأ، وليس بسديد إذ لا اقتضاء في المقام لمثل هذا التصديق.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ اي مرسلة الى سليمان وهذا نوع من التجبر والاعتزاز الملوكي تصون لسانها عن اسمه وتنسب الأمر اليه والى من معه جميعاً وايضاً تشير به الى انه يفعل ما يفعل بأيدي اعضاده وجنوده وإمداد رعيته.

وقوله: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ اي حتى اعمل عند ذلك بما تقتضيه الحال وهذا ـ كما تقدم ـ هو رأي ملكة سبأ، ويعلم من قوله: «المرسلون» أن الحامل للهدية كان جمعاً من قومها كما يستفاد من قول سليمان بعد «ارجع اليهم» انه كان للقوم المرسلين رئيس يرأسهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ضمير جاء للمال الذي أُهدى اليه او للرسول الذي جاء بالهدية.

والاستفهام في قوله : «أتمدُّونن بمال» للتوبيخ والخطاب للرسول والمرسل بتغليب الحاضر على الغائب ، وتوبيخ القوم من غير تعيين الملكة من بينهم نظير قولها فيما تقدم : «وإني مرسلة اليهم بهدية» كما أشرنا اليه .

وجوَّز ان يكون الخطاب للمرسلين وكانوا جماعة وهو خطأ فإن الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممن أرسلهم فلا معنى لتوجيه التوبيخ اليهم خاصة . وتنكير المال للتحقير ، والمراد بما آتاني الله الملك والنبوة .

والمعنى : أتمدُّونني بمال حقير لا قدرة له عندي في جنب ما آتاني الله فما آتاني الله من النبوة والملك والثروة خير مما آتاكم .

وقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال الى التوبيخ بفرحهم بهديتهم أي إن إمدادكم إياي بمال لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله قبيح وفرحكم بهديتكم لاستعظامكم لها وإعجابكم بها أقبح .

قوله تعالى : ﴿إرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ الخطاب لرئيس المرسلين ، وضمائر الجمع راجعة الى ملكة سبأ وقومها ، والقبل الطاقة ، وضمير «بها» لسبأ ، وقوله : «وهم صاغرون» تأكيد لما قبله ، واللام في «فلنأتينهم» و«لنخرجنهم» للقسم .

لما كان ظاهر تبديلهم امتثال أمره ـ وهو قوله : «أتوني مسلمين» ـ من إرسال الهدية هو الاستنكاف عن الاسلام قدّر بحسب المقام انهم غير مسلمين له فهددهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها ولذلك فرَّع إتيانهم بالجنود على رجوع الرسول من غير أن يشترطه بعدم إتيانهم مسلمين فقال : «ارجع اليهم فلنأتينهم» الخ : ولم يقل : ارجع فإن لم يأتوني مسلمين فلنأتينهم ، الخ ؛ وإن كان مرجع المعنى اليه فإن إرسال الجنود وإخراجهم من سبأ على حال الذلة كان مشروطاً به على أي حال .

والسياق يشهد أنه عليه السلام ردَّ اليهم هديتهم ولم يقبلها منهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ كلام تكلم به بعد رد الهدية وإرجاع الرسل، وفيه إخباره انهم سيأتونه مسلمين وإنما أراد الإتيان بعرشها قبل حضورها وقومها عنده ليكون دلالة ظاهرة على بلوغ قدرته الموهوبة من ربه ومعجزة باهرة لنبوته حتى يسلموا لله كما يسلمون له ويستفاد ذلك من الآيات التالية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ العفريت ـ على ماقيل ـ المارد الخبيث، وقوله: «آتيك به» اسم فاعل او فعل مضارع من الإتيان، والأول أنسب للسياق لدلالته على التلبّس بالفعل وكونه أنسب لعطف قوله: «وإني عليه» الخ؛ وهو جملة اسمية عليه. كذا قيل.

وقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ الضمير للإتيان أي أنا للإتيان بعرشها لقوي لا يثقل عليَّ حمله ولا يجهدني نقله، أمين لا أخونك في هذا الأمر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ﴾ مقابلته لمن قبله دليل على انه كان من الانس، وقد وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام انه كان آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيّه، وقيل: هو الخضر، وقيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أجاب، وقيل: جبريل، وقيل: هو سليمان نفسه، وهي وجوه لا دليل على شيء منها.

وأياً ما كان وأي من كان ففصل الكلام مما قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذي أتى بعرشها اليه في أقل من طرفة العين، وقد اعتنى بشأن عمله أيضاً إذ نكّر فقيل: علم من الكتاب أي علم لا يحتمل اللفظ وصفه.

والمراد بالكتاب الذي هو مبدأ هذا العلم العجيب إما جنس الكتب السماوية او اللوح

المحفوظ، والعلم الذي أخذه هذا العالم منه كان علماً يسهّل له الوصول الى هذه البغية وقد ذكر المفسرون أنه كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، وربما ذكر بعضهم أن ذلك الاسم هو الحي القيّوم، وقيل: ذو الجلال والإكرام، وقيل: الله الرحمان، وقيل: هو بالعبرانية آهياً شراهياً، وقيل: إنه دعا بقوله: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت إيتني بعرشها. الى غير ذلك مما قيل.

وقوله: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ الطرف ـ على ما قيل ـ اللحظ والنظر وارتداد الطرف وصول المنظور اليه الى النفس وعلم الإنسان به، فالمراد أنا آتيك به في أقل من الفاصلة الزمانية بين النظر الى الشيء والعلم به.

والخطاب في قوله: «أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك» لسليمان ﷺ فهو الذي يريد الإتيان به اليه وهو الذي يراد الإتيان به اليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ الى آخر الآية؛ أي لما رأى سليمان العرش مستقراً عنده قال هذا، أي حضور العرش واستقراره عندي في أقل من طرفة العين من فضل ربي من غير استحقاق مني ليبلوني أي يمتحنني أأشكر نعمته أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه أي يعود نفعه اليه لا الى ربي ومن كفر فلم يشكر فإن ربي غني كريم ـ وفي ذيل الكلام تأكيد لما في صدره من حديث الفضل ـ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، قال في المفردات: تنكير الشيء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف، قال تعالى: «قال نكّروا لها عرشها» وتعريفه جعله بحيث يعرف. انتهى.

والسياق يدل على أن سليمان ﷺ إنما قاله حينما قصدته ملكة سبأ وملأها لما دخلوا عليه، وإنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آية باهرة من آيات نبوته لها، ولذا امر بتنكير العرش ثم رتّب عليه قوله: «ننظر أتهتدي» الخ؛ والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أي فلما جاءت الملكة سليمان ﷺ قيل له من جانب سليمان «أهكذا عرشك» وهو كلمة اختبار.

ولم يقل: أهذا عرشك بل زيد في التنكير فقيل: أهكذا عرشك؟ فاستفهم عن مشابهة عرشها لهذا العرش المشار اليه في هيئته وصفاته، وفي نفس هذه الجملة نوع من التنكير.

وقوله: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ المراد به أنه هو وإنما عبَّرت بلفظ التشبيه تحرزاً من الطيش والمبادرة الى التصديق من غير تثبت، ويكنى عن الاعتقادات الابتدائية التي لم يتثبت عليها غالباً بالتشبيه.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ضمير «قبلها» لهذه الآية أي الإتيان بالعرش او لهذه الحالة اي رؤيتها له بعدما جاءت، وظاهر السياق أنها تتمة كلام الملكة فهي لما رأت العرش وسئلت عن امره احست أن ذلك منهم تلويح الى ما آتى الله سليمان من القدرة الخارقة للعادة فأجابت بقولها: «وأُوتينا العلم من قبلها» الخ؛ أي لا حاجة الى هذا التلويح والتذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآية او هذه الحالة وكنا مسلمين لسليمان طائعين له.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ الصد: المنع والصرف، ومتعلق الصد الإسلام لله وهو الذي ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول: أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، وأما قولها في الآية السابقة: «وكنا مسلمين» فهو إسلامها وانقيادها لسليمان ﷺ.

هذا ما يعطيه سياق الآيات وللقوم وجوه أُخر في معنى الآية أضربنا عنها.

وقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ في مقام التعليل للصد، والمعنى: ومنعها عن الاسلام لله ما كانت تعبد من دون الله وهي الشمس على ما تقدم في نبأ الهدهد والسبب فيه أنها

كانت من قوم كافرين فاتبعتهم في كفرهم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ الى آخر الآية؛ الصرح هو القصر وكل بناء مشرف والصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف، واللجة المعظم من الماء والممرد اسم مفعول من التمريد وهو التمليس، والقوارير الزجاج.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ إلى آخر الآية: الصرح هو القصر وكل بناء مشرف والصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف، واللجة المعظم من الماء والممرد اسم مفعول من التمريد وهو التلميس، والقوارير الزجاج.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ كأن القائل بعض خدم سليمان مع حضور من سليمان ممن كان يهديها الى الدخول عليه على ما هو الدأب في وفود الملوك والعظماء على أمثالهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ اي لما رأت الصرح ظنت انه لجة لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء وكشفت عن ساقيها بجمع ثيابها لئلا تبتل بالماء أذيالها.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ القائل هو سليمان نبهها انه ليس بلجة بل صرح مملس من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمة ملك سليمان وقد كانت رأت سابقاً ما رأت من أمر هدهد ورد الهدية والإتيان بعرشها لم تشك ان ذلك من آيات نبوته من غير ان يؤتى بحزم او تدبير وقالت عند ذلك: رب إني ظلمت نفسي، الخ.

وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، استغاثت أولاً بربها بالاعتراف إذ لم تعبد الله من بدء او من حين رأت هذه الآيات ثم شهدت بالإسلام لله مع سليمان.

وفي قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ﴾ التفات بالنسبة اليه تعالى من الخطاب الى

الغيبة ووجهه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت: رب إني ظلمت نفسي الى التوحيد الصريح فإنها تشهد ان إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام سليمان وهو التوحيد ثم تؤكد التصريح بتوصيفه تعالى برب العالمين فلا رب غيره تعالى لشيء من العالمين وهو توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد العبادة الذي لا يقول به مشرك[1].

٤٥ • وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلىٰ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ ٱعْبُدُوا اللّٰهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ.

٤٦ • قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

٤٧ • قالُوا ٱطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ.

٤٨ • وَكانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ.

٤٩ • قالُوا تَقاسَمُوا بِاللّٰهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنّا لَصادِقُونَ.

٥٠ • وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ.

٥١ • فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ.

---

١. النمل ١٥ ـ ٤٤: كلام في قصة سليمان عليه السلام (ما ورد من قصصه في القرآن، الثناء عليه في القرآن، ذكره عليه السلام في العهد العتيق، الروايات الواردة في قصصه عليه السلام).

٥٢ ● فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

٥٣ ● وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ـ الى قوله ـ يَخْتَصِمُونَ﴾ الاختصام والتخاصم التنازع وتوصيف التثنية بالجمع أعني قوله: «فريقان» بقوله: «يختصمون» لكون المراد بالفريقين الامة و«إذا» فجائية.

والمعنى: أُقسم لقد أرسلنا الى قوم ثمود أخاهم ونسيبهم صالحاً وكان المرجو ان يجتمعوا على الايمان لكن فاجأهم أن تفرقوا فريقين مؤمن وكافر يختصمون ويتنازعون في الحق كل يقول: الحق معي، ولعل المراد باختصامهم ما حكاه الله عنهم في موضع آخر بقوله: ﴿**قال الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أُرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون**﴾ (الأعراف / ٧٦).

ومن هنا يظهر ان أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به والآخر المستكبرون وباقي المستضعفين ممن اتبعوا كبارهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الخ: الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة المبادرة الى سؤال العذاب قبل الرحمة التي سببها الايمان والاستغفار.

وبه يظهر أن صالحاً عليه السلام إنما وبخهم بقوله هذا بعدما عقروا الناقة وقالوا له: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فيكون قوله: «لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون» تحضيضا الى

الايمان والتوبة لعل الله يرحمهم فيرفع عنهم ما وعدهم من العذاب وعداً غير مكذوب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الخ: التطيّر هو التشاؤم، وكانوا يتشاءمون كثيراً بالطير ولذا سموا التشاؤم تطيراً ونصيب الإنسان من الشر طائراً كما قيل.

فقولهم خطاباً لصالح: «اطيرنا بك وبمن معك» اي تشأمنا بك وبمن معك ممن آمن بك ولزمك لما ان قيامك بالدعوة وإيمانهم بك قارن ما ابتلينا به من المحن والبلايا فلسنا نؤمن بك.

وقوله خطاباً للقوم: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ اي نصيبكم من الشر وهو الذي تستوجبه أعمالكم من العذاب عند الله سبحانه.

ولذا أضرب عن قوله: «طائركم عند الله» بقوله: «بل أنتم قوم تفتنون» أي تختبرون بالخير والشر ليمتاز مؤمنكم من كافركم ومطيعكم من عاصيكم.

ومعنى الآية: قال القوم: تطيرنا بك يا صالح وبمن معك فلن نؤمن ولن نستغفر قال صالح: طائركم الذي فيه نصيبكم من الشر عند الله وهو كتاب أعمالكم ولست أنا ومن معي ذوي أثر فيكم حتى نسوق اليكم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون وتمتحنون بهذه الامور ليمتاز مؤمنكم من كافركم ومطيعكم من عاصيكم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ الخ: قال الراغب: الرهط العصابة دون العشرة وقيل الى الأربعين انتهى، وقيل: الفرق بين الرهط والنفر ان الرهط من الثلاثة او السبعة الى العشرة والنفر من الثلاثة الى التسعة انتهى.

قيل: المراد بالرهط الأشخاص ولذا وقع تمييزاً للتسعة لكونه في معنى الجمع فقد كان المتقاسمون تسعة رجال.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ التقاسم المشاركة في القسم، والتبييت القصد بالسوء ليلاً.

وأهل الرجل من يجمعه وإياهم بيت او نسب او دين. ولعل المراد بأهله زوجه وولده بقرينة قوله بعد: «ثم نقول لوليه ما شهدنا»، وقوله: «وإنا لصادقون» معطوف على قوله: «ما شهدنا» فيكون من مقول القول.

والمعنى: قال الرهط المفسدون وقد تقاسموا بالله: لنقتلنه وأهله بالليل ثم نقول لوليه إذا عقبنا وطلب الثار: ما شهدنا هلاك أهله وإنا لصادقون في هذا القول، ونفي مشاهدة مهلك أهله نفي لمشاهدة مهلك نفسه بالملازمة او الأولوية، على ما قيل.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ﴾ أما مكرهم فهو التواطي على تبييته وأهله والتقاسم بشهادة السياق السابق وأما مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعاً بشهادة السياق اللاحق.

قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنّٰا دَمَّرْنٰاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ التدمير الاهلاك، وضمائر الجمع للرهط، وكون عاقبة مكرهم هو إهلاكهم وقومهم من جهة أن مكرهم استدعى المكر الالهي على سبيل المجازاة، واستوجب ذلك إهلاكهم وقومهم.

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خٰاوِيَةً بِمٰا ظَلَمُوا﴾ الخ؛ الخاوية الخالية من الخواء بمعنى الخلاء، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكٰانُوا يَتَّقُونَ﴾ فيه تبشير للمؤمنين بالانجاء، وقد أردفه بقوله: «وكانوا يتقون» إذ التقوى كالجن للايمان وقد قال تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ (الأعراف / ١٢٨)، وقال: ﴿والعاقبة للتقوى﴾ (طه / ١٣٢).

٥٤ * وَلُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ.

٥٥ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

تَجْهَلُونَ.

٥٦ ● فَمٰا كٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنٰاسٌ يَتَطَهَّرُونَ.

٥٧ ● فَأَنْجَيْنٰاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنٰاهٰا مِنَ ٱلْغٰابِرِينَ.

٥٨ ● وَأَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسٰاءَ مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفٰاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ معطوف على موضع «أرسلنا» في القصة السابقة بفعل مضمر والتقدير ولقد أرسلنا لوطاً. كذا قيل، ويمكن ان يكون معطوفاً على أصل القصة بتقدير اذكر والفاحشة هي الخصلة البالغة في الشناعة والمراد بها اللواط.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ اي وأنتم في حال يرى بعضكم بعضاً وينظر بعضكم الى بعض حين الفحشاء فهو على حد قوله في موضع آخر: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ (العنكبوت / ٢٩)، وقيل: المراد ابصار القلب ومحصله العلم بالشناعة وهو بعيد.

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، ودخول أداتي التأكيد ـ إن واللام ـ على الجملة الاستفهامية للدلالة على ان مضمون الجملة من الاستبعاد بحيث لا يصدقه أحد والجملة على اي حال في محل التفسير للفحشاء.

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي مستمرون على الجهل لا فائدة في توبيخكم والانكار عليكم فلستم بمرتدعين، ووضع «تجهلون» بصيغة الخطاب موضع «يجهلون» من

وضع المسبب موضع السبب كأن قيل «بل أنتم قوم يجهلون فأنتم تجهلون».

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ اي يتنزهون عن هذا العمل وهو وارد مورد الاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ المراد بأهله أهل بيته لقوله تعالى: ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ (الذاريات / ٣٦)، وقوله: «قدرناها من الغابرين» اي جعلناها من الباقين في العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المراد بالمطر الحجارة من سجّيل لقوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ (الحجر / ٧٤)، فقوله: «مطراً» يدل بتنكيره على النوعية اي أنزلنا عليهم مطراً له نبأ عظيم.

٥٩ ● قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ.

٦٠ ● أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَإِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ.

٦١ ● أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ءَإِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

٦٢ ● أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ءَإِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ.

٦٣ ● أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ
بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

٦٤ ● أَمَّنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَٱلْأَرْضِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٦٥ ● قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.

٦٦ ● بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ
مِنْهَا عَمُونَ.

٦٧ ● وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ.

٦٨ ● لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ.

٦٩ ● قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ.

٧٠ ● وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ.

٧١ ● وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٧٢ ● قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ.

٧٣ ● وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ.

٧٤ ● وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ.

٧٥ ● وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

٧٦ ● إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ.

٧٧ ● وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

٧٨ ● إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ.

٧٩ ● فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ.

٨٠ ● إِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ وَلاٰ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ.

٨١ ● وَمٰا أَنْتَ بِهٰادِي ٱلْعُمْيِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلاٰمٌ عَلىٰ عِبٰادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفىٰ ءَآللّٰهُ خَيْرٌ أَمّٰا يُشْرِكُونَ﴾ لما قص من قصص الأنبياء وأُممهم ما قص وفيها بيان سنته الجارية في الامم الماضين وما فعل بالمؤمنين منهم من الاصطفاء ومزيد الإحسان كما في الأنبياء منهم وما فعل بالكافرين من العذاب والتدمير ـ ولم يفعل إلا الخير الجميل ولا جرت سنته إلا على الحكمة البالغة ـ انتقل منها الى أمر نبيه بأن يحمده ويثني عليه وان يسلم على المصطفين من عباده وقرر انه تعالى هو المتعين للعبادة.

فهو انتقال من القصص الى التحميد والتسليم والتوحيد وليس باستنتاج وإن كان في حكمه وإلا قيل: فقل الحمد لله، الخ؛ او فالله خير، الخ.

فقوله: «قل الحمد لله» أمر بتحميده وفيه إرجاع كل حمد اليه تعالى لما تقرر بالآيات السابقة ان مرجع كل خلق وتدبير اليه وهو المفيض كل خير بحكمته والفاعل لكل جميل

بقدرته .

وقوله : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ معطوف على ما قبله من مقول القول وفي التسليم لاولئك العباد المصطفين نفي كل ما في نفس المسلم من جهات التمانع والتضاد لما عندهم من الهداية الإلهية وآثارها الجميلة ـ على ما يقتضيه معنى السلام ـ ففي الأمر بالسلام أمر ضمني التهيؤ لقبول ما عندهم من الهدى وآثاره فهو بوجه في معنى قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (الأنعام / ٩٠)، فافهمه .

وقوله : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من تمام الخطاب للنبي ﷺ والاستفهام للتقرير ومحصل المراد انه إذا كان الثناء كله لله وهو المصطفي لعباده المصطفين فهو خير من آلهتهم الذين يعبدونهم ولا خلق ولا تدبير لهم يحمدون عليه ولا خير بأيديهم يفيضونه على عبادهم .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ الى آخر الآية ؛ الحدائق جمع حديقة وهي البستان المحدود المحوّط بالحيطان وذات بهجة صفة حدائق ، قال في مجمع البيان : ذات بهجة أي ذات منظر حسن يبتهج به من رآه ولم يقل : ذوات بهجة لأنه أراد تأنيث الجماعة ولو أراد تأنيث الأعيان لقال : ذوات . انتهى .

وأم في الآية منقطعة تفيد معنى الاضطراب ، و « من » مبتدأ خبره محذوف وكذا الشق الآخر من الترديد والاستفهام للتقرير وحملهم على الإقرار بالحق والتقدير على ما يدل عليه السياق بل أمن خلق السماوات والأرض ، الخ ؛ خير أم ما يشركون . والأمر على هذا القياس في الآيات الأربع التالية .

ومعنى الآية : بل أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم اي لنفعكم من السماء وهي جهة العلو ماء وهو المطر فأنبتنا به اي بذلك الماء بساتين ذات بهجة ونضارة ما كان لكم اي لا تملكون وليس في قدرتكم ان تنبتوا شجرها ءإله آخر مع الله سبحانه ـ وهو إنكار وتوبيخ .

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً﴾ الى آخر الآية؛ القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أي القارّ المستقر، والخلال جمع خلل بفتحتين وهو الفرجة بين الشيئين. والرواسي جمع راسية وهي الثابتة والمراد بها الجبال الثابتات. والحاجز هو المانع المتخلل بين الشيئين.

والمعنى: بل أمّن جعل الأرض مستقرة لا تميد بكم وجعل في فرجها التي في جوفها أنهاراً وجعل لها جبالاً ثابتة وجعل بين البحرين مانعاً من اختلاطهما وامتزاجهما هو خير أم ما يشركون؟ والكلام في قوله: «ءإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون» كالكلام في نظيره من الآية السابقة.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ المراد بإجابة المضطر إذا دعاه استجابة دعاء الداعين وقضاء حوائجهم وإنما أُخذ وصف الاضطرار ليتحقق بذلك من الداعي حقيقة الدعاء والمسألة إذا ما لم يقع الإنسان في مضيقة الاضطرار وكان في مندوحة من المطلوب لم يتمحض منه الطلب وهو ظاهر.

ثم قيّده بقوله: «إذا دعاه» للدلالة على أن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه وإنما يكون ذلك عندما ينقطع الداعي عن عامة الأسباب الظاهرية ويتعلق قلبه بربه وحده وأما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهرية فقط او بالمجموع من ربه ومنها فليس يدعو ربه وإنما يدعو غيره.

فإذا صدق في الدعاء وكان مدعوّه ربه وحده فإنه تعالى يجيبه ويكشف السوء الذي اضطره الى المسألة كما قال تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ (المؤمن / ٦٠)، فلم يشترط للاستجابة إلا أن يكون هناك دعاء حقيقة وأن يكون ذلك الدعاء متعلقاً به وحده، وقال أيضاً: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ (البقرة / ١٨٦)، وقد فصّلنا القول في معنى الدعاء في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل الآية.

وبالجملة فورد قوله: «فيكشف ما تدعون اليه إن شاء» لما كان مما يمكن ان يكون الطلب فيه حقيقياً أو غير حقيقي كان من اللازم تقييد الكشف والاجابة فيه بالمشيّة فيكشف الله عنهم إن شاء وذلك في مورد حقيقة الطلب والايمان ولا يكشف إن لم يشأ وهذا غير مورد آية المضطر وسائر آيات إجابة الدعوة الذي يتضمن حقيقة الدعاء من الله سبحانه وحده.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ﴾ الذي يعطيه السياق أن يكون المراد بالخلافة الخلافة الأرضية التي جعلها الله للانسان يتصرف بها في الأرض وما فيها من الخليقة كيف يشاء كما قال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (البقرة / ٣٠).

وذلك أن تصرفاته التي يتصرف بها في الأرض وما فيها بخلافته امور مرتبطة بحياته متعلقة بمعاشه فالسوء الذي يوقعه موقع الاضطرار ويسأل الله كشفه لا محالة شيء من الأشياء التي تمنعه التصرف او بعض التصرف فيها وتغلق عليه باب الحياة والبقاء وما يتعلق بذلك او بعض أبوابها ففي شكف السوء عنه تتميم لخلافته.

وقوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ خطاب توبيخي للكفار. وقرىء «يذّكّرون» بالياء للغيبة وهو أرجح لموافقته ما في ذيل سائر الآيات الخمس كقوله: «بل هم قوم يعدلون» «بل أكثرهم لا يعلمون» وغيرها، فإن الخطاب فيها جميعاً للنبي ﷺ بطريق الالتفات كما مر بيانه.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ الخ: والمراد بظلمات البر والبحر ظلمات الليالي في البر والبحر ففيه مجاز عقلي، والمراد بإرسال الرياح بشراً إرسالها مبشرات بالمطر قبيل نزوله، والرحمة المطر، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

وَٱلْأَرْضِ ﴾ الخ: بدء الخلق إيجاده ابتداء لأول مرة وإعادته إرجاعه اليه بالبعث وتبكيت المشركين بالبدء والإعادة مع إنكارهم البعث كما سيذكره بقوله: «وقال الذين كفروا» الخ: بناء على ثبوت المعاد بالأدلة القاطعة في كلامه فاخذ كالمسلّم ثم استدرك إنكارهم له أو شكهم فيه في الآيات التالية.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إشارة الى ما وقع من تدبيره لأمرهم بين البدء والعود وهو رزقهم بأسباب سماوية كالأمطار وأسبابها والأرضية كعامة ما يتغذى به الإنسان من الأرضيات.

وقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لما ذكر سبحانه فصولاً مشتملة على عامة الخلق والتدبير مع الإشارة الى ارتباط التدبير بعضه ببعض وارتباط الجميع الى الخلق وعاد الخلق والتدبير بذلك أمراً واحداً منتسباً اليه قائماً به تعالى وثبت بذلك انه تعالى هو رب كل شيء وحده لا شريك له وكان لازم ذلك إبطال أُلوهية الآلهة التي يدعونها من دون الله.

وذلك ان الالوهية وهي استحقاق العبادة تتبع الربوبية التي هي تدبر عن ملك فالعبادة على ما يتداولونها إما لتكون شكراً للنعمة او اتقاء للنقمة وعلى أي حال ترتبط بالتدبير الذي هو من شؤون الربوبية.

وكان إبطال أُلوهية الآلهة من دون الله هو الغرض من الفصول الموردة في هذه الآيات كما يدل على ذلك قوله بعد إيراد كل واحد من الفصول: «ءإله مع الله».

أمر نبيه ﷺ بقوله: «قل هاتوا برهانكم» أن يطالبهم بالبرهان على ما يدّعونه من أُلوهية آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنهم مجازفون في دعواهم إذ لو استدلوا على أُلوهيتها بشيء كان من الواجب أن ينسبوا اليها شيئاً من تدبير العالم والحال أن جميع الخلق والتدبير له تعالى وحده.

قوله تعالى: ﴿قُل لاّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّٰهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لما أمره ﷺ بعد إبطال أُلوهية آلهتهم بانتساب الخلق والتدبير اليه تعالى وحده أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه أمره ثانياً أن يواجههم ببرهان آخر على بطلان الوهية آلهتهم وهو عدم علمهم بالغيب وعدم شعورهم بالساعة وأنهم أيّان يبعثون مع أنه لا يعلم أحد ممن في السماوات والارض ـ ومنهم آلهتهم الذين هم الملائكة والجن وقديسوا البشر ـ الغيب وما يشعرون أيان يبعثون، ولو كانوا آلهة لهم تدبير أمر الخلق ـ ومن التدبير الجزاء يوم البعث ـ لعلموا بالساعة.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ادّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ ادّارك في الأصل تدارك والتدارك تتابع أجزاء الشيء بعضها بعد بعض حتى تنقطع ولا يبقى منها شيء، ومعنى تدارك علمهم في الآخرة أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في غيرها حتى نفد علمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة على حد قوله تعالى: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ (النجم / ٣٠) و«عمون» جمع عمي.

لما انتهى احتجاجه تعالى الى ذكر عدم شعور أحد غيره تعالى بوقت البعث وتبكيت المشركين بذلك رجع الى نبيه ﷺ وذكّره انهم في معزل عن الخطاب بذلك إذ لا خبر لهم عن شيء من امور الآخرة فضلاً عن وقت قيام الساعة وذلك انهم صرفوا ما عندهم من العلم من جهات الحياة الدنيا فهم في جهل مطلق بالنسبة الى امور الآخرة بل هم في شك من الآخرة يرتابون في أمرها كما يظهر من احتجاجاتهم على نفيها المبنية على الاستبعاد بل هم منها عمون والله أعمى قلوبهم عن التصديق بها والاعتقاد بوجودها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ـ الى قوله ـ الْأَوَّلِينَ﴾ حكاية حجة منهم لنفي البعث مبنية على الاستبعاد أي كيف يمكن أن

نخرج من الأرض بشراً تامّين كما نحن اليوم وقد متنا وكنا تراباً نحن وآباؤنا كذلك ؟

وقوله : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ حجة أُخرى منهم مبنية على الاستبعاد أي لقد وعدنا هذا وهو البعث بعد الموت نحن وآباؤنا وُعِدوه قبل أن يعدنا هذا النبي والذين وعدوا قبلاً هم الأنبياء الماضون فهو وعد قديم لم نزل نوعد به ولو كان خبراً صادقاً ووعداً حقاً لوقع الى هذا اليوم وإذ لم يقع فهو من الخرافات التي اختلقها الأولون وكانوا مولعين باختلاق الأوهام والخرافات والإصغاء بها .

قوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إنذار وتخويف لهم على إنكارهم وعد الأنبياء بالبعث بأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المجرمين المكذبين للأنبياء المنذرين لهم بالبعث فإن في النظر الى عاقبة أمرهم على ما تدل عليه مساكنهم الخربة وديارهم الخالية كفاية للمعتبرين من أُولي الأبصار ، وفي التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين في ترك الجرائم . كذا قيل .

ويمكن أن تقرر الآية حجة تدل على المعاد وتقريبها أن انتهاء عاقبة أمر المجرمين الى عذاب الاستئصال دليل على أن الإجرام والظلم من شأنه أن يؤاخذ عليه وأن العمل إحساناً كان او إجراماً محفوظ على عامله سيحاسب عليه وإذ لم تقع عامة هذا الحساب والجزاء ـ وخاصة على الأعمال الصالحة ـ في الدنيا فذلك لا محالة في نشأة اخرى وهي الدار الآخرة .

فتكون الآية في معنى قوله تعالى : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار**﴾ (ص / ٢٨) ، ويؤيد هذا التقرير قوله : « **عاقبة المجرمين** » ولو كان المراد تهديد مكذبي الرسل وتخويفهم كان الأنسب أن يقال : عاقبة المكذبين ، كما تقدمت الإشارة اليه .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي لا

يحزنك إصرارهم على الكفر والجحود ولا يضق صدرك من مكرهم لإبطال دعوتك وصدّهم الناس عن سبيل الله فإنهم بعين الله وليسوا بمعزيه وسيجزيهم بأعمالهم.

فالآية مسوقة لتطييب نفس النبي ﷺ، وقوله: «ولا تكن في ضيق» الخ: معطوف على ما قبله عطف التفسير.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الظاهر أن المراد بالوعد الوعد بعذاب المجازاة أعم من الدنيا والآخرة، والسياق يؤيد ذلك والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قالوا: إن اللام في «ردف لكم» مزيدة للتأكيد، كالباء في قوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (البقرة / ١٩٨)، والمعنى تبعكم ولحق بكم، وقيل: إن ردف مضمن معنى فعل يعدى باللام.

والمراد ببعض الذي يستعجلونه هو عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة فإنهم كانوا يستعجلون إنجاز ما وعدهم الله من الحكم الفصل، وهو ملازم لعذابهم، وعذابهم في الدنيا بعض العذاب الذي يستعجلونه باستنجاز الوعد، ولعل مراد الآية به عذاب يوم بدر كما قيل.

قالوا: إن «عسى ولعل» من الله تعالى واجب لأن حقيقة الترجي مبنية على الجهل ولا يجوز عليه تعالى ذلك فمعنى قوله: «عسى أن يكون ردف لكم» سيردفكم ويأتيكم العذاب محققاً.

ومعنى الآية: قل لهؤلاء السائلين عن وقت الوعد: أرجو ان يكون تبعكم بعض الوعد الذي تستعجلونه وهو عذاب الدنيا الذي يقربكم من عذاب الآخرة ويؤديكم اليه، وفي التعبير بقوله: «ردف لكم» إيماء الى قربه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ معنى الآية في نفسها ظاهر ووقوعها في سياق التهديد والتخويف يفيد ان

تأخيره تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك إنما هو فضل منه عليهم يجب عليهم شكره عليه لكنهم لا يشكرونه ويسألون تعجيله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي إن تأخير العذاب ليس عن جهل منه تعالى بحالهم وما يستحقونه بالكفر والجحود فإنه يعلم ما تستره وتخفيه صدورهم وما يظهرونه.

ثم أكد ذلك بأن كل غائبة ـ وهي ما من شأنه ان يغيب ويخفى في أي جهة من جهات العالم كان ـ مكتوب محفوظ عنده تعالى وهو قوله: «وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ـ الى قوله ـ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تطييب لنفس النبي ﷺ وتمهيد لما سيذكره من حقية دعوته وتقوية لإيمان المؤمنين به، وبهذا الوجه يتصل بقوله قبلاً: «فلا تحزن عليهم» الخ؛ المشعر بحقية دعوته.

فقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يشير الى ما يقصه القرآن من قصص الأنبياء ويبين الحق فيما اختلفوا فيه من أمرهم ومنه أمر المسيح ﷺ ويبين الحق فيما اختلفوا فيه من المعارف والأحكام.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يشير الى أنه يهدي المؤمنين بما قصّه على بني إسرائيل الى الحق وأنه رحمة لهم تطمئن بهم قلوبهم ويثبت الإيمان بذلك في نفوسهم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارة الى أن القضاء بينهم الى الله فهو ربه العزيز الذي لا يغلب في أمره العليم لا يجهل ولا يخطىء في حكمه فهو القاضي بينهم بحكمه فلترض نفس النبي ﷺ بربه العزيز العليم قاضياً حكماً ولترجع الأمر اليه كما ينبغي أن تفعل مثل ذلك في حق المشركين ولا تحزن عليهم ولا تكون في ضيق مما

يمكرون.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ تفريع على مجموع ما أمر به قبال كفر المشركين واختلاف بني إسرائيل أي إن أمرهم جميعاً الى الله لا اليك فاتخذه وكيلاً فهو كافيك ولا تخافنّ شيئاً إنك في أمن من الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ ـ الى قوله ـ فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تعليل الأمر بالتوكل أي إنما أمرناك بالتوكل على الله في أمر إيمانهم وكفرهم لأنهم موتى وليس في وسعك أن تسمع الموتى دعوتك وإنهم صمّ لا يسمعون وعمي ضالون لا تقدر على إسماع الصم إذا ولّوا مدبرين ـ ولعله قيّد عدم إسماع الصم بقوله: «إذا ولّوا مدبرين» لأنهم لو لم يكونوا مدبرين لأمكن تفهيمهم بنوع من الاشارة ـ ولا على هداية العمي عن ضلالتهم، وإنما الذي تقدر عليه هو أن تسمع من يؤمن بآياتنا الدالة علينا وتهديهم فإنهم لإذعانهم بتلك الحجج الحقة مسلمون لنا مصدّقون بما تدلّ عليه[1].

٨٢ ● وَإِذٰا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دٰابَّةً مِنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّٰاسَ كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا لاٰ يُوقِنُونَ.

٨٣ ● وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ يُوزَعُونَ.

٨٤ ● حَتّٰى إِذٰا جٰاءُوا قٰالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيٰاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهٰا عِلْماً أَمّٰا ذٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٨٥ ● وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا فَهُمْ لاٰ يَنْطِقُونَ.

---

١. النمل ٥٩ ـ ٨١: بحث روائي حول قوله تعالى: «امن يجيب المضطر اذا دعاه»؛ خلافة الانسان؛ اطاعة الله.

٨٦ ● أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٨٧ ● وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلّا مَنْ شاءَ اللّٰهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ.

٨٨ ● وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ.

٨٩ ● مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ.

٩٠ ● وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٩١ ● إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

٩٢ ● وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ.

٩٣ ● وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ مقتضى السياق ـ بما أن الآية متصلة بما قبلها من

الآيات الباحثة عن أمر المشركين المعاصرين للنبي ﷺ او خصوص أهل مكة من قريش وقد كانوا أشدّ الناس عداوة للنبي ﷺ ودعوته ـ أن ضمائر «عليهم» و«لهم» و«تكلمهم» للمشركين المحدّث عنهم لكن لا لخصوصهم بل بما أنهم ناس معنيّون بالدعوة فالمراد بالحقيقة عامة الناس من هذه الامة من حيث وحدتهم فيلحق بأولهم من الحكم ما يلحق بآخرهم وهذا النوع من العناية كثير الورود في كلامه تعالى.

والمراد بوقوع عليهم تحقق مصداق القول فيهم وتعيّنهم لصدقه عليهم كما في الآية التالية «ووقع القول عليهم بما ظلموا» أي حقّ عليهم العذاب. فالجملة في معنى «حقّ عليهم القول» وقد كثر وروده في كلامه تعالى. والفرق بين التعبيرين أن العناية في «وقع القول عليهم» بتعيّنهم مصداقاً للقول وفي «حقّ عليهم القول» باستقرار القول وثبوته فيهم بحيث لا يزول.

وأما ما هو هذا القول الواقع عليهم فالذي يصلح من كلامه تعالى لأن يفسر به قوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (حم السجدة / ٥٣) فإن المراد بهذه الآيات التي سيريهم غير الآيات السماوية والأرضية التي هي بمرآهم ومسمعهم دائماً قطعاً بل بعض آيات خارقة للعادة تخضع لها وتضطر للإيمان بها أنفسهم في حين لا يوقنون بشيء من آيات السماء والأرض التي هي تجاه أعينهم وتحت مشاهدتهم.

وبهذا يظهر أن قوله: «أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» تعليل لوقوع القول عليهم والتقدير لأن الناس، وقوله: «كانوا» لإفادة استقرار عدم الإيقان فيهم والمراد بالآيات الآيات المشهودة من السماء والأرض غير الآيات الخارقة. وقرىء «إن» بكسر الهمزة وهي أرجح من قراءة الفتح فيؤيد ما ذكرناه وتكون الجملة بلفظها تعليلاً من دون تقدير اللام.

وقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ بيان لآية خارقة من الآيات الموعودة في قوله: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» وفي كونه

وصفاً لأمر خارق للعادة دلالة على أن المراد بالإخراج من الأرض إما الإحياء والبعث بعد الموت وإما أمر يقرب منه، وأما كونها دابة تكلمهم فالدابة ما يدبّ في الأرض من ذوات الحيات إنساناً كان او حيواناً غيره فإن كان إنساناً كان تكليمه الناس على العادة وإن كان حيواناً أعجم كان تكليمه كخروجه من الأرض خرقاً للعادة.

ولا نجد في كلامه تعالى ما يصلح لتفسير هذه الآية وأن هذه الدابة التي سيخرجها لهم من الأرض فتكلمهم ما هي؟ وما صفتها؟ وكيف تخرج؟ وماذا تتكلم به؟ بل سياق الآية نعم الدليل على أن القصد الى الإبهام فهو كلام مرموز فيه.

ومحصل المعنى: أنه إذا آل أمر الناس ـ وسوف يؤل ـ الى أن كانوا لا يوقنون بآياتنا المشهودة لهم وبطل استعدادهم للإيمان بنا بالتعقل والاعتبار آن وقت أن نريهم ما وعدنا إراءته لهم من الآيات الخارقة للعادة المبيّنة لهم الحق بحيث يضطرون الى الاعتراف بالحق فأخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ الفرج ـ كما ذكره الراغب ـ الجماعة المارة المسرعة، والإيزاع إيقاف القوم وحبسهم بحيث يرد أولهم على آخرهم.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ منصوب على الظرفية لمقدر والتقدير واذكر يوم نحشر والمراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأن المحشورين فوج من كل امة ولا اجتماع لجميع الامم في زمان واحد وهم أحياء، و«من» في قوله: «من كل امة» للتبعيض، وفي قوله: «ممن يكذّب» للتبيين أو للتبعيض.

والمراد بالآيات في قوله: «يكذب بآياتنا» مطلق الآيات الدالة على المبدء والمعاد ومنها الأنبياء والأئمة والكتب السماوية دون الساعة وما يقع فيها وعند قيامها ودون الآيات القرآنيه فقط لأن الحشر ليس مقصوراً على الامة الإسلامية بل أفواج من امم شتى.

وظاهر الآية أن هذا الحشر في غير يوم القيامة لأنه حشر للبعض من كل امة لا لجميعهم وقد قال تعالى في صفة الحشر يوم القيامة : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ (الكهف / ٤٧).

وفيه أنه لو كان المراد الحشر الى العذاب لزم ذكر هذه الغاية دفعاً للابهام كما في قوله تعالى: ﴿ ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها ﴾ (حم السجده / ٢٠). مع أنه لم يذكر فيما بعد هذه الاية إلا العتاب والحكم الفصل دون العذاب والآية كما ترى مطلقة لم يشر فيها الى شيء يلوح الى هذا الحشر الخاص المذكور ويزيدها إطلاقاً قوله بعدها : « حتى اذا جاؤا » فلم يقل : حتى اذا جاؤا العذاب أو النار أو غيرها .

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ المراد بالمجيىء ـ بإعانة من السياق ـ هو الحضور في موطن الخطاب المدلول عليه بقوله : « قال أكذبتم » الخ ؛ والمراد بالآيات ـ كما تقدم في الآية السابقة ـ مطلق الآيات الدالة على الحق ، وقوله : « ولم تحيطوا بها علماً » جملة حالية أي كذبتم بها حال كونكم لا علم لكم بها لإعراضكم عنها فكيف كذبتم بما لا تعلمون أي رميتموها بالكذب وعدم الدلالة من غير علم ، وقوله : « أم ماذا كنتم تعملون » أي غير التكذيب .

والمعنى : حتى إذا حضروا في موطن الخطاب قال الله سبحانه لهم : أكذّبتم بآياتي حال كونكم لم تحيطوا بها علماً أم أي شيء كنتم تعملون غير التكذيب ، وفي ذلك عتابهم بأنهم لم يشتغلوا بشيء غير تكذيبهم بآيات الله من غير أن يشغلهم عنه شاغل معذّر .

قوله تعالى : ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ ﴾ الباء في « بما ظلموا » للسببية و « ما » مصدرية أي وقع القول عليهم بسبب كونهم ظالمين ، وقوله : « فهم لا ينطقون » تفريع على وقوع القول عليهم .

وبذلك يتأيد أن المراد بالقول الذي يقع عليهم قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي القوم

الظالمين﴾ (الأنعام / ١٤٤)، والمعنى: ولكونهم ظالمين في تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا الى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لا ينطقون.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لما وصف في الآيات السابقة أن كثيراً من الناس في صمم وعمى من استماع كلمة الحق والنظر في آيات الله والاعتبار بها، ثم ذكر دابة الأرض وأنه سيخرجها آية خارقة للعادة تكلمهم، ثم ذكر أنه سيحشر فوجاً من كل أُمة من المكذبين فيعاتبهم فتتم عليهم الحجة بقولهم بغير علم بالآيات لإعراضهم عنها وبّخهم في هذه الآية ولامهم على تكذيبها بالآيات مع الجهل أنهم كانوا يرون الليل الذي يسكنون فيه بالطبع وأن هناك نهاراً مبصراً يظهر لهم بها آيات السماء والأرض فلم لم يتبصّروا؟.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي في جعل الليل سكناً يسكنون فيه والنهار مبصراً يبصرون فيه آيات السماء والأرض آيات لقوم فيهم خاصة الإذعان والتصديق للحق اللائح لهم.

والمراد بالآيات العلامات والجهات الدّالة فيهما على التوحيد وما يتبعه من حقائق المعارف، ومن جملة ذلك دلالتهما على أن الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه، وهو الليل الذي يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار، ويتحرك فيما من شأنه أن يتحرك فيه وهو النهار المبصر الذي يظهر به الأشياء التي تتضمن منافع الحياة للأبصار.

فعلى الإنسان أن يسكت عما حجبته عنه ظلمة الجهل ولا يقول بغير علم ولا يكذب بما لا يحيط به علماً وأن يقول ويؤمن بما تجلّيه له بيّنات الآيات التي هي كالنهر المبصرة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ النفخ في الصور كناية عن إعلام الجماعة الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعاً كالحضور والارتحال وغير ذلك،

والفزع كما قال الراغب انقباض ونفار يعتري الانسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع، والدخور الذلة والصغار.

والظاهر أن المراد بقوله: «وكل أتوه داخرين» رجوع جميع من في السماوات والأرض حتى المستثنين من حكم الفزع وحضورهم عنده تعالى، وأما قوله: ﴿ فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين ﴾ (الصافات / ١٢٧)، فالظاهر أن المراد نفي إحضارهم في الجمع للحساب والسؤال لا نفي بعضهم ورجوعهم الى الله وحضورهم عنده فآيات القيامة ناصة على عموم البعث لجميع الخلائق بحيث لا يشذّ منهم شاذ.

ونسبة الدخور والذلة الى أوليائه تعالى لا تنافي ما لهم من العزة عند الله فإن عزة العبد عند الله ذلته عنده وغناه بالله فقره اليه نعم ذلة أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزة الكاذبة ذلة هوان.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ الآية بما أنها واقعة في سياق آيات القيامة محفوفة بها تصف بعض ما يقع يومئذ من الآيات وهو سير الجبال وقد قال تعالى في هذا المعنى أيضاً: ﴿ وسيِّرت الجبال فكانت سراباً ﴾ (النبأ / ٢٠)، الى غير ذلك.

فقوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد به تمثيل الواقعة، كما في قوله: ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ (الحج / ٢)، أي هذا حالها المشهودة في هذا اليوم تشاهدها لو كنت مشاهداً، وقوله: «تحسبها جامدة» أي تظنها الآن ولم تقم القيامة بعد جامدة غير متحركة، والجملة معترضة أو حالية.

وقوله: ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ حال من الجبال وعاملها «ترى» أي تراها إذا نفخ في الصور حال كونها تسير سير السحاب في السماء.

وقوله: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مفعول مطلق لمقدَّر أي صنعه صنعاً وفي

الجملة تلويح الى أن هذا الصنع والفعل منه تعالى تخريب للدنيا وهدم للعالم، لكنه في الحقيقة تكميل لها وإتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شيء الى غايته وإيصاله الى وجهته التي هو مولّيها من سعادة أو شقاوة لأن ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء فهو سبحانه لا يسلب الاتقان عما أتقنه ولا يسلّط الفساد على ما أصلحه في تخريب الدنيا تعمير الآخرة.

وقوله: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ قيل: إنه تعليل لكون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده صنعاً محكماً له تعالى فإن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يستدعي إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب آثارها من الثواب والعقاب عليها بعد البعث والحشر وتسيير الجبال.

وأنت ترى ما فيه من التكلف وأن السياق بعد ذلك كله لا يقبله.

وقيل: إن قوله: «إنه خبير بما تفعلون» استئناف في حكم الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا يكون بعد هذه القوارع؟ فقيل: إن الله خبير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصّل بقوله: «من جاء بالحسنة فله خير منها» الى آخر الآيتين.

وههنا وجه آخر مستفاد من الإمعان في سياق الآيات السابقة فإن الله سبحانه أمر فيها نبيه ﷺ أن يتوكل عليه ويرجع أمر المشركين وبني إسرائيل اليه فإنه إنما يستطيع هداية المؤمنين بآياته المستسلمين للحق وأما المشركون في جحودهم وبنو إسرائيل في اختلافهم فإنهم موتى لا يسمعون وصمّ عمي لا يسمعون ولا يهتدون الى الحق بالنظر في آيات السماء والأرض والاعتبار بها باختيار منهم.

ثم ذكر ما سيواجههم به - وحالهم هذه الحال لا يؤثر فيهم الآيات - وأنه سيخرج لهم دابة من الأرض تكلمهم وهي آية خارقة تضطرهم الى قبول الحق وأنه يحشر من كل أُمة فوجاً من المكذبين فيتم عليهم الحجة، وبالآخرة هو خبير بأفعالهم سيجزي من جاء بحسنة او سيئة بعمله يوم ينفخ في الصور ففزعوا وأتوه داخرين.

وبالتأمل في هذا السياق يظهر أن الأنسب كون «يوم ينفخ» ظرفا لقوله: «إنه خبير بما يفعلون» وقراءة «يفعلون» بيان الغيبة أرجح من القراءة المتداولة على الخطاب.

والمعنى: وإنه تعالى خبير بما يفعله أهل السماوات والأرض يوم ينفخ في الصور ويأتونه داخرين يجزي من جاء بالحسنة بخير منها ومن جاء بالسيئة بكبّ وجوههم في النار كلّ مجزي بعمله، وعلى هذا تكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصّل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ (العاديات / ١١)، وقوله: ﴿ **يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء** ﴾ (المؤمن / ١٦)، ويكون قوله: «من جاء بالحسنة» الخ، تفصيلاً لقوله: «إنه خبير بما يفعلون» من حيث لازم الخبرة وهو الجزاء بما فعل وعمل كما أشار اليه ذيلاً بقوله: «هل تجزون إلا ما كنتم تعملون» والالتفات من الغيبة الى الخطاب في قوله: «هل تجزون» الخ؛ لتشديد التقريع والتأنيب.

وفي الآية أعني قوله: «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب» الخ: قولان آخران:

أحدهما: حملها على الحركة الجوهرية وأن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها الى غاية وجودها وهي حشرها ورجوعها الى الله سبحانه.

وهذا المعنى أنسب بالنظر الى ما في قوله: «تحسبها جامدة» من التلويح الى أنها اليوم متحركة ولما تقم القيامة، وأما جعل يوم القيامة ظرفاً لحسبان الجمود وللمرور كالسحاب جميعاً فما لا يلتفت اليه.

وثانيهما: حملها على حركة الأرض الانتقالية وهو بالنظر الى الآية في نفسها معنى جيد إلا أنه أولاً: يوجب انقطاع الآية عما قبلها وما بعدها من آيات القيامة وثانياً: ينقطع بذلك اتصال قوله: «إنه خبير بما يفعلون» بما قبله.

قوله تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ

آمِنُونَ ﴾ هذه الآية وما بعدها ـ كما تقدمت الإشارة اليه ـ تفصيل لقوله: «إنه خبير بما يفعلون» من حيث أثره الذي هو الجزاء. والمراد بقوله: «من جاء بالحسنة فله خير منها» أن له جزاء هو خير مما جاء به من الحسنة وذلك لأن العمل أياً ما كان مقدمة للجزاء مقصود لأجله والغرض والغاية على أي حال أفضل من المقدمة.

وقوله: ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ظاهر السياق أن هذا الفزع هو الفزع بعد نفخ الصور الثاني دون الأول فيكون في معنى قوله: ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذين كنتم توعدون ﴾ (الأنبياء / ١٠٣).

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يقال: كبّه على وجهه فانكبَّ أي ألقاه على وجهه فوقع عليه فنسبة الكب الى وجوههم من المجاز العقلي والأصل فكبّوا على وجوههم.

وقوله: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الاستفهام للانكار، والمعنى: ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذي عملتموه ظهر لكم فلزمكم فلا ظلم في الجزاء ولا جور في الحكم.

والآيتان في مقام بيان ما في طبع الحسنة والسيئة من الجزاء ففيهما حكم من جاء بالحسنة فقط ومن أحاطت به الخطيئة واستغرقته السيئة وأما من حمل حسنة وسيئة فيعلم بذلك حكمه إجمالاً وأما التفصيل ففي غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ الآيات الثلاث ـ من هنا الى آخر السورة ـ ختام السورة يبين فيها أن هذه الدعوة الحقة تبشير وإنذار فيه إتمام للحجة من غير أن يرجع اليه ﷺ من أمرهم شيء وإنما الأمر الى الله وسيريهم آياته فيعرفونها ليس بغافل عن أعمالهم.

وفي قوله: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ الخ؛ تكلم عن لسان النبي ﷺ فهو في معنى: قل إنما أمرت

أن أعبد رب هذه البلدة. والمشار اليها بهذه الإشارة مكة المشرَّفة. وفي الكلام تشريفها من وجهين: إضافة الرب اليها، وتوصيفها بالحرمة حيث قال: رب هذه البلدة الذي حرَّمها. وفيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمة نعمة حرمة بلدتهم ولم يشركوا الله بعبادته بل عدلوا الى عبادة الأصنام.

وقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ اشارة الى سعة ملكه تعالى دفعاً لما يمكن أن يتوهم أنه إنما يملك مكة التي هو ربها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها على عقيدتهم جزءاً من أجزاء العالم كالسماء والأرض وبلدة كذا وقوم كذا وأُسرة كذا. فيكون تعالى معبوداً كأحد الآلهة واقعاً في صفهم وفي عرضهم.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الذين أسلموا له فيما أراد ولا يريد إلا ما يهدي اليه الخلقة ويهتف به الفطرة وهو الدين الحنيف الفطري الذي هو ملة إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ ٱلْقُرْآنَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ﴾ معطوف على قوله: «أن أعبد» أي أُمرت أن أقرأ القرآن والمراد تلاوته عليهم بدليل تفريع قوله: «فمن اهتدى» الخ؛ عليه.

وقوله: «فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه» أي فمن اهتدى بهذا القرآن فالذي ينتفع به هو نفسه ولا يعود نفعه إليَّ.

وقوله: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ﴾ أي ومن لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه وهو الضلال فعليه ضلاله ووبال كفره لا عليَّ لأني لست إلا منذراً مأموراً بذلك ولست عليه وكيلاً والله هو الوكيل عليه.

فالعدول عن مثل قولنا: ومن ضل فإنما أنا من المنذرين وهو الذي كان يقتضيه الظاهر الى قوله: «فقل إنما أنا من المنذرين» لتذكيره ﷺ بما تقدم من العهد اليه أنه ليس إلا منذراً

وليس اليه من أمرهم شيء فعليه أن يتوكل على ربه ويرجع أمرهم اليه كما قال : « فتوكل على الله إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى » الخ : فكأنه قيل : ومن ضل فقل له قد سمعت أن ربي لم يجعل عليّ إلا الإنذار فلست بمسؤول عن ضلال من ضل .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ معطوف على قوله : « فقل إنما أنا من المنذرين » وفيه انعطاف الى ما ذكره بعد أمر نبيه ﷺ بالتوكل عليه في أمرهم من أنه سيجعل للمشركين عاقبة سوء ويقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه ويريهم من آياته ما يضطرون الى تصديقه ثم يجزيهم بأعمالهم .

ومحصّل المعنى : وقل الثناء الجميل لله تعالى فيما يجريه في ملكه حيث دعى الناس الى ما فيه خيرهم وسعادتهم وهدى الذين آمنوا بآياته وأسلموا له وأما المكذبون فأمات قلوبهم وأصمّ آذانهم وأعمى أبصارهم فضلوا وكذّبوا بآياته .

وقوله : ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ إشارة الى ما تقدم من قوله : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض » وما بعده ، وظهور قوله : « آياته » في العموم دليل على شموله لجميع الآيات التي تضطرهم الى قبول الحق مما يظهر لهم قبل قيام الساعة وبعده .

وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وهو بمنزلة التعليل لما تقدمه أي إن أعمالكم معاشر العباد بعين ربك فلا يفوته شيء مما تقتضيه الحكمة قبال أعمالكم من الدعوة والهداية والإضلال وإراءة الآيات ثم جزاء المحسنين منكم والمسيئين يوم القيامة .

وقرىء « عما يعملون » بيان الغيبة ولعلها أرجح ومفادها تهديد المكذبين وفي قوله : « ربك » بإضافة الرب الى الكاف تطييب لنفس النبي ﷺ وتقوية لجانبه .

سورة القصص مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ طسٓمٓ.

٢ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ.

٣ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٤ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ
طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ
ٱلْمُفْسِدِينَ.

٥ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ.

٦ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ.

٧ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ

فِي ٱلْيَمِّ وَلاٰ تَخٰافِي وَلاٰ تَحْزَنِي إِنّٰا رٰادُّوهُ إِلَيْكِ وَجٰاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ.

٨ ● فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهٰامٰانَ وَجُنُودَهُمٰا كٰانُوا خٰاطِئِينَ.

٩ ● وَقٰالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاٰ تَقْتُلُوهُ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ.

١٠ ● وَأَصْبَحَ فُؤٰادُ أُمِّ مُوسىٰ فٰارِغاً إِنْ كٰادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاٰ أَنْ رَبَطْنٰا عَلىٰ قَلْبِهٰا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

١١ ● وَقٰالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ.

١٢ ● وَحَرَّمْنٰا عَلَيْهِ ٱلْمَرٰاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقٰالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نٰاصِحُونَ.

١٣ ● فَرَدَدْنٰاهُ إِلىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا وَلاٰ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ.

١٤ ● وَلَمّٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوىٰ آتَيْنٰاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ.

بيان:

غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين وهم بمكة قبل الهجرة شرذمة قليلون يستضعفهم

فراعنة قريش وطغاتها واليوم يوم شدة وعسرة وفتنة بأن الله سيمنُّ عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكّن لهم ويري طغاة قومهم منهم ما كانوا يحذرون يقص تعالى للمؤمنين من قصة موسى وفرعون أنه خلق موسى في حين كان فرعون في أوج قدرته يستضعف بني إسرائيل يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم فربّاه في حجر عدو، حتى إذا استوى وبلغ أشده نجّاه وأخرجه من بينهم الى مدين ثم ردَّه اليهم رسولاً منه بسلطان مبين حتى إذا أغرق فرعون وجنوده أجمعين وجعل بني إسرائيل هم الوارثين وأنزل التوراة على موسى هدى وبصائر للمؤمنين.

وعلى هذا المجرى يجري حال المؤمنين وفيه وعد لهم بالملك والعزة والسلطان ووعد للنبي ﷺ برده الى معاد.

وانتقل من القصة الى بيان أن من الواجب في حكمة الله أن ينزّل كتاباً من عنده للدعوة الحقة ثم ذكر طعنهم في دعوة القرآن بقولهم: لولا أُوتي مثل ما أُوتي موسى والجواب عنه، وتعللهم عن الايمان بقولهم: إن نتّبع الهدى معك نتخطف من أرضنا والجواب عنه وفيه التمثل بقصة قارون وخسفه.

والسورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها، وما أوردناه من الآيات فصل من قصة موسى وفرعون من يوم ولد موسى الى بلوغه أشده.

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾ تقدم الكلام فيه في نظائره.

قوله تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

«من» للتبعيض و «بالحق» متعلق بقوله: «نتلو» أي نتلو تلاوة متلبسة بالحق فهو من عندنا وبوحي منا من غير أن يداخل من إلقائه الشياطين، ويمكن أن يكون متعلقاً بنبأ أي حال كون النبأ الذي نتلوه عليك متلبساً بالحق لا مرية فيه.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ اللام فيه للتعليل وهو متعلق بقوله: «نتلو» أي نتلو عليك

من نبأهما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا.

ومحصّل المعنى: نتلو عليك بعض نبأ موسى وفرعون تلاوة بالحق لأجل أن يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوك وهم طائفة أذلّاء مستضعفون في أيدي فراعنة قريش وطغاة قومهم فيتحققوا أن الله الذي آمنوا به وبرسوله وتحمّلوا كل أذى في سبيله هو الله الذي أنشأ موسى عليه السلام لإحياء الحق وإنجاء بني إسرائيل وإعزازهم بعد ذلتهم هاتيك الذلة يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم وقد علا فرعون وأنشب فيهم مخالب قهره وأحاط بهم بجوره.

أنشأه والجو ذلك الجو المظلم الذي لا مطمع فيه فرباه في حجر عدوه ثم أخرجه من مصر ثم أعاده اليهم بسلطان فأنجا به بني إسرائيل وأفنى بيده فرعون وجنوده وجعلهم أحاديث وأحلاماً.

فهو الله جل شأنه يقص على نبيه قصتهم ويرمز له ولهم بقوله: «لقوم يؤمنون» أنه سيفعل بهؤلاء مثل ما فعل باولئك ويمن على هؤلاء المستضعفين ويجلعهم أئمة ويجعلهم الوارثين حذو ما صنع ببني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ الخ: العلو في الأرض كناية عن التجبر والاستكبار، والشيع جمع شيعة وهي الفرقة، قال في المجمع: الشيع: الفرق وكل فرقة شيعة وسموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضاً. انتهى. وكأن المراد بجعل أهل الأرض ـ وكأنهم أهل مصر واللام للعهد ـ فرقاً إلقاء الاختلاف بينهم لئلا يتفق كلمتهم فيثوروا عليه ويقلبوا عليه الامور على ما هو من دأب الملوك في بسط القدرة وتقوية السلطة، واستحياء النساء إبقاء حياتهن.

ومحصل المعنى: أن فرعون علا في الأرض وتفوق فيها ببسط السلطة على الناس وإنفاذ القدرة فيهم وجعل أهلها شيعاً وفرقاً مختلفة لا تجتمع كلمتهم على شيء وبذلك ضعّف عامة

قوتهم على المقاومة دون قوته والامتناع من نفوذ إرادته.

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ - الى قوله - يَحْذَرُونَ﴾ الأصل في معنى المن - على ما يستفاد من كلام الراغب - الثقل ومنه تسمية ما يوزن به منا، والمنّة النعمة الثقيلة ومنَّ عليه مناً أي أثقله بالنعمة. قال: ويقال ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا» أي نعطيهم من النعمة ما يثقلهم والثاني بالقول كقوله: «يمنون عليك أن أسلموا» وهو مستقبح إلّا عند كفران النعمة. انتهى ملخصاً.

وتمكينهم في الأرض إعطاؤهم فيها مكاناً يملكونه ويستقرون فيه، وعن الخليل أن المكان مفعل من الكون ولكثرته في الكلام أُجري مجرى فعال. فقيل: تمكن وتمسكن نحو تمنزل انتهى.

وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾ الخ: الأنسب أن يكون حالاً من «طائفة» والتقدير يستضعف طائفة منهم ونحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا. الخ؛ وقيل: معطوف على قوله: «إن فرعون علا في الأرض» والأول أظهر. و «نريد» على أي حال لحكاية الحال الماضية.

وقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ عطف تفسير على قوله: «نمنّ» وكذا ما بعده من الجمل المتعاقبة.

والمعنى: أن الظرف كان ظرف علو فرعون، وتفريقه بين الناس واستضعافه لبني إسرائيل استضعافاً يبيدهم ويفنيهم والحال أنّا نريد أن ننعم على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة تثقلهم وذلك بأن نجعلهم أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعدما كانوا تابعين، ونجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم ونمكن لهم في الأرض بأن نجعل لهم مكاناً يستقرون فيه ويملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلّا ما أراد غيرهم أن يبوءهم فيه ويقرهم عليه، ونرى

فرعون وهو ملك مصر وهامان وهو وزيره وجنودهما منهم أي من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحذرون وهو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم وما لهم وسنتهم كما قالوا في موسى وأخيه لما أُرسلا اليهم: ﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ (طه / ٦٣).

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ الى آخر الآية: الإيحاء هو التكليم الخفي ويستعمل في القرآن في تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله: ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (الزلزال / ٥)، وقوله: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ (النحل / ٦٨)، وقوله في أُم موسى: «وأوحينا الى أُم موسى» الآية؛ أو بنحو آخر كما في الأنبياء والرسل، وفي غيره تعالى كما في قوله: ﴿ إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ (الأنعام / ١٢١)، والإلقاء الطرح، واليم البحر والنهر الكبير.

وقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير وحبلت أُم موسى به ـ والحال هذه الحال من الشدة والحدة ـ ووضعته وأوحينا اليها، الخ.

والمعنى: وقلنا بنوع من الإلهام لام موسى لما وضعته: أرضعيه ما دمت لا تخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه ـ أن يطّلع عليه آل فرعون فيأخذوه ويقتلوه ـ فألقيه في البحر وهو النيل على ما وردت به الرواية ولا تخافي عليه القتل ولا تحزني لفقده ومفارقته إياك إنا رادوه اليك بعد ذلك وجاعلوه من المرسلين فيكون رسولاً الى آل فرعون وبني إسرائيل.

فقوله: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ تعليل للنهي في قوله: «ولا تحزني» كما يشهد به أيضاً قوله بعد: «فرددنا الى أُمه كي تقرّ عينها ولا تحزن» والفرق بين الخوف والحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون في مكروه محتمل الوقوع والحزن في مكروه قطعي الوقوف.

قوله تعالى: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ

وَهٰامٰانَ وَجُنُودَهُمٰا كٰانُوا خٰاطِئِينَ ﴾ الإلتقاط إصابة الشيء وأخذه من غير طلب، ومنه اللقطة واللام في قوله: «ليكون لهم عدواً وحزناً» للعاقبة ـ على ما قيل ـ والحزن بفتحتين والحزن بالضم فالسكون بمعنى واحد كالسَقَم والسُقم، والمراد بالحزن سبب الحزن فإطلاق الحزن عليه مبالغة في سببيته لحزنهم.

والخاطئين اسم فاعل من خطىء يخطأ خطأً كعلم يعلم علماً كما أن المخطىء اسم فاعل من أخطأ يخطىء إخطاءً، والفرق بين الخاطىء والمخطىء على ما ذكره الراغب أن الخاطىء يطلق على من أراد فعلاً لا يحسنه ففعله قال تعالى: «إن قتلهم كان خطأً كبيراً»، وقال: «وإن كنا لخاطئين»، والمخطىء يستعمل فيمن أراد فعلاً يحسنه فوقع منه غيره واسم مصدره الخطأ بفتحتين، قال تعالى: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأً﴾ (النساء / ٩٢)، والمعنى الجامع هو العدول عن الجهة. انتهى ملخصاً.

فقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهٰامٰانَ وَجُنُودَهُمٰا كٰانُوا خٰاطِئِينَ ﴾ أي فيما كانوا يفعلونه في أبناء بني إسرائيل وموسى تحذراً من انهدام ملكهم وذهاب سلطانهم بيدهم إرادة لتغيير المقادير عن مجاريها فقتلوا الجم الغفير من الأبناء ولا شأن لهم في ذلك وتركوا موسى حيث التقطوه وربوره في حجورهم وكان هو الذي بيده انقراض دولتهم وزوال ملكهم.

والمعنى: فأصابه آل فرعون وأخذوه من اليم وكان غاية ذلك أن يكون لهم عدواً وسبب حزن إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين في قتل الأبناء وترك موسى: أرادوا أن يقضوا على من سيقضي عليهم فعادوا يجتهدون في حفظه ويجدّون في تربيته.

قوله تعالى: ﴿وَقٰالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاٰ تَقْتُلُوهُ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنٰا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ ﴾ شفاعة من امرأة فرعون وقد كانت عنده حينما جاؤا اليه بموسى ـ وهو طفل ملتقط من اليم ـ تخاطب فرعون بقوله: «قرّة عين لي ولك» أي هو قرّة عين لنا «لا تقتلوه» وإنما خاطب بالجمع لأن شركاء القتل كانوا كثيرين من سبب

ومباشر وآمر ومأمور.

وإنما قالت ما قالت لأن الله سبحانه ألقى محبة منه في قلبها فعادت لا تملك نفسها دون أن تدفع عنه القتل وتضمه اليها، قال تعالى فيما يمن به على موسى عليه السلام: ﴿ وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾ (طه / ٣٩).

وقوله: ﴿ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ قالته لما رأت في وجهه من آثار الجلال وسيماء الجذبة الإلهية، وفي قولها: «أو نتخذه ولداً» دلالة على أنهما كانا فاقدين للإبن.

وقوله: ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ جملة حالية أي قالت ما قالت وشفعت له وصرفت عنه القتل والقوم لا يشعرون ماذا يفعلون وما هي حقيقة الحال وما عاقبته؟

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسىٰ فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلىٰ قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الابداء بالشيء إظهاره، والربط على الشيء شدّه وهو كناية عن التثبيت.

والمراد بفراغ فؤاد أُم موسى فراغه وخلوّه من الخوف والحزن وكان لازم ذلك أن لا يتوارد عليه خواطر مشوّشة وأوهام متضاربة يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدي ما كان عليها أن تخفيه من أمر ولدها.

وذلك أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها وسبب فراغ قلبها الربط على قلبها وسبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى اليها: «لا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه اليك» الخ.

وقوله: ﴿ إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا ﴾ الخ: «إن» مخففة من الثقيلة أي إنها قربت من أن تظهر الأمر وتفشي السر لولا أن ثبّتنا قلبها بالربط عليه، وقوله: «لتكون من المؤمنين» أي الواثقين بالله في حفظه فتصبر ولا تجزع عليه فلا يبدو أمره.

والمجموع أعني قوله: «إن كادت لتبدي به» الى آخر الآية؛ في مقام البيان لقوله: «وأصبح

فؤاد أُم موسى فارغاً» ومحصل معنى الآية وصار قلب أُم موسى بسبب وحينا خالياً من الخوف والحزن المؤدّيين الى إظهار الأمر، لولا أن ثبّتنا قلبها بسبب الوحي لتكون واثقة بحفظ الله له لقربت من أن تظهر أمره هم بالجزع عليه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال في المجمع: القص اتباع الأثر ومنه القصص في الحديث لأنه يتبع فيه الثاني الأول. وقال: ومعنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنابة أي عن بعد. انتهى.

والمعنى: وقالت أُم موسى لاخته: اتّبعي أثر موسى حتى ترين الى مَ يؤل أمره فرأته عن بُعد وقد أخذه خدم فرعون وهم لا يشعرون بأنها تقصّه وتراقبه.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ التحريم في الآية تكويني لا تشريعي ومعناه جعله بحيث لا يقبل ثدي مرضع ويمتنع من ارتضاعها.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل حضورها هناك ومجيئها اليهم والمراضع جمع مرضعة كما قيل.

وقوله: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ تفريع على ما تقدّمه غير أن السياق يدلُّ على أن هناك حذفاً كأنه قيل: وحرّمنا عليه المراضع غير أُمه من قبل أن تجيء اخته فكلما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها فلما جاءت اخته ورأت الحال قالت عند ذلك لآل فرعون: هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لنفعكم وهم له ناصحون؟

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تفريع على ما تقدمه مع تقدير ما يدل عليه السياق، والمحصل أنها قالت: هل أدلّكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلّتهم على امه فسلّموه

اليها فرددناه الى امه بنظم هذه الأسباب.

وقوله: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ﴾ الخ: تعليل للرد والمراد بـالعلم هـو اليقين بالمشاهدة فإنها كانت تعلم من قبل أن وعد الله حق وكانت مؤمنة وإنما أُريد بالرد أن توقن بالمشاهدة أن وعد الله حق.

والمراد بوعد الله مطلق الوعد الالهي بدليل لوقه «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» أي لا يوقنون بذلك ويرتابون في مواعده تعالى ولا تطمئن اليها نفوسهم، ومحصله أن توقع بمشاهدة حقية هذا الذي وعدها الله به أن مطلق وعده تعالى حق.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بلوغ الأشد أن يعمر الانسان ما تشتد عند ذلك قواه ويكون في الغـالب في الثمان عشرة، والاستواء الاعتدال والاستقرار فالاستواء في الحياة استقرار الانسان في أمـر حياته ويختلف في الأفراد وهو على الأغلب بعد بلوغ الأشد. وقد تقدم الكلام في معنى الحكم والعلم وإيتائهما ومعنى الاحسان في مواضع من الكتاب[1].

١٥ ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا
رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ
الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضىٰ
عَلَيْهِ قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ.
١٦ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ
الرَّحِيمُ.

---

١. القصص ١ ـ ١٤: بحث روائي في: الذين استضعفوا في الارض: ولادة موسى عليه السلام.

١٧ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ.

١٨ ۞ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ.

١٩ ۞ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ.

٢٠ ۞ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ.

٢١ ۞ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ الخ: لا ريب أن المدينة التي دخلها على حين غفلة من أهلها هي مصر. وأنه كان يعيش عند فرعون، ويستفاد من ذلك أن القصر الملكي الذي كان يسكنه فرعون كان خارج المدينة وأنه خرج منه ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها. ويؤيد ما ذكرنا ما سيأتي من قوله: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾ على ما سيجيء من الاستظهار.

وحين الغفلة من أهل المدينة هو حين يدخل الناس بيوتهم فتتعطل الأسواق وتخلو الشوارع والأزقة من المارة كالظهيرة وأواسط الليل.

وقوله: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي يتنازعان ويتضاربان. وقوله: «هذا من شيعته وهذا من عدوه» حكاية حال تمثل به الواقعة. ومعناه: أن أحدهما كان إسرائيلياً من متّبعيه في دينه ـ فإن بني إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ الى آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام في دينهم وإن كان لم يبق لهم منه إلّا الاسم وكانوا يتظاهرون بعبادة فرعون ـ والآخر قبطياً عدواً له لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل. ومن الشاهد أيضاً على كون هذا الرجل قبطياً قوله في موضع آخر يخاطب ربه: ﴿ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ (الشعراء / ١٤).

وقوله: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ الإستغاثة: الاستنثار من الغوث بمعنى النصرة أي طلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره على عدوه القبطي.

وقوله: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ ضميراً «وكزه» و«عليه» للذي من عدوه والوكز ـ على ما ذكره الراغب وغيره ـ الطعن والدفع والضرب بجمع الكف. والقضاء هو الحكم والقضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته. والمعنى: فدفعه أو ضربه موسى بالوكز فمات. وكان قتل خطأ ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يعبّر بالقتل.

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ الإشارة بهذا الى ما وقع بينهما من الاقتتال حتى أدى الى موت القبطي وقد نسبه نوع نسبة الى عمل الشيطان إذ قال: «هذا من عمل الشيطان» و«من» ابتدائية تفيد معنى الجنس أو نشوئية. والمعنى: هذا الذي وقع من المعاداة والاقتتال من جنس العمل المنسوب الى الشيطان أو ناش من عمل الشيطان فإنه هو الذي أوقع العداوة والبغضاء بينهما وأغرى على الاقتتال حتى أدى ذلك الى مداخلة موسى وقتل القبطي بيده فأوقعه ذلك في خطر عظيم وقد كان يعلم أن الواقعة لا تبقى خفيّة مكتومة وأن القبط سيثورون عليه وأشرافهم وملاؤهم وعلى رأسهم فرعون

سينتقمون منه ومن كل من تسبب الى ذلك أشد الانتقام.

فعند ذلك تنبه ﷺ أنه أخطأ فيما فعله من الوكز الذي أورده مورد الهلكة ولا ينسب الوقوع في الخطأ الى الله سبحانه لأنه لا يهدي إلّا الى الحق والصواب فقضي أن ذلك منسوب الى الشيطان.

وفعله ذاك وإن لم يكن معصية منه لوقوعه خطأ وكون دفاعه عن الإسرائيلي دفعاً لكافر ظالم، لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الانسان في الإثم والمعصية كذلك يوقعه في أي مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة والمشقة كما أوقع آدم وزوجه فيما أوقع من أكل الشجرة المنهيّة فأدى ذلك الى خروجهما من الجنة.

فقوله: ﴿هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ انزجار منه عما وقع من الاقتتال المؤدي الى قتل القبطي ووقوعه في عظيم الخطر وندم منه على ذلك، وقوله: «إنه عدو مضلّ مبين» إشارة منه الى ان فعله كان من الضلال المنسوب الى الشيطان وإن لم يكن من المعصية التي فيها إثم ومؤاخذة بل خطأ محضاً لا ينسب الى الله بل الى الشيطان الذي هو عدو مضل مبين. فكان ذلك منه نوعاً من سوء التدبير وضلال السعي يسوقه الى عاقبة وخيمة ولذا لما اعترض عليه فرعون بقوله: «وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين» أجابه بقوله: ﴿فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ (الشعراء / ٢٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ اعتراف منه عند ربه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر وألقاها في التهلكة. ومنه يظهر أن المراد بالمغفرة المسؤولية في قوله: «فاغفر لي» هو إلغاء تبعة فعله وإنجاؤه من الغم وتخليصه من شر فرعون وملأه، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وقتلت نفساً فنجيناك من الغم﴾ (طه / ٤٠).

وهذا الاعتراف بالظلم وسؤال المغفرة نظير ما وقع من آدم وزوجه المحكي في قوله تعالى:

﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف / ٢٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: الباء في قوله: «بما أنعمت» للسببية والمعنى رب بسبب ما أنعمت علي، لك علي أن لا أكون معيناً للمجرمين فيكون عهداً منه لله تعالى وقيل: الباء للقسم والجواب محذوف والمعنى: أُقسم بما أنعمت علي لأتوبن أو لأمتنعن فلن أكون ظهيراً للمجرمين، وقيل: القسم استعطافي وهو القسم الواقع في الإنشاء كقولك بالله زرني، والمعنى أُقسمك أن تعطف علي وتعصمني فلن أكون ظهيراً للمجرمين.

والوجه الأول هو الأوجه لأن المراد بقوله: «بما أنعمت علي» ـ على ما ذكروه ـ إما إنعامه تعالى عليه إذ حفظه وخلصه من قتل فرعون وردّه الى أُمه، وإما إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطي وغفر له بناء على أنه علم مغفرته تعالى بإلهام أو رؤيا أو نحوهما وكيف كان فهو إقسام بغيره تعالى، والمعنى أُقسم بحفظك إياي أو أُقسم بمغفرتك لي، ولم يعهد في كلامه تعالى حكاية قسم من غيره بغيره بهذا النحو.

وقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: المراد بالمجرم من أوقع غيره في الجرم أو من أدّت إعانته الى جرم كالإسرائيلي الذي خاصمه القبطي فأوقعت إعانته موسى في جرم القتل فيكون في لفظ المجرمين مجاز في النسبة من حيث تسمية السلب الموقع في الجرم مجرماً.

وقيل: المراد بالمجرمين فرعون وقومه والمعنى: أُقسم بإنعامك علي لأتوبن فلن أكون معيناً لفرعون وقومه بصحبتهم وملازمتهم وتكثير سوادهم كما كنت أفعله الى هذا اليوم.

ورد هذا الوجه الثاني بأنه لا يناسب المقام.

والحق أن قوله: «رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين» عهد من موسى عليه السلام أن

لا يعين مجرماً على إجرامه شكراً لله تعالى على ما أنعم عليه، والمراد بالنعمة وقد أُطلقت إطلاقاً الولاية الإلهية على ما يشهد به قوله تعالى: ﴿فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ (النساء / ٦٩).

وهؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال والغضب لقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ (الفاتحة / ٧). وترتب الامتناع عن إعانة المجرمين على الإنعام بهذا المعنى ظاهر لا سترة عليه.

ومن هنا يظهر أن المراد بالمجرمين أمثال فرعون وقومه دون أمثال الإسرائيلي الذي أعانه فلم يكن في إعانته جرم ولا كان وكز القبطي جرماً حتى يتوب ﷺ منه كيف؟ وهو ﷺ من أهل الصراط المستقيم الذين لا يضلون بمعصيته، وقد نص تعالى على كونه من المخلصين الذين لا سبيل للشيطان اليهم بالاغواء حيث قال: ﴿إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾ (مريم / ٥١).

وقد نص تعالى أيضاً آنفاً بأنه آتاه حكماً وعلماً وأنه من المحسنين ومن المتقين من أمره أن لا تستخفه عصبية قومية أو غضب من غير ما ينبغي أو إعانة ونصرة لمجرم في إجرامه.

وقد كرر «قال» ثلاثاً حيث قيل: ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ ﴿قال رب إني ظلمت نفسي﴾ ﴿قال رب بما أنعمت علي﴾ وذلك لاختلاف السياق في الجمل الثلاث فالجملة الاولى قضاء منه وحكم، والجملة الثانية استغفار ودعاء، والجملة الثالثة عهد والتزام.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ تقييد «أصبح» بقوله: «في المدينة» دليل على أنه بقي في المدينة ولم يرجع الى قصر فرعون، والاستصراخ الاستغاثة برفع الصوت من الصراخ بمعنى الصياح. والغواية إخطاء الصواب خلاف الرشد.

والمعنى: فأصبح موسى في المدينة ـ ولم يرجع الى بلاط فرعون ـ والحال أنه خائف من فرعون ينتظر الشر ففاجأه أن الإسرائيلي الذي استنصره على القبطي بالأمس يستغيث به رافعاً صوته على قبطي آخر قال موسى للإسرائيلي توبيخاً وتأنيباً: إنك لغويّ مبين لا تسلك سبيل الرشد والصواب لأنه كان يخاصم ويقتتل قوماً ليس في مخاصمتهم والمقاومة عليهم إلّا الشر كل الشر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ﴾ الى آخر الآية: ذكر جل المفسرين أن ضمير «قال» للاسرائيلي الذي كان يستصرخه وذلك أنه ظن أن موسى إنما يريد أن يبطش به لما سمعه يعاتبه قبل بقوله: «إنك لغويّ مبين» فهاله ما رأى من إرادته البطش فقال: «يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس» الخ: فعلم القبطي عند ذلك أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس فرجع الى فرعون فأخبره الخبر فائتمروا بموسى وعزموا على قتله.

وما ذكروه في محله لشهادة السياق بذلك فلا يعبأ بما قيل: إن القائل هو القبطي دون الاسرائيلي، هذا ومعنى باقي الآية ظاهر. وفي قوله: «أن يبطش بالذي هو عدو لهما» تعريض للتوراة الحاضرة حيث تذكر أن المتقاتلين هذين كانا جميعاً إسرائيليين، وفيه أيضاً تأييد أن القائل «يا موسى أتريد» الخ: الاسرائيلي دون القبطي لأن سياقه سياق اللوم والشكوى.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الخ: الائتمار المشاورة، والنصيحة خلاف الخيانة.

والظاهر كون قوله: «من أقصى المدينة» قيد لقوله: «جاء» فسياق القصة يعطي أن الائتمار كان عند فرعون وبأمر منه، وأن هذا الرجل جاء من هناك وقد كان قصر فرعون في أقصى المدينة وخارجها فأخبر موسى بما قصدوه من قتله وأشار عليه بالخروج من

المدينة.

وهذا الاستئناس من الكلام يؤيد ما تقدم أن قصر فرعون الذي كان يسكنه كان خارج المدينة، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فيه تأييد أنه ما كان يرى قتله القبطي خطأ جرماً لنفسه[1].

٢٢ ❁ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ.

٢٣ ❁ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ.

٢٤ ❁ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ.

٢٥ ❁ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

٢٦ ❁ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ.

---

١. القصص ١٥ ـ ٢١: بحث روائي في موسى وقتله القبطي.

٢٧ ۞ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ.

٢٨ ۞ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قال في المجمع: تلقاء الشيء حذاؤه، ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من حذاء داعي نفسه. وقال: سواء السبيل وسط الطريق انتهى.

ومدين ـ على ما في مراصد الاطلاع ـ مدينة قوم شعيب وهي تجاه تبوك على بحر القلزم بينهما ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استق منها موسى لغنم شعيب عليه السلام انتهى، ويقال: إنه كان بينها وبين مصر مسيرة ثمان وكانت خارجة من سلطان فرعون ولذا توجه اليها.

والمعنى: ولما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال: أرجو من ربي أن يهديني وسط الطريق فلا أضل بالعدول عنه والخروج منه الى غيره.

والسياق ـ كما ترى ـ يعطي أنه عليه السلام كان قاصداً لمدين وهو لا يعرف الطريق الموصلة اليها فترجى أن يهديه ربه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ الخ: الذود الحبس والمنع، والمراد بقوله: «تذودان» أنهما يحسبان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط

بأغنام القوم كما أن المراد بقوله: «يسقون» سقيهم أغنامهم ومواشيهم. والرعاء جمع الراعي وهو الذي يرعى الغنم.

والمعنى: ولما ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أغنامهم ووجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحبسان أغنامها وتمنعانها أن ترد المورد قال موسى مستفسراً عنهما ـ حيث وجدهما تذودان الغنم وليس على غنمهما رجل ـ: ما شأنكما؟ قالتا: لا نسقي غنمنا أي عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون ويخرجوا أغنامهم وأبونا شيخ كبير ـ لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقي ـ ولذا تصدينا الأمر.

قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فهم ﷺ من كلامهما أن تأخرهما في السقي نوع تعفف وتحجب منهما وتعد من الناس عليهما فبادر الى ذلك وسقى لهما.

وقوله: «ثم تولى الى الظل وقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير» أي انصرف الى الظل ليستريح فيه والحر شديد وقال ما قال. وقد حمل الأكثرون قوله: «ربِّ إني لما أنزلت» الخ؛ على سؤال طعام يسدُّ به الجوع. وعليه فالأولى أن يكون المراد بقوله: «ما أنزلت إليّ» القوة البدنية التي كان يعمل بها الأعمال الصالحة التي فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيلي والهرب من فرعون بقصد مدين وسقي غنم شعيب واللام في «لما أنزلت» بمعنى الى وإظهار الفقر الى هذه القوة التي أنزلها الله اليه من عنده بالإفاضة كناية عن إظهار الفقر الى شيء من الطعام تستبقى به هذه القوة النازلة الموهوبة.

قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ الى آخر الآية؛ ضمير إحداهما للمرأتين. وتنكير الاستحياء للتفخيم والمراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفف من مشيتها. وقوله: «ليجزيك أجر ما سقيت لنا» ما مصدرية أي ليعطيك جزاء سقيك لنا. وقوله: «فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف» الخ: يلوّح الى ان شعيباً

استفسره حاله فقص عليه قصته فطيّب نفسه بأنه نجى منهم إذ لا سلطان لهم على مدين.

وعند ذلك تمت استجابته تعالى لموسى عليه السلام أدعيته الثلاثة فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجيه من القوم الظالمين فأخبره شعيب عليه السلام بالنجاة وترجّى أن يهديه سواء السبيل وهو في معنى الدعاء فورد مدين. وسأله الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجر ما سقى وزاد تعالى فكفا رزق عشر سنين ووهب له زوجاً يسكن اليها.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ إطلاق الاستيجار يفيد أن المراد استخدامه لمطلق حوائجه التي تستدعي من يقوم مقامه وإن كانت العهدة باقتضاء المقام رعي الغنم.

وقوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ﴾ الخ: في مقام التعليل لقوله: «استأجره» وهو من وضع السبب موضع المسبب التقدير استأجره لأنه قوي أمين وخير من استأجرت هو القوي الأمين.

وفي حكمها بأنه قوي أمين دلالة على أنها شاهدت من نحو عمله في سقي الأغنام ما استدلت به على قوته وكذا من ظهور عفته في تكليمهما وسقي أغنامهما ثم في صحبته لها عندما انطلق الى شعيب حتى أتاه ما استدلت به على أمانته.

ومن هنا يظهر أن هذه القائلة «يا أبت استأجره» الخ: هي التي جاءته وأخبرته بدعوة أبيها له كما وردت به روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وذهب اليه جمع من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ الخ: عرض من شعيب لموسى عليه السلام أن يأجره نفسه ثماني سنين أو عشراً قبال تزويجه إحدى ابنتيه وليس بعقد قاطع ومن الدليل عدم تعيّن المعقودة في كلامه عليه السلام.

فقوله: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ دليل على حضورهما إذ ذاك، وقوله: «على أن

تأجرني ثماني حجج » أي على أن تأجرني نفسك أي تكون أجيراً لي ثماني حجج. والحجج جمع حجة والمراد بها للسنة بعناية أن كل سنة فيها حجة لبيت الحرام. وبه يظهر أن حج البيت ـ وهو من شريعة إبراهيم ﷺ ـ كان معمولاً به عندهم.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي فإن أتممته عشر سنين فهو من عندك وباختيار منك من غير أن تكون ملزماً من عندي.

وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ إخبار عن نحو ما يريده منه من الخدمة وأنه عمل غير موصوف بالمشقة وأنه مخدوم صالح.

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي إني من الصالحين وستجدني منهم إن شاء الله فالاستثناء متعلق بوجدان موسى إياه منهم لا بكونه في نفسه منهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ الضمير لموسى ﷺ.

وقوله: ﴿ذٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي ذلك الذي ذكرته وقررته من المشارطة والمعاهدة وعرضته عليَّ ثابت بيننا ليس لي ولا لك أن نخالف ما شارطناه، وقوله: «أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ» بيان للأجل المردد المضروب في كلام شعيب ﷺ وهو قوله: «ثماني حجج وإن أتممت عشراً فمن عندك» أي لي أن أختار أي الأجلين شئت فإن اخترت الثماني سنين فليس لك أن تعدو عليَّ وتلزمني بالزيادة وإن اخترت الزيادة وخدمتك عشراً فليس لك أن تعدو عليَّ بالمنع من الزيادة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ توكيل له تعالى فيما يشارطان يتضمن إشهاده تعالى على ما يقولان وإرجاع الحكم والقضاء بينهما اليه لو اختلفا، ولذا اختار التوكيل على الإشهاد لأن الشهادة والقضاء كليهما اليه تعالى، وهذا كقول يعقوب ﷺ حين أخذ الموثق من بنيه أن يردوا اليه ابنه فيما يحكيه الله ﴿فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾

(يوسف / ٦٦)[١].

٢٩ ۞ فَلَمَّا قَضىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ
الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ
مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ.
٣٠ ۞ فَلَمّا أَتيٰها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ ٱلْوادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسىٰ إِنِّي أَنَا ٱللّٰهُ رَبُّ
ٱلْعالَمِينَ.
٣١ ۞ وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ وَلّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ
يُعَقِّبْ يا مُوسىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ.
٣٢ ۞ أُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَٱضْمُمْ
إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ.
٣٣ ۞ قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ.
٣٤ ۞ وَأَخِي هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً
يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ.
٣٥ ۞ قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ
إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ ٱتَّبَعَكُما ٱلْغالِبُونَ.

---

١. القصص ٢٢ـ٢٨: بحث روائي في خروج موسى من مصر و وروده مدين و ذهابه الى شعيب.

٣٦ ● فَلَمّا جاءَهُمْ مُوسىٰ بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هٰذا إِلّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَما سَمِعْنا بِهٰذا فِي آبائِنا ٱلْأَوَّلِينَ.

٣٧ ● وَقالَ مُوسىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ.

٣٨ ● وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكاذِبِينَ.

٣٩ ● وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ.

٤٠ ● فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظّالِمِينَ.

٤١ ● وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ.

٤٢ ● وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيامَةِ هُمْ مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَلَمّا قَضىٰ مُوسىٰ ٱلْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً﴾ الخ: المراد بقضائه الأجل إتمامه مدة خدمته لشعيب عليه السلام والمروي أنه قضى أطول الأجلين. والإيناس الإبصار والرؤية. والجذوة من النار القاطعة منها. والاصطلاء الاستدفاء.

والسياق يشهد أن الأمر كان الليل وكانت ليلة شديدة البرد وقد ضلّوا الطريق فرأى من جانب الطور وقد أشرفوا عليه ناراً فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب الى ما آنسه لعله يجد هناك من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعة من النار فيصطلوا بها. وقد وقع في القصة من سورة طه موضع قوله: «لعلي آتيكم منها بخبر» الخ: قوله: ﴿لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على الناس هدى﴾ (طه / ١٠)، وهو أدلّ على كونهم ضلوا الطريق.

وكذا في قوله خطاباً لأهله: «امكثوا» الخ: شهادة على أنه كان معها من يصحّ معه خطاب[1] الجمع.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيٰهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِيءِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ الخ: قال في المفردات: شاطيء الوادي جانبه، وقال: أصل الوادي الموضع الذي يسيل منه الماء ومنه سمي المنفرج بين الجبلين وادياً وجمعه أودية انتهى والبقعة القطعة من الأرض على غير هيئة التي الى جنبها.

والمراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابل الأيسر وهو صفة الشاطيء ولا يعبؤ بما قاله بعضهم: إن الأيمن من اليمين مقابل الأشأم من الشؤم.

والبقعة المباركة قطعة خاصة من الشاطيء الأيمن في الوادي كانت فيه الشجرة التي نودي منها، ومباركتها لتشرفها بالتقريب والتكليم الإلهي وقد أُمر بخلع نعليه فيها لتقدسها كما قال تعالى في القصة من سورة طه: ﴿فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى﴾ (طه / ١٢).

ولا ريب في دلالة الآية على أن الشجرة كانت مبدءً للنداء والتكليم بوجه غير أن الكلام وهو كلام الله سبحانه لم يكن قائماً بها كقيام الكلام بالمتكلم منا فلم تكن إلّا حجاباً احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه من معنى الاحتجاب وهو على كل شيء

---

١. وفي التوراة الحاضرة أنه حمل معه الى مصر امرأته وبنيه (سفر الخروج الاصحاح الرابع آية ٢٠).

محيط، قال تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ (الشورى / ٥١).

وقوله: ﴿أَنْ يا مُوسىٰ إِنِّي أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعالَمِينَ﴾ أن فيه تفسيرية، وفيه إنباء عن الذات المتعالية المسماة باسم الجلالة الموصوفة بوحدانية الربوبية النافية لمطلق الشرك إذ كونه رباً للعالمين جميعاً ـ والرب هو المالك المدبر لملكه الذي يستحق العبادة من مملوكيه ـ لا يدع شيئاً من العالمين يكون مربوباً لغيره حتى يكون هناك رب غيره وإله معبود سواه.

ففي الآية إجمال ما فصله في سورة طه في هذا الفصل من النداء من الإشارة الى الاصول الثلاثة أعني التوحيد والنبوة والمعاد إذ قال: ﴿إنني أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية﴾ الآيات؛ (طه / ١٤ـ١٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ وَلّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ تقدم تفسيره في سورة النمل.

قوله تعالى: ﴿يا مُوسىٰ أَقْبِلْ وَلاٰ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ بتقدير القول أي قيل له: أقبل ولا تخف إنك من الآمنين، وفي هذا الخطاب تأمين له، وبه يظهر معنى قوله في هذا الموضع من القصة في سورة النمل: ﴿يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديَّ المرسلون﴾ (النمل / ١٠) وأنه تأمين معناه إنك مرسل والمرسلون آمنون لدي وليس من العتاب والتوبيخ في شيء.

قوله تعالى: ﴿أُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ المراد بسلوك يده في جيبه إدخاله فيه، والمراد بالسوء ـ على ما قيل ـ البرص.

والظاهر أن في هذا التقييد تعريضاً لما في التوراة الحاضرة في هذا[١] الموضع من القصة: ثم قال له الرب أيضاً: ادخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ الى آخر الآية؛ الرهب بالفتح فالسكون وبفتحتين وبالضم فالسكون الخوف. والجناح قيل: المراد به اليد وقيل: العضد.

قيل: المراد بضم الجناح اليه من الرهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدة انقلاب العصا حية ليذهب ما في قلبه من الخوف.

وقيل: إنه لما ألقى العصا وصارت حية بسط يديه كالمتقي وهما جناحاه فقيل له: اضمم اليك جناحك أي لا تبسط يديك خوف الحية فإنك آمن من ضررها.

والوجهان ـ كما ترى ـ مبنيان على كون الجملة أعني قوله: «واضمم» الخ؛ من تتمة قوله: «أقبل ولا تخف إنك من الآمنين» وهذا لا يلائم تخلل قوله: «اسلك يدك في جيبك» الخ؛ بين الجملتين بالفصل من غير عطف.

وقيل: الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أراده الله سبحانه منه والحثّ على الجد في أمر الرسالة لئلا يمنعه ما يغشاه من الخوف في بعض الأحوال.

ولا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإن من دأب المتكبر المعجب بنفسه أن يفرّج بين عضديه وجنبيه كالمتمطي في مشيته فيكون في معنى ما أمر الله به النبي ﷺ من التواضع للمؤمنين بقوله: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ (الحجر / ٨٨) على بعض المعاني.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ إشارة الى

---

١. سفر الخروج الاصحاح الرابع آية ٦.

قتله القبطي بالوكز وكان يخاف أن يقتلوه قصاصاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ قال في المجمع: يقال: فلان رِدء لفلان إذا كان ينصره ويشد ظهره. انتهى.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ تعليل لسؤاله إرسال هارون معه، والسياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبوه فيغضب ولا يستطيع بيان حجته للكنة كانت في لسانه لا أنه سأل إرساله لئلا يكذبوه فإن من يكذبه لا يبالي أن يكذب هارون معه ومن الدليل على ذلك ما وقع في سورة الشعراء في هذا الموضع من القصة من قوله: ﴿**قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون**﴾ (الشعراء / ١٣).

فحصّل المعنى: أن أخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معيناً لي يبيّن صدقي في دعواي إذا خاصموني إني أخاف أن يكذبوني فلا أستطيع بيان صدق دعواي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ شدَّ عضده بأخيه كناية عن تقويته به، وعدم الوصول اليهما كناية عن عدم التسلط عليهما بالقتل ونحوه كأن الطائفتين يتسابقان وإحداهما متقدمة دائماً والاخرى لا تدركهم بالوصول اليهم فضلاً أن يسبقوهم.

والمعنى: قال: سنقوّيك ونعينك بأخيك هارون ونجعل لكما سلطة وغلبة عليهم فلا يتسلطون عليكما بسبب آياتنا التي نظهركما بها. ثم قال: «أنتما ومن اتبعكما الغالبون» وهو بيان لقوله: «ونجعل لكما سلطاناً» الخ؛ يوضح أن هذا السلطان يشملهما ومن اتبعهما من الناس.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ الخ؛ أي سحر موصوف بأنه مفترى والمفترى اسم مفعول بمعنى المختلق أو مصدر

ميميّ وصف به السحر مبالغة.

والإشارة في قوله: «ما هذا إلّا سحر مفترى» الى ما جاء به من الآيات أي ليس ما جاء به من الخوارق إلّا سحراً مختلقاً افتعله فنسبه الى الله كذباً.

والإشارة في قوله: «وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين» الى ما جاء به من الدعوة وأقام عليها حجة الآيات. وأما احتمال أن يراد بها الإشارة الى الآيات فلا يلائمه تكرار إسم الإشارة على أنهم كانوا يدّعون أنهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في قوله: ﴿فلنأتينّك بسحر مثله﴾ (طه / ٥٨). على أن عدم معهودية السحر وعدم مسبوقيته بالمثل لا ينفعهم شيئاً حتى يدّعوه.

فالمعنى: أن ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن آبائنا الأولين أنهم اتخذوه في وقت من الأوقات. ويناسبه ما حكي في الآية التالية من قول موسى «ربي أعلم بمن جاء بالهدى» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ﴾ الخ: مقتضى السياق كونه جواباً من موسى عن قولهم: «وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين» في رد دعوى موسى. وهو جواب مبنى على التحدي كأنه يقول: إن ربي ـ وهو رب العالمين له الخلق والأمر ـ هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الداى وهو الذي أرسلني رسولاً جائياً بالهدى ـ وهو دين التوحيد ـ ووعدني أن من أخذ بديني فله عاقبة الدار. والحجة على ذلك الآيات البينات التي آتانيها من عنده.

فقوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يريد به نفسه والمراد بالهدى الدعوة الدينية التي جاء بها.

وقوله: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ﴾ المراد بعاقبة الدار إما الجنة التي هي الدار الآخرة التي يسكنها السعداء كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة

حيث نشاء ﴾ (الزمر / ٧٤)، وإما عاقبة الدار الدنيا كما في قوله: ﴿ قال موسى لقومه استعينوا الله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ (الأعراف / ١٢٨)، وإما الأعم الشامل للدنيا والآخرة. والثالث أحسن الوجوه ثم الثاني كما يؤيده تعليله بقوله: «إنه لا يفلح الظالمون».

وفي قوله: ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ تعريض لفرعون وقومه وفيه نفي أن تكون لهم عاقبة الدار فإنهم بنوا سنة الحياة على الظلم وفيه انحراف عن العدالة الاجتماعية التي تهدي اليها فطرة الإنسان الموافقة للنظام الكوني.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ الى آخر الآية: فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوة الحقة المؤيدة بالآيات المعجزة يريد أنه لم يتبين له حقية ما يدعو اليه موسى ولا كون ما أتى به من الخوارق آيات معجزة من عند الله وأنه ما علم لهم من إله غيره.

فقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ سوق للكلام في صورة الإنصاف ليقع في قلوب الملأ موقع القبول كما هو ظاهر قوله المحكي في موضع آخر: ﴿ ما أُريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد ﴾ (المؤمن / ٢٩).

فحصل المعنى: أنه ظهر للملأ أنه لم يتضح له من دعوة موسى وآياته أن هناك إلهاً هو رب العالمين ولا حصل له علم بأن هناك إلهاً غيره ثم أمر هامان أن يبني له صرحاً لعله يطّلع الى إله موسى.

وقوله: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً ﴾ المراد بالإيقاد على الطين تأجيج النار عليه لصنعة الآجر المستعمل في الأبنية. والصرح البناء العالي المكشوف من صرح الشيء إذا ظهر فني الجملة أمر باتخاذ الآجر وبناء قصر عال منه.

وقوله: ﴿ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ نسب الإله الى موسى بعناية أنه هو الذي

يدعو اليه. والكلام من وضع النتيجة موضع المقدمة والتقدير: اجعل لي صرحاً أصعد الى أعلى درجاته فأنظر الى السماء لعلي أطّلع الى إله موسى كأنه كان يرى أنه تعالى جسم ساكن في بعض طبقات الجو أو الأفلاك فكان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطّلع اليه أو كان هذا القول من قبيل التعمية على الناس وإضلالهم.

ويمكن أن يكون المراد أن يبني له رصداً يترصد الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول أو حقيّة ما يصفه موسى ﷺ. ويؤيد هذا قوله على ما حكى في موضع آخر: ﴿ يا هامان ابنِ لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطّلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ (المؤمن / ٣٧).

وقوله: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ ترقّ منه من الجهل الذي يدل عليه قوله: «ما علمت لكم من إله غيري» الى الظن بعدم الوجود وقد كان كاذباً في قوله هذا ولا يقوله إلّا تمويهاً وتعمية على الناس وقد خاطبه موسى بقوله: ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلّا رب السماوات والأرض ﴾ (الإسراء / ١٠٢).

وذكر بعضهم أن قوله: «ما علمت لكم من إله غيري» من قبيل نفي المعلوم بنفي العلم فيما لو كان لبان فيكون نظير قوله: ﴿ قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات والأرض ﴾ (يونس / ١٨). وأنت خبير بأنه لا يلائم ذيل الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاٰ يُرْجَعُونَ ﴾ أي كانت حالهم حال من يترجح عنده عدم الرجوع وذلك أنهم كانوا موقنين في أنفسهم كما قال تعالى: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً».

قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ الخ: النبذ الطرح، واليم البحر والباقي ظاهر. وفي الآية من الاستهانة بأمرهم وتهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لاٰ يُنْصَرُونَ ﴾

الدعوة الى النار هي الدعوة الى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي لكونها هي التي تتصور لهم يوم القيامة ناراً يعذّبون فيها أو المراد بالنار ما يستوجبها مجازاً من باب إطلاق المسبب وإرادة سببه.

ومعنى جعلهم أئمة يدعون الى النار، تصييرهم سابقين في الضلال يقتدي بهم اللاحقون ولا ضير فيه لكونه بعنوان المجازاة على سبقهم في الكفر والجحود وليس من الإضلال الإبتدائي في الشيء.

وقوله: «ويوم القيامة لا ينصرون» أي لا تنالهم شفاعة من ناصر.

قوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ بيان للازم ما وصفهم به في الآية السابقة فهم لكونهم أئمة يقتدى بهم من خلفهم في الكفر والمعاصي ولا يزال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصي من مقتديهم ومتّبعيهم وعليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر والمعاصي بعدهم.

فالآية في معنى قوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ (العنكبوت / ١٣) وقوله: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ (يس / ١٢). وتنكير العنة للدلالة على تفخيمها واستمرارها.

وكذا لما لم ينلهم يوم القيامة نصر ناصر كانوا بحيث يتنفر ويشمئز عنهم النفوس ويفر منهم الناس ولا يدنو منهم أحد وهو معنى القبح وقد وصف الله تعالى من قبح منظرهم شيئاً كثيراً في كلامه[١][٢].

---

١. القصص ٢٩ ـ ٤٢: بحث روائي في قصة وخروجه من مدين الى مصر وبعثه بالرسالة.

٢. القصص ٢٩ ـ ٤٢: كلام حول قصص موسى وهارون عليهما السلام في فصول (منزلة موسى عند الله وموقفه العبودي؛ قصص موسى عليه السلام في القرآن. منزلة هارون عليه السلام عند الله وموقفه العبودي؛ قصة موسى عليه السلام في التوراة الحاضرة).

٤٣ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى ٱلْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولىٰ
بَصائِرَ لِلنّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .
٤٤ ۞ وَما كُنْتَ بِجانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَما
كُنْتَ مِنَ الشّاهِدِينَ .
٤٥ ۞ وَلٰكِنّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي
أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلٰكِنّا كُنّا مُرْسِلِينَ .
٤٦ ۞ وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتيٰهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .
٤٧ ۞ وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .
٤٨ ۞ فَلَمّا جاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ
مُوسىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ
تَظاهَرا وَقالُوا إِنّا بِكُلٍّ كافِرُونَ .
٤٩ ۞ قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ هُوَ أَهْدىٰ مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ
صادِقِينَ .
٥٠ ۞ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوىٰهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ
الظّالِمِينَ .

٥١ ● وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

٥٢ ● الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ .

٥٣ ● وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .

٥٤ ● أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

٥٥ ● وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَاهِلِينَ .

٥٦ ● إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ الخ: اللام للقسم أي اقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة بوحيه اليه.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي الأجيال السابقة على نزول التوراة كقوم نوح ومن بعدهم من الامم الهالكة ولعل منهم قوم فرعون. وفي هذا التقييد إشارة الى مسيس الحاجة حينئذ الى نزول الكتاب لاندراس معالم الدين الإلهي بمضيّ الماضين وليشار في الكتاب الالهي الى قصصهم وحلول العذاب الإلهي بهم بسبب تكذيبهم لآيات الله ليعتبر به المعتبرون ويتذكر به المتذكرون.

وقوله: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ جمع بصيرة بمعنى ما يبصر به وكأن المراد بها الحجج البيّنة التي يبصّر بها الحق ويميّز بها بينة وبين الباطل، وهي حال من الكتاب وقيل: مفعول له.

وقوله: ﴿وَهُدىً﴾ بمعنى الهادي أو ما يهتدى به وكذا قوله: «ورحمة» بمعنى ما يرحم به وهما حالان من الكتاب كبصائر، وقيل: كل منهما مفعول له.

والمعنى: وأُقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة من بعد ما أهلكنا الأجيال الاولى فاقتضت الحكمة تجديد الدعوة والإنذار حال كون الكتاب حججاً بيّنة يبصر بها الناس المعارف الحقة وهدى يهتدون به اليها ورحمة يرحمون بسبب العمل بشرائعه وأحكامه لعلهم يتذكرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد والعمل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والغربي صفة محذوفة الموصوف والمراد جانب الوادي الغربي أو جانب الجبل الغربي.

وقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ كأن القضاء مضمّن معنى العهد، والمراد بعهد الأمر اليه ـ على ما قيل ـ إحكام أمر نبوّته بإنزال التوراة اليه وأما العهد اليه بأصل الرسالة فيدلّ عليه قوله بعد: «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا» وقوله: «وما كنت من الشاهدين» تأكيد لسابقه.

والمعنى: وما كنت حاضراً وشاهداً حين أنزلنا التوراة على موسى في الجانب الغربي من الوادي أو الجبل.

قوله تعالى: ﴿وَلٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ تطاول العمر تمادي الأمد والجملة استدراك عن النفي في قوله: «وما كنت بجانب الغربي»، والمعنى: ما كنت حاضراً هناك شاهداً لما جرى فيه ولكنا أوجدنا أجيالاً بعده فتمادى بهم الأمد ثم أنزلنا عليك قصته وخبر نزول الكتاب عليه ففي الكلام إيجاز بالحذف لدلالة المقام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الثاوي المقيم يقال: ثوى في المكان إذا أقام فيه، والضمير في «عليهم» لمشركي مكة الذي كان النبي ﷺ يتلو عليهم آيات الله التي تقصّ ما جرى على موسى ﷺ في مدين زمن كونه فيه.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ استدراك من النفي في صدر الآية.

والمعنى: وما كنت مقيماً في أهل مدين ـ وهم شعيب وقومه ـ مشاهداً لما جرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصّة لخبره هناك ولكنا كنا مرسلين لك الى قومك موحين بهذه الآيات اليك لتتلوها عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ الى آخر الآية: الظاهر من مقابلة الآية لقوله السابق: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا» الخ: أن المراد بهذا النداء ما كان من الشجرة في الليلة التي آنس فيها من جانب الطور ناراً.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ الخ: استدراك عن النفي السابق، والظاهر أن «رحمة» مفعول له، والالتفات عن التكلم بالغير الى الغيبة في قوله: «من ربك» للدلالة على كمال عنايته تعالى به ﷺ.

وقوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوة النبوية أو هم ومن يقارنهم من آبائهم فإن العرب خلت فيهم رسل منهم كهود وصالح وشعيب وإسماعيل ﷺ.

والمعنى: وما كنت حاضراً في جانب الطور إذ نادينا موسى وكلّمناه واخترناه للرسالة حتى تخبر عن هذه القصة إخبار الحاضر المشاهد ولكن لرحمة منا أخبرناك بها لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا﴾

الخ: المراد بما قدّمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد والعمل بدليل ذيل الآية، والمراد بالمصيبة التي تصيبهم أعم من مصيبة الدنيا والآخرة فإن الإعراض عن الحق بالكفر والفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهية في الدنيا كما يستتبعها في الآخرة، وقد تقدم بعض الكلام فيه في ذيل قوله: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (الأعراف / ٩٦) وغيره.

وقوله: ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ﴾ متفرع على ما تقدمه على تقديم عدم إرسال الرسول وجواب لولا محذوف لظهوره والتقدير: ولما أرسلنا رسولاً.

ومحصّل المعنى: أنه لولا أنه تكون لهم الحجة علينا على تقدير عدم إرسال الرسول وأخذهم بالعذاب بما قدّمت أيديهم من الكفر والفسوق لما أرسلنا اليهم رسولاً لكنهم قولون ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك التي يتلوها علينا ونكون من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسىٰ﴾ الخ؛ أي فأرسلنا اليهم الرسول بالحق وأنزلنا الكتاب فلما جاءهم الحق من عندنا والظاهر أنه الكتاب النازل على الرسول وهو القرآن النازل على النبي ﷺ.

والمراد بقولهم: ﴿لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسىٰ﴾ أي لولا أُوتي النبي ﷺ مثل التوراة التي أُوتيها موسى ﵇، وكأنهم يريدون به أن ينزل القرآن جملة واحدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة﴾ (الفرقان / ٣٢).

وقد أجاب الله عن قولهم بقوله: «أولم يكفروا بما أُوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا» يعنون القرآن والتوراة «وقالوا إنا بكل كافرون». والفرق بين القولين أن الأول كفر بالكتابين والثاني كفر بأصل النبوة ولعله الوجه لتكرار «قالوا» في الكلام.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ ﴾ تفريع على كون القرآن والتوراة سحرين تظاهرا، ولا يصح هذا التفريع إلّا إذا كان من الواجب أن يكون بين الناس كتاب من عند الله سبحانه يهديهم ويجب عليهم اتباعه فإذا كانا سحرين باطلين كان الحق غيرهما، وهو كذلك على ما تبين بقوله: «ولولا أن تصيبهم مصيبة» الخ؛ أن للناس على الله أن ينزل عليهم الكتاب ويرسل اليهم الرسول، ولذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن يطالبهم بكتاب غيرهما هو أهدى منهما ليتّبعه.

ثم الكتابان لو كانا سحرين تظاهرا كان باطلين مضلّين لا هدى فيهما حتى يكون غيرهما من الكتاب الذي يأتون به أهدى منهما ـ لاستلزام صيغة التفضيل اشتراك المفضّل والمفضل عليه في أصل الوصف ـ لكن المقام لما كان مقام المحاجة ادعى أن الكتابين هاديان لا مزيد عليهما في الهداية فإن لم يقبل الخصم ذلك فليأت بكتاب يزيد عليهما في معنى ما يشتملان عليه من بيان الواقع فيكون أهدى منهما.

والقرآن الكريم وإن كان يصرّح بتسرّب التحريف والخلل في التوراة الحاضرة وذلك لا يلائم عدَّها كتاب هدى بقول مطلق لكن الكلام في التوراة الواقعية النازلة على موسى ﷺ وهي التي يصدقها القرآن.

على أن موضوع الكلام هما معاً والقرآن يقوّم التوراة الحاضرة ببيان ما فيها من الخلل فهما معاً هدى لا كتاب أهدى منهما.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الى آخر الآية: الاستجابة والإجابة بمعنى واحد، قال في الكشاف: هذا الفعل يتعدى الى الدعاء بنفسه والى الداعي باللام، ويحذف الدعاء إذا عدّي الى الداعي في الغالب فيقال: استجاب الله دعاءه أو استجاب له، ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه. انتهى.

فقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ تفريع على قوله: «قل فأتوا بكتاب هو أهدى منهما أتّبعه» أي فإن قلت لهم كذا وكلّفتهم بذلك فلم يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن

والتوراة وتعيّن أن لا هدى أتمّ وأكمل من هداهما وهم مع ذلك يرمونها بالسحر ويعرضون عنها فاعلم انهم ليسوا في طلب الحق ولا بصدد اتباع ما هو صريح حجّة العقل وإنما يتبعون أهواءهم ويدافعون عن مشتهيات طباعهم بمثل هذه الأباطيل «سحران تظاهرا» «إنا بكل كافرون».

ويمكن أن يكون المراد بقوله: «إنما يتبعون أهواءهم» انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما وهم غير مؤمنين بهما فاعلم أنهم إنما يبنون سنة الحياة على اتباع الأهواء ولا يعتقدون بأصل النبوّة وأن لله ديناً سماوياً نازلاً عليهم من طريق الوحي وعليهم ان يتبعوه ويسلكوا مسلك الحياة بهدى ربهم، وربما أيد هذا المعنى قوله بعد: «ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله» الخ.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَيٰهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام إنكاري والمراد به استنتاج انهم ضالون. وقوله: «إن الله لا يهدي القوم الظالمين» تعليل لكونهم ضالين باتباع الهوى فإن اتباع الهوى إعراض عن الحق وانحراف عن صراط الرشد وذلك ظلم والله لا يهدي القوم الظالمين وغير المهتدي هو الضال.

ومحصّل الحجة انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما وليسوا مؤمنين بهما فهم متبعون للهوى، ومتبع الهوى ظالم والظالم غير مهتد وغير المهتدي ضال فهم ضالون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ التوصيل تفعيل من الوصل يفيد التكثير كالقطع والتقطيع والقتل والتقتيل، والضمير لمشركي مكة والمعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولاً بعضه ببعض: الآية بعد الآية، والسورة إثر السورة من وعد ووعيد ومعارف وأحكام وقصص وعبر وحكم ومواعظ لعلم يتذكرون.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ الضميران للقرآن وقيل: للنبي ﷺ. والأول أوفق للسياق، وفي الآية وما بعدها مدح طائفة من مؤمني

أهل الكتاب بعدما تقدم في الآيات السابقة من ذم المشركين من أهل مكة.

وسياق ذيل الآيات يشهد على أن هؤلاء الممدوحين طائفة خاصة من أهل الكتاب آمنوا به فلا يعبؤ بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ الخ: ضمائر الإفراد للقرآن، واللام في «الحق» للعهد والمعنى وإذا يقرأ القرآن عليهم قالوا: آمنا به إنه الحق الذي نعهده من ربنا فإنه عرفناه من قبل.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ تعليل لكونه حقاً معهوداً عندهم أي إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذي يدعو اليه ويسميه إسلاماً.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ الخ: في الآية وعد جميل لهم على ما فعلوا ومدح لهم على حسن سلوكهم ومداراتهم مع جهلة المشركين ولذا كان الأقرب الى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابهم وأجر الإيمان بالقرآن وصبرهم على الإيمان بعد الايمان بما فيهما من كلفة مخالفة الهوى.

وقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ الخ: الدرء الدفع، والمراد بالحسنة والسيئة قيل: الكلام الحسن والكلام القبيح. وقيل: العمل الحسن والسيء وهما المعروف والمنكر. وقيل: الخلق الحسن والسيىء وهما الحلم والجهل، وسياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى الى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمداراة، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ الخ: المراد باللغو لغو الكلام بدليل تعلقه بالسمع، والمراد سقط القول الذي لا ينبغي الاشتغال به من هذر أو سبّ وكل ما فيه خشونة. ولذا لما سمعوه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله وقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم وهو متاركة، وقوله: «سلام عليكم» أي أمان

منا لكم، وهو أيضاً متاركة وتوديع تكرّماً كما قال تعالى: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً».

وقوله: ﴿لاٰ نَبْتَغِي ٱلْجٰاهِلِينَ﴾ أي لا نطلبهم بمعاشرة ومجالسة، وفيه تأكيد لما تقدمه، وهو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابلة السيىء بالسيىء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاٰ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ المراد بالهداية الإيصال الى المطلوب ومرجعه الى إفاضة الإيمان على القلب ومعلوم أنه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد، وليس المراد بها إراءة الطريق فإنه من وظيفة الرسول لا معنى لنفيه عنه، والمراد بالاهتداء قبول الهداية.

لما بيّن في الآيات السابقة حرمان المشركين وهم قوم النبي ﷺ من نعمة الهداية وضلالهم باتباع الهوى واستكبارهم عن الحق النازل عليهم وإيمان أهل الكتاب به واعترافهم بالحق ختم القول في هذا الفصل من الكلام بأن أمر الهداية الى الله لا اليك يهدي هؤلاء وهم من غير قومك الذين تدعوهم ولا يهدي هؤلاء وهم قومك الذين تحب اهتداءهم وهو أعلم بالمهتدين[1].

٥٧ ● وَقٰالُوا إِنْ نَتَّبِعِ ٱلْهُدىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرٰاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنّٰا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ.

٥٨ ● وَكَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهٰا فَتِلْكَ مَسٰاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاّٰ قَلِيلاً وَكُنّٰا نَحْنُ ٱلْوٰارِثِينَ.

---

١. القصص ٤٣ ـ ٥٦: بحث روائي في فضل محمد ﷺ وامته: ايمان ابي طالب.

٥٩ ﴿ وَمٰا كٰانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرىٰ حَتّٰى يَبْعَثَ فِي أُمِّهٰا رَسُولاً يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيٰاتِنٰا وَمٰا كُنّٰا مُهْلِكِي ٱلْقُرىٰ إِلاّٰ وَأَهْلُهٰا ظٰالِمُونَ.

٦٠ ﴿ وَمٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتٰاعُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَزِينَتُهٰا وَمٰا عِنْدَ
ٱللّٰهِ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ.

٦١ ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنٰاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاٰقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنٰاهُ مَتٰاعَ
ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ.

٦٢ ﴿ وَيَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكٰائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ.

٦٣ ﴿ قٰالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنٰا
أَغْوَيْنٰاهُمْ كَمٰا غَوَيْنٰا تَبَرَّأْنٰا إِلَيْكَ مٰا كٰانُوا إِيّٰانٰا يَعْبُدُونَ.

٦٤ ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا
ٱلْعَذٰابَ لَوْ أَنَّهُمْ كٰانُوا يَهْتَدُونَ.

٦٥ ﴿ وَيَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ مٰاذٰا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ.

٦٦ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبٰاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاٰ يَتَسٰاءَلُونَ.

٦٧ ﴿ فَأَمّٰا مَنْ تٰابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صٰالِحاً فَعَسىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ
ٱلْمُفْلِحِينَ.

٦٨ ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَيَخْتٰارُ مٰا كٰانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحٰانَ
ٱللّٰهِ وَتَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ.

٦٩ ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مٰا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمٰا يُعْلِنُونَ.

٧٠ ﴿ وَهُوَ ٱللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ

ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

٧١ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ
مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ .

٧٢ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ
مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .

٧٣ ۞ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا
مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

٧٤ ۞ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

٧٥ ۞ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ
ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ الى آخر الآية؛ التخطف الاختلاس بسرعة، وقيل الخطف والتخطف الاستلاب من كل وجه، وكأن تخطفهم من أرضهم استعارة أُريد به القتل والسبي ونهب الأموال كأنهم وما يتعلق بهم من أهل ومال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم، والمراد بالأرض أرض مكة والحرم بدليل قوله بعد: «أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً» والقائل بعض مشركي مكة.

والجملة مسوقة للاعتذار عن الايمان بأنهم إن آمنوا تخطّفتهم العرب من أرضهم أرض مكة لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم ورفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقية أصل الدعوة وأن الكتاب بما يشتمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله

والايمان به . ولهذا عبَّر بقوله : «إن نتّبع الهدى معك» ولم يقل : إن نتبع كتابك أو دينك أو ما يقرب من ذلك .

وقوله : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ قيل : التمكين مضمّن معنى الجعل والمعنى أو لم نجعل لهم حرماً آمناً ممكّنين إياهم . وقيل : حرماً منصوباً على الظرفية والمعنى : أو لم نمكّن لهم في حرم ، و «آمناً» صفة «حرماً» أي حرماً ذا أمن . وعدُّ الحرم ذا أمن ـ والمتلبّس بالأمن أهله ـ من المجاز في النسبة . والجملة معطوفة على محذوف والتقدير أو لم نعصمهم ونجعل لهم حرماً آمناً ممكّنين إياهم .

وهذا جواب أول منه تعالى لقولهم : «إن نتّبع الهدى معك نختطف من أرضنا» ومحصّله : أنا مكّناهم في أرض جعلناها حرماً ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم أن يتخطفوا منها إن آمنوا .

وقوله : ﴿يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الجباية الجمع . والكل للتكثير لا للعموم لعدم إرادة العموم قطعاً . والمعنى : يجمع الى الحرم ثمرات كثير من الأشياء . والجملة صفة لحرماً جيىء بها لما عسى أن يتوهم انهم يتضررون إن آمنوا بانقطاع الميرة .

وقوله : ﴿رِزْقاً مِنْ لَدُنّا﴾ مفعول مطلق أو حال من ثمرات . وقوله : «ولكن أكثرهم لا يعلمون» استدراك عن جميع ما تقدم أي إنا نحن حفظناهم في أمن ورزقناهم من كل الثمرات لكن أكثرهم جاهلون بذلك فيحسبون أن الذي يحفظهم من تخطف العرب هو شركهم وعبادتهم الأصنام .

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها﴾ الى آخر الآية ؛ البطر الطغيان عند النعمة . و «معيشتها» منصوب بنزع الخافض أي وكم أهلكنا من قرية طغت في معيشتها .

وقوله : ﴿فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلّا قَلِيلاً﴾ أي إن مساكنهم

الخربة الخاوية على عروشها مشهودة لكم نصب أعينكم باقية على خرابها لم تعمر ولم تسكن بعد هلاكهم إلّا قليلاً منها.

وبذلك يظهر أن الأنسب كون «إلّا قليلاً» استثناء من «مساكنهم» لا من قوله: «من بعدهم» بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلّا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلّا المارّة يوماً أو بعض يوم في الأسفار.

وقوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم، وفي الجملة أعني قوله: «كنا نحن الوارثين» عناية لطيفة فإنه تعالى هو المالك لكل شيء ملكاً حقيقياً مطلقاً فهو المالك لمساكنهم وقد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم بإهلاكهم وبقيت بعدهم لا مالك لها إلّا هو فسمى نفسه وارثاً لهم بعناية أنه الباقي بعدهم وهو المالك لما كان بأيديهم كأن ملكهم الاعتباري انتقل اليه ولا انتقال هناك بالحقيقة وإنما ظهر ملكه الحقيقي بزوال ملكهم الاعتباري.

والآية جواب ثان منه تعالى لقولهم: «ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا» ومحصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا يضمن لكم البقاء ولا يحفظ لكم أرضكم والتنعم فيها كما تشاؤن فكم من قرية بالغة في التنعم ذات أشر وبطر أهلكنا أهلها وبقيت مساكنهم خالية غير مسكونة لا وارث لها إلّا الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾ أم القرى هي أصلها وكبيرتها التي ترجع اليها وفي الآية بيان السنة الإلهية في عذاب القرى بالاستئصال وهو أن عذاب الاستئصال لا يقع منه تعالى إلّا بعد إتمام الحجة عليهم بإرسال رسول يتلو عليهم آيات الله، وإلّا بعد كون المعذبين ظالمين بالكفر بآيات الله وتكذيب رسوله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الخ: الإيتاء: الإعطاء

و«من شيء» بيان لما لافادة العموم أي كل شيء أُوتيتموه. والمتاع ما يتمتع به والزينة ما ينضم الى الشيء ليفيده جمالاً وحسناً. والحياة الدنيا الحياة المؤجلة المقطوعة التي هي أقرب الحياتين منا وتقابلها الحياة الآخرة التي هي خالدة مؤبدة. والمراد بما عند الله الحياة الآخرة السعيدة التي عند الله وجواره ولذا عدّ خيراً وأبقى.

والمعنى: أن جميع النعم الدنيوية التي أعطاكم الله إياها متاع وزينة زينت بها هذه الحياة الدنيا التي هي أقرب الحياتين منكم وهي بائدة فانية وما عند الله من ثوابه في الدار الآخرة المترتب على اتباع الهدى والإيمان بآيات الله خير وأبقى فينبغي أن تؤثروه على متاع الدنيا وزينتها أفلا تعقلون.

والآية جواب ثالث عن قولهم: «إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا» محصله لنسلم انكم إن اتبعتم الهدى تخطفكم العرب من أرضكم لكن الذي تفقدونه هو متاع الحياة الدنيا وزينتها الفانية فما بالكم تؤثرونه على ما عند الله من ثواب اتباع الهدى وسعادة الحياة الآخرة وهي خير وأبقى.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ الآية؛ الى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآية السابقة ـ وهو أن إيثار اتباع الهدى أولى من تركه والتمتع بمتاع الحياة الدنيا ـ ببيان آخر فيه مقايسة حال من اتبع الهدى وما يلقاه من الوعد الحسن الذي وعده الله، من حال من لم يتبعه واقتصر على التمتع من متاع الحياة الدنيا وسيستقبله يوم القيامة الإحضار وتبري آلهته منه وعدم استجابتهم لدعوته ومشاهدة العذاب والسؤال عن إجابتهم الرسل.

فقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ﴾ الاستفهام إنكاري، والوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفرة والجنة كما قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا

الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ (المائدة / ٩). ولا يكذب وعده تعالى قال: ﴿ألا إن وعد الله حق﴾ (يونس / ٥٥).

وقوله: ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وهو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتع بمتاعها، والدليل على هذا التقييد المقابلة بين الوعد والتمتيع.

وقوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي للعذاب، او للسؤال والمؤاخذة و «ثمّ» للترتيب الكلامي وإتيان الجملة اسمية كما فيما يقابلها من قوله: «فهو لاقيه» للدلالة على التحقق.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ الشركاء هم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا وكونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون اليهم بعض ما هو من شؤونه تعالى كالعبادة والتدبير، وفي قوله: «ينهاديهم» إشارة الى بعدهم وخذلانهم يومئذ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ آلهتهم الذين يرونهم شركاء لله سبحانه صنفان صنف منهم عباد الله مكرمون كالملائكة المقربين وعيسى بن مريم عليه السلام، وصنف منهم كعتاة الجن ومدعي الالوهية من الإنس كفرعون ونمرود وغيرهما وقد ألحق الله سبحانه بهم كل مطاع في باطل كإبليس وقرناء الشياطين وأئمة الضلال كما قال: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ـ الى أن قال ـ ولقد أضلّ منكم جبلاً كثيراً﴾ (يس / ٦٢)، وقال: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ (الجاثية / ٢٣)، وقال: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ (التوبة / ٣١).

والذين يشير اليهم قوله: «قال الذين حق عليهم القول» هم من الصنف الثاني بدليل ذكرهم إغواءهم وتبريهم من عبادتهم وهؤلاء المشركون وإن كانوا أنفسهم أيضاً ممن حق

عليهم القول كما يشير اليه قوله: ﴿حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ (الم السجدة / ١٣). ولكن المراد بهم في الآية المبحوث عنها المتبوعون منهم الذين ينتهي اليهم الشرك والضلال.

وإيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسؤولين أشاروا اليهم لعله للإشارة الى انهم ضلوا عنهم في هذا الموقف كما في قوله تعالى: ﴿ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾ (حم السجدة / ٤٨).

وقوله: ﴿رَبَّنَا هٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ اي هؤلاء - يشيرون الى المشركين - هم الذين أغويناهم والجملة توطئة للجملة التالية.

وقوله: ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ اي كانت غوايتهم باغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنا غوينا باختيارنا من غير إلجاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير الجاء. والدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن ابليس يومئذ اذ قال: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ (ابراهيم / ٢٢). وقال حاكياً لتساؤل الظالمين وقرنائهم: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كنا لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغيوناكم إنا كنا غاوين﴾ (الصافات / ٣٢). أي ما كان ليصل اليكم منا ونحن غاون غير الغواية.

ومن هنا يظهر أن لقولهم: «أغويناهم كما غوينا» معنى آخر. وهو أنهم اكتسبوا نظير الوصف الذي كان فينا غير أنّا نتبرأ منهم حيث لم نلجئهم الى الغواية ما كانوا يعبدوننا بإلجاء.

وقوله: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ تبرّ منهم مطلقاً حيث لم يكن لهم أن يلجؤهم ويسلبوا منهم الاختيار. وقوله: «ما كانوا إيانا يعبدون» أي بالجاء منا. أو لتبرّينا من أعمالهم فإن من تبرّء من عمل لم ينتسب اليه والى هذا المعنى يؤل قوله تعالى في مواضع من كلامه في وصف هذا

الموقف: ﴿ وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ (الأنعام / ٢٤) ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾ (حم السجدة / ٤٨) ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ (يونس /٢٨)، الى غير ذلك من الآيات فافهم.

ولكون كل من قوليه « تبرّأنا اليك » « ما كانوا إيانا يعبدون » في معنى قوله: «أغويناهم كما غوينا» جيء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ المراد بشركائهم الآلهة التي كانوا شركاء لله بزعمهم ولذا أضافهم اليهم. والمراد بدعوتهم دعوتهم إياهم لينصروهم ويدفعوا عنهم العذاب ولذا قال: «ورأوا العذاب» بعد قوله: «فلم يستجيبوا لهم».

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ قيل: جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أي اعتقدوا أن العذاب حق، ويمكن أن يكون لو للتمني أي ليتهم كانوا يهتدون.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ معطوف على قوله السابق: « ويوم يناديهم » الخ؛ سئلوا أولاً: عن شركائهم وأُمروا أن يستنصروهم، وثانياً: عن جوابهم للمرسلين اليهم من عند الله.

والمعنى: ماذا قلتم في جواب من أُرسل اليكم من رسل الله فدعوكم الى الايمان والعمل الصالح؟

قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ العمى استعارة عن جعل الإنسان بحيث لا يهتدي الى خبر، وكان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى اليهم لا الى الأنباء لكن عكس الأمر فقيل: « فعميت عليهم الأنباء » للدلالة على أخذهم من كل جانب

وسدّ جميع الطرق وتقطّع الأسباب بهم كما قال: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ (البقرة/١٦٦)، فلسقوط الأسباب عن التأثير يومئذ لا تهتدي اليهم الأخبار ولا يجدون شيئاً يعتذرون به للتخلص من العذاب.

وقوله: ﴿فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ تفريع على عمى الأنباء من قبيل تفرّع بعض أفراد العام عليه أي لا يسأل بعضهم بعضاً لبعدُوا به عذراً يعتذرون به عن تكذيبهم الرسل وردّهم الدعوة.

وقد فسّر صدر الآية وذيلها بتفاسير كثيرة مختلفة لا جدوى في التعرض لها فرأينا الصفح عنها أولى.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي هذه حال من كفر ولم يرجع الى الله سبحانه فأما من رجع وآمن وعمل صالحاً فن المرجو أن يكون من المفلحين، وعسى ـ كما قيل ـ للتحقيق على عادة الكرام او للترجّي من قبل التائب، والمعنى: فليتوقع الفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَانَ ٱللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الخيرة بمعنى التخيرّ كالطيرة بمعنى التطيرّ.

والآية جواب رابع عن قولهم: «إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا» والذي يتضمنه حجة قاطعة.

والظاهر أن قوله: «يخلق ما يشاء» إشارة الى اختياره التكويني فإن معنى إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شيء ولا يمنعه عما يشاؤه وبعبارة أُخرى لا يمتنع عن مشيته شيء لا بنفسه ولا بمانع يمنع وهذا هو الاختيار بحقيقة معناه، وقوله: «ويختار» إشارة الى اختياره التشريعي الاعتباري ويكون عطفه على قوله: «يخلق ما يشاء» من عطف المسبب على سببه لكون التشريع والاعتبار متفرعاً على التكوين والحقيقة.

ويمكن حمل قوله: «يخلق ما يشاء» على الاختيار التكويني وقوله: «ويختار» على الأعم من الحقيقة والاعتبار لكن الوجه السابق أوجه، ومن الدليل عليه كون المنفي في قوله الآتي: ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ هو الاختيار التشريعي الاعتباري، والاختيار المثبت في قوله: «ويختار» يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعي الاعتباري.

وهذا هو المراد بقوله: «ما كان لهم الخيرة» أي لا اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئاً من فعل أو ترك حتى يختاروا لأنفسهم ما يشاؤن وإن خالف ما اختاره الله والآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (الأحزاب / ٣٦)، وللقوم في تفسير الآية أقاويل مختلفة غير مجدية أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع الى المطوّلات.

وقوله: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن شركهم باختيارهم أصناماً آلهة يعبدونها من دون الله.

وههنا معنى آخر أدق أي تنزه وتعالى عن شركهم بادعاء أن لهم خيرة بالنسبة الى ما يختاره تعالى بقبوله أو رده فإن الخيرة فهذا المعنى لا تتم إلّا بدعوى الاستقلال في الوجود والاستغناء عنه تعالى ولا تتم إلّا مع الاشتراك معه تعالى في صفة الالوهية.

وفي قوله: «وربك يخلق» التفات من التكلم بالغير الى الغيبة والنكتة فيه تأييد النبي ﷺ وتقويته وتطييب نفسه بإضافة صفة الرب اليه فإن معناه إن ما أرسله به من الحكم ماض غير مردود فلا خيرة لهم في قبوله ورده. ولأنهم لا يقبلون ربوبيته.

وفي قوله: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر والنكتة فيه إرجاع الأمر الى الذات المتعالية التي هي المبدأ للتنزه والتعالي عن كل ما لا يليق بساحة قدسه فإنه تعالى يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقص لأنه هو الله عز اسمه.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ الإكنان الإخفاء

والإعلان الإظهار، ولكون الصدر يعدُّ مخزناً للأسرار نسب الإكنان الى الصدور والإعلان اليهم أنفسهم.

ولعل تعقيب الآية السابقة بهذه الآية للإشارة الى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لعلمه بما في ظاهرهم وباطنهم من أوساخ الشرك والمعصية فطهرهم بذلك بحكمته.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ظاهر السياق أن الضمير في صدر الآية راجع الى «ربك» في الآية السابقة. والظاهر على هذا أن اللام في اسم الجلالة للتلميح الى معنى الوصف، وقوله: «لا إله إلّا هو» تأكيد للحصر المستفاد من قوله: «هو الله» كأنه قيل: وهو الإله ـ المتصف وحده بالالوهية ـ لا إله إلّا هو.

وعلى ذلك فالآية كالمتمم لبيان الآية السابقة كأنه قيل: هو سبحانه مختار له أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده، وهو يعلم ظاهرهم وباطنهم فله أن يقضي عليهم أن يعبدوه وحده وهو الإله المستحق للعبادة وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده.

ويكون ما في ذيل الآية من قوله: «له الحمد» الخ؛ وجوهاً ثلاثة توجه كونه تعالى معبوداً مستحقاً للعبادة وحده.

أما قوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ فلأن كل كمال موجود في الدنيا والآخرة نعمة نازلة منه تعالى يستحق بها جميل الثناء، وكل جميل من هذه النعم الموهوبة مترشحة من كمال ذاتي من صفاته الذاتية يستحق بها الثناء فله كل الثناء ولا يستقل شيء غيره بشيء من الثناء يثنى عليه به إلّا وينتهي اليه والعبادة ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعبادة وحده.

وأما قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ فلأنه سبحانه هو المالك على الإطلاق لا يملك غيره إلّا ما ملّكه إياه وهو الملك لما ملّكه وهو سبحانه مالك في مرحلة التشريع والاعتبار كما أنه مالك في

مرحلة التكوين والحقيقة، ومن آثار ملكه أن يقضي على عبيده ومملوكيه أن لا يعبدوا إلّا إياه.

وأما قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فلأن الرجوع للحساب والجزاء وإذ كان هو المرجع فهو المحاسب المجازي وإذ كان هو المحاسب المجازي وحده فهو الذي يجب أن يعبد وحده وله دين يجب أن يتعبد به وحده.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ الى آخر الآية: السرمد على فعلل بمعنى الدائم. وقيل: هو من السرد والميم زائدة ومعناه المتتابع المطّرد. وتقييده بيوم القيامة إذ لا ليل بعد يوم القيامة.

وقوله: ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ أي من الاله الذي ينقض حكمه تعالى ويأتيكم بضياء تستضيئون به وتسعون في طلب المعاش، هذا ما يشهد به السياق، ويجري نظيره في قوله الآتي: «من إله يأتيكم بليل» الخ.

وتنكير «ضياء» يؤيد ما ذكر من الوجه، وقد أوردوا وجوهاً اخرى في ذلك لا تخلو من تعسف.

وقوله: ﴿أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ أي سمع تفهُّم وتفكُّر حتى تتفكروا فتفهموا أن لا إله غيره تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أي تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعي للمعاش.

وقوله: ﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أي إبصار تفهُّم وتذكُّر وإذ لم يبصروا ولم يسمعوا فهم عميٌ صمّ، ومن اللطيف تذييل الآيتين بقوله: «أفلا تسمعون» «أفلا تبصرون» ولعل آية النهار خص بالإبصار لمناسبة ضوء النهار الابصار وبقي السمع لآية الليل وهو لا يخلو من

مناسبة معه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الآية: بمنزلة نتيجة الحجة المذكورة في الآيتين السابقتين سيقت بعد إبطال دعوى الخصم في صورة الإخبار الابتدائي لثبوته من غير معارض.

وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ اللام للتعليل والضمير الليل، أي جعل لكم الليل لتستريحوا فيه، وقوله: «لتبتغوا من فضله» أي وجعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذي هو عطيّته فرجوع «لتسكنوا» و «لتبتغوا» الى الليل والنهار بطريق اللف والنشر المرتب، وقوله: «ولعلكم تشكرون» راجع اليهما جميعاً.

وقوله: «ومن رحمته جعل لكم» في معنى قولنا: جعل لكم ذلك رحمة منه وفيه إشارة الى أن التكوين كالسكون والابتغاء والتشريع وهو هدايتهم الى الشكر من آثار صفة رحمته تعالى فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقدم تفسيره وقد كرّرت الآية لحاجة مضمون الآية التالية اليها.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ الى آخر الآية: إشارة الى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة، والمراد بالشهيد شهيد الأعمال ـ كما تقدمت الإشارة اليه مراراً ـ ولا ظهور للآية في كونه هو النبي المبعوث الى الامة نظراً الى إفراد الشهيد وذكر الامة إذ الامة هي الجماعة من الناس ولا ظهور ولا نصوصية له في الجماعة الذين أُرسل اليهم نبي وإن كانت من مصاديقها.

وقوله: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي طالبناهم بالحجة القاطعة على ما زعموا أن لله شركاء.

وقوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي غاب عنهم زعمهم الباطل أن لله سبحانه شركاء فعلموا عند ذلك أن الحق في الالوهية لله وحده فالمراد بالضلال الغيبة على طريق الاستعارة. كذا فسروه. في الكلام تقديم وتأخير والأصل فضل عنهم ما كانوا يفترون فعلموا أن الحق لله.

وعلى هذا فقوله: «أن الحق لله» نظير ما يقال في القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا في حق يدعيه كل لنفسه: إن الحق لفلان لا لفلان كأنه تعالى يخاصم المشركين حيث يدّعون أن الالوهية بمعنى المعبودية حق لشركائهم فيدّعي تعالى أنه حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضلُّ عنهم البرهان فيعلمون عندئذ أن هذا الحق لله فالالوهية حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقاً لغيره تعالى فهو حق له.

ومن الممكن أن يكون «الحق» في قوله: «فعلموا أن الحق لله» مصدراً فيرجع معنى الجملة الى معنى قوله: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ (النور / ٢٥). فكون الحق لله هو كونه تعالى حقاً إن أُريد به الحق في ذاته أو كونه منتهياً اليه قائماً به إن أُريد به غيره. كما قال تعالى: ﴿الحق من ربك﴾ (آل عمران / ٦٠)، ولم يقل: الحق مع ربك.

٧٦ ❁ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ.

٧٧ ❁ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.

٧٨ ❁ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِنْ قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ
يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ.

٧٩ ❁ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ
الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ.

٨٠ ❁ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّيهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ.

٨١ ❁ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ
دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنْتَصِرِينَ.

٨٢ ❁ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ.

٨٣ ❁ تِلْكَ الدَّارُ ٱلآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي
ٱلأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

٨٤ ❁ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ
يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ

ٱلْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي ٱلْقُوَّةِ ﴾قال في المجمع: البغي طلب العتوّ بغير حق. قال: والمفاتح جمع مفتح والمفاتيح جمع مفتاح ومعناهما واحد وهو عبارة عما يفتح به الأغلاق. قال: وناء بحمله ينوء نوءاً إذا نهض به مع ثقله عليه. انتهى. وقال غيره: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله وهو الأوفق للآية.

وقال في المجمع أيضاً: العصبة الجماعة الملتف بعضها ببعض. وقال: واختلف في معنى العصبة فقيل: ما بين عشرة الى خمسة عشر عن مجاهد، وقيل: ما بين عشرة الى أربعين عن قتادة، وقيل: أربعون رجلاً عن أبي صالح[1]، وقيل: ما بين الثلاثة الى العشرة عن ابن عباس، وقيل: إنهم الجماعة يتعصب بعضهم لبعض. انتهى. ويزيّف غير القولين الأخيرين قول إخوة يوسف ﴿ونحن عصبة﴾ (يوسف / ٨)، وهم تسعة نفر.

والمعنى: إن قارون كان من بني إسرائيل فطلب العتوّ عليهم بغير حق وأعطيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتثقل الجماعة ذوي القوة، وذكر جمع من المفسرين أن المراد بالمفاتح الخزائن، وليس بذاك.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾فسّر الفرح بالبطر وهو لازم الفرح والسرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلو من تعلق شديد بالدنيا ينسي الآخرة ويورث البطر والأشر، ولذا قال تعالى: ﴿**ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور**﴾ (الحديد / ٢٣).

ولذا أيضاً علل النهي بقوله: «إن الله لا يحب الفرحين».

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَيكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ ﴾الى آخر الآية: أي واطلب فيما أعطاك الله من مال الدنيا تعمير الدار الآخرة بإنفاقه في سبيل الله ووضعه فيما فيه

---

١. وروى في الدر المنثور عن أبي صالح سبعين.

مرضاته تعالى.

وقوله: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي لا تترك ما قسم الله لك ورزقك من الدنيا ترك المنسي واعمل فيه لآخرتك لأن حقيقة نصيب الانسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الذي يبقى له.

وقوله: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أنفقه لغيرك إحساناً كما آتاكه الله إحساناً من غير أن تستحقه وتستوجبه. وهذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله: «ولا تنس نصيبك من الدنيا» على أول الوجهين السابقين ومتممة له على الوجه الثاني.

وقوله: ﴿وَلاَ تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا تطلب الفساد في الأرض بالاستعانة بما آتاك الله من مال وما اكتسبت به من جاه وحشمة إن الله لا يحب المفسدين لبناء الخلقة على الصلاح والإصلاح.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ الى آخر الآية؛ لا شك أن قوله: «إنما أُوتيته على علم عندي» جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه ونصحوه به وكان كلامهم مبنياً على أن ماله من الثروة إنما آتاه الله إحساناً اليه وفضلاً منه من غير استيجاب واستحقاق فيجب عليه أن يبتغي فيه الدار الآخرة ويحسن به الى الناس ولا يفسد في الأرض بالاستعلاء والاستكبار والبطر.

فأجاب بنفي كونه إنما أُوتيه إحساناً من غير استحقاق ودعوى أنه إنما أُوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال وتدبيره وليس عند غيره ذلك، وإذا كان ذلك باستحقاق فقد استقل بملكه وله أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء ويستدره في أنواع التنعم وبسط السلطة والعلو والبلوغ الى الآمال والأماني.

وفي قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ من غير إسناد الإيتاء الى الله سبحانه كما في قول الناصحين له «فيما آتاك الله» نوع إعراض عن ذكره تعالى وإزراء بساحة كبريائه.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ استفهام توبيخي وجواب عن قوله: «إنما أُوتيته على علم عندي» بأيسر ما يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذي اقتنى به المال وهو يبقيه له ويمتعه منه هو علمه الذي عنده وهو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، وكان ما له من القوة والجمع عن علم عنده على زعمه. وقد أهلكه الله بجرمه. فلو كان العلم الذي يغتر ويتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتع منه ولم يكن بإيتاء الله فضلاً وإحساناً لنجاهم من الهلاك ومتعهم من أموالهم ودافعوا بقوتهم وانتصروا بجمعهم.

وقوله: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ظاهر السياق أن المراد به بيان السنة الإلهية في تعذيب المجرمين وإهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إمهالهم والإصغاء الى ما لفقوه من المعاذير أو هيؤه من التذلل والإنابة ليرجو بذلك النجاة كما أن أُولي الطول والقوة من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثم العذاب، وربما صرف المجرم بما لفقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكن الله سبحانه لعلمه بحقيقة الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم وإنما يقضي عليهم قضاء فيأتيهم عذاب غير مردود.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الحظ هو النصيب من السعادة والبخت.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي يجعلونها الغاية المطلوبة في مساعيهم ليس لهم وراءها غاية فهم على جهل من الآخرة وما أعد الله لعباده فيها من الثواب قال تعالى: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ (النجم / ٣٠) ولذلك عدوا ما اوتيه قارون من المال سعادة عظيمة له من دون قيد وشرط.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ الخ: الويل الهلاك ويستعمل للدعاء بالهلاك وزجراً عما لا يرتضى، وهو في المقام زجراً عن التمني.

والقائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجهلة الذين تمنوا أن يؤتوا مثل ما أُوتي قارون وعدّوه سعادة عظيمة على الإطلاق، ومرادهم أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً مما أُوتي قارون فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنوه.

وقوله: ﴿وَلاَ يُلَقَّيٰهَا إِلاَّ الصَّابِرُون﴾ التلقية التفهيم والتلقي التفهم والأخذ، والضمير ـ على ما قالوا ـ للكلمة المفهومة من السياق، والمعنى: وما يفهم هذه الكلمة ـ وهي قولهم: ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ـ إلاّ الصابرون.

والصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد وعلى الطاعات وعن المعاصي، ووجه كونهم هم المتلقين لهذه الكلمة أو السيرة أو الطريقة أن التصديق بكون ثواب الآخرة خيراً من الحظ الدنيوي ـ وهو لا ينفك عن الايمان والعمل الصالح الملازمين لترك كثير من الأهواء والحرمان عن كثير من المشتهيات ـ لا يتحقق إلاّ ممن له صفة الصبر على مرارة مخالفة الطبع وعصيان النفس الأمّارة.

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ الى آخر الآية: الضميران لقارون والجملة متفرعة على بغيه.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ الفئة الجماعة يميل بعضهم الى بعض، وفي النصر والانتصار معنى المنع والامتناع، ومحصّل المعنى: فما كان له جماعة يمنعونه العذاب وما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظن أن الذي يجلب اليه الخير ويدفع عنه الشر هو قوّته وجمعه اللذان اكتسبهما بعلمه فلم يقه جمعه ولم تفده قوته من دونه الله وبان أن الله سبحانه هو الذي آتاه ما آتاه.

فالفاء في قوله: «فما كان» لتفريع الجملة على قوله: «فخسفنا به» الخ؛ أي فظهر بخسفنا به وبداره الأرض بطلان ما كان يدَّعيه لنفسه من الاستحقاق والاستغناء عن الله سبحانه وأن الذي يجلب اليه الخير ويدفع عنه الشر هو قوته وجمعه وقد اكتسبها بنبوغه العلمي.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ الخ؛ ذكروا أن «وي» كلمة تندّم وربما تستعمل للتعجب وكلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد وإن كان التندم أسبق الى الذهن.

وقوله: ﴿كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ اعتراف منهم ببطلان ما كان يزعمه قارون وهم يصدّقونه أن القوة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان في علمه وجودة تدبيره ولا بفضل من الله سبحانه بل سعة الرزق وضيقه بمشية من الله.

والمقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشك والتردد لكنهم إنما استعملوا في كلامهم «كأن» للدلالة على ابتداء ترددهم في قول قارون وقد قبلوه وصدَّقوه من قبل وهذه صنعة شائعة في الاستعمال.

والدليل على ذلك قولهم بعده: «لولا أن من الله علينا لخسف بنا» على طريق الجزم والتحقيق.

وقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ تندم منهم ثانياً وانتزاع مما كان لازم تمنيهم مكان قارون.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الآية؛ وما بعدها بمنزلة النتيجة المستخرجة من القصة.

وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الإشارة اليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها وبهائها

وعلو مكانتها وهو الشاهد على أن المراد بها الدار الآخرة السعيدة ولذا فسروها بالجنة.

وقوله: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً﴾ أي نخصها بهم وإرادة العلو هو الاستعلاء والاستكبار على عباد الله وإرادة الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى فإن الله بنى شرائعه التي هي تكاليف للإنسان على مقتضيات فطرته وخلقته ولا تقتضي فطرته إلّا ما يوافق النظام الأحسن الجاري في الحياة الإنسانية الأرضية فكل معصية تقضي الى فساد في الأرض بلا واسطة أو بواسطة، قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ (الروم / ٤١).

ومن هنا ظهر أن إرادة العلو من مصاديق إرادة الفساد وإنما أُفردت وخصّت بالذكر اعتناء بأمرها. ومحصّل المعنى: تلك الدار الآخرة السعيدة نخصها بالذين لا يريدون فساداً في الأرض بالعلو على عباد الله ولا بأي معصية اخرى.

والآية عامة يخصصها قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ (النساء / ٣١).

وقوله: ﴿وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العاقبة المحمودة الجميلة وهي الدار الآخرة السعيدة أو العاقبة السعيدة في الدنيا والآخرة لكن سياق الآيتين يؤيد الأول.

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي لأنها تتضاعف له بفضل من الله، قال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ (الأنعام / ١٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يزيدون على ما عملوا شيئاً وفيه كمال العدل، كما أن في جزاء الحسنة بخير منها كمال الفضل.

وكان مقتضى الظاهر في قوله: «فلا يجزى الذين عملوا» الخ: الاضمار ولعل في وضع الموصول موضع الضمير إشارة الى أن هذا الجزاء إنما هو لمن أكثر من اقتراف المعصية

وأحاطت به الخطيئة كما يفيده جمع السيئات، وقوله: «كانوا يعملون» الدال على الإصرار والاستمرار، وأما من جاء بالسيئة والحسنة فمن المرجو أن يغفر الله له كما قال: ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾ (التوبة / ١٠٢).

وليعلم أن الملاك في الحسنة والسيئة على الأثر الحاصل منها عند الإنسان وبهما تسمى الأعمال حسنة أو سيئة وعليها ـ لا على متن العمل الخارجي الذي هو نوع من الحركة ـ يثاب الانسان أو يعاقب، قال تعالى: ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ (البقرة / ٢٨٤)[١].

٨٥ ۞ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

٨٦ ۞ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ.

٨٧ ۞ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

٨٨ ۞ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

---

١. القصص ٧٦ ـ ٨٤: بحث روائي حول قصة موسى وقارون.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ الى آخر الآية؛ الفرض ـ على ما ذكره ـ بمعنى الايجاب فمعنى «فرض عليك القرآن» أي أوجب عليك العمل به أي بما فيه من الأحكام ففيه مجاز في النسبة.

وأحسن منه قول بعضهم: إن المعنى أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به وذلك لكونه أوفق لقوله: «لرادّك الى معاد» بما سيجيء من معناه.

وقوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ المعاد اسم مكان أو زمان من العود وقد اختلفت كلماتهم في تفسير هذا المعاد فقيل: هو مكة فالآية وعد له أن الله سيرده بعد هجرته الى مكة ثانياً. وقيل: هو الموت، وقيل: هو القيامة، وقيل: هو المحشر، وقيل: هو المقام المحمود وهو موقف الشفاعة الكبرى، وقيل: هو الجنة، وقيل: هو بيت المقدس، وهو في الحقيقة وعد بمعراج ثان يعود فيه الى بيت المقدس بعد ما كان دخله في المعراج الأول: وقيل: هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جل الأقوال السابقة أو كلها.

والذي يعطيه التدبر في سياق آيات السورة هو أن تكون الآية تصريحاً بما كانت القصة المسرودة في أول السورة تلوح اليه ثم الآيات التالية لما تؤيده.

فمعنى الآية؛ أن الذي فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس وتبلغه وتعملوا به سيردك ويصيرك الى محل تكون هذه الصيرورة منك اليه عوداً ويكون هو معاداً لك كما فرض التوراة على موسى ورفع به قدره وقدر قومه، ومن المعلوم أنه ﷺ كان بمكة على ما فيها من الشدة والفتنة ثم هاجر منها ثم عاد اليها فاتحاً مظفراً وثبتت قواعد دينه واستحكمت أركان ملته وكسرت الأصنام وانهدم بنيان الشرك والمؤمنون هم الوارثون للأرض بعدما كانوا أذلاء معذبين.

وفي تنكير قوله: «معاد» إشارة الى عظمة قدر هذا العود وأنه لا يقاس الى ما قبله من القطون بها والتاريخ يصدقه.

وقوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يؤيد ما قدمنا من المعنى فإنه يحاذي قول موسى عليه السلام ـ لما كذبوه ورموا آياته البينات بأنها سحر مفتري ـ «ربي أعلم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار» فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول للفراعنة من مشركي قومه لما كذبوه ورموه بالسحر ما قاله موسى لآل فرعون لما كذبوه ورموه بالسحر للتشابه التام بين مبعثيهما وسير دعوتهما كما يظهر من القصة ويظهر ذلك تمام الظهور بالتأمل في قوله تعالى: ﴿إنا أرسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ (المزمل / ١٥).

ولعل الاكتفاء بالشطر الأول من قول موسى عليه السلام والسكوت عن الشطر الثاني أعني قوله: «ومن تكون له عاقبة الدار» لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدى حد الإشارة والايماء كما يستشم من سياق قوله: «لرادّك الى معاد» أيضاً حيث خص الخطاب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ونكر معاداً.

وكيف كان فالمراد بقوله: «من جاء بالهدى» النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه وبقوله: «ومن هو في ضلال مبين» المشركون من قومه، واختلاف سياق الجملتين ـ حيث قيل في جانبه صلى الله عليه وآله وسلم «من جاء بالهدى» وفي جانبهم «من هو في ضلال مبين» فقوبل بين ضلالهم وبين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم واهتدائه ـ لكون تكذيبهم متوجهاً بالطبع الى ما جاء به لا الى نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ صدر الآية تقرير للوعد الذي في قوله: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك الى معاد» أي إنه سيردك الى معاد ـ وما كنت ترجوه كما ألقى اليك الكتاب وما كنت ترجوه ـ.

وقيل: تذكرة استينافية لنعمته تعالى عليه ﷺ وهذا وجه وجيه وتقريره أنه تعالى لما وعده بالرد الى معاد وفيه ارتفاع ذكره وتقدم دعوته وانبساط دينه خط له السبيل التي يجب عليه سلوكها بجهد ومراقبة فبيّن له أن القاء الكتاب اليه لم يكن على نهج الحوادث العادية التي من شأنها أن ترتجى وتترقب بل كانت رحمة خاصة من ربه وقد وعده في فرضه عليه ما وعده فمن الواجب عليه قبال هذه النعمة وفي تقدم دعوته وبلوغها الغاية التي وعدها أن لا ينصر الكافرين ولا يطيعهم ويدعو الى ربه ولا يكون من المشركين ولا يدعو معه إلهاً آخر.

وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ استثناء منقطع أي لكنه أُلقي اليك رحمة من ربك وليس بإلقاء عادي يرجى مثله.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ تفريع على قوله: «إلّا رحمة من ربك» أي فإذا كان إلقاؤه اليك رحمة من ربك خصّك بها وهو فوق رجائك فتبرأ من الكافرين ولا تكن معيناً وناصراً لهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ الى آخر الآية؛ نهي له ﷺ على الانصراف عن آيات الله بلسان نهي الكفار عن الصد والصرف ووجهه كون انصرافه مسبباً لصدهم وهو كقوله لآدم وزوجه: «فلا يخرجنّكما من الجنة» أي لا تخرجا منها بإخراجه لكما بالوسوسة.

والظاهر أن الآية وما بعدها في مقام الشرح لقوله: «فلا تكونن ظهيراً للكافرين» وفائدته تأكيد النهي بعدّ موارده واحداً بعد واحد فنهاه أولاً عن الانصراف عن القرآن النازل عليه برميهم كتاب الله بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين اكتتبها، وأمره ثانياً أن يدعو الى ربه، ونهاه ثالثاً أن يكون من المشركين وفسّره بأن يدعو مع الله إلهاً آخر.

وقد كرّر صفة الرب مضافاً اليه ﷺ للدلالة على اختصاصه بالرحمة والنعمة وأنه ﷺ متفرّد في عبادته لا يشاركه المشركون فيها.

قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ قد تقدم أنه كالتفسير لقوله: «ولا تكونن من المشركين».

قوله تعالى: ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ كلمة الاخلاص في مقام التعليل لقوله قبله: «ولا تدع مع الله إلهاً آخر» أي لأنه لا إله غيره وما بعدها في مقام التعليل بالنسبة اليها كما سيتضح.

وقوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ الشيء مساوٍ للموجود ويطلق على كل أمر موجود حتى عليه تعالى كما يدل عليه قوله: ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ﴾ (الأنعام / ١٩)، والهلاك البطلان والانعدام.

والوجه والجهة واحدة كالوعد والعدة، ووجه الشيء في العرف العام ما يستقبل به غيره ويرتبط به اليه كما أن وجه الجسم السطح الظاهر منه ووجه الانسان النصف المقدم من رأسه ووجهه تعالى ما يستقبل به غيره من خلقه ويتوجه اليه خلقه به وهو صفاته الكريمة من حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وما ينتهي اليها من صفات الفعل كالخلق والرزق والاحياء والاماتة والمغفرة والرحمة وكذا آياته الدالة عليه بما هي آياته.

فكل شيء هالك في نفسه باطل في ذاته لا حقيقة له إلاّ ما كان عنده مما أفاضه الله عليه وأما ما لا ينسب اليه تعالى فليس إلاّ ما اختلقه وهم المتوهم او سراباً صوّره الخيال وذلك كالأصنام ليس لها من الحقيقة إلاّ أنها حجارة او خشبة او شيء من الفلزات وأما أنها أرباب او آلهة او نافعة او ضارة او غير ذلك فليست إلاّ أسماء سماها عبدتهم وكالانسان ليس له من الحقيقة إلاّ ما أودعه فيه الخلقة من الروح والجسم وما اكتسبه من صفات الكمال والجميع منسوبة الى الله سبحانه وأما ما يضيفه اليه العقل الاجتماعي من قوة وسلطة ورئاسة ووجاهة وثروة وعزة وأولاد وأعضاد فليس إلاّ سراباً هالكاً وامنية كاذبة وعلى هذا السبيل سائر الموجودات.

فليس عندها من الحقيقة إلّا ما أفاض الله عليها بفضله وهي آياته الدالة على صفاته الكريمة من رحمة ورزق وفضل وإحسان وغير ذلك.

فالحقيقة الثابتة في الواقع التي ليست هالكة باطلة من الأشياء هي صفاته الكريمة وآياته الدالة عليها والجميع ثابتة بثبوت الذات المقدسة.

هذا على تقدير كون المراد بالهالك في الآية الهالك بالفعل وعلى هذا يكون محصل تعليل كلمة الإخلاص بقوله: «كل شيء هالك إلّا وجهه» أن الإله وهو المعبود بالحق إنما يكون إلهاً معبوداً إذا كان أمراً ذا حقيقة واقعية غير هالك ولا باطل له تدبير في العالم بهذا النعت وكل شيء غيره تعالى هالك باطل في نفسه إلّا ما كان وجهاً له منتسباً اليه فليس في الوجود إله غيره سبحانه.

والوثنيون وإن كانوا يرون وجود آلهتهم منسوباً اليه تعالى ومن جهته إلّا أنهم يجعلونها مستقلة في التدبير مقطوعة النسبة في ذلك عنه من دون أن يكون حكمها حكمه، ولذلك يعبدونها من دون الله، ولا استقلال لشيء في شيء عنه تعالى فلا يستحق العبادة إلّا هو.

وههنا وجه آخر أدق منه بناء على أن المراد بالوجه ذات الشيء فقد ذكر بعضهم ذلك من معاني الوجه كما يقال: وجه النهار ووجه الطريق لنفسهما وإن أمكنت المناقشة فيه، وذكر بعض آخر: أن المراد به الذات الشريفة كما يقال: وجوه الناس أي أشرافهم وهو من المجاز المرسل او الاستعارة وعلى كلا التقديرين فالمراد أن غيره تعالى من الموجودات ممكنة والممكن وإن كان موجوداً بإيجاده تعالى فهو معدوم بالنظر الى حد ذاته هالك في نفسه والذي لا سبيل للطبالن والهلاك اليه هو ذاته الواجبة بذاتها.

ومحصل التعليل على هذا المعنى: أن الإله المعبود بالحق يجب أن يكون ذاتاً بيده شيء من تدبير العالم. والتدبير الكوني لا ينفك عن الخلق والإيجاد فلا معنى لأن يوجد الحوادث شيء ويدبر أمرها شيء آخر ـ وقد أوضحناه مراراً في هذا الكتاب ـ ولا يكون الخلق الموجد إلّا

واجب الوجود ولا واجب إلّا هو تعالى فلا إله إلّا هو.

وقولهم: إنه تعالى أجلّ من أن يحيط به عقل او وهم فلا يمكن التوجه العبادي اليه فلابد أن يتوجه بالعبادة الى بعض مقرّبي حضرته من الملائكة الكرام وغيرهم ليكونوا شفعاء عنده.

مدفوع بمنع توقف التوجه بالعبادة على العلم الإحاطي بل يكفي فيه المعرفة بوجه وهو حاصل بالضرورة.

وأما على تقدير كون المراد بالهالك ما يستقبله الهلاك والفناء بناء على ما قيل: إن اسم الفاعل ظاهر في الاستقبال فظاهر الآية أن كل شيء سيستقبله الهلاك بعد وجوده إلّا وجهه. نعم استقبال الهلاك يختلف باختلاف الأشياء فاستقباله في الزمانيات انتهاء أمد وجودها وبطلانها بعده وفي غيرها كون وجودها محاطاً بالفناء من كل جانب.

وهلاك الأشياء على هذا بطلان وجودها الابتدائي وخلوّ النشأة الاولى عنها بانتقالها الى النشأة الاخرى ورجوعها الى الله واستقرارها عنده، وأما البطلان المطلق بعد الوجود فصريح كتاب الله ينفيه فالآيات متتابعة في أن كل شيء مرجعه الى الله وأنه المنتهى واليه الرُّجعى وهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده.

فمحصل معنى الآية ـ لو أُريد بالوجه صفاته الكريمة ـ أن كل شيء سيخلّي مكانه ويرجع اليه إلّا صفاته الكريمة التي هي مبادىء فيضه فهي تفيض ثم تفيض الى ما لا نهاية له والإله يجب أن يكون كذلك لا بطلان لذاته ولا انقطاع لصفاته الفيّاضة وليس شيء غيره تعالى بهذه الصفة فلا إله إلّا هو.

ولو أُريد بوجهه الذات المقدسة فالمحصّل أن كل شيء سيستقبله الهلاك والفناء بالرجوع الى الله سبحانه إلّا ذاته الحقة الثابتة التي لا سبيل للبطلان اليها ـ والصفات على هذا محسوبة من صقع الذات ـ والإله يجب أن يكون بحيث لا يتطرق الفناء اليه وليس شيء غيره بهذه الصفة فلا إله إلّا هو.

قال تعالى: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ (النحل / ٩٦)، وقال: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ (آل عمران / ١٩٨)، وقال: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد﴾ (الأنعام / ١٢٤)، ونظيرتها خزائن الرحمة كما قال: ﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه﴾ (الحجر / ٢١)، وكذا اللوح المحفوظ كما قال: ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ (ق / ٤).

وأما ما ذكروه من العرش فقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿إن ربكم الله﴾ الآية (الأعراف / ٥٤).

ويمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى التي تنسب اليه وهي الناحية التي يقصد منها ويتوجه اليه بها، وتؤيده كثرة استعمال الوجه في كلامه تعالى بهذا المعنى كقوله: ﴿يريدون وجهه﴾ (الأنعام / ٥٢)، وقوله: ﴿إلّا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ (الليل / ٢٠)، الى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً.

وعليه فتكون عبارة عن كل ما ينسب اليه وحده فإن كان الكلام على ظاهر عمومه انطبق على الوجه الأول الذي أوردناه ويكون من مصاديقه أسماؤه وصفاته وأنبياؤه وخلفاؤه ودينه الذي يؤتى منه.

وإن خصّ الوجه بالدين فحسب ـ كما وقع في بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق ـ كان المراد بالهلاك الفساد وعدم الأثر. وكانت الجملة تعليلاً لقوله: «ولا تدع مع الله إلهاً آخر» وكان ما قبلها قرينة على أن المراد بالشيء الدين والأعمال المتعلقة به وكان محصّل المعنى: ولا تتدين بغير دين التوحيد لأن كل دين باطل لا أثر له إلّا دينه.

والأنسب على هذا أن يكون الحكم في ذيل الآية بمعنى الحكم التشريعي أو الأعم منه ومن التكويني والمعنى: كل دين هالك إلّا دينه لأن تشريع الدين اليه واليه ترجعون لا الى مشرّعي

الأديان الاخر[1].

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الحكم هو قضاؤه النافذ في الأشياء وعليه يدور التدبير في نظام الكون، وأما كونه بمعنى فصل القضاء يوم القيامة فيبعده تقديم الحكم في الذكر على الرجوع اليه الذي هو يوم القيامة فإن فصل القضاء متفرع عليه.

وكلتا الجملتين مسوقتان للتعليل وكل واحدة منهما وحدها حجة تامة على توحيده تعالى بالالوهية صالحة للتعليل كلمة الإخلاص، وقد تقدم إمكان أخذ الحكم على بعض الوجوه بمعنى الحكم التشريعي.

---

١. القصص ٨٥ـ٨٨: نظرات المفسرين في معنى وجه الله.

سورة العنكبوت مكية وهي تسع وستون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● الٓمٓ.

٢ ● أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاٰ يُفْتَنُونَ.

٣ ● وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللّٰهُ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ.

٤ ● أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ.

٥ ● مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللّٰهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ.

٦ ● وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ ٱللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ.

٧ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ.

٨ ❁ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٩ ❁ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ.

١٠ ❁ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ.

١١ ❁ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ.

١٢ ❁ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

١٣ ❁ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

بيان:

يلوح من سياق آيات السورة وخاصة ما في صدرها من الآيات أن بعضاً ممن آمن بالنبي ﷺ بمكة قبل الهجرة رجع عنه خوفاً من فتنة كانت تهدّده من قِبل المشركين فإن المشركين كانوا يدعونهم الى العود الى ملّتهم ويضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم فإن أبوا فتنوهم وعذّبوهم ليعيدوهم الى ملّتهم.

يشير الى ذلك قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل

خطاياكم﴾ الآية؛ وقوله: **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾** الآية.

وكأن في هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهدة من والديه على أن يرجع وإلحاح منهما عليه في الإرتداد كبعض أبناء المشركين على ما يستشم من قوله تعالى: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها﴾** الآية؛ وقد نزلت السورة في شأن هؤلاء.

فغرض السورة على ما يستفاد من بدئها وختامها والسياق الجاري فيها أن الذي يريده الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم: آمنا بالله بل هو حقيقة الإيمان التي لا تحركها عواصف الفتن ولا تغيّرها غِيَر الزمن وهي إنما تتثبّت وتستقر بتوارد الفتن وتراكم المحن، فالناس غير متروكين بمجرد أن يقولوا: آمنا بالله دون أن يفتنوا ويمتحنوا فيظهر ما في نفوسهم من حقيقة الإيمان أو وصمة الكفر فليعلمن الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

فالفتنة والمحنة سنّة إلهية لا معدل عنها تجري في الناس الحاضرين كما جرت في الامم الماضين كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم ولوط وشعيب وموسى فاستقام منهم من استقام وهلك منهم من هلك وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فعلى من يقول: آمنت بالله أن يصبر على إيمانه ويعبد الله وحده فإن تعذّر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر الى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض الله واسعة ولا يخف عسر المعاش فإن الرزق على الله وكأيّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياه.

وأما المشركون الذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلّا أن يقولوا ربنا الله فلا يحسبوا أنهم يعزجون الله ويسبقونه فأما فتنتهم للمؤمنين وإيذاؤهم وتعذيبهم فإنما هي فتنة لهم وللمؤمنين غير خارجة عن علم الله وتقديره، فهي فتنة وهي محفوظة عليهم إن شاء أخذهم بوبالها في الدنيا وإن شاء أخّرهم الى يوم يرجعون فيه اليه وما لهم من محيص.

وأما ما لفّقوه من الحجة وركنوا اليه من باطل القول فهو داحض مردود اليهم والحجة قائمة تامة عليهم.

فهذا محصّل غرض السورة ومقتضى ذلك كون السورة كلها مكية، وقول القائل: إنها مدنية كلها أو معظمها أو بعضها ـ وسيجيء في البحث الروائي التالي ـ غير سديد، فمضامين آيات السورة لا تلائم إلّا زمن العسرة والشدة قبل الهجرة.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ الحسبان هو الظن، وجملة «أن يتركوا» قائمة مقام مفعوليه، وقوله: «أن يقولوا» بتقدير باء السببية، والفتنة الامتحان وربما تطلق على المصيبة والعذاب، والأوفق للسياق هو المعنى الأول، والاستفهام للإنكار.

والمعنى: أظن الناس أن يتركوا فلا يتعرض لحالهم ولا يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم في دعوى الإيمان بمجرد قولهم: آمنا؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ اللامان للقسم، وقوله: «ولقد فتنا الذين من قبلهم» حال من الناس في قوله: «أحسب الناس» أو من ضمير الجمع في قوله: «لا يفتنون» وعلى الأول فالإنكار والتوبيخ متوجه الى ظنهم أنهم لا يفتنون مع جريان السنة الإلهية على الفتنة والامتحان وعلى الثاني الى ظنهم الاختلاف في فعله تعالى حيث يفتن قوماً ولا يفتن آخرين، ولعل الوجه الأول أوفق للسياق.

فالظاهر أن المراد بقوله: «ولقد فتنا الذين من قبلهم» أن الفتنة والامتحان سنة جارية لنا وقد جرت في الذين من قبلهم وهي جارية فيهم ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ الخ: تعليل لما قبله، والمراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا بالكاذبين ظهور آثار صدقهم وكذبهم في مقام العمل بسبب الفتنة والامتحان

الملازم لثبوت الإيمان في قلوبهم حقيقة وعدم ثبوته فيها حقيقة فإن السعادة التي تترتب على الإيمان المدعو اليه وكذا الثواب إنما تترتب على حقيقة الإيمان الذي له آثار ظاهرة من الصبر عند المكاره والصبر على طاعة الله والصبر على معصية الله لا على دعوى الإيمان المجردة.

ويمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعلي الذي هو نفس الأمر الخارجي فإن الامور الخارجية بنفسها من مراتب علمه تعالى. وأما علمه تعالى الذاتي فلا يتوقف على الامتحان البتة.

والمعنى: أحسبوا أن يتركوا ولا يفتنوا بمجرد دعوى الإيمان وإظهاره والحال أن الفتنة سنتنا وقد جرت في الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء وآثار كذب أُولئك الملازم لاستقرار الإيمان في قلوب هؤلاء وزوال صورته الكاذبة عن قلوب أُولئك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أم منقطعة، والمراد بقوله: «الذين يعملون السيئات» المشركون الذين كانوا يفتنون المؤمنين ويصدونهم عن سبيل الله كما أن المراد بالناس في قوله: «أحسب الناس» هم الذين قالوا: آمنا وهم في معرض الرجوع عن الإيمان خوفاً من الفتنة والتعذيب.

والمراد بقوله: «أن يسبقونا» الغلبة والتعجيز بسبب فتنة المؤمنين وصدّهم عن سبيل الله ـ على ما يعطيه السياق.

وقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ تخطئة لظنهم أنهم يسبقون الله بما يمكرون من فتنة وصدّ فإن ذلك بعينه فتنة من الله لهم أنفسهم وصدّ لهم عن سبيل السعادة ولا يحيق المكر السيء إلّا بأهله.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

ٱلْعَلِيمُ ﴾ الى تمام ثلاث آيات. لما وبّخ سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الايمان ورجوعهم عنه بأي فتنة وإيذاء من المشركين ووبّخ المشركين على فتنتهم وإيذائهم المؤمنين وصدّهم عن سبيل الله إرادة لإطفاء نور الله وتعجيزاً له فيما شاء وخطّأ الفريقين فيما ظنوا.

رجع الى بيان الحق الذي لا معدل عنه والواجب الذي لا مخلص منه، فبيَّن في هذه الآيات الثلاث أن من يؤمن بالله لتوقّع الرجوع اليه ولقائه فليعلم أنه آتٍ لا محالة وأن الله سميع لأقواله عليم بأحواله وأعماله فليأخذ حذره وليؤمن حقَّ الايمان الذي لا يصرفه عنه فتنة ولا إيذاء وليجاهد في الله حق جهاده، وليعلم أن الذي ينتفع بجهاده هو نفسه ولا حاجة لله سبحانه الى إيمانه ولا الى غيره من العالمين وليعلم أنه إن آمن وعمل صالحاً فإن الله سيكفّر عنه سيئاته ويجزيه بأحسن أعماله. والعلمان الأخيران يؤكدان العلم الأول ويستوجبان لزومه الايمان وصبره على الفتن والمحن في جنب الله.

فقوله: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللَّهِ ﴾ رجوع الى بيان حال من يقول: آمنت فإنه إنما يؤمن لو صدق بعض الصدق لتوقعه الرجوع الى الله سبحانه يوم القيامة إذ لولا المعاد لغى الدين من أصله، فالمراد بقوله: «من كان يرجو لقاء الله» من كان يؤمن بالله أو من كان يقول: آمنت بالله، فالجملة من قبيل وضع السبب موضع المسبب.

والمراد بلقاء الله وقوف العبد موثقاً لا حجاب بينه وبين ربه كما هو الشأن يوم القيامة الذي هو ظرف ظهور الحقائق، قال تعالى: «ويعلمون أن الله هو الحق المبين».

وقوله: ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ﴾ الأجل هو الغاية التي ينتهي اليها زمان الدين ونحوه وقد يطلق على مجموع ذلك الزمان والغالب في استعماله هو المعنى الأول.

و «أجل الله» هو الغاية التي عيّنها الله تعالى للقائه، وهو آت لا ريب فيه وقد أكّد القول تأكيداً بالغاً، ولازم تحتم إتيان هذا الأجل وهو يوم القيامة أن لا يسامح في أمره ولا يستهان بأمر الايمان بالله حق الايمان والصبر عليه عند الفتن والمحن من غير رجوع وارتداد، وقد زاد

في تأكيد القول بتذييله بقوله: «وهو السميع العليم» إذ هو تعالى لما كان سميعاً لأقوالهم عليماً بأحوالهم فلا ينبغي أن يقول القائل: آمنت بالله إلّا عن ظهر القلب ومع الصبر على كل فتنة ومحنة.

ومن هنا يظهر أن ذيل الآية «فإن أجل الله لآت» الخ: من قبيل وضع السبب موضع المسبب كما كان صدرها «من كان يرجو لقاء الله» أيضاً كذلك، والأصل من قال: آمنت بالله. فليقله مستقيماً صابراً عليه مجاهداً في ربه.

وقوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ المجاهدة والجهاد مبالغة من الجهد بمعنى بذل الطاقة، وفيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم في الله بلزوم الإيمان والصبر على المكاره دونه ليست مما يعود نفعه الى الله سبحانه حتى لا يهمهم ويلغو بالنسبة اليهم أنفسهم بل إنما يعود نفعه اليهم أنفسهم لغناه تعالى على العالمين فعليهم أن يلزموا الإيمان ويصبروا على المكاره دونه.

فقوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ تأكيد لحجة الآية السابقة، وقوله: «إن الله لغني عن العالمين» تعليل لما قبله.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بيان لعاقبة إيمانهم حق الإيمان المقارن للجهاد ويتبين به أن نفع إيمانهم يعود اليهم لا الى الله سبحانه وأنه عطيّة من الله وفضل.

وعلى هذا فالآية لا تخلو من دلالة ما على أن الجهاد في الله هو الإيمان والعمل الصالح فإنها في معنى تبديل قوله في الآية السابقة: «ومن جاهد» من قوله في هذه الآية: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات».

وتكفير السيئات هو العفو عنها والأصل في معنى الكفر هو الستر، وقيل: تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيماناً ومعاصيهم السابقة طاعات، وليس بذاك.

وجزاؤهم بأحسن الذين كانوا يعملون هو رفع درجتهم الى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشة في أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءة وخِسّة فيعاملون في كل واحد من أعمالهم معاملة من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحتسب صلاتهم أحسن الصلاة وإن اشتملت على بعض جهات الرداءة وهكذا.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الخ؛ التوصية العهد وهو ههنا الأمر، وقوله: «حسناً» مصدر في معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف والتقدير: ووصّينا الإنسان بوالديه توصية حسنة أو ذات حسن أي أمرناه أن يحسن اليهما وهذا مثل قوله: «وقولوا للناس حسناً» أي قولاً حسناً أو ذا حسن، ويمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة نحو زيد عدل، وربما وجّه بتوجيهات أُخر.

وقوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ الخ؛ تتميم للتوصية بخطاب شفاهي للانسان بنهيه عن إطاعة والديه إن دعواه الى الشرك والوجه في ذلك أن التوصية في معنى الأمر فكأنه قيل: وقلنا للانسان أحسن الى والديك وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما.

ولم يقل: وأن لا يطيعهما إن جاهداه على أن يشرك الخ؛ لما في الخطاب من الصراحة وارتفاع الإبهام ولذلك قال أيضاً: «لتشرك بي» بضمير المتكلم وحده فافهمه ويؤل معنى الجملة الى أنّا نهيناه عن الشرك طاعة لهما ورفعنا عنه كل إيهام.

وفي قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ إشارة الى علة النهي عن الطاعة فإن دعوتهما الى الشرك بعبادة إله من دون الله دعوة الى الجهل وعبادة ما ليس له به علم افتراء على الله وقد نهى الله عن اتّباع غير العلم قال: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم﴾ (الإسراء / ٣٨)، وبهذه المناسبة ذيّلها بقوله: «إليَّ مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون» أي ساعلمكم ما معنى أعمالكم

ومنها عبادتكم الأصنام وشرككم بالله سبحانه .

ومعنى الآية : وعهدنا الى الإنسان في والديه عهداً حسناً ـ وأمرناه أن أحسن الى والديك ـ وإن بذلا جهدهما أن تشرك بي فلا تطعهما لأنه اتباع ما ليس لك به علم .

وفي الآية ـ كما تقدمت الاشارة اليه ـ توبيخ تعريضي لبعض ما كان قد آمن ثم رجع عن إيمانه بمجاهدة من والديه .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ معنى الآية ظاهر ، وفي وقوعها بعد الآية السابقة وفي سياقها ، دلالة على وعد جميل منه تعالى وتطييب نفس لمن ابتلي من المؤمنين بوالدين مشركين يجاهدانه على الشرك فعصاهما وفارقهما . يقول سبحانه : إن جاهداه على الشرك فعصاهما وهجرهما ففاتاه لم يكن بذلك بأس فإنّا سنرزقه خيراً منهما وندخله بإيمانه وعمله الصالح في الصالحين وهم العباد المنعَّمون في الجنة . قال تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ (الفجر / ٣٠) .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ الى آخر الآية : لما كان إيمان هؤلاء مقيداً بالعافية والسلامة مغيّى بالإيذاء والابتلاء لم يعدّه إيماناً بقول مطلق ولم يقل : ومن الناس من يؤمن بالله بل قال : « ومن الناس من يقول آمنا بالله » فالآية بوجه نظيرة قوله : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ﴾ (الحج / ١١) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ ﴾ أي أوذي لأجل الايمان بالله بناء على أن في للسببية كما قيل وفيه عناية كلامية لطيفة بجعله تعالى ـ أي جعل الايمان بالله ـ ظرفاً للإيذاء ولمن يقع عليه الإيذاء ليفيد أن الايذاء منتسب اليه تعالى انتساب المظروف الى ظرفه وينطبق على معنى السببية والفرضية ونظيره قوله : ﴿ يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله ﴾ (الزمر /

٥٦)، وقوله: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ (العنكبوت / ٦٩).

وقوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي نزل العذاب والإيذاء الذي يصيبه من الناس في وجوب التحرز منه منزلة عذاب الله الذي يجب أن يتحرز منه فرجع عن الإيمان الى الشرك خوفاً وجزعاً من فتنتهم مع أن عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاة أو موت ولا يقاس ذلك بعذاب الله العظيم المؤبد الذي يستتبع الهلاك الدائم.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي لئن أتاكم من قبله تعالى ما فيه فرج ويسر لكم من بعد ما أنتم فيه من الشدة والعسرة من قبل أعداء الله ليقولن هؤلاء إنا كنا معكم فلنا منه نصيب.

و «ليقولن» بضم اللام صيغة جمع، والضمير راجع الى «من» باعتبار المعنى كما أن ضمائر الإفراد الاخر راجعة اليها باعتبار اللفظ.

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ إستفهام إنكاري فيه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن الله أعلم بما في الصدور ولا تنطوي قلوب هؤلاء على إيمان.

والمراد بالعالمين الجماعات من الانسان أو الجماعات المختلفة من أُولي العقل إنساناً كان أو غيره كالجن والملك، ولو كان المراد به جميع المخلوقات من ذوي الشعور وغيرهم كان المراد بالصدور البواطن وهو بعيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ من تتمة الكلام في الآية السابقة والمحصل أن الله مع ذلك يميز بين المؤمنين والمنافقين بالفتنة والامتحان.

وفي الآية إشارة الى كون هؤلاء منافقين وذلك لكون إيمانهم مقيداً بعدم الفتنة وهم يظهرونه مطلقاً غير مقيد والفتنة سنة إلهية جارية لا معدل عنها.

وأما قوله تعالى: «ومن جاهد» الخ؛ فقد اتضح مما تقدم أن المراد به جهاد النفس دون

مقاتلة الكفار فالحق أن لا دلالة في شيء من الآيات على كون السورة أو بعضها مدنية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ المراد بالذين كفروا مشركوا مكة الذين أبدوا الكفر أول مرة بالدعوة الحقة. وبالذين آمنوا المؤمنون بها أول مرة وقولهم لهم: «اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم» نوع استمالة لهم وتطييب لنفوسهم أن لو رجعوا الى الشرك واتبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعة على أي حال: إذ لو لم تكن في ذلك خطيئة فهو، وإن كانت فهم حاملون لها عنهم، ولذلك لم يقولوا: ولنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد.

فكأنهم قالوا: لنفرض أن اتباعكم لسبيلنا خطيئة فإنا نحملها عنكم ونحمل كل ما يتفرع عليه من الخطايا أو إنا نحمل عنكم خطاياكم عامة ومن جملتها هذه الخطيئة.

وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ رد لقولهم: ولنحمل خطاياكم وهو رد محفوف بحجة إذ لو كان اتباعهم لسبيلهم ورجوعهم عن الإيمان بالله خطيئة كان خطيئة عند الله لاحقة بالراجعين وانتقالها عن عهدتهم الى غيرهم يحتاج الى إذن من الله ورضى فهو الذي يؤاخذهم به ويجازيهم وهو سبحانه يصرّح ويقول: «ما هم بحاملين من خطاياهم من شيء» وقد عمّم النفي لكل شيء من خطاياهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ تكذيب لهم لما أن قولهم: «ولنحمل خطاياكم» يشتمل على دعوى ضمني أن خطاياهم تنتقل اليهم لو احتملوها وأن الله يجيز لهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من تمام القول السابق في ردهم وهو في محل الاستدراك اي إنهم لا يحملون خطاياهم بعينها فهي لازمة لفاعليها لكنهم حاملون أثقالاً وأحمالاً من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافاً الى أثقال أنفسهم وأحمالها لما أنهم

ضالُّون مضلُّون.

فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلُّونهم بغير علم﴾ (النحل / ٢٥).

وقوله: «وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون» فشركهم افتراء على الله سبحانه وكذا دعواهم القدرة على إنجاز ما وعدوه وأن الله يجيز لهم ذلك[١].

١٤ ⁕ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ.

١٥ ⁕ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ.

١٦ ⁕ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

١٧ ⁕ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللَّهِ الرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

١٨ ⁕ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ.

١٩ ⁕ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ.

---

١. العنكبوت ١ـ١٣: بحث روائي حول الآية «احسب الناس ان يتركوا»: الفتنة: لقاء الله.

٢٠ ❁ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ
يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ ٱلآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٢١ ❁ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ.

٢٢ ❁ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٌ.

٢٣ ❁ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي
وَأُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٢٤ ❁ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجِيهُ
ٱللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٢٥ ❁ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي
ٱلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ
بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوٰيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

٢٦ ❁ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ.

٢٧ ❁ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ
وَٱلْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي ٱلآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ.

٢٨ ❁ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا
مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ.

٢٩ ● أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا ٱئْتِنا بِعَذابِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ.

٣٠ ● قالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ.

٣١ ● وَلَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ.

٣٢ ● قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ ٱلْغابِرِينَ.

٣٣ ● وَلَمّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ ٱلْغابِرِينَ.

٣٤ ● إِنّا مُنْزِلُونَ عَلىٰ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ.

٣٥ ● وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٣٦ ● وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

٣٧ ● فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ.

٣٨ ● وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ.

٣٩ ● وَقٰارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهٰامٰانَ وَلَقَدْ جٰاءَهُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمٰا كٰانُوا سٰابِقِينَ.

٤٠ ● فَكُلّاً أَخَذنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حٰاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنٰا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنٰا وَمٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلّاٰ خَمْسِينَ عٰاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفٰانُ وَهُمْ ظٰالِمُونَ﴾. في المجمع: الطوفان الماء الكثير الغامر لأنه يطوف بكثرته في نواحي الأرض، انتهى. وقيل: هو كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام والغالب استعماله في طوفان الماء.

والتعبير بألف سنة إلّا خمسين عاماً دون أن يقال: تسعمائة وخمسين سنة للتكثير والآية ظاهرة في أن الألف إلّا خمسين مدة دعوة نوح عليه السلام ما بين بعثته الى أخذ الطوفان فيغاير ما في التوراة الحاضرة أنها مدة عمره عليه السلام وقد تقدمت الإشارة الى ذلك في قصصه عليه السلام في تفسير سورة هود، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنٰاهُ وَأَصْحٰابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنٰاهٰا آيَةً لِلْعٰالَمِينَ﴾ أي فانجينا نوحاً وأصحاب السفينة الراكبين معه فيها وهم أهله وعدة قليلة من المؤمنين به ولم يكونوا ظالمين.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنٰاهٰا آيَةً لِلْعٰالَمِينَ﴾ الظاهر أن الضمير للواقعة أو للنجاة وأما رجوعه الى السفينة فلا يخلو من بعد، والعالمين الجماعات الكثيرة المختلفة من الأجيال

اللاحقة بهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ معطوف على قوله: «نوحاً» أي وأرسلنا إبراهيم الى قومه.

وقوله لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ دعوة الى التوحيد وإنذار بقرينة الآيات التالية فتفيد الجملة فائدة الحصر.

على أن الوثنية لا يعبدون الله سبحانه وإنما يعبدون غيره زعماً منهم أنه تعالى لا يمكن أن يعبد إلّا من طريق الأسباب الفعالة في العالم المقربة عنده كالملائكة والجن ولو عبد لكان معبوداً وحده من غير شريك فدعوتهم الى عبادة الله بقوله: «اعبدوا الله» تفيد الدعوة اليه وحده وإن لم تقيد بأداة الحصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ الى آخر الآية؛ الأوثان جمع وثن بفتحتين وهو الصنم، والإفك الأمر المصروف عن وجهه قولاً أو فعلاً.

وقوله: «إنما تعبدون من دون الله أوثاناً» بيان لبطلان عبادة الأوثان ويظهر به كون عبادة الله هي العبادة الحقة وبالجملة انحصار العبادة الحقة فيه تعالى «أوثاناً» منكّر للدلالة على وهن أمرها وكون أُلوهيتها دعوى مجرّدة لا حقيقة وراءها، أي لا تعبدون من دون الله إلّا أوثاناً من أمرها كذا وكذا.

ولذا عقّب الجملة بقوله: «وتخلقون إفكاً» أي وتفتعلون كذباً بتسميتها آلهة وعبادتها بعد ذلك فهناك إله تجب عبادته لكنه هو الله الواحد دون الأوثان.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ تعليل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسمية الأوثان آلهة وعبادتها ومحصّله أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله وهم الأوثان بما هم تماثيل المقرّبين من الملائكة والجن إنما تعبدونهم لجلب النفع وهو

أن يرضوا عنكم فيرزقوكم ويدرّوا عليكم الرزق لكنهم ليسوا يملكون لكم رزقاً فإن الله هو الذي يملك رزقكم الذي هو السبب الممدّ لبقائكم لأنه الذي خلقكم وخلق رزقكم فجعله ممداً لبقائكم والملك تابع للخلق والإيجاد.

ولذلك عقّبه بقوله: «فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له» أي فاطلبوا الرزق من عند الله لأنه هو الذي يملكه فلا تعبدوهم بل اعبدوا الله واشكروا له على ما رزقكم وأنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في مقام التعليل لقوله: «واعبدوه واشكروا له» ولذا جيء بالفصل من غير عطف. وفي هذا التعليل صرفهم عن عبادة الإله ابتغاء للرزق الى عبادته للرجوع والحساب إذ لولا المعاد لم يكن لعبادة الإله سبب محصّل لأن الرزق وما يجري مجراه له أسباب خاصة كونية غير العبادات والقربات ولا يزيد ولا ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادة يوم الحساب تختلف بالإيمان والكفر والعبادة والشكر وخلافهما فليكن الرجوع الى الله هو الباعث الى العبادة والشكر دون ابتغاء الرزق.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهر أنه من تمام كلام إبراهيم عليه السلام، وذكر بعضهم أنه خطاب منه تعالى لمشركي قريش ولا يخلو من بعد.

ومعنى الشرط والجزاء في صدر الآية أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنه كالسنّة الجارية في الامم المشركة وقد كذب من قبلكم وأنتم منهم وفي آخرهم وليس عليّ بما أنا رسول إلّا البلاغ المبين.

ويمكن أن يكون المراد أن حالكم في تكذيبكم كحال الامم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيئاً حلّ بهم عذاب الله ولم يكونوا بمعجزين في الأرض ولا في السماء ولم يكن لهم من دون الله من ولي ولا نصير. فكذلكم أنتم. وقوله: «وما على الرسول» يناسب الوجهين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هذه الآية الى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعة في خلال القصة تقيم الحجة على المعاد وترفع استبعادهم له متعلقة بما تقدم من حيث إن العمدة في تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير اليه قول إبراهيم «اليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذَّب أُمم من قبلكم».

فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الخ: الضمير فيه للمكذبين من جميع الامم من سابق ولاحق والمراد بالرؤية النظر العلمي دون الرؤية البصرية، وقوله: «كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده» في موضع المفعول لقوله: «يروا» بعطف «يعيده» على موضع «يبدىء» خلافاً لمن يرى عطفه على «أولم يروا» والاستفهام للتوبيخ.

والمعنى: أولم يعلموا كيفية الابداء ثم الإعادة أي إنهما من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن، وقوله: «إن ذلك على الله يسير» الإشارة فيه الى الإعادة بعد الإبداء وفيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد إنشاء وإذ كانت القدرة المطلقة تتعلق بالايجاد فهي جائزة التعلق بالانشاء بعد الانشاء، وهي في الحقيقة نقل للخلق من دار الى دار وإنزال للسائرين اليه في دار القرار.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية الى تمام ثلاث آيات أمر النبي ﷺ أن يخاطبهم بما يتم به الحجة عليهم فيرشدهم الى السير في الأرض لينظروا الى كيفية بدء الخلق وإنشائهم على اختلاف طبائعهم وتفاوت ألوانهم وأشكالهم من غير مثال سابق وحصر أو تحديد في عدتهم وعدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد في القدرة الإلهية فهو ينشيء النشأة الآخرة كما أنشأ النشأة الاولى فالآية في معنى قوله: ﴿ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون﴾ (الواقعة / ٦٢).

قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ من مقول

القول، والظاهر أنه بيان لقوله: «ينشيء النشأة الآخرة» وقلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه وجعل باطنه ظاهره وهذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ (الطارق / ٩).

وفسروا القلب بالرد قال في المجمع: والقلب هو الرجوع والرد فمعناه أنكم تردّون الى حال الحياة في الآخرة حيث لا يملك فيه النفع والضر إلّا الله. انتهى وهذا معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع الى الله والرد اليه وهو وقوفهم متوقفاً تنقطع فيه عنهم الأسباب ولا يحكم فيه إلّا الله سبحانه فالآية في معنى قوله: ﴿وردّوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ (يونس / ٣٠).

ومحصل المعنى: أن النشأة الآخرة هي نشأة يعذب الله فيها من يشاء وهم المجرمون ويرحم من يشاء وهم غيرهم واليه تردّون فلا يحكم فيكم غيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٌ﴾ من مقول القول وتوصيف لشأنهم يوم القيامة كما أن الآية السابقة توصيف لشأنه تعالى يومئذ.

فقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي إنكم لا تقدرون أن تعجزوه تعالى يومئذ بالفوت منه والخروج من حكمه وسلطانه بالفرار والخروج من ملكه والنفوذ من أقطار الأرض والسماء، فالآية تجري مجرى قوله: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا﴾ (الرحمن / ٣٣).

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٌ﴾ أي ليس لكم اليوم ولي من دون الله يتولى أمركم فيغنيكم من الله ولا نصير ينصركم فيقوي جانبكم ويتمم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه.

فالآية ـ كما ترى ـ تنفي ظهورهم على الله وتعجيزهم له بالخروج والامتناع عن حكمه

بأقسامه فلا هم يستقلون بذلك وهو قوله: «وما أنتم بمعجزين» الخ؛ ولا غيرهم يستقل بذلك وهو قوله: «وما لك من دون الله من ولي» ولا المجموع منهم ومن غيرهم يعجزه تعالى وهو قوله: «ولا نصير».

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خطاب مصروف الى النبي ﷺ خارج من مقول القول السابق «قل سيروا في الأرض» الخ؛ والمطلوب فيه أن ينبئه ﷺ صريح الحق فيمن يشقى ويهلك يوم القيامة فإنه أبهم ذلك في قوله أولاً: «يعذب من يشاء ويرحم من يشاء».

ومن الدليل عليه الخطاب في «اولئك» مرتين ولو كان من كلام النبي ﷺ لقيل: «اولئكم».

ويؤيد ذلك أيضاً قوله: «من رحمتي» فإن الانتقال من مثل قولنا: اولئك يئسوا من رحمة الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام الى قوله: «اولئك يئسوا من رحمتي» يفيد التصديق والاعتراف مضافاً الى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب، ويؤيد ذلك أيضاً تكرار الاشارة وما في السياق من التأكيد.

وكان في تخصيص النبي ﷺ بهذا الاخبار تقوية لنفسه الشريفة وعزلاً لهم عن صلاحية السمع لمثله وهم لا يؤمنون.

والمراد بآيات الله ـ على ما يفيده إطلاق اللفظ ـ جميع الأدلة الدالة على الوحدانية والنبوة والمعاد من الآيات الكونية والمعجزات النبوية ومنها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء وهو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام والوجه فيه الاشارة الى أهمية الايمان بالمعاد إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله وهو ظاهر.

والمراد بالرحمة ما يقابل العذاب ويلازم الجنة وقد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الرحمة

عليها بالملازمة كقوله: ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ﴾ (الجاثية / ٣٠)، وقوله: ﴿ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدَّ لهم عذاباً أليماً ﴾ (الانسان / ٣١).

والمراد بإسناد اليأس اليهم إما تلبسهم به حقيقة فإنهم لجحدهم الحياة الآخرة آيسون من السعادة المؤبدة والجنة الخالدة وإما إنه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أن الجنة لا يدخلها كافر.

والمعنى: والذين جحدوا آيات الله الدالة على الدين الحق وخاصة المعاد اولئك يئسوا من الرحمة والجنة واولئك لهم عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَيهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ الخ: تفريع على قوله في صدر القصة: ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ﴾.

وظاهر قوله: ﴿ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ أن كلا من طرفي الترديد قول طائفة منهم والمراد بالقتل القتل بالسيف ونحوه فهو قولهم أول ما ائتمروا ليجازوه وإن اتفقوا بعد ذلك على إحراقه كما قال: ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ﴾ (الأنبياء / ٦٨). ويمكن أن يكون الترديد من الجميع لترددهم في أمره أولا ثم اتفاقهم على إحراقه.

وقوله: ﴿ فَأَنْجَيهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ فيه حذف وإيجاز وتقديره ثم اتفقوا على إحراقه فأضرموا ناراً فألقوه فيها فأنجاه الله منها. وقد فصّلت القصة في مواضع من كلامه تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ الى آخر الآية إذ كان لا حجة عقلية لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم مما يستنون به إلّا الاستنان بسنة من يعظمونه ويحترمون جانبه كالآباء للأبناء والرؤساء المعظمين لأتباعهم والأصدقاء لأصدقائهم وبالأخرة الامة لأفرادها فهذا السبب الرابط هو

عمدة ما يحفظ السنن القومية معمولاً بها قائمة على ساقها.

فالاستنان بسنة الوثنية بالحقيقة من آثار المودات الاجتماعية يرى العامة ذلك بعضهم من بعض فتبعثه المودة القومية على تقليده والاستنان به مثله ثم هذا الاستنان نفسه يحفظ المودة القومية ويقيم الاتحاد والإتفاق على ساقه.

هذه حال العامة منهم وأما الخاصة فربما ركنوا في ذلك الى ما يحسبونه حجة وما هو بحجة كقولهم: إن الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا يتعلق به توجهنا العبادي فمن الواجب أن نتقرب الى بعض من له به عناية كالملائكة والجن ليقربونا اليه زلفى ويشفعوا لنا عنده.

فقوله: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ خطاب منه عليه السلام لعامة قومه في أمر اتخاذهم الأوثان للمودة القومية ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعية. وقد أجابوه بذلك حيث سألهم عن شأنهم ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. وقالوا وجدنا آبائنا لها عابدين﴾ (الأنبياء / ٥٣). ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ (الشعراء / ٧٤).

ثم عقّب عليه السلام بقوله: «إنما اتخذتم» الخ؛ بقوله: «ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً» يبيّن لهم عاقبة اتخاذهم الأوثان للمودة وهو باطن هذه المودة المقصودة التي سيظهر يوم تبلى السرائر فإنهم توسلوا الى هذا المتاع القليل بالشرك الذي هو أعظم الظلم وأكبر الكبائر الموبقة واجتمعوا عليه وتوافقوا لكنهم سيبدو لهم حقيقة عملهم ويلحق بهم وباله فيتبرأ بعضهم من بعض وينكره بعضهم على بعض.

والمراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم وتبرّيهم منهم، كما قال تعالى: ﴿سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ (مريم / ٨٢)، وقال: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾

(فاطر / ١٤)، وفي معناه: تبرّي المتبوعين من تابعيهم، كما قال تعالى: ﴿إذ تبرّء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ (البقرة / ١٦٦)، والمراد بلعن بعضهم بعضاً لعن كل بعض صاحبه. قال تعالى: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ (الأعراف / ٣٨).

ثم عقّب ذلك بقوله: «ومأواكم النار وما لكم من ناصرين» إشارة الى لحوق الوبال ووقوع الجزاء وهو النار التي فيها الهلاك المؤبد ولا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم العذاب فهم إنما توسلوا الى المودة ليتناصروا ويتعاونوا ويتعاضدوا في الحياة لكنها عادت يوم القيامة معاداة ومضادة وأورثت تبرّياً وخذلاناً.

قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي آمن به لوط والإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء والمعنى واحد.

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ قيل الضمير راجع الى لوط، وقيل: راجع الى إبراهيم ويؤيده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ (الصافات / ٩٩).

وكان المراد بالمهاجرة الى الله هجره وطنه وخروجه من بين قومه المشركين الى أرض لا يعترضه فيها المشركون ولا يمنعونه من عبادة ربه فعدّ المهاجرة مهاجرة الى الله من المجاز العقلي.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم﴾ أي عزيز لا يذل من نصره حكيم لا يضيع من حفظه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الأجر هو الجزاء الذي يقابل العمل ويعود الى عامله والفرق بينه وبين الاجرة أن الاجرة

تختص بالجزاء الدنيوي والأجر يعم الدنيا والآخرة. والفرق بينه وبين الجـزاء أن الأجـر لا يقال إلّا في الخير والنافع. والجزاء يعمُّ الخير والشر والنافع والضار.

والغالب في كلامه تعالىٰ استعمال لفظ الأجر في جـزاء العـمل العـبودي الذي أعـدَّه الله سبحانه لعباده المؤمنين في الآخرة من مقامات القرب ودرجات الولاية ومنها الجنة. نعم وقع في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿إنه من يتَّقِ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ (يوسف / ٩٠). وقوله: ﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّء منها حيث يشاء نـصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ (يوسف / ٥٦) إطلاق الأجر على الجزاء الدنيوي الحسن.

فقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجـر الدنـيوي الحسن والأنسب على هذا أن يكون «في الدنيا» متعلقاً بالأجر لا بالإيتاء وربما تأيّـد هـذا المعنى بقوله تعالى فيه عليه السلام في موضع آخر: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة وإنـه في الآخـرة لمـن الصالحين﴾ (النحل / ١٢٢). فإن الظاهر أن المراد بالحسنة الحياة الحسنة أو العيشة الحسنة وإيتاؤها فعلية إعطائها دون تقديرها وكتابتها.

ويمكن أن يكون المراد به تقديم ما أُعد لعامة المؤمنين في الآخرة من مـقامات القـرب في حقه عليه السلام وإيتائه ذلك في الدنيا وقد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم من مقاماته عليه السلام في قصصه من تفسير سورة الأنعام.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تقدم الكلام فـيه في تـفسير قـوله تعالى: ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ (البقرة / ١٣٠) في الجـزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي وأرسلنا لوطاً أو واذكر لوطاً إذ قال لقومه. وقوله: «إنكم لتأتون

الفاحشة» إخبار بداعي الاستعجاب والإنكار، والمراد بالفاحشة إتيان الذكران.

وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استئناف يوضح معنى الفاحشة ويؤكده، وكأن المراد أن هذا العمل لم يشع في قوم قبلهم هذا الشيوع أو الجملة حال من فاعل «لتأتون».

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ الى آخر الآية: استفهام من أمر من الحري أن لا يصدقه سامع ولا يقبله ذو لب ولذا أُكّد بالنون واللام، وهذا السياق يشهد أن المراد بإتيان الرجل اللواط وبقطع السبيل إهمال طريق التناسل وإلغاؤها وهي إتيان النساء، فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء وترك نكاحهن، وبإتيانهم المنكر في ناديهم ـ والنادي هو المجلس الذي يجتمعون فيه ولا يسمى نادياً إلّا إذا كان فيه أهله ـ الإتيان بالفحشاء أو بمقدّماتها الشنيعة بمرأى من الجماعة.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استهزاء وسخرية منهم، ويظهر من جوابهم أنه كان ينذرهم بعذاب الله وقد قال الله في قصته في موضع آخر: ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر﴾ (القمر / ٣٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ سؤال للفتح ودعاء منه عليهم، وقد عدّهم مفسدين لعملهم الذي يفسد الأرض ويقطع النسل ويهدد الإنسانية بالفناء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ إجمال قصة هلاك قوم لوط، وقد كان ذلك برسل من الملائكة أرسلهم الله أولاً الى إبراهيم عليه السلام فبشّروه وبشّروا امرأته بإسحاق ويعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط، والقصة مفصّلة في سورة هود وغيرها.

وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي قالوا لإبراهيم، وفي الإتيان بلفظ الإشارة القريبة ـ هذه القرية ـ دلالة على قربها من الأرض التي كان إبراهيم ﷺ نازلاً بها، وهي الأرض المقدسة.

وقوله: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم بأنهم ظالمون قد استقرت فيهم رذيلة الظلم، وقد كان مقتضى الظاهر أن يقال: إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمر للإشارة الى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاك وليس من مطلق الظلم الذي كان الناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل: إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ظاهر السياق أنه ﷺ كان يريد بقوله: «إن فيها لوطاً» أن يصرف العذاب أن فيها لوطاً وإهلاك أهلها يشمله فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشمله العذاب وهم أهله إلّا امرأته.

لكنه ﷺ لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطاً وهو نبي مرسل، وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته ولا أنه يخوّفه ويزعزه ويفزعه بقهره عليهم بل كان ﷺ يريد بقوله: «إن فيها لوطاً» أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط، فاجيب بأنهم مأمورون بإنجائه وإخراجه من بين أهل القرية ومعه أهله إلّا امرأته كانت من الغابرين.

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصة: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ (هود / ٧٦)، فالآيات أظهر ما يكون في أن إبراهيم ﷺ كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه.

فظاهر كلامه ﷺ في الآية التي نحن فيها الدفاع عن لوط وعلى ذلك جاراه الرسل فأبقوا

كلامه على ظاهره وأجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم بمن فيها وعالمون بأن فيها لوطاً ومعه أهله ممن لا ينبغي أن يعذب لكنهم سينجّونه وأهله إلّا امرأته. لكن الذي أراده إبراهيم عليه السلام بكلامه دفع العذاب عن أهل القرية فاجيب بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير اليه آيات سورة هود.

وللقوم في قوله: «إن أهلها كانوا ظالمين» وقوله: «قال إن فيها لوطاً» مشاجرات طويلة أعرضنا عن التعرض لها لعدم الجدوى. ومن أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ﴾ الى آخر الآية: ضمير الجمع في «سيء بهم وضاق بهم» للرسل والباء للسببية أي أخذته المساءة وهي سوء الحال بسببهم وضاقت طاقته بسببهم لكونهم في صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إياهم بالسوء وضعف لوط من أن يدفعهم عنهم وهم ضيف له نازلون بداره.

وقوله: ﴿وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ﴾ أي لا خطر محتملاً يهددك ولا مقطوعاً يقع عليك فإن الخوف إنما هو في المكروه الممكن والحزن في المكروه الواقع.

وقوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين في العذاب تعليل لنفي الخوف والحزن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بيان لما يشير اليه قوله: «إنا منجُّوك وأهلك» من العذاب. والرجز العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ضمير التأنيث للقرية والترك الإبقاء أي أبقينا من القرية علامة واضحة لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتقوا الله وهي الآثار الباقية منها بعد خرابها بنزول العذاب.

وهي اليوم مجهولة المحل لا أثر منها وربما يقال: إن الماء غمرها بعد وهي بحر لوط. لكن

الآية ظاهرة ـ كما ترى ـ أنها كانت ظاهرة معروفة في زمن نزول القرآن وأوضح منها قوله تعالى: ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ (الحجر / ٧٦)، وقوله: ﴿ وإنكم لتمرُّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ (الصافات / ١٣٨).

قوله تعالى: ﴿ وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يدعوهم الى عبادة الله وهو التوحيد والى رجاء اليوم الآخر وهو الاعتقاد بالمعاد وأن لا يفسدوا في الأرض وكانت عمدة إفسادهم فيها ـ على ما ذكر في قصتهم في مواضع أُخر ـ نقص الميزان والمكيال.

قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ ﴾ الرجفة الاضطراب الشديد على ما ذكره الراغب، والجثم والجثوم في المكان القعود فيه أو البروك على الأرض وهو كناية عن الموت والمعنى: فكذبوا شعيباً فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم ميتين لا حراك بهم.

وقال في قصتهم في موضع آخر: ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ (هود / ٩٤). ويستظهر من ذلك أنهم أُهلكوا بالصيحة والرجفة.

قوله تعالى: ﴿ وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ ﴾ الى آخر الآية غير السياق تفننا فبدأ بذكر عاد وثمود وكذا في الآية التالية بدأ بذكر قارون وفرعون وهامان بخلاف قصص الامم المذكورين سابقاً حيث بدأ بذكر أنبيائهم كنوح وإبراهيم ولوط وشعيب.

وقوله: «وعاداً وثمود» منصوبان بفعل مقدَّر تقديره واذكر عاداً وثمود.

وقوله: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ تزيين الشيطان لهم أعمالهم كناية استعارية عن تحبيب أعمالهم السيئة اليهم وتأكيد تعلقهم بها وصده إياهم عن السبيل صرفهم عن سبيل الله التي هي سبيل الفطرة، ولذا قال بعضهم: إن المراد بكونهم مستبصرين أنهم كانوا قبل ذلك على الفطرة

الساذجة.

لكن الظاهر كما تقدم في تفسير قوله: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين﴾ (البقرة / ٢١٣) أن عهد الفطرة الساذجة كان قبل بعثة نوح ﷺ وعاد وثمود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل عن كونهم يعيشون على عبادة الله ودين التوحيد وهو دين الفطرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ السبق استعارة كنائية من الغلبة، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ الى آخر الآية؛ أي كل واحدة من الامم المذكورين أخذناها بذنبها ثم أخذ في التفصيل فقال: «فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً» والحاصب الحجارة وقيل: الريح التي ترمي بالحصا وعلى الأول فهم قوم لوط، وعلى الثاني قوم عاد «ومنهم من أخذته الصيحة» وهم قوم ثمود وقوم شعيب «ومنهم من خسفنا به الأرض» وهو قارون «ومنهم من أغرقنا» وهم قوم نوح وفرعون وهامان وقومهما.

ثم عاد سبحانه الى كافة القصص المذكورة وما انتهى اليه أمر تلك الامم من الأخذ والعذاب فبين ببيان عام أن الذي أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال: «وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» أي فيجازيهم الله على ظلمهم لأن الدار دار الفتنة والامتحان وهي السنة الالهية التي لا معدل عنها فمن أهتدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضلَّ فعليها[1].

---

١. العنكبوت ١٤ ـ ٤٠: بحث روائي في البراءة: اهلاك قوم لوط.

٤١ ● مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ.

٤٢ ● إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ.

٤٣ ● وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ.

٤٤ ● خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ.

٤٥ ● أُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ إِنَّ الصَّلٰوةَ
تَنْهٰى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تَصْنَعُونَ.

٤٦ ● وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنَا
وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

٤٧ ● وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
الْكَافِرُونَ.

٤٨ ● وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً

لَارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ.

٤٩ ❁ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلظَّالِمُونَ.

٥٠ ❁ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ.

٥١ ❁ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٥٢ ❁ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ.

٥٣ ❁ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

٥٤ ❁ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَافِرِينَ.

٥٥ ❁ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ الى آخر الآية: العنكبوت معروف ويطلق على الواحد والجمع ويذكر

ويؤنث.

العناية في قوله: «مثل الذين اتخذوا» الخ؛ باتخاذ الأولياء من دون الله ولذا جيء بالموصول والصلة كما أن العناية في قوله: «كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً» الى اتخاذها البيت فيؤل المعنى أن صفة المشركين في اتخاذهم من دون الله أولياء كصفة العنكبوت في اتخاذها بيتاً له نبأ، وهو الوصف الذي يدل عليه تنكير «بيتاً».

ويكون قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ بياناً لصفة البيت الذي أخذته العنكبوت ولم يقل: إن أوهن البيوت لبيتها كما هو مقتضى الظاهر أخذاً للجملة بمنزلة المثل السائر الذي لا يتغير.

والمعني: أن اتخاذهم من دون الله أولياء وهم آلهتهم الذين يتولونهم ويركنون اليهم كاتخاذ النعكبوت بيتاً هو أوهن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلّا اسمه لا يدفع حرّاً ولا برداً ولا يكنُّ شخصاً ولا يقي من مكروه كذلك ليس لولاية أوليائهم إلّا الاسم فقط لا ينفعون ولا يضرُّون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

ومورد المثل هو اتخاذ المشركين آلهة من دون الله، فتبديل الآلهة من الأولياء لكون السبب الداعي لهم الى اتخاذ الآلهة زعمهم أن لهم ولاية لأمرهم وتدبيراً لشأنهم من جلب الخير اليهم ودفع الشر عنهم والشفاعة في حقهم.

والآية ـ مضافاً الى إيفاء هذه النكتة ـ تشمل بإطلاقها كل من اتخذ في أمر من الامور وشأن من الشؤن ولياً من دون الله يركن اليه ويراه مستقلاً في أثره الذي يرجوه منه وإن لم يعدّ من الأصنام إلّا أن يرجع ولايته الى ولاية الله كولاية الرسول والأئمة والمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾ (يوسف / ١٠٦).

وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت ما اتخذوهم أولياء. كذا قيل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يمكن أن يكون «ما» في «ما يدعون» موصولة أو نافية أو استفهامية أو مصدرية و«من» في «من شيء» على الاحتمال الثاني زائدة للتأكيد وعلى الباقي للتبيين وأرجح الإحتمالات الأولان وأرجحهما أولها.

والمعنى: على الثاني أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئاً أي أن الذي يعبدونه من الآلهة لا حقيقة له فيكون كما قال صاحب الكشاف توكيداً للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً.

والمعنى: على الأول أن الله يعلم الشيء الذي يدعون من دونه ولا يجهل ذلك فيكون كناية عن أن المثل الذي ضربه في محله. وليس لأوليائهم من الولاية إلّا اسمها.

ويؤكد هذا المعنى الإسمان الكريمان: العزيز الحكيم في آخر الآية فهو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء فلا يشاركه في تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه في الخلق والإيجاد أحد، الحكيم الذي يأتي بالمتقن من الفعل والتدبير فلا يفوّض تدبير خلقه الى أحد. وهذا كالتمهيد لما سيبيّن في قوله: «خلق الله السماوات والأرض بالحق».

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ﴾ يشير الى أن الأمثال المضروبة في القرآن على أنها عامة تقرع أسماع عامة الناس. لكن الإشراف على حقيقة معانيها ولبّ مقاصدها خاصة لأهل العلم ممن يعقل حقائق الامور ولا ينجمد على ظواهرها.

والدليل على هذا المعنى قوله: «ولا يعقلها» دون أن يقول: وما يؤمن بها أو ما في معناه.

فالأمثال المضروبة في كلامه تعالى يختلف الناس في تلقّيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظّ له منها إلّا تلقّي ألفاظها وتصوّر مفاهيمها الساذجة من غير تعمق فيها وسبر لأغوارها، ومن سامع يتلقى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يغور في مقاصدها العميقة ويعقل حقائقها

الأنيقة.

وفيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون الله باتخاذ العنكبوت بيتاً هو أوهن البيوت ليس مجرد تمثيل شعري ودعوى خالية من البيّنة بل متّك على حجة برهانية وحقيقة حقة ثابتة وهي التي تشير اليه الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بكون خلق السماوات والأرض بالحق نفي اللعب في خلقها، كما قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلّا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (الدخان / ٣٩).

فخلق السماوات والأرض على نظام ثابت لا يتغير وسنة إلهية جارية لا تختلف ولا تتخلف. والخلق والتدبير لا يختلفان حقيقة ولا ينفك أحدهما عن الآخر[1]، وإذ كان الخلق والصنع ينتهي اليه تعالى انتهاء ضرورياً ولا محيص فالتدبير أيضاً له ولا محيص وما من شيء غيره تعالى إلّا وهو مخلوقه القائم به المملوك له لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ومن المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنياً في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لا لعب فيه والجد الذي لا هزل فيه.

فلما تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولاية حق لكونه لا يملك شيئاً بحقيقة معنى الملك بل كان ذلك منه جارياً على اللعب وتفويضه تعالى أمر التدبير اليه لعباً منه تعالى وتقدّس إذ ليس إلّا فرضاً لا حقيقة له ووهماً لا واقع له وهو معنى اللعب.

ومنه يظهر أن ولاية من يدّعون ولايته ليس لها إلّا اسم الولاية من غير مسمى كما أن بيت

---

١. وذلك أن موطن التدبير الحوادث الجارية في الكون ومعناه تعقيب حادث بحادث آخر على نظم وترتيب يؤدي الى غايات حقة وحقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق والايجاد باعتبار قياس الشيء الى آخر مثله وانضمامه اليه فليس وراء الخلق والايجاد شيء منه.

العنكبوت كذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية لهم ولغيرهم لكون المنتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾الخ: لما ذكر إجمال قصص الامم وما انتهى اليه شركهم وارتكابهم الفحشاء والمنكر من الشقاء اللازم والخسران الدائم انتقل من ذلك ـ مستأنفاً للكلام ـ الى أمره ﷺ بتلاوة ما أُوحي اليه من الكتاب لكونه خير رادع عن الشرك وارتكاب الفحشاء والمنكر بما فيه من الآيات البينات التي تتضمن حججاً نيرة على الحق وتشتمل على القصص والعبر والمواعظ والتبشير والإنذار والوعد والوعيد يرتدع بتلاوة آياته تاليه ومن سمعه.

وشفعه بالأمر بإقامة الصلاة التي هي خيل العمل وعلل ذلك بقوله: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» والسياق يشهد أن المراد بهذا النهي ردع طبيعة العمل عن الفحشاء والمنكر بنحو الاقتضاء دون العلية التامة.

فلطبيعة هذا التوجه العبادي ـ إذ أتى به العبد وهو يكرره كل يوم خمس مرات ويداوم عليه وخاصة إذا زاول عليه في مجتمع صالح يؤتى فيه بمثل ما أتى به ويهتم فيه بما اهتم به ـ أن يردعه عن كل معصية كبيرة يستشنعه الذوق الديني كقتل النفس عدواناً وأكل مال اليتيم ظلماً والزنا واللواط. وعن كل ما ينكره الطبع السليم والفطرة المستقيمة ردعاً جامعاً بين التلقين والعمل.

وذلك أنه يلقنه أولاً بما فيه من الذكر الايمان بوحدانيته تعالى والرسالة وجزاء يوم الجزاء وأن يخاطب ربه بإخلاص العبادة والاستعانة به وسؤال الهداية الى صراطه المستقيم متعوذاً من غضبه ومن الضلال. ويحمله ثانياً على أن يتوجه بروحه وبدنه الى ساحة العظمة

والكبرياء ويذكر ربه بحمده والثناء عليه وتسبيحه وتكبيره ثم السلام على نفسه وأترابه وجميع الصالحين من عباد الله .

مضافاً الى حمله إياه على التطهّر من الحدث والخبث في بدنه والطهارة في لباسه والتحرُّز عن الغصب في لباسه ومكانه واستقبال بيت ربه فالانسان لو داوم على صلاته مدة يسيرة واستعمل في إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك في نفسه ملكة الارتداع عن الفحشاء والمنكر البتة . ولو أنك وكلت على نفسك من يربيها تربية صالحة تصلح بها لهذا الشأن وتتحلى بأدب العبودية لم يأمرك بأزيد مما تأمرك به الصلاة ولا روّضك بأزيد مما تروّضك به .

وقد استشكل على الآية بأنا كثيراً ما نجد من المصلين من لا يبالي ارتكاب الكبائر ولا يرتدع عن المنكرات فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر .

فإن الذي يعطيه السياق أن الأمر بإقامة الصلاة إنما علل بقوله : «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» ليفيد أن الصلاة عمل عبادي يورث إقامته صفة روحية في الإنسان تكون رادعة له عن الفحشاء والمنكر فتتنزه النفس عن الفحشاء والمنكر وتتطهر عن قذارة الذنوب والآثام .

فالمراد به التوسل الى ملكة الارتداع التي هي من آثار طبيعة الصلاة بنحو الاقتضاء لا أنها أثر بعض أفراد طبيعة الصلاة كما في الواجب الثاني ، ولا أنها أثر الاشتغال بالصلاة ما دام مشتغلاً بها كما في الجواب الثالث ، ولا أن المراد هو التوسل الى تلقّي نهي الصلاة فحسب من غير نظر الى الانتهاء عن نهيها كأنه قيل أقم الصلاة لتسمع نهيها كما في الجواب الرابع . ولا أن المراد أقم الصلاة لينهاك الذكر الذي تشتمل عليه عن الفحشاء والمنكر كما في الجواب الخامس .

فالحق في الجواب أن الردع أثر طبيعة الصلاة التي هي توجّه خاص عبادي الى الله سبحانه وهو بنحو الاقتضاء دون الاستيجاب والعلية التامة فربما تخلف عن أثرها لمقارنة بعض الموانع

التي تضعّف الذكر وتقربه من الغفلة والانصراف عن حاق الذكر فكلما قوي الذكر وكمل الحضور والخشوع وتمحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء والمنكر وكلما ضعف ضعف الأثر.

وأنت إذا تأملت حال بعض من تسمّى بالإسلام من الناس وهو تارك الصلاة وجدته يضيع بإضاعة الصلاة فريضة الصوم والحج والزكاة والخمس وعامة الواجبات الدينية ولا يفرق بين طاهر ونجس وحلال وحرام فيذهب لوجهه لا يلوي على شيء ثم إذا قست اليه حال من يأتي بأدنى مراتب الصلاة مما يسقط به التكليف، وجدته مرتدعاً عن كثير مما يقترفه تارك الصلاة غير مكترث به ثم إذا قست اليه من هو فوقه في الاهتمام بأمر الصلاة وجدته أكثر ارتداعاً منه وعلى هذا القياس.

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال الراغب في المفردات: الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للانسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلّا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه والذكر يقال اعتباراً باستحضاره. وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ولذلك قيل: الذكر ذكران ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ. وكل قول يقال له ذكر. انتهى.

والظاهر أن الأصل في معناه هو المعنى الأول وتسمية اللفظ ذكراً إنما هو لاشتماله على المعنى القلبي والذكر القلبي بالنسبة الى اللفظي كالأثر المترتب على سببه والغاية المقصودة من الفعل.

والصلاة تسمى ذكراً لاشتمالها على الأذكار القولية من تهليل وتحميد وتنزيه وهي باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنها بمجموعها تمثل لعبودية العبد لله سبحانه كما قال: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ (الجمعة / ٩). وهي باعتبار آخر أمر يترتب عليه الذكر ترتب الغاية على ذي الغاية يشير اليه قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة

لذكري﴾ (طه / ١٤).

والذكي الذي هو غاية مترتبة على الصلاة أعني الذكر القلبي بمعنى استحضار المذكور في ظرف الإدراك بعد غيبته نسياناً أو إدامة استحضاره، أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان وأعلاه كعباً وأعظمه قدراً وأثراً فإنه السعادة الأخيرة التي هيئت للانسان ومفتاح كل خير.

ثم إن الظاهر من سياق قوله: «وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» أن قوله: «ولذكر الله أكبر»متصل به مبين لأثر آخر للصلاة وهو أكبر مما بيّن قبله، فيقع قوله: «ولذكر الله أكبر» موقع الاضراب والترقي ويكون المراد الذكر القلبي الذي يترتب على الصلاة ترتب الغاية على ذي الغاية فكأنه قيل: أقم الصلاة لتردعك عن الفحشاء والمنكر بل الذي تفيده من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك أي من النهي عن الفحشاء والمنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير وهو مفتاح كل خير والنهي عن الفحشاء والمنكر بعض الخير.

ومن المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاة من الذكر أو نفس الصلاة والجملة أيضاً واقعة موقع الإضراب، والمعنى: بل الذي تشتمل عليه الصلاة من ذكر الله أو نفس الصلاة التي هي ذكر الله أكبر من هذا الأثر الذي هو النهي عن الفحشاء والمنكر لأن النهي أثر من آثارها الحسنة و «ذكر الله» هو النهي عن الفحشاء والمنكر.

وقوله: «والله يعلم ما تصنعون» أي ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه ولا تغفلوا عنه ففيه حثّ وتحريض على المراقبة وخاصة على القول الأول.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ لما أمر في قوله: «اتل ما أُوحي اليك» الخ: بالتبليغ والدعوة من طريق تلاوة الكتاب عقّبه ببيان كيفية الدعوة فنهى عن مجادلة أهل الكتاب وهم على ما يقتضيه الإطلاق

اليهود والنصارى ويلحق بهم المجوس والصابئون ـ إلّا بالمجادلة ـ التي هي أحسن المجادلة.

والمجادلة إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظاً وطعناً وإهانة. فمن حسنها أن تقارن رفقاً وليناً في القول لا يتأذى به الخصم وأن يقترب المجادل من خصمه ويدنو منه حتى يتفقا ويتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج وعناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام والاقتراب بوجه زادت حسناً على حسن فكانت أحسن.

ولهذا لما نهى عن مجادلتهم إلّا بالتي هي أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم، فإن المراد بالظلم بقرينة السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق واللين والاقتراب في المطلوب بل يتلقى حسن الجدال نوع مذلة وهوان للمجادل ويعتبره تميوهاً واحتيالاً لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجح معهم المجادلة بالأحسن.

ولهذا أيضاً عقّب الكلام ببيان كيفية الاقتراب معهم وبناء المجادلة على كلمة يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه ويتعاضدان على ظهور الحق فقال: «وقولوا آمنا بالذي أُنزل الينا وأُنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ ٱلْكِتٰابَ فَالَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ ٱلْكِتٰابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلَّا ٱلْكٰافِرُونَ﴾ أي على تلك الصفة وهي الاسلام لله وتصديق كتبه ورسله أنزلنا اليك القرآن.

وقيل: المعنى: مثل ما أنزلنا الى موسى وعيسى الكتاب أنزلنا اليك الكتاب وهو القرآن.

فقوله: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ ٱلْكِتٰابَ﴾ الخ: تفريع على نحو نزول الكتاب أي لما كان القرآن نازلاً في الاسلام لله وتصديق كتبه ورسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله وتصديق كتبه ورسله، ومن هؤلاء وهم المشركون من عبدة الأوثان من يؤمن به وما يجحد بآياتنا ولا ينكرها من أهل الكتاب وهؤلاء المشركين إلّا الكافرون وهم الساترون للحق بالباطل.

وفي قوله: ﴿وَمِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ نوع استقلال لمن آمن به من المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَمٰا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتٰابٍ وَلاٰ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتٰابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ التلاوة هي القراءة سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط، والمراد به في الآية الثاني بقرينة المقام. والخط الكتابة. والمبطلون جمع مبطل وهو الذي يأتي بالباطل من القول، ويقال أيضاً للذي يبطل الحق أن يدّعي بطلانه، والأنسب في الآية المعنى الثاني وإن جاز أن يراد المعنى الأول.

وظاهر التعبير في قوله: «وما كنت تتلو» الخ: نفي العادة أي لم يكن من عادتك أن تتلو وتخط كما يدل عليه قوله في موضع آخر: ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾ (يونس / ١٦).

وتقييد قوله: «ولا تخطه» بقوله: «بيمينك» نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل: رأيته بعيني وسمعته باذني.

والمعنى: وما كان من عادتك قبل نزول القرآن أن تقرأ كتاباً ولا كان من عادتك أن تخط كتاباً وتكتبه ـ أي ما كنت تحسن القراءة والكتابة لكونك أُمياً ـ ولو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يبطلون الحق بدعوى أنه باطل لكن لما لم تحسن القراءة والكتابة واستمرت على ذلك وعرفوك على هذه الحال لمخالطتك لهم ومعاشرتك معهم لم يبق محل ريب لهم في أمر القرآن النازل اليک أنه كلام الله تعالى وليس تلفيقاً لفّقته من كتب السابقين ونقلته من أقاصيصهم وغيرهم حتى يرتاب المبطلون ويعتذروا به.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلَّا الظّٰالِمُونَ﴾ إضراب عن مقدر يستفاد من الآية السابقة كأنه لما نفى عنه ﷺ التلاوة والخط معاً تحصّل من ذلك أن القرآن ليس بكتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدر بقوله: «بل هو ـ أي القرآن ـ آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم».

وقوله: ﴿وَمٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلَّا الظّٰالِمُونَ﴾ المراد بالظلم بقرينة المقام الظلم

لآيات الله بتكذيبها والاستكبار عن قبولها عناداً وتعنتاً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَاتُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ لما ذكر الكتاب وأمر النبي ﷺ أن يتلوه ويدعوهم اليه به وأن منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وهم الكافرون الظالمون أشار في هذه الآية والآيتين بعدها الى عدم اعتنائهم بالقرآن الذي هو آية النبوة واقتراحهم على النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات غيره والجواب عنه.

فقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضاً منهم أنه ليس بآية وزعماً منهم أن النبي يجب أن يكون ذا قوة إلهية غيبية يقوى على كل ما يريد. وفي قولهم: لولا أُنزل عليه، دون أن يقولوا: لولا يأتينا بآيات نوع سخرية كقولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ (الحجر / ٧).

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَاتُ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ جواب عن زعمهم ان من يدّعي الرسالة يدعي قوة غيبية يقدر بها على كل من أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد وكيفما شاء لا يشاركه في القدرة عليها غيره فليس الى النبي شيء إلاّ أن يشاء الله ثم زاده بياناً بقصر بشأن النبي ﷺ في الانذار فحسب بقوله: «إنما أنا نذير مبين».

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الى آخر الآية: توطئة وتمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنه ليس بآية. والاستفهام للانكار والخطاب للنبي ﷺ أي يكفيهم آية هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك وهو يتلى عليهم فيسمعونه ويعرفون مكانته من الإعجاز وهو مملوّ رحمة وتذكرة للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ إلقاء جواب الى النبي ﷺ ليجيبهم به وهو أن الله سبحانه شهيد بيني وبينكم فيما نتخاصم فيه وهو أمر الرسالة فإنه

سبحانه يشهد في كلامه الذي أنزله عليّ برسالتي وهو تعالى يعلم ما في السماوات والأرض من غير أن يجهل شيئاً وكفى بشهادته لي دليلاً على دعواي.

وليس لهم أن يقولوا إنه ليس بكلام الله لمكان تحديه مرة بعد مرة في خلال الآيات ومنه يعلم أن قوله: «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم» ليس دعوى مجردة أو كلاماً خطابياً بل هو بيان استدلالي وحجة قاطعة على ما عرفت.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الذي فيه شهادته على الرسالة وهم بكفرهم بالله الحق يؤمنون بالباطل ولذلك خسروا في إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة الى قولهم كقول متقدميهم: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، وقد حكى الله عنهم استعجالهم في قوله: ﴿ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى أُمة معدودة ليقولنّ ما يحبسه﴾ (هود / ٨).

والمراد بالأجل المسمى هو الذي قضاه لبني آدم حين أهبط آدم الى الأرض فقال: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ (البقرة / ٣٦)، وقال: ﴿ولكل أُمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (الأعراف / ٣٤).

وهذا العذاب الذي يحول بينه وبينهم الأجل المسمى هو الذي يستحقونه لمطلق أعمالهم السيئة كما قال عز من قائل: ﴿وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ (الكهف / ٥٨)، ولا ينافي ذلك تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحة على الرسول من غير إمهال وإنظار، قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذب بها الأولون﴾ (الإسراء / ٥٩).

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ يَوْمَ

يَغْشٰيهُمُ ٱلْعَذابُ ﴾ الى آخر الآية: تكرار «يستعجلونك» للدلالة على كمال جهلهم وفساد فهمهم وأن استعجالهم استعجال لأمر مؤجل لا معجل أولاً واستعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم لأنهم مجزيون بأعمالهم التي لا تفارقهم ثانياً.

والغشاوة والغشاية التغطية بنحو الإحاطة، وقوله: «يوم يغشاهم» ظرف لقوله: «محيطة» والباقي ظاهر[1].

٥٦ ● يٰا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيّايَ فَاعْبُدُونِ.

٥٧ ● كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ.

٥٨ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعامِلِينَ.

٥٩ ● الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

٦٠ ● وَكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللّٰهُ يَرْزُقُها وَإِيّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ يٰا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ توجيه للخطاب الى المؤمنين الذين وقعوا في أرض الكفر لا يقدرون على التظاهر بالدين الحق والاستنان بسنته ويدل على ذلك ذيل الآية.

وقوله: ﴿ إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ ﴾ الذي يظهر من السياق أن المراد بالأرض هذه الأرض

---

١. العنكبوت ٤١ ـ ٥٥: بحث روائي في الصلاة: احب الاعمال الى الله: الذين اوتوا العلم.

التي نعيش عليها وإضافتها الى ضمير التكلم للإشارة الى أن جميع الأرض لا فرق عنده في أن يعبد في أي قطعة منها كانت . ووسعة الأرض كناية عن أنه إن امتنع في ناحية من نواحيها أخذ الدين الحق والعمل به فهناك نواحٍ غيرها لا يمتنع فيها ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعة على أي حال .

وقوله : ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ الفاء الاولى للتفريع على سعة الأرض أي إذا كان كذلك فاعبدوني وحدي والفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام والظاهر أن تقديم « إياي » لإفادة الحصر فيكون قصر قلب والمعنى : لا تعبدوا غيري بل اعبدوني ، وقوله : « فاعبدون » قائم مقام الجزاء .

ومحصل المعنى : أن أرضي واسعة إن امتنع عليكم عبادتي في ناحية منها تسعكم لعبادتي اخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدوني وحدي ولا تعبدوا غيري فإن لم يمكنكم عبادتي في قطعة منها فهاجروا الى غيرها واعبدوني وحدي فيها .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ الآية : تأكيد للأمر السابق في قوله : « فإياي فاعبدون » وكالتوطئة لقوله الآتي : « الذين صبروا » الخ .

وقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ من الاستعارة بالكناية والمراد أن كل نفس ستموت لا محالة . والالتفات في قوله : « ثم إلينا ترجعون » من سياق التكلم وحده الى سياق التكلم مع الغير للدلالة على العظمة .

ومحصّل المعنى : أن الحياة الدنيا ليست إلّا أياماً قلائل والموت وراءه ثم الرجوع الينا للحساب فلا يصدنكم زينة الحياة الدنيا ـ وهي زينة فانية ـ عن التهيىء للقاء الله بالايمان والعمل ففيه السعادة الباقية وفي الحرمان منه هلاك مؤبد مخلد .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً ﴾ الخ : بيان لأجر الايمان والعمل الصالح بعد الموت والرجوع الى الله وفيه حثّ وترغيب

للمؤمنين على الصبر في الله والتوكل على الله . والتبوئة الانزال على وجه الاقامة . والغرف جمع غرفة وهي في الدار ، العليّة العالية .

وقد بيّن تعالى أولاً ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم سماهم عاملين إذ قال : « ونعم اجر العاملين » ثم فسر العاملين بقوله : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » فعاد بذلك الصبر والتوكل سمة خاصة للمؤمنين فدلّ بذلك كله أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر في الله وتوكل عليه . فعلى المؤمن أن يصبر في الله على كل أذى وجفوة ما يجد الى العيشة الدينية سبيلاً فإذا تعذرت عليه إقامة مراسم الدين في أرضه فليخرج وليهاجر الى أرض غيرها وليصبر على ما يصيبه من التعب والعناء في الله .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وصف للعاملين ، والصبر أعم من الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر على المعصية ، وإن كان المورد مورد الصبر عند المصيبة فهو المناسب لحال المؤمنين بمكة المأمورين بالهجرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ كأين للتكثير . وحمل الرزق هو ادخاره كما يفعله الانسان والنمل والفار والنحل من سائر الحيوان .

وفي الآية تطييب لنفس المؤمنين وتقوية لقلوبهم أنهم لو هاجروا في الله أتاهم رزقهم أينما كانوا ولا يموتون جوعاً فرازقهم رقهم دون أوطانهم . يقول : وكثير من الدواب لا رزق مدخر لها يرزقها الله ويرزقكم معاشر الآدميين الذين يدّخرون الأرزاق وهو السميع العليم .

وفي تذييل الآية بالاسمين الكريمين السميع العليم إشارة الى الحجة على مضمونها وهو أن الانسان وسائر الدواب محتاجون الى الرزق يسألون الله ذلك بلسان حاجتهم اليه والله سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه ومقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم .

٦١ ❁ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ فَأَنّىٰ يُؤْفَكُونَ.

٦٢ ❁ ٱللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ ٱللّٰهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٦٣ ❁ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْيٰا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ
بَعْدِ مَوْتِهٰا لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ.

٦٤ ❁ وَمٰا هٰذِهِ ٱلْحَيٰوٰةُ الدُّنْيٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدّٰارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ
ٱلْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ.

٦٥ ❁ فَإِذٰا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّٰا
نَجّٰاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذٰا هُمْ يُشْرِكُونَ.

٦٦ ❁ لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

٦٧ ❁ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النّٰاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ
أَفَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللّٰهِ يَكْفُرُونَ.

٦٨ ❁ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرىٰ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمّٰا
جٰاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكٰافِرِينَ.

٦٩ ❁ وَالَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَإِنَّ ٱللّٰهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ﴾.

خلق السماوات والأرض من الايجاد وتسخير الشمس والقمر ـ وذلك بتحويل حالاتهما بالطلوع والغروب والقرب والبعد من الأرض ـ من التدبير الذي يفرَّع عليه كينونة أرزاق الإنسان وسائر الحيوان وهذا الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر.

وإذا كان الله هو الخالق وبيده تدبير السماوات ويتبعه تدبير الأرض وكينونة الأرزاق كان هو الذي يجب أن يدعى للرزق وسائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الانسان الى غيره ممن لا يملك شيئاً وهو قوله: «فأنى يصرفون» أي فإذا كان الخلق وتدبير الشمس والقمر اليه تعالى فكيف يصرف هولاء الى دعوة غيره من الأصنام وعبادته.

قوله تعالى: ﴿اللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في الآية تصريح بما تلوح اليه الآية السابقة، والقدر التضييق ويقابله البسط والمراد به لازم معناه وهو التوسعة، ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: «إن الله بكلّ شيء عليم» للدلالة على تعليل الحكم، والمعنى: وهو بكل شيء عليم لأنه الله.

والمعنى: الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء ـ ولا يشاء إلّا على طبق المصلحة ـ لأنه بكل شيء عليم لأنه الله الذي هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ـ الى قوله ـ لَا يَعْقِلُونَ﴾ المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات في

الربيع .

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي أحمد الله على تمام الحجة عليهم باعترافهم بأن الله هو المدبر لأمر خلقه فلزمهم أن يعبدوه دون غيره من الأصنام وأرباب الأصنام .

وقوله: «بل أكثرهم لا يعقلون» أي لا يتدبرون الآيات ولا يحكمون العقول حتى يعرفوا الله ويميزوا الحق من الباطل فهم لا يعقلون حق التعقل .

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ اللهو ما يلهيك ويشغلك عما يهمك فالحياة الدنيا من اللهو لأنها تلهي الإنسان وتشغله بزينتها المزوقة الفانية عن الحياة الخالدة الباقية .

واللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظاماً خيالياً لغاية خيالية كملاعب الصبيان والحياة الدنيا لعب لأنها فانية سريعة البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه ويتولعون به ساعة ثم يتفرقون وسرعان ما يتفرقون .

على أن عامة المقاصد التي يتنافس فيها المتنافسون ويتكالب عليه الظالمون أُمور وهمية سرابية كالأموال والأزواج والبنين وأنواع التقدم والتصدّر والرئاسة والمولوية والخدم والأنصار وغيرها فالإنسان لا يملك شيئاً منها إلّا في ظرف الوهم والخيال .

وأما الحياة الآخرة التي يعيش فيها الإنسان بكماله الواقعي الذي اكتسبه بإيمانه وعمله الصالح فهي المهمة التي لا لهو في الاشتغال بها والجد الذي لا لعب فيها ولا لغو ولا تأثيم، والبقاء الذي لا فناء معه، واللذة التي لا ألم عندها، والسعادة التي لا شقاء دونها، فهي الحياة بحقيقة معنى الكلمة .

وهذا معنى قوله سبحانه: «وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان».

وفي الآية ـ كما ترى ـ قصر الحياة الدنيا في اللهو واللعب والإشارة اليها بهذه المفيدة

للتحقير وقصر الحياة الآخرون في الحيوان وهي الحياة وتأكيده بأدوات التأكيد كإنَّ واللام وضمير الفصل والجملة الاسمية.

وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون لعلموا أن الأمر كما وصفنا.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تفريع على ما تحصل من الآيات السابقة من شأنهم وهو أنهم يؤفكون وأن كثيراً منهم لا يعقلون أي لما كانوا يؤفكون ويصرفون عن عبادته الى عبادة غيره وأكثرهم لا يعقلون ويناقضون أنفسهم بالاعتراف والجحد فإذا ركبوا، الخ.

والركوب الاستعلاء بالجلوس على الشيء المتحرك وهو متعدّ بنفسه وتعديته في الآية بفي لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه، والمعنى: فإذا ركبوا مستقرين في الفلك أو استقروا في الفلك راكبين. ومعنى الآية ظاهر وهي تحكي عنهم تناقضاً آخر وكفراناً للنعمة.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ اللام في «ليكفروا» و «ليتمتعوا» لام الأمر وأمر الآمر بما لا يرتضيه تهديد وإنذار كقولك لمن تهدده «افعل ما شئت». قال تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ (حم السجدة / ٤٠).

واحتمل كون اللام للغاية. والمعنى: أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهي بهم الى كفران النعمة التي آتيناهم والى التمتع. وأول الوجهين أوفق لقوله في ذيل الآية: «فسوف يعلمون». ويؤيده قوله في موضع آخر: ﴿ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ (الروم / ٣٤). ولذا قرأه من قرأ «وليتمتعوا» بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ الحرم الآمن هو مكة وما حولها وقد جعله الله مأمناً بدعاء إبراهيم عليه السلام والتخطف كالخطف استلاب الشيء بسرعة واختلاسه وقد كانت العرب يومئذ تعيش في التغاور والتناهب ولا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل والسبي والنهب لكنهم يحترمون الحرم ولا

يتعرضون لمن أقام بها فيها.

والمعنى : أولم ينظروا أنا جعلنا حرماً آمناً لا يتعرض لمن فيه بقتل أو سبي أو نهب والحال أن الناس يختلسون من حلوهم خارج الحرم.

وقوله : ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة وهي نعمة عظيمة بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام وهي باطلة ليس لها إلّا الاسم.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ تهديد لهم بالناس بتوسيمهم بأشد الظلم وأعظمه وهو افتراء الكذب على الله بالقول بالآلهة وأن الله اتخذهم شركاء لنفسه، وتكذيب الإنسان بالحق لما جاءه والوصفان جميعاً موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام وكذّبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كافرون ومثوى الكافرين ومحل إقامتهم في الآخرة جهنم.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الجهد الوسع والطاقة والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس كذا ذكره الراغب.

وقوله : ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي استقر جهادهم فينا وهو استعارة كنائية عن كون جهده مبذولاً فيما يتعلق به تعالى من اعتقاده وعمل، فلا ينصرف عن الإيمان به والإئتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه بصارف يصرفه.

وقوله : ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أثبت لنفسه سبلاً وهي أياماً كانت تنتهي اليه تعالى فإنما السبيل سبيل لتأديته الى ذي السبيل وهو غايتها فسبله هي الطرق المقربة منه والهادية اليه تعالى، وإذ كانت نفس المجاهدة من الهداية كانت الهداية الى السبل هداية على هداية فتنطبق على مثل قوله تعالى : ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ (محمد / ١٧).

ومما تقدم يظهر أن لا حاجة في قوله: «فينا» الى تقدير مضاف كشأن والتقدير في شأننا.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قيل: أي معية النصرة والمعونة وتقدم الجهاد المحتاج اليها قرينة قوية على إرادة ذلك. انتهى. وهو وجه حسن وأحسن منه أن يفسر بمعية الرحمة والعناية فيشمل معية النصرة والمعونة وغيرهما من أقسام العنايات التي له سبحانه بالمحسنين من عباده لكمال عنايته بهم وشمول رحمته لهم، وهذه المعية أخص من معية الوجود الذي ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ (الحديد / ٤).

وقد تقدمت الإشارة الى أن الآية خاتمة للسورة منعطفة على فاتحتها.